معالم تاريخ الإنسانية

الجزء الرابع

هـ. ج. ولز

معالم تاريخ الإنسانية

الألف كتاب الثاني

الإشراف العام

د. سمير سرحان

رئيس مجلس الإدارة

رئيس التحرير

لمعي المطيعي

مدير التحرير

أحمد صليحة

الإشراف الفني

محمد قطب

الإخراج الفني

علياء أبو شادي

لجنة التأليف والترجمة والنشر

H. G. WELLS.

هـ . ج . ولز

معالم تاريخ الإنسانية

ترجمة

عبد العزيز توفيق جاويد

المجلد الرابع

في التـــاريخ الحديث

(١٦٠٠ — ١٩٦٥)



الهيئة المصرية العامة للكتاب

١٩٩٤

هذه ترجمة لكتاب

The Outline of History

Being A Plain History of Life and Mankind

By

H. G. WELLS.

محتويات الكتاب

الكتاب الثامن

عصر الدول العظمى

صفحة

فهرس الصور والخرائط

كلمة المترجم

اليوم وقد استوت « المعالم » كتاباً عربياً ، يلتفت إلينا ولز نحن معشر العرب من بين أطباق السماوات العلى التى تسكنها روحه بين العباقرة والنابغين ، ويهيب بنا « هاؤم اقرءوا كتابيه » .

واليوم يتردد صوته فى أجوائنا التى خفت فيها كل صوت نبيل منذ قرون الإسلام الأولى ، يتردد جهيراً مدوياً كأنه النفخ فى الصور « إنى لسعيد إذ أديت نحو الإنسانية واجبى ، وبذلت لها دعوتى ، ورضيت لها مذهبى وفكرتى » .

واليوم يحق لولز أن تبوئه البشرية مكاناً علياً ، وأن تضمه بين أبنائها المخلصين وأفذاذها الخالدين . فقد قضى نصف عمره فى الحدب عليها والمنافحة عن مصالحها والدعوة إلى صلاح أمرها وتمحيض النصح لها .

واليوم يستطيع ولز أن يسامى الهداة الملهمين بأنه ظل يحمل مشعل رسالته مضيئاً ذاكياً وهّاجاً نصف قرن كامل من الزمان . وهى فترة لم تتح فى العصر الحديث لصاحب دعوة ولم تتهيأ لمرشد ذى رسالة .

واليوم يستطيع القارئ أن يستعرض مع ولز مشاهد الحياة منذ هوادى بواكيرها ومستهل تباشيرها ، إذ هى هزة نشأت بإذن العلى القاهر فى ذلك الماء الذى جعل منه كل شىء حى ، هزة لايكاد يقوم لها أثر ولكنها الأثر كل الأثر ، هزة ما زالت الأيام ترعاها والليالى تهدهدها حتى تمثلت على طول الحقب بشراً سوياً . ذلكم هو الكائن الذى حارت البرية فيه ، والذى هو حيوان مستحدث من جماد كما يقول شيخ المعرة ، هذا الكائن الضعيف بقوته القوى بحكمته الثائر بغريزته المتمرد الجبار بطبيعته القابل للصلاح بفطرته ، هو منذ خليقته مصدر للشغب ومثار للفتن . بسببه فسق الشيطان عن أمر ربه فغوى . وحل بالأرض فأفسد فيها وسفك فيها الدماء وكانت من قبله مطهرة من كل رجس ، ولم يزل هذا دأبه حتى يومنا هذا ، تفتنه هوائجه ويزين له حب شهواته ، والله فى عليائه يرسل له رسله وأنبياءه فما كف عن غيه ولا أقلع .

واليوم من لنا بمن يشهد روحه النبيلة أننا أخذنا بدعوته ، وأيقنا أن التاريخ وحدة واحدة ، وأن ركب الحضارة نهر واحد متدارك اللجات متلاحق الفيضات ، وأنه إن هدأ

يوماً أو ألم به شيء من التغيير فلابد أن يتدفق في تياره ويعود سيرته من جريان وتلاطم واصطخاب ، وأن البشرية على مر العصور كتلة واحدة متحركة دائماً إلى الأمام في حركة واحدة تجمعها جميعاً وتضم شملها فى عالمنا العصرى الذى أصبح بعضه إلى بعض أقرب من حبل الوريد .

* * *

والعصر الذى يستهل به كتابنا هذا كان ، كما يقول بعض أفذاذ الزمان ، أمثل الأزمان وأسوأها ، وأحكمها وأحمقها ، وأشدها نوراً وأشدها حلوكة . كان عصر الإيمان وعصر الكفر والإلحاد ؛ وكان ينطوى على ربيع الأمل والرجاء وخريف اليأس والقنوط ؛ وكان عصر ملكية عظمى باغية وكثرة عظمى مهيضة ؛ عصر رقى بلغ الذروة وجهل أنزل الناس إلى الحضيض ؛ وكان دهر عز شامخ واستبداد داس كرامة الإنسان بالنعال ؛ يوم كان صاحب الدِّين يلاحق أخاه ليدخله فى دينه وإلا فله الموت والعذاب ؛ ويوم كان الغَنِيّ العزيز يعفى من الضرائب والتبعات ويبهظ بها الفقير الجائع تمد بصرك فتجد فى مكان كل شيء وتسرح الفكر فتجد إلى جواره لا شيء .

وجاءت الثورة الفرنسية لأن ذئب الإرستقراطية كان ينهش كلب العامة ، فما كاد الكلب ينتصر ويقطع رأس الذئب وذنبه ، حتى انقلب هو كذلك ذئباً أشد ما يكون عواء وإزعاجاً ولعلعة بلسانه وولوغا به فى دماء الأبرياء .

وأين مبادىء الثورة الفرنسية ؟ أين الإخاء والحرية والمساواة ؟ لقد ذهبت فى أطباق الهواء هباء وراحت طرائق قددا .

وهذه مغاليق قوى الطبيعة تتفتح منذ أوليات القرن التاسع عشر ، إذ أخذ عقل ذلك الجبار يتسلل إليها رويداً رويداً . فعرف كيف يستذل البخار ، ولم يلبث أن جعله مطية ذلولا وعسيفاً ذليلا . وانتقل منه إلى عناصر الطبيعة عنصراً بعد عنصر يدرسها ويتحكم فيها ويستبد بها ، حتى أصبح يفعل بها ما يشاء ويستخدمها أنَّى شاء .

وأبطره العلم حتى زعم أن ليس فوقه عليم ، واستهوته المادة حتى أنسى الروح وما لها من قيام معلوم ، ولج به الطغيان فبغى فى الأرض يستعبد أهلها ويتخذ بعضهم شيعاً . وسلط على أخيه الإنسان مناجل الفناء ، وأخذ يستغله استغلال السوائم يمتلك منه وطنه ويستأثر بخيراته دونه بعد أن يفدحه عملا ، ويحرم عليه نعمة التمتع بما وهبه

الله لكافة مخلوقاته من حرية . لأن داعي الاستعمار قد أصمه عن كل ضمير وأعماه .

واحتاج العلم إلى مواد الطبيعة يصنعها ويبدعها ، فإذا استوت سلعة مصنوعة استوجبت سوقاً يتلقفها . وبشمت أوربا بما أنتجته لها دواليب المصانع فخرجت تهرول تلتمس مشترياً . وتحول الشراء والبيع فى أقطار الشرق المنكودة من السلع إلى الشعوب ، فحيثما حل الأوربي فثم الاستعمار البغيض . وتلفتت دول أوربا بعضها إلى بعض ، فإذا بعضها قد سبق وأرسى أسسه ووطد فى أقطار العالم أقدامه ، وإذا بعضها الآخر قد تخلف . وثار فى النفوس ما ركب فيها من جشع . فالسابق يريد أن يستأثر ، واللاحق يبتغي لقمة يسد بها جوعته . فأما من عدا الأوربيين فتعسا لهم وثبوراً .

فهذا الأسود المسكين وذاك الأصفر أو النحاسي المنكود ! ما بالهم ينظر إليهم الأبيض كأنهم من حثالة السوائم ، أو من خشاش الأرض ؟ وفيم الضن بالعلم عليهم والاستئثار به دونهم حتى لا يقووا به فينازعوه سيادته التي زعم أن الله آثره بها وحده ؟

وهذه بريطانيا لماذا تثب على مصر فتحرمها نعمة الحرية بذريعة واهية ؛ والله يعلم والناس يعلمون أن الحقيقة غير الذريعة ، وأن الهدف إن هو إلا فتح السوق ، وقطع الطريق ، والاستئثار بما فى البلاد من خير وثمار

وكيف يكون النفط فى أرض إيران ومالكته الحكومة البريطانية مستخفية من وراء تلكم الشركات ، وما هي بشركات ولكنها خدع وذر للرماد فى العيون .

والإنسان لاجرم يطغى أن رآه تقوّى فيعود بهذه القوة على إخوانه من بني الإنسان حرباً يهزمه فيها ويفتك به . ولا يطيق المغلوب على الهزيمة صبراً ، فهو يترصد الغالب ويتربص به الدوائر ، ويعد له معدات الفتك والفناء ، ويستخدم له ما استطاع من وسائل العلم والعلماء ، ثم ينفجر بها حرباً ضروساً عاتية ، يريد أن يجعلها للأولى الجولة الثانية ، ولم يدر أنه هدم الكون على أعدائه ونفسه وسعى بيديه إلى حفر رمسه ، فإذا انقضت الجولة الثانية كرست جهود العالم للثالثة وأعد لها من المبيدات والمهلكات ما لا يتصوره عقل ، وما كان يعد قبل ذلك من بعيد الخيالات . وانقسم العالم كدأبه فإذا هو محور وديموقراطية ، ثم أخذ الطرفان بعضهما بتلابيب بعض ، هذا ينسف وذاك يدك ويقصف ، حتى استلقت البشرية بأجمعها جريحة مهيضة ضعيفة دامية ، قد نزفت من الدماء ما لاقبل للأيام برده ، وأزهقت من الأرواح شباباً ما كان أجدره

بأن يحيا ليسعد بالحياة ، وما كان أشد حاجة العالم إلى سواعده الفتية فى البناء والتعمير لا فى الفتك والتخريب .

والمالية والملكية والنقود ، ما خطبهن وما بال آثارهن عميقة فى حياة الفرد والجماعة ؟ وما بالهن ينتجن المشاكل الاجتماعيـة والمذاهب الاقتصادية المتناحرة والمعسكرات الشيوعية والرأسمالية المتقاتلة ؟ وما بالهن يحيرن الإنسان ويبلبلن فكره ويذهبن به كل مذهب ؟ وهل من سبيل إلى علاج لدائهن الوبيل ؟

* * *

ألا إن البشرية أصبحت مخيرة بين أمرين فإما أن تأتلف فتعيش أو تختلف فتهلك .

على البشرية أن تأتلف مكونة حكومة اتحادية للعالم أجمع ليس فيها قوى ولا ضعيف ولا استعمار ولا مستعمرات ، بل تكون كلها الولايات العالمية المتحدة ، كل دولة لها حكومتها وإدارتها الداخلية ، وكل دولة منهن خاضعة لتلك الحكومة المركزية التى وظيفتها التصدير والتوريد ، وضبط النظام فى البر والبحر والجو ، وإرساء أسس الديموقراطية الصحيحة ، والاطمئنان على احترام روح الدساتير وإجراء الانتخابات البرلمانية النزيهة وإنتاج المجالس النيابية الممثلة للشعوب أصدق تمثيل ، وتعليم أفراد العالم قاطبة إلى مستوى موحد عام من العلم .

ألا وإن على البشرية أن تتناسى أحقادها القديمة وتعصباتها الدينية والعنصرية ، وأن يشعر الجميع أنهم أبناء قرية واحدة كبرى هى هذه الدنيا التى عليها نعيش ، فما اختلاف الألوان ولا الأديان بعيب فى طبيعتها جميعاً ، ولكن العيب فى الناس وفيما يذهب إليه الناس من مذاهب تنطوى على الغل والحقد أو التجبر والتحكم ، فالناس جميعاً إخوان ، والدين بالفطرة خير ، فكيف ينجم عن الخير الشر ؟

إن ولز يقف من كل ذلك موقف المحب المحذر لا موقف المتطير المنذر ، فإن حافزه حب لا تشاؤم ، ولذا فهو يهدى الناس بوعى وقوة وحمية وإخلاص هى السر فيما أوتى من بعد الصيت ونباهة الذكر فى الناس .

إن ولز هو بشير الإصلاح إلى هذه البشرية المادية . يريد أن يأخذ بيدها إلى قديم الروحانية وأن يدعوها إلى التخلى عن ذميم الأخلاق وإلى الاستمساك بكريم المبادئ الخلقية . فالمادية إذا طغت ولدت حرباً ، والروحانية إذا سادت خلقت على الأرض

محبة وسلاماً ، وحولتها من دار للشقاء إلى دار نعيم ووئام ، وأعادت إلى الإنسانية فردوسها المفقود ، وسعادتها الضائعة ، وسلامها المنشود .

ومن عجب أن ولز لا يترك علماً ولا فناً ولا تقدماً ولا أدباً إلا أرخ له وكتب عنه ، ولا حادثة ذات أثر فى تاريخ البشرية ولا ملكاً أو عظيماً خلد اسمه فى ذاكرة البشر إلا نوه به ناسجاً ذلك كله بهذه المبادىء الإنسانية الرفيعة ومنتجاً منها وشياً رائع النقش أخاذ الإبداع .

فأنت لا تقف فى إعجابك به عند حد ، ولا تلبث حتى تقتنع بوجهة نظره وإخلاصه ، ثم أنت حين تقرأ كتابه وتنعم فيه النظر وتتدبر ما فيه من آيات ، تشعر بأن من المحزن حقاً أن عظماء الدول وأصحاب الرأى فيها لم يأخذوا إلا مؤخراً جداً بهذه المبادىء النبيلة التى دعت إليها الأديان السماوية قديماً والتى يبثها ولز فى كل سطر من سطور كتابه . ولكن حسبك عزاء أن ميثاق الأطلسى الذى أصدره روزفلت وميثاق سان فرانسسكو وحقوق الإنسان تكاد تكون الثمرة المباشرة لتعاليم ولز فى هذا الكتاب وغيره .

ولا يذهبن عن فطنة القارىء أن ولز كاتب عميق عويص ، يعبر عن فكر عميق عويص ، لذلك نرجو أن يتدبر كل فقرة من فقرات ولز ، وأن يزن بفكره كل كلمة يقرؤها فيه ، لأنه مثقف يكتب لكل مثقف مثله . وأنت أيها القارىء ــ مهما تكن مهنتك أو مزاجك فى الحياة ــ واجد فى هذا الكتاب ما يروقك بل ما يروعك ، وواجد فيه حيثما تصفحت فائدة فكرية تعود عليك وواجد أنك كلما أمعنت فيه نظراً زدت منه أثراً .

فمن زعم أنه لن يجد التاريخ نقياً صافياً ، منزهاً من كل دخل ، مبرئاً من كل هوى ، مصفى من كل تحيز فليمدد بسبب إلى سماء « المعالم » ؛ ومن كان يريد خلاصة وافية لثقافة الدهور يضمها إلى ثقافته ويزيدها بها صقالا فلينهل من مناهل ولز العذبة ؛ ومن كان يريد أن يتعلم كيف يكون مواطناً حراً ذا رأى فى إدارة شئون بلاده فليفد من ولز ؛ ومن كان من رجال السياسة يريد أن يتعلم نزاهة الحكم ، وصراحة العمل ، واحترام رأى الأغلبية ، وتقديس الدساتير ، والتخلى عن المكيافلية البغيضة والدس والتآمر ــ فليتخذ من ولز رائده وهاديه .

وما أبدع أن تجلس إليه جلسة المستبد الخاشع من أستاذه العظيم ، لكي تخرج بعد ذلك مثقفاً ناصع العقل ، ومواطناً بالعالم رحب الأفق فسيح النظرة ، عديم التعصب ، عارفاً بحقك وكرامتك مؤدياً لواجبك ومؤمناً بالديموقراطية .

وبعد فإذا لقي القارئ بعض العسر في استيعاب ولز ومتابعة عميق أفكاره فليصبر وليصابر فإن ما سيبذله في ذلك من جهد واصطبار ثمن قليل لما سيجنيه من التزكي بثمرات ذلك العقل الملهم الفياض .

مصر الجديدة في { ٩ أبريل ١٩٥٢ / ١٤ رجب ١٣٧١ }

عبد العزيز توفيق جاويد

كلمة المترجم للطبعة الثانية

عندما صدرت الطبعة الأولى من هذا الكتاب لقيت استجابة جميلة من جمهور القراء من عشاق أدب ولز وثقافته ورسالته الإنسانية ، وكان رواج الكتاب في الأقطار الشقيقة أعظم منه في مصر بلدنا العزيز ، وهو أمر عجبت له كثيراً وأسفت له أكثر ، ويوم صدرت الطبعة الأولى من الكتاب كان فيه من المفاهيم والتعبيرات التقدمية ما أعتقد أنه كان ولا جرم سابقاً لأوانه ففيه مثلا : التطور والتطوير . والتنمية والتخطيط ، والتأميم والحكم المحلى ، ووحدة البشرية والدولة العالمية المتحدة ، إلى غير ذلك مما كان بعض الناس فى العالم أجمع يرفضونه بوصفه من شطحات الخيال أو على الأقل يناقضونه أو لا يسيغونه فى أبسط الظروف .

ولكن الأيام حققت معظم نبوءات ولز بعد أن ظل زميله ومعاصره برنارد شو نفسه يسخر منه ومنها أكثر من نصف قرن . وها هى ذى الإنسانية تشهد اليوم من الحقائق ما كان يعد وهما بعيدا فى ١٩٣٠ . فقد انحسر الاستعمار عن إفريقيا بعد أن ركز نفسه فيها واطمأن عند طرده من آسيا ، أنه واجد فيها الأرض الخصبة البكر التى يرتع فيها ويمرح . وأخذت جميع الشعوب تؤمن بنفسها وتؤمن من ثم بحقوقها ؛ فتتخذ الديموقراطية أساساً والاشتراكية منهجاً والمساواة بين الطبقات دعامة وتوزيع العلم على الجميع والاعتماد عليه فى رفع مستوى المعيشة ركازاً والنهوض باقتصاد الأمة مبدأ وعقيدة . وأخذت المصالح تجمع الأمم فى اتجاهات إن كانت ضيقة الأفق الآن وكانت الأغراض منها غير كريمة فى بعض الحين ، فقد أخذ هذان العيبان يزايلانها إلى حد كبير . فهناك السوق الأوربية (وهى مثل سيئ) وتهدف إلى ما وراءها من الوحدة الأوربية المنشودة . وهناك وحدة أفريقيا التى بدت نواتها على يد المؤتمر الأفريقى . وهى لن تلبث حتى تجمع بين دولها فى الحكومات بعد أن قربت بين أممها الأمانى والآلام وجمعت بينها فى الأهداف والخطط السياسية . وهناك وحدة العرب التى التأمت على يد الرئيس جمال عبد الناصر . وهناك الدعوة إلى منع الحرب وإلى الحياد الإيجابى وعدم الانحياز التى تتزعمها جمهوريتنا الفتية وتسابق فى عقد مؤتمراتها . إلى غير ذلك مما يجده القارئ موضحاً فى هذا الكتاب كدعوة ومتسلفاً كنبوءة وممثلا فى جو الحياة كحقيقة .

وقد نقحت هذه الطبعة تنقيحاً شاملا فضلا عن أنها ضبطت على أحدث طبعات الكتاب فى الإنجليزية (١٩٥٦) . وهى الطبعة التى قال فى مقدمتها المستر رايموند بوستجيت الذى تولى إصدارها إنه جمع فيها كل المواد التى أعدها المؤلف لضمها إلى طبعة حديثة ، كان المؤلف نفسه يزمع إصدارها جامعة لتعقيباته على أحداث أربعينات القرن . وكان تاريخ صدور الطبعة التى نقلتها إلى العربية (١٩٣٧) فكأنها لم تكن تحتوى على أحداث الحرب العظمى الثانية ، الأمر الذى ألجأنى إلى أن أنتهج نفس السبيل التى سلكها المستر رايموند بوستجيت حيث نقلت تاريخ تلك الحرب عن كتاب « موجز تاريخ العالم » الذى أصدر المؤلف نفسه طبعة منه قبيل وفاته . كما أكملت ما فى تلك الطبعة من نقص بما نقلته عن المؤلف نفسه وبذلك استكملت تاريخ الحرب العالمية الثانية ، ومن ثم فإن الوضع الجديد لآخر طبعات الكتاب الإنجليزية اقتضى تعديل جميع الأجزاء الأخيرة من الكتاب مرة ثانية . فتعدل الفصل ٣٩ وأضيف الفصل الأربعون وألغى ذيل الكتاب القديم .

وكدأبى فى الطبعة الثانية من أجزاء هذا الكتاب ذيلته بكشاف أبجدى وأضفت إليه من الصور والخرائط ما اقتضته ظروف الحرب الثانية .

وإنى لأشكر للسادة أعضاء لجنة التأليف والترجمة والنشر جميل عنايتهم بهذا الكتاب الذى يمثل الثقافة الرفيعة والفكر التقدمى الكريم ولا يسعنى إلا أن أبذل الشكر جزيلا عاطراً إلى الأستاذ الكبير محمد فريد أبو حديد على عنايته الكريمة بفحص هذه الطبعة وإسداء التوجيهات المرشدة . وإذ أختم كلمتى هذه أؤكد للقارئ أنى أفدت من نقل الكتاب فائدة ثقافية وفكرية ومذهبية اشتراكية ديمقراطية ، أرجو أن تعود على كل من يطلع عليه من أبناء الضاد .

كما أننى أشهد القارئ أننى أفارق ولن فراق الآسف راجياً أن يمد الله فى الأجل حتى أرى رسالته قد تحققت ودعوته قد آمن بها الناس جميعاً وحتى أستطيع أن أظهر الطبعة الثالثة من الكتاب فى مجلد واحد يستعرض به القارئ موكب الحضارة الإنسانية متكاملة بين دفتى سفر محدود .

والله الموفق للسداد

ع . ث . ج .

مصر الجديدة فى ١٤ يناير ١٩٦٥

الكتاب الثامن

عصر الدول العظمى

الفصل الرابع والثلاثون

أمراء وبرلمانات ودول

---

١ – الأمراء والسياسة الخارجية

تتبعنا فى الفصل السابق بزوغ فجر مدنية جديدة ، هى المدنية ذات الطابع الحديث التى أصبحت فى العصر الحالى تعم العالم أجمع . وهى لا تزال إلى الآن شيئاً ضخماً لم تستو له قسمات ، ولم تتخط فى يومنا هذا بواكير أدوار النمو والتطور . وشهدنا فكرتى العصور الوسطى عن الإمبراطورية الرومانية المقدسة وعن الكنيسة الكاثوليكية – بوصفهما صورتين للقانون والنظام العام – تذويان – عند مستهل ذلك الفجر . وهما إنما تزولان من الوجود بحكم نوع من الضرورة قضت بذلك حتى يتهيأ للناس معاودة صوغ الفكرات الداعية إلى قيام قانون واحد ونظام واحد صوغاً جديداً يشمل العالم برمته . وبينما كان التقدم يلم بكل ميدان من ميادين المصالح الإنسانية الأخرى ، جاء زمان أدى فيه زوال هاتين الفكرتين السياسيتين العامتين وهما الكنيسة والإمبراطورية ، إلى

تدلى الأوضاع السياسية إلى مجرد الملكية الاستبدادية المطلقة وإلى القومية الملكية ذات الطراز المقدونى .

وجاءت فترة توقف فيها بالفعل تماسك الروابط الإنسانية ، وهى طور من تلك الأطوار التى كان يسميها كتاب الحوليات[1] من الصينيين « عصور الاضطراب » . ولبثت فترة التوقف هذه أمداً يعادل المدة الممتدة بين سقوط الدولة الرومانية الغربية وبين تتويج شرلمان فى روما . وما زلنا حتى اليوم نعيش فى ظلالها ولعلها أشفت على نهايتها . وأقول « لعلها » لأننا لانستطيع حتى الآن أن نجزم بذلك . وكانت الأفكار المسيطرة القديمة قد تحطمت ، وظهر خليط من المشروعات والمقترحات الجديدة غير المجربة أخذ يبلبل عقول الناس وأفعالهم ، لذا اضطر العالم فى الوقت نفسه أن يرتد على عقبيه فيطلب الزعامة على أساس التقاليد القديمة : تقاليد الأمير الفرد . ذلك أن الناس لم يكن أمامهم من محجة بينة المعالم يستطيعون أن يضربوا فيها بقدم ، وكان الأمير بين أيديهم .

شهدت خاتمة القرن السادس عشر أرجاء العالم كافة ، وقد سادتها الملكية التى تنزع إلى الحكم المطلق . فكانت ألمانيا وإيطاليا مقسمتين إلى رقاع صغيرة من الإمارات الاستبدادية (الأوتوقراطية) . وكان الحكم فى أسبانيا استبداديا بالفعل . ولم يصل العرش يوماً فى إنجلترة إلى مثل قوته آنذاك ، حتى إذا تقدم القرن السابع عشر كانت الملكية الفرنسية قد أصبحت على الأيام أعظم دولة فى أوربا وأشدها تماسكا . وما نحن بقادرين على أن نسجل هاهنا أطوار رفعتها وما مر بها من تقلبات .

وكانت تحتشد فى كل بلاط زمر من الوزراء يلعبون دوراً مكيافلياً ضد منافسيهم فى الدول الأخرى . والسياسة الخارجية هى الوظيفة الطبيعية للبلاط والملك . ويكاد وزراء الخارجية يكونون أهم الشخصيات البارزة الزعيمة فى تاريخ القرنين السابع عشر والثامن عشر كله . وهم الذين دأبوا على إلقاء أوربا فى أتون حُمَّى من الحروب .

---

(١) كتاب الحوليات (Annelists) هم الذين يدونون التسجيلات السنوية للأحداث .
(المترجم)

وكانت نفقات الحروب فى ازدياد باهظ ، فلم تعد الجيوش بعد مكونة من مجندين غير مدربين ولم تعد جموعاً من فرسان الإقطاع يجلبون معهم خيلهم وسلاحهم وأتباعهم ، بل أخذت تشتد حاجة هذه الجيوش إلى المدفعية ؛ وأصبحت تتكون من جنود يتناولون أجوراً يلحون فى طلبها ؛ كانوا جنوداً محترفين متأنين حذاقاً ، يقومون بالحصارات الطويلة ، ويحتمون إقامة التحصينات المحكمة . فزادت نفقات الحرب فى كل مكان واستدعت الزيادة المستمرة فى فرض الضرائب .

وهنا حدث أن اشتبكت هذه الملكيات ، ملكيات القرنين السادس عشر والسابع عشر – فى نزاع بينها وبين قوى للحرية جديدة غير مكتملة النضج فى المجتمع . إذ تلفت الأمراء حولهم فوجدوا أنفسهم لا يتحكمون فى حياة رعاياهم ولا أموالهم . بل وجدوا مقاومة مزعجة للضرائب التى كانت ضرورية لا مندوحة عنها إذا شاءوا لاعتداءاتهم ومحالفاتهم السياسية أن تتواصل . وأصبحت الشئون المالية شبحاً كريهاً فى كل قاعة يجتمع فيها مجلس . وكان العاهل من الوجهة النظرية هو المالك لبلاده . فقد أعلن چيمس الأول ملك انجلترة (١٦٠٣) أنه « لما كان من الكفر والتجديف أن يعترض الناس على قدرة الله ، فإن من الوقاحة والاحتقار الكبير أن يعترض أحد الرعايا على ما يستطيع الملك فعله ، أو أن يقول إن ملكا لا يستطيع أن يفعل هذه أو تلك » .

ولكنه وجد فى الواقع – كما قُدر لولده شارل الأول (١٦٢٥) أن يجد بصورة أقوى أثراً مما وجد أبوه – أن فى ملكه عدداً كبيراً من أصحاب الأرض والتجار ، وهم أشخاص لهم وزنهم ولهم ذكاؤهم ، قد رسموا حداً محدوداً لمطالب الملك ووزرائه ومقتضياتهم . كانوا على استعداد للرضا بحكمه إذا مُكّنوا هم أنفسهم أن يكونوا ملوكاً وأقيالا لأراضيهم وأعمالهم وتجاراتهم وما إلى هذا بسبيل . ولكنهم لا يقبلون عدا ذلك شيئاً .

وكان هناك تطور مماثل لهذا فى كل أرجاء أوربا . فمن دون الملوك والأمراء كان هؤلاء الأقيال الصغار ، وأعنى بهم أصحاب الأملاك والنبلاء والمواطنين (المادنيين) الأغنياء ومن إليهم ، الذين كانوا يظهرون آنذاك لمولاهم الأمير نفس المقاومة التى

أبداها ملوك ألمانيا وأمراؤها للإمبراطور . وكانوا يرمون إلى تحديد الضرائب بقدر ما كانت تضغط على أشخاصهم ، وأن يكونوا أحراراً فى ديارهم وضياعهم . وكان من أثر انتشار الكتب والقراءة وازدياد الاتصال بين الناس ، أن تمكن هؤلاء الأقيال الصغار ، أقيال الأملاك والتجارة من إنشاء مجتمع فكرى متطور ودعم أركان المقاومة فيه بصورة لم يكن لها نظير فى أية مرحلة من المراحل التى مرت بتاريخ الإنسانية كله . كانوا نزاعين فى كل مكان أن يقاوموا الأمير ، ولكنهم لم يجدوا فى كل بقعة نفس اليسر فى المقاومة المنظمة . فإن الظروف الاقتصادية والتقاليد السياسية فى الأراضى المنخفضة وإنجلترة جعلت هذين القطرين أول من جعل الخصومة بين العاهل والمالك موضع البحث للوصول إلى حل ناجع لها .

وفى بادئ الأمر كان « جمهور » القرن السابع عشر هذا ، جمهور أصحاب الأملاك ، قليل الاحتفال بالسياسة الخارجية . ذلك أنهم لم يستشعروا أول الأمر كيف أنها تؤثر فيهم . فلم يريدوا أن يشغلوا أنفسهم بها فقد سلموا بأنها شئون الأمراء والملوك . ومن ثم لم يحاولوا قط التحكم فى معقدات السياسة الخارجية ، ولكن حدث أنهم اشتبكوا مع النتائج المباشرة لهذه المعقدات . فقد اعترضوا على الضرائب الفادحة ، وعلى التدخل فى شئون التجارة ، وعلى الحبس التعسفى ، وعلى تحكم الملك فى الضمائر . وعلى أساس هذه المسائل نزلوا حومة الكفاح ضد التاج .

٢ ــ الجمهورية الهولندية

كان انفصال الأراضى المنخفضة عن الملكية المطلقة بداية سلسلة من تلك المنازعات التى استعرت طوال القرنين السادس عشر والسابع عشر . بيد أنها كانت تختلف فى تفاصيلها اختلافاً بالغاً تبعاً للخصائص المحلية والعنصرية ، ولكنها كانت كلها من حيث الجوهر تمرداً على السلطان الشخصى « للأمير » وعلى توجيهه السياسى والدينى .

كانت منطقة الراين الأدنى بأكملها مقسمة فى القرن الثانى عشر بين عدد من

صغار الحكام ، وكان السكان من أرومة ألمانية دنيا (Low German)[1] من دونها أساس كلتىّ قديم ، وتخالطهم عناصر دانيمركية متأخرة عهداً شديدة الشبه بما فى بلاد الإنجليز من خليط . وكان الإفريز الجنوبى الشرقى لهذا الإقليم ينطق بلهجات فرنسية ؛ على حين تنطق كتلة السكان بلغات فريزية وهولندية ولغات ألمانية دنيا أخرى . ولقد ظهرت الأراضى المنخفضة ظهوراً كبيراً فى الحروب الصليبية . فإن جود فرى البويونى (of Bouillon) الذى استولى على بيت المقدس (فى الحملة الصليبية الأولى) كان بلچيكياً . كما أن مؤسس ما يسمى بالأسرة اللاتينية فى القسطنطينية (الحملة الصليبية الرابعة) هو بالدوين أمير فلاندرا . (وإن أطلق عليهم اسم الأباطرة اللاتينيين ، لأنهم كانوا يظاهرون الكنيسة اللاتينية) .

ونمت مدن ضخمة فى الأراضى المنخفضة إبان القرنين الرابع عشر والخامس عشر : منها غنت وبروج وإيبرْ وأُترخت ولَيْدِن وهارلْم وما إليها . وتطورت فى هذه المدن « حكومات مجالس بلدية » شبه مستقلة وطبقة من رجال المدن المتعلمين . ولن نشغل القارئ بما سنح بين الأسرات المالكة من صدف ربطت شئون الأراضى المنخفضة ببورغنديا (فرنسا الشرقية) ، وانتهت إلى انتقال السلطان الأعلى عليها إلى ميراث الإمبراطور شارل الخامس .

وفى عهد شارل انتشرت إلى الأراضى المنخفضة المبادئ البروتستانتية التى كانت عند ذاك تعم ألمانيا . واضطهد شارل الناس فى شىء من الشدة ، ولكنه ما لبث فى (١٥٥٦) ، كما أسلفنا أن ترك الأمر إلى ولده فيليب (فيليب الثانى) . وسرعان ما أصبحت سياسة فيليب الخارجية الناشطة — وقد كان مشتبكا بحرب مع فرنسا — مصدر شر آخر بينه وبين نبلاء الأراضى المنخفضة وأهل مدنها ، لأنه اضطر أن يلجأ إليهم طالباً المعونة . فنصب النبلاء العظام أنفسهم على رأس مقاومة شعبية عامة ، يقودهم وليم الصامت ، أمير أورانج ، وكونتا إجمونت وهورن ، وصار يستحيل فيها التفريق بين الاعتراض على فرض الضرائب والاعتراض على الاضطهاد

---

(١) راجع ص ١٤٠ ج ١ من المعالم ط ٢ . والأورمة الألمانية الدنيا هى التى كانت تسكن سهل ألمانيا الشمالى المنخفض ولغتهم تسمى باللهجة الألمانية الدنيا . (المترجم)

الدينى . وفى أول الأمر لم يكن النبلاء العظام من البروتستانت ، ولكنهم اعتنقوا ذلك المذهب عندما اشتدت حدة النزاع مرارة . أما الشعب فكان من قبل بروتستانتياً متعصباً .

وعقد فيليب العزم على أن يحكم الأراضى المنخفضة وضمائر أهلها جميعاً . فأرسل إليهم نخبة مختارة من الجنود الأسبان واستعمل على البلاد نبيلا اسمه ألفا ، وهو أحد أولئك الرجال « الصارمين » الذين لا تعرف الرحمة إلى قلوبهم سبيلا والذين يحطمون الحكومات والملكيات . فطفق يحكم البلاد ردحاً من الزمان بقبضة من حديد ، ولكن اليد الحديدية تبث فيما تمسه من جسم روحاً من حديد ، ففى (١٥٦٧) جهرت كل الأراضى المنخفضة بالعصيان . وأخذ ألفا يُعمل القتل والانتهاب والمذابح على غير طائل . وأُعدم الكونتان إجمونت وهورن . فأصبح وليم الصامت زعيم الهولنديين الأكبر ، ومليكهم فى الواقع .

واستمر الكفاح فى سبيل الحرية زماناً طويلا يتخلله كثير من التعقيد ، ومن الجدير بالذكر أن العصاة ظلوا متعلقين فى كل أدوار الكفاح بالقول بأن فيليب الثانى إنما هو ملكهم — على شريطة أن يرضى أن يكون ملكاً معقولاً محدود السلطان . ولكن فكرة الملكية المقيدة كانت فكرة كريهة المذاق لدى أصحاب التيجان فى أوربا وقتذاك ، وأخيراً دفع فيليب بالمقاطعات المتحدة التى نطلق عليها اليوم اسم هولندة ، إلى النزوع نحو الحكم الجمهورى . وليلحظ القارئ أن ذلك النزوع ظهر فى هولندة وليس الأراضى المنخفضة جمعاء . ذلك أن القسم الجنوبى من الأراضى المنخفضة وهو بلاد البلچيك كما يسمى ذلك القطر الآن ، ظل حتى نهاية الكفاح ولاية إسبانية وكاثوليكية العقيدة أيضاً .

ويمكن أن يتخذ حصار آلكمار (١٥٧٣) كما يصفه موتلى[1] ، مثالا على ذلك النضال الطويل الفظيع بين الشعب الهولندى الصغير وبين موارد الاستعمار الكاثوليكى التى كانت ما تزال كبيرة ضخمة . كتب ألفا إلى فيليب يقول :

(١) فى كتابه "Rise of the Dutch Republic" .

« إذا استوليت على آلكمار فلن أدع فيها على قيد الحياة فرداً . ولسوف أضع النصل فى كل رقبة . . . » والآن وقد مثلت أمام أعينهم مدينة هارلم المجردة من أسلحتها والجاوية على عروشها ، وكأنى بها شبحاً يتنبأ لهم بمصيرهم ، فإن رجال آلكمار الذين يعدون على الأصابع والذين أغلقوا عليهم أبوابها تهيئوا لأسوأ الظروف . وكان صديقهم البحر هو مناط أملهم الأكبر . ذلك بأن الفتحات الهائلة التى يمكن بواسطتها غمر المقاطعة الشمالية بغاية السرعة ، لم تكن إلا على مبعدة أميال قليلة . فلو أنهم فتحوا هذه البوابات وهدموا بعض جسور الماء لجعلوا المحيط يحارب فى صفهم . ومع ذلك فقد كانت موافقة الأهلين لازمة للحصول على تلك النتيجة ، إذ أن تلف كل المحاصيل التى فى الحقول يكون عند ذاك محققاً . وكانت المدينة محوطة بالمحاصرين إحاطة وثيقة جعلت من العسير عليهم أن يجدوا رسولا يقوم بتلك المهمة المخطرة . وأخيراً تقدم للقيام بهذه المغامرة نجار يدعى بيترفان درماى .

« وسرعان ما تحرجت الأمور فى داخل المدينة المحصورة . فقد كانت تحدث فى كل يوم خارج الأسوار مناوشات غير حاسمة . ثم حدث آخر الأمر فى اليوم الثامن عشر من سبتمبر أن أصدر الدون فردريك فى الساعة الثالثة بعد الظهر أمراً بالهجوم ، بعد ضرب المدينة بالمدافع ضرباً متواصلا دام اثنتى عشرة ساعة تقريباً . وبالرغم مما مر به من خبرة دامت سبعة شهور فى هارلم فإنه ظل يعتقد أن من المحقق أن يأخذ المدينة اكتساحاً . وحدث الهجوم فى نفس الوقت على كل من البوابة الفريزية والبرج الأحمر فى الجهة المقابلة . وكان على رأس الهجوم فرقتان من نخبة الجند وصلتا وشيكا من لومبارديا ، وهما تزلزلان الجو بصيحات أفرادهما معبرين عن ثقتهم بنصر هين قريب . وكانت تظاهرهم قوة جارفة من الجنود المنظمة . بيد أنه لم يحدث قط فى تاريخ هارلم القريب ، أن قوبلت هجمة بصدور أثبت جناناً وأشجع أفئدة . فإن كل رجل به نسمة من حياة كان متخذاً مكانه على الأسوار . وكانت الجماعات المهاجمة تقابل بالمدافع والقرابينات والغدارات ؛ وكان الماء الحار والقار والزيت المغلى والرصاص المصهور والجير الحى تصب عليهم فى كل لحظة صباً . وكانت مئات من الأطواق المقيّرة والمحماة تلقى بمهارة حول أعناق الجنود ، الذين حاولوا عبثاً أن

يخلصوا أنفسهم من تلك الأطواق النارية ، فى حين أنه لم يكن أحد من المهاجمين يكاد يضع قدمه على الثغرة حتّى يتلقاه سكان المدينة بالسيوف والخناجر وينكسوه على أم رأسه فى الخندق .

« وتجدد الهجوم ثلاث مرات بحدة وقوة لا تلين وصد كذلك ثلاث مرات بمضاءة وجلد لا هوادة معهما . واستمرت العاصفة هوجاء أربع ساعات . ولم يغادر واحد من المدافعين مكانه طيلة تلك المدة ، إلا أن يسقط عنه صريعاً أو جريحاً . ونفخ فى البوق نفخة الارتداد ، وانسحب الأسبان عن الأسوار مندحرين تمام الاندحار ، مخلفين وراءهم فى الخنادق ما لا يقل عن ألف قتيل ، أما أهل المدينة فلم يقتل منهم إلا ثلاثة عشر من السكان وأربعة وعشرون من الحامية . . . وقد روى حامل العلم سوليز الذى صعد على ثغرة السور مدة لحظة قصيرة ونجا بحياته بمعجزة حين قذف به من الأسوار ، أنه لم ير عندما أشرف على المدينة خوذة ولا سرجا : بل شهد نفراً من الناس البسطاء المظهر يرتدون عموماً ثياب صيادى السمك . ومع ذلك فإن هؤلاء الصائدين البسطاء قد دحروا محنكة جنود ألفا .

« وفى نفس الوقت كان الحاكم سونوى قد فتح كثيراً من جسور الماء ، فأخذت الأرض فى المنطقة المجاورة للمعسكر تصبح بركا ، وإن كان الفيضان الداهم لم يحدث حتّى آنذاك . ودب دبيب القلق فى الجنود وامتلأت نفوسهم بالشكس والتمرد . ولم تذهب مهمة النجار عبثاً . . . »

فإنه عاد إلى المدينة يحمل بعض الرسائل . ولكنه فقد تلك الرسائل إما على وجه الصدفة أو التدبير — وهو فى طريقه إلى المدينة — فوقعت فى يد ألفا . وكانت تحوى وعداً صريحاً من دوق أورانج بغمر البلاد بالماء غمراً يجعل الجيش الأسبانى بأكمله من المغرقين . وكان هذا الأمر يغرق فى نفس الوقت معظم محصول الهولنديين وماشيتهم . ولكن ألفا عندما اطلع على تلك الوثائق لم ينتظر حتّى تفتح عليه بوابات أخرى . وسرعان ما أخذ رجال آلكمار البواسل يتصايحون ويهتفون — حين شهدوا الأسبان يأخذون أهبة الرحيل والتفرق .

واتخذت حكومة هولندة المحررة شكل جمهورية من الأشراف تحت رياسة بيت أورانج . وكان « مجلس الطبقات States General » أقل تمثيلا لهيئة المواطنين بأكملها من البرلمان الإنجليزى ، الذى سنقص عليك فيما يلى قصة كفاحه مع التاج .

ومع أن أسوأ أدوار الكفاح انقضت بعد آلكمار ، فإن هولندة لم تصبح مستقلة بالفعل حتى (١٦٠٩) ، ولم يعترف باستقلالها اعترافاً تاماً كاملا إلا فى معاهدة وستفاليا فى (١٦٤٨) .

٣ ـ الجمهورية الإنجليزية

يبدأ النزاع الصريح الذى قام به مالك العقار مناهضاً عدوان « الأمير » فى إنجلترة منذ عهد قديم يرجع إلى القرن الثانى عشر . ودور الكفاح الذى علينا أن ندرسه الآن إنما هو الذى ابتدأ بمحاولات هنرى السابع والثامن وخلفائهما ، إدوارد السادس ، وماري وإليزابيث جعل حكومة إنجلترة « ملكية شخصية[1] » من الطراز الشائع بالقارة الأوربية . واشتد الكفاح حدة عندما حدث تبعاً لمصادفات المصاهرة فى الأسرة المالكة ، أن أصبح چيمس ملك اسكتلندة ، هو چيمس الأول ملك إنجلترة واسكتلندة على السواء (١٦٠٣) ، وأخذ يتكلم على المنوال الذى اقتبسناه عنه آنفاً عن « حقه الإلهى » فى أن يفعل ما يشتهى .

ولكن لم يحدث قط أن كان طريق الملكية الإنجليزية سهلا معبّداً . ففى كل العاهليات التى أقامها غزاة الإمبراطورية الشماليون والألمانيون كان هناك تقاليد لجمعية شعبية تجمع ممثلى الشعب ذوى النفوذ من الرجال لحفظ حرياتهم العامة ، ولم تكن تلك الجمعية أنشط فى أىّ منها حياة منها فى إنجلترة . فكانت لفرنسا تقاليدها الخاصة بجمعية « الطبقات الثلاث Estates » وكان لأسبانيا كورتيزها . بيد أن الجمعية الإنجليزية كانت تتسم بسمة خاصة من ناحيتين : أولاهما أنها كانت تستند إلى

---

(١) الملكية الشخصية أو الفردية هى الاستبدادية المطلقة التى يجتمع فيها الحكم فى شخص الملك .
(المترجم)



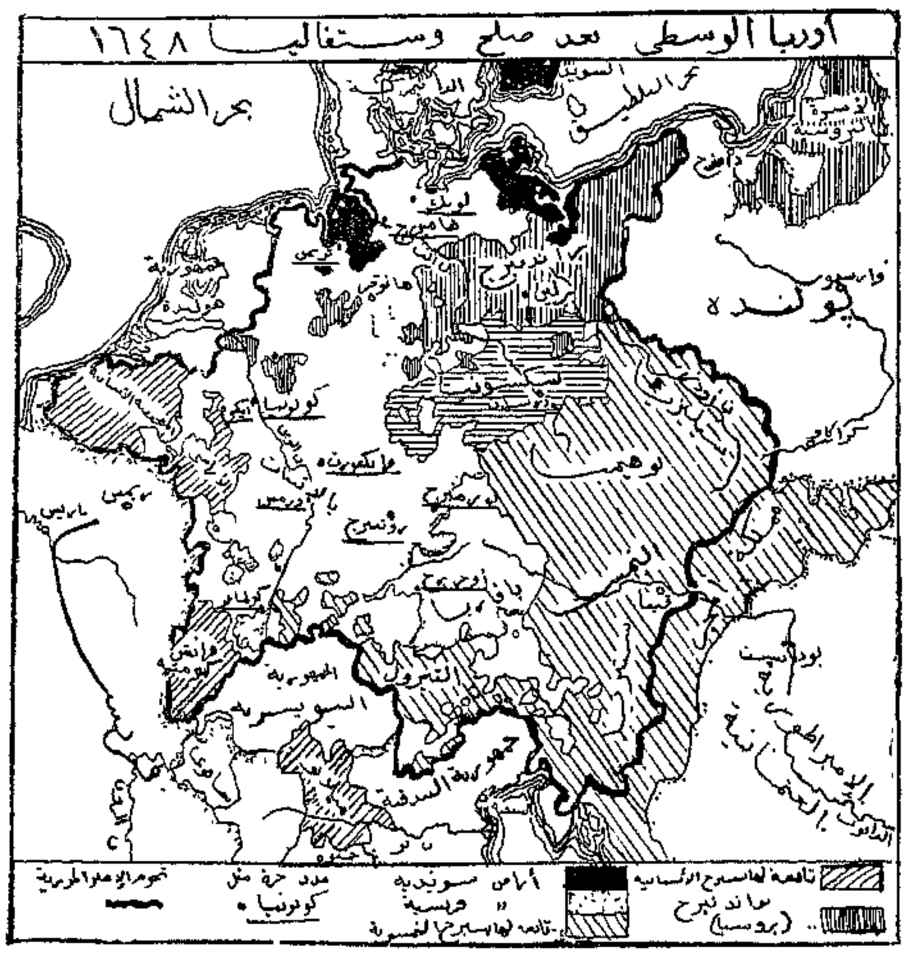
(شكل ١٦٩) صورة كرمويل

تصريح يتخذ صفة الوثيقة ويحتوى على حقوق معينة أولية وعامة ؛ وثانيتهما أنها كانت تضم « فـــوارس مقاطعات » منتخبين كما تضم نواباً عن المدن منتخبين أيضاً . وكانت الجمعيتان الفرنسية والأسبانية تتألفان من العنصر الأخـــير دون الأول .

وهاتان الخصيصتان جعلتا للبرلمان الإنجليزى قوة خاصة فى كفاحه مع العرش . والوثيقة المعنية إنما هى « الماجنا كارتا » أى العهد الأعظم ، وهو تصريح أخذ غصبا من الملك چون (١١٩٩ — ١٢١٦) ، وهو أخو الملك ريتشارد قلب الأسد (١١٨٩ — ١١٩٩) وخليفته ، وذلك بعد العصيان الذى قام به البارونات فى (١٢١٥) . وهو يكرر عددا من الحقوق الجوهرية التى جعلت من إنجلترة دولة قانون لا دولة ملك . وهو قد أبى على الملك التسلط على الممتلكات والحرية الشخصية لكل نوع من أنواع المواطنين — اللهم إلا أن يكون ذلك برضاء نظراء ذلك المواطن .

فأما وجود ممثلى المقاطعة المنتخبين فى البرلمان الإنجليزى — وهى الخصيصة الثانية فى حالة بريطانيا — فقد نجم عن بدايات بسيطة جداً ، وحميدة لا مضرة منها . إذ يبدو أن الفرسان كانوا يستدعون من المقاطعات أو أقسام الريف إلى المجلس الوطنى ليشهدوا بمقدرة نواحيهم على دفع الضرائب . وكان يرفعهم إلى ذلك المكان من هم أدنى منهم مرتبة من الأعيان وأصحاب الأملاك وشيوخ القرى فى نواحيهم فى زمان يرجع إلى (١٢٥٤) ، فينوب عن كل مقاطعة فارسان . فألهمت هذه الفكرة سيمون دى مونت فورت ،

وكان فى ثورة ضد هنرى الثالث ، خليفة چون ، أن يدعو إلى المجلس الوطنى فارسين عن كل مقاطعة ، وممادنين لكل مدينة أو بندر انتخابى[1] . وواصل هذا العمل إدوارد الأول خليفة هنرى الثالث ، إذ أنه كان يلوح فى نظره وسيلة ملائمة تمكنه من الاتصال المالى بالمدن النامية .



(شكل ١٧٠)

وأبدى الفرسان ورجال المدن فى بادئ الأمر قدراً جسيما من عدم الرغبة فى

---

(١) البندر الانتخابى : لفظة أطلقناها للدلالة على **Borough** ومعناها المدينة التى ترسل عنها نوابا فى البرلمان . (المترجم)

حضور البرلمان ، ولكنهم أدركوا شيئاً فشيئاً القوة التى يملكونها فى اتخاذ رفع الظلم عن الناس شرطا لمنح الاعتمادات المالية .

وكان هؤلاء ممثلو ملاك العقارات العامة فى المدن والريف يسمون باسم « العموم Commons» . وكانوا يعقدون جلساتهم ويتناقشون فى الأمور من زمن قديم جداً أو قل منذ البداية ، بمعزل تام عن كبار اللوردة والأساقفة . وهكذا نمت فى انجلترة جمعية نيابية تمثيلية ، هى مجلس العموم ، إلى جانب جمعية أخرى من الأساقفة والنبلاء هى مجلس اللوردة . ولم يكن هناك فارق جوهرى عميق يفرق بين هيئتى الجمعيتين . إذ أن كثيرا من فرسان المقاطعة رجال لهم قيمتهم ووزنهم ، وربما بلغوا من الثراء والنفوذ مبلغ النبلاء وبينهم كذلك أبناء النبلاء وأشقاؤهم ، على أن مجلس العموم كان فى جملة أمره هو الجمعية الأدنى إلى الشعبية .

وأظهر هذان المجلسان منذ البداية ، وبخاصة مجلس العموم ، ميلاً إلى ادعاء الحق الكامل فى فرض الضرائب على البلاد . وأخذا بالتدريج يوسعان دائرة اختصاصهما من النظر فى المظالم إلى نقد شئون المملكة كلها .

ولسنا بمترسمين التقلبات التى ألمت بقوة البرلمان الإنجليزى وهيبته إبان حكم ملوك آل تيودور ، (أعنى هنرى السابع والثامن وإدوارد السادس ومارى وإلزابيث) ، على أنه يتضح للقارئ مما قلناه ، أنه عندما أعلن چيمس استيوارت آخر الأمر ادعاءه الصريح للحكم المطلق الأوتوقراطى ، وجد التجار والنبلاء والجنتلمانية المستقلون الإنجليز ، بين أيديهم وسيلة تقليدية شريفة مختبرة لمقاومته لم يكن عند أى شعب فى أوربا نظير لها .

وهناك خصيصة أخرى للنضال السياسى الإنجليزى ، هى انفصاله النسبى عن الكفاح العظيم بين الكاثوليك والبروتستانت ، وهو الكفاح الذى كانت نيرانه مشبوبة فى كل أرجاء أوربا . حقاً إنه اختلطت بالكفاح الإنجليزى منازعات دينية واضحة المعالم جداً ، ولكنه كان فى جوهره نضالاً سياسياً بين الملك والبرلمان ، مجسما فى طبقة المواطنين أصحاب الأملاك الخاصة . على أن الشعب والتاج كانا من الناحية الرسمية

من الآخذين بالإصلاح الدينى كما كانا من البروتستانت . نعم إن كثيراً من الناس فى الجانب الأول (أعنى الشعب) كانوا بروتستانت ، من طراز يحترم الكتاب المقدس ولا يقيم وزناً للنظام الكهنوتى ، وهو الطراز الذى يمثل الإصلاح الدينى كما تراه الشعوب ، وأن الملك كان الرئيس الإسمى لكنيسة من نوع خاص تعترف بالعشاء الربانى وتقوم على نظام الكهنوت ، وهى كنيسة إنجلترة الرسمية ، التى تمثل الإصلاح الدينى كما يراه الأمراء[1] ولكن هذه الخصومة لم تحجب بأية حال أسس الكفاح الجوهرية .

وكان الكفاح بين الملك والبرلمان قد وصل بالفعل إلى دور حاد قبل وفاة جيمس الأول فى (١٦٢٥) ، ولكنه لم يبلغ ذروته ، ويصل إلى الحرب الأهلية إلا فى حكم ولده شارل الأول . وفعل شارل بالضبط كل ما يتوقع من ملك فى ذلك الموقف ، بالنظر إلى قلة الرقابة البرلمانية على السياسة الخارجية . فإنه زجّ بالمملكة فى حرب مع كل من أسبانيا وفرنسا ، ثم جاء يطلب من بلاده المدد آملاً أن يتغلب الشعور الوطنى على ما توقّر فى النفوس من كراهية طبيعية لإعطائه المال . فلما أن رفض البرلمان إمداده بالمال ، طلب من كثير من رعاياه بعض القروض ، وحاول أن يفرض على الناس ألواناً مماثلة من هذه الفرائض غير القانونية .

فأدى هذا بالبرلمان إلى إصدار وثيقة لا تنسى أبداً (١٦٢٨) ، هى « ملتمس الحقوق Petition of Rights » ذكره فيها بالعهد الأعظم وأكد القيود القانونية على سلطة الملك الإنجليزى ، وأنكر حقه فى جباية الفرائض من أى إنسان أو سجنه أو معاقبته ، أو أن ينزل جنوده على حساب الناس ، — دون اتخاذ الإجراءات القانونية الواجبة .

إن ملتمس الحقوق عرض قضية البرلمان الإنجليزى . والميل إلى عرض القضية ، كان على الدوام خصيصة من الخصائص الإنجليزية الملحوظة جداً . وعندما كان

---

(١) انظر ص ٩٧٩ ج ٣ من المعالم الطبعة الثانية .

الرئيس ولسون أثناء الحرب العظمى (١٩١٤ – ١٨) يمهد لكل خطوة من خطوات سياسته « بمذكرة » ، كان يسير فى نهج أعظم التقاليد الإنجليزية وقاراً .

وتصرف شارل مع هذا البرلمان تصرف المتعسف المتغطرس – فحله فى (١٦٢٩) ، وظل أحد عشر عاما يحكم بلا برلمان . ويجمع الضرائب جمعاً غير قانونى ، ولكنها لم تكن تفى بغرضه وإذ أدرك أن فى الإمكان أن تستعمل الكنيسة أداة لنشر الطاعة ، عين لود رئيساً لأساقفة كانتربورى وبذا يصبح على رأس كنيسة إنجلترة ، وهو رجل من كبار رجال الكنيسة عدوانى الطبع ، وينطوى على كثير من صفات القسيس وممن يؤمنون « بالحق الإلهى » .

وفى (١٦٣٨) حاول شارل أن يبسط طابع الكنيسة الإنجليزية الذى يجمع بين البروتستانتية والكاثوليكية ، إلى مملكته الأخرى الإسكتلندية ، التى كان تباعدها وانفصالها عن الكاثوليكية أتم وأشمل ، والتى كانت تتخذ صورة من المسيحية لا تقوم على نظام كهنوتى ولا تعترف بالعشاء الربانى ، وهى الكنيسة البريزبترىانية Presbyterian[1] ، التى تأسست بوصفها الكنيسة القومية . فثار الإسكتلنديون ، وتمردت الجنود الإنجليزية التى جمعها شارل لمقاتلهم .

وكان الإفلاس – وهو فى كل الأزمان النتيجة الطبيعية لكل سياسة خارجية طموح – قاب قوسين منه أو أدنى . واضطر شارل حين لم يعد لديه مال ولا جنود جديرة بالثقة ، أن يدعو آخر الأمر برلماناً (١٦٤٠) . ولكنه حل ذلك البرلمان فى السنة نفسها ، وهو المعروف بالبرلمان القصير . ثم حاول الاستعانة بمجلس من النبلاء فى يورك (١٦٤٠) ، ثم استدعى فى نوفمبر من نفس السنة آخر برلمان له .

واجتمعت هذه الهيئة ، وهى البرلمان الطويل ، وهى فى حالة تهيؤ للنضال . فقبضت على لود ، رئيس أساقفة كانتربورى ، واتهمته بالخيانة . ونشرت ما يسمى

(١) البيريزبترىانية هى كما ترى الكنيسة الإسكتلندية الرسمية . وهى تقوم على إدارة الشئون الدينية والكنسية بواسطة الكهول والشيوخ سواء أكانوا من رجال الدين أم لم يكونوا . وقد قامت على تعاليم چون كالفن . (المترجم)

« بالاعتراض الأكبر » ، وكان تقريرا مفصلا شاملا لقضية البرلمان ضد شارل . وأصدر البرلمان مشروع قانون Bill) — اتخذ به التدابير اللازمة لاجتماع البرلمان مرة فى كل ثلاث سنين على الأقل ، سواء استدعاه الملك أم لم يستدعه . وحاكم أكابر وزراء الملك الذين أعانوه على الحكم مثل ذلك الزمان الطويل بلا برلمان ، وبخاصة الإيرل سترافورد .

فدبر الملك إنقاذاً لاسترافورد — مؤامرة للاستيلاء بالجيش فجأة على لندن . ولكن المؤامرة اكتشفت ، وسارع البرلمان إلى إصدار مشروع القانون القاضى بإدانة سترافورد وسط عاصفة عظيمة من الهياج الشعبى . ودب الخوف من جماهير لندن إلى قلب الملك شارل الأول ، الذى لعله كان من أسفل من جلسوا على العرش البريطانى وأشدهم خيانة . ولكى يموت سترافورد حسب الأصول القانونية السليمة ما لم يكن بد من أن يوافق الملك على القرار . فوافق الملك وقطعت رأس سترافورد .

وكان الملك فى الوقت نفسه يأتمر فى الخفاء ويبحث عن المعونة فى مواطن غريبة ، ينشدها بين الإرلنديين الكاثوليك وبين الخونة من الإسكتلنديين . وأخيراً لجأ إلى مظهر للعنف ضعيف . فذهب إلى دار البرلمان ليعتقل خمسة من أنشط خصومه . فدخل إلى مجلس العموم واعتلى منصة الخطابة . وكان مستعداً لإلقاء خطبة جريئة عن الخيانة ، ولكنه عندما رأى أماكن خصومه الخمسة خالية ، أرتج عليه واضطرب وتكلم فى جمل متقطعة . إذ علم أنهم ارتحلوا عن مدينته الملكية وستمنستر ، ولجأوا إلى مدينة لندن التى كان لها مجلس بلدية يحكمها حكماً ذاتياً . وتحدته لندن . وبعد ذلك بأسبوع قام رجال حرس لندن المدربون بتوصيل هؤلاء الأعضاء الخمسة إلى إلى دار البرلمان بوستمنستر فى موكب عظيم من مواكب النصر ، ولكى يتجنب الملك جو الصخب والعداء الذى صحب الحادث ، غادر قصر هوايت هول إلى وندسور . وعندئذ استعد كل من الفريقين صراحاً للحرب .

وكان الملك هو الرئيس التقليدى للجيش وقد جرت عادة الجند بطاعة الملك . وكانت لدى البرلمان موارد أعظم . ورفع الملك لواءه فى نوتنجهام فى مساء يوم مظلم عاصف من أغسطس (١٦٤٢) .

وعقبت ذلك حرب أهلية طويلة عنيدة ، كان الملك فيها مستحوذاً على أكسفورد والبرلمان على لندن . وكان النجاح يتنقل من جانب إلى جانب ، ولكن الملك لم يستطع قط أن يطبق على لندن ، كما لم يستطع البرلمان أن يستولى على أكسفورد . وكان يفل من عزم كل من الخصمين وجود أتباع من المعتدلين الذين « لم يكونوا يحبون الاشتطاط فى الأمور » .

وبرز من بين قادة البرلمان ، رجل اسمه أوليفر كرومويل ، كان قد جمع ثلة من الفرسان وارتفع إلى رتبة جنرال . ويصفه معاصره اللورد وارويك بأنه رجل بسيط يرتدى بدلة من قماش عادى صانعها خياط « ريفى ردىء » . لم يكن مجرد جندى مقاتل ، بل كان منظماً عسكرياً ، أدرك ما عليه كثير من القوات البرلمانية من حالة دنية ، ونصب نفسه لإصلاحها . وكان لفرسان الملك تلك التقاليد الجميلة ، تقاليد الفروسية والولاء . وكان البرلمان شيئاً جديداً عسيراً على الأفهام ليست له تقاليد تقارن بتلك . قال كرومويل « إن معظم جنودكم إنما هم خدمة وسقاة كهول واهنو القوى ، فهل تظنون أن أرواح مثل هؤلاء الأشخاص الأسافل الأدنياء ، تستطيع يوماً أن تقاتل الجنتلمانية الذين ملأ أعطافهم الشرف والشجاعة والعزم ؟ » .

ولكن هناك شيئاً أقوى وأحسن من الفروسية الجذابة فى العالم ، وذلك هو الحماسة الدينية . ولذا نصب كرومويل نفسه ليجمع فرقة من « الربانيين الأتقياء » . وكان لا بد لهم من أن يكونوا رجالا جادين معتدلين فى حياتهم . وكان لا بد لهم فوق كل شيء من أن يكونوا رجالا ذوى عقيدة قوية . فتجاهل جميع التقاليد الاجتماعية وجمع ضباطه من بين كل طبقة . قال : « إنى لأفضل أن أحصل على ضابط بسيط يرتدى بدلة ريفية حمراء ، ويعرف الذى من أجله يحارب ويحب ما يعرف ، على ما تسمونه چنتلماناً وليس بشيء عدا ذلك » .

واكتشفت إنجلترة بين ظهرانيها قوة جديدة هى الحرس الحديدى . كان السعاة والحوذية وربابنة السفن يتولون فيها قيادة عليا ، إلى جوار أبناء البيوتات . وأصبحوا النموذج الذى حاول البرلمان أن يبنى على منواله من جديد جيشه بأكمله . وكان

الحديديون هم العمود الفقرى « للنموذج الجديد » . واجتاح هؤلاء الرجال أمامهم فرسان الملك من مارستون مور إلى نيسبى . وأخيراً وقع الملك أسيراً فى قبضة البرلمان .

ورغم ما جرى بذلت محاولات لتسوية الأمور هدفها ترك الملك فى عرشه بشكل ما ، ولكن شارل كان رجلا قدرت عليه العواقب المحزنة ، فهو لا ينقطع عن تدبير الخطط ؛ « رجلا بلغ من إفكه أنه لا يجوز أن يثق به إنسان » . وكان الإنجليز ينساقون نحو موقف جديد فى تاريخ العالم ، وجب فيه أن يحاكم ملك على خيانته شعبه وأن يقضى فيه بحكم .

والحق أن جميع الثورات ــ شأن هذه الثورة الإنجليزية ــ إنما تدفعها نحو العجلة المتهورة تصرفات الحاكم ومحاولته استعمال القوة والحزم استعمالا يتجاوز حدود القانون . وتنقذف معظم الثورات بحكم نوع من الضرورة نحو خاتمة أشد تطرفاً مما كان يستشف من الخلاف الأصلى . ولم تكن الثورة الإنجليزية استثناء لهذا الأمر . والإنجليز بطبعهم شعب ميال إلى الصلح والتفاهم بل هم قوم مترددون ، والراجح أن الغالبية العظمى منهم كانت ما تزال تريد أن يظل الملك ملكاً وأن يكون الناس أحراراً ، وأن يرقد الأسود والخراف بعضهم إلى جوار بعض فى سلام وحرية . ولكن الجيش ذا الطراز الجديد لم يكن فى مستطاعه أن يتراجع . فلن تكون هناك إذا ما عاد الملك إلى عرشه ذرة من الشفقة نحو هؤلاء السعاة والحوذية الذين وطئوا چنتلمانية الملك بخيولهم . وعندما شرع البرلمان فى التفاوض من جديد مع المخاتل الملكى ، تدخّل الطراز الجديد . فطرد الكولونيل پرايد ثمانين عضواً من أعضاء البرلمان الإنجليزى كانوا يميلون إلى الملك ، ثم قدمت البقية الباقية غير القانونية وهى البرلمان الأبتر **(Rump Parliament)** ، الملك إلى المحاكمة .

ولكن الواقع أن الملك كان مقدراً عليه من قبل قضاء لا مرد له . فلما أن رفض مجلس اللوردة قانون المحاكمة ، أعلن البرلمان الأبتر عند ذلك « أن الأمة إنما هى فى ظل الله مصدر كل السلطات العادلة » وأن « العموم فى إنجلترة أصحاب السلطة العليا فى هذا الشعب » ، وإذ افترض المجلس الأبتر أنه هو نفسه العموم ــ فإنه واصل

المحاكمة . وحكم على الملك بأنه « طاغية وخائن وقاتل وعدو لبلاده » . وأخذ فى صباح أحد أيام شهر يناير (١٦٤٩) إلى مشنقة ، أقيمت خارج نوافذ قاعة ولائمه الخاصة فى هوايت هول . وهناك قطعت رأسه . فمات وعليه سيما التقوى وضرب من الإشفاق على الذات نبيل — وذلك بعد إعدام استرافورد بثمانية أعوام ، وبعد ست سنوات ونصف مضت فى حرب أهلية مدمرة ، سببها كلها تقريباً بلا استثناء خروجه على القانون .

والحق إن هذا الذى عمله البرلمان كان عملا فظيعاً مرعباً . فلم يسمع الناس بمثله قط فى العالم من قبل نعم إن الملوك كثيراً ما قتل أحدهم الآخر ؛ وإنما كان قتل الأب أو الأخ والاغتيال وسائل اختص بها الأمراء ؛ فأما أن يقوم فريق من الشعب ، ويحاكم ملكه فى جد وتعمد متهماً إياه بعدم الولاء وإثارة الشر والخيانة ، ويحكم بإدانته ثم يقتله ، فأمر بث الذعر فى كل بلاط فى أوربا . ذلك أن البرلمان الأبتر تجاوز ما يطيقه ضمير زمانه وفكراته . وكأنما خرج من إحدى الغابات سرب من الظباء فأسر أحد النمور وقتله — وهى جريمة مخالفة للطبيعة . فطرد قيصر الروسيا السفير الإنجليزى من بلاطه . واتخذت فرنسا وهولندة تصرفات عدائية صريحة . ووقفت إنجلترة منعزلة أمام العالم ، مبلبلة يؤنبها ضميرها بجرمها .

ومضى ردح من الزمان تهيأ فيه للمزايا الشخصية لأوليفر كروموبل ولنظام الجيش الذى أنشأ وقوته ، أن تصون لانجلترة النهج الجمهورى الذى سلكت . وكان الإرلنديون الكاثوليك قاموا بمذبحة فى الإنجليز البروتستانت النازلين فى إرلندة ، وعند ذاك قمع كروموبل بشدة عظيمة الإرلنديين العصاة . وفيما عدا رهبانا بأعيانهم قتلوا أثناء الهجوم العنيف على دروجيدا فإن جنوده لم يقتلوا إلا الرجال الذين يحملون السلاح بأيديهم . ولكن فظائع المذبحة كانت ما تزال قوية الأثر فى ذهنه ، ولذا لم تبد من جانبه أية رحمة فى المعركة ، ومن ثم لا تفتأ ذكراه يتقد لهيبها فى أذهان الإرلنديين ، الذين يطول تذكرهم لما يصيبهم من النوازل .

وبعد إيرلندة ، جاء درر اسكتلندة ، حيث مزق كروموبل جيشاً ملكياً فى معركة دنبار (١٦٥٠) .

ثم صرف نتباهه إلى هولندة ، وهى القطر الذى نهز فى حماقة فرصة الانقسامات بين الإنجليز واتخذها ذريعة لإيقاع الأذى بهم كمنافسين له فى التجارة . وكان الهولنديون آنذاك سادة البحر ، فكان قتال الأسطول الإنجليزى من ثم غير مضمون العاقبة . ولكن حدث بعد سلسلة من الحروب البحرية العنيدة أن طرد الهولنديون من البحار البريطانية ، وحل الإنجليز محلهم بوصفهم الدولة البحرية العظمى . وأصبح حتما مقرراً على السفائن الهولندية والفرنسية أن تخفض لها راياتها . وذهب أسطول إنجليزى إلى البحر الأبيض ، وكان أول قوة بحرية إنجليزية دخلت تلك المياه ؛ فأصلحت كثيراً من الحيف الواقع على أرباب السفن الإنجليز من توسكانى ومالطة ، وأطلقت قنابلها على وكر القرصان التونسى وحطمت أسطول القراصنة — الذى تعوّد فى أيام شارل وتراخيه أن يصل حتى شواطئ كورنوال وديفون ليقطع الطريق على السفن ويحمل الرقيق إلى إفريقية .

وتدخلت كذلك ذراع انجلترة القوية لمساعدة البروتستانت فى جنوب فرنسا ، وكان دوق سافوى يطاردهم ويفتك بهم . ثم وجدت كل من فرنسا والسويد والدانمارك أن من الحكمة أن يتغلبن على نفورهن الأول من « قتل العاهل » فتحالفن مع انجلترة . ونشبت الحرب مع أسبانيا ، ودمر الأميرال الإنجليزى العظيم بليك أسطول المعادن[1] الأسبانى فى تاناريف فى إقدام وجرأة لا يكاد يصدقها عقل . فإنه هاجم البطاريات البرية . فكان بذلك أول رجل « جعل السفن تخدش كبرياء قلاع الشوطئ » . (ومات فى ١٦٥٧ ؛ ودفن دير وستمنستر ، ولكن نبشت عظامه بعد عودة الملكية بأمر من شارل الثانى ، ونقلت إلى كنيسة القديس مارجريت بوستمنستر) . تلك هى الصورة التى نقشتها إنجلترة لنفسها أمام عين العالم أثناء أيامها الجمهورية الوجيزة .

وفى اليوم الثالث من سبتمبر (١٦٥٨) توفى كرومويل أثناء عاصفة هوجاء لم يفتها أن تبلغ من نفوس أصحاب الخرافات كل مبلغ . وما كادت يده القوية تجمد عن

---

(١) المستعمل فى نقل المعادن النفيسة المغتصبة من أمريكا . (المترجم)

الحركة ، حتى تخاذلت بريطانيا عن تلك المحاولة السابقة لأوانها لتحقيق إنشاء دولة تقوى قوامها الأحرار من الرجال ؛ ففى (١٦٦٠) رحب الناس فى انجلترة بعودة شارل الثانى ابن شارل « الشهيد » بكل مظاهر حفاوة الولاء الشخصى المحببة إلى قلوب الإنجليز ، وتراجعت البلاد عن كفايتها العسكرية والبحرية كأنها النائم إذ يستيقظ ويتمطى ويتثاءب بعد حلم عنيف حاد . قُضى على البيوريتان (المتطهرين) وانتهى أمرهم . وعادت إنجلترة المرحة سيرتها الأولى ، وفى (١٦٦٧)دخلت سفن الهولنديين — وقد عادت إليهم سيادة البحر ثانية — فى نهر التامز حتى وصلت جرافزند Gravesend وأحرقت أسطولاً إنجليزياً فى الميدواى[1] .

يقول بيبيس فى يومياته : « وفى الليلة التى أحرق فيها الهولنديون سفننا ، تعشى الملك فعلاً مع مولاتى الليدى كاستيل مين ، وهناك جن جنونهم وهم يطاردون فراشة مسكينة » .

وتناول شارل منذ ساعة عودته(١٦٦٠) ، زمام شئون الدولة الخارجية بين يديه ، وفى (١٦٧٠) عقد محالفة سرية مع لويس الرابع عشر الفرنسى ، تعهد فيها أن يجعل السياسة الإنجليزية الخارجية تابعة تماماً لسياسة فرنسا مقابل جعل سنوى مقداره مئة ألف جنيه . وكانت دنكرك التى سبق أن استولى عليها كرومويل قد بيعت قبل ذلك إلى فرنسا . وكان الملك رياضياً عظيماً ، وله الولع الإنجليزى الصحيح بمشاهدة سباق الخيل ، ولعل أبلغ آثاره فى الدلالة على خصائصه حلبة السباق فى نيوماركت .

وقد استطاع شارل بفضل فكاهته السهلة ، الاحتفاظ مدى سنى حياته بالعرش البريطانى ، ولكنه وصل إلى ذلك بالتزام الحيطة وخطة التفاهم والمسالمة ، حتى إذا خلفه فى (١٦٨٥) أخوه جيمس الثانى ، الذى كان كاثوليكياً مخلصاً ، وكان أغبى من أن يدرك التحديد الخفى الذى يحد من سلطة الملكية فى إنجلترة ، عاد النزاع القديم بين البرلمان والملك حدته الأولى .

---

(١) الميدواى : نهر صغير بإنجلترة يصب فى نهر التامز . (المترجم)

ونصب چيمس نفسه لإرغام مملكته على العودة إلى الاتحاد الديني مع روما . وإذا به فى ١٦٨٨ يتخذ طريق الهرب إلى فرنسا . على أن اللوردة الكبار والتجار والجنتلمانية كانوا فى هذه المرة أحرص من أن يسمحوا بأن يقذف بهم هذا التمرد على الملك إلى أيدى كولونيل پرايد آخر أوكروموبل آخر . وكانوا استدعوا آنفاً ملكاً آخر هو وليم أمير أورانج ليحل محل الملك . وتم التغيير سريعاً . ولم تحدث أية حرب اهلية – اللهم إلا فى إرلندة – ولم تنطلق فى البلاد أية قوة ثورية أكبر من هذه .

وليس هنا مجال البحث فى دعوى وليم بالعرش ، أو بالحرى فى ادعاء زوجته مارى به ، فإن هذا موضوع فنى بحت – كما يقولون – ؛ ولا كيف حكم وليم الثالث ومارى ، ولا كيف حدث بعد ذلك أن الملك الأرمل وليم حكم وحده ردحاً من الزمان ، ثم انتقل العرش إلى آن (١٧٠٢ – ١٧١٤) أخت مارى . ويلوح أن آن كانت تنظر بعين العطف إلى عودة الملك إلى أسرة استيوارت ، ولكن اللوردة والعموم الذين كانوا عند ذاك المسيطرين على الشئون الإنجليزية ، فضلوا أن يليهم ملك أقل كفاية . إذ كان فى الإمكان أن يقام نوع من الادعاء على العرش لمنتخب هانوفر ، الذى أصبح ملكاً على إنجلترة باسم چورچ الأول (١٧١٤ – ١٧٢٧) . كان ألمانياً قحاً لا يعرف اللغة الإنجليزية ، واجتلب معه إلى البلاط الإنجليزى حشداً من النساء الألمانيات والحشم الألمان ؛ وبمقدمه حلت بالحياة العقلية فى البلاد فترة خمود وركود وزال عنها الصقل ، ولكن انعزال البلاط عن الحياة الإنجليزية كان أعظم ما يزكيه لدى كبار ملاك الأراضى وأصحاب المصالح التجارية ، بل كان الميزة التى من أجلها خاصة استقدموه .

ودخلت إنجلترة مرحلة يسميها اللورد بيكونزفيلد باسم مرحلة « أوليجركية البندقية »[١] ؛ وكانت ناصية السلطة العليا مستقرة بين يدى البرلمان الذى كان يسيطر عليه آنذاك مجلس اللوردة ، وذلك لأن فن الرشوة ودراسة طرائق طبخ الانتخابات ،

---

(١) الأوليجركية : هى حكومة هيئة صغيرة من الرجال تمسك زمام السلطة العليا بإحدى الدول .
(المترجم)

اللذين رفعهما إلى درجة عالية السير روبرت والبول ، سلبت مجلس العموم حريته وقوته الأصليتين . فإنه استخدم طرقاً خبيثة ماهرة قصرت الأصوات البرلمانية من الناخبين . فقد ترسل مدن قديمة تحوى نفراً قليلا من السكان أو هى لا تحوى أحداً قط عضواً أو عضوين (فكان لمدينة ساروم القديمة ناخب واحد لا يقيم فيها ، وليس بها أحد من السكان وينوب عنها مع ذلك نائبان) ، على حين لم يكن أحد يمثل على الإطلاق بعض المراكز الجديدة الآهلة بالسكان . وأفضى الإصرار على وجوب امتلاك الأعضاء مؤهلا عقارياً ضخماً ، أن زادت ضيقاً على ضيق ، الفرص المتاحة للعموم الذين يتكلمون بلسان العامة معبرين عن حاجات السوقة .

وعقب چورچ الأول چورچ الثانى (١٧٢٧ – ١٧٦٠) الشديد الشبه به ، وبموته أتيح لإنجلترة من جديد ملك مولود فى إنجلترة ، ويستطيع أن يتكلم الإنجليزية بدرجة من الجودة متوسطة وهو حفيده چورچ الثالث . وسنحدثك فى فصل تال عن محاولة هذا الملك استرداد بعض السلطات الملكية الكبرى .

ذلك موجز لقصة الكفاح الذى حدث بانجلترة إبان القرنين السابع عشر والثامن عشر بين العوامل الثلاثة الكبرى فى مشكلة الدولة العصرية ؛ أى بين التاج وأصحاب الأملاك الخاصة وتلك القوّة المبهمة ، التى ما تزال عمياء جاهلة ، وهى قوة الناس العوام الخلّص . وهذا العامل الأخير لا يبدو حتى الآن إلا فى اللحظات التى تهتز فيها البلاد اهتزازاً أشد ما يكون عمقاً ، ثم لا يلبث أن يعود إلى الأعماق . ولكن نهاية القصة تعد حتى ذلك الوقت نصراً تاماً جداً لصاحب الأملاك الخاصة البريطانى على أحلام الحكم المطلق المكيافللى وخططه . وأصبحت إنجلترة وعلى رأسها الأسرة الهانوڤرية « جمهورية متوجة » ، على حد تسمية جريدة التايمز لها فى الآونة الأخيرة . فإنها صاغت طريقة جديدة للحكم ، هى الحكم البرلمانى ، الذى يذكرنا من نواحى كثيرة بمجلس السناتو والجمعية الشعبية لدى الرومان ، ولكنه حكم أرسخ قدماً وأشد كفاية لاستخدامه طريقة التمثيل النيابى مهما يكن ذلك الاستخدام محدوداً . وكان أن قُدر لجمعيتها فى وستمنستر أن تصبح « أم البرلمانات » فى كافة أقطار العالم .

وقد أمسك البرلمان الإنجليزى وما يزال ممسكاً حبال التاج بقسط وفير من العلاقة بين ناظر القصر وبين الملوك الميروفنجيين . وهم يرون فى الملك شخصاً للرسميات غير مسئول ، ورمزاً حياً للنظام الملكى والإمبراطورى .

ولكن يظل الشىء الكثير من القوة كامناً فى تقاليد التاج وهيبته ، وإن فى اعتلاء الملوك الهانوفريين المسمين بجورج ، ووليم الرابع (١٨٣٠) ، وفيكتوريا (١٨٣٧) ، وإدوارد السابع (١٩٠١) وجورج الخامس (١٩١٠) وإدوارد الثامن (١٩٣٦) ، لأسلوبا يخالف تماما ملوك الميروفنجيين الضعفاء . فقد مارس هؤلاء الملوك جميعاً على درجات متفاوتة فى شئون الكنيسة ، والهيئات العسكرية والبحرية ، والسياسة الخارجية ، نفوذاً لم يقلل من شأنه كونه غير ذى حدود تحدده .

٤ ــ انقسام ألمانيا واضطرابها

لم يجلب انهيار الفكرة القائلة بمسيحية موحدة ، فى أى قطر من أقطار أوربا ، عواقب أوخم مما جره على ألمانيا ، وطبيعى أن يتبادر إلى ظن الإنسان أن الإمبراطور ، وقد كان ألمانى الأرومة ، فى كل حالة الأسرات الأولى وحالة آل هابسبرج ، كان لا بد أن يتطور به الأمر حتى يصبح المليك القومى فى دولة تتكلم الألمانية . على أنه كان مما جلبته المصادفة من نكد الطالع على ألمانيا ، أن لم يظل أباطرتها قط ألمانيين . فإن فردريك الثانى آخر سلالة آل هوهنشتاوفن ، كان كما رأينا ، صقليا نصف مستشرق . وأصبح آل هابسبرج بالمصاهرة والميل ، ممثلين فى شخص شارل الخامس ، بورغنديى الروح بادئ ذى بدء ، ثم أسبانيها . وبعد موت شارل الخامس أخذ أخوه فرديناند النمسا والإمبراطورية ، وأخذ ابنه فيليب الثانى أسبانيا والأراضى المنخفضة وجنوبى إيطاليا . ولكن السلالة النمسوية ، كانت كاثوليكية عنيدة فى كثلكتها ، ممسكة بزمام معظم ميراثها على الجدود الشرقية متورطة لذلك أعمق التورط فى الشئون المنغارية ودافعة الجزية للأتراك شأن فرديناند وخليفته ، لذا لم تحتفظ لنفسها بأى سلطان على شئون الألمان الشماليين بما فيهم من نزعة إلى البروتستانتية ، وأواصر بلطيقية واتجاه نحو الغرب ، وجهلهم بالخطر التركى أو عدم اهتمامهم به .

وما كان أصحاب السلطان من الأمراء والدوقة والمنتخبين والأساقفة الأمراء وأشباههم ، الذين كانت أملاكهم تقطّع أوصال ألمانيا فى القرون الوسطى إلى مرقّعة تكد البصر بأجزائها الممزقة ، — بمعادلين فى الحقيقة للملوك إنجلترة وفرنسا بل كانوا على التقريب فى مستوى كبار أصحاب الأراضى من الدوقات والنبلاء بفرنسا وإنجلترة . ولم يكن فيهم واحد حتى (١٧٠١) يحمل لقب « ملك » ؛ وكان الكثير من ممتلكاتهم أضأل فى الحجم والقيمة من الأملاك الكبيرة التى يملكها بعض النبلاء البريطانيين . وكان مجلس الدايت الألمانى شبيهاً بمجلس الطبقات (States Genseral) أو مثيلا لبرلمان ليس فيه نواب منتخبون . حتى أن الحرب الأهلية العظيمة التى شبت للفور فى ألمانيا ، وهى حرب الثلاثين سنة (١٦١٨ — ٤٨) ، كانت فى جوهرها أوثق قربى وشبهاً بالحرب الأهلية فى إنجلترة (١٦٤٣ — ٤٩) ، وبحرب الفروند (١٦٤٨ — ٥٥) ، (وهى عصبة النبلاء الإقطاعيين ضد الملوك فى فرنسا) ، — مما يبدو على ظاهرها لأول وهلة .

وفى كل هاته الحالات كان التاج إما كاثوليكياً أو نزاعاً إلى الكثلكة ، ووجد الأمراء المعاندون أن ميلهم الفردى ، ينزع بهم نحو نزعة بروتستانتية . ولكن على حين حدث فى إنجلترة وهولندة أن النبلاء البروتستانت والتجار الأغنياء فازوا فى النهاية فوزاً مبيناً ، وكان نجاح التاج فى فرنسا أكمل وأوفى ، فإن الإمبراطور فى ألمانيا لم يبلغ من القوة والسيادة مبلغاً كافياً ، ولا كان لدى الأمراء البروتستانت من الوحدة والتنظيم فيما بينهم ، ما يكفل لأحد الطرفين نصراً نهائياً . وانتهت الحال هناك بتمزق أوصال ألمانيا .

ومما زاد الكفاح الألمانى تعقيداً اشتباك شعوب غير ألمانية منوعة فيه ، وهى البوهيميون والسويديون (الذين كانت لهم ملكية بروتستانتية جديدة نشأت تحت چوستاڤوس ڤازا كنتيجة مباشرة للإصلاح الدينى) . وأخيراً تدخلت الملكية الفرنسية ، وقد انتصرت نهائياً على نبلائها ، فعضدت البروتستانت وإن كانت كاثوليكية ، رامية بذلك إلى غاية واضحة هى الحلول محل آل هابسبرج فى رياسة الإمبراطورية .

وقد ترتب على طول أمد الحرب ، وعدم جريانها على امتداد جبهة محددة ، لتناثرها فى كل أرجاء إمبراطورية قوامها الرقاع : فمن بروتستانت هنا وكاثوليك هنالك — أن تحولت إلى حرب من أقسى الحروب وأشدها تدميراً ، حرب لم تشهد أوربا لها مثيلا منذ أيام الغارات الهمجية . وليس يقوم شرها الخاص فى القتال ، بل فيما يلازم القتال من ويلات . فإنها حدثت فى زمن تطور فيه التاكتيك العسكرى إلى حد جعل المجندين العاديين غير ذوى غناء حيال المشاة المحترفين المدربين . فإن إطلاق الجماعات النار دفعة واحدة من القرابينات إلى مبعدة بضع عشرات من الياردات قضى على الفارس الفرد ذى الدروع السابغات ، بيد أن هجمات جموع الفرسان المنظمة كانت ما تزال تستطيع أن تشتت شمل أى مشاة ، لم تصل فى تدريبها إلى درجة كافية من الصلابة الآلية . فإن المشاة بقرابيناتهم التى لا بد من حشو أنابيبها بين لحظة وأخرى لم تكن لتستطيع أن تقيم من النار سياجاً متواصلا يفى بتشتيت فرسان ذوى عزم وصرامة قبل وصول هجمتهم إلى هدفها وإنزالهم ضربتهم . ومن ثم كان لزاماً عليهم أن يقابلوا الصدمة وقوفاً أو راكعين خلف جدار براق من الخوازيق أو السونكيات . وكان لا بد لهم فى هذا من تنظيم عظيم وخبرة كبيرة ؛ وكانت المدافع الحديدية ما تزال صغيرة الحجم كما لم تكن وفيرة العدد جدا ، ولم تكن تقوم حتى آنذاك بدور حاسم فى الحرب . نعم إنها كانت تستطيع أن « تشق خطوطاً » فى صفوف المشاة ، ولكنها لم تكن لتستطيع فى سهولة أن تحطمها وتبددها ، إن هى كانت قوية العزم جيدة التدريب .

وكانت الحرب فى مثل تلك الظروف موكولة تماماً إلى جنود مدربين محترفين ، وكانت مسألة أعطياتهم أمراً يعادل فى أهميته لدى قواد ذلك الزمان أهمية مسألة الميرة والذخيرة . وبينما الكفاح الطويل يجر قدميه جراً من طور إلى طور ، وتتفاقم معه محنة البلاد المالية ؛ كان قواد كلٍّ من الجانبين مضطرين أن يرجعوا بالانتهاب على المدن والقرى ، رغبة فى أخذ المؤن والتعويض عن متأخرات أعطيات جنودهم . ومن ثم أخذ جندهم يتحولون رويدا رويدا إلى مجرد مناسر تعيش على حساب البلاد نهبا واستلابا ، وأوجدت حرب الثلاثين سنة تقاليد من الانتهاب والسلب بوصفهما عملية

قانونية فى الحرب ومن انتهاك الحرمات بوصفه امتيازاً للجندى ، وهى تقاليد لوثت سمعة ألمانيا الطيبة حتى الحرب العظمى (١٩١٤) .

إن الفصول الأولى من كتاب « مذكرات فارس Memoirs of a Cavalier » تأليف « دانيال ديفو » ، بما حوت من وصف رائع لمذبحة ماجدبورج وحريقها ، لتعبر القارئ فكرة عن طريقة الحروب فى ذلك الزمان ، أحسن جداً من أى كتاب رسمى فى علم التاريخ . إذ بلغت البلاد من الخراب حداً حمل الفلاحين على الكف عن الزراعة ، وكان ما يستطاع حصده من المحصولات السريعة غير المنتظمة يخفى فور جمعه ، وأصبحت جماهير غفيرة من النساء الطاويات والأطفال الجائعين ممن يتتبعون معسكرات الجيوش ، حاشية من اللصوص إلى جانب الناهبين الأشد خشونة وشراسة . فما أن انتهى الكفاح حتى كانت كل ألمانيا قد أمست خراباً يبابا . ولم تتخلص أوربا الوسطى تخلصا تاما من هذه السرقات والمفاسد المدمرة إلا بعد قرن من الزمان .

ولن يسمعنا ها هنا إلا أن نذكر اسمى تللى (Tille) ووالنشتين (Wallenstein)، قائدى النهب الكبيرين فى جانب أسرة هابسبرج ، وچوستاف أدولف ملك السويد أسد الشمال ونصير البروتستانت الذى كان يحلم بأن يجعل من بحر البلطيق « بحيرة سويدية » . ولكن چوستاف أدولف قتل ساعة نصره الحاسم على والنشتين فى لوتز (١٦٣٢) ، وقتل والنشتين فى (١٦٣٤) .

وفى (١٦٤٨) اجتمع الأمراء والسياسيون بين ظهرانى ذلك الدمار الذى حاكته أيديهم ، اجتمعوا لترقيع شئون أوربا الوسطى فى صلح وستفاليا . وبهذا الصلح استحالت قوة الإمبراطور إلى شبح أو خيال ، وترتب على استلحاق فرنسا للألزاس أن وصلت إلى نهر الراين . وأصبح فى حوزة أمير ألمانى هو منتخب براندنبرج سليل آل هوهنزلرن قدر عظيم من الأراضى جعل بين يديه أعظم قوة ألمانية تلى قوة الإمبراطور ، وهى قوة سرعان ما أصبحت (١٧٠١) ، مملكة بروسيا .

واعترفت معاهدة وستفاليا أيضاً بحقيقتين مقررتين من زمان مديد ، وهما الانفصال عن الإمبراطورية والاستقلال التام لكل من هولندة وسويسرة .

٥ ـ أبهة الملكية العظمى فى أوربا

افتتحنا هذا الفصل بقصتى قطرين ، هما الأراضى المنخفضة وبريطانيا ، اللتين نجحت فيهما مقاومة المواطن الخاص لهذا الطراز الجديد من الملكية ، وهى الملكية المكياڤلية ، التى أخذت تنشأ عن انهيار المسيحية الخلقى . ولكن الملكية الفردية فى فرنسا والروسيا وفى كثير من أنحاء ألمانيا وإيطاليا — فى سكسونيا وتوسكانى مثلا لم تُصد وتقهر على مثل تلك الدرجة . بل الواقع أنها وطدت نفسها بوصفها النظام الأوربى السائد أثناء القرنين السابع عشر والثامن عشر . بل لقد كانت الملكية فى هولندة وبريطانيا آخذة بأسباب استرجاع قوتها أثناء القرن الثامن عشر . (فأما پولندة فلها ظروف خاصة ، وإنا لمعالجوها فى فصل تال) .

ولم يكن ثمة « عهد أعظم » (ماجنا كارتا) فى فرنسا ، ولا كان للحكم البرلمانى بها مثل تلك التقاليد المحدّدة الفعالة . أجل كان هناك نفس تعارض المصالح بين التاج من ناحية وبين أصحاب الأراضى والتجار من ناحية أخرى ، ولكن هؤلاء لم يكن لهم متجمّع (أى مكان اجتماع) معترف به ، ولا كان لهم أسلوب للوحدة كريم . لقد شكلوا المعارضة للتاج ألواناً ، وأنشأوا عُصباً للمقاومة ، — كذلك شأن « الفروند[1] » ، الذين كانوا يكافحون الملك الشاب لويس الرابع عشر ووزيره العظيم مازارين ، على حين كان شارل الأول يقاتل لاستنقاذ حياته فى إنجلترة — ولكن الأمر انتهى فى (١٦٥٢) بأنهم هزموا هزيمة نهائية بعد حرب أهلية . وعلى حين حدث فى إنجلترة بعد تاسيس بيت هانوڤر أن مجلس اللوردة وتابعه مجلس

---

(١) حروب الفروند : هى الحروب الأهلية الفرنسية (١٦٤٨ — ٥٣) وتقع فى مرحلتين : محاولة برلمان باريس فى (١٦٤٨ — ٤٩) تحديد سلطات الملكية وثورة كبار النبلاء برئاسة كونديه على حكم مازارين فى (١٦٥٠ — ٥٣) . (المترجم)



(شكل ١٧١) صورة لويس الرابع عشر

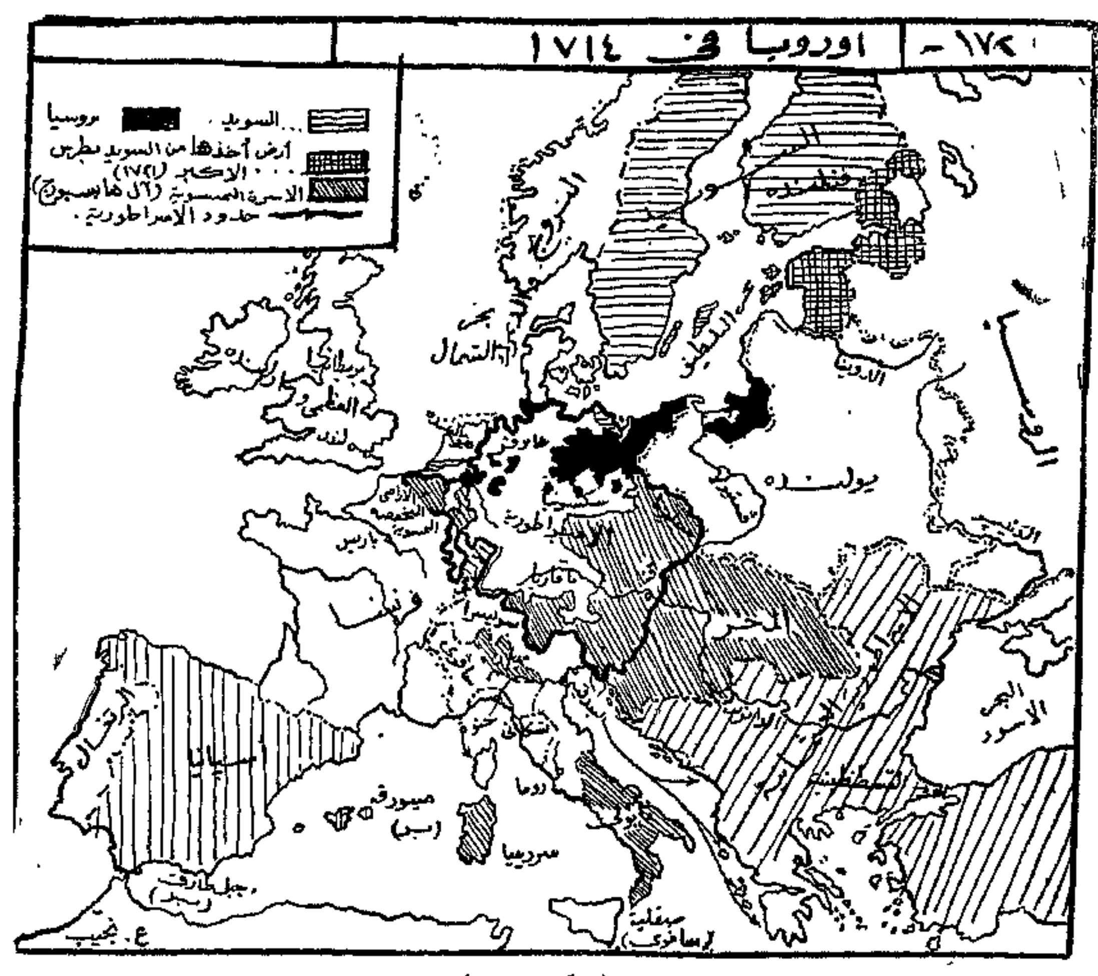
العموم صارا يحكمان البلاد ، فإن البلاط فى فرنسا على العكس من ذلك كان بعد (١٦٥٢) هو صاحب السيطرة التامة على الأرستقراطية . وكان الكردينال مازارين نفسه يبنى على أسس مهدها له الكردينال ريشيليو معاصر چيمس الأول ملك إنجلترة .

ولسنا نسمع بعد زمان مازارين بأى نبيل فرنسى عظيم إلا أن يكونوا فى البلاط حشماً للملك وموظفين . ذلك أنهم شُروا ورُوِّضوا – ولكن بثمن ، والثمن هو إلقاء عبء الضرائب على جماهير العامة التى لا صوت لها . فكان كل من رجال الدين والنبلاء ، بل وفى الواقع كل إنسان يحمل لقباً – معفين من كثير من الضرائب . وأصبح هذا الظلم فى النهاية أمراً لا يطاق ، ولكن الملكية الفرنسية ازدهرت ردحاً من الزمان ازدهار شجرة الغار الخضراء فى المزامير . وإنك لترى الكتاب الإنجليز عند مفتتح القرن الثامن عشر ، وقد أخذوا يستلفتون الأنظار إلى بؤس الطبقات الدنيا الفرنسية وإلى ما يستمتع به الفقراء الإنجليز ، فى نفس ذلك الزمان ، من رخاء نسبى .

على مثل هذه الأوضاع الآثمة أقامت ما عسانا أن نسميها « الملكية العظمى » الفرنسية أسسها . فحكم لويس الرابع عشر الملقب بالعاهل الأعظم زماناً لا نظير له فى الطول هو اثنتان وسبعون سنة (١٦٤٣ – ١٧١٥) ، وأقام من نفسه نموذجاً يحتذيه كل ملوك أوربا . وكان يقوده بادئ الرأى وزيره المكيافللى الكردينال مازارين . وبعد وفاة الكردينال أصبح هو نفسه بشخصه ونصه وفصه « الأمير » المثالى . وكان – فى داخل حدود عطنه الضيق – ملكاً ذا كفاية استثنائية ؛ وكان طماحه أقوى من شهواته الدنيا ، فجر على بلاده الإفلاس بما انتهج من معقدات سياسية خارجية شديدة النشاط أظهر فيها وقاراً محكماً ما يزال يستدعى إعجابنا . وكان أول ما يخالجه من رغبة أن يربط أجزاء فرنسا بعضها ببعض وأن يمد حدودها إلى نهر الراين وجبال البرانس ، وأن يتمثل الأراضى المنخفضة الأسبانية ؛ وكانت أحلامه البعيدة ترى فى ملوك فرنسا خلفاء محتملين لشرلمان فى دولة رومانية مقدسة يعاد سكبها .

واتخذ من الرشوة وسيلة للدولة تكاد تكون أعظم أهمية من الحرب . وكان شارل الثانى ملك إنجلترة يتناول منه الأعطيات المالية ، وكذلك كان شأن معظم النبلاء البولنديين ، الذين سنصفهم من فورنا . وكانت نفوده أو بالحرى نقود الطبقات الدافعة للضرائب فى فرنسا تذهب كل مذهب . ولكن البذخ كان شغله الشاغل . فكان قصره العظيم فى ڤرساى بقاعاته (صالوناته) ودهاليزه ومراياه وشرفاته ونافوراته وجناته ومنظراته ، موضع غبطة العالم أجمع وإعجابه .

لقد حفز الجميع إلى محاكاته . فإن كل ملك أو أمير صغير فى أوربا كان يبنى



(شكل ١٧٢)

لنفسه قصر ڤرسايه الخاص متجاوزاً موارده المالية بالقدر الذى يسمح به رعاياه ودائنوه . وكان النبلاء فى كل مكان يعيدون بناء قصورهم أو يوسعونها وفق النموذج الجديد . وتطورت صناعة الأقمشة والأثاثات الجميلة المحكمة الصنع وعظم شأنها . وازدهرت فنون الترف فى كل مكان ، فثمة تماثيل من الرخام المجزع ، والقاشانى[1] (Faience) وأشغال الخشب المذهب ، وأشغال المعادن والجلد المضغوط بالنقوش البارزة ، وموسيقى كثيرة وتصوير فاخر ، وطباعة جميلة وتجليد مونق وطباخة ممتازة وخمور بديعة . وكان يسير بين المرايا والأثاث البديع جنس عجيب من السادة فى شعور مستعارة ضخمة مذرورة بالمساحيق ، وحرائر ومخرمات وهم يتمايلون على أعقاب عالية حمراء ، ويتوكأون على عصى باهرة !! هذا إلى سيدات أكثر إدهاشاً وإعجاباً ، تحت أبراج من الشعور المغطاة بالمساحيق وفى ثياب لها متسعات عظيمة من الحرير والساتان تحملها الأسلاك . وكان يتجلى وسط ذلك كله لويس العظيم ، شمس عالمه ، غير شاعر بالوجوه الهزيلة المتجهمة المريرة التى كانت ترقبه من تلك الظلمات الدنيا التى لم تخترق حجبتها شمسُ ضيائه .

وليس هذا مجال التفصيل فى قصة حروب ذلك الملك وأعماله . وما يزال كتاب ڤولتير المسمى « عصر لويس الرابع عشر » أحسن ما كتب عنه وأصحه من وجوه كثيرة . أنشأ الملك بحرية فرنسية كفءاً لمقاتلة الإنجليز والهولنديين . وهو عمل يعد مأثرة عظيمة القدر . ولكن نظراً لأن ذكاءه لم يسْمُ قط عن سحر مغريات ذلك السراب الخادع ، أو تلك اللوثة التى أصابت العقلية السياسية فى أوربا ، وأعنى به الحلم بقيام « إمبراطورية رومانية مقدسة » تشمل العالم طرا ، فإنه تحول فى سنواته الأخيرة إلى استرضاء البابوية ، التى كانت حتى ذلك الحين معادية له . ونصب نفسه حربا على روح الاستقلال والانفصال ، الممثلة فى الأمراء البروتستانت ، وأشعل نار الحرب على البروتستانتية فى فرنسا . فأبقتْ إلى خارج البلاد فرارا من اضطهاداته الدينية جماعات وفيرة العدد من خيرة رعاياه اعتدالا وأعظمهم قيمة ، حاملين معهم فنوناً

---

(١) القاشانى : هو ضرب من الخزف الممتاز مطلى بطبقة صقيلة من الطلاء الملون . (المترجم)

وصناعات . فإن صناعة الحرير الإنجليزية مثلا ، قام بتأسيسها البروتستانت الفرنسيون . ونفذت إبان حكمه عملية « الدراجوناد Dragonnades » وهي طريقة للاضطهاد شريرة فعالة بوجه خاص . فكان بعض الجنود الأجلاف يُنْزَلون في منازل البروتستانت ، ويباح لهم أن يفسدوا نظام حياة مضيفيهم وأن يهينوا نساءهم على الشاكلة التي ترضيهم . وخضع لهذا النوع من الضغط ، كثير من الرجال لم ممن يكونوا ليخضعوا للنار والعذراء » خالعة العظام .

وانقطع تعليم الجيـــل التالي من البروتستانت ، وكان الآباء بين أن يعلموا أولادهم تعليما كاثوليكياً أو لا يعلمونهم البتة . ولا يداخلنك شك أنهم كانوا يعطونهم ذلك التعليم ، ولكن في سخر ونغمة صوت تذهب بكل ثقة فيه . وبينما الأقطار الأكثر تسامحاً أصبحت في معظم أمرها مخلصة في عقيدتها الكاثوليكية أو البروتستانتية فإن الأقطار التي أنزلت الاضطهاد برعاياها أمثال فرنسا وأسبانيا وإيطاليا ، بلغ من قتلها للتعليم البروتستانتي الشريف ، أن أصبح هؤلاء الناس في جل شأنهم مجرد كاثوليك معتنقين للكثلكة أو كاثوليك ملحدين ، مستعدين للانتقال إلى الإلحاد الغفل المطلق ما سنحت لهم الفرصة لذلك . وكان العهد التالي أي عهد لويس الخامس عشر هو عصر ذلك الساخر الرفيع ڤولتير (١٦٩٤ — ١٧٧٨) ، وهو عصر كان فيه كل إنسان في الجماعة الفرنسية مطابقاً للكنيسة الكاثوليكية ومتمشيا معها ، على حين لا يكاد يكون فيهم واحد يؤمن بها .

وكان من مقومات الملكية العظمى — بل من مقوماتها الفائقة الممتارة — أن تنصر الآداب والعلوم . فأقام لويس الرابع عشر أكاديمية للعلوم منافساً بها الجمعية الملكية الإنجليزية التي أنشأها شارل الثاني ومثيلتها جمعية فلورنسا . وقد زين بلاطه بالشعراء وكتاب المسرحيات والفلاسفة ورجال العلم . ولئن خرجت الطريقة من هذه الرعاية بالشيء القليل من الإلهام ، فإنها حصلت على كل حال على موارد مالية تعينها على التجريب والنشر مع قدر خاص من الهيبة في أعين السوقة .

وكانت الجهود الأدبية في كل من فرنسا وإنجلترة ، منوالا تقيس على مثاله معظم الجهود الأدبية الأوربية أثناء تلك الفترة ، فترة الملوك الأعظمين ما بين صغير وكبير ،

وفترة البيوتات الريفية الكبيرة والمنشئات التجارية النامية . وكانت ظروف الأحوال بفرنسا أكثر اعتماداً على الملكية منها بانجلترة ، وأشد تمركزاً واتساقاً . وكان الكتاب الفرنسيون تعوزهم التقاليد العظيمة التى تهيأت لمثل تلك الروح الحرة غير المنظمة — روح شكسبير — إذ كانت الحياة الذهنية للفرنسية تتركز حول البلاط ، وكانت أشد من الإنجليزية إحساساً بالضبط وكبح الجماح . وهى لم تنتج أبداً أدباء من « العامة » أبناء الشعب أمثال « بنيان Bunyan » الإنجليزى ، ولم يكن فى متناول أيديها فى القرن السابع عشر مثل ذلك السراح المطلق لروح التمرد والانشقاق الذى قامت عليه الجمهورية والذى يطلق عقال رجل مثل ملتون . وكانت نزعتها أميل إلى مراعاة الصحة والقيود ، وكانت أتم خضوعاً لنفوذ معلمى المدارس والنقاد المتمسكين بالقواعد . وكانت تخضع المادة للأسلوب . فكأن تنظيم الأكاديمية لم يزد قيودها المفرطة إلا تشديدا . وترتب على تلك الفروق ، أن تشبع الأدب الفرنسى السابق على القرن التاسع عشر بالوعى الذاتى الأدبى ، وكأنى به قد كتب بروح طالب ماهر يخشى الدرجات الرديئة ، أكثر منه بروح رجل ينشد التعبير الصريح . فإنه أدب قوامه الدرر اليتيمة والمآسى والمهازل (التراجيديات والكوميديات) وقصص الرومانس[1] والمباحث النقدية وكلها باردة صحيحة مطابقة للأصول ، جوفاء خالية من الحيوية بشكل خارق للعادة . وممن برزوا بين ممارسى « الصحة » فى الدراما ، كورنى (Corneille) (١٦٠٦ — ١٦٨٤) وراسين (١٦٣٩ — ١٦٩٩) . وانتصر موليير (١٦٢٢ — ٧٣) كذلك على عصره بكوميديات يرها بعض الثقات خير ما ظهر فى العالم . ويكاد العرق الوحيد من القراءة السهلة الناصعة اللذيذة الذى يبدو وسط الرياش العقلى الدمث الفاخر للملكية الفرنسية العظمى ، أن يوجد فى مذكرات ذلك الزمان المليئة بالقيل والقال والفضائح . فهناك هذه ، وهناك تدوين بعض المساجلات القوية الاجتماعية والسياسية .

ومن أروع وأحسن ما سطر بالفرنسية أثناء ذلك الزمان ما قام به فى خارج فرنسا فرنسيون منفيون ومتمردون . فإن ديكارت (١٥٩٦ — ١٦٥٠) أعظم الفلاسفة

---

(١) الرومانس : قصص الغزل والفروسية . [المترجم]

الفرنسيين عاش معظم حياته فى ظلال أمن هولندة النسبى . وهو الشخصية المركزية المتسلطة بين مجموعة متألقة من العقول المتأملة وأهل النظر ، نشطت فى إعمال معول التقويض والتعديل والتحقير بمسيحية عصرهم المهذبة . وكان يعلو محلقاً فوق كل هؤلاء المبعدين ، وفوق كل الكتاب المعاصرين الأوربيين شخص ڤولتير العظيم ، الذى سنتكلم عن اتجاهاته الذهنية فى فصل تال . وإن چان چاك روسو (١٧١٢ – ١٧٧٨) – وهو روح أخرى منبوذة – بما قام به من هجوم عاطفى على الأخلاق الشكلية واتخاذه العاطفى للطبيعة والحرية مثلا أعلى ، ليقف مبرزاً بوصفه الروائى الأعظم فى عصره ووطنه . وسنزيد القراء عنه بيانا

وكان الأدب الإنجليزى فى القرن السابع عشر مرآة تعكس سمة الشئون الإنجليزية الأقل قراراً وتمركزاً ، وكان به من العنفوان قدر أكبر ومن الصقل قدر أصغر مما للفرنسى . ولم يكن البلاط والعاصمة الإنجليزيان ابتلعا حياة البلاد القومية كما فعلت العاصمة والبلاط الفرنسيان . وربما أمكننا أن نضع مقابل ديكارت ومدرسته ، باكون الذى سبق أن نبأناك عنه فى بياننا عن النهضة العلمية ، ثم هوبز ولوك . وكان ملتون (١٦٠٨ – ١٦٧٤) ، يرتدى ثوباً مخلطاً من الدراسات الإغريقية واللاتينية ، والثقافة الإيطالية واللاهوت البيوريتانى مع أبراد من المجد من نسج يديه . وكان هناك قدر جسيم من الأدب الحر خارج مجال النفوذ الكلاسيكى ، ولعله وجد أشد خصائص تعبيره فى كتاب بنيان « مسير الحاج Pilgrim's Progress » – (١٦٧٨) . وواضح أيضاً أن تواليف ديفو Defoe المبتكرة (١٦٥٩ – ١٧٣١) الذى لم ينل بعد قدره الحق من التقدير ، موجهة إلى جمهور برىء من تهذيبات العالم الأكاديمى وادعاءاته ؛ وإنما جاء مؤلفه روبنسون كروزو واحداً من أعظم مبتكرات الأدب . وكتابه « مول فلاندرز Moll Flanders » إنما هو دراسة للأخلاق تستدعى الإعجاب ، وديفو هذا الكتاب وفيما كتبه فى التطورات الخيالية للتاريخ ، إنما يسبق كثيراً من الناحية الفنية كل معاصريه . ويكاد يكون على نفس مستواه ، فيلدنج الحاكم اللندنى ومؤلف « توم چونز » . وكان صموئيل رينشاردسون بائع الأقمشة الذى كتب « پاميلا وكلاريسا » ، شخصية عظيمة ثالثة بين حقائق الأدب الإنجليزى الحية فى القرن

الثامن عشر ؛ وهو الأدب الذى لم يعن بأن يكون أدبياً ، وإلى هؤلاء الثلاثة جرت عادة النقاد أن يربطوا اسم « سموليت Smollett » ، وهو أدنى كثيراً . وبهذه الأسماء وباسم چان چاك روسو معها ، تعود إلى الأهمية « الرواية » وهى البيان شبه الحقيقى عن طرائق العيش ، وعن الضرب فى أرجاء العالم ، وعن الالتقاء بالمسائل الخلقية ، وذلك بعد أن اختفت بتدهور الإمبراطورية الرومانيه . وتؤذن عودتها بانطلاق سراح أنواع جديدة غير محدودة من الناس ميالة إلى الاستطلاع فى شئون الحياة والخُلق ، وهم أناس أوتوا شيئاً من وقت الفراغ ، وأناس تواقون إلى تكميل تجربتهم الخاصة بقصص مغامرات من هم على شاكلتهم . ذلك بأن الحياة أصبحت أقل وطأة وأكثر لذة .

وربما جاز لنا هنا قبل أن نختم هذه الحاشية الأدبية ، أن نلحظ أيضاً ما عليه أديسون (١٦٧٢ - ١٧١٩) ، من خواء رشيق بوصفه شخصية لها أثرها فى الأدب الإنجليزى ، وما للدكتور صويل چونسون (١٧٠٩ - ١٧٨٤) ، من رغبة فى التعقيد يحبها الناس ، وهو مصنف أول قاموس إنجليزى . ولا يكاد يصلح للقراءة الآن من كتاباته الفعلية شىء اللهم إلا تراجم قليلة قصيرة للشعراء ، بيد أن أمثاله وغرابة أطواره قد بقيت لنا فى الكتاب الذى ألفه بوزويل عن تاريخ حياته چونسون . فأما اسكندر پوپ (١٦٨٨ - ١٧٤٤) ، وكان كلاسيكى الاتجاه فرنسى الروح ، فإنه ترجم هوميروس ثم تناول بعض المذاهب الدأيستية[1] فحولها إلى شعر صقيل متقن . وصدرت أقوى كتابات هذا العصر ، عصر الرجال المؤدبين غير المتازين فى إنجلترة شأنه فى فرنسا ، عن روح انغمست فى نزاع عنيف مع النظام السائد ، بل مع نظام العالم بأجمعه فى الواقع ، وهو سويفت (١٦٦٧ - ١٧٤٥) ، مؤلف رحلات جَلّيفر . وهناك « لورانس ستّرن L. Sterne » ، (١٧١٣ - ١٧٦٨) ، وهو رجل الدين الذى تكاد تتصل باسمه شهرة السوء والذى كتب « تريسترام شاندى » ، وعلم من تلاه من كتاب القصص مئة حيلة مبتكرة فى فن الرواية . وقد استقى حيويته من عظمة الفرنسى رابليه السابق على العهد الكلاسيكى . ولسوف نقتبس من

---

(١) الفلسفة الدايستية أو الربوبية Deistic فلسفة مخالفة للمسيحية تؤمن بوجود الإله وتنكر الوحى . (المترجم)

جيبون المؤرخ فى قسم تال ، وعند ذاك نحدثك ثانية عن التحديدات العقلية العجيبة التى تغل ذلك العصر عصر الجنتلمانية .

ومات الملك الأعظم فى ١٧١٥ . وخلفه لويس الخامس عشر وهو ابن حفيده والمقلد غير الكفء لفخامة سلفه العظيم . اتخذ وضعة ملك وجلاله ، ولكن الشهوة المتسلطة عليه كانت هى الشىء العادى الملازم لجنسنا البشرى ، وهى طراد النساء الذى يخفف منه خوف من جهنم يمتّ إلى الخرافات بسبب . فأما كيف أن نساء من أمثال الدوقة شاتوروه ومدام بومبادور ومدام دى بارى تسلطن على ملذات الملك ، وكيف أن الحروب كانت تشب والمحالفات تعقد وأن المقاطعات كان يعاث فيها فساداً ، وآلافاً من الناس يقتلون بسبب غرور هاته المخلوقات وأحقادها ، وكيف حدث أن كل الحياة العامة لفرنسا وأوربا تلوثت بالدسائس والبغاء والاحتيال بسببهن ، — فأمور ينبغى أن يعلمها القارئ من مذكرات ذلك الزمان . وصارت السياسة الخارجية الطموح فى حكم لويس الخامس عشر بقدم ثابتة صوب تحطيمها النهائى .

وفى ١٧٧٤ مات هذا اللويس بمرض الجدرى ، لويس المحبوب جداً كما كان مملقوه يسمونه ، وخلفه على العرش حفيده لويس السادس عشر (١٧٧٤ — ١٧٩٣) ، وهو رجل غبى حسن النية ، وصاحب طلقة نارية بديعة التسديد ، وصانع أقفال هاو على شىء من المهارة . فأما كيف أنه تبع شارل الأول إلى المقصلة فأمر سندلى به فى قسم تال . إذ ينحصر كل اهتمامنا فى الوقت الحاضر ، فى الملكية العظمى إبان مجدها .

وقد نستطيع أن نذكر من بين ممارسى الملكية العظمى خارج فرنسا الملوك البروسيين أولا وهم فردريك وليم الأول (١٧١٣ — ١٧٤٠) ، وابنه وخلفه فردريك الثانى وهو فردريك الأكبر (١٧٤٠ — ١٧٨٦) . وقصة النهوض البطىء لأسرة هوهنزلرن ، التى حكمت مملكة بروسيا ، مبتدئة من بدايات مغمورة غير مبرزة ، قصة مملة ليس يهمنا أن نتتبعها هنا . وهى قصة تجمع بين الحظ والعنف ، والدعاوى الجريئة والخيانات المباغتة . ويسردها مع التقدير العظيم كتاب كارليل المسمى « فردريك الأكبر » . حتى إذا وافى القرن الثامن عشر كانت المملكة البروسية

قد بلغت من الأهمية حداً هددت معه الإمبراطورية ؛ وكان لها جيش قوى حسن التدريب ، وكان ملكها ممن أعطوا مكيافللى حظاً كبيراً من التفاتهم وعنايتهم . وجعل فردريك من قصر بوتسدام فرسايا آخر بلغ به حد الكمال . إذ هناك بلغت جنات سان سوسى ، بنافوراتها وشوارعها المزدانة بالأشجار وتماثيلها حد التقليد « القردى » لنموذجها الفرنسى ؛ وكان هناك كذلك القصر الجديد وهو بناء هائل من الطوب أنفقت فى تشييده أموال طائلة ، وكذلك صوبة البرتقال (الأورانجرى[1]) ذات الطراز الإيطالى وفيها مجموعة من الصور ، وقصر من الرخام إلى غير ذلك . وسما فردريك بالثقافة إلى حد التأليف ، كما أنه أخذ يراسل ڤولتير ويستضيفه حتى انتهى بهما الأمر إلى السآمة المتبادلة .

وكانت الإمبراطورية النمساوية مشغولة على الدوام ما بين مطرقة الفرنسيين وسندان الأتراك حتى أنها لم تستطع أن تطور نموذج الملك الأعظم الحقيقى إلى عهد ماريا تريزا (١٧٤٠ — ١٧٨٠) (التى لم تحمل لقب الإمبراطورة لأنها امرأة) . وخلفها على قصورها فى ١٧٨٠ جوزيف الثانى الذى تولى الإمبراطورية منذ (١٧٦٥ — ١٧٩٠) .

وبظهور بطرس الأكبر انفصلت الإمبراطورية المسكوفية عن تقاليدها التتارية ودخلت إلى حيز الجاذبية الفرنسية . وحلق بطرس لحى نبلائه الشرقية وأدخل الثياب الغربية . ولم تكن هذه إلا الرموز الخارجية المرئية لميوله الغربية . ولكى يحرر نفسه من الشعور الأسيوى وتقاليد موسكو ، التى لها — شأن بكين — مدينة جوانية مقدسة ، هى « الكرملين Kremlin » بنى لنفسه عاصمة جديدة هى بتروجراد على مستنقع النيڤا . وطبيعى أنه شاد لنفسه فرسايا أخرى هى قصر البيترهوف على قرابة ثمانية عشر ميلا من باريس الجديدة هذه ، مستخدماً فى ذلك مهندساً معمارياً فرنسياً ومنشئاً شرفة (تراسا) ونوافير ومساقط مائية وبهواً للصور وجنات وكل المظاهر المعترف بها . وكان من أبرز خلفائه إليزابث (١٧٤١ — ١٧٦٢) وكاترين العظيمة ، وهى أميرة ألمانية ، عادت بعد الحصول على التاج بطريقة شرقية بحتة هى قتل زوجها ،

---

(١) الأورانجرى أو صوبة البرتقال (Orangery) : مبنى من الزجاج يساعد بدفئه شجر البرتقال على النمو . (المترجم)

القيصر الشرعى ، فانحرفت إلى مثل عليا غربية تقدمية وحكمت البلاد بقوة عظيمة من (١٧٦٢ إلى ١٧٩٦) . فأقامت أكاديمية ، وتراسلت مع ڤولتير . وعاشت حتى شهدت نهاية « الملكية العظمى » فى أوربا وإعدام لويس السادس عشر .

ويضيق المقام عن مجرد تقديم قائمة بأسماء صغار « الملوك الأعظمين » فى فلورنسا (توسكانى) وساڤوى وساكسونيا والدانمارکة والسويد . ولو راجعت كتاب دليل بيديكار[١] لشهدت فى كل عاصمة ڤرسايا جديداً باسم جديد تقلد ڤرساى باريس ، وإن السائح لتأخذه الدهشة أثناء مروره فى تلك القصور لدقة التقليد . وكذلك يضيق المقام عن معالجة حرب الوراثة الأسبانية . فإن أسبانيا وقد أجهدتها فوق طاقتها مشروعات التوسع الإمبراطورى التى دبرها شارل الخامس وفيليب الثانى ، وأضعفها ما أظهرته نحو البروتستانت والمسلمين واليهود من اضطهاد تعصبى ، أخذت طوال القرنين السابع عشر والثامن عشر تهبط عما أوتيت من أهمية موقوتة فى الشئون الأوربية وتعود ثانية إلى مستوى دول الدرجة الثانية .

كان هؤلاء الملوك الأوربيون يحكمون ممالكهم كما يحكم نبلاؤهم مزارعهم ، كانوا يتآمرون بعضهم ببعض ، وكانوا « سياسيين » « وبعيدى النظر » بطريقة أبعد ما تكون عن الواقع ، وكانوا يخوضون الحروب ويبددون العصارة الحيوية لأوربا فى سياسات سخيفة من العدوان والمقاومة . وانتهى الأمر بأن انفجرت عليهم من الأعماق عاصفة هوجاء . وكانت تلك العاصفة هى الثورة الفرنسية الأولى ، فإن غضب الرجل العامى فى أوربا أخذ نظامهم بغتة وعلى حين غرة . ولم يكن ذلك إلا الانفجار الافتتاحى لدورة عظيمة من العواصف السياسية والاجتماعية ما تزال مستمرة ، ولعلها ستستمر حتى يزول آخر أثر للملكية القومية النزعة ثم ينقشع الغمام وتنجلى السماوات ثانية على السلام الأعظم الذى سيظلل اتحاد البشرية جمعاء .

---

(١) دليل بيديكار (Baedeker) : كتاب يصدر بلغات أجنبية متعددة عن أهم أقطار العالم مبينا أهم ما بها من المدن والآثار والمعالم . (المترجم)

٦ ــ الموسيقى فى القرنين السابع عشر والثامن عشر

كان القرنان السابع عشر والثامن عشر فترة تقدم قوى فى الموسيقى . إذ أن العوامل الفكرية الممهدة لذلك كانت أحكمت ، وتأسس الديوانان (السلمان) الموسيقيان الكبير والصغير بما لها من تعاقب ثابت للنغمات ، ومن قابلية للتكييف وفق التلحينات وبما يكمن فيهما من احتمالات اللون الهارمونى . فصار فى الإمكان تحديد القصد الموسيقى (Musical intention) تحديداً واضحاً ، وأن ينظم التعاون بين آلات متنوعة فى دقة عظيمة . وكانت الأحوال الاجتماعية ما بين مدن نامية وبلاطات وبيوتات ريفية تضيف ميادين جديدة من الاحتمالات الموسيقية إلى المجال القديم المنحصر فى جوقة المرتلين الكنسيين . وكانت الحفلات التنكرية والمهرجانات قد انتشرت وأصبحت محبوبة من الشعب فى القرن السادس عشر ، فأتاحت أمام محكم الموسيقى فرصاً جمة ، وأصابت الأوپرات والأناشيد الدينية تقدما عظيما عند حلول القرن السابع عشر .

وظهرت فى إيطاليا الموسيقى الجديدة (Nuove Musiche) . يقول السير و . هـ . هادو « إن لولى (١٦٣٥ ــ ١٦٨٧) ، هو أعظم شخصية من الوجهة التاريخية ؛ وما كان ذلك فقط من أجل ما حوته ألحانه من قوة درامية تمثيلية ، بل لما تجلى فى طريقة خطابه الدرامى من ضبط متسق » . ويقف إلى جواره الإيطالى مونتيڤردى . ذلك أن الموسيقى شرعت تعمل على معيار كبير فى تلك المدة .

« ودونت قداسات القرن السادس عشر لجوقات المرتلين بالكنيسة ، وكتبت غزليات (مادريجالات) القرن السادس عشر ليستمتع بها جماعة من الخلان حول مائدة عشائهم ، ولم يحدث إلا عند قريب من نهايته أن عازفى العود والڤرچينال يشرعون فى أن يتجهوا بأذهانهم إلى فكرة الأستاذية[1] Virtuoso فى الفن التنفذى ... واجتلب التحسين العظيم فى بناء الأرغن عدداً متعاقباً من العازفين العظماء : منهم بُل وفيلبس الإنجليزيان ، وسويلنك الهولندى ، وفرسكو بالدى فى روما ، وفروبرجر فى ڤيينا ، وبكستودى فى لوبيك ، وهو الذى سعى إليه باخ ماشياً على قدميه لكى

(١) (Virtuoso) : الأستاذ الماهر فى الفنون الجميلة وخاصة الموسيقى . (المترجم)

ينعم بسماعه . . . ويساير هذا كله التطور الذى لحق موسيقى الفرچينال[١] ولا يقل عن ذلك في الأهمية وصول الكمان وعائلتها وتلكؤ الناس فى قبولها . فإنها وإن رجعت إلى عهد تيفن بروخر وأسرة أماتى[٢] فى النصف الأول من القرن السادس عشر ، إلا أنها قضت زهاء مئة عام تشق طريقها نحو القبول والرضا العام . ناهيك بأن ماس عازف العود كان فى عصر يصل فى تأخره إلى ١٦٧٦ ما يزال مستطيعاً أن يطعن فى « الكمان الصارخة » — على حد تعبيره ، وأن يأسف على نغم جدتها الڤيول Viol الأكثر هدوءاً واستواءاً . بيد أن نطاقها الأرحب ، وخفة حركتها العظمى وقوة تعبيرها الأشد وخزاً وتأثيراً فرضت نفسها وأصبحت شيئاً ملموساً على طول المدى . . . وبلغ من شأنها فى إيطاليا موطنها الأصلى وإن حلوها فى سماجة وعزفوا عليها فى سماجة — أن اعترف لها الناس بأنها الآلة الوحيدة التى تستطيع أن تضارع الصوت الإنسانى وتنافسه[٣] » .

ويقال إن التطور الموسيقى تأخر حيناً من الدهر بسبب التباهى بالصائت المغنى والإعجاب به فى الأوبرا الإيطالية ، وكان لمغنى القرن السابع عشر ، وبخاصة أصحاب صوت السوبرانو من الذكران ، صيت يقارب فى سوقيته وشناعته ما لنجوم السينما العصريين ، ومع هذا فإن تلك الفترة أظهرت موسيقى السآندرو اسكرلاتى (١٦٥٩ — ١٧٢٥) الجميلة الوفيرة وهو البشير الممهد لموزار . وحدث فى انجلترة انفجار عظيم من النشاط الموسيقى بلغ أوجه فى شخص پورسل (١٦٥٨ — ١٦٩٥) بعد فترة هدوء أثناء عصر الجمهورية . وفى ألمانيا أمدت البلاطات الصغيرة وجوقات المدن الشعب الألمانى بقدر لاحصر له من مراكز الاستثارة الموسيقية ، وولد فى ١٦٨٥ بسكسونيا يوهان سباستيان باخ وهاندل ، ليحملا الموسيقى الألمانية إلى سمت التفوق والاستعلاء الذى قدر لها أن تحافظ عليه طيلة قرن ونصف من الزمان .

---

(١) الفرچينال : آلة موسيقية صغيرة يلعب عليها بواسطة الدساتين (لوحة الأصابع) . (المترجم)

(٢) أسرة أماتى (Amatis) : اسم عائلة من صناع إيطاليين للكمان وهم مؤسسو مدرسة الكمان الكريمونية . (المترجم)

(٣) انظر كتاب "Music" من تأليف السير و . ه . هادو .

يقول السير و . ه . هادو « إنهما بين جميع الملحنين قبل عصر ڤينا أشداهم وأوثقاهم ارتباطاً بزماننا هذا وإن صوتيهما ليرنان فى آذاننا بآلف اللهجات وأدناها إلينا » .

فأما پالسترينا الذى سجل لنفسه آنفاً ذروة فى الموسيقى ، فإنه بالمقايسة مخلوق يعيش فى عالم آخر . إذ كان تاجاً على مفرق أساتذة موسيقى جوقة المرتلين الكنسية قبل عهد الآلات العظيم . وجاءت بعقب أسماء باخ وهاندل مجموعة من أسماء أخرى. فإن هايدن (١٧٣٢ — ١٨٠٩) ، وموزار (١٧٥٦ — ١٧٩١) وبيتهوڤن (١٧٧٠ — ١٨٢٧) يقفون مبرزين بين أشد الكواكب تألقاً . ذلك أن الفيض العظيم للموسيقى العصرية كان ينثال آنذاك عميقاً جياشاً واسع الجنبات . وما يزال يهمى ويفيض . ولا يتسع المقام هنا إلا لذكر المؤلفين الموسيقيين ثم ندلى إليك بعد ذلك فى فقرة موجزة أو ما إليها بتعميمات قليلة مركزة حول موسيقى القرن التاسع عشر وموسيقى أيامنا هذه . كانت هذه الموسيقى ، موسيقى القرنين السابع والثامن عشر إبان صنعها امتيازاً خاصاً لعالم صغير مثقف — هو من فى البلاطات من الناس ، ومن فى مدن المقاطعات والدور الريفية من أناس يستطيعون أن ينظموا حفلات عزف ومَن من الناس فى مدن تحوى لكبرها دور الأوبرا وحجرات العزف . وكان نصيب الفلاح والعامل من الموسيقى فى أوربا الغربية قدراً مطرد التناقص إبان القرنين السابع عشر والثامن عشر بينما كانت هذه الأشكال الجديدة آخذة فى التطور . ذلك أن الغناء الشعبى تدلى واضمحل وبدت عليه مظاهر التعرض للنسيان . وكان كل ما تبقى للكافة من الناس من حياة موسيقية هو بضع أغان شعبية وبضع ترانيم . والراجح أن النهضات الدينية فى تلك الأيام ، مدينة بشىء من قوتها الدافعة إلى إطلاقها سراح الحافز الغنائى السجين . ولم يحدث إلا فى أيامنا هذه مع ظهور تطور ضخم فى الطرائق الآلية للإنتاج والنشر الموسيقى ، أن الموسيقى وقد صبغت بالصباغ العصرى وخالطها النشوء والارتقاء وارتفعت فى علياء التسامى — تعود إلى غمار الحياة العادية . فأصبح من ثم باخ وبيتهوڤن جزءاً من ثقافة الجنس البشرى العامة .

٧ — التصوير فى القرنين السابع عشر والثامن عشر

إن فى التصوير والعمارة فى هذا الزمان شأن موسيقاه ، مرآة تعكس الأحوال الاجتماعية فيه . وهو زمان تحطمت فيه الفكرات وتمزق السلطان ، ولم تعد اعتبارات

المظهر (object) والروعة تسيطر على الفن التصريرى . وقد نزلت الموضوعات الدينية إلى مرتبة ثانوية ، فحيثما عالجها الناس عالجوها بوصفها أحداثاً صغيرة فى قصة وليس بوصف كونها حقائق عظيمة هائلة . وتنحط أشكال الكنايات[1] والرمزيات . فإن المصور يصور من أجل الرؤية لا من أجل الفكرة ولا من أجل الحقيقة . وتحل صورة الحقيقة والواقع محل صورة الأبطال أو صور التبتل الدينى على نفس الشاكلة التى تحل بها الرواية محل الملحمة والرومانس العجيبة الخيال . والأستاذان المتفوقان فى تصوير القرن السابع عشر هما ڤيلا سكويز (١٥٩٩ — ١٦٦٠) ورامبرانت (١٦٠٦ — ١٦٦٩) . إذ يخيل إلينا أن الحياة كانت فى نظرهما متكافئة كلها لا تتفاوت إلا بمقدار ما تقدم إليهما من مجال ضاق أو رحب لتحقيق الجمال فى الجو والنور والمادة . وكان ڤيلا سكويز يقوم فى البلاط الأسبانى المتدهور ، برسم البابوات والملوك دون تمليق ، ورسم الأقزام والمقعدين دون ما احتقار . ويخلى الرسم الدقيق التحليلى والتسجيلى (Documentary) مكانه فى أشغال هذين الرجلين — وهما أول المصورين العصريين — لعملية إفراغ إجمالى للأثر ، ولتركيز على وحدة الانطباعة وذلك على حساب كل الاعتبارات الثانوية . وكانت الصورة إلى ذلك العهد فى حياة الماضى الشديدة لتركز ، إما شاهداً يشهد بشىء أوحتثاثاً على شىء أو تمليقاً لشخص أو حلية لمكان ، فأما الآن فإنها أصبحت فى عدد عظيم من الحالات ، شيئاً فى حد ذاته ، شيئاً يوجد من أجل نفسه . فالصور تعلق بوصفها صوراً وتجمع فى معارض للصور . وتطورت المناظر الطبيعية (Landscape) تطوراً قوياً ، كذلك تصوير مناظر الحياة العادية (Genre)[2] . وصارت الصور العارية (Nude) تنقش شكل لطيف مثير ؛ وفى فرنسا أبهج كل من واتوه وفراجونار وغيرهما طبقة الخاصة وتملقوهم بلمسة من التقديس الرقيق لحقائق الحياة الريفية . وإن الإنسان ليدرك فى هذه الأشياء شواهد

---

(١) الكنايات (Allegory) ضرب من التصوير المجازى أو الرمزى يرمى إلى موقف له ظل من الحقيقة ومع ذلك فهو موضوع فى عالم الخيال . (المترجم)

(٢) الجنر (Genre) : هو لفظ يطلق فى النقش والتصوير على الصور التى تصور الحياة العادية من أمثال المناظر المنزلية أو الريفية أو القروية . (المترجم)

تم عن مجتمع تام مكون من أناس آمنين موفقين ذوى أرواح جدُّ ممتازة ، يقدرون الحياة وينفصلون شيئاً ما عن مباذخها وآلامها جميعاً .

ولم يُبد عصر إليزابيث فى إنجلترة أى تحمس فى فنون التشكيل يطاول جهوده الأدبية والموسيقية . فهى إنما كانت تستورد مصوريها ومعمارييها . بيد أنه حدث فى القرنين السابع عشر والثامن عشر ، أن خلقت الثروة المتجمعة والرخاء المتكاثف اللذان أصابتها تلك الدولة التى كانت حتى حين قطراً على هامش المدنية الغربية ــ أحوالاً توائم ازدهار المجهود الفنى ، حتى إذا وافى القرن الثامن عشر كان أمثال رينولدز (١٧٢٣ ــ ١٧٩٢) ، وجينزبورو (١٧٢٧ ــ ١٧٨٨) ورومى من المصورين الإنجليز يستطيعون أن يطاولوا أى مجهود معاصر .

وكانت هذه الفترة ، فترة الملكيات وطبقة الخاصة ، موائمة أيضاً أعظم المواءمة لتطور طرز معينة من العمارة . ذلك أن عمليات ناشطة من قبل فى القرن السادس عشر ، كانت لا تزال تعمل عند ذاك بقوة متزايدة . وكان الملوك فى كل مكان يبنون القصور ويعيدونها بناءً ، وكان النبلاء والأعيان يهدمون قلاعهم ويشيدونها منازل أنيقة . فأما منازل المدن فقد شرع فن العمارة فى التفكير فيها على معيار أكبر . فأما فن العمارة الكنسى فإنه ذوى . وأضحى مجهود البلديات أقل أهمية نسبياً ، والواقع أن المثرى الكبير الفرد ، إنما هو القابض بيده على مفتاح الابتكار فى ذلك العصر فى هذا الشأن وفى غيره من الشئون . وأتاح احتراق قسم عظيم من لندن فى الحريق الكبير (١٦٦٦) ، لإنجلترة نهزة خاصة أتيحت للسير كرستوفررن ، وإن كاتدرائية سانت بول وكنائس لندن ، لتسجل دوراً بالغا الأوج فى العمارة الإنجليزية . وكان له الفضل على أمريكا إذ أرسل إليها تصميمات لبيوت ريفية منوعة شيدت هناك ، كما أن عبقريته الخاصة طبعت أثرها فى فن التصميم الأمريكى الباكر . وكان إينيجو جونز شخصية عظيمة ثانية بين المعماريين الإنجليز فى بواكير القرن السابع عشر ، وهذه قاعة الولائم التى قصد بها أن تكون قسما من قصر فى هوايت هول[1] لم يتم بناؤه ــ تجعل عمله مألوفاً

---

(١) هوايت هول : قصر بناه ولم يتمه هنرى الثامن ودمرته النيران فى ١٦٩٨ . (المترجم)

لدى كل زائر لمدينة لندن . وكان كل من هذين الرجلين بل فى الواقع كل المعماريين الإنجليز والفرنسيين والألمان فى تلك الفترة ، يشتغلون على أساس النهضة الإيطالية التى كانت ما تزال حية متطورة ، وذلك أن كثيرا من أحسن المبانى فى ذلك الزمان كان من عمل إيطاليين . وحدث بالتدريج مع اقتراب القرن الثامن عشر من نهايته ، أن توقف التطور الحر الطبيعى لعمارة عصر النهضة ، إذ اعترضته موجة من التحذلق الكلاسيكى . وكان لما نال الدراسات الكلاسيكية بمدارس أوربا الغربية من تجمد تدريجى ، نظير بدا فى ظهور نزعة متزايدة إلى تقليد نماذج إغريقية ورومانية فما كان يوماً ما من المنبهات أضحى الآن مخدراً ذهنياً تقليدياً مخبلا للعقول . وأصبحت البيوت المالية والكنائس والمتاحف تبنى على صورة المعبد الأثينى ، وحتى شرفات (تراسات) المنازل نفسها أخضعت لنظام أبهاء الأعمدة (Colonnades) . ولكن أسوأ غلوّ نهياً لهذه النزعات القاتلة ، جاء فى القرن التاسع عشر خارج حدود عصرنا الراهن هذا .

٨ – نمو فكرة الدول العظمى

رأينا كيف ظهرت فى الشئون الإنسانية فكرتا الحكم العالمى والمجتمع البشرى ، وقصصنا كيف أن إخفاق الكنيسة المسيحية على اختلاف مذاهبها فى توطيد وصيانة تينكم الفكرتين ، فكرتى مؤسسها يسوع ، قد أفضى إلى انهيار خلقى فى الشئون السياسية وانتقال إلى الأنانية ونقص فى الإيمان . ورأينا كيف أن الملكية المكيافلية نصبت نفسها لمناهضة روح الأخوة فى المسيحية ، وكيف أن الملكية المكيافلية تطورت فى قسم كبير من أوربا فأصبحت الملكيات العظمى والملكيات البرلمانية فى القرنين السابع عشر والثامن عشر . بيد أن عقل الإنسان وخياله لاينفكان ناشطين ، لذلك فقد كانت تنتسج انتساج الشبكة تحت سلطان الملوك الأعظمين مجموعة معقدة من الأفكار والتقاليد ، تهدف إلى اصطياد عقول الناس والإمساك بها . تلك المجموعة المعقدة هى فكرة السياسة الدولية لا بوصفها موضوع معاملات بين الأمراء ، بل بوصف كونها موضوع معاملات بين نوع من الكائنات الخالدة ، هى الدول .

ذلك أن الأمراء يجيئون ويذهبون . فإن لويس الرابع عشر قد يخلفه لويس خامس عشر متصيد لربات الدل والجمال ، وقد يخلفه بدوره ذلك صانع الأقفال الهاوى الغبي لويس السادس عشر . وجاء بعد بطرس الأكبر خلف متعاقب من القيصرات . وكان أهم مظهر مستمر لآل هابسبرج بعد شارل الخامس ، فى كل من النمسا أو أسبانيا ، تواصلا للشفاه الغليظة والذقون القبيحة والاعتقاد فى الخرافات . وإن النذالة المحببة التى يبديها ملك مثل شارل الثانى ، لتتخذ من مدعياته هزواً وسخرياً . فأما الشيء الأرسخ قدماً فهو أعباء وظيفة وزير الخارجية ، وفكرات الناس الذين كتبوا عن اختصاصات الدولة . وقد كان الوزراء يحافظون على استمرار السياسة أيام اعتكاف ملوكهم ، وفى الفترات التى يخلو فيها العرش بين ملك وخلفه .

ولذا فإنا نجد أن الأمير أصبح بالتدريج أقل أهمية فى أذهان الناس من « الدولة » التى كان الأمير رأساً لها ؛ ومن ثم يحين الزمان الذى نقرأ فيه القليل فالأقل عن خطط وأطماع هذا الملك أو ذاك ، ونقرأ أكثر عن « خطط فرنسا » أو « أطماع بروسيا » . فإنا نجد فى عصر كانت فيه العقيدة الدينية فى انحدار ، رجالا يظهرون إيماناً جديداً جازماً بحقيقة هذه الشخصيات المعنوية . وذلك أن تلك الأطياف الضخمة المبهمة وأعنى بها « الدول » تسللت خفية إلى الفكر السياسى الأوربى ، حتى تسلطت عليه تسلطاً كاملا عند ختام القرن الثامن عشر وإبان التاسع عشر . وهى لا تبرح متسلطة عليه إلى يومنا هذا . وظلت القارة الأوربية مسيحية اسماً ، ولكن عبادة رب واحد روحاً وحقيقة معناها الانتماء إلى مجتمع واحد يضم كل زملاء الإنسان فى تلك العبادة . ولكن الواقع العملى أن أوربا لا تفعل ذلك ، بل إنها قد سلمت نفسها تسليماً تاماً لعبادة تلك الرطازة (Mythology) العجيبة المسماة بالدولة . ومن أجل هذه الآلهة « الدول ذات السيادة » ، ومن أجل وحدة « إيطاليا » ، وزعامة « بروسيا » ، ومن أجل مجد « فرنسا » ، ومقدرات « الروسيا » ، ضحت بأجيال عديدة من الوحدة الممكنة والسلام والرخاء وأودت بحياة ملايين من الرجال .

والنظرة إلى القبيلة أو الدولة كنوع من الشخصية إنما هى نزعة قديمة جداً فى العقل

الإنسانى . والكتاب المقدس حافل بمثل هذه التجسمات أو الشخصيات المعنوية . فإن مملكة يهوذا وأدوم وموآب ومملكة آشور (آشوريا) لتبدو فى الكتب المقدسة العبرانية كأنما هى أفراد . بل قد يكون من المستحيل فى بعض الأحايين أن يقول المرء هل الكاتب العبرى يعالج شخصاً أو أمة ؟ ولا خفاء فى أنها نزعة بدائية وطبيعية . ولكنها فى حالة أوربا العصرية ، ضرب من النكوص . فإن أوربا فى كنف فكرة « عالم Christendom » المسيحية تقدمت مراحل كثيرة فى سبيل الوحدة . وبينما كانت شخوص قبلية أمثال « إسرائيل » أو «صور» تمثل بالفعل مجتمعاً بعينه من القرابة الدموية ، واتساقاً بعينه فى الطراز وتآلفاً فى المصلحة ، فإن الدول الأوربية التى نشأت فى القرنين السابع عشر والثامن عشر ، كانت وحدات افتعالية تماماً . فالروسيا مثلا كانت فى الحقيقة مجموعة من أشد العناصر تبايناً وعدم تجانس ، ما بين قوزاق وتتار وأوكرانيين ومسكوفيين ثم انضم إليهم — بعد زمان بطرس — الاستونيون واللتوانيون . وكانت فرنسا فى حكم لويس الخامس عشر تضم الألزاس الألمانية ومناطق بورغنديا المتمثلة حديثاً ، وكانت سجناً للهوجنوت المهيضى الجناح ومستنزفاً لحياة الفلاحين . فأما فى « بريطانيا » فإن انجلترة كانت تحمل على كاهلها الممتلكات الهانوفرية فى ألمانيا كما تحمل اسكتلندة ، وأهل ويلز الأجانب تماماً ، والإرلنديين الكاثوليك المعادين . وإن هناك دولا كالسويد وبروسيا ، وأكثر منها فى هذا پولندة والنمسا ، وكلها تروح إذا نحن تتبعناها فى سلسلة من الخرائط التاريخية ، — تتقلص وتتمدد ، وتقذف بزوائدها وذوائبها خارجاً وتتجول فوق خريطة أوربا كما تفعل الأميبا تحت الميكرسكوب .

ولو أنّا تأملنا سيكولوچية العلاقات الدولية كما نراها متجلية فى العالم المحيط بنا ، وكما يظهرها تطور فكرة « الدولة » فى أوربا العصرية ، لأدركنا حقائق بعينها على غاية الأهمية من الوجهة التاريخية عن طبيعة الإنسان . لقد قال أرسطو إن الإنسان إنما هو حيوان سياسى ، ولكنه فى المعنى العصرى الذى لدينا عن كلمة « السياسة » وهى التى تشمل الآن سياسة العالم بأجمعها ، ليس بأى حال شيئاً من هذا القبيل . وما تزال غرائز قبيلة العائلة باقية فيه إلى يومنا هذا ، ولديه بعد هذا نزعة تدفعه إلى ربط نفسه وعائلته إلى شىء أكبر منهما ، أى إلى قبيلة أو مدينة أو أمة أو دولة .

ولكن هذه النزعة لو تركت ونفسها لكانت نزعة مبهمة جد غير نقادة . ومهما يكن من شيء ، فإنه ميال إلى خشية وكراهية كل نقد يوجه لذلك الشيء الأكبر الذى يحيط بحياته والذى سلم نفسه إليه ، كما أنه ميال إلى تجنب مثل هذا النقد . ولعل فى نفسه خوفاً شبه شعورى من العزلة التى قد تترتب على تحطيم النظام أو هدم ثقة الناس به ذلك أنه الوسط الذى يجد فيه نفسه أمراً مسلماً به . وإنه ليتقبل مدينته أو حكومته مثلما يتقبل الأنف أو الهضم الذى حباه الحظ به . بيد أن ولاءات الرجال ، أعنى الجوانب التى ينحازون إليها فى الأمور السياسية ليست فطرية ، وإنما هى نتائج تربية وتعليم . ولكن التعليم الذى يتلقاه أغلب الناس فى تلك الأمور إنما هو التعليم الصامت المستمر الصادر عن الأشياء المحيطة بهم . فإن الناس يجدون أنفسهم جزءاً من انجلترة المرحة أو الروسيا المقدسة . وهم إنما يشبون على هذه العقائد ويتقبلونها كجزء من طبيعتهم .

الواقع أن العالم شرع يدرك ولكن بغاية البطء ، إلى أى حد من العمق يمكن التعليم الضمنى المفهوم بالاستنتاج والذى تجيء به الظروف العابرة ، أن يُستكمل أو أن تُعدل أو يصحح بالتعليم الإيجابى والأدب والجدال ، والخبرة المنقودة نقداً صحيحاً . فحياة الفرد العادى الحقيقية هى حياته اليومية وأعنى بها الدائرة الصغيرة لعواطفه ومخاوفه وجوعاته وشهواته واندفاعاته الخائلة . وهو لا يلزم عقله المتكره أن يؤثر فى الشئون السياسية إلا عندما يُوجِّه نظرُه إليها بوصفها شيئاً له أثره الحيوى فى تلك الدائرة الشخصية . ولا تكاد تكون هناك مبالغة فى القول بأن الرجل العادى يفكر فى الأمور السياسية بأقل قدر مستطاع ، وأنه يكف عن التفكير فيها بأسرع ما يستطيع . فالعقول الشديدة التطلع والقدرة الاستثنائية ، أو العقول التى استطاعت بفضل المثل المحتذى أو التربية الممتازة بلوغ تلك العادة العلمية ألا وهى الرغبة فى معرفة أسباب الأشياء ، أو العقول التى حزت فيها أو صدمتها كارثة قومية عامة حتى استثارتها إلى التخوف من الأخطار المقبلة ، هى وحدها التى تأبى قبول حكومات ونظم سخيفة غير معقولة واعتبارها مقبولة لا بأس بها لمجرد أنها لم تؤذ تلك العقول ولم تسبب لها ما يكدرها شخصياً . وإن الكائن الإنسانى العادى لينضوى — حتى يأتى الوقت الذى

يستثار فيه على تلك الشاكلة ــ تحت ظلال أية مناشط جماعية تجرى فى هذا العالم الذى يجد فيه نفسه ؛ كما أنه يتقبل أى تعبير أو رمز يواجه حاجته المبهمة إلى شىء أعظم وأكبر يمكن أن ترسو لديه وتطمئن إليه شئونه الشخصية ودائرته الفردية .

فإذا نحن وعينا جيداً هذه التحديدات الواضحة التى تغل طبيعتنا ، لم يصبح بعدُ سراً خافياً كيف أنه كما حدث أن فكرة اتخاذ المسيحية أخوّة عالمية بين الناس قد هوت فى دركات المهانة وضياع الثقة بسبب اشتباكها القاتل بدسائس القساوسة ومطامع البابوية من ناحية ، وبسلطان الأمراء من ناحية أخرى ، ومن ثم انتقل عصر الإيمان إلى عصرنا الراهن عصر الشك وعدم الإيمان ، ــ فقد حول الناس مدار حياتهم عن ملكوت الرب وأخوّة الجنس البشرى إلى هذه الحقائق الماثلة بين أيديهم والأكثر فى ظاهرها دواماً وحياة ، وهى فرنسا وانجلترة والروسيا المقدسة وأسبانيا وبروسيا ، التى كانت على الأقل تتجسم فى شخص بلاطات ناشطة ، والتى كانت تحافظ على القوانين وتظهر القوة بواسطة الجيوش والأساطيل ، والتى كانت تلوح براياتها فى هيئة جد ووقار تعنو لعزتها الجباه كما كانت رافعة رؤوسها اعتزازاً بالنفس بهمة نهم من لا يشبع بصورة متسقة تمام الاتساق مع الطبيعة الإنسانية .

ولا مراء أن رجالا من أمثال الكردينال ريشليو والكردينال مازارين كانوا يرون أنفسهم خداماً لغايات أعظم من غاياتهم هم ، ومن غايات ملوكهم ، إذ يخدمون فرنسا شبه المقدسة التى تصورها لهم أخيلتهم . كما لامراء أيضاً أن هذه العادات العقلية انسابت منهم إلى مرؤوسيهم وإلى هيئة الشعب العامة . وفى القرنين الرابع عشر والخامس عشر كان عامة السكان فى أوربا تستمسك بالدين ولم تكن وطنيتهم إلا شيئاً مبهماً ؛ فما أن حل القرن التاسع عشر حتى أصبحوا وطنيين بكليتهم . فلو حدث فى عربة مزدحمة من عربات السكك الحديدية الإنجليزية أو الفرنسية أو الألمانية فى أخريات القرن التاسع عشر ، أن شخصاً سخر من الله لاستثار من العداوة قدراً أقل كثيراً مما تستثيره السخرية بأحد من هاته المخلوقات العجيبة : إنجلترة أو فرنسا أو ألمانيا . فإلى هذه الأشياء تعلقت أذهان الناس ، تعلقت بها لأنه لم يبد فى كل أنحاء العالم أى شىء آخر تقتنع النفوس بأن تتعلق به . ولذا كانت هى آلهة أوربا الحقة الحية

لقد رفعوا الحكومات ووزارات الخارجية إلى مصاف المثل العليا ، وحلموا منها رطازة ، هي رطازة[١] « الدول » ومحباتها وكراهياتها ونصالاتها . واشتد تشبع خيال أوربا وآسيا الغربية بها إلى حد أن كانت مصدراً تستقى منه « أشكال تفكيرها » . ويكاد كل ما دون من التواريخ ، وكل الأدب السياسي في القرنين الأخيرين في أوربا ، أن تكون مكتوبة بنفس تلك اللغة والروح . على أنه لا بد أن يأتي ذلك الزمان الذى سوف يقرأ فيه جيل أوضح نظرة وأصفى بصيرة ويرى فى شيء من الارتباك والحيرة ، كيف حدث فى المجتمع الأوربى الغربى ، المكون فى كل مكان (مع تنوعات طفيفة جداً) من خليط عنصرى مشترك من الشعوب النوردية والأيبيرية وعناصر نازحة ساميّة ومغولية وهى تتكلم فى كل مكان تقريباً لهجات محورة عن نفس اللسان الآرى ، ولها ماضٍ مشترك متمثل فى الإمبراطورية الرومانية ، وأشكال دينية مشتركة ، وعادات اجتماعية مشتركة وفن وعلم مشتركان ، وهى تتزاوج فيما بينها بحرية لا يستطيع إنسان معها أن يتكلم فى أى تحقق عن جنسية (أى قومية) أىٍّ من أولاد أحفاده ، — كيف حدث أن كان فى الإمكان أن تهيج فى الرجل أقصى أنواع الانفعال حول مسألة عظمة فرنسا ، ونهضة وتوحيد ألمانيا ، وسدعيات الروسيا واليونان المتنافستين على امتلاك القسطنطينية . ولسوف تبدو هذه المنازعات عند ذلك غريبة لا سبب لها ، جنونية لا عقل فيها ، شأن ما اندثر قبلها من منازعات لا يفهمها الناس الآن أمثال التى اشتجرت بين « الخضر والزرق[٢] » الذين كانوا يملأون شوارع بيزنطة بالضجيج وسفك الدماء

وهذه الأطياف أعنى الدول عظيها ما عظم تسلطها اليوم على عقولنا وحيواتنا إنما هى — كما يبين لك هذا الكتاب أوضح بيان — أمور لا ترجع إلى أقدم من القرون

---

(١) الرطازة (Mythology) : هى أسطورة أو حكاية تقليدية كثيراً ما تعبر عن معتقدات وأحلام بدائية لشعب بعينه وعن طريقة تفسيره للظواهر الطبيعية والتاريخية . (المترجم)

(٢) الخضر والزرق : فرقتان رياضيتان قديمتان بالقسطنطينية كانتا تعدان حرسا المدينة . وكان النزاع بينهما دائماً لا ينقطع (انظر للمترجم كتاب الحضارة البيزنطية فى مجموعة الألف كتاب) . (المترجم)

الأخيرة القليلة بل هى مجرد ساعة واحدة أو دور عرضى فى التاريخ المقصود المتعمد لنوعنا البشرى . وهى تسجل دوراً من أدوار الانتكاس أو ضرباً من الانسلاخ من ركب التقدم ، مثلما يسجل نهوض الملكية المكيافلية حالة تخلُّف وقتى عن مسايرة الركب . هى جزء من نفس دوامة العقيدة المضطربة المترددة تعترض سبيل اتجاهها العام وهو اتجاه أشد منها قوة وأبعد ما يكون عنها جملة وتفصيلا : ألا وهو الاتجاه نحو الاتحاد الخلقى والذهنى للبشرية . لقد ارتد الناس حيناً من الدهر إلى أربابهم هؤلاء من قومية وإمبراطورية ولكن هذا لن يدوم إلا إلى حين . فإن فكرة « الدولة العالمية » ومملكة الصلاح العامة التى يصبح فيها كل كائن حى مواطنا ، كانت موجودة فى العالم قبل ذلك بألفين من السنين ، ولن تغادر العالم بعد ذلك قط . وإن الناس ليعلمون أنها بين أيديهم وإن أبوا أن يعترفوا بها . وإنك لتحس فى كتابات وأحاديث الناس عن الشئون الدولية اليوم وفى المناقشات الجارية الدائرة الآن بين ظهرانى المؤرخين والصحفيين السياسيين ، — كأنما بين يديك رجال ثماون قد شرعوا يستفيقون ، ويداخلهم ذعر شديد من استفاقتهم هذه . فهم لا يفتأون يتكلمون بصوت مرتفع عن « حبهم » لفرنسا و « كراهيتهم » ألمانيا وعن « سيادة بريطانيا التقليدية فى البحار » ، وهكذا وهكذا . . . شأن أولئك الذين يغنون مترنمين بكؤوسهم بالرغم من تواصل دبيب الاستفاقة إليهم وخوفهم من زوال الخمار[1] عنهم . وما تلك التى يخدمون إلا أرباب ميتة . فإن الناس لا يريدون فى البحر أو البر دولا تتسم بالرفعة ، وإنما يبتغون القانون والخدمة . وإن ذلك التحدى الصامت الذى لا مندوحة منه ولا مفر ، لموجود فى أذهاننا وجود الفجر وهو يبزغ فى تمهل وأناة ، وينفذ ضياؤه خلال مصاريع حجرة مشوّشة النظام .

٩ — جمهورية پولندة المتوجة ومصيرها

كان القرن السابع عشر فى أوربا قرن لويس الرابع عشر الذى كان هو وعظمة فرنسا وفرساى قطب الرحى فى القصة . وكان القرن الثامن عشر بالمثل « قرن نهضة

(١) الخمار : كما ورد فى المعجم الوسيط : ما خالط الإنسان من سكر الخمر . [المترجم]

بروسيا كدولة عظمى » ، والشخصية الرئيسية فى قصته هى فردريك الثانى ، أى فردريك الأكبر . وتجىء قصة پولندة مشتبكة وتاريخه .

كانت الشئون فى پولندة ذات سمة خاصة . وپولنده بخلاف جيرانها الثلاثة الروسيا وبروسيا وملكية آل هابسبرج فى النمسا والمجر ، لم تطور لنفسها ملكية عظمى . وخير وصف يوصف به نظام حكومتها أن يقال إنه كان نظاماً جمهورياً له ملك ، أى رئيس ينتخب مدى الحياة . وكان كل ملك ينتخب على حدة . فكأنها كانت فى واقع الأمر أبلغ فى روحها الجمهورية من بريطانيا ، ولكن روحها الجمهورية كانت أكثر أرستقراطية فى شكلها . وكان لپولندة تجارة طفيفة ومصنوعات قليلة العدد ، وكانت قطراً زراعياً ما يزال به مساحات عظيمة للرعى والغابات والأرض البراح ؛ فكانت لذلك قطراً فقيراً ، وكان أصحاب الأراضى فيها أرستقراطيين فقراء . وكانت جمهرة سكانها فلاحين أذلاء جهلة جهلا وحشياً ، وكانت تؤوى كذلك جماهير غفيرة من اليهود الشديدى الإدقاع . وقد حافظت على عقيدتها الكاثوليكية . فكأنها كانت — إن صح هذا التشبيه — بريطانيا أخرى أرضية كاثوليكية فقيرة ، يكتنفها الأعداء من كل جانب مثل ما يكتنف البحر بريطانيا . ولم تكن لها على وجه الإطلاق أية تخوم محدودة ، فلا بحر ولا جبل . ومما زاد فى مصائبها أن بعض ملوكها المنتخبين كانوا حكاماً أذكياء عدوانيي النزعة . فكان سلطانها يمتد شرقاً امتداداً ضعيفاً إلى مناطق يسكنها كلها تقريباً الروسيون ؛ كما يشمل من ناحية الغرب بعض الرعايا الألمان .

ونظراً لأنها لم يكن لها تجارة عظيمة ، لم تنشأ لديها مدن عظيمة تقاس إلى مدن أوربا الغربية ، ولا تكونت بها جامعات قوية تضم شتات ذهنها بعضه إلى بعض . وكانت طبقتها النبيلة تعيش على ما تغله لها مزارعها ، دون الشىء الكثير من الاختلاط الذهنى . كانوا وطنيى النزعة ، ولديهم إحساس أرستقراطى بالحرية يتسق تماماً مع الإفقار المنظم الذى يعيش فيه موالى أراضيهم — ولكن وطنيتهم وحريتهم كانتا غير قادرتين على إنتاج التعاون الفعال . كانت پولندة يوم كانت الحروب أمر جمع للرجال والخيل ، دولة قوية نسبياً ؛ ولكنها لم تستطع بأى حال أن تماشى تطورات الفن

العسكرى الذى كان يتخذمن قوات دائمة من جنود محترفين ، العدةَ الضرورية فى الحروب .
ولكنها على ما كانت عليه من الانقسام وقلة الاقتدار ، تستطيع أن تكتب فى كتاب حسابها بعض انتصارات جديرة بالذكر . فإن الهجوم التركى الأخير على ڤيينا (١٦٨٣) قد قضى عليه الفرسان البولنديون بقيادة الملك حنا سوبيسكى (الملك چون الثالث) . (وكان هذا السوبيسكى نفسه قبل أن ينتخب ملكا ، أجيراً يتقاضى المال من لويس الرابع عشر ، وكان قد حارب فى صفوف السويديين ضد وطنه) . ولا حاجة بنا إلى القول ، أن هذه الجمهورية الأرستقراطية الضعيفة ، بانتخاباتها المتداركة الحدوث كانت تستدعى العدوان من كل من جيرانها الثلاثة . وكانت « الأموال الأجنبية » وكل نوع من أنواع التدخل تنساب إلى البلاد عند كل انتخاب . وكان كل مواطن بولندى ساخط منهم يفر — شأن الإغريق قديماً — إلى أحد الأعداء الأجانب ويصب جام غضبه على وطنه الناكر للجميل .

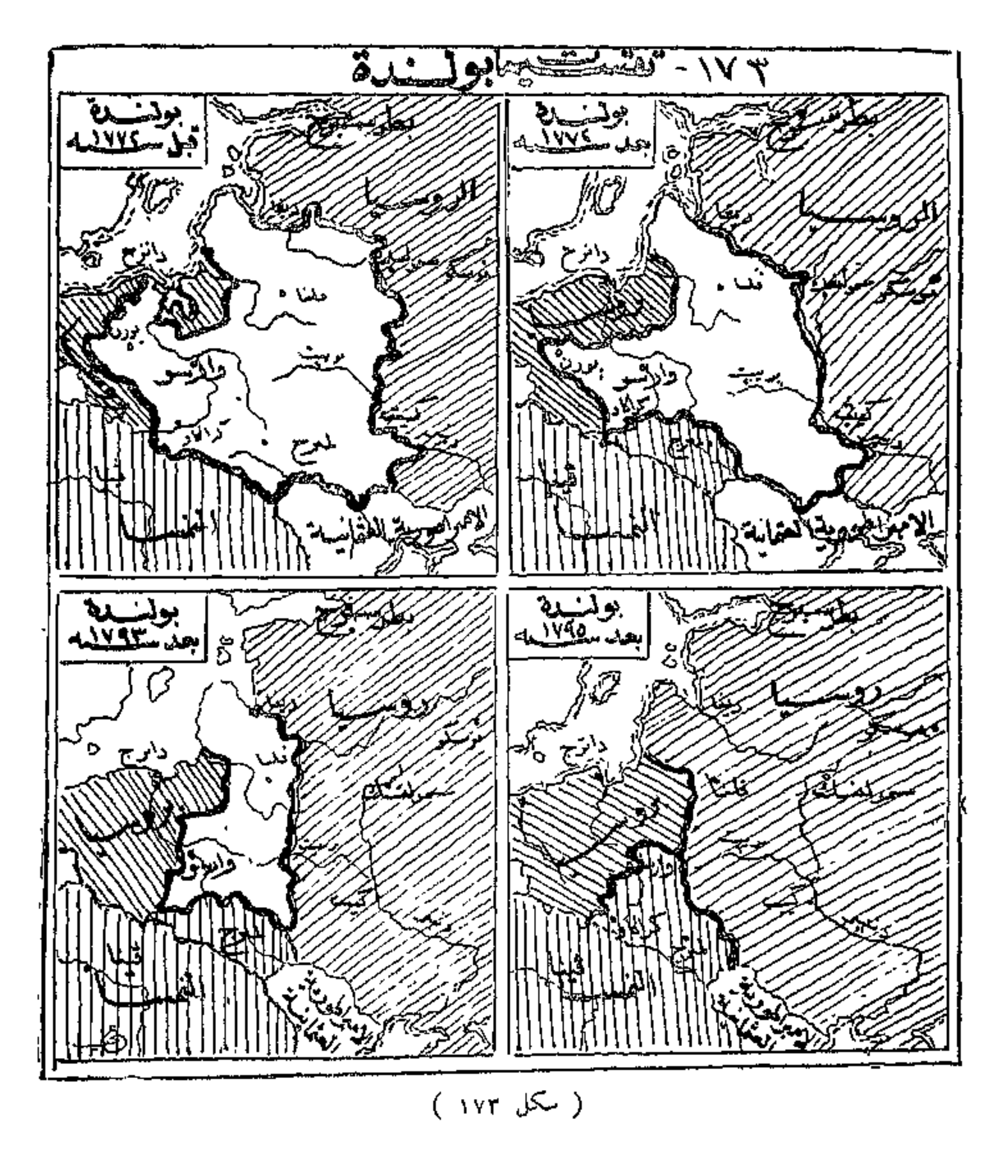
ولم تكن للملك البولندى إلا سلطة ضعيفة جداً حتى بعد أن يتم انتخابه ، وذلك بسبب غيرة النبلاء البولنديين بعضهم من بعض . إذ هم شأن النبلاء الإنجليز كانوا يفضلون الأجنبى ؛ ولأنه — لنفس السبب — لم يكن له عماد من قوة أو عزوة يرتكز عليها فى البلاد . ولكنه بخلاف البريطانيين لم تكن لحكومتهم نفس قوة التماسك التى كانت تعيرها للنبلاء البريطانيين الاجتماعات الدورية للبرلمان فى لندن ، التى كانوا يسمونها : « الحضور إلى العاصمة » . وكانت لندن ملتقى المجتمعات وما يتلوها من تمازج متواصل بين الفكرات وبين أصحاب النفوذ من الأشخاص . ولم تكن لپولندة مدينة كلندن ولا كانت فيها « هيئة اجتماعية » . ولذا فالواقع أنه لم تكن لپولندة حكومة مركزية على الإطلاق . وما كان ملك پولندة بمستطيع أن يعلن حربا أو يعقد صلحا ، ولا أن يجبى ضريبة أو يغير قانونا دون موافقة مجلس الدايت ، (وكان لكل عضو بمفرده فى مجلس الدايت الحق فى الاعتراض (Veto) على أى مقترح مطروح للبحث) . وما كان عليه إلا أن ينهض ويقول « إنى غير موافق » فيسقط الموضوع . بل إنه كان يستطيع أن يحمل حقه فى الاعتراض المطلق (Liberum Veto) إلى مدى أبعد من هذا . إذ يستطيع أن يعترض على اجتماع المجلس ، وعند ذلك ينحل الدايت . فكأن پولندة

لم تكن إذن مجرد جمهورية أرستقراطية متوّجة مثل تلك البريطانية ، بل كانت جمهورية أرستقراطية متوجة مشلولة .

وكان وجود پولندة فى نظر فردريك الأعظم أمراً مثيراً بوجه خاص بسبب الطريقة التى كانت بها ذراع لپولندة تمتد إلى بحر البلطيق فى دانزج ، وتفصل ممتلكاته الموروثة عن أجداده فى بروسيا الشرقية عن أراضيه داخل الإمبراطورية . فكان هو من حرض كاترين الثانية قيصرة الروسيا وماريا تريزا النمسوية — التى فاز باحترامها بحرمانه إياها من سيليزيا — على القيام بهجوم مشترك على پولندة .

واسمحوا الآن لخرائط أربع لپولندة أن تروى لكم القصة .

وبعد هذا الانتهاك الذى أصاب پولندة فى (١٧٧٢) ، ألم بفؤادها تغير كبير . إذ الواقع أن پولندة ولدت شعباً متماسكا فى ليلة انحلالها . إذ حدث فيها تطور إن يكن سريعاً فقد كان إلى ذلك جسيما ضخما فى التعليم والأدب والفن . ونشأ المؤرخون والشعراء بغتة ، وقذف جانباً بالدستور العقيم الذى جعل من پولندة دولة كليلة واهنة . وألغى حق الاعتراض المطلق ، وجعل التاج وراثياً من أجل إنقاذ پولندة من المؤامرات الأجنبية التى كانت تصحب كل انتخاب ، وأقيم برلمان يحاكى البرلمان البريطانى . على أنه كان هناك مع ذلك محبون للنظام القديم فى پولندة ، كرهوا تلك التغييرات الضرورية ، وطبيعى أن تعين الروسيا وبروسيا هؤلاء المعترضين ، إذ كانتا لا ترغبان فى نهضة پولندية . وجاء التقسيم الثانى ، وبعد كفاح وطنى عنيف ابتدأ بالمنطقة التى سلختها بروسيا ، ووجد فى كوزكيوسكو (Kosciusko) ، زعيما له وبطلا وطنياً ، حدثت إزالة پولندة نهائياً من الخريطة . وبذا انتهى إلى حين من الزمان ذلك التهديد البرلمانى للملكية العظمى فى أوروبا الشرقية . ولكن وطنية البولنديين اشتد تضرمها وتلألأ صفاؤهم لهذا الضغط . فإن پولندة ظلت مئة وعشرين سنة تكافح كفاح مخلوق مغمور بالماء ، تحت تلك الشبكة السياسية



(شكل ١٧٣)

والعسكرية التي كانت تمسك بها وتغل حركتها . ثم نهضت ثانية في (١٩١٨) عند نهاية الحرب العظمى .

١٠ – أول تخاطف على الإمبراطوريات وراء البحار

أدلينا إليك ببعض البيانات عن ارتقاء فرنسا مدارج الرفعة في أوربا ، وعن الانحلال السريع لذلك النماء الرخو الذي تهيأ للدولة الأسبانية وعن انفصالها عن

النمسا ، وقيام بروسيا . فأما فرنسا والبرتغال وأسپانيا وبريطانيا وهولندة ، فإن تنافسها على الرفعة فى أوربا قد امتد وتعقد فى كفاح على الممتلكات وراء البحار .

ذلك بأن اكتشاف قارة أمريكا وهى الضخمة القليلة السكان ، غير المتطورة والمكيفة تكيفاً رائعاً لإقامة الأوروبيين واستغلالهم ، وما رافق ذلك من اكتشافات لمساحات عظيمة من الأرض البكر جنوبى المناطق الاستوائية الحارة فى إفريقية التى كانت حتى ذلك الحين تحد من معرفة الأوربيين ، ثم التوصل على التدريج إلى معرفة أقاليم جزيرية فسيحة فى البحار الشرقية ، لم تمسسها حتى ذلك الحين المدنية الغربية ، — كانت بأكملها عملية عرض للنهزات أمام أعين الإنسانية لم يسبق لها مثيل فى التاريخ أجمع . وكأنما ورثت شعوب أوربا ميراثاً فاخراً باذخاً . فإن عالمهم تضاعف بغتة أربعة أضعافه . وكان لكل ما يفى بحاجته ويفيض . ولم يكن عليهم إلا أن يتسلموا تلك الأراضى وأن يواصلوا بها عيش الثراء ، وعند ذلك يتبدد ما هم عليه من فقر وتزاحم تبدد الحلم عند اليقظة . ولكنهم تلقوا ذلك التراث الفاخر تلقى الورثة السيئى التربية . إذ لم يكن له لديهم من معنى إلا أنه ظرف جديد تتجلى فيه المنازعات الفظيعة . ولكن أنى لنا ذلك المجتمع البشرى الذى يؤثر الخلق والابتكار على المؤامرة ؟ وأى شعب فى قصتنا بأجمعها تعاون قط مع شعب آخر بينما كان يستطيع بأى ثمن أن يدبر المكايد لإلحاق الضرر بذلك الشعب الآخر ؟ ابتدأت دول أوربا الأمر « بادعاء » المدعيات الجنونية المتهوسة على الأقطار الجديدة . ثم ترامى بهم الأمر إلى منازعات مستنفدة للقوى . فإن أسپانيا صاحبة أول الادعاءات وأشدها ، والتى ظلت ردحا من الدهر « سيدة » ثلثى أمريكا ، لم تفد من ممتلكاتها بطريقة أحسن من أن تنزف دماء نفسها فيها إلى درجة الموت تقريباً .

ولقد ذكرنا كيف أن البابوية فى آخر أدوار تمسكها بالسيادة العالمية ، قسمت القارة الأمريكية بين أسپانيا والبرتغال بدل أن تحافظ على الواجب المشترك لكل عالم المسيحية بإنشاء حضارة عظيمة مشتركة فى الأراضى الجديدة . وطبيعى أن يستثير ذلك عداوة الشعوب المحرومة . ومن ثم فإن رجال البحر الإنجليز لم يعيروا مدعيات الطرفين أى احترام ، ونصبوا أنفسهم ضد الأسپان بوجه خاص . وحوّل السويد،

نزعتهم البروتستانتية إلى شيء من هذا القبيل . وما كاد الهولنديون يلقون عن أنفسهم نير أسيادهم الأسبان حتى نشروا قلوعهم غرباً ليسحروا من البابا ، وينالوا نصيبهم من خيرات العالم الجديد . فأما صاحب الجلالة الكاثوليكية الورعة ملك فرنسا ، فإنه لم يتردد إلا قدر ما يتردد أى پروتستانتى . فكانت كل هذه الدول مشغولة تتنافس فى دعاويها على أمريكا الشمالية وجزائر الهند الغربية .

ولم تفد المملكة الدانيمراكية (وكانت آنذاك تضم النرويج وإيسلندة) ولا السويد شيئاً كثيراً جداً فى هذا التخاطف . فضم الدانيمركيون إليهم بعض جزائر الهند الغربية . ولم تصل السويد إلى شيء منها . وكان كل من الدانيمرك والسويد فى ذلك الأوان غائصتين فى الشئون الألمانية . فقد ذكرنا آنفاً جوستاف أدولف « أسد الشمال » البروتستانتى ، وأشرنا إلى حملاته فى ألمانيا وبولندة والروسيا . والحق أن هذه الأقاليم الأوروبية الشرقية تمتص الطاقات امتصاصاً عظيما ، وإن هذه القوة التى ربما كانت تكسب السويد قسطاً عظيما من العالم الجديد ، قد حصدت لها محصولاً عقيما من المجد فى أوروبا . وسرعان ما سقطت تلك المستقرات الصغيرة التى أنشأها السويديون بأمريكا فى أيدى الهولنديين .

وكذلك الهولنديون أيضاً فإنهم وقد شهدوا حيالهم الملكية الفرنسية تحت الكردنيال ريشليو وتحت لويس الرابع عشر ، وهى تشق طريقها عبر الأراضى المنخفضة الأسپانية نحو تخومهم ، لم تكن لديهم الموارد غير المبددة ولا القوة المجتمعة التى كانت بريطانيا من خلف لجيج « بحرها الفضى » تستطيع أن تقذف بها فى ميادين المغامرات وراء البحار .

وفضلا عن ذلك فإن الجهود التى بذلها فى سبيل الحكم المطلق چيمس الأول ، وشارل الأول ، وعودة شارل الثانى ، كان من أثرها أن دفعت خارج إنجلترة عددا عظيما من البروتستانت الأقوياء العقول ، الجمهوريى الروح ، وهم قوم أشداء ذوو وطنية قوية وأخلاق متينة ، أقاموا فى أمريكا ، وبوجه خاص فى منطقة نيوإنجلند ، بعيدا عن منال الملك وضرائبه — فيما كانوا يظنون . ولم تكن السفينة « ماى فلَوَر » إلا واحدة من السفن الأولى فى فيض من سفن المهاجرين . وكانا من حسن طالع بريطانيا أنهم ظلوا تحت العلم البريطانى ، وإن كانوا مخالفين منشقين . فأما الهولنديون

فلم يرسوا إلى أمريكا البتة مستقرين على نفس وفرة العدد والرق ، وذلك أولا لأن حكامهم الأسپانيين لم يكونوا ليسمحوا لهم ، وثانياً لأنهم تملكوا بلادهم هم . ومع أنه حدثت هجرة عظيمة للهوجنوت البروتستانت لما لقوا عذاب الدراجوناد واضطهاد لويس الرابع عشر ، فقد كان لهم من هولندة وانجلترة ملتجأ قريب ، فانتقلت صناعاتهم ومهاراتهم وجدهم وقناعتهم إلى ذينك القطرين فكان لهما منهم وبخاصة انجلترة قوة أى قوة . وأسس القليل منهم المستقرات فى كارولينا ، على آن هذه لم تستمر فرنسية . فإنها انتقلت إلى الأسپان أولا ثم انتقلت آخر الأمر إلى الإنجليز .

كذلك خضعت المستقرات الهولندية ومعها السويدية لبريطانيا . فأصبحت نيوأمستردام بريطانية (١٦٧٤) وتعدل اسمها إلى نيويورك ، كما قد يرى القارئ فى كتاب واشنجتن إرڤنج الفكه : « تاريخ نيويورك الموجز » . وتتبين حال الأمور بأمريكا فى (١٧٥٠) تبيناً واضحاً جداً من خريطة كيفناها عن أخرى فى كتاب « العصور الوسطى والحديثة » لروبنسون[1] . وقد تأسست دائرة النفوذ البريطانية على امتداد الشاطئ الشرقى من ساڤانا إلى نهر السانت لورنس ، فأما نيوفوندلند وأراضى شمالية مترامية هى أراضى شركة خليج هدسون فقد اكتسبت من الفرنسيين بمعاهدة صلح . واحتل البريطانيون بربادوس فى (١٦٠٥) ، (وهى تكاد تكون أقدم ممتلكاتهم الأمريكية) ، واستحوذوا على جامايكا وجزائر بهاما وهندوراس البريطانية من الأسپان . ولكن فرنسا كانت تطارد صيداً خطراً مزعجاً جداً ، وهو صيد يبدو على الخريطة أشد خطراً وإزعاجاً منه فى الحقيقة . فإنها أنشأت مستقرات حقيقية فى كويبك ومونتريال فى الشمال وفى نيو أورليانز فى الجنوب ، وتقدم مستكشفوها وعملاؤها جنوباً وشمالاً ، يعقدون المعاهدات مع الهنود الأمريكيين بالسهول العظيمة ويقيمون المدعيات — دون أن يقيموا المدن — عبر القارة بأكملها خلف منطقة البريطانيين . ولكن حقائق الموقف لا تمثّل على هذا النحو تمثيلا كافياً . فإن المستقرات البريطانية قد توطدت بها إلى أقصى حد إقامة طبقة صالحة من الناس ؛ وكان عددهم يتجاوز بالفعل المليون . وما كان الفرنسيون فى ذاك الزمان يدانون عُشر ذلك العدد .

---

(1) Robinson : « Medieval & Modern Times ».

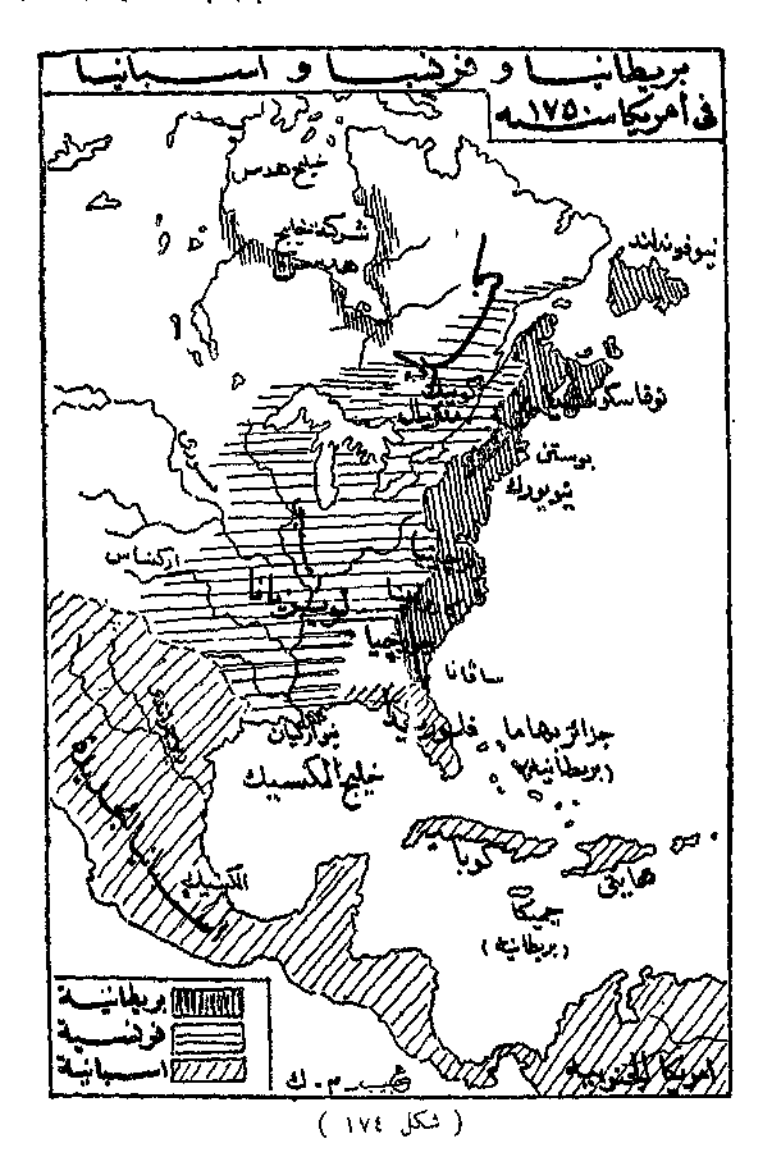
أجل كان لهم عدد من أذكياء الرحالين والمبشرين يعملون ناشطين ، على أنهم لم يكن من ورائهم مادة عظيمة من السكان .

وما يزال فى الإمكان العثور على كثير من الخرائط القديمة لأمريكا فى تلك الفترة ، وهى خرائط وضعت خصيصاً لإخافة البريطانيين واستثارتهم حتى يتنبهوا إلى « خطط الفرنسيين » فى أمريكا . ونشبت الحرب فى (١٧٢٤) . وفى (١٧٥٩) استولت القوات البريطانية وقوات المستعمرات بقيادة الجنرال وولف على كويبك وأتمت من فتح كندا فى السنة التالية . وما وافت (١٧٦٣) حتى كانت كندا قد انتقلت نهائياً إلى أيدى بريطانيا . (على أن الجزء الغربى من إقليم لويزيانا الذى يكاد يكون لا حد له فى الجنوب ، والمسمى باسم لويس الرابع عشر ، ظل خارج الدائرة البريطانية . فأخذته أسبانيا ، وفى (١٨٠٠) استردته فرنسا . ثم اشترته آخر الأمر (١٨٠٣) حكومة الولايات المتحدة من فرنسا) . وفى هذه الحرب الكندية ، حصل المستقرون الأمريكيون على خبرة جسيمة فى فن الحروب ، وعلى علم بالتنظيم العسكرى البريطانى عاد عليهم بعظيم النفع بعد ذلك بزمن وجيز .

١١ - بريطانيا تسود الهند

لم يقتصر اصطدام الدولتين الفرنسية والبريطانية على أمريكا وحدها . بل إن أحوال الهند كانت فى ذلك الزمان شديدة الجاذبية عظيمة اللذة للمغامرين الأوربيين . فإن الإمبراطورية المغولية العظيمة ، إمبراطورية بابر وأكبر وأورانغزيب ، كانت قد سارت فى الانحلال شوطاً بعيداً . وما حدث للهند كان موازياً ومماثلا لما جد لألمانيا . فإن المغولى الأكبر ، شأن إمبراطور الدولة الرومانية المقدسة فى ألمانيا ، كان ما يزال صاحب السيادة العليا شرعاً ، ولكنه كان بعد وفاة أورانغزيب ، يتولى سلطة اسمية ليس غير ، اللهم إلا فى المنطقة المجاورة مباشرة لعاصمته . وقد حدث نهوض عظيم فى الهندوكية وفى الروح الوطنية . ففى الجنوب الغربى ثار على الإسلام شعب هندوكى هو الماراتا (Mahrattas) ، وأعاد البرهمانية ديانة سائدة . ثم بسطوا سلطانهم حيناً من الدهر فوق مثلث الهند الجنوبى بأجمعه . وتقوض حكم الإسلام فى راچپوتانا

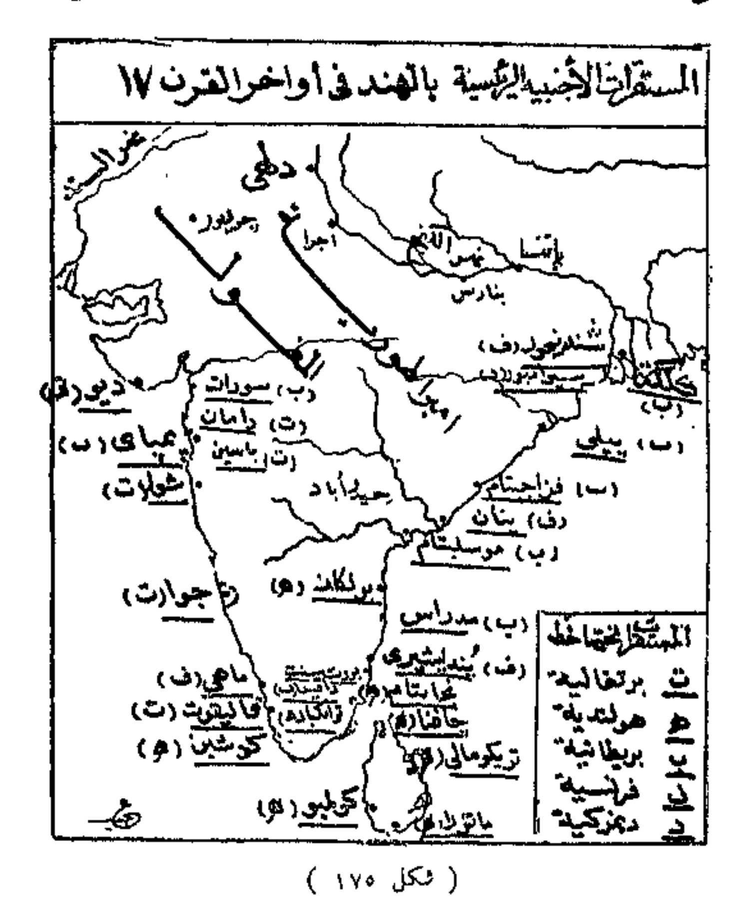
أيضاً وحلت محله البرهمانية ، وكان يحكم فى بهورتبور وفى چايپور ، أمراء راچپوتانيون أقوياء . وكانت فى أوده مملكة شيعية عاصمتها لكْنو ، وكانت البنغال كذلك مملكة إسلامية منفصلة . ونشأت فى بلاد الپنچاب القصية فى الشمال هيئة



(شكل ١٧٤)

دينية شائقة جداً هى السيخ ، الذين أعلنوا أن الحكم العام لرب واحد وهاجموا الڤيدا الهندوكية والقرآن الإسلامى على السواء . وكان السيخ فى الأصل طائفة سلم ما لبثوا أن

احتذوا حذو الإسلام[١] وحاولوا — موقعين أنفسهم فى أول الأمر فى أشد الكوارث — أن يؤسسوا مملكة الرب بحد الحسام . وإلى هذه الهند الهندية المتبلبلة البالغة الفوضى وإن كانت ناهضة قوية الحيوية ، هبط للفور (١٧٣٨) غاز من الشمال ، هو نادرشاه (١٧٣٦ — ٤٧) حاكم فارس التركمانى ، الذى انثال بجيوشه عابراً ممر خيبر ، موقعاً بكل جيش اعترض طريقه ، واستولى على دلهى ونهبها ، وحمل منها غنائم هائلة . وخلف شمال الهند محطماً يباباً إلى حد أن عدد غارات النهب الأخرى الناجحة فى العشرين سنة التالية لم يقل عن ست غارات فى شمال الهند أتت جميعاً من بلاد الأفغان ، التى أصبحت دولة مستقلة عند وفاة نادرشاه . وواصل الماراتا محاربة



(شكل ١٧٥)

---

(١) سبق أن رددنا على هذه النقطة فى المجلد الثالث من المعالم ص ٦٣٢ ط ١ و (ص ٧٨١ — ط ٢) فليرجع إليها القارئ فى موضعها . (المترجم)

الأفغانيين ردحاً من الزمان على حكم شمال الهند . ثم تحطمت دولة المـــاراتا وتقسمها عدد من الإمارات وهى إندور وجواليور وبارودا وغيرها . فكانت الهند فى القرن السابع عشر شديدة الشبه بأوربا فى القرن السابع أو الثامن ، إذ كانت أرض نهوض بطىء لا يفتأ المغيرون الأجانب ينزلون بها الكوارث .

ذلك شأن الهند التى كان يندفع إليها الفرنسيون والإنجليز إبان القرن الثامن عشر . ذلك أن عدداً متعاقباً من الدول الأوربية الأخرى ما فتئ يكافح طلباً لمرسى تجارى وسياسى فى الهند والشرق، منذ السنة التى قام فيها ڤاسكودا جاما برحلته العظيمة حول رأس الرجاء إلى قاليقوت . وكانت تجارة الهند البحرية قبل ذلك فى يد عرب البحر الأحمر ، فظفر بها منهم البرتغاليون بعد سلسلة من المعارك البحرية . إذ كانت السفن البرتغالية أكبر حجما ، وكانت تحمل أسلحة أثقل . وظل البرتغاليون



(شكل ١٧٦)

زماناً وزمام التجارة الهندية ملك خاص ليمينهم ، وبزت لشبونة البندقية كسوق للأفاويه الشرقية . ومهما يكن من شيء فإن القرن السابع عشر شهد الهولنديين قابضين على هذا الاحتكار . وكان للهولنديين وهم في أوج قوتهم مستقرات عند رأس الرجاء الصالح ، هذا إلى جزيرة موريشيوس ، وإلى مؤسستين في فارس ، واثنتي عشرة في الهند ، وست في سيلان ، وكانوا قد نثروا محطاتهم المحصنة في كل أرجاء جزائر الهند الشرقية . ولكن ما أبدوا من عزم أناني على حرمان التجار من أية جنسية من الاستفادة من تجارة الشرق ، ألجأ السويديين والدانمركيين والفرنسيين والإنجليز إلى المنافسة العدائية . فكانت أولى الضربات التي كيلت لاحتكارهم وراء البحار ، تلك التي وجهها بليك الأميرال الإنجليزي الجمهوري في المياه الأوربية . وكان كل من الإنجليز والفرنسيين عند مفتتح القرن الثامن عشر في نزاع ومنافسة قوية للهولنديين على التجارة والامتيازات في كل أرجاء الهند . وأنشأ الإنجليز مراكزهم الكبرى في مدراس وبمباي وكلكتا ؛ وكانت المستقرات الفرنسية الرئيسية هي بوندتشيري وشاندر ناجور .

وفي بادئ الأمر ، كانت كل هاته الدول الأوربية تأتي بوصفها مجرد متجرين ، وكانت المؤسسات الوحيدة التي يحاولون تشييدها هي المخازن . ولكن حالة البلاد غير المستقرة ، والطرق غير الشريفة التي كان يتبعها منافسوهم ، جعلت تحصينهم أنفسهم وتسلحهم شيئاً طبيعياً ، وجعلهم هذا التسلح حلفاء جذابين في أعين الأمراء المتنوعين المتقاتلين الذين كانت تنقسم الهند آنذاك بينهم . وكان مما يتواءم تماماً وروح السياسة القومية الأوروبية الجديدة ، أنه ما يكاد الفرنسيون ينضمون إلى جانب ، حتى يجب أن ينحاز الإنجليز إلى آخر . وكان الزعيم في الجانب الإنجليزي هو روبرت كلايف ، المولود في (١٧٢٥) والذي وصل إلى الهند في (١٧٤٣) . وكان خصمه الأكبر هو دوپليه . ولكن قصة هذا الكفاح الذي استغرق النصف الأول من القرن الثامن عشر أطول وأعقد من أن يتسع لها هذا المكان . ولما وافت (١٧٦١) نظر الإنجليز وإذا لهم السيادة الكاملة على شبه الجزيرة الهندية . وفازت جنودهم في پلاسي (١٧٥٧) وبوكسر (١٧٦٤) بانتصارات رائعة فاصلة على جيش البنغال وجيش أوده . وكان المغولي الأكبر ، صاحب السيادة عليهم اسمياً ، قد أصبح في الحقيقة ألعوبتهم الخاضعة .

وكانوا يجبون الضرائب فى مساحات عظيمة ؛ وكانوا يحتمون دفع التعويضات جزاء لأية معارضة حقيقية أو خيالية .

على أن هذه الانتصارات لم تحرزها آيدى قوات ملك انجلترة مباشرة ، بل فازت بها شركة الهند التجارية ، التى ما كانت فى الأصل حين إنشائها فى حكم الملكة إلزابيث ، إلا شركة من المغامرين البحريين . واضطروا خطوة فخطوة أن يجمعوا الجنود وأن يسلحوا سفنهم وعند ذلك وجدت هذه الشركة التجارية بما لها من تقاليد الكسب والربح ، أنها لا تتجر فحسب فى الأفاويه والأصباغ والشاى والجواهر ، بل فى إيرادات الأمراء وممتلكاتهم وفى مقدرات الهند . جاءت للشترى وتبيع ، ووجدت نفسها تصيب قرصنة هائلة . ولم يكن هناك من إنسان يتحدى تصرفاتها . أعجيب إذن أن قادتها وضباطها وموظفيها ، كلا بل كتبتها وجنودها العاديين ، كانوا يعودون إلى انجلترة محملين بالغنائم ؟ إن رجالا فى مثل هذه الظروف وتحت رحمتهم أراضى عظيمة غنية ، لا يستطيعون أن يميزوا بين ما يجوز أن يفعلوه وما لا يجوز . كانت فى أعينهم أرضاً عجيبة ذات شمس عجيبة الضياء . وكان سكانها السمر القاتمون جنساً مختلفاً ، يخرج عن مجال عطفهم . وكانت معابدها ومبانيها تبدو كأنما تقيم أركان معايير للسلوك وهمية سخيفة .

وكانت خواطر الإنجليز فى بلادهم تضطرب وتتبلبل عندما يعود هؤلاء القادة والموظفون إلى بلادهم ويتراشقون بالتهم السوداء مابين ابتزازات وقساوات . وأصدر البرلمان قرارآ بلوم كلايف . فقضى على نفسه انتحاراً فى (١٧٧٤) . وفى (١٧٨٨) حوكم وارن هاستنجس وهو مدير عظيم آخر للهند وقضى ببراءته (١٧٩٢) . وكان ذلك الموقف موقفاً غريباً لم يسبق له مثيل فى تاريخ العالم . فإن البرلمان الإنجليزى ألفى نفسه يحكم فوق شركة لندنية للتجارة ، كانت بدورها تتسلط على إمبراطورية أعظم وأكثر سكاناً من كل ممتلكات التاج البريطانى . وكانت الهند فى نظر كتلة الشعب الإنجليزى أرضاً شاسعة خيالية سخيفة لا يكاد يستطاع الوصول إليها . لم يذهب إليها إلا فقراء الشبان من المغامرين ليعودوا إلى وطنهم بعد سنوات كثيرة سادة مسنين أغنياء جداً حادى الطبع جداً . وكان من العسير على الإنجليز أن يتصوروا ماذا يمكن أن

تكون عليه حياة ملايين السُّمر الذين لا يحصرهم عدد فى ضياء شمس الشرق . وكانت أخيلتهم تأبى عليهم حمل هذه الصورة . فظلت الهند شيئاً غير حقيقى يشابه فى غرابته الروايات الرومانسية ومن ثم كان من المستحيل على الإنجليز ، أن يقيموا أى إشراف ورقابة فعالين ، على تصرفات الشركة .

١٢ ـ تقدم الروسيا إلى المحيط الهادى

وعلى حين كانت شبه الجزيرة العظيمة فى الجنوب من آسيا تقع على هذا النحو تحت سلطان التجار البحريين الإنجليز ، كان يحدث فى الشمال رد فعل آخر لأوروبا على آسيا معادل لذلك عظيم . ولقد سبق أن نبأنا القارئ كيف استردت الدول المسيحية فى الروسيا استقلالها من الرهط (الحشد) الذهبى ، وكيف أصبح قيصر الروسيا سيداً على جمهورية نوفجورود ؛ وأخبرناك فى القسم الخامس من هذا الفصل عن بطرس الأكبر وهو ينضم إلى جماعة الملوك العظام ثم يسوق الروسيا فى الواقع إلى أوروبا سوقاً . ونهوض هذه الدولة الكبرى التى تتوسط العالم القديم والتى لا هى بالشرقية تماماً ولا هى بالغربية تماماً ، نهوض ذو أهمية قصوى لمقدّراتنا الإنسانية . كذلك نبأناك فى الفصل ذاته عن ظهور شعب مسيحى فى السهوب ، هم القوزاق الذين كانوا حداً فاصلا بين زراعة پولندة وهنغاريا الإقطاعية من ناحية الغرب وبين التتار من ناحية الشرق . وكان القوزاق يمثلون شرق أوروبا المتوحش ، وكانوا فى كثير من الوجوه لا يختلفون كثيراً عن القسم الغربى المتوحش فى الولايات المتحدة إبان منتصف القرن التاسع عشر . فكل من أحنق عليه صدر الروسيا حتى لم تعد تطيق أن تؤويه ، من أمثال المجرمين ثم الأبرياء المضطهدين ، وموالى الأرض الثائرين ، وأعضاء الشيع الدينية ، واللصوص ، والأفاقين والقتلة ، كانوا يلوذون بملجأ السهوب الجنوبية ، ثم يبدءون حياتهم من جديد ويقاتلون من أجل الحياة والحرية ضد كل من الپولنديين ، والروسيين ، والتتار على السواء . ولا مرية فى أن لاجئين من التتار فى الشرق كانوا ينضمون كذلك ويزيدون فى عدد خليط القوزاق . وكان أكبر هذه القبائل المترحلة الجديدة ، قوزاق أوكرانيا على نهر الدنيبر وقوزاق الدون على نهر الدون . وضمّ

هؤلاء القوم على الحدود فى بطء إلى الخدمة الإمبراطورية الروسية ، على نفس الطريقة التى تم بها تحويل عشائر الأراضى المرتفعة (هايلاند) فى اسكتلندة إلى فرق أنشأتها الحكومة البريطانية . فمنحوا أراضى جديدة فى آسيا . فأصبحوا سلاحاً ضد قوة المغول المترحلين المضمحلة ، فى التركستان فى مبدأ الأمر ، ثم عبر سيبيريا حتى نهر العامور .

وانحلال الطاقة المغولية فى القرن السابع عشر والثامن عشر أمر يعسر علينا جداً أن نفسره . فلم ينقض قرنان أو ثلاثة على أيام چانكيز وتيمورلنك ، حتى انحدرت آسيا الوسطى من فترة رفعة عالمية إلى حالة كلال ووهن سياسى مفرط . ولعل تغيرات فى المناخ ، وأوبئة لم يسجلها التاريخ ، وعدوى من طراز يشبه الملاريا ، قد قامت بدورها فى هذا التأخر الذى ألم بشعوب آسيا الوسطى ، والذى ربما لا يكون إلا تأخراً موقوتاً إذا قيس إلى معيار التاريخ العام . ويظن بعض الثقات أن انتشار التعاليم البوذية من الصين إلى تلك الأصقاع كان له أيضاً أثر مهدئ لنفوسهم . ومهما يكن من شىء ، فلم تعد شعوب التتار والترك المغولية عند حلول القرن السادس عشر محافظة على ضغطها نحو الخارج ، بل تحولت بهم الحال ، فأصبحوا هم الذين يُغزون ويُقهرون ويُدفعون إلى الخلف من كل من الروسيا فى الغرب والصين فى الشرق .

وظل القوزاق ينتشرون نحو الشرق طوال القرن الثالث عشر من الروسيا الأوربية ويستقرون حيثما تهيأت لهم الظروف الزراعية . وكانت نطاقات من التحصينات والمحطات تقوم مقام التخوم المتحركة لهذه المستقرات فى الجنوب ، حيث كان التركمان لا يبرحون أقوياء ناشطين ؛ ومع ذلك فإن الروسيا من الجهة الشمالية الشرقية لم تكن لها تخوم حتى وصلت إلى المحيط الهادى نفسه . وكانت الصين فى نفس الوقت فى دور اتساع . إذ أن الغزاة « المانشو » بثوا فى الشئون الصينية طاقة جديدة ، وأدى اهتمامهم بمناطق الشمال إلى توسع شمالى عظيم لحضارة الصين وسلطانها فى كل من منشوريا ومنغوليا . وهكذا حدث عند منتصف القرن الثامن عشر أن

تلاحم[1] الروسيون والصينيون فى منغوليا . وكانت الصين فى تلك الفترة تحكم التركستان الشرقية ، والتبت ونيبال ، وبورما وأنام .

وكان عصر المانشو فى الصين فترة نشاط أدبى جسيم أيضاً ، مماثل لعصور نظرائهم فى أوربا وإن استقل عنها الاستقلال كله ، فإن الرواية الصينية والقصة الصينية القصيرة ارتفعتا إلى مستويات عالية فى الأسلوب والإمتاع ، وحدثت للدرامة الصينية تطورات هامة . وصورت مناظر أرضية ممتازة كثيرة ، واخترعت الطباعة بالألوان ، وتعلم الناس الحفر على النحاس من المرسلين اليسوعيين ، وارتقى صنع الخزف (البورسلين) الصينى إلى ذرًا لا مثيل لها من الرفعة . ولكن السمة الجمالية لهذا الخزف انحطت مع تقدم الزمن بالقرن الثامن عشر بسبب مسارعة الفخرانية إلى تكييف أنفسهم طبقاً لما كانوا يعدونه الذوق الأوربى . وتواصل التصدير طيلة هذا القرن كله إلى السرايات والقصور والدور الريفية التى للنبلاء والأعيان الأوربيين . وقلدت صناعة الخزف الأوربية المنتجات الصينية ونافستها ولكنها لم تفقها قط . وابتدأت أيضاً تجارة الشاى الأوربية .

سبق أن ذكرنا غزواً يابانياً للصين (أو بالحرى لكوريا) . ولا تلعب اليابان فيما عدا عدوانها هذا على الصين ، أى دور فى تاريخنا قبل القرن التاسع عشر فإنها ـ شأن الصين تحت حكم أسرة منج ـ قد نصبت نفسها فى حزم وعزم ضد تدخل الأجانب فى شئونها . فكانت قطراً يمضى قدما فى ظل حياته الحضارية الخاصة . وهو مختوم ختما سحرياً ضد كل دخيل . وقد حدثناك عنها بالنزر اليسير حتى الآن لأن كل ما لدينا كان ذلك النزر اليسير . فإن تاريخها الجميل الجذاب الرومانسى الشعرى يقف بمعزل عن الدرامة العامة للشئون الإنسانية . كان سكانها فى معظم أمرهم من المغول ، بهم مسكة من شعب أبيض شائق جداً يوحى بطراز نوردى بدائى ، هو الأينو (Ainu) المشعرون فى الجزائر الشمالية . ويلوح أن مدنيتها قد استمدت

---

[1] تلاحمت الأشياء : تضامت وتلاءمت بعد أن كانت منفصلة .

(المترجم)

كلها تقريباً من الصين وكوريا ؛ وأن فنها تطور خاص للفن الصينى وكتابتها تكييف للكتابة الصينية .

١٣ – رأى جيبون فى العالم فى ١٧٨٠

كنا نعالج فى هذه الأقسام الاثنى عشر السابقة عصر فرقة وانقسام ، وقوميات متفرقة . وسبق أن شبهنا تلك الفترة فى القرنين السابع عشر والثامن عشر بفترة « عطل وخلو » من الدافع الأعلى توقف فيها تقدم البشرية نحو وحدة تعم العالم أجمع . وقد حرمت عقول الناس طوال هذه الفترة من كل « فكرة موحِدة جامعة » . فإن قوة دفع الإمبراطورية قد بلغ من إخفاقها أن الإمبراطور لم يعد يزيد عن فرد بين جماعة من الأمراء المتنافسين ، كذلك ذهب حلم « عالم المسيحية » أدراج الرياح . وكانت الدول المتطورة تتدافع بالمناكب فى كل أرجاء العالم قاطبة ؛ وانقضى حين من الدهر كان يبدو أثناءه أنها سوف تمضى تتدافع بالمناكب إلى ما شاء الله دون أن تُلم بالإنسانية أية نازلة عظيمة . وقد وسَّعت المكتشفات الجغرافية العظيمة فى القرن السادس عشر الموارد الإنسانية إلى درجة أنه بالرغم من انقساماتهم ، وبالرغم مما كانت تجره الحروب والسياسات على شعوب أوربا من الخسارة والضياع ، فإن تلك الشعوب استمتعت بظلال رخاء جسيم متزايد . وراحت أوربا الوسطى تنتعش انتعاشاً مطرداً مما حل بها من جراء حرب الثلاثين سنة .



(شكل ١٧٧) ڤولتير

وإذا نحن ألقينا إلى الخلف نظرة إلى تلك الفترة التى بلغت ذروتها فى القرن الثامن عشر ، كما قد نستطيع أن

نفعل ذلك اليوم ، ورأينا أحداثها بالعلاقة إلى القرون التى سبقتها ، وإلى الحركات العظيمة فى الزمن الحاضر ، استطعنا أن ندرك كم كانت أشكالها السياسية موقوتة غير دائمة وعرضية طارئة وكم كانت ضماناتها غير ثابتة . كانت لا جرم عرضية طارئة على صورة لم تسبق لأى عصر آخر ، وكانت عصر تمثل وإبلال بل هى كانت توقفاً سياسياً ، وتجميعاً لفكرات البشر وموارد العلم توطئة لمجهود إنسانى أرحب . على أن العقل المعاصر لها لم يرها على هذه الصورة . فإن إخفاق الفكرات الخلاقة العظيمة بشكلها الذى صيغت فيه فى القرون الوسطى ، غادر الفكر الإنسانى حينا من الدهر محروما من هداية الفكرات الخلاّقة؛ فإن المتعلمين وذوى الخيال الفسيح أنفسهم كانوا يرون العالم بطريقة عارية من كل روعة ؛ فلم يعد فى نظرهم مكاناً تتفاعل فيه الجهود والمصائر بل مشهدا تلتمس فيه الفضائل الفاترة حسن الجزاء . ولم يكن أصحاب العقول المحافظة والقانعة هم وحدهم الذين كانوا يتفيّئون — فى عالم حافل بالتغيرات السريعة — أكناف هذا الاطمئنان الذى يجزم ببلوغ الشئون الإنسانية مرحلة الثبات والاستقرار . بل لقد أظهر نفس النزعة أصحاب الفطن القوية الناقدة والثائرة ، وذلك لامتناع وجود أى حركات تدعم روح المجتمع وتشد أزره فإنهم أحسوا بأن الحياة السياسية تغيرت ولم تعد على ما كانت عليه من العجلة الفاجعة ؛ فإنها أصبحت كوميديا مؤدبة . وكان القرن الثامن عشر قرن كوميديا أصبحت فى النهاية عابسة جهمة . ولا يكاد يتصور العقل أن ذلك العالم عالم منتصف القرن الثامن عشر كان فى طوقه أن ينتج عظماء من أمثال يسوع الناصرى ولاجوتاما ولافرنسيس الأسيسى ، ولا إغناطيوس ليولا . فلو استطاع الإنسان أن يتصور وجود جون هَسّ آخر فى القرن الثامن عشر ، فإن من المستحيل عليه تصور وجود أى إنسان لديه ما يكفى من الحميّة لإحراقه . فإلى يوم بدأت حركات تيقظ الضمير بريطانيا التى تطورت إلى نهضة المناهجين (Methodists)[1] لا نكاد نلمح فى أوربا أية بارقة شك تشير إلى أنه ما تزال توجد بين يدى جنسنا واجبات عظيمة لا بد له

(١) المناهجيون : هيئات دينية كثيرة نشأت عن الحركة الإنجيلية التى قام بها شارل وجون ويسلى فى القرن الثامن عشر . (المترجم)

من إتمامها ، ولا أن اضطرابات هائلة كانت على الأبواب ، ولا أن أخطاراً لا حصر لها كانت تغشّى بالسُّدفة والظلام طريق الإنسان فى الزمان والفضاء ، وأن قطعه لذلك الطريق لا بد له من أن يظل حتّى النهاية جهداً عظيماً ورهيباً .

عاودنا فى هذا التاريخ مرة بعد أخرى الاقتباس عن كتاب « اضمحلال الدولة الرومانية وسقوطها » لجيبون . ونحن الآن على أن نقتبس منه لآخر مرة ثم نستودعه الله ، ذلك أننا وصلنا إلى العصر الذى كتب فيه ذلك الكتاب . ولد جيبون فى ١٧٣٧ ، وصدر آخر جزء من تاريخه فى ١٧٨٧ . على أن الفقرة التى نقتبسها كتبت فيما يرجح فى ١٧٨٠ . كان جيبون شاباً رقيق الصحة متوسط الثراء ، نال فى أوكسفورد تعليماً جزئياً متقطعاً ، ثم أتم دراساته فى چنيف ؛ وكان اتجاهه الذهنى فى جماته فرنسياً دوليا أكثر منه بريطانياً . وكان كبير التأثر بالنفوذ العقلى للفرنسى العظيم الذى يشتهر باسم ڤولتير (فرانسوا مارى ارويه دى ڤولتير ، ١٦٩٤—١٧٧٨) . كان ڤولتير مؤلفاً هائل الجد والتشمر ، فإن سبعين سفراً له تزين رفوف كاتب هذه السطور ، وهناك طبعة أخرى لمؤلفات ڤولتير ترفع العدد إلى أربعة وتسعين سفراً ، وكان أكثر ما يعالجه شئون التاريخ والشئون العامة ، وتراسل مع كاترين العظمى قيصرة الروسيا وفردريك الأكبر ملك بروسيا ولويس الخامس عشر ومعظم الرجال البارزين فى ذلك الزمان . وكان إحساس جيبون وفولتير بالتاريخ قويا ، وكلاهما قد وضع آراءه فى الحياة الإنسانية على أكمل وأوضح وجه ؛ وواضح أنهما كليْهما كانا يريان أن النظام الذى كانا يعيشان فيه وأعنى به نظام الملكية . ونظام الطبقات الراقية الناعمة بالفراغ والامتيازات ، ونظام الأقوام المحتقرين تقريباً أصحاب الصناعة والتجارة ، ونظام العامة والفقراء والعمال المدوسين بالأقدام والمنزلين منزلة الإهمال ، كان يبدو أثبت طريقة للعيش رآها العالم طوال الدهر . فاعتنقا مبادئ الجمهوريين إلى حين ، وأخذا يسخران من الإدعاءات المقدسة للملكية ؛ ولكن الروح الجمهورية التى راقت ڤولتير كانت « الروح الجمهورية المتوجه » فى بريطانيا أثناء ذلك الزمان ، التى كان فيها الملك مجرد الرأس الرسمى ، وأول الجنتلمانية وأعظمهم .

وكان المثل الأعلى الذى يرفعان لواءه وبناءه هو المثل الأعلى القائل بوجود عالم مؤدب مهذب يكون فيه الرجال – وأعنى بهم الرجال ذوى السجايا العالية ، إذ ليس لغير هؤلاء وزن – فى خجل من أن يكونوا قساة أو غلاظاً أو متحمسين ، وتكون فيه مرافق الحياة فسيحة الجنبات رشيقة الحواشى ، والخشيةُ من هزوء الناس أقوى معين للقانون على صيانة السلوك اللائق وضروب التوازن والانسجام فى الحياة . وكان ڤولتير يحمل فى صدره استعداداً للكره المتوقد للظلم ، وما تدخلاته فى نصرة من يضطهدون أو يساء إليهم من الرجال إلا الأنوار الساطعة فى قصة حياته المديدة المعقدة . وإذ كان هذا هو الميل الذهنى لدى جيبون وڤولتير ، ولدى العصر الذى كانا يعيشان فيه ، فإن من الطبيعى لديهما أن يجدا فى وجود الديانة فى العالم وبخاصة وجود الديانة المسيحية ظاهرة مربكة محيرة لا يكاد يوجد لها ما يبررها . وكان ذلك الجانب من الحياة يبدو لها فى مجموعه نوعاً من الخبل فى الكيان الإنسانى . وما ذلك التاريخ العظيم الذى ألفه جيبون إلا مهاجمة للمسيحية فى جوهره ، بوصفها السبب الفعال للتدهور والسقوط . فكان يمجد بلوتوقراطية[1] روما الفجة الغليظة ويتخذ منها مُثلا عليا حاول أن يبثها فى عالم مكون من جنتلمانية ممتازين نشأوا على غرار القرن الثامن عشر ، كما بين كيف أن سقوطها أمام هجمات البرابرة القادمين من الخارج جاء نتيجة لفسادها الداخلى من جراء المسيحية . وقد حاولنا فى كتابنا التاريخى هذا أن نقيم معالم تلك القصة تحت ضياء أصح وأحسن . وكان ڤولتير يرى فى المسيحية الرسمية « شنعة L'infâme » ، وشيئاً يحد من حياة الناس ، ويتدخل فى أفكارهم ، ويضطهد المخالفين الذين لا يضرون أحداً . والواقع أنه لم يكن فى « فترة العطل والخلو من الدافع الأعلى » هذه إلا أثر ضئيل جداً من النور أو الحياة فى أى من مسيحية روما (السلَفية) أو كنائس الروسيا الأرثوذكسية الخاضعة وكنائس الأمراء البروتستانت . وكان من العسير على الإنسان فى فترة هذا « الخلو من الدافع الأعلى » التى يثقل الجو فيها وجود كثرة من الأساقفة المداهنين والقساوسة المكرَة – أن يدرك

---

(١) البلوتوقراطية Plutocracy : حكومة الأغنياء . (المترجم)

أى نيران توقدت جمرتها يوماً ما فى قلب المسيحية ، وأى نيران من الشهوات السياسية والدينية لعلها ما تزال ممكنة التوقد فى قلوب الناس .

وأتم جيبون فى نهاية سفره الثالث بيانه عن تصدع الإمبراطورية الغربية . ثم تساءل عند ذلك هل تصاب المدنية يوماً ما بانهيار يماثل ذاك ؟ وأدى به ذلك إلى استعراض حال الشئون المعاصرة له (١٧٨٠) وإلى مقارنتها بحال الأمور أثناء اضمحلال روما الإمبراطورية . وعندى أن من المناسب جداً لخطتنا العامة فى هذا الكتاب أن نقتبس هنا بعض فقرات من تلك الموازنة ، فما من شىء يستطيع أن يوضح خيراً منها الحال العقلية لدى المفكرين المتحررين فى أووربا إبان بلوغ « فترة العطل والخلو من الدافع الأعلى » فى عصر الدول الكبرى أوجها من الناحية السياسية . وذلك قبل ظهور أول بوادر تلك القوى العميقة السياسية والاجتماعية ، قوى التفكك التى أنتجت فى النهاية حالة التساؤل المستوقفة للنظر الموجود فى عصرنا هذا .

كتب جيبون عن الانهيار الغربى يقول : « ربما طُبقت هذه الثورة الرهيبة تطبيقاً نافعاً يعود بالعظة والعبرة المفيدة على عصرنا الحاضر . فإن من واجب الوطنى أن يؤثر ويزكى مصالح ومجد وطنه وحده دون أى شىء عداه . على أنه ربما أبيح للفيلسوف أن يوسع وجهة نظره ، وأن يعد أوربا جمهورية واحدة عظيمة ، أوشك سكانها المتنوعون أن يصلوا إلى نفس المستوى من التأدب والتهذيب . ولسوف يستمر توازن القوى فى التأرجح ، وسوف يتعاور على رخاء مملكتنا أو الممالك المجاورة لها غِيَر الدهر ما بين تسام وتدلٍّ ، على أن هذه الأحداث الجزئية لا تستطيع بالضرورة أن تسدد سهما يجرح سعادتنا العامة ، وأعنى بذلك مجموعة الفنون والقوانين وآداب السلوك ، التى تميز الأوربيين ومستعمراتهم عن الجنس البشرى تميزاً له جدواه التامة . فإن شعوب الكرة الأرضية المتوحشين هم الأعداء المشتركون للجماعة الإنسانية الممدنة ، ولعلنا نتساءل فى تطلع القلِق أما تزال أوربا مهددة بتكرار تلك النوازل التى سبق أن ألمت بقوى روما ونظمها . وربما وضّحت نفس التأملات سقوط تلك الإمبراطورية الجبارة وشرحت الأسباب المحتملة لحالة الطمأنينة الفعلية التى نحن عليها اليوم .

« كان الرومان بمجهلة لمدى الخطر المحيق بهم وعدد أعدائهم . وكانت المناطق وراء الراين والدانوب أى الأقطار الشمالية لأوربا وآسيا غاصة بقبائل لا يحصيها حصر من الصيادين والرعاة وهم فقراء جشعون جياشون بالثورة والعصيان ، متصفون بالجرأة عند اشتباك القتال وهم أشوق ما يكوُنون إلى انتهاب ثمار الكدح والجد الذى يبذله من يجاورهم من شعوب عاملة . كان العالم المتبربر يضطرم بدافع الحرب السريع الجياش ؛ وكان سلام بلاد الغال أو إيطاليا يتزلزل بما يثور فى الصين من ثورات . فراح الهون الذين كانوا يفرون أمام عدو مظفر ، يجعلون وجهتهم الغرب ، وتزايد السيل وطما بمن كان ينضم إليهم من الأسرى والأحلاف . واتخذت القبائل الهاربة التى خضعت للهون ، روح الغزو بدورها ؛ وكان طابور البرابرة الذى لا نهاية له يضغط على الإمبراطورية الرومانية بقوة متجمعة متكاثفة . ولئن دُمر الأولون منهم ، لقد كان المكان الشاغر يملؤه على الفور مهاجمون جدد . وليس فى المستطاع بعد ذلك أن تجىء من الشمال مثل هاته الهجرات العاتية . فأما السكون الطويل الذى يعزى إلى نقص عدد السكان ، فهو النتيجة السعيدة لتقدم الفنون والزراعة . فبدلا من ألا تقوم بألمانيا إلا بضع قرى خشنة متناثرة تناثراً بعيداً وسط غاباتها ومستنقعاتها ، فإن ألمانيا تُصدر اليوم قائمة بألفين وثلثمئة مدينة مسورة ؛ وتأسست على التعاقب ممالك الدانمارك والسويد وبولندة المسيحية . ومد تجار الهانسا ومعهم الفرسان التيوتون مستعمراتهم على امتداد ساحل بحر البلطيق ، حتى خليج فنلندة . ومن خليج فنلندة حتى المحيط الشرقى ، تتخذ الروسيا الآن شكل إمبراطورية قوية ممدنة . ويستقدم المحراث والمنوال والكور إلى ضفاف الفولجا والأوبى واللينا ؛ وعُلِّمت أشد قبائل التتار شراسة كيف ترتعد وتطيع .

« وكانت إمبراطورية روما راسخة البنيان بسبب تضامن أعضائها الفريد الكامل . ولكن هذا الاتحاد اشترى بضياع الحرية القومية والروح العسكرية ؛ وكانت الولايات الذليلة وهى خلو من الحياة والحركة ، تتوقع أن تكون سلامتها على يد الجيوش والحكام المرتزقة الذين كانوا يأتمرون بأوامر بلاط بعيد الشقة . وكانت سعادة مئة مليون من الأنفس تتوقف على الجدارة الشخصية لرجل أو رجلين ، ربما كانا طفلين ممن

أفسد عقولهم طراز تربيتهم وترفهم وسلطتهم الاستبدادية . وأوربا اليوم مقسمة إلى اثنتى عشرة مملكة قوية وإن تكن غير متعادلة ، ثلاث منها إمبراطوريات عظمى ، هذا إلى عدد من الدول الصغرى ، وإن كانت مستقلة . فالفرص أمام مواهب الملوك والوزراء تضاعفت ، وذلك على الأقل بقدر تكاثر عدد حكامها . وربما تولى الأحكام فى الشمال چوليان آخر (أى فردريك الأكبر) أو سميراميس أخرى (يعنى كاترين الكبيرة قيصرة الروسيا) ، على حين يغلب النعاس من جهة أخرى على أركاديوس (لويس السادس عشر) ، وهو نوريوس (شارل الثالث ملك أسبانيا) ، الجالسين على عرش آل بوربون . وقد أوقفت مساوئ الطغيان عند حدها نتيجة لما للخوف والخجل من تأثير متبادل . فاكتسبت الجمهوريات النظام والثبات ، وانطوت الملكيات على مبادئ الحرية ، أو مبادئ القصد والاعتدال على أقل تقدير ؛ ودخل إلى أشد الدساتير نقصاً شيء من معنى الشرف والعدالة بفضل ما ساد الزمان على الجملة من خلق حسن . وفى زمن السلم كانت سرعة تقدم العرفان والصناعة تزداد بتنافس مثل هذا الحجم من المتبارين الناشطين . وفى زمن الحروب تمرس القوات الأوربية بنضال معتدل غير حاسم . فلو خرج من صحراء التتار غاز متبربر ، فلا بدّ له من أن يقمع على التوالى فلاحى الروسيا الأشداء ، فجيوش ألمانيا العديدة ، فنبلاء فرنسا الشجعان فرجال بريطانيا الأحرار الجريئى الجنان ، الذين لعلهم يتحالفون من أجل دفاعهم المشترك . ولو أن البرابرة المظفرين حملوا الاسترقاق والتدمير حتى المحيط الأطلسى ، لنقلت عشرة آلاف من السفن بقايا الجماعة المتمدنة إلى حيث لا تنالها أيديهم ، وعند ذلك تنتعش أوربا مزدهرة فى العالم الأمريكى الملىء بمستعمراتها ونظمها .

« والبرد والفقر وحياة الخطر والمتاعب تخلع على قوة البرابرة وشجاعتهم متعة وحصانة . ولقد كانوا فى كل عصر كلاًّ يوقع فادح المتاعب على أهل التأدب والسلام من أمم الصين والهند وفارس ، الذين أهملوا وما يزالون يهملون أن يقيموا لأنفسهم عماداً يوازن تلك القوى الطبيعية بالالتجاء إلى موارد الفن العسكرى . وكانت الدول الحربية النزعة فى الأزمان القديمة أمثال الإغريق ومقدونيا وروما ، تنشئ جنساً من الجنود ، فتمرن أجسامهم ، وتنظم شجاعتهم وتكثر من عددهم بما تحدث فى قواتهم

من تطورات منظمة ، وتحول ما فى حوزتها من حديد إلى أسلحة متينة نافعة . ولكن هذا الاستعلاء الحربى ما لبث أن انحط بالتدريج وبشكل غير محسوس بظهور قوانينهم وآداب سلوكهم . وأدت السياسة الضعيفة التى انتجها قسطنطين وخلفاؤه إلى تسليح المرتزقة البرابرة وتدريب شجاعتهم الخشنة على فنون القتال ، ـ فعاد ذلك على الإمبراطورية بالخراب . ولقد غير اختراع البارود كل أصول الفن العسكرى ؛ والبارود يطوع للإنسان السيادة على أقوى عوامل الطبيعة شكيمة وهما الهواء والنار . ووضعت علوم الرياضيات والكيمياء والميكانيكا والعمارة فى خدمة الحرب ؛ وأخذ كل خصمين متنازعين يطبقان على بعضهما البعض أحكم طرائق الهجوم والدفاع . وربما لاحظ بعض المؤرخين فى شىء من الغضب أن نفقة معدات الحصار قد تكفى لتأسيس مستعمرة مزدهرة والمحافظة عليها . ومع ذلك فليس فى مستطاعنا أن نتكدر لأن تخريب مدينة عمل لابد أن يتكلف ثمناً غالياً وأن تعترضه صعوبة كبيرة ، أو أن شعباً مجداً يجب أن تحميه فنونه ، التى تبقى بعد فناء وانحلال الفضيلة العسكرية والتى تكون من عوامل ذلك الفناء . فالآن تنهض المدافع والتحصينات حاجزاً منيعاً فى وجه خيل التتار ؛ كما أن أوربا أمست بمأمن من أية غارة مستقبلة يشنها البرابرة ؛ إذ أنه يجب عليهم قبل أن يفتحوا ويقهروا أن يتخلوا أولا عن همجيتهم .

« فإن ساورك الشك فى هذه الآراء ، أو تبينت خطأها ، فما يزال هناك مصدر متواضع للراحة والأمل . فإن مكتشفات الملاحين القدامى والعصريين والتاريخ الداخلى أو التقاليد لأشد الشعوب استنارة ، ـ تظهر « المتوحش الإنسانى » عارياً فى كل من جسده وعقله ، ومجرداً من « القوانين والفنون والفكرات ، بل من اللغة تقريبا » . وعن هذه الأحوال الوضيعة ، ولعلها على وجه العموم حالة الإنسان البدائية ، ارتفع الإنسان شيئاً « فشيئاً » إلى السيطرة على الحيوان وإلى تسميد الأرض ، وإلى اختراق لجات المحيط ، وإلى قياس أطباق السماوات . وكان تقدمه فى تحسين وتدريب مواهبه العقلية والجسمية منوعاً غير منتظم ، بطيئاً بطئاً لا نهائياً فى البداية ، متزايد السرعة بعد ذلك متضاعفها درجة فدرجة . وكم تلت عصور الرفعة المضنية لحظات انحدار

سريع . وأحست أجواء الكرة الأرضية المختلفة تقلبات النور والظلام . على أن خبرة أربعة آلاف سنة ، يجب أن توسع آفاق آمالنا ، وأن تقلل من مخاوفنا . ولسنا بقادرين أن نبلغ الكمال . على أنه من الممكن أن يفكر المرء وهو على جانب الأمنة أن شعباً واحداً لن ينتكس إلى حالة همجيته الأصلية ما لم يتغير وجه الطبيعة .

« فمنذ اكتشاف الفنون لأول مرة بثت الحروب والتجارة والحماسة الدينية بين متوحشى الأزمان القديمة والعالم الجديد ، تلك الهبات التى لا تقدر ، بأن طفقت تنشرها نشراً متعاقباً على الأجيال ؛ وإذن فليس فى الإمكان أبداً أن تزول . ولذا فإنا نستطيع أن نوافق على ذلك الاستنتاج السار القائل بأن كل عصر فى العالم قد زاد وما يزال يزيد — فى الثروة الحقيقية والسعادة والعرفان لدى الجنس البشرى وربما زاد فى فضيلته أيضاً »[١].

١٤ — الهدنة الدينية تشارف نهايتها

ومن أمتع مظاهر قصة أوربا هذه فى القرن السابع عشر ومستهل الثامن عشر ، أثناء دور الملكيات العظمى والبرلمانيـــة ، ما نراه من الاستسلام النسبى فى العمال والفلاحين . والظاهر أن نيران العصيانات التى شبت إبان القرون الرابع عشر والخامس عشر والسادس عشر قد خمدت تماماً . ذلك بأن بعض التسويات الخشنة الفجة خفضت من حدة الخلافات الاقتصادية فى الفترة السابقة ، إذ أحدث اكتشاف أمريكا انقلاباً وتغييراً فى معيار الأشغال التجارية والصناعة ، وأدخل إلى أوربا قدرا ضخماً من المعادن النفيسة فصنعت نقودا ، وزاد فى العمل ونوّعه . وامتنعت أسباب الشقاء إلى حين . ومرحين من الزمن لم تعد فيه الحياة والعمل شيئاً لا يطاق عند جماهير الفقراء . ولكن لم يحلْ هذا بالطبع دون وجود الكثير من الشقاء والتذمر الفردى ، أن كان الناس يعيشون وإلى جوارهم على مدى الدهر كله الفقراء ، بيد أن هذا الشقاء والتذمر كان موزعاً متناثراً . فأصبح من ثم همهمة لا تصل إلى الآذان .

وكان لعوام الناس فى الفترة السابقة فكرة يتبلورون حولها وهى فكرة الشيوعية المسيحية . وقد وجدوا فى أمثال ويكليف من القساوسة والعلماء المنشقين قيادة مثقفة .

وإذ أن الحركة الداعية إلى نهضة فى المسيحية استنفدت قوتها ، وإذ أن العقيدة اللوثرية نكصت فى زعامتها عن يسوع الناصرى إلى الأمراء البروتستانت ، فقد نضب معين ذلك التماس والتفاعل الذى تهيأ بين الأذهان الجديدة للطبقة المتعلمة وبين الأذهان الأمية . ومهما تبلغ ضخامة عدد الطبقة المهيضة الجانب ، ومهما يبلغ التطرف بشقاوتها ، فلن يكون فى إمكانها القيام باحتجاج فعال حتى تصل إلى التكتل بواسطة تكوين فكرة عامة تجمع شمل أفرادها . فإن أصحاب الأفكار من متعلمى الرجال والنساء ألزم وأشد ضرورة لأية حركة سياسية شعبية منهم إلى أية عملية سياسية أخرى . فإن الملكية تتعلم الحكم عن طريق الحكم ، وإن للأوليجركية – من أى طراز كانت – لتعليماً تتلقاه من إدارتها للشئون ؛ ولكن ليس لدى الرجل العامى وأعنى به الفلاح أو الكادح أى تجربة فى الشئون الكبيرة ، فهو لا يستطيع أن يعيش سياسياً بغير خدمات المتعلمين وإخلاصهم وإرشادهم . فالإصلاح الدينى أى الإصلاح الدينى الذى نجح ووفق ، وأعنى به الإصلاح الدينى للأمراء ، قد قضى بتحطيمه للوسائل والفرص التعليمية على العالم الفقير وطبقة القسوس قضاء كبيرا وهم الذين جعلوا الإصلاح ممكنا بإقناعهم الجمهور .

هذا ولم يفت أمراء الأقطار البروتستنتية أن يدركوا منذ البداية أى عند ما استولوا على الكنائس الوطنية ، ضرورة الاستحواذ على الجامعات أيضاً . وكانت فكرتهم عن التعليم هى فكرة الاستيلاء على أذكياء الشبان واستخدامهم فى خدمة سادتهم . وكان التعليم يعد عندهم فيما وراء ذلك شيئاً ضاراً . وعلى ذلك لم يبق للفقر إلا وسيلة واحدة للتعلم هى الاستعانة بنصير يأخذ بيده . وبديهى أن جميع الملكيات العظمى كانت تشجع التعليم بطريقة هى بالمهرجانات أشبه ، ففيها أقيمت الأكاديميات والجمعيات الملكية ، ولكن هذه الأوضاع لم تفد إلا طبقة صغيرة من العلماء الخاضعين ، وكانت الكنيسة كذلك تعلمت ألا تثق فى المتعلم الفقير . كذلك حدث فى الجمهورية العظيمة الأستقراطية المتوجة فى بريطانيا ، نفس التناقص فى الفرص التعليمية . ويقول هاموند فى بيانه عن القرن الثامن عشر : « إن كلا من الجامعتين القديمتين ، كانت للأغنياء . وهناك فقرة فى ماكولى تصف حالة أكسفورد وما كانت عليه من بذخ

وأبهة عند مختتم القرن السابع عشر ، « عند ما جلس مديرها الدوق أورموند الوقور في ثيابه الموشاة على عرشه تحت السقف المنقوش في المسرح الشلدوني[١] ، يحيط به مئات من المتخرجين كل في ثياب رتبته ، على حين كان يقدم إليه أنبل شبان انجلترة في دعة ووقار بوصفهم طلاباً لدرجات الشرف العلمية . لقد كانت الجامعة قوة ، لا بالمعنى الذي يمكن أن تقال به تلك الكلمة عن جامعة مثل جامعة باريس القديمة ، التي كان العلم فيها يستطيع أن يجعل البابوات يرتعدون فرقاً ، بل بالمعنى القائل بأن الجامعة كانت جزءاً من الجهاز الأرستقراطي المعترف به . وما كان يصدق عن الجامعات ، كان يصدق عن المدارس العامة[٢] . فلم يكن التعليم في انجلترة مهد مجتمع ، بل مهد هيئة من الناس ، وليس مهد دولة ، بل مهد جنس من الحكام الملاك » . وكانت روح التبشير الديني قد فارقت التعليم في كل أرجاء أوربا . وإلى هذا ، بل وأيضاً إلى تحسن الأمور بانتشار الرخاء ، ينسب طور الإستسلام هذا الذي ران على الطبقات الدنيا . فإنهم فقدوا عقولهم وألسنتهم ، وكان الطعام يقدم إليهم وكفى . وكان المجتمع أشبه شيء بحيوان مسلوب الحيوية في أيدي الطبقة الحاكمة .

وفضلا عن ذلك فقد دخلت تغييرات جسيمة على ما بين الطبقة والطبقة من تناسب . ومن أشق الأمور التي على المؤرخ أن يقفوها في مجتمع ما ، تقدير القيمة النسبية للأملاك الكلية ، التي تملكها في أي وقت أية طبقة خاصة في ذلك المجتمع . فإن هذه الأمور تتقلب تقلباً سريعاً جداً . وتدل حروب الفلاحين في أوربا على دور تركز نسبي للأملاك في أيدي قلة من الناس بينما تشعر جماهير من الناس أنها قد شردت عن أملاكها وشملتها حالة من السوء مشتركة . وبذلك تنتهج خطة العمل الجمعي . كان هذا هو الزمان الذي تسنمت فيه أسرة الفوجر[٣] وأمثالها مراقي الرفعة والرفاهية ، وهو زمان مالية دولية . ويبدو أنه قد صاحب الاستيراد الهائل للذهب والفضة والسلع إلى

---

(١) المسرح الشلدوني : نسبة إلى جلبرت شلدون رئيس أساقفة كانتربرى في ١٦٦٣ بناه على نفقته بأكسفورد وقد صممه المهندس رن . (المترجم)

(٢) المدارس العامة Public Schools : هي المدارس الثانوية . (المترجم)

(٣) أسرة فوجر Fuggers : أسرة سوابية من التجار كانت تعيش في أوجزبرج وبلغ من ثرائها أن كانت تنفق أحياناً على حملات ملوك ألمانيا العسكرية . (المترجم)

أوربا من أمريكا ، عودة لحالة ثراء أوسع انتشاراً بين الأفراد . وكان الفقراء على حالهم التى هم عليها من الشقاء والتعاسة ، ولكن لعله لم يكن هناك فقراء بمثل العدد الأول نسبياً ، كما أنهم كانوا مقسمين إلى أضرب عديدة من الطوائف التى لا تجمعها فكرات مشتركة . فأما فى بريطانيا العظمى ، فإن الحياة الزراعية التى فككها وزلزل أركانها مصادرات الأملاك إبان الإصلاح الدينى ، قد استقرت من جديد فى نظام زراعة المستأجرين يعيشون من دون ملاك للأراضى عظام . وإلى جوار هذه المزارع الكبيرة ، كان ما يزال يوجد أراض كثيرة مشاعة لرعى سائمة القرويين الأفقرين ، كما كان هناك أراض كثيرة تزرع قطعاً على أساس الملكية المشتركة للمجتمع . فأما الرجل المتوسط الحال ، وحتى النوع الأفقر منه من الرجال المرتبطين بالأرض ، فكانوا يعيشون عيشاً مطاقاً مقبولا فى (١٧٠٠) . فإن مستوى الحياة وأعنى به فكرة ما قد يطاق من العيش ، كان مع ذلك فى ارتفاع أثناء مستهل عهد الملكية العظمى . وبعد إنقضاء آن من الزمان ، تبدو عملية تركز الثروة واتجاهها إلى أعلى وكأنما قد استؤنفت . فإن ملاك الأراضى العظام أخذوا يضعون أيديهم على الأراضى ويطردون الزراع الأحرار الأفقرين زرافات ، وتزايدت من جديد نسبة الفقراء ونسبة القوم الذين كانوا يشعرون بأنهم يعيشون حياة من يحل بهم الفقر : وكان أكابر الرجال هم حكام بريطانيا العظمى الذين لا ينازعهم منازع ، فنصبوا أنفسهم لإصدار قوانين — هى قوانين السياجات (The Enclosure Acts) — وهى التى كادت تفضى إلى مصادرة الأراضى غير المسوّجة والأراضى المشاع ، لمصلحة كبار ملاك الأراضى قبل كل إنسان . وانحدر صغار الرجال إلى مرتبة الأجراء كاسبى الأجور بعرق الجبين فى الأراضى التى كانوا يملكون فيها فى أحد الأيام حق الفلاحة والرعى .

ولم يصل الفلاح فى فرنسا وأوربا عامة إلى مثل هذه الدرجة من الحرمان من ممتلكاته . فلم يكن عدوه هو صاحب الأرض بل الجابى ؛ فكان يُدفع إلى أرضه دفعاً بدل أن يدفع إلى خارج أراضيه .

ومع مضى العهد بالقرن الثامن عشر يتضح لنا من ادب ذلك الزمان ، أن معالجة شأن « الفقير » عادت فشغلت أذهان الناس ثانية ، فإنا نجد كتابا من متوقدى

الأذهان بين الإنجليز من أمثال ديفو (١٦٥٩ – ١٧٣١) وفيلدنج (١٧٠٧–١٧٥٤) ، يفكرون أعمق التفكير فى هذه المسألة . ولكن لم يحدث حتى ذلك الحين انتعاش للفكرات الداعية إلى الشيوعية والمساواة الموجودة فى المسيحية البدائية . شأن ما كان يميز أزمان ويكليف وهس (Huss) . فالبروتستانتية عند تمزيقها للكنيسة العامة ، مزقت ردحاً من الزمان فكرة التماسك العام ، وحتى لو صح أن الكنيسة العامة فى القرون الوسطى فشلت فشلا تاماً فى تحقيق تلك الفكرة ، فإنها كانت على كل حال رمزها .

وكان ديفو وفيلدنج رجلين أوتيا خيالا عمليا أشد نشاطاً من خيال جيبون ، فأدركا شيئاً من العمليات الاقتصادية التى كانت قائمة على قدم فى زمانهما ، وكذلك شأن أوليفر جولد سميث (١٧٢٨ – ٧٤) ، فإن قصيدته « القرية المهجورة » (١٧٧٠) ليست إلا منشوراً فى موضوع السياجات متنكراً فى زى قصيدة . ولكن ظروف جيبون لم تظهر قط الحقائق الاقتصادية أمام ناظريه ظهورا ناصعا جداً . فإنه كان يرى العالم فى صورة كفاح بين التبربر والمدنية ، على أنه لم يدرك شيئاً من ذلك النزاع الآخر الذى كان (جيبون) يطفو فوقه ، وهو ذلك الكفاح الصامت غير المدرك ، كفاح عامة الناس ضد الرجال القادرين الأقوياء الأثرياء الأنانيين . فلم يدرك تجمع عوامل الضغط التى أوشكت للفور أن تعصف بكل التوازن القائم بين « ممالكه الإثنتى عشرة القوية غير المتعادلة » أعنى بين « إمبراطورياته المحترمة الثلاث » وما حولها من السفلة والزعانف من أصاغر المستقلين من الأمراء والأدواق الحكام ومن إليهم . وحتى الحروب الأهلية التى ابتدأت فى المستعمرات البريطانية بأمريكا ، لم توقظه إلى إدراك قرب نشوء ما نسميه اليوم « بالديمقراطية » .

وقد يظن القارئ مما ظللنا نقوله حتى الساعة عن دفع الملاك العظام للمزارع الصغير والفلاح إلى خارج الأراضى ، وعن اختطاف أرض المشاع وتركيز العقار فى أيدى طبقة قوية شرهة ذات امتيازات ، أن ذلك كان كل ما يحدث فى الأراضى الإنجليزية فى القرن الثامن عشر — إذ الواقع أنا اقتصرنا على ذكر أسوأ نواحى التغيير . وفى نفس الوقت الذى كان يحدث فيه هذا التغيير فى الملكية ، كان يحدث تقدم عظيم فى

الزراعة . وليس هناك إلا القليل من الشك فى أن طرائق الفلاحة التى يستخدمها الفلاحون وواضعو اليد على الأرض والمزارعون الصغار ، كانت طرقاً عتيقة بالية مضيعة للجهد وغير منتجة نسبياً ، وأن الملكيات والمزارع الخاصة الكبرى التى خلقتها قوانين السياجات كانت أكثر إنتاجاً بكثير من الطرق القديمة (يقول حجة من الثقات إنها كانت تنتج عشرين ضعفا) . فلربما كان التغير أمراً ضروريا ، على أن ما فيه من الشر لم يكن راجعاً إلى حدوثه ، بل إلى أنه إنما حدث لكى يزداد الأثرياء ثراء والفقراء عدداً . أما منافعه فإن المالك الخاص الأكبر قطع الطريق دونها مختصاً بها نفسه . فوقعت المضرة على المجتمع وإن استفادت هذه الطبقة الفائدة العظمى .

وهنا نبلغ واحدة من أعظم مشاكل حياتنا فى الزمن الحاضر ، وهى مسألة انحراف ثمار التقدم ومكاسبه عن طريقها الطبيعى . فقد انقضت مئات من السنين — ظهر فيها بتأثير العلم والبحث بوجه رئيسى ، تحسن متواصل فى طرائق إنتاج كل شىء تقريباً تحتاج إليه الإنسانية . فلو أن إحساسنا بالجماعة وعلمنا الإجتماعى كانا معادلين للواجبات المفروضة عليهما ، فلن يكون هناك أدنى شك فى أن هذه الزيادة الكبيرة فى الإنتاج ، كانت تعود بالنفع على المجتمع بأكمله ، وكانت تتيح لكل فرد قدراً من التعليم ووقت الفراغ والحرية لم تحلم الإنسانية قط بمثله من قبل . ولكن على الرغم من أن مستوى المعيشة العام قد ارتفع ، فإن الارتفاع تم بمعيار صغير غير مناسب. إذ أن الأغنياء طوروا لأنفسهم حرية وترفا لم يعهدهما العالم من قبل ، كما تزايدت نسبة الأغنياء والخاملين من الناجحين وغير المنتجين فى المجتمع ، على أن هذا يفشل فى تعليل النفع الكامل المستفاد . إذ حدث ثمة كثير من المضيعة التى لا فائدة تجنى من ورائها ، فإن تجمعات هائلة من المادة والطاقة قد أنفقت فى الحرب والاستعداد لها . وكرس شىء كثير من الجهد فى سبيل تلك الجهود غير المجدية ، التى تنفق فى المنافسة الفاشلة فى الأعمال التجارية . وظلت إمكانيات كثيرة بلا تطوير وتنمية بسبب ما أبداه الملاك ومحتكرو السوق والمضاربون من معارضة لاستغلالها الإقتصادى . ولم تتناول الطيبات التى ظل العلم والتنظيم يقربانها إلى متناول يد الإنسانية — تناولاً

منهاجياً [1] ولم تستعمل إلى أقصى حدودها ، ولكن تخاطفتها الأيدى وتجاذبتها الأصابع — واستمسك بها المغامرون المقامرون واستخدمت لغايات أنانية تمت إلى الغرور بسبب . وكان القرن الثامن عشر فى أوربا وبوجه أخص فى بريطانيا العظمى وبولندة عصر الملكية الخاصة . وكان القدح المعلى فيه « للمسعى الخاص » [2] الذى معناه فى الممارسة العملية أن لكل فرد الحق فى الحصول على كل شىء يستطيعه من أشغال المجتمع . ولسنا نعثر فى الروايات العادية والمسرحيات وما إليها من الأدب الممثل للزمان على أى إحساس بالتزام الأفراد بأى شىء نحو الدولة فى شئون الأعمال . إذ أن كل إنسان منطلق « لتكوين ثروته » ، وليس هناك من يدرك أن من الخطأ أن يظل الإنسان طفيلياً على المجتمع غير منتج ، وأقل من هذا أن يشعر مالى أو تاجر أو صاحب صناعة ، أنه يتناول لقاء خدماته للإنسانية أجراً أكثر مما ينبغى . كان ذلك هو جو الزمان الخلقى . وهؤلاء اللوردة والجنتلمانية الذين كانوا يختطفون أرض الشعب المشاع ، يفترضون امتلاك المناجم التى تحت أراضيهم ، ويحطمون صغار المزارعين الملاك [3] والفلاحين حتى يصلوا إلى مرتبة الأجراء المعدمين ولم تكن تخامرهم بعد هذا كله أية فكرة إلا أنهم إنما يعيشون عيشا جديرا تماما بكل كرامة واستحقاق .

وكان يساير هذا التغيير فى بريطانيا العظمى ، أعنى هذا الانتقال من فلاحة الرقاع التقليدية والمراعى المشتركة إلى الزراعة الكبيرة الأكثر اعتماداً على العلم — تغيرات عظيمة جداً فى صناعة السلع . وكانت بريطانيا العظمى فى القرن الثامن عشر زعيمة العالم فى تلك التغيرات . فحتى ذلك الحين وعلى مسار التاريخ أجمع منذ بداية المدنيات ، كانت المصنوعات والمبانى والصناعات فى أيدى أرباب الحرف على وجه

---

(١) منهاجياً Methodically : أى متبعاً للترتيب المنطقى فى البحث العلمى . (المترجم)

(٢) المسعى الخاص أو الجهد الفردى Private Enterprise : جهود الأفراد فى التجارة والأعمال الحرة . (المترجم)

(٣) صغار المزراعين الملاك Yeomen : وكانت ملكيتهم مدى حياتهم فقط أو تتوارث بقيود . (المترجم)

العموم وفى أيدى صغار المعلمين (الأسطوات) الذين كانوا يشتغلون فى بيوتهم الخاصة . وكانت تنتظمهم نقابات ، وهم فى معظم الأمر سادة أنفسهم وأصحاب أعمالهم . فكانوا يكونون طبقة وسطى جوهرية مستديمة لها وزنها . وكان بينهم المولون الذين كانوا يخرجون الأنوال وما إليها ، ويزودون غيرهم بالخدمات ، ويأخذون السلعة التى تتم ، على أنهم لم يكونوا مولين كباراً . فلم يكن هناك أصحاب مصانع أغنياء ، بل كان أغنياء العالم قبل ذلك الزمان هم أصحاب الأراضى العظام أو مسلفوا النقود أو الممارسون لشئون النقود أو التجار . ولكن حدث فى القرن الثامن عشر أن بدأت طريقة جديدة هى تجميع صناعات بعينها رغبة فى إنتاج أشياء بمقادير أكبر بطريقة توزيع نظامى للعمل ، وشرع صاحب العمل مميزاً من المعلم (الأسطى) فى أن يكون شخصاً هاما . زد على ذلك أن الاختراعات الآلية أخذت تنتج الآلات التى تسهل عمل الإنتاج اليدوى وتبسطه ، والتى كان فى الإمكان دفعها بقوة الماء ثم للفور بقوة البخار . إذ ركبت فى (١٧٦٥) آلة وات Watt البخارية ، وهو تاريخ عظيم الأهمية فى تاريخ الحركة الصناعية . وكانت صناعة القطن من أوائل الصناعات التى تحولت إلى الإنتاج فى المصانع (وكان ذلك فى الأصل بواسطة آلات تدفعها المياه) وتلى ذلك صناعة الصوف . وفى نفس الوقت لجأت صناعة صهر الحديد إلى فحم الكوك المصنوع من الفحم الحجرى وكانت حتى ذلك الحين تقتصر على أساليب صغيرة تعتمد على الفحم النباتى . وابتدأت صناعات الفحم والحديد كذلك فى الانتشار . وانتقلت صناعة الحديد من أرض ساسكس (Sussex) وسرى (Surrey) المليئة بالغابات إلى مناطق الفحم . ولما وافت (١٨٠٠) كان هذا الانقلاب فى الصناعة قد سار شوطاً صالحا وانتقل بها من الانتاج الصغير بما يصحبه من أصحاب الأعمال الصغار إلى الإنتاج الكبير فى كنف أصحاب أعمال كبار . فنشأت فى كل مكان مصانع استعملت الماء بادئ بدء ثم ثنت بقوة البخار . كان تغيرا ذا أهمية جوهرية فى الاقتصاد البشرى . ومنذ فجر التاريخ كان صاحب المصنع وصاحب الحرفة كما قلنا نوعاً من أهل المدن أبناء الطبقة المتوسطة .

فالآن حلت محل مهارته الآلة وصاحب العمل ، فأما هو فإنه أصبح إما

صاحب عمل يستخدم إخوانه ، ويرقى درجات الغنى إلى حد التساوى بالطبقات الفنية الأخرى ، أو ظل صانعاً وانحط سريعاً إلى مستوى العامل الأجير ، ويعرف هذا التغير العظيم فى الشئون الإنسانية باسم الانقلاب الصناعى أو الثورة الصناعية . وقد بدأ ذلك الانقلاب فى بريطانيا العظمى وظل ينتشر طيلة القرن التاسع عشر إلى العالم أجمع

ومع تقدم الزمن بالثورة الصناعية ، إنفتحت هوة عظيمة بين صاحب العمل المستخدم لغيره والعامل المستخدم الأجير ففى الماضى كان كل عامل « منتج » يمنى النفس بأن يصبح يوما ما معلما (أسطى) مستقلا . وبلغ الأمر بأصحاب الحرف الأرقاء فى بابل وروما أن كانت تحميهم قوانين كانت تمكنهم من إدخار المال وشراء حريتهم وإقامة عمل مستقل لأنفسهم . أما الآن فقد أصبح المصنع وعدده وآلاته شيئاً ضخما باهظ النفقة ، بالقياس إلى قدرة الصانع المالية . ولذا صار لزاماً على الأغنياء أن يجتمعوا لينشئوا مشروعا . وكان الائتمان ومعدات المصنع وأعنى بهما « رأس المال » لازمين مطلوبين . ولم تعد إقامة الصانع « عملا مستقلا بنفسه » مطمحاً طبيعيا لمهرة الصناع . ومن ثم أصبح العامل منذ ذلك الحين عاملا من مهده إلى لحده . ونشأت عند ذلك بالإضافة إلى أصحاب الأراضى والتجار والماليين الذين كانوا يمولون الشركات التجارية ويقرضون أموالهم للتجار والدولة ، نشأت عند ذاك هذه الثورة الناتجة من رأس المال الصناعى — وهى ضرب جديد من القوة فى الدولة .

وإنا لمحدثوك عما قليل ، كيف نهضت تلك البدايات حتى بلغت تمامها . وكان الأثر المباشر للثورة الصناعية فيما حلت به من أقطار ، أن أحدثت إنتقالا أليما وهزة عظيمة بين عوام السكان الصامتين غير المتعملين الذين لا زعيم لهم والذين أصبحوا الآن محرومين من الأملاك حرمانا يتزايد أكثر فأكثر . فأما صغار المزارعين والفلاحين — وقد قضت عليهم قوانين السياجات وأخرجتهم من أراضيهم — فإنهم انتقلوا إلى المناطق الصناعية الجديدة ، وهناك انضموا إلى عائلات أصحاب الحرف الذين عضتهم الفاقة وانحطت مكانتهم فى المصانع . وظهرت فى الوجود مدن كبيرة مكونة من منازل قذرة . وما نخال أن إنسانا لاحظ فى وضوح ، ماذا كان يجرى فى ذلك

الزمان . فالفكرة الأساسية لأرباب مذهب « المسعى الخاص » هى أن يلزم كل امرئ شأنه ، وأن يحصل على أقصى ربح فى مستطاعه ، وأن يغفل كل ما عدا ذلك من عواقب . ونمت مصانع قبيحة الشكل ، بنيت بأرخص ما يمكن من نفقة ، لتضم أكبر عدد ممكن من الآلات والعمال . وتجمعت حولها شوارع تحوى منازل العمال ، وقد بنيت بأرخص الأسعار ، دون أى إتساع ودون أى انفصال عن الجيران ، ودون أى مظهر من مظاهر اللياقة والاحتشام تقريباً ، مع تأجيرها للعمال بأقصى ايجار يمكن تحتيمه عليهم . وكانت هذه المراكز الصناعية الجديدة ، بلا مدارس ولا كنائس بادئ الأمر .

وكان الجنتلمان الإنجليزى الذى عاش فى الهزيع الأخير من القرن الثامن عشر يقرأ السفر الثالث من جيبون ثم يقبل على نفسه بالتهنئة لأنه لم يعد يوجد منذ ذلك الحين أى خوف خطير من الهمج المتبربرين ، على حين أنه على قيد بضع خطوات من باب منزله كانت هذه الهمجية الجديدة تشب وتنمو ، كما كان هذا التحول ، الذى كان يحيل أبناء وطنه شيئاً حالكاً معتماً لا رجاء فيه ، يسير بأشد قوة وأقصاها .

الفصل الخامس والثلاثون

الجمهوريات الديمقراطية الجديدة بأمريكا وفرنسا

---

١ – متاعب نظام الدولة العظمى

عنـــدما كان جيبون يهنىء منذ قرن ونصف من الزمان عالم الأناسى المهذبين المتعلمين بأن عصر الكوارث السياسية والاجتماعية قد ولىّ ، كان يهمل دلالات كثيرة كنا نستطيع بعد أن مرت بنا أحداث التاريخ وحقائقه الواقعة – أن نخبره بأنها تحمل فى طياتها النذر بهزات وتقلقلات أفدح ثقلا من أى شىء توقعه . ولقد خبرناك كيف أن كفاح أمراء القرنين السادس عشر والسابع عشر من أجل الرفعة والمنافع تطور إلى كفاح أكثر مكراً ودهاء وأشد تعقداً بين وزارات الخارجية ، وهى فى ثياب تنكرية تتشكل فيها شكل « الدول العظمى » وتتخذ منها معبودات ومثلا عليا مع تقدم العهد بالقرن الثامن عشر . وتطور فن الدبلوماسية المعقد العريض الدعاوى . ولم يعد « الأمير » متآمراً مكيافليا يعمل فى الخفاء ، وأصبح مجرد الرمز المتوج لخطة مكيافلية . فانقضت بروسيا والروسيا والنمسا على پولندة واقتسمتها . وتورطت فرنسا فى تدابير عميقة ضد أسپانيا . وخاتلت بريطانيا « خطط فرنسا » فى أمريكا واستحوذت على كندا . وتفوقت على فرنسا فى الهند . عند ذلك حدث أمر جلل ، أمر عدته الدبلوماسية الأوربية مزعجاً جداً . فإن المستعمرا-

البريطانية في أمريكا رفضت رفضاً باتاً أن يكون لها بعد ذلك أى دور أو نصيب فى لعبة « الدول العظمى » هذه . إذ أنهم دفعوا بأنهم قوم ليس لهم صوت ولا مصلحة كبيرة فى هذه الخطط والمنازعات الأوربية ، ورفضوا أن يتحملوا أى نصيب من عبء الضرائب التى تجرها تلك السياسات الخارجية ، وكانت الفكرة المتسلطة عليهم هى أن « الضرائب بلا تمثيل نيابى استبداد وطغيان »

وغنى عن البيان أن هذا العزم على الانفصال لم يتفجر كاملا سوىّ الخلق من العقل الأمريكى منذ بداية هذه المتاعب . فقد كان الرجال العاديون فى أمريكا فى القرن الثامن عشر مثلما كانوا فى انجلترة فى القرن السابع عشر ، فى رضاء تام بل رغبةَ أكيدة فى الواقع فى ترك الشئون الخارجية فى يد الملك ووزرائه . ولكن كانت هناك رغبة تعادل هذه فى القوة من جانب الرجال العادين أنفسهم هى ألا تقرر عليهم الضرائب ولا يتدخل فى شئون اتجاهاتهم العادية متدخل . ولكن هاتين الرغبتين متعارضتان . فإن الرجال العادين لايستطيعون أن يتنصلوا من السياسة العالمية وأن يستمتعوا فى نفس الوقت بالحرية الخاصة ، ولكن تعلمهم هذه الحقيقة اقتضاهم أجيالا لاتقع تحتَ حصر . وعلى ذلك فإن أول ما ظهر من اعتراض فى العصيان الأمريكى على حكومة بريطانيا ، كان مجرد تذمر من الضرائب ، ومن التدخل الذى تبع بالضرورة « السياسية الخارجية » دون أى تمييز واضح لما كان ينطوى عليه ذلك الاعتراض . ولم يحدث إلا عندما بلغ العصيان ذروته ، أن سكان المستعمرات الأمريكية ميزوا حقاً تمييزاً واضحاً أنهم رفضوا وجهة نظر « الدولة العظمى » فى الحياة . وكانت العبارة التى عبرت عن ذلك الرفض هى وصية واشنجتون « بتجنب المحالفات المورطة » . ومن ثم فإن المستعمرات البريطانية المتحدة بأمريكا الشمالية ظلت قرنا كاملا وقد تحررت واستقلت تحت اسم الولايات المتحدة الأمريكية — بمنأة تامة عن المؤامرات والمنازعات الملطخة بالدماء بين وزارات الخارجية الأوربية . وسرعان ما استطاعوا بعد (١٨٠١ إلى ١٨٢٣) أن يمدوا مبدأهم الانفصالى إلى سائر أجزاء القارة ، أو يجعلوا العالم الجديد أجمع « محظوراً » على من فى العالم القديم من أصحاب مؤامرات التوسع الاستعمارى ومدبرى خططه . وعندما اضطروا آخر الأمر فى

١٩١٧ أن يدخلوا ثانية إلى مجتلد[1] السياسة العالمية ، كان هدفهم من ذلك أن يزجوا فى معقدات العلاقات الدولية ، بالروح الجديدة والأغراض الجديدة اللواتى مكنهم ترفعهم من تطويرها . على أنهم لم يكونوا مع ذلك أول من ترفع . فمنذ معاهدة وستفاليا (١٦٤٨) حافظت ولايات سويسرا الاتحادية فى معاملتها الجبلية على حقها فى الانعزال عن خطط الملوك والامبراطوريات .

ولكن لما كانت شعوب أمريكا الشمالية مقدمة الآن على القيام بدور فى تاريخنا تتزايد أهميته ، فإن من الخير أن نقسم لهم من عنايتنا قسما أوفى قليلا مما قسمناه لتطورهم حتى الآن . ولقد سبق أن ألقينا نظرة إلى هذه القصة فى القسم العاشر من الفصل السابق . ولسوف نزيدك من فورنا إيضاحاً — وإن كان ذلك فى حدود أبسط المعالم — عن أحوال تلك المستقرات ، التى كان عنادها سبباً فى تلك المضايقة لملك بريطانيا العظمى ووزرائها فى لعبتهم السياسية ضد سائر بنى الإنسان .

٢ — المستعمرات الثلاث عشرة قبل عصيانها

تبين الخريطة المرافقة امتداد المستعمرات البرايطانية فى أمريكا فى النصف الأول من القرن الثامن عشر . والتظليل الأقتم يمثل المناطق التى سكنت فى ١٧٠٠ ، ويمثل التظليل الأخف نمو المستعمرات (المستقرات) إلى ١٧٦٠ . وسيرى القارئ أن المستعمرات كانت مجرد حافة من السكان على طول الساحل ، تمتد إلى الداخل شيئاً فشيئاً وتعترض سبيلها جبال ألكيجانى والجبال الزرقاء حتى لتعد حاجزاً خطيراً جداً . ومن أقدم هذه المستقرات مستعمرة ڤرچينيا ، التى يخلد اسمها ذكرى الملكة اليزابث ، ملكة انجلترة العذراء . وأول حملة لإنشاء مستعمرة بڤرچينيا قام بها السيد والتررالى فى ١٥٨٤ ، ولكن ذلك الزمان لم يكن يتم فيه استقرار مستديم ، ومن ثم ترجع بدايات ڤرچينيا الحقيقية إلى يوم تأسيس الشركة الڤرچينية فى ١٦٠٦ ، إبان حكم چيمس الأول (١٦٠٣ — ١٦٢٥) . وإن قصة چون سميث ومؤسسى ڤرچينيا الأوائل وكيف

---

(١) المجتلد (Arena) : هو حلبة المباراة والمنازلة عند الرومان . (المترجم)

تزوجت الأميرة الهندية پوكاهونتاس من أحد رجاله الأماثل لتشكل قطعة أدبية كلاسيكية هى « رحلات چون سميث »[١] . ولقى الڤرچينيون أول بوادر اليسار فى زراعتهم الطباق . وفى نفس الوقت الذى تأسست فيه الشركة الڤرچينية ، حصلت شركة بليموث على مرسوم يخول لها الاستقرار فى الأراضى الواقعة إلى الشمال من « مضيق الجزيرة الطويلة[٢] » لونج أيلند التى ادعى الإنجليز ملكيتها . ولكن الناس لم يشرعوا يستقرون فى المناطق الشمالية إلا فى (١٦٢٠) ، وذلك بموجب مراسيم جديدة . وكان المستعمرون فى المنطقة الشمالية (نيو إنجلند) التى أصبحت كونكتى كت ونيوهمبشير ورود آيلاند وماساشوستس ، رجالا لهم طابع يخالف طابع الڤرچينيين ، فإنهم كانوا بروتستانت متذمرين مما أبدت الكنيسة الإنجيلية من موادعة ، كما كانوا رجالا ذوى روح جمهورية لا مأمل لديهم فى مقاومة ملكية چيمس الأول أو شارل الأول العظمى . وكانت سفينتهم الأولى هى زهرة مايو May Flower التى أنشأ ركابها مدينة نيوپليموث فى ١٦٢٠ . وكانت أهم المستعمرات الشمالية هى ماساشوستس . وأدت الفوارق فى الطرائق الدينية واختلاف الفكرات عن التسمح الدينى إلى تفرقة المستعمرات الثلاث البيوريتانية الأخرى عن ماسا شوستس . ومما يوضح المعيار الذى كانت تقوم عليه الأمور فى تلك الأيام أن ولاية نيو همبشير بأجمعها قد ادعى تبعيتها له شخص معين اسمه الكابتن چون ماسون ، وأنه عرض أن يبيعها للملك (وهو الملك شارل الثانى فى ١٦٧١) مقابل استيراده ثلاثمئة طن من النبيذ الفرنسى — معفاة من المكوس الجمركية — وهو عرض رفضه الملك . واشترت ولاية ماساشوستس ولاية مين Maine الحالية من مدعى ملكيتها بمبلغ ألف ومئتين وخمسين جنيها .

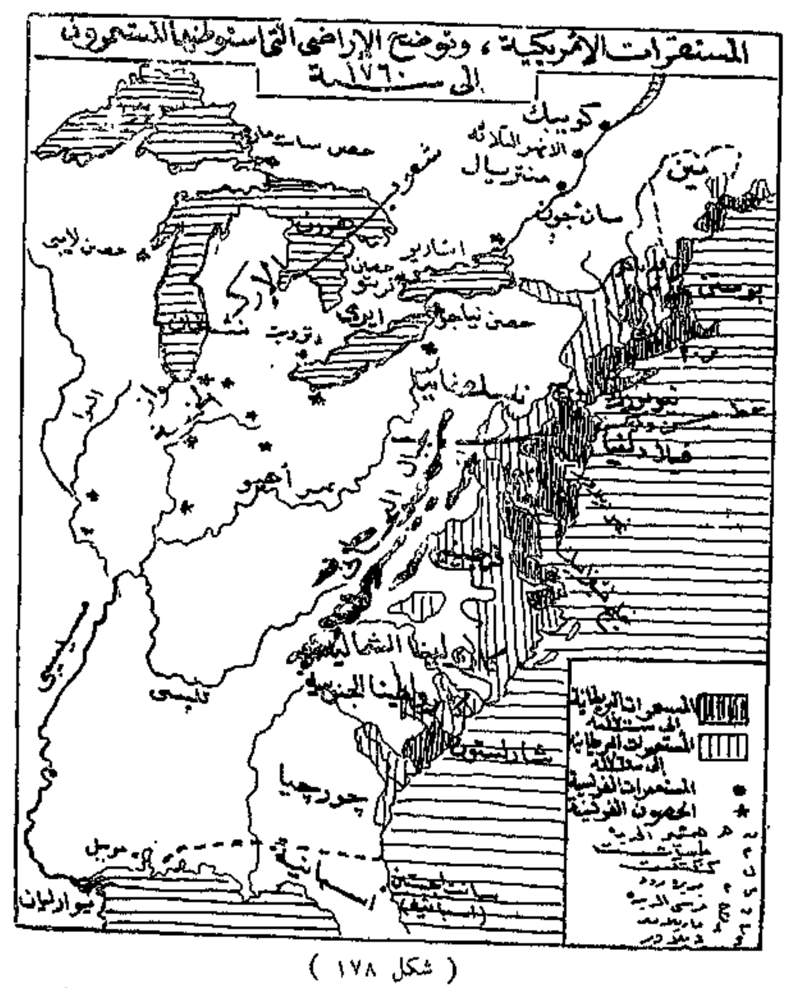
وفى إبان الحرب الأهلية التى انتهت بقطع رأس الملك شارل الأول ، كانت عواطف نيو إنجلند منحازة إلى جانب البرلمان . وكانت ڤرچينيا من أنصار فرسان

---

(١) John Smith's Travels

(٢) Long Island Sound

الملك ، ولكن كان يفصل بين هاتين المستعمرتين[١] مئتان وخمسون ميلا ، ولذا لم يحدث بينهما احتكاك خطير . وصحب عودة الملكية فى ١٦٦٠ تطور قوى فى الاستعمار



(شكل ١٧٨)

البريطانى بأمريكا . إذ كان بشارل الثانى ومن حوله من خلطاء شراهة للمال ، فضلا عن أن التاج البريطانى فقد راغماً كل رغبة فى أن يقوم بتجاريب أخرى لفرض الضرائب غير المشروعة فى أرض الوطن . غير أن العلاقات غير المحددة بين المستعمرات وبين

---

(١) المستقرات والمستعمرات والمستوطنات : تستعمل هنا بمعنى واحد والمؤلف فى الإنجليزية يستعمل كلمتى (Settlement, Colony) ولا تنطويان على معنى الاستعمار الحالى . بل على معنى الاستيطان والتعمير . (المترجم)

التاج والحكومة البريطانية لاح فيها بوادر بعض الأمل فى القيام بمغامرة مالية وراء المحيط الأطلسى . فحدث تطور سريع فى المزارع الواسعة الرقعة وفى مستعمرات الملاك . وكان اللود بالتيمور أقام قبل ١٦٣٢ مستعمرة لتكون للكاثوليك ملجأ يستمتعون فيه بالحرية الدينية تحت الإسم الجذاب مارى لاند ، إلى الشمال وإلى الشرق من فرچينيا . وعندئذ استقر « پن » الكويكرى (الذى أدى والده لشارل الثانى خدمات جليلة) إلى الشمال من فيلادلفيا وأنشأ مستعمرة پنسلڤانيا . وقد حدد تخومها الرئيسية مع مارى لاند وڤرچينيا ، رجلان هما ماسون وديكسون ، اللذان قدر لخطهما « خط ماسون وديكسون » أن يكون بالفعل خط تقسيم هاماً جداً فيما تلى ذلك من شئون الولايات المتحدة . ومن قبل ذلك سقطت كارولينا فى أيدى الإنجليز فسكنوها فى جهات متعددة . وكانت كارولينا هذه فى الأصل مؤسسة فرنسية بروتستانتية غير ناجحة ، وكانت تدين باسمها لا لشارل الثانى (كارلوس) ملك انجلترة ، بل لشارل التاسع الفرنسى . وكان يمتد بين مارى لاند ونيو انجلند عدد من المستعمرات الصغيرة الهولندية والسويدية ، كانت المدينـــة الرئيسية فيها هى نيو أمستردام . وقد استولى البريطانيون على هــذه المستعمرات من الهولنديين فى ١٦٦٤ ، ثم خسروها مرة ثانية فى ١٦٧٣ ، واستعيدت بالمعاهدة التى أبرم بها الصلح بين هولندة وانجلترة فى ١٦٧٤ . وبهذا غدا الساحل كله من مين إلى كارولينا (ممتلكة بريطانية بطريقة ما أو بأخرى) . وكان الأسبان مستقرين إلى الجنوب ؛ وكان مقرهم الأكبر فى قلعة سانت أوغسطين فى فلوريدا ، وفى ١٧٣٣ سكن مدينة ساڤانا رجل محب للإنسانية هو « أوجلى ثورپ » الإنجليزى ، وقد مست قلبه الرحمة بالفقراء المسجونين وفاء لدينهم فى انجلترة ، ومن ثم أنقذ من السجن عدداً منهم فأصبحوا مؤسسى مستعمرة جديدة ، هى جورچيا التى أصبحت حصناً منيعاً يقف فى وجه الأسبان . ومن ثم نجد عند منتصف القرن الثامن عشر هذه المستقرات ممتدة بإزاء الساحل الأمريكى وهى : مجموعة نيو إنجلند المكونة من البيوريتانة والبروتستانت الأحرار ، وهى : — مين (التابعة لماساشوستس) ، ونيو همبشير وكونكتى كت وورود أيلاند وماساشوستس ؛ والمجموعة المنتزعة من الهولنديين التى

كانت انقسمت آنذاك إلى نيويورك (وهو الإسم الجديد لمدينة نيو أمستردام) ونيو چرسى وديلاوير (وكانت سويدية قبل أن تصبح هولندية ، وألحقت فى أبكر أدوار تبعيتها البريطانية بپنسلڤانيا) ثم جاءت مارى لاند الكاثوليكية ، وفرچينيا الفرسانية ، وكارولينا (التى قسمت للوقت إلى شمالية وجنوبية) ثم چورچيا ومنشأة أوجلى ثورپ : ثم التجأ إلى چورچيا بعد ذلك عدد من البروتستانت التيروليين ، وهاجرت إلى پنسلڤانيا أعداد ضخمة من طبقة صالحة من الزراع الألمان .

تلك هى الأصول المخلطة لمواطنى المستعمرات الثلاث عشرة . ولابد أن قيام أية وحدة وثيقة فيما بينها فى يوم من الأيام كان يبدو فى عين أى أمرئ غير متحيز يراقب الأمور فى ١٧٦٠ احتمالا ضعيفاً جدا . ومما زاد الأمر سوءاً أن اجتمع إلى الفوارق السابقة فروق أخرى ولّدها المناخ . فإلى الشمال من خط ماسون ديكسون كانت الزراعة تمارس على اساس القواعد المتبعة فى بريطانيا وأوربا الوسطى وعلى يد زراع أحرار من البيض . واكتست المنطقة المسكونة فى نيوانجلند بثوب مشابه للريف الإنجليزى ، ونشأت فى مساحات مترامية من پنسلڤانيا حقول ودور ريفية تشبه ما فى جنوب ألمانيا . وكانت للظروف المميزة فى الشمال آثار هامة من الناحية الاجتماعية . إذ كان لزاماً على السادة ورجالهم أن يعملوا يداً ليد بوصفهم سكان غابات خلفية[1] فتمت التسوية بينهم أثناء ذلك . أجل إنهم لم يبدأوا العمل متساوين . فإن قائمة السفينة « ماى فلاور » تحوى أسماء كثير من الخدم ولكنهم سرعان ما أصبحوا متساوين جميعاً فى ظل ظروف المستعمرات ، فكان هناك — مثلا — متسع عظيم من الأرض يمكن امتلاكه بوضع اليد عليه ، وكان الخادم ينطلق ويأخذ الأرض مثل سيده وهنا اختفى نظام الطبقات الإنجليزى . ونشأت فى أكناف هذه المستعمرات مساواة « فى ملكات كل من الجسم والعقل » . وظهر استقلال فردى فى الحكم على الأشياء تأخذه حميّة الأنف لأى تدخل من جانب انجلترة . ولكن ابتدأت زراعة الطباق إلى الجنوب من خط ماسون وديكسون ، وكان المناخ

---

(١) الغابات الخلفية : أراضى غابات غير مزدرعة تقوم وراء الأرض المزروعة بمنأى من المدن والمستقرات . (المترجم)

الأدفأ مشجعاً على إنشاء المزارع الضخمة وما بها من مناسر العمال . فحاولوا بادئ الرأي استخدام الأسرى من الهنود الحمر ولكنهم وجدوا بهم ميلا شديداً إلى سفك الدماء البشرية . وأرسل كرومويل أسرى الحرب الإيرلنديين إلى ڤرچينيا ، وهو أمر كان له أثره البالغ فى استرضاء أفئدة المزارعين الملكيين على الجمهورية ومبادئها . وكان المحكوم عليهم يرسلون إلى هناك ، واتسعت التجارة فى الأطفال المخطوفين الذين كانوا « يرسلون خفية » إلى أمريكا لكى يصبحوا صبياناً فى صناعة[١] أو عبيداً أرقاء . ولكن أثبتت الأيام أن أوفق شكل من أشكال مناسر[٢] العمال إنما هو منسر العبيد الزنوج . وقد اجتلبت سفينة هولندية أول فوج من الزنوج إلى (چيمس تاون) من مدن ڤرچينيا فى زمن مبكر يرجع إلى ١٦٢٠ . ولما وافت ١٧٠٠ كان الأرقاء الزنوج منتشرين فى كل أرجاء الولايات ، بيد أن ڤرچينيا وماري لاند والكارولينتين كانت مناطق استخدامهم الرئيسية ، وعلى حين كانت المجتمعات فى الشمال مجتمعات من زراع غير كبيرى الثراء وغير كبيرى الفقر ، فإن الجنوب طور طرازاً من المالك الكبير ومجتمعاً أبيض من المشرفين وأرباب الحرف يعيشون على العمال الأرقاء . فكان العمال الأرقاء ضرورة اقتضاها النظام الاجتماعى والاقتصادى الذى نما فى الجنوب ، وكان وجود الأرقاء فى الشمال أمراً لا ضرورة له بل كان من بعض الوجوه أمرا مزعجاً : لذلك وجدت اعتراضات أصحاب الضمائر الحية على الاسترقاق فى جو الشمال مجالا أرحب لتطورها وازدهارها . ولابد لنا من عودة إلى هذه المسألة ، مسألة انبعاث الرق من جديد ، عندما نأخذ فى التأمل فيما تتعرض له الديمقراطية الأمريكية من دواعى الارتباك . ونحن هنا إنما نلحظها فى بساطة بوصفها عاملا إضافياً إلى ذلك الخليط المتنافر فى المستعمرات البريطانية .

ولكن لئن كان سكان المستعمرات الثلاث عشرة أنواعاً شتى فى أصولهم متخالفين فى عاداتهم واتجاه عواطفهم ، لقد كانت تجمعهم معاً خصومات ثلاث : فكانت لهم مصلحة مشتركة ضد الهنود الحمر . وتقاسموا ردحا من الزمان خوفا

---

(١) وهم الذين يعبر عنهم الآن باسم تلاميذ صناعيين . (المترجم)

(٢) مناسر العمال Gang Labour : هى جماعات العمال التى تجمع لأداء عمل ما . (المترجم)

مشتركا من الفتح والسيادة الفرنسين ؛ وكانوا فى الثالثة — مشتركين بأجمعهم فى النضال ومدعيات التاج البريطانى والأنانية التجارية للأوليجركية الجشعة التى كانت تسيطر على البرلمان البريطانى والشئون البريطانية : فأما الخطر الأول وهو الهنود ، فكان شرا مستديما ولكنه لم يزد قط عن مجرد تهديد ينذر بالشر : إذ إنهم ظلوا منقسمين على أنفسهم ؛ ومع ذلك فلقد ظهرت عليهم فى بعض الأحيان احتمالات تبشر بالامتزاج وتوحيد الجهود على معيار كبير . فإن الشعوب الخمسة فى عصبة القبائل الإيروكوازية (Iroquois) (راجع خريطة مستعمرات ١٧٦٠) كانت عصبة قبائل هامة جدا . بيد أنها لم تنجح فى حمل الفرنسيين على العمل ضد الإنجليز لكى تضمن لنفسها الأمان ، ولم ينشأ بين مرتحلة العالم الجديد هؤلاء جانكيزخان هندى أحمر . وكان العدوان الفرنسى تهديدا أخطر ، ولم يقم الفرنسيون أبدا بإنشاء مستعمرات فى أمريكا على معيار ينافس المستقرات الإنجليزية . بيد أن حكومتهم اتجهت إلى تطويق المستعمرات وإخضاعها بطريقة منظمة مرعبة . كان الانجليز فى أمريكا مستعمرين مستوطنين ، وكان الفرنسيون مرتادين ومغامرين ، ووكلاء تجاريين ومبشرين وتجاراً وجنوداً . ولكنهم لم يرسوا لبنائهم أساساً متيناً إلا فى كندا : إذ أن رجال السياسة الفرنسيين كانوا يكبون على الخرائط ويطلقون لأحلامهم العنان . وإنك لواجب أحلامهم ماثلة فى خريطتنا ، فى سلسلة القلاع المتسللة جنوباً ، من البحيرات العظيمة ، وشمالا فى أعلى المسيسبى والأوهايو : وكان الكفاح بين فرنسا وبريطانيا كفاحاً شمل العالم أجمع . وقد فُصل فيه فى الهند وفى ألمانيا وعلى صفحة أعالى البحار[1] . وبصلح باريس (١٧٦٣) أعطى الفرنسيون كندا لإنجلترة ، وتركوا لويزيانا لإسبانيا المتقوضة المشلولة اليدين . وكان معنى ذلك تخلى فرنسا تماماً عن أمريكا . وبزوال هذا الخطر الفرنسى أصبح المستعمرون أحراراً لا يعوقهم عائق عن مواجهة عدوهم الثالث المشترك : — وهو تاج بلادهم الأصلية وحكومتها ٥

(١) أعالى البحار : High Seas أجزاء البحار الموجودة فى عرض البحر والتى تقع خارج المياه الإقليمية لأى قطر من الأقطار التى عرضها كما ينص القانون الدولى ثلاثة أميال . (المترجم)

٣ ـ الحرب الأهلية تفرض على المستعمرات فرضاً

لاحظنا فى الفصل السابق كيف أن الطبقة الحاكمة فى بريطانيا العظمى دأبت على وضع يدها على الأراضى والقضاء على حريات العامة طيلة القرن الثامن عشر، وعرفنا كيف تمخض جشعهم وعمايتهم عن الثورة الصناعية[١] الجديدة. كذلك لاحظنا كيف أن البرلمان البريطانى بسبب انحلال أساليب التمثيل النيابى لمجلس العموم، أصبح فى كل من مجلسيه الأعلى والأدنى أى اللوردة والعموم، مجرد أداة للحكم عن طريق كبار أصحاب الأراضى. وكان كل من كبار الملاك هؤلاء والتاج ذا مصلحة عميقة فى أمريكا ـ الأولين منهم بوصفهم مغامرين يحدون مصالحهم الخاصة، والأخير بوصفه ممثلا لاستغلال ملوك أسرة استيوارد ومضاربتهم من ناحية، وبوصفه ممثلا للحكومة فى بحثها عن موارد مالية للقيام بنفقات السياسة الخارجية من ناحية أخرى؛ وطبيعى أن اللوردة والتاج لم يكن أحد منهم ينظر إلى التجار والزراع والعامة سكان المستعمرات نظرة فيها تقدير أكثر من نظرته إلى صغار المزارعين. وصغار الزارعين الملاك فى أرض الوطن. والواقع أن مصالح الرجل العامى (العادى) فى كل من بريطانيا العظمى وإرلندة وأمريكا كانت فى صميمها واحدة لا إختلاف بينها. فإن كلا منهم كانت تعتصره وتستغله نفس الهيئة الحاكمة، ولكن على حين كان العاصر والمعصور فى انجلترة متشابكين تشابكا وثيقاً فى نظام اجتماعى وطيد، فإن التاج وطالبى الاستغلال فى أمريكا كانا بعيدين، وكان فى مكنة الرجال هنا أن يتخذوا وأن يطوروا فى أنفسهم شعوراً بالجماعة ضد عدوهم المشترك.

هذا إلى أن المستوطن الأمريكى كانت له الميزة الهامة، ميزة امتلاكه لساناً وترجمانا منفصلا قانونياً لمقاومة الحكومة البريطانية يتمثل فى مجلس مستعمرته أو جمعيتها التشريعية، التى كانت ضرورية لإدارة الشئون المحلية. ولم يكن للرجل العامى فى انجلترة ـ وهو الذى تحرمه الختتلمانية بما تستخدمه من ضروب الحيل والخداع من

---

(١) تسمى تلك النهضة الصناعية باسم الثورة الصناعية أو الانقلاب الصناعى. (المترجم)

التمثيل الصحيح فى مجلس العموم ـــ أى لسان ناطق عنه ولا أى مركز للعمل والتعبير عن تذمره .

ولسوف يتضح للقارئ إذ يتذكر تنوع المستوطنات أن الوضع هنا كان يهيئ الفرص لسلسلة لا نهاية لها من المنازعات ، وضروب العدوان وما يقابل ذلك من التدابير المضادة . وقصة تطور الانفعالات بين المستعمرات وبين بريطانيا قصة أشد تعقداً وأدق وأطول من أن تتسع لهـــا خطة هذه « المعالم » . وحسبك أن المظالم كانت تقع تحت عناوين ثلاثة رئيسية هى المحاولات المبذولة لضمان حصول المغامر البريطانى أو الحكومة البريطانية على أرباح استغلال الأراضى الجديدة ؛ والتضييقات المنظمة على التجارة بغية الاحتفاظ بتجارة المستعمرات الخارجية كلها فى أيد بريطانية ، بمعنى أن جميع صادرات المستعمرة لم تكن لترسل إلا بطريق بريطانيا ولم يكن يستعمل فى أمريكا سوى السلع البريطانية . وأخيراً تجىء محاولة فرض الضرائب بواسطة البرلمان البريطانى بوصفه السلطة العليا الفارضة للضرائب فى الإمبراطورية . واضطر المستوطنون الأمريكيون تحت ضغط هذا النظام الثلاثى من المضايقات ، أن يقوموا بقدر جسيم من التفكير السياسى العميق . وشرع رجال من أمثال باتريك هنرى وجيمس أوتس (Otis) فى مناقشة الفكرات الأساسية التى تقوم عليها الحكومات والترابط السياسى على نحو شديد الشبه بمناقشتها فى انجلترة فى الأيام العظام أيام دولة كرومويل الجمهورية . وأخذوا ينكرون كلا من الأصل المقدس للملكية والسياسة العليا للبرلمان البريطانى ، وكان أن قال جيمس أوتس فى ١٧٦٢ أشياء من أمثال التالى :

« خلق الله الناس جميعاً متساوين تساوياً طبيعياً

والفكرات القائلة باستعلاء الإنسان على أخيه الإنسان فكرات تلقينية غير فطرية

وقد خلق الملوك لخير الناس ولم تخلق الناس لهم

وليس لأية حكومة أن تتخذ من رعاياها عبيداً

ومع أن معظم الحكومات تعسفية فى واقع الأمر

وهى بناءاً على ذلك لعنة وفضيحة للطبيعة الإنسانية .

فما من واحدة منها تكون تعسفية قانوناً وشرعا » .

وبعض هذه الأقوال تضرب فى الموضوع بسهم بعيد المرمى .

وقد بدأ هذا التخمر فى أفكار الأمريكيين السياسية بفضل خميرة بريطانية . فإن هناك كاتباً انجليزياً عظيم التأثير هو چون لوك (١٦٤٢ – ١٧٠٤) ، الذى يمكن أن يعد كتابه « مقالتان عن الحكومة المدنية » نقطة الارتحال الأساسية للفكرات الديمقراطية العصرية . كان أبوه جندياً من أتباع كرومويل ، كلية وقد تعلم فى « كرايست تشرتش Christ Church » بأكسفورد إبان عظمة الجمهورية ، وقضى بضع سنين مبعداً فى هولندة ، وتكوّن كتاباته جسراً يصل بين التفكير السياسى الجرىء فى تلك الأيام الجمهورية القديمة وبين الحركة الثورية فى كل من أمريكا وفرنسا .

على أن الرجال لا يشرعون فى العمل والتصرف على أساس النظريات . وإنما يحدو الناس إلى « العمل » على الدوام شعورهم بوجود خطر ما حقيقى أو ضرورة ما عملية . ولن تستقيم للنظريات الأمور وتستقر فى نصابها إلا بعد أن يكون العمل والتصرف قد هدّ صرح العلاقات القديمة كلها وأنتج أموراً جديدة محيرة . وعند ذلك توضع هذه النظرية فى بوتقة الاختبار . فالخلاف على المصالح والفكرات ، المشتجر بين المستوطنين تحول إلى قتال لما أبداه البرلمان البريطانى بعد صلح ١٧٦٣ من عنيد التصميم على فرض الضرائب على المستعمرات الأمريكية . وكانت بريطانيا ترفل فى بحبوحة السلم وتنهال عليها الرفاهية من كل جانب ، فأحست أن أمامها فرصة بديعة لتصفية الحساب مع هؤلاء المستوطنين العصاة . ولكن كبار أصحاب الأملاك البريطانيين وجدوا إلى جوار قوتهم قوة تشاطرهم آراءهم نفسها ، وإن اختلفت عنهم قليلا فى غاياتها – وهى قوة التاج المنتعش . ذلك بأن چورج الثالث الذى بدأ حكمه فى ١٧٦٠ ، أصر على أن يكون فى سلطانه ملكاً أكثر من سلفية الألمانيين . وكان يستطيع التكلم بالإنجليزية ، وكان يدعى أنه « مباه بأن يلقب بريطونيا[1] ، وعندى أنه اسم لا بأس بأن يطلق على رجل لا تجرى فى عروقه

(١) بريطونى Briton : أى من سكان بريطانيا القدامى . (المترجم)

قطرة واحدة معروفة من الدم الإنجليزى ولا الويلزى ولا الاسكتلندى !! ؟
وكان يخيل إليه أن المستعمرات الأمريكية والممتلكات وراء البحار عامة بما لها من مراسيم غير محددة — (بل عساها بلا مراسيم مطلقاً) — أماكن قد يستطيع التاج فيها أن يدعى السلطان وأن يحصل على الموارد المالية والسلطات التى تنكرها عليه إنكاراً باتاً الأرستقراطية القوية الغيور على سلطانها فى بريطانيا . فدفع هذا كثيراً من نبلاء الهويج (Whigs)(١) أن يعطفوا على المستوطنين عطفاً لم يكونوا ليظهروه لولا هذا الظرف . ذلك أنه لم يكن لديهم أى اعتراض على استغلال المستعمرات لصالح صاحب « المسعى الخاص »(٢) البريطانى ولكن كانت لديهم اعتراضات قوية جداً على تقوّى التاج بذلك الاستغلال تقوياً يجعله على الفور مستقلا مستغنياً عنهم .

من أجل ذلك لم تكن الحرب التى نشبت حرباً بين بريطانيا والمستوطنين بل بين الحكومة البريطانية والمستوطنين ، انحاز فيها قسم من نبلاء حزب الأحرار (الهويج) وقدر جسيم من الشعور العام فى انجلترة إلى صف هؤلاء المستوطنين . وهناك حركة مبكرة بعد (١٧٦٣) كانت ترمى إلى محاولة جمع الإيرادات لبريطانيا فى المستعمرات بتحتيم دمغ الصحف وأنواع مختلفة من الوثائق . ولقيت هذه المحاولة مقاومة عنيدة ، وداخلت الرهبة قلب التاج البريطانى ، فألغيت قوانين الدمغة (١٧٦٦) . وقوبل إلغاؤها بمظاهر فرح صحبها شىء من الشغب فى لندن ؛ وتجلى فيها من السرور القلبى ما لم يتجل فى المستعمرات نفسها .

ولكن موضوع قانون الدمغة لم يكن إلا دوامة واحدة فى سيل مضطرب يتدافع هاويا نحو حرب أهلية . فكان ممثلو الحكومة البريطانية مستترين وراء عشرات من الحجج فى أعلى الساحل وأسفله دائبين على تحقيق سلطاتهم وإبرازها وجعل

---

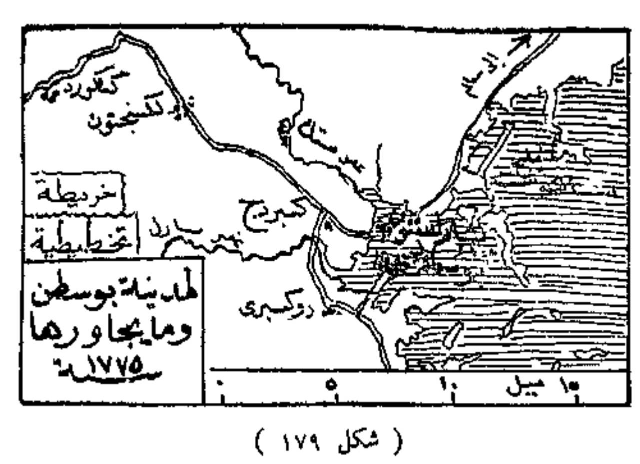
(١) الهويج Whigs : حزب ظهر فى القرن التاسع عشر ممثلا لتجار الطبقة الوسطى منافضاً لأصحاب الأملاك من حزب التورى (المحافظين أخيراً) تسمى فيما بعد باسم حزب الأحرار . (المترجم)

(٢) المسعى الخاص Private enterprise : الجهود أو المشروعات الخاصة التى يقوم بها فرد أو أفراد أو شركات . (المترجم)

الحكومة البريطانية كلاً فادحا لا يطاق . وكان إنزال الجنود فى ضيافة المستوطنين كرها ، من أفدح الأمور وطأة عليهم . وكانت رودايلاند ناشطة بوجه خاص فى تحديها لقيود التجارة . فإن سكان رودأيلاند كانوا متجرين أحراراً — أى مهربين ؛ وقد حدث أن سفينة حكومية تسمى جاسپى (Gaspee) شحطت على أرض بروڤيدانس ؛ فباغتها واعتلى ظهرها واستولى عليها رجال مسلحون فى زوارق ، ثم مالبثوا أن أحرقوها . وفى (١٧٧٣) منح البرلمان البريطانى شركة الهند الشرقية ميزات خاصة فى استيراد الشاى إلى أمريكا فى استهانة تامة بنظام تجارة الشاى المستعمرات . وصمم المستوطنون بعزم على رفض هذا الشاى ومقاطعته . ولما أن أظهر مستوردوا الشاى فى بوسطن إصراراً على إنزال بضائعهم إلى الشاطئ ، صعد إلى سفن الشاى الثلاث عصبة من الرجال متنكرين فى زى الهنود الحمر ، وألقوا بالشاى فى البحر على ملأ من جمهور عظيم من الناس (١٦ ديسمبر ١٧٧٣) :

وشُغل الطرفان طيلة ١٧٧٤ بجمع الموارد والأموال استعداداً للمعركة المقبلة . وقرر البرلمان البريطانى فى ربيع (١٧٧٤) معاقبة بوسطن بإغلاق مينائها ، واتجهت النية إلى القضاء على تجارتها ما لم تقبل ذلك الشاى . وكان ذلك مثالا نموذجياً كاملا لذلك « الحزم » الأحمق الذى يمزق الامبراطوريات بدداً . ولكى يتم تنفيذ هذا التدبير بالقوة ، احتشدت الجيوش البريطانية فى بوسطن تحت قيادة الجنرال جاچ (Gage) واتخذ المستوطنون تدابير مضادة لتلك . وانعقد أول (كونجرس) للمستوطنين بمدينة فيلادلفيا فى سبتمبر ، مثلت فيه اثنتا عشرة مستعمرة هى : ماساشوستس ، وكونكتى كت ، ونيوهمپشير ، وروود آيلاند ، ونيويورك ، ونيوچرسى وپنسلڤانيا ، ومارى لاند ، وديلاوير ، وفرچينيا ، وكارولينا الشمالية والجنوبية ، ولم تكن چورچيا حاضرة . وأصدر الكونجرس تمشياً مع خير التقاليد الإنجليزية وثيقة أبان فيها موقفه بأن أشهر « إعلان حقوق » . والواقع أن هذا الكونجرس كان حكومة تمرد وعصيان ، ولكن لم تضرب ضربة واحدة حتى ربيع (١٧٧٥) ، يوم جاء أول سفك للدماء .

فإن اثنين من الزعماء الأمريكان هما هانكوك وصمويل آدامز ، قد اتجهت نية الحكومة البريطانية إلى اعتقالها ، ومحاكمتهما بتهمة الخيانة ، وكان معروفاً أنهما فى لكسينجتن ، على مبعدة أحد عشر ميلا تقريباً من بوسطن ، وفى ليل ٨ إبريل ١٧٧٥ أصدر جاچ أوامره بزحف قواته لاعتقالها .



(شكل ١٧٩)

وكانت تلك الليلة من ليالى التاريخ العظيمة . فإن المستوطنين تنبهوا إلى حركة جيوش جاچ ، فرفعت مصابيح الإشارة فوق برج كنيسة فى بوسطن وانسل رجلان هما داوز وپول ريڤير فى قارب عبر الخليج الخلفى حتى يستطيعا أن يحصلا على جوادين لكى يُحذّرا المنطقة الريفية . كذلك نُقل البريطانيون بالمعدية عبر الخليج ؛ وفيما هم يزحفون تحت جنح الليل إلى لكسينجتن كانت تسبقهم أصوات مدافع الإنذار ورنين أجراس الكنائس . وبينما هم يدخلون لكسينجتن عند الفجر ، شاهدوا مجموعة صغيرة من الرجال مصطفين فى تشكيلة عسكرية . والظاهر أن البريطانيين كانوا البادئين بإطلاق النار . فانطلقت طلقة واحدة ثم سيل من الطلقات ، وتراجعت الثلة الصغيرة دون أن تجيب — فيما يظهر — على الطلقات تاركة فى ظاهر القرية ثمانية من القتلى وتسعة من الجرحى .

وعند ذلك سار البريطانيون إلى قرية كونكورد ، وهى وراء ذلك بعشرة أميال ، فاحتلوا القرية واوقفوا ثلة من الجنود على الكوبرى القائم فى ذلك الموضع . وفشلت الحملة فى هدفها وهو اعتقال هانكوك وآدامز ، ويلوح أن القائد البريطانى تحير ماذا

يفعل بعد ذلك . وفى نفس الوقت كان جند المستوطنين يتقاطرون من كل حدب وصوب وسرعان ما وجد الحرس المرابطون على الكوبرى أنفسهم غرضاً لنيران متزايدة انتهت بهجوم . وتقرر التقهقر إلى بوسطن . ولكنه كان تقهقراً مدمرا . فقد هبت المنطقة كلها من خلفهم ، وأخذ المستوطنون فى التجمع طول الصباح . وعندئذ أصبح جانبا الطريق مزدحمين برماة حذاق يطلقون النار من وراء الصخور والسياجات والمبانى ، وكثيراً ما حدث أنهم هجموا حتى غدوا على مسافة دانية بلغت مرمى السونكى . وكان الجنود فى ثياب قرمزية وضاحة ، ذات واجهات صفراء وتزالك وأربطة رقبة بيضاء ، ولا بد أن هذه الألوان كانت تبدو وضاحة ساطعة بالقياس إلى الألوان الحادة فى أخريات ربيع نيو إنجلند ، كان ذلك اليوم مشرق الضياء حاراً متربا ، وكان الرجال قد غلبهم الإعياء من جراء سُراهم طول الليل . وفى كل بضع ياردات يقع منهم رجل إما جريحاً أو قتيلا . على حين يسير الباقون ثقالا أو يقفون ليطلقوا وابلا من نار على غير جدوى . وكانت هناك فى لكسينجتن أمداد بريطانية ومدفعان ، وبعد استراحة وجيزة تواصل التقهقر فى نظام أحسن . ولكن التعقب استمر حتى النهر ، وبعد أن عبره البريطانيون قافلين إلى بوسطن ، اتخذ جنود المستوطنين مراكزهم فى كامبريدج وأعدوا أهبتهم لحصار المدينة .

٤ - حرب الاستقلال

بذا ابتدأت الحرب . ولم تكن حرباً تبشر بنهاية حاسمة . فلم تكن للمستوطنين عاصمة واحدة يخشون عليها عطباً ؛ بل كانوا منتشرين فوق ريف عظيم من خلفه برية لا آخر لها ، ولذا كانت لهم قوة مقاومة عظيمة . وكانوا فى غالب أمرهم تعلموا فن الحرب عند الهنود . فكانوا يستطيعون أن يجيدوا القتال فى نظام مكشوف وأن يشتتوا الجنود ويمزقوهم بحركاتهم . ولكن لم يكن لديهم جيش منظم يستطيع أن يلقى البريطانيين فى معركة عظيمة ، ولم يكن لديهم إلا القليل من العتاد الحربى ؛ هذا إلى أن مجنديهم كان يُلم بهم نفادُ الصبر إذا طال بالحملة الأمد ، وينزعون إلى العودة إلى مزارعهم . وكان لدى الإنجليز من الناحية الأخرى جيش حسن التدريب ، كما أعارتهم سيادتهم

على البحر قدرة على نقل هجومهم شمالا وجنوباً فى ذلك الساحل الأطلسى الطويل . وكانوا فى سلام مع العالم أجمع . ولكن الملك كان غبيا شرهاً فى تدخله فى إدارة الأمور ، وكان القواد الذين يؤثرهم بعطفه إما رجالا أغبياء « أقوياء الشكيمة » أو طائشين من أبناء البيوتات « والطبقة العالية » . ولم يكن فؤاد انجلترة محبذاً لهذا الأمر . لذلك تركز جل اعتماد التاج على قدرته على توقيع الحصار البحرى على المستوطنين والإغارة عليهم ومضايقتهم حتى يخضعوا ، أكثر منه على الفتح والاحتلال النهائى للبلاد . ولكن الوسائل التى استعملت وبوجه خاص استخدام الجنود الألمانية المأجورة التى كانت ما تزال تحتفظ بتقاليد القادة المأثورة عن حرب الثلاثين ، والجنود المساعدة الهندية الذين شتتوا سكان المستوطنات المنعزلة — لم تضجر الأمريكيين من الحرب قدرما أضجرتهم من البريطانيين . فأما الكونجرس فإنه اجتمع لثانى مرة فى ١٧٧٥ ، وأقرَّ التصرفات التى أتاها مستوطنو نيو إنجلند ، وعين چورج واشنجتون قائداً عاماً للجيش الأمريكى . وفى ١٧٧٧ بينما الجنرال برجوين يحاول أن ينحدر من كندا زاحفاً على نيويورك ، إذ انهزم عند « مزرعة فريمان » عند أعلى نهر الهدسون الأعلى ، وأحيط به واضطر إلى التسليم فى ساراتوجا ومعه جيشه كله . وشجعت هذه الكارثة الفرنسيين والأسبان على الدخول إلى الحلبة فى صف المستوطنين . وقام الأسطول الفرنسى بالشىء الكثير فى سبيل تقليل ميزة البريطانيين فى البحار . وحصر الجنرال كونواليس فى شبه جزيرة يوركتون بڤرچينيا فى ١٧٨١ ، فسلم بجيشه . وكانت موارد الحكومة البريطانية عند ذاك قد استنزفت ، إذ كانت ترزح تحت عبء ثقيل من الكفاح مع فرنسا وأسپانيا فى أوربا .

ويلوح أن المستوطنين عامة كانوا فى البداية من قلة الميل إلى نبذ الملكية والمطالبة بالاستقلال التام بحيث ماثلوا حالة الهولنديين أثناء الدور الأول من اضطهادات فيليب الثانى وحماقاته . وأطلق اسم الراديكاليين على دعاة الانفصال[1] ، وكانوا قوما يغلب عليهم التطرف فى الديمقراطية ، كما قد نقول فى انجلترة فى أيامنا هذه ، وأدخلت

---

(١) الراديكاليون : كانت كلمة الراديكاليين تطلق فى انجلترة فى ذلك الزمان على أنصار الديمقراطية والإصلاح البرلمانى (المترجم)

آراؤهم التقدمية شيئاً من الخوف إلى قلوب كثير من المستوطنين الأكثر رزانة وثراء ، الذين كان لامتيازات الطبقات ومكانتها سحر عظيم فى أعينهم . ولكن انجليزياً مقتدراً قوى الحجة هوتوماس پين Paine نشر فى زمن مبكر من (١٧٧٦) بحثا بفيلادلفيا تحت عنوان « حسن التصرف » ، كان لها أثر هائل فى الرأى العام . كان أسلوبها أسلوباً بيانياً بليغاً إذا قيس بالمعايير العصرية . « إن دماء القتلى وصوت الطبيعة الباكى تصيح ، أن قد حان وقت الافتراق » وهلم جرا . . . ولكن آثارها كانت بالغة القوة . فإنها حولت الآلاف إلى فكرة ضرورة الانفصال . وما كاد انقلاب الرأى يبدأ حتى أخذ يهدر مسرعاً .

ولم يتخذ الكونجوس إلا فى صيف (١٧٧٦) الخطوة التى لا مرد لها : بإعلان طلب الانفصال « وإعلان الاستقلال » ، وهو مثال آخر من تلك الوثائق النموذجية التى يعود الفضل فى انتاجها للبشرية للإنجليز بخاصة . وقد سطره توماس چفرسون . وما لبث بعد أن أدخلت عليه تصميمات وتعديلات متنوعة ، أن جُعل الوثيقة الأساسية للولايات المتحدة الأمريكية . وأدخل تعديلان جديران بالذكر على مسوّدة چفرسون . فإنه شن حملة عنيفة على تجارة الرقيق ، وأنحى باللائمة على حكومة أرض الوطن بانجلترة لحيلولتها دون المحاولات التى بذلتها المستقرات (المستوطنات) لإيقاف تلك التجارة . فحذفت هذه الفقرة وكذلك حذفت جملة أخرى عن البريطانيين تقول : « يجب أن نحاول أن ننسى حبنا السابق لهم . . فقد كنا نستطيع أن نكون مجتمعين شعباً حراً عظيما » .

وفى قريب من نهاية (١٧٨٢) وقعت فى باريس البنود الأولية فى المعاهدة التى اعترفت فيها بريطانيا بالاستقلال التام للولايات المتحدة . وأعلن انتهاء الحرب فى ١٩ إبريل (١٧٨٣) أى بعد ثمانى سنين بالضبط من انطلاق پول ريڤير بجواده وارتداد رجال جاج (Gage) من كونكورد إلى بوسطن . ووقعت معاهدة الصلح نهائيا بباريس فى سبتمبر .

٥ – دستور الولايات المتحدة

إن الطريقة التى أصبحت بها الولايات الثلاث عشرة مستقلة ، كانت من وجهة نظر التاريخ الإنسانى ، أقل شأناً بكثير من استقلالها الفعلى نفسه . وظهر فى العالم بتوطيد استقلالها ذاك ، نوع من المجتمع جديد . وكأنى به شيئاً فقست عنه بيضة . كان حضارة أوربية غربية انفصلت وتحررت من آخر آثارها الإمبراطورية والمسيحية ؛ ولم يكن بها أى أثر للملكية ولا دين رسمى للدولة . وما كان بها دوقات ولا أمراء ولا كونتات ، ولا أى ضرب من حملة الألقاب المدعين سمو القدر والرفعة بوصفها حقوقاً . بل إن وحدتها نفسها لم تكن آنذاك إلا اتحاداً بقصد الدفاع والحرية . فكانت من هذه الوجوه بداية نظيفة فى التنظيم السياسى لم ير العالم من قبل لها نظيراً . وإن غيبة أية رابطة دينية تربطهم بعضهم إلى بعض لجديرة بالتنويه بوجه خاص . فقد كان بها أكثر من واحد من أشكال المسيحية ، ولا مجال للشك فى أن روحها كانت مسيحية . ولكن الأمر كان كما صرحت بذلك وثيقة رسمية فى (١٧٩٦) تصريحاً لا لبس فيه « إن حكومة الولايات المتحدة ليست بأى حال مؤسسة على الديانة المسيحية »[١] . فإن المجتمع الجديد قد توغل بالفعل والواقع حتى بلغ أصول الجماعة الإنسانية العادية المجردة . وكان يبنى نوعاً جديداً من الجماعة الإنسانية ونوعاً جديداً من الدولة على تلك الأصول .

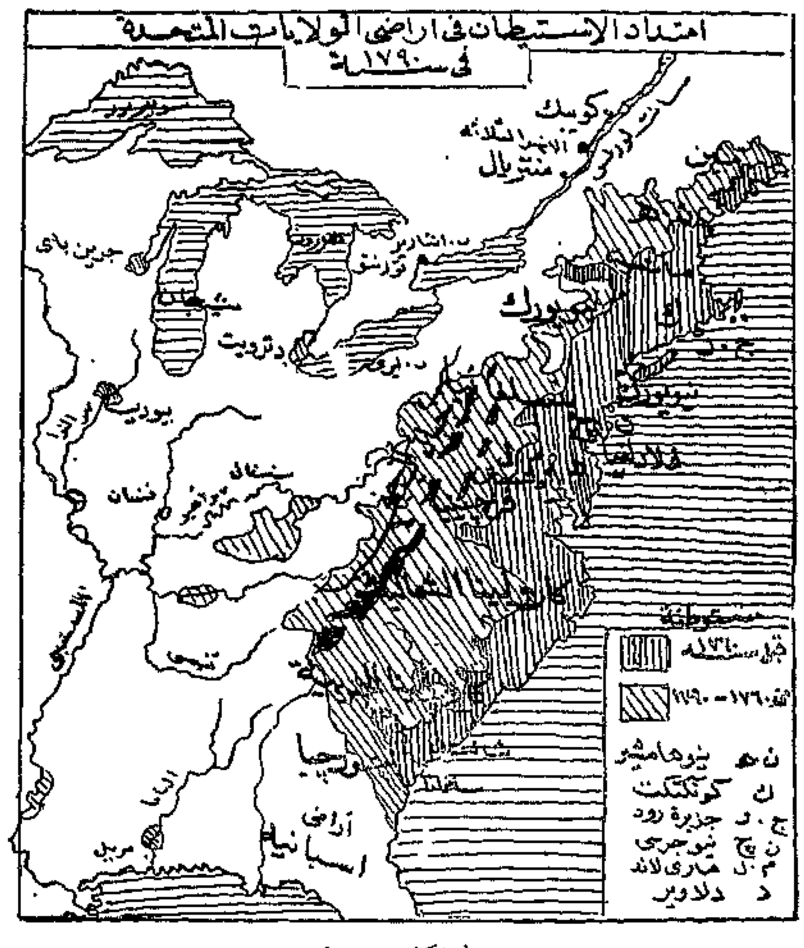
هنا كان يعيش ما يقرب من أربعة ملايين من الناس متناثرين فوق منطقة مترامية الأطراف ليس بينها من وسائل الاتصال إلا كل صعب شديد الصعوبة بطىء عظيم البطء ، وهم قوم لمّا يبرحوا فقراء ، وإن كان أمامهم إمكانيات تبشر بثروة لا نهاية لها . وقد نشطوا يعملون فى واقع الحقيقة على معيار ضخم أعمالا إنشائية جليلة مثل تلك التى قام بها بالخيال والنظر الفلاسفة الأثينيون قبل ذلك باثنين وعشرين قرناً .

---

(١) نقلا عن معاهدة تريبولى ، انظر تشانِنج السفر الثالث ، الفصل الثامن عشر .

وهذا الموقف يشير إلى مرحلة محددة فى فكاك الإنسان من السابقة والعرف ، وخطوة محددة إلى الأمام تتجه نحو إعادته بناء ظروفه إعادة واعية متعمدة حتى تتلاءم وحاجاته وغاياته . كانت طريقة جديدة أخذت تصبح شيئاً عملياً فى الشئون الإنسانية . فإن دول أوربا العصرية تطورت عما سبقها من أشياء ، نظاماً فى إثر نظام ، وعلى مهل وبطء ، بلا خطة مرسومة . فأما الولايات المتحدة فإنها خُططت تخطيطاً واصطنعت اصطناعاً .

ومع ذلك فإن حرية الشعب الجديد الخلاقة ، كانت محددة تحديداً خطيراً جداً من ناحية واحدة . فلم يكن هذا النوع الجديد من الدولة مبنياً على موقع ممهد



(شكل ١٨٠)

موطأً . بل أن تكوينه الاصطناعى لم يبلغ فى صراحته مبلغ بعض المستعمرات الأثينية المتأخرة التى انطلقت عن المدينة الأم لتخطط وتبنى دول مدن جديدة تماماً ذات دساتير جديدة تماما أيضاً . فكان لكل من المستعمرات الثلاث عشرة فى نهاية الحرب دستورها الخاص ، وهو إما مثل دساتير كونكتي كت ورود أيلاند ، التى يرجع تاريخها إلى أوان مراسيمها الأصلية (١٦٦٢) وإما أعيد تكوينه أثناء النضال ، شأن دساتير سائر الولايات ، حيث كان حاكم بريطانى يلعب دوراً عظيما فى الإدارة . على أنا نستطيع أن نعد هـــذه التجديدات محاولات لها فضل الإسهام وتجارب فى المجهود الإنشائى العام .

وهناك فكرات معينة كانت تبرز بروزاً واضحاً جداً من فوق هذا المجهود . فمن هذه الفكرات فكرة المساواة السياسية والاجتماعية . فهذه الفكرة التى رأيناها وهى تولد فى العالم بوصفها فكرة متطرفة لا يكاد يصدقها عقل فى العصر المحصور بين بوذا ويسوع الناصرى ، ـــ قد توكدت الآن فى أخريات القرن الثامن عشر بوصفها معياراً عملياً للعلاقات الإنسانية . يقول البيان الأساسى فى ڤرچينيا : « وإن كل الناس خلقوا بالفطرة أحراراً مستقلين » ، ثم هو يمضى فى سرد « حقوقهم » والتوكيد بأن كل المأمورين والمحافظين ليسوا إلا « مؤتمنين على المصلحة العامة وخداماً لها » . ولكل الناس الحق المتساوى فى ممارسة الديانة بملء حريتهم . فأما الملك بحكم الحق ، والأرستقراطى ، « والعبد الطبيعى » ، والملك الرب ، والله ، فقد اختفت كلها من هذه الخطة السياسية الأمريكية ـــ بقدر ما تذهب إليه هذه التصريحات . وقدمت معظم الولايات لنظام الحكم فيها بمقدمات شبيهة بهذه . وقال إعلان الاستقلال إن « كل الرجال قد ولدتهم أمهاتهم سواسية » . وإنك لترى فى كل مكان توكيدات مصوغة فى عبارات القرن الثامن عشر تقول بأن المجتمع الجديد سوف يكون ـــ إذا استخدمنا التعبيرات التى أوردناها فى فصل سابق[1] ـــ « مجتمع إرادة وليس مجتمع طاعة » . غير أن مفكرى ذلك الزمان ، كانت لهم فى صوغ عبارة ذلك الموضوع طريقة كادت

---

(١) انظر ص ص ٩٥٧ – ٩٦٣ من المعالم ‍ ٣ ط ٢ . ومجتمع الإرادة والطاعة من أهم النقاط التى يعنى المؤلف أيما عناية بإبرازها فى كل أجزاء « المعالم » . (المترجم)

أن تبلغ حد السماجة والغلط ، فإنهم تصوروا أن المواطنية تنطوى على ضرب من الاختيار الفردى والقبول ، لم يحدث قط فى واقع الأمر ، وهو الشىء المتسمى باسم العقد الاجتماعى . ألا ترى إلى الديباجة التمهيدية فى دستور ماساشوستس مثلا ، كيف تذكر أن الدولة ترابط إختيارى ، « به تعاهد الشعب بأجمعه مع كل مواطن ، وكل مواطن مع الشعب بأجمعه بأن يحكم الجميع بقوانين معينة ترمى إلى الخير المشترك » .

ولسوف يتضح الآن أن معظم هذه البيانات الأساسية تقبل المناقشة . فالرجال لا يولدون سواسية ، ولا هم يولدون أحراراً ، بل هم يولدون حشدا أشد ما يكون تنوعاً ، وينشأون خليطا متورطا فى شبكة اجتماعية عتيقة معقدة . ثم أين ذلك الرجل الذى يدعى للتوقيع على أى عقد ؟ . فإن فاته ذلك وجب عليه أن يهجر العالم وحيداً . فلو فسرت هذه البيانات تفسيراً حرفياً ، لبلغت من الزيف والخطأ الظاهر ، حداً يجعل من المستحيل الاعتقاد بأن الناس الذين وضعوها ، كانوا يقصدون منها أن تفسر حرفياً . وإنما هم أنشئوها للتعبير عن فكرات معينة خداعة ولكنها مهمة أعمق الأهمية — وهى فكرات أصبح العالم بعد انقضاء قرن ونصف من التفكير فيها ، فى وضع يستطيع فيه أن يعبر عنها تعبيراً أحسن . والمدينة كما أوضحت هذه « المعالم » نشأت بوصفها مجتمع طاعة ، وكانت بالضرورة مجتمع طاعة . وكان الكهنة والحكام قد أساءوا إلى الروح جيلا بعد جيل . ثم حدث انثيال متواصل من الإرادة القوية جاء منحدراً من الغابات والغياض والسهوب[1] . ذلك أن الروح الإنسانية ثارت فى نهاية الأمر ثورة تامة على الطاعات العمياء فى الحياة المشتركة . كانت تبغى — وكان ذلك بطريقة سمجة جداً فى بداية الأمر — الحصول على طراز جديد من الحضارة أحدث جدة وأحسن صنعاً ، يكون فى نفس الوقت « مجتمع إرادة » . وكان من الضرورى للوصول إلى تلك الغاية أن يُعامل كل إنسان بوصفه سلطاناً على نفسه ؛ وكان لا بد أن يكون مركزه مركز الزمالة لا العبودية . وكانت فائدته الحقيقية وأهميته الحقيقية

(١) الغياض (Parklands) : مصطلح جغرافى معناه الغابات الخفيفة المتباعدة الأشجار . والسهوب (Steppes) : هى السهول الفسيحة الجافة الخالية من الأشجار وإن نبتت بها الأعشاب ومعظمها فى جنوب شرق أوربا وبجنوب غربى آسيا . (المترجم)

تعتمد على صفته الفردية . والطريقة التى حاول بها هؤلاء الخالقون لأمريكا السياسية أن يحصلوا على « مجتمع الإرادة » ذاك ، كانت طريقة مفرطة فى بساطتها وفجاجتها . فقد منحوا الناس شيئاً كان بالنسبة إلى الزمان وبالنظر إلى الأحوال الأمريكية ، حق اقتراع واسع المجال جداً . ولكن الأحوال كانت تختلف بين ولاية وأخرى ، وكان أوسع حق للاقتراع فى بنسلفانيا ، حيث كان كل دافع ضرائب بالغ ذكر له الحق فى التصويت ، ولكن إذا قورن الحال ببريطانيا ، لتبين أن الولايات المتحدة بأجمعها كانت أقرب ما تكون من منح حق التصويت لكل من بلغ مبلغ الرجال عند نهاية القرن الثامن عشر . وبذل مؤسسو أمريكا الجهود — وكانت جسيمة بالقياس إلى زمانهم طفيفة بالقياس إلى زماننا — للوصول إلى « تعليم » بسيط واسع الانتشار . فأما « إعلام » المواطنين بخبر ما يجرى داخل بلادهم وخارجها ، فأمر تركوه للاجتماعات العامة والمطبعة الخاصة التى يملكها أى فرد ، دون أن تخالجهم — فيما يظهر — وخزة ارتياب فى هذين العاملين .

وقصة دساتير الولايات المختلفة ودستور الولايات المتحدة على وجه العموم ، قصة معقدة جداً ، لسنا بمستطيعين أن نعالجها هنا إلا كأشد ما تكون المعالجة إجمالاً واقتضاباً . وأجدر الأمور بالذكر من وجهة النظر العصرية هى إغفال النساء بوصفهن محادثات (مواطنات) . وكان المجتمع الأمريكى مجتمعاً بسيطاً زراعياً فى كبير أمره . وكانت معظم النساء متزوجات ؛ فلا غرو إذن أن يمثلهن بعولتهن . على أن نيو جرسى سمحت لعدد قليل من النساء أن يعطين أصواتهن على أساس من المؤهلات العقارية . وهناك أيضاً نقطة أخرى ذات أهمية عظيمة ، هى القرار الذى كاد أن يكون إجماعياً بأن يتولى الحكم فى البلاد مجلسان يقر كل منهما الآخر أو يكبحه على غرار مجلسى اللوردة والعموم فى بريطانيا . وكان لبنسلفانيا دون غيرها مجلس نيابى واحد ، الأمر الذى كان الناس يشعرون من أجله بأن تلك حالة شديدة الخطر مغالية فى ديمقراطيتها . وعندى أنه فيما عدا الدفع الجدلى بأن التشريع يجب أن يكون بطيئاً كما يجب أن يتسم بالتمكن والتثبت ، فإن من العسير أن يجد المرء ضرورة لهذه الثنائية فى المجالس . ويلوح أن المسألة كانت تقليداً جديداً أو (موضة) انتشرت لدى مؤسسى الدساتير فى القرن الثامن عشر أكثر منها حاجة ملحة معقولة . فإن الازدواج البريطانى كان تقسيما قديماً .

فجلس اللوردة وهو البرلمان أصلا ، كان جميعة من « الكبراء » : وأعظم زعماء المملكة ؛ ثم جاء مجلس العموم بوصفه عاملا جديداً ، ويوصف أعضائه الفئة المتحجة المتحدثة بلسان سكان المدن وأصحاب الملكيات الزراعية الصغيرة . وكان مفروضاً فى شىء من التعجل فى القرن الثامن عشر أن العامة ميالة إلى الاندفاع وراء الدوافع الضارية وأنها محتاجة ولا ريب إلى من يشكمها ؛ وكان الرأى متجهاً إلى الأخذ بالديمقراطية على أن تكون ديمقراطية عليها دائماً شكائم[1] قوية سواء أكانت منطلقة إلى أعلى الجبل أو منحدرة إلى أسفل . وكانت فكرة النخبة المنتقاة هالة تحيط بتلك المجالس العليا ؛ فإنهم كانوا ينتخبون على أساس من الاقتراع أضيق حدوداً . وهذه الفكرة الداعية إلى إنشاء مجلس أعلى يكون معقلا يعتصم به ذوو القيمة من الرجال لا تروق المفكرين العصريين بنفس القوة التى كانت تروق بها أمثالهم فى القرن الثامن عشر . ولكن فكرة المجلس الثنائى مكوناً على صورة ما أخرى ، ما تزال ولها أنصارها . فإنهم يرون بأن المجتمع يجوز له — مع رجوع ذلك بالخير عليه — أن ينظر فى شئونه من زاويتى نظر — فينظر بواسطة أعين هيئة منتخبة لتمثل الحرف والصناعات والمهن والخدمات العامة وما إلى ذلك ، وهى هيئة تمثل الوظيفة ، كما ينظر من خلال أعين هيئة ثانية تنتخبها الجهات المحلية لتمثل تلك المجتمعات . فلانتخاب أعضاء الهيئة الأولى يعطى الرجل صوته على أساس مهنته . وللثانية على أساس الحى الذى يسكنه . وهم يشيرون إلى أن مجلس اللوردة البريطانى إنما هو فى الواقع ممثل للوظيفة ، تمثل فيه الأرض والقانون والكنيسة تمثيلا غير متناسب مطلقا ، على أن أصحاب الصناعات فيه وأرباب الأموال وكبار رجال الخدمات العامة وأهل الفن والعلوم والطب يجدون مكانهم كذلك ؛ وأن مجلس العموم البريطانى جغرافى بحت فى أصوله . بل لقد اقترح بعضهم فى بريطانيا أنه يجب أن يكون هناك « نبلاء من العمال » ينتخبون من بين زعماء نقابات العمال العظيمة . على أن هذه تأملات تخرج عن نطاقنا الحالى .

وكانت الحكومة المركزية للولايات المتحدة هيئة واهنة القوة جداً بادئ الأمر ، مكونة من كونجرس ينتظم ممثلى الولايات الثلاث عشرة ، التى تضمها بعضها إلى

---

(١) شكائم : فرامل . (المترجم)

بعض عناصر اتحاد احتلافى[1] (كونفدرالى) بعينها . ولم يكن هذا الكونجرس إلا مجرد مؤتمر من مندوبين لولايات مستقلة ذات سيادة ؛ إذ لم يكن فى يده مثلا أى هيمنة على التجارة الخارجية فى كل ولاية على حدتها ، ولا كان بالمستطيع أن يسك النقود ويجمع الضرائب بناء على سلطانه هو . وقد حدث عند ما ذهب چون آدامز أول وزير للولايات المتحدة فى إنجلترة لمناقشة معاهدة تجارية مع وزير الخارجية البريطانى أن قوبل بطلب ثلاثة عشر مندوبا ، يمثل كل واحد منهم ولايته المختصة ؛ ثم اضطر أن يعترف بعدم قدرته على اتخاذ إجراءات ترتبط بها بلاده كلها . وعند ذلك شرع البريطانيون يتعاملون مع كل ولاية على حدة متخطين الكونجرس ، واحتفظوا بملكية عدد من المواقع على الأراضى الأمريكية حول البحيرات العظيمة بسبب عدم مقدرة الكونجرس على الاحتفاظ بتلك الأقاليم احتفاظاً فعالا . وأثبت الكونجرس على نفسه الضعف أيضا فى مسألة أخرى مستعجلة خطيرة . إذ أنه تمتد إلى الغرب من الولايات الثلاث عشرة أراض لا نهاية لها كان المستوطنون يتخذون سبيلهم إليها فى أعداد متكاثرة أبدا . وكانت لكل من الولايات مدعيات غير محصورة للتوسع غرباً . فكان من الواضح لكل رجل بعيد النظر ، أن احتكاك هذه المدعيات مؤد على طول الزمان إلى الحرب ، ما لم تستطع الحكومة المركزية أن تتولى توزيع الأنصبة ؛ وبلغ الضعف بالحكومة المركزية وحاجتها إلى التركز ، حدا أصبحا معه أمراً مزعجاً وخطراً بادياً ، حتى لقد جرت بعض مباحثات سرية ترمى إلى إنشاء نظام ملكى فى البلاد ، وكلف ناثانيال جورهام نائب ماساشوستس ورئيس الكونجرس من يفاتح الأمير هنرى البروسى شقيق فردريك الأكبر فى هذا الصدد . وأخيراً دعى مؤتمر دستورى للاجتماع فى (١٧٩٧) بفيلادلفيا ، وهنالك وضعت الأسس الإجمالية للدستور الحالى للولايات المتحدة . ذلك أنه حدث أثناء السنوات الأخيرة تغير عظيم فى الروح ، إذ فشا فى الناس جميعاً شعور بضرورة الوحدة .

---

(١) الاتحاد الاحتلافى أو الكونفدرالى : أطلقنا هذه الكلمة للدلالة على معنى Confederation وهو الاتحاد بين الولايات اتحاداً مفككا تحتفظ فيه كل منها بسماتها والشىء الكثير من استقلالها وذلك تمييز لها من كلمة الاتحاد الوحدوى أو الفدرالى التى تدل على الاتحاد التام بين الولايات . (المترجم)

وعند ما وضعت مواد دستور الاتحاد الاحتلافى (الكونفدرالى) ، كان الناس يفكرون فى ڤرچينيا وشعب ماساشوستس وشعب رودأ يلاند وما إلى ذلك ؛ فأما الآن فتظهر إلى الوجود فكرة جديدة ، هى « شعب الولايات المتحدة » . وصدر بيان أعلن أن الحكومة الجديدة بما لها من رئيس تنفيذى وأعضاء بمجلس شيوخ ورجال كونجرس ومحكمة عليا (التى أنشئت عند ذاك) ، إنما هى حكومة « شعب الولايات المتحدة » . كانت هيئة مندمجة ولم تكن مجرد جمعية متجمعة . وكانت تقول « نحن الشعب » وليس « نحن الولايات » ، كما اشتكى ذلك بمرارة « لى » الڤرچينى . إذ تقرر أن تكون حكومة اتحاد فدرالى Federal لا حكومة اتحاد احتلافى Confederate.

وأقرت الدستور الجديد ولاية بعد ولاية ، وفى ربيع ١٧٨٨ اجتمع بنيويورك أول كونجرس قام على الأسس الجديدة ، تحت رياسة چورچ واشنجتون ، الذى كان القائد الأعلى الوطنى طوال حرب الاستقلال . وعند ذلك مر الدستور فى طور من المراجعة جسيم ، وبنيت مدينـــة واشنجتون على نهر البوتوماك لتكون عاصمة الاتحاد .

٦ ــ المظاهر البدائية لدستور الولايات المتحدة

أسلفنا إليك فى فصل سابق وصفنا للجمهورية الرومانية ، وخليطها الجامع بين المظاهر العصرية المشوبة بالخرافات القائمة والسمة الوحشية البدائية ــ بأنها الصورة النياندرتالية التى تؤذن بالدولة العصرية . .وربما جاء وقت يعد فيه الناس مستحدثات الدستور الأمريكى وأجهزته العديل السياسى للأدوات والمستحدثات التى كانت لإنسان العصر الحجرى الحديث . على أنها أدت الغرض المطلوب منها أداءً حسناً ، ونما شعب الولايات فى ظل حمايتها حتى أصبح من أعظم المجتمعات التى ظهرت فى العالم إلى الآن ومن أشدها قوة وحضارة ؛ على أنه ليس فى ذلك ما يدعو إلى اعتبار الدستور الأمريكى شيئاً أقرب إلى الغاية النهائية وأبعد من قبول التغيير من طراز سكك حديد الشوارع التى تعلو كثيراً من طرقات نيويورك العامة ، أو ذلك الطراز الممتاز البسيط من عمارة المنازل الذى ما يزال يعم فيلادلفيا . فإن هذه الأشياء أيضا أدت الغرض

منها أداءً حسناً ، وفيها عيوبها على أن فى الإمكان إصلاحها وتحسينها ؛ فإن مستحدثاتنا السياسية شأن مستحدثاتنا المنزلية والآلية بالضبط ، فى حاجة إلى أن تمتد إليها يد التعديل المتواصل كلما نما العرفان والتفهم .

ومنذ أن رسمت خطة الدستور ، تعرضت فكرتنا عن التاريخ ومعرفتنا بسيكولوجيا الجماعة لتطور جسيم جداً . فإنا أخذنا نرى فى معضلة الحكم والحكومة أشياء كثيرة كان رجال القرن الثامن عشر عنها عمهين ؛ وإذ أنهم كانوا شجعاناً شجاعة تتجلى فى نزعتهم الإنشائية تلقاء أى تكوين سياسى سابق لهم ، فإن تلك النزعة الإنشائية قصرت كثيراً عن حد تلك الجرأة التى تدرك الحاجة إليها فى هذه الأيام للوصول إلى حل لهذه المسألة الإنسانية العظيمة ، مسألة إنشاء « مجتمع إرادة » ممدن . فإنهم سلموا بأشياء كثيرة نعرف اليوم أنها بحاجة أن تكون موضع أشد الدراسات العلمية تدقيقاً وأن تلقى أشد ألوان الإحكام والتعديل . ذلك أنهم كانوا يظنون أن كل ما عليهم هو أن يقيموا المدارس والكليات ، مع منحها منحة من الأرض للقيام بنفقاتها ، وأنه من الجائز عند ذاك أن تترك وشأنها . ولكن التعليم ليس عشيا ينبت بقوة فى أية تربة ، وإنما هو محصول ضرورى رقيق قد يذبل فى سهولة ويضوى . وإنا لنعلم فى هذا العصر أن النقص فى تطور الأجهزة الجامعية والتعليمية ، يشبه شيئاً من نقص التطور للمخ والأعصاب ، الذى يعوق نمو الكيان الاجتماعى كله . وإذا قيس مستوى التعليم العادى فى أمريكا بالمعايير الأوروبية وبمعيار أية دولة ظهرت حتى الآن ، تجلى أنه مستوى عال ؛ ولكن إذا قيس إلى ما يمكن أن يكون عليه حاله ، فإن أمريكا تعد دولة غير متعلمة ؛ كذلك أيضاً زعم آباء أمريكا هؤلاء أنه ليس عليهم إلا إن يتركوا « الصحافة » حرة ، وعند ذلك يعيش كل إنسان فى أسطع نور . فلم يدركوا أن فى إمكان الصحافة الحرة أن تطور نوعاً من الإرتشاء والفساد الدستورى بسبب علاقتها بأصحاب الاعلانات ، وأن فى مستطاع أصحاب الصحف الكبيرة أن يكونوا قراصنة يتقبلون كل رأى ومحطمين فاقدى الشعور للبدايات الحسنة . ويجىء فى آخر الأمر أنه لم يكن لمؤسسى أمريكا أى معرفة بتعقيدات التلاعب بالأصوات . فإن « علم الانتخابات» بأجمعه كان أبعد أن يتناوله وهمهم ، ولم يكونوا يعرفون شيئاً عن الحاجة إلى الصوت القابل

للنقل لمنع طبخ الانتخابات بواسطة المنظمات المتخصصة ، وكانت نتيجة الطرائق الصلبة التى كانوا يستعملونها — أن أصبح نظامهم السياسى فريسة محققة لأجهزة الحزب الكبير التى سلبت الديمقراطية الأمريكية نصف حريتها ومعظم روحها السياسية . وأصبحت السياسة حرفة ، وحرفة وضيعة جداً . وانسحب كرام الرجال ومقتدروهم ، بعد الفترة العظيمة الأولى تاركين ميدان السياسة إلى الأعمال ، وانحطت روح الشعور بالدولة . وتحكم « المسعى الخاص » فى كثير من الشئون العامة ، لأن الفساد السياسى جعل « المسعى الجماعى » أمراً مستحيلا .

على أن نقائص النظام السياسى العظيم الذى خلفه أمريكيو فترة الثورة ، لم تظهر على الفور . فإن تاريخ الولايات المتحدة لبث أجيالا عدة ، تاريخ اتساع سريع وقدر من الحريه ، وسعادة ساذجه وعمل ناشط ، على حال لا نظير لها جميعاً فى تاريخ العالم . وبالرغم من حدوث انحرافات كثيرة نحو عدم المساواة وبالرغم من الكثير من قلة الخبرة والكثير من الأخطاء ، فإن تاريخ أمريكا مع ذلك فى المئة والخمسين السنة الأخيرة قصة تعادل فى نصاعتها وشرفها قصة أى شعب معاصر آخر .

ولم يتهيأ لنا فى هذا البيان الموجز الذى كتبناه عن إنشاء الولايات المتحدة الأمريكية أن نتجاوز إلا قليلا مجرد الإشارة إلى أسماء جماعة العظماء الذين بدءوا هذه البداية الجديدة فى التاريخ الإنسانى . وقد ذكرنا أسماءهم عرضا ، أو قل إننا حتى لم نذكر رجالا من أمثال توماس پين وبنيامين فرانكلين وپاتريك هنرى وتوماس چفرسون وأبناء العم من أسرة آدامز وماديسون الكسندر هاملتون وچورچ واشنجتون . ومن العسير على المرء أن يقيس رجال فترة ما من التاريخ برجال فترة أخرى . وقد يتأثر بعض الكتاب حتى الأمريكيين منهم بالأبهة المصطنعة التى تجلت فى البلاطات الملكية الأوروبية وبالأعمال المدمرة المليئة بالبهرج والزيف التى قام بها أشخاص مثل فردريك الأكبر أو كاترين العظيمة ، فيبدون إزاء مؤسسى أمريكا هؤلاء ضربا مما قد يبديه محدثو النعمة من خجل إزاء شىء مصنوع بالمنزل . فإنهم يشعرون أن بنيامين فرانكلين إنما يبدو فى بلاط لويس السادس عشر فى شعره الطويل وثيابه البسيطة وخلقه الماكر شخصاً ينقصه الامتياز الاستقراطى نقصاً محزناً . ولكنهم إن جردوا حتى بدت

شخصياتهم ، لم يكد لويس السادس عشر يبلغ من المواهب ولا من نبل العقل الحد الكافى بجعله وصيفاً لفرانكلين . فإذا كانت العظمة الإنسانية تقاس بالمستوى والمعيار والبريق ، فلا شك إذن أن الاسكندر الأكبر يتبوأ من العظمة الإنسانية ذروتها . ولكن هل العظمة هى ذلك الأمر ؟ ألا يكاد الرجل العظيم أن يكون من اذا تولى منصباً عظيماً أو تهيأت له فرص عظيمة — وما المواهب العظيمة إلا فرص عظيمة — خدم الله وخدم إخوانه بقلب ملوءه التواضع ؟ ولا ريب أنه يبدو أن عدداً جماً من أمريكيي الزمن الثورى أولئك ، قد أظهروا الشيء الكثير من الاخلاص والتجرد من الأغراض . كانوا لا جرم رجالا محدودين ، رجالا غير معصومين من الزلل ، ولكنهم يبدون فى جملتهم وكأنما كانوا يعنون بالحكم الشعبي المتحرر الذى يخلقون ، يعنون به فى حد ذاته أكثر من عنايتهم به كغاية شخصية أو غرور شخصى . ومن المستحيل علينا ألا نخولهم عظمة ذهنية ممتازة .

ولا ننكر أنهم كانوا محدودى المعارف ضيقى أفق النظر إلى الأمور ؛ إذ كان يحدوهم محدد زمانهم وقيوده . كانوا — شأننا جميعاً — رجالا تتنازعهم دوافع مختلفة ؛ قد نشأت فى أذهانهم حوافز طيبة وسرت فى أجسادهم فكرات عظيمة . ومن الجائز كذلك أن تداخلهم نزعات الغيرة أو الكسل أو العنا أو الشر . فلو قدر للمرء أن يكتب تاريخاً حقيقياً كاملا مدققاً لتكوين الولايات المتحدة ، لوجب أن يكتب فى روح من السماحة والجذل كما تُكتب ملهاة فاخرة ترتفع إلى أنبل الغايات . ولسنا نعثر على الروح الإنسانية الجزلة الملتوية المتجلية فى القصة الأمريكية ، قدر ما نعثر عليها ممتازة رائعة إزاء تجارة الرقيق . وإذا نحن راعينا مسألة العمال بصفة عامة — وجدنا الرق خير محك لهذه الروح الجديدة فى التاريخ العالمى وأعنى بها الروح الأمريكية .

ابتدأت تجارة الرقيق فى وقت مبكر جداً من تاريخ أمريكا الأوربى ، وما من شعب أوربى ذهب إلى أمريكا بمبرأ براءة تامة من وزر ذلك الأمر . ومن الإنصاف أن نلحظ فى وقت لما يزل فيه الألمانى فى أوربا من الناحية الخلقية كالمعاقب بجريرة غيره — أن سجل الألمان هنا خير السجلات وأنظفها من هذه الوجهة . وتكاد أول الأقوال الصريحة ضد استرقاق الزنوج تكون صادرة من مستوطنين ألمانيين فى

بنسلفانيا . ولكن المستوطن الألمانى كان يشتغل بواسطة عمال أحرار فوق أرض معتدلة المناخ متوغلة كثيراً فى الشمال عن منطقة المزارع الكبرى ؛ فلم يكن واقعاً إذن تحت تأثير مغريات خطيرة فى هذا الشأن . ابتدأت تجارة الرقيق الأمريكية باسترقاق الهنود لتشغيلهم فى مناسر العمال بالمناجم وفى المزارع الكبرى . ومن عجب أن يلحظ الإنسان أن لاس كاساس وهو الرجل الذى حض على استيراد الزنوج إلى أمريكا للحلول فى العمل محل من تحت حمايته من الهنود المعذبين ، كان بالفعل رجلا طيباً جداً عطوفاً على الإنسانية . ذلك أن الحاجة إلى العمال الذين يشتغلون فى المزارع الكبرى بجزر الهند الغربية وفى مناطق الجنوب كانت حاجة حتمية ملحة . وعندما ثبت أن الوارد من الأسرى الهنود غير كاف ، شخص المزارعون لا إلى الزنوج فحسب بل إلى السجون وملاجئ الفقراء فى أوربا لتزودهم بالعمال الكادحين . ولسوف يعلم قارئ كتاب مول فلاندرز من تأليف دانيال ديفو ، الرأى الذى كان يراه إنجليزى ذكى الفؤاد عند بواكير القرن الثامن عشر فى عملية الرقيق الأبيض الفرجينية . على أن الزنجى جاء فى وقت مبكر جداً فإن سنة ١٦٢٠ التى شهدت الآباء الحجاج ينزلون إلى البر فى ليموث بنيوانجلند ، شهدت غليوناً هولندياً يُنزل إلى البر أول شحنة من الزنوج فى جيمس تاون بفرجينيا . فكأن عمر تجارة الرقيق الزنوج يناهز عمر نيوانجلند . وكانت تلك التجارة نظاماً أمريكياً مضى عليه قبل حرب الاستقلال ما يربو على قرن ونصف من الزمان . وقدر لها أن تواصل حياتها فى كفاح استمر الجزء الأكبر من قرن آخر .

على أن ضمائر المفكرين من رجال المستعمرات لم ترتح قط تمام الارتياح إلى هذه النقيصة ، وكانت إحدى التهم التى وجهها توماس جفرسون لتاج بريطانيا العظمى ولوردتها ، أن كل محاولة تبذل لتحسين الحال أو الوقوف فى سبيل تجارة الرقيق من جانب المستعمرين كانت تحول دونها مصالح أصحاب الملكيات الكبرى فى أرض الوطن الأم (أى انجلترة) . وفى سنة ١٧٧٦ كتب اللورد دارتموث إن المستوطنين لا يمكن أن يباح لهم « أن يحولوا دون تجارة لها مثل ذلك النفع العميم على الشعب أو يثبطوها » . وقفزت مسألة استرقاق الزنوج إلى منزلة الصدارة من الضمير العام

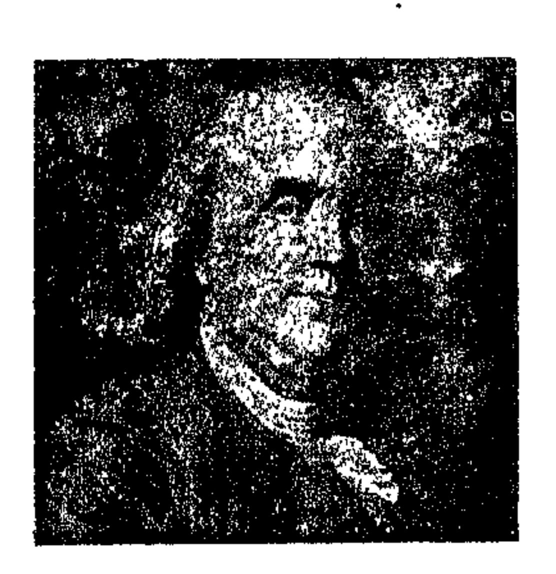
بفضل نشوء التخمر الأخلاقى الذى حدث إبان الثورة . وظهر التباين والتحادّ واضحاً وهّاجاً لعين العقل . فإن قانون الحقوق الفرجينى يقول «كل الرجال بطبيعتهم أحرار متساوون» ، ومع ذلك فإذا خرج الإنسان إلى العراء وجد العبد الزنجى يكدح فى ضياء الشمس تحت سوط «ريّس» العمال !!! .

ومما يشهد بالتغيير العظيم فى الفكرات الإنسانية منذ أن انحل النظام الإمبراطورى الرومانى أمام هجمات البرابرة أن أصبح فى الإمكان أن يقوم الناس بمثل هذا البحث فى زوايا قلوبهم وخبايا ضمائرهم . فإن ظروف الصناعة والإنتاج وحق ملكية الأراضى قد حالت زماناً طويلا دون حدوث إنتفاضة جديدة لنظام مناسر الأرقاء . ولكن الدورة ما لبثت أن دارت كرة أخرى ، وكانت هناك مزايا مباشرة هائلة تحصدها الطبقات المالكة والحاكمة من وراء انتعاش ذلك النظام القديم ، فى المناجم والضياع الكبرى والأشغال العامة الكبيرة . فبعث النظام ولكن قامت فى وجهه معارضة عظيمة . وتعالت الأصوات منذ بداية ذلك الابتعاث باحتجاجات لم تبرح تتزايد وتشتد . إذ كان استحياء تلك العادة مضاداً لضمير البشرية الجديد . وكان النظام الجديد لاسترقاق المناسر أسوأ فى بعض مناحيه من أى شىء فى العالم القديم . ومما كان فظيعاً مرعباً بوجه خاص ما كانت تؤججه تلك التجارة من حروب لاصطياد الرقيق ، وما كان يجرى من طراد الإنسان فى إفريقيا الغربية ، ومن قساوات الرحلة الطويلة عبر المحيط الأطلسى . فإن هؤلاء المساكين كانوا يُعبأون فى السفن وليس معهم فى غالب الأمر ما يكفيهم من الماء والطعام ودون الرعاية الصحية الواجبة ودون أدوية على الإطلاق . حتى لقد كان الكثيرون ممن يستطيعون أن يتسامحوا مع الاسترقاق على أرض الضياع الكبرى يرون تجارة الرقيق شيئاً لا تستطيع أن تسيغه أخلاقهم . وكانت شعوب أوربية ثلاثة مشتغلة بوجه رئيسى بهذا العمل البشع ، وهى بريطانيا وأسپانيا والبرتغال لأنها كانت أكبر ملاك الأراضى الجديدة فى أمريكا . فأما البراءة النسبيّة للشعوب الأوربية الأخرى فترجع فى الغالب إلى أن نصيبهم من المغريات كان أصغر . كانوا مجتمعات مماثلة لتلك ، فلو أتيحت لها ظروف مماثلة لتصرفت تصرفاً مماثلا .

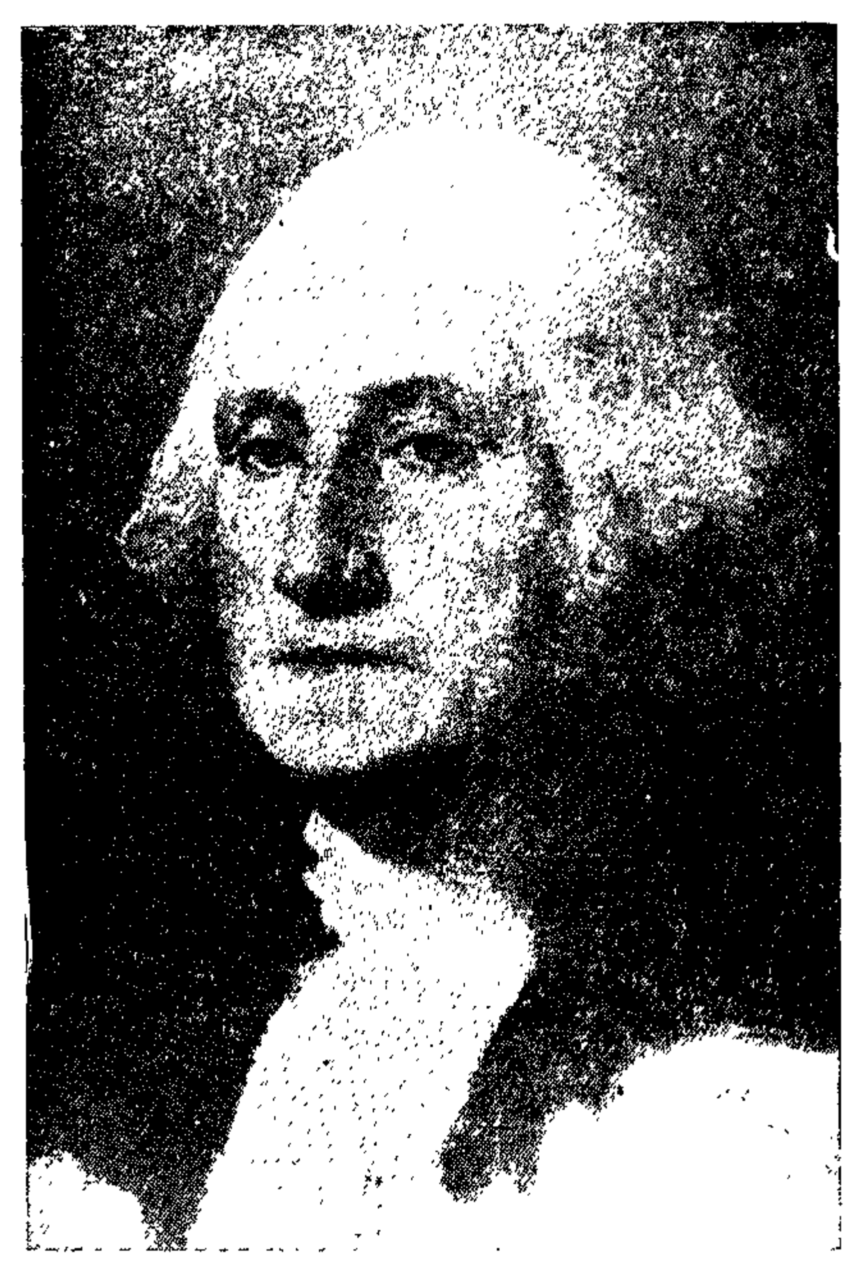
وقد ألم بالنفوس هياج ناشط طوال الجزء الأوسط من القرن الثامن عشر ضد استرقاق الزنوج فى بريطانيا العظمى وفى الولايات على السواء . وقدر عدد الأرقاء فى انجلترة فى سنة ١٧٧٠ بخمسة عشر ألف عبد استجلب أصحابهم معظمهم من جزر الهند الغربية وڤرجينيا . وفى سنة ١٧٧١ وصل النزاع إلى امتحان نهائى فى بريطانيا أمام اللورد مانسفيلد . فإن زنجياً اسمه چيمس سومرست أحضره سيده من ڤرچينيا إلى انجلترة . ففر ثم قبض عليه وأخذ أخذاً عنيفاً إلى إحدى السفن لكى يعاد إلى ڤرچينيا . فاستخلص من السفينة بحكم نص فى « قانون المثول Habeas Corpus » . وأعلن اللورد مانسفيلد أن الرق حالة لا يعرفها القانون الإنجليزى ، وأنه حالة « بغيضة » ، وعند ذلك خرج سومرست من المحكمة رجلا حراً .

وكان دستور ١٧٨٠ لماساشوستس قد أعلن أن « الناس جميعاً يولدون أحراراً ومتساوين ». وقام زنجى بعينه اسمه كواكو بوضع هذا النص تحت الاختبار فى ١٧٨٣ ، وفى تلك السنة أصبحت أرض ماساشوستس مثل أرض بريطانيا لاتتسمح مع الرق ؛ فكان مجرد الدخول إليها معناه الانتقال إلى الحرية . ولم تنح هذا النحو فى ذلك الزمان ولاية أخرى من ولايات الاتحاد . وفى تعداد ١٧٩٠ كانت ماساشوستس هى الولاية الوحدة التى لم تسجل وجود « عبد واحد بها » .

وآراء الناس فى ڤرچينيا جديرة بالملاحظة ، لأنها تكشف القناع عن الصعوبات الخاصة التى كانت تواجه الولايات الجنوبية . فإن كبار رجال السياسة الڤرچينيين من أمثال واشنجتون وچيفرسون كانوا يطعنون فى ذلك النظام ، ومع هذا فإن واشنجتون كان يمتلك العبيد إذ لم يكن هناك أى شكل آخر للخدمة المنزلية . ونشأ بڤرچينيا حزب قوى يناصر اعتاق الرقيق ؛ على أنهم



(شكل ١٨١) بنيامين فرانكلين



(شكل ١٨٢) جورج واشنجتون

كانوا يطالبون بأن يغادر العبيد المعتقون الولاية فى مدى سنة من الزمان وإلا اعتبروا خارجين على القانون . وكان من الطبيعى أن ينزعجوا من احتمال وجود مجتمع همجى حر من السود ، الكثير من أفراده مولودون بإفريقيا ومتشبعون بتقاليد أكلة لحم البشر وشعائر دينية سرية مرعبة - يقوم إلى جوارهم على الأراضى الفرچينية . فلو أنا تأملنا وجهة النظر هذه استطعنا أن نفهم لماذا حدث أن عددا كبيراً من الفرچينيين مال إلى الاحتفاظ بكتلة السود فى البلاد تحت الرقابة بوصفهم عبيداً ، على حين كانوا فى نفس الوقت يعارضون تجارة الرقيق واستيراد أى دم جديد من أفريقيا معارضة مريرة . ومن اليسير على الإنسان أن يدرك أن السود الأحرار قد يصبحون بسهولة شوكة مضايقة ؛ والواقع أن ولاية ماساشوستس الحرة أغلقت للوقت حدودها فى وجههم .

ومن هنا يتضح أن مسألة الرق التى لم تكن فى العالم القديم سوى مسألة « حالة » أو وضع لأفراد بينهم مماثلة عنصرية[1] ، قد انغمرت فى أمريكا مع مسألة مخالفة لها وأشد منها عمقاً هى مسألة العلاقات بين عنصرين من السلالة الإنسانية على طرفى نقيض ، كما أنهما على أشد التباين فى التقاليد والثقافة . فلو أن الرجل الأسود كان أبيض ، فلا مجال للشك فى أن استرقاق الزنوج كان يمتنع من الولايات المتحدة فى مدى جيل واحد من ساعة إعلان الاستقلال بوصفه نتيجة طبيعية للبيانات الواردة فى ذلك الإعلان .

٧ - الفكرة الثورية فى فرنسا

تكلمنا عن حرب استقلال أمريكا ووصفناها بأنها أول انفصال عظيم عن نظام الملوك الأوربيين ووزارات الخارجية الأوربية ، وبأنها رفض مجتمع جديد لصناعة السياسة المكياڤلية بوصفها الصورة المدبَّرة للشئون الإنسانية . وما انقضت عشر سنوات حتى وافت ثورة ثانية أشد من الأولى إيذاناً بالشر ، ثورة قامت ضد هذه

(١) عنصرية (Racial) : تقوم على العنصر الإنسانى وفوارقه أو تماثلاته . (المترجم)

اللعبة العجيبة : لعبة الدول العظمى ، وأعنى بذلك التماعل المعقد بين البلاطات والسياسات الذى أشربت به عقلية أوربا . على أنه لم يكن فى هذه المرة حركة انفصال بعيدة الشقة . حدثت هذه الفتنة الثانية فى فرنسا مهد الملكية العظمى وموطنها وقلب أوربا ومركزها . وعلى النقيض من المستوطنين الأمريكيين الذين اكتفوا بمجرد نبذ الملك ، قام الفرنسيون بقطع رأس ملكهم مترسمين خطى الثورة الإنجليزية . والثورة الفرنسية شأن الثورة البريطانية وشأن الثورة فى الولايات المتحدة ، يمكن تعقبها حتى مصادرها الأولى متمثلة فى سحافات الملكية ومطامعها . فإن خطط التوسع وأغراض الملك الأعظم وتدبيراته ، استلزمت من الإنفاق على عتاد الحرب فى كل أرجاء أوربا ما يتجاوز كل تناسب مع طاقة العصر فى الضرائب . ناهيك بأن ترف الملكية ومظاهر بذخها كانت تتكلف نفقات باهظة بالقياس إلى الإنتاج فى ذلك الوقت . وقد حدث فى فرنسا كما حدث بالضبط فى بريطانيا وأمريكا أنه لم تكن المقاومة الأولى موجهة ضد الملك بوصفة ملكاً ولا ضد سياسته الخارجية بوصفها سياسة خارجية بل إلى ما يتسبب عنها من مضايقات وتكاليف تلم بحياة الأفراد ، كذلك لم يميز الناس تميزاً واضحاً أن أصل الشر بنحصر فى تلك الأمور . وطاقة فرنسا الفعلية على دفع الضرائب كانت لا محالة أقل كثيراً نسبياً من طاقة إنجلترة بسبب الإعفاءات المتنوعة التى كان يستمتع بها النبلاء ورجال الكنيسة . ولذا كان العبء الملقى إلقاءً مباشراً على عاتق عامة الشعب أثقل وأفدح . وهذا الإعفاء جعل الطبقات العليا أعواناً للبلاط ، بدل أن يناصبوا البلاط العداء شأنهم فى إنجلترة ؛ وبذا ساعد على إطالة أمد الخراب ؛ حتى إذا تناهى الأمر فعلا إلى درجة الإنفجار ، كان الإنفجار أشد عنفاً وتمزيقاً وتدميراً .

ولم تكن هناك أثناء سنوات حرب الاستقلال الأمريكية إلا أمارات قليلة تؤذن بأن انفجاراً يوشك أن يحدث فى فرنسا . أجل كانت التعاسة متفشية بين الطبقات الدنيا ، وكان النقد ناشطاً والتهكم لذاعا . والتفكير المتحرر الصريح وفيراً ، ولكن لم يبد هناك إلا أقل النذر بأن الوضع فى مجمله وبكل ما فيه من عرف وعادات واختلافات مألوفة ، قد لايستمر فى طريقه زماناً لا آخر له . كانت فرنسا تتجاوز فى

استهلاكها كل طاقة لها على الإنتاج . ولكن لم يكن هناك حتى ذلك الحين من يحس آلام الوخزة إلا الطبقات التى ليس لها لسان تئن به . وكان المؤرخ جيبون يعرف فرنسا خير المعرفة ، فقد كان بصيراً بباريس بصره بلندن ؛ ولكن أحداً لا يستطيع أن يحس منه فى الفقرة التى اقتبسناها خلجة ارتياب تنبئ بأن أياماً من الإنحلال السياسى والإجتماعى وشيكة دانية . ولا ريب فى أن العالم كان يزخر بالسخافات والمظالم ، ومع هذا فإنه من وجهة نظر المفكر العالم والجنلتمان كان على درجة لا بأس بها من الرفاهية كما كان يلوح فى حال لا بأس بها من الطمأنينة .

نعم ظهر فى فرنسا فى ذلك الزمان قدر كبير من التفكير الحر والخطابة الحرة والعاطفة الحرة . وقام فى فرنسا فى النصف الأول من القرن الثامن عشر ، مونتسكيو (١٦٨٩ — ١٧٥٥) ضريبا لجون لوك فى إنجلترة وإن تأخر عنه بعض الزمان . فوضع النظم الاجتماعية والسياسية والدينية تحت نفس الفحص والتحليل الجوهرى وبخاصة فى كتابه « روح القوانين » .

وقد جرد الملكية المطلقة بفرنسا من هيبتها السحرية ، وهو يقاسم لوك فضل إزالة كثير من الفكرات الخاطئة التى كانت حتى حينذاك تحول دون المحاولات الواعية المقصودة لإعادة بناء الجماعة الإنسانية . ولئن حدث فى بداية الأمر أن أقيمت فى الأرض البراح المتخلفة عن ذلك الهدم أكواخ هزيلة مفرطة فى الضعف بالغة الغاية فى عدم الاستقرار ، فإن ذلك لم يكن راجعا إلى خطئه هو . فإن الجيل الذى عقبه فى أواسط القرن الثامن عشر وأخرياته ، كان يفكر تفكيراً جريئا فيما قام به ذهنيا وخلقيا من هدم وإزالة . وتألفت جماعة من أذكياء الكتاب هم « الموسوعيون » — ومعظمهم ذوو أرواح ثائرة ممن تخرجوا فى مدارس اليسوعيين الممتازة — ونهضت تحت قيادة ديدروه (Diderot) لوضع الخطط لعالم جديد (١٧٦٦) بوساطة مجموعة من المؤلفات . ويقول ماليه (Mallet) ، « إن مجد الموسوعيين ينحصر فى كراهيتهم لكل جور وظلم وفى تشهيرهم بتجارة الرقيق ، وعدم التسوية بين الناس فى الضرائب ، وفساد العدالة ، والدمار الذى تجره الحروب . . . وفيما كانوا يحلمون به من التقدم الإجتماعى ، وما كان يخالجهم من

عطف على « دولة » الصناعة الناهضة التى شرعت تحول العالم تحويلا » . ويلوح أن غلطتهم الرئيسية تنحصر فى مناصبتهم الأديان عداوة عمياء . فإنهم كانوا يعتقدون أن الإنسان عادل بطبعه كفء من ناحية السياسية ، على أن اندفاعه نحو الخدمة الاجتماعية ونكران الذات لا يتطور فى العادة إلا بطريق تعليم يكون بالضرورة تعليما دينياً ، ولا يدعمه إلا جو من التعاون الشريف . فأما المبتكرات الإنسانية غير المنسّقة فإنها لا تؤدى إلى شىء سوى الفوضى الاجتماعية .

وقامت إلى جانب الموسوعيين جماعة الإقتصاديين أو الفيزيوقراطيين ، الذين كانوا يقومون بأبحاث جريئة فجة فى شئون إنتاج الطعام والبضائع وتوزيعها : وقد شهّر مؤلف « قانون الطبيعة[1] » بنظام الملكية الخاصة من الناحية الأخلاقية واقترح إنشاء تنظيم شيوعى للمجتمع . كان هو البشير المؤذن بظهور تلك المدرسة الكبيرة المنوعة ، مدرسة المفكرين الجماعيين[2] أو الحشديين فى القرن التاسع عشر وهم الذين يجمعهم الناس تحت اسم الإشتراكيين .

وكان كل من الموسوعيين ومختلف فرق الاقتصاديين أى الفيزيوقراطيين يطلبون من تلاميذهم قدراً جسيماً من التفكير الشديد العميق . وثمة زعيم ألين معطفاً وأقرب إلى قلوب الناس هو روسّو (١٧١٢ – ١٧٧٨) . أظهر مزيجاً عجيباً من الصلابة المنطقية والحماسة العاطفية . وكان يبشر بالمبدأ الجذاب القائل بأن حالة الإنسان البدائية كانت حالة فضيلة وسعادة ، انحدر عنها نتيجة لنشاط القساوسة والملوك والمحامين ومن إليهم نشاطاً لايكاد يبدو له سبب يفسره . وكان تأثير روسو الذهنى تأثيراً مفسداً للأخلاق على وجه العموم . إذ أنه لم يصب فقط بضرباته البناء الاجتماعى القائم بل مس كل تنظيمة اجتماعية ! والظاهر أنه حين كتب عن « العقد الاجتماعى » كان يلتمس المعاذير لنقص ذلك العقد – الذى كتب عنه – أكثر مما يؤكد ضرورته .

---

(١) قانون الطبيعة : Code de la Nature .

(٢) الجماعيون : Collectivists . هم أنصار المذهب الجماعى المطابق للاشتراكية ، لولا أنهم لا يدخلون الثورة فى خططهم . ومذهبهم يقوم على الملكية الجماعية لوسائل الإنتاج والتبادل تحت هيمنة الحكومة . (المترجم)

والإنسان بعيد كل البعد عن الكمال حتى أنه يعلى قدر كاتب يناصر مناصرة ظاهرة رأيا قائلا بأنه لا إثم ولا جناح على من ينكر ديونه ومن ينحرف فى سلوكه الجنسى ، ويهرب من أعباء تعليم نفسه وغيره ويتحاشى ما يكلفه ذلك التعليم من نفقات ، ويقول إن ذلك السلوك ما هو إلا مظهر من مظاهر الفضيلة الطبيعية مع أن هذا هو الاتجاه الذى يكاد يكون عاما للأهواء ، والذى ينبغى علينا أن نحمى أنفسنا منه ونقاومه ، والإنسان كذلك بعيد عن الكمال حتى أن كاتبا كهذا يقدر له أن يكون صاحب مذهب يتبعه جمهور كبير من الناس من كل الطبقات التى تستطيع قراءة ما يكتبه . وقد ساعدت بدعة روسو الخطيرة مساعدة كبرى على اشاعة طريقة عاطفية وشديدة الجرأة والخروج فى معالجة المسائل السياسية والاجتماعية .

وقد لاحظنا من قبل أنه لم يحدث حتى اليوم أن مجتمعاً إنسانياً واحدا بدأ يوماً عمله على أساس نظرى . فلا بد من أن يحدث أولا انهيار ما وحاجة إلى التوجيه تسمح للنظريات بأن تتبوأ مكانها ، ولا بد أن كتابات وأحاديث المفكرين الفرنسيين الجمهورية والفوضوية ، كانت حتى ١٧٨٨ تلوح أموراً لا تأثير لها ولا قيمة من الناحية السياسية شأن اشتراكية وليم موريس[1] الجمالية (الإسطيقية) فى إنجلترة فى نهاية القرن التاسع عشر . فهناك فى فرنسا ، كان النظام الاجتماعى والسياسى يسير فى طريقه ثابتا قويا كأنما سيعيش أبداً ، فكان الملك الفرنسى يخرج للقنص أو يصلح ساعاته ، وكان البلاط وعالم الطبقة الراقية يواصلان ملذاتهما ، وكان الماليون لا ينون عن تدبير وسائل التوسع لمشروعاتهم فى الائتمان ؛ وكانت الأعمال التجارية تتردى فى الخطأ وهى تسير فى سماجة على نفس امتداد طريقها القديم البالى ، تبهظها الضرائب والمكوس ، وكان الفلاحون يحملون الهموم ويكدحون ويقاسون الويلات ، وتمتلئ نفوسهم بكراهية يائسة لقصر النبيل . وكان الرجال يتكلمون ويحسون أنهم يتكلمون دون جدوى . وكان فى الإمكان أن يقال أى شىء إذ كان يبدو أن لن يحدث أى شىء .

---

(١) وليم موريس (١٨٣٤ – ١٨٩٦) : شاعر واشتراكى وفنان . تعلم فى أكسفورد وتأثر براسكن . أنشأ مصنعا للأثاث وورق الجدران وزخارف الكنائس وأصدر كتبا شعرية عديدة . (المترجم)

٨ ـ ثورة سنة ١٧٨٩

وجاءت فى ١٧٨٧ أول رجة أصابت هذا الاستمرار المطمئن للحياة فى فرنسا . فإن لويس السادس عشر (١٧٧٤ — ١٧٩٣) كان ملكاً غبياً سيئ التعليم . وكان من سوء طالعه أنه تزوج من إمرأة حمقاء مبذرة ، هى مارى أنطوانيت شقيقة إمبراطور النمسا . ومسألة اتصافها بالفضيلة والعفة من المسائل التى تثير اهتمام طراز معين من كتاب التاريخ ، على أنا فى غير حاجة إلى مناقشتها فى هذا المكان . فكانت كما يقول پول ويرياث[1] « تعيش جنباً إلى جنب مع زوجها لا إلى جانبه » . وهى تكاد تكون غليظة القسمات ، ولكن وجهها لم يكن عادياً إلى حد يمنع أن تتخذ وضع الملكة الجميلة الرومانسية المختالة . فلما أن استنفدت موارد وزارة المالية فى الحرب فى أمريكا ، وعند ما كانت البلاد بأسرها تتقلب على جمر التذمر والقلق ، نصبت كل سلطانها لغل أيدى وزراء الملك عن أية محاولة للاقتصاد ، ولتشجيع كل نوع من أنواع الإسراف الأرستقراطى ، ولإعادة الكنيسة والنبلاء إلى المركز الذى كانوا يتبوأونه فى الأيام العظيمة أيام لويس الرابع عشر . وكانوا يريدون أن يخلعوا من الجيش الضباط غير الأرستقراطيين ؛ وأن يبسطوا من سلطة الكنيسة على الحياة الخاصة . ووجدت فى موظف من الطبقة العليا هو كالونى المثل الأعلى لوزير ماليتها . فمنذ ١٧٨٣ إلى ١٧٨٧ ظل هذا الرجل العجيب ينتج النقود بطريقة تشبه السحر ، ثم تختفى هذه النقود ثانية بطريقة تشبه السحر أيضاً ، ثم انهار فى ١٧٨٧ . وكان قد طبق القرض فوق القرض ، وعند ذلك أعلن أن الملكية ، أى الملكية العظيمة التى حكمت فرنسا منذ أيام لويس الرابع عشر — قد أفلست . ولم يعد فى الطوق جمع أى نقود جديدة . ولا بد من عقد جمعية من ذوى الرأى والمكانة فى المملكة للنظر فى الموقف .

وقدم كالونى إلى اجتماع ذوى المكانة ذاك ، وهو جمعية من القادة والزعماء وجهت إليها الدعوة للإنعقاد ، مشروعا بأخذ ضريبة مالية على كل عقار من الأرض . فأثار ذلك الارستقراطيين إلى درجة من الغضب عظيمة . فطالبوا بدعوة هيئة تعادل

---

(١) الموسوعة البريطانية مادة (France) .

على وجه التقريب البرلمان الإنجليزى — وهى « مجلس الطبقات States General » الذى لم يجتمع منذ ١٦١٤ : وأصر ذوو المكانة الفرنسيون على طلبهم ذاك دون أن يتنبهوا إلى أنهم سينشئون بذلك لساناً يعبر عما يخالج من دونهم من الطبقات من تذمر ، لا يحفزهم على ذلك إلا محاربة الاقتراح القائل بأنهم يجب أن يتحملوا نصيباً من أثقال البلاد المالية . ومن ثم اجتمع مجلس الطبقات فى مايو ١٧٨٩ .

وكان ذلك المجلس جمعية تضم ممثلى هيئات ثلاث : النبلاء ورجال الدين والطبقة الثالثة أى العامة . وكان حق التصويت للطبقة الثالثة متسعا جداً ، إذ كاد أن يكون لكل دافع ضرائب بلغ الخامسة والعشرين صوت . (وكان قساوسة الأبروشيات يعطون أصواتهم بوصفهم من رجال الدين ، والنبلاء الصغار بوصفهم نبلاء) . وكان مجلس الطبقات هيئة ليس لإجراءاتها أى تقاليد ولا سوابق . وأرسلت الاستفسارات فى هذا الصدد إلى الخبراء بالشئون القديمة « بأكاديمية المخطوطات » . ودارت مناقشاته الأولى حول مسألة هل له أن يجتمع كهيئة واحدة أو كهيئات ثلاث ، يكون لكل طبقة فيها صوت معادل . ولما كان عدد رجال الدين ٣٠٨ والنبلاء ٨٥ والنواب ٦٢٢ ، فإن الترتيب الأول يضع الأغلبية المطلقة بين أيدى العامة ، ويعطيهم الترتيب الثانى صوتا واحداً من ثلاثة . كذلك لم يكن لمجلس الطبقات مكان ينعقد فيه . فهل يجب أن يجتمع فى باريس أو فى إحدى مدن المقاطعات ؟ واختيرت فرساى « بسبب الصيد » . وواضح أن الملك والملكة كانا يقصدان أن يعالجا هذه الضجة المثارة حول المالية القومية معالجتهم لأى شىء ثقيل مزعج ، وأن يسمحا للمجلس بالتدخل فى نظامهما الإجتماعى بأقل قدر مستطاع . وإنا لنرى الاجتماعات تتواصل فى قاعات مهملة ليس بأحد إليها حاجة أو فى صوبات البرتقال وملاعب التنس وما إليها .

وكان أخذ الصوت ، وهل هو بالطبقة أو بالشخص أمراً واضح الأهمية الحيوية : وتجادل القوم فيه مدة ستة أسابيع : حتى إذا اقتبستَ الطبقة الثالثة بضع صفحات من كتاب[1] مجلس العموم الإنجليزى ، راحت تعلن أنها وحدها هى الممثلة للشعب ، وأنه ينبغى ألا تجبى أية ضرائب من ذلك الحين إلا بعد إقرارها إياها . وعند ذلك

---

(١) أعنى أن الجمعية قلدته وحذت حذوه . . (المترجم)

أغلق الملك القاعه التى كان يجتمع فيها ، وأعلن أنه يحسن بالنواب أن ينصرفوا إلى منازلهم . وبدلا من ذلك اجتمع النواب فى ملعب للتنس مناسب ، وهناك أقسموا يميناً هو يمين ملعب التنس : — ألا يتفرقوا حتى ينشئوا لفرنسا دستورا . واتخذ الملك مظهر القوة وحاول أن يفرق الطبقة الثالثة عنوة . ولكن الجنود رفضوا أن يطيعوا . وعند ذلك خضع الملك بشكل فجائى خطر وقبل المبدأ القائل بأن الطبقات الثلاث يجب أن تتناقش كلها وتعطى صوتها بصفتها جمعية وطنية واحدة . وفى نفس الوقت نقلت إلى فرساى بتحريض ظاهر من الملكة ، فرق أجنبية تعمل فى خدمة الجيش الفرنسى ويمكن أن يعتمد عليها فى العمل ضد الشعب ، إذ استقدمت تلك الفرق من الأقاليم تحت قيادة المارشال دى بروجلى ، وأعد الملك العدة للتراجع فى منحته . وعندئذ تمردت باريس وفرنسا . وتردد بروجلى فى إطلاق النار على الجماهير . وأقيمت حكومة مدنية مؤقتة فى باريس وفى معظم المدن الكبيرة الأخيرة ، وأنشأت تلك الحكومات البلدية قوة مسلحة جديدة هى الحرس الأهلى ، وهى قوة معدة أولا وبشكل ظاهر لمقاومة قوات العرش .

وكان عصيان شهر يولية ١٧٨٩ هو فى الحقيقة الثورة الفرنسية الفعالة . وأخذ شعب باريس عنوة سجن الباستيل الجهم لقاء مقاومة ضعيفة جداً . وانتشر التمرد سريعاً إلى كل أرجاء فرنسا . وأحرق الفلاحون فى المقاطعات الشرقية والشمالية الغربية كثيراً من قصور النبلاء ودمروا صكوك ألقابهم ، وقتلوا أصحاب القصور أو طردوهم منها . وانتشر العصيان فى كل أرجاء فرنسا . ولم يمض شهر حتى كان نظام هيئة الأستقراطية البالى القديم قد انهار . وفر إلى الخارج كثير من كبار الأمراء ورجال البلاط من حزب الملكة . ووجدت الجمعية الوطنية نفسها تدعى لانشاء نظام جديد سياسى واجتماعى لعصر جديد .

٩ — الجمهورية الفرنسية المتوجة ٨٩ — ٩١

كانت الجمعية الوطنية الفرنسية أقل توفيقاً بكثير فى ظروف عملها من الكونجرس الأمريكى . فقد كان ذلك الكونجرس يجد بين يديه نصف قارة يتصرف فيه بملء

حريته ، وليس أمامه من خصم يعارضه إلا الحكومة البريطانية . وكانت منظماته الدينية والتعليمية متنوعة ، وهي في مجموعها غير ذات قوة كبيرة ولكنها تنطوى في الجملة على الود والصداقة نحوه . وكانت الشقة نائية بينه وبين الملك چورج في انجلترة ، وقد أخذ ينحدر في بطء نحو حالة من البلاهة . ولكن معالجة أحكام الدستور وجعله فعالا اقتضت من الولايات المتحدة سنوات كثيرة . وكان الفرنسيون من الناحية الأخرى محوطين بجيران ميالين إلى العدوان لهم فكرات مكيافللية ، ويجثم على صدورهم ملك وبلاط يصران على عمل الشر ، وكانت الكنيسة هيئة موحدة عظيمة ترتبط بالنظام القديم ارتباطاً لا انفصام له . وكانت الملكة على تراسل متواتر مع الكونت دارتوا والدوق دى بربون والأمراء المبعدين الآخرين الذين كانوا يحاولون أن يحملوا النمسا وبروسيا على مهاجمة الشعب الفرنسى الجديد . هذا إلى أن فرنسا كانت من قبل ذلك قطراً مفلساً على حين كانت للولايات المتحدة موارد لا نهاية لها لم تمتد إليها يد التنمية بعد ؛ وكانت الثورة بإقدامها على تغيير نظام ملكية الأراضى والعمل بالأسواق قد انتجت اضطراباً اقتصادياً ليس له مثيل فى حالة أمريكا .

تلك هى صعوبات الموقف التى لم يكن إلى تجنبها سبيل . ولكن الجمعية خلقت لنفسها بالإضافة إلى ذلك صعوبات أخرى . فلم تكن هناك إجراءات منظمة . على حين كان لمجلس العموم الانجليزى ما يربو على خمسة قرون من خبرته فى عمله . وعبثاً ما حاول ميرابو أحد كبار عظماء الثورة الأولى ، أن يحمل إخوانه على اقتباس القواعد الانجليزية المتبعة بمجلس العموم . ولكن شعور الزمان كان ميالا بكليته إلى الصياح والمقاطعات الدرامية ، وما شاكل ذلك من إظهار « الفضيلة الطبيعية » . وليت الفوضى اقتصرت على أعضاء الجمعية وحدهم . فقد كانت هناك شرفة كبيرة للزوار — شرفة فاقت فى كبرها كل حد مناسب ، فمن ذا الذى يمنع المواطنين الأحرار من أن يكون لهم صوت فى الرقابة القومية ؟ ومن ثم كانت هذه الشرفة تغص بجمهور من الناس تواق إلى الاستمتاع « بمشاهدة التهاتر والخصومات » ، مستعد للتصفيق أو الصياح لإسكات الخطباء المتكلمين من تحته . اضطر الخطباء الأوسع مقدرة أن يلعبوا لأصحاب الشرفة ، وأن يسلكوا سبلا عاطفية مثيرة

للحواس . وكان من السهل إبان الأزمات أن يُدخل كل من شاء جماعة من الغوغاء يقضون على المناقشة .

على هذه الشاكلة شرعت الجمعية وهى مغلولة الأيدى فى القيام بواجبها الإنشائى . وفى اليوم الرابع من أغسطس أحرزت نجاحاً أخاذاً عظيما . فأصدرت – يقودها كثيرٌ من أحرار النبلاء – سلسلة من القرارت ، تلغى نظم موالى الأرض (Serfs) والامتيازات والإعفاء من الضرائب ، والعشور ومحاكم الإقطاع . (ومع هذا فإن هذه القرارات لم تدخل حيز التنفيذ فى أجزاء كثيرة من البلاد إلا بعد ذلك بثلاث سنوات أو أربع) . وذهبت الألقاب فيما ذهب . وقبل أن تصبح فرنسا جمهورية بزمن مديد كان من الجرائر أن يوقع النبيل باسمه مقروناً بلقبه . وحبست الجمعية نفسها طوال أسابيع ستة (استمتع فيها علم البيان بفرص ذهبية لا نهاية لها ؟ !) ، على صوغ « إعلان لحقوق الإنسان » على غرار قوانين الحقوق التى كانت هى التوطئة الإنجليزية الممهدة للتغيير المنظم . وشرع البلاط فى نفس الوقت يدبر المؤامرات لإحداث إنقلاب رجعى وشعر الناس أن البلاط يأتمر بهم . وتتعقد القصة ها هنا فى خطط فيليب دورليان ابن عم الملك وتدبيراته النذلة الخسيسة ، وكان يأمل أن يستخدم الخلافات للحلول محل لويس على العرش الفرنسى . وفتحت حدائقه فى الباليه رويال Palais - Royal للجمهور ، وأصبحت مركزاً عظيماً للمناقشات المتطرفة . وفعل وكلاؤه الشىء الكثير لإذكاء حدة شبهات الشعب نحو الملك . وبلغت الأمور حداً لا يطاق بسبب نقص فى المواد الغذائية اعتبرت حكومة الملك مسئولة عنه .

وسرعان ما ظهرت بفرساى الفرقة الفلاندرية[1] الموالية للملك . وكانت العائلة الملكية تدبر التدابير لتزداد بعدا عن باريس – لكى تتحلل من كل شىء أبرم وتستعيد الاستبداد والتبذير . فانزعج الملكيون الدستوريون أمثال الجنرال لافاييت أيما انزعاج . وحدث فى ذلك الوقت أن اندلع غضب الناس عامة لقلة الطعام ، وتحول فى

---

(١) فلاندر Flanders هو الإسم الذى كان يطلق قديماً على المنطقة الشمالية الشرقية من فرنسا وعلى بعض أجزاء من بلچيكا وهولندة . (المترجم)

دور انتقال هين إلى غضبة قوية ضد ما يتهدد القوم من الحركة الرجعية الملكية . إذ كان الاعتقاد السائد أن قصر فرساى يضم قدراً وفيراً من المواد الغذائية ، وأن الأطعمة كانت تختزن هناك بعيدة عن أيدى الجمهور . وكان الإضطراب قد غلب على عقول الجمهور بسبب شائعات لعلها كانت مبالغاً فيها ، عن إقامة مأدبة حديثاً فى فرساى ، تجلى فيها العداء للشعب . وإليكم بعض المقتطفات من وصف كارليل لهذه المأدبة التاعسة .

« سمح بقاعة الأوبرا . وسوف تصبح قاعة هرقل حجرة استقبال . ولم يقف الأمر عند حد ضباط فلاندر . بل تعداه إلى الضباط السويسريين ، السويسريين المئة . كلا بل ضباط الحرس الوطنى بفرساى ، فمن كان منهم يحمل فى قلبه مسكة من الولاء يحضر المأدبة . ولسوف تكون وليمة قل نظيرها .

« والآن هب أن هذه الوليمة أعنى أن القسم الوقور منها قد تم ؛ وأن الزجاجة الأولى قد احتسيت . وهب أن نخب الولاء المألوف قد شرب ؛ فجاء نخب صحة الملك ، ثم نخب الملكة فى هتافات تصم الآذان ؛ وأسقط نخب الشعب أو قل نُبذ ... وافرض أن الشمبانيا تفيض أنهاراً ، ويصحب ذلك خطب كلها شجاعة وإقدام ، ولكنه إقدام السكارى المخمورين ، هذا إلى عزف آلات موسيقية ؛ ويأخذ خفاف الأحلام فى رفع عقيرتهم أكثر فأكثر كل يطاول أخاه خفة ويطاوله ضجة وعجيجا . فأما صاحبة الجلالة وهى تبدو الليلة محزونة الفؤاد بشكل غير عادى (وصاحب الجلالة جالس قد ملأه القنص فى طول يومه بالتبلد) ، فهم يخبرونها أن منظر الوليمة سيدخل إلى فؤادها السرور . انظروا إليها إنها تدخل هناك خارجة من حجراتها الفاخرة خروج القمر من بين أطباق الغمام ، هذه الملكة التاعسة أبدع مليكة على عرش الأفئدة ؛ يسير إلى جوارها الزوج الملكى ، وولى العهد الصغير بين ذراعيها . وها هى ذى تنزل من المقاصير ، بين مظاهر الروعة والفخامة والتهليل ، وتسير حول المناضد سير الملكات ؛ وهى تحنى رأسها برشاقة ؛ وتنظر نظرات تنم عن الحزن والأسى ، يخالطه مع ذلك معنى الشكران والإقدام ، وعلى صدرها الأموى الحنون معقد رجاء فرنسا المنتظر . ثم تعزف الجوقة الموسيقية : يا ريكارد —

يا — يا — مليكى ، إن العالم يتخلى — عنك . فهل يستطيع الإنسان أن يفعل أكثر من أن تتعالى به العواطف إلى أقصى حد شفقةً وولاء وشجاعة ؟ وهل يستطيع الضباط الشبان خفاف الأحلام إلا أن يظهروا بواسطة قبعاتهم البوربونية البيضاء ، التى سلمتها إليهم الأنامل الجميلة ؛ وبتلويح السيوف التى استلت للقسم على صحة الملكة ؛ والدوس على القبعات القومية بالأقدام ، وبتسلق المقاصير التى قد يصدر منها أصوات تدخّل أو احتجاج ، وبالصياح بأنكر الأصوات وأشد الحنق وفقدان الرشد فى الداخل والخارج — مبلغ الحالة الجوفاء العاصفة التى هم عليها أثناء تناولهم النخب ؟ .

« وليمة طبيعية ؛ هى فى الأوقات العادية أكلة لا ضير فيها ولكنها الآن قتالة . . فإن مارى انطوانيت المسكينة قد تجمّع حولها نصحاء السوء ، وحفلت بما فى المرأة من حدة الطباع ، وحرمت بُعد نظر الملوك ! فالأمر إذن طبيعى جداً وهو مع ذلك من الحماقة بمكان . ففى اليوم التالى تصرح جلالتها فى خطبة رسمية عامة أنها مبتهجة بيوم الخميس » . ولنضع مقابل هذا تصوير كارليل لحالة الشعب .

« تستيقظ « الأمومة » فى صبيحة الإثنين فى طوابق السطوح القذرة ، فتسمع أطفالها يبكون طالبين الخبز . ولا بد للأمومة من الإنطلاق إلى الشوارع وإلى صفوف (طوابير) باعة الخضر والخبازين . حيث تلتقى بأمومة قد أضرت بها المخمصة ، وهى مليئة بالعطف عليها والإثارة لها . يا لنا من نساء تعسات ! ولكن بدلا من الوقوف فى صفوف الخبازين لماذا لا نذهب إلى قصور الارستقراطية التى هى الشر كله ؟ هيا بنا Allons . ولنجتمع . هيا إلى دار البلدية . . وإلى فرساى . . . » .

وحدث فى باريس الشىء الكثير من الصياح والمجىء والذهاب ، قبل أن تحققت هذه الفكرة الأخيرة . وظهر فرد اسمه مايّار له قدرة على التنظيم ، واتخذ لنفسه نوعاً من الزعامة . وليس هناك أقل ريب فى أن زعماء الثورة ، والجنرال لافاييت بوجه خاص ، قد استخدموا ونظموا هذا الإنفجار للحصول على الملك ، قبل أن يفلت من أيديهم — كما أفلت شارل الأول إلى أكسفورد — ليبدأ حرباً أهلية . وشرعت المظاهرة وقد تقدم الأصيل ، تسير رحلتها المكونة من أحد عشر ميلا .

وها نحن نعود إلى الاقتباس من كارليل :

«كان مايار Maillard قد أوقف من يقودهم من المشردين المشعثين على قمة آخر تل ؛ وعند ذلك تبدو لعين الرائى المتعجب ڤرساى وقصر ڤرساى وميراث الملكية المترامى الأطراف . ومن على بعد فى الناحية اليمنى فوق مارلى (وسان جرمين إن لاى) حتى الناحية الأخرى نحو رامبوييه ، إلى اليسار ، مناظر كلها جمال ؛ وهى ترقد فى رفق ؛ كأنما يخيم عليها الحزن فى أحضان ذاك الجو المعتم الرطب ! وأمامنا تبدو عن كثب ڤرساى قديمها وجديدها . وبينهما ذلك الشارع العريض الظليل شارع ڤرساى ، وهو شارع شجره فخم الإيراق رحيب يبلغ عرضه فيما يقدرون ثلاثمئة قدم ، وقد امتدت به صفوفه الأربع من شجر الدردار ؛ ثم يبدو بعد ذلك قصر ڤرساى ، منتهياً بجنات ملكية ومروج غناء وبرك صغيرة متلألئة ، وعرائش عظيمة عدا بيوت التيه (لا بيرانت) ومجموعة وحوش ضارية والتريانون الكبير والصغير ؛ ومساكن عالية الابراج ، وأماكن مورقة ممتعة ؛ يسكنها آلهة هذا العالم السفلى . ومع ذلك لا يمكن أن نستبعد منها الهموم القاتمة الشوهاء ، وإليها كان الجوع المشرد يتقدم آنذاك ، مسلحاً بالقضبان ذات الرءوس . » وسقط المطر عندما خيم المساء .

فانظر تر الميدان كله وقد تغطت جميع جنباته الفسيحة ، بجماعات من نساء قذرات يقطر منهن ماء المطر ؛ ومن رجال من الدهماء الأسافل ناحلى الشعور وهم مسلحون بالبلط ، والخوازيق الصدئة والقرابينات القديمة ، والمراوات ذات الحدائد (Batons ferres) والعصى التى تنتهى بسكاكين أو نصال سيوف ، ونوع من الخطاطيف التى اصطنعوها بأيديهم ارتجالا ، وليس يبدو عليهم إلا أنهم عصاة جياع . وينهمر المطر والحرس الخاص يتنقل مختالا بخيله وسط الجماهير التى تفح عليه كالأفعى ؛ وتسخر منه وهو يهيج ويستثير من أمامه من الجماعات ما يتفرق هاهنا لكى يتجمهر هنالك .

« ويحيط عدد لا حصر له من النساء القذرات بالرئيس والوفد ؛ ويصرون على الذهاب معه : ألم يرسل جلالته بنفسه بعد أن نظر من النافذة ، من خرج ليسأل عما نريد ؟ نريد الخبز . والكلام مع الملك ، ذلكم هو الجواب . ويضاف إلى الوفد

بين الصخب الشديد والجلبة اثنتا عشرة امرأة ؛ ثم يسرن معه مظفرات عبر الميدان . وبين جماعات متفرقة من الحشد ، ورجال من الحرس الخاص ، يتحركون بجيادهم تحت المطر المنهمر . »

« الخبز . . . ، مع عدم الإكثار من الكلام ! . . . » طلبات طبيعية .

ويتردد على الأسماع أيضا أن العربات الملكية أخذت تشد إليها الخيول ، كأنما هي ذاهبة إلى مدينة متز . وقد ظهرت بالفعل عند البوابة الخلفية عربات سواء أكانت ملكية أم لم تكن . بل إنهم أبرزوا أو استشهدوا بأمر كتابي من بلدية ڤرساى — وهي بلدية ملكية وليست ديمقراطية . ومع هذا فإن داوريات ڤرساى أدخلتها ثانية ، بأمر مشدد إليهم من ليكوانتر اليقظ . . . . « وهكذا احلولكت أشباح الليل ، بين العجيج والمطر ؛ أصبحت كل الممرات معتمة مظلمة . وهي أعجب ليلة شوهدت في تلك الأماكن . وربما كان ذلك منذ ليلة بارثولوميو[1] عند ما كانت ڤرساى — كما كتب ذلك باسومبير — قصرا هزيلا ، « فأنالنا بقيثارة أورفيوس[2] ليضطر بلمسة من أوتاره الشجية هاته الجماهير المجنونة إلى التزام النظام ! إذ كان يبدو أن كل شيء ها هنا قد تشتت وتبدد وخرج عن موضعه خروجا بعيداً . وأخذ أعلى الناس قدراً في الدنيا — كأنما يجذبهم تيار إلى أسفل — يتصلون بأدنى الناس . أخذت دهماء فرنسا وزعانفها وأنذالها تطيف بملكية فرنسا وأقيالها . ورفعت الهراوات ذوات الرءوس الحديدية حول التاج لغاية أخرى غير حراسته ! وانطلقت مع السباب الموجه للحرس الخاص ترميه بالتعطش للدماء والمضادة للوطنية ، دمدمات قاتمة تزمجر اسما للملكة .

« ويجتمع البلاط مرتعدا لا يقدر على شيء : ويتقلب رأيا مع تقلب أهواء الميدان ،

---

(١) بارثولوميو : يشير الكاتب هنا إلى مذبحة الهوجنوت التي حدثت بباريس في عيد القديس بارثولوميو في ٢٤ أغسطس ١٥٧٢ بأمر الملكة كاترين دى مدسيس . (المترجم)

(٢) أورفيوس : تمثله الأساطير في صورة أبرز شاعر قبل هومر ، وهو يحمل قيثارة كان يسبى بساحر أنغامها لا الكائنات الحية وحدها بل إن الأنهار والصخور كانت تطرب بشجى أنغامه وتخضع لأوامره . (المترجم)

ومع تنوع ألوان الشائعات الآتية من باريس . شائعات تأتى متكاثفة تنبىء آونة عن السلم وآنا عن الحرب . ويتشاور نيكر والوزراء كافة ، فلا يخرجون بنتيجة . والقاعات تجتاحها عاصفة هوجاء من همسات : لسوف نفر إلى متز ! بل لن نفر! وتحاول المركبات الملكية الخروج مرة ثانية . . . وإن كان ذلك لمجرد المحاولة . على أنها تدفع إلى الداخل مرة ثانية ، تدفعها دوريات ليكوانتر »

ولزام علينا أن نحيل القارئ إلى كارليل ليعلمه بقدوم الحرس الوطنى ليلا تحت قيادة الجنرال لافاييت نفسه ، وبالمساومة بين الجمعية والملك ، واندلاع نار القتال فى الصباح بين الحرس الخاص والمحاصرين الجياع ، وكيف دخل الآخرون القصر عنوة وأوشكوا أن يعملوا فى الأسرة المالكة ذبحاً . وجاء لافاييت وجنوده فى الوقت المناسب فحالوا دون ذلك . ووصلت للجمهور الجائع من باريس فى الوقت الملائم عربات محملة بالخبز . وأخيراً استقر الرأى على وجوب ذهاب الملك إلى باريس .

« إن مسير المواكب الاحتفالية أمر لم يشهد عالمنا منه القليل ؛ فهناك مواكب النصر والترحيب بالأبطال لدى الرومان ، وهناك دق الصنوج الكابرية Cabiric[1] والمواكب الملكية والجنازات الإرلندية ؛ ولكن هذا الركب المنطلق بالملكية الفرنسية وهى تسير إلى مهدها أمر ينتظرنا لنشهده . فعلى أمتداد أميال عديدة بعرض يتلاشى فى زوايا الغموض والابهام — ذلك أن كل المنطقة المجاورة تتجمهر لتطلع . يسير الجمع فى بطء ويركد فى مضيه حتى ليكاد يأسن ، كأنه بحيرة بلا شواطئ ، ولها مع ذلك لجب ضجة تشبه ضجة شلالات نياجارا ، أو تشبه بابل وبدلام[2] . ويحدث ضرب بالأرجل فى الماء ودوس بها على الأرض . ثم ارتفاع أصوات بالهتاف والعجيج وإطلاق وابل من طلقات القرابينات ؛ إنها أصدق قطعة من الفوضى شوهدت فى تلك العصور الأخيرة ! حتى تصب نفسها رويداً رويداً ساعة عتمة

---

(١) الكابرى Cabiri : مجموعة من الآلهة كانت تعبد فى الأزمنة القديمة بآسيا الصغرى وأجزاء من بلاد اليونان . وكانت قوى شيطانية فى العالم السفلى كما كان يعتقد أنها المتحكمة فى الخصوبة . (المترجم)

(٢) بدلام : أقدم مستشفى للمجانين بأوربا . (المترجم)

الغسق المتكاثفة ، فى باريس المنتظرة ، بين صف مزدوج من الوجوه يمتد من پاسّى إلى دار البلدية .

« تأمل هذا : مقدمة من جند الحرس الوطنى ، من خلفها أرتال من المدفعية ؛ ورجال يحملون الرماح ونساء بالحراب ، يركبون المدافع والعربات والمركبات ، أو يسيرون على الأقدام . . أرغفة قد رشقت على سن السونكيات ، وغصون خضراء قد رفعت فى أنابيب البنادق . ثم يأتى بعد ذلك الموكب الرئيسى ، خمسون عربة محملة بالقمح ، أقرضت لهم من مخازن فرساى التماساً للسلام . يسير من خلفها جماعة لا وجهة لهم من رجال الحرس الخاص ؛ وقد غلبت عليهم الذلة وهم فى قبعات الحرس المشاة (الجرينادير) . ومن خلف هؤلاء مباشرة تأتى المركبة الملكية . ثم تأتى مركبات ملكية . إن هناك مئة من النواب الوطنيين كذلك ، يجلس ن بينهم ميرابو وهو لا يبدى أية ملحوظة . ثم يأتى خليط من الحابل والنابل يسيرون كأنهم حرس المؤخرة ، من الفلاندريين ، والسويسريين والمئة سويسرى وآخرون من الحرس الخاص وقطاع طرق وكل من لا يستطيع أن يتقدم إلى الأمام .

وفيما بين أطواء هذه الجموع تفيض بغير حدود أهالى حى سانت أنطوان وكتيبة التشرد النسائية . ويسير النساء بوجه خاص حول المركبة الملكية . . متشحات بالألوان الثلاثة وهن يغنين أغانى كلها الهمز واللمز ، ويشرن بإحدى أيديهن إلى المركبة الملكية التى يقصدن بها ذلك اللمز ، ويشرن باليد الأخرى إلى عربات الأطعمة ، وتعلن هذه الألفاظ : تشجعوا أيها الإخوان ! : فلن نحتاج بعد الآن إلى الخبز ، إنا محضرون لكم الخباز والخبازة وابن الخباز . .

« ويلوث المطر الألوان المثلثة ، ولكن لهيب السرور متقد لايستطيع إطفاءه أى شىء . ألم يصبح كل شىء الآن على ما يرام ؟ قال بعض هؤلاء النساء القويات بعد ذلك ببضع أيام — آه يامدام ياملكتنا الطيبة ، لا تعودى إلى الخيانة مرة أخرى حتى نحبك كلنا ! » .

كان ذلك هو يوم ٦ أكتوبر ١٧٨٩ . وأقامت الأسرة المالكة فى التويلرى قرابة

سنتين لم يكدر صفوها أثناءهما مكدر . فلو أن البلاط حافظ على عهده العادى مع الشعب ، فلعل الملك كان يموت هناك وهو بعد ملك . حافظت الثورة الأولى على كيانها من ١٧٨٩ إلى ١٧٩١ ، وأصبحت فرنسا ملكية مقيدة ، واحتفظ الملك بسلطان منقوص فى قصر التويلرى ، وطفقت الجمعية الوطنية تحكم قطراً شمله السلام . فلو أن القارئ رجع إلى خرائط بولندة التى قدمناها فى الفصل السالف ، لعرف ما كان يشغل الروسيا وبروسيا والنمسا فى ذلك الأوان . فعلى حين كانت فرنسا تنشىء التجارب فى جمهورية متوجة فى الغرب ، كان يجرى آخر تقسيم للجمهورية المتوجة[١] فى الشرق . وماذا لو أمهلت فرنسا قليلا .

وإذا نحن تذكرنا عدم خبرة الجمعية ، والظروف التى كانت تعمل فى كنفها ، والتغييرات المحيطة بكل شئونها ، وجب علينا أن نسلم بأنها قامت بقدر جسيم جداً من العمل الإنشائى . وكان الشيء الكثير من ذلك العمل سليماً قوياً وما يزال باقياً إلى اليوم ، وكان كثير منه تجريبيا . فهدم ونقض . وكان فى بعضه الكوارث . فتمت تنقية قانون العقوبات ؛ وألغى التعذيب ، والحبس التعسفى ، والاضطهادات الدينية . وأحلت مقاطعات فرنسا القديمة : نورمانديا وبورغانديا وأشباههما مكانها لثمانين محافظة أو قسما إداريا وجعل باب الترقى إلى أقصى رتب الجيش مفتوحاً للرجال من كل الطبقات . وأقيم نظام بديع بسيط من المحاكم ، ولكن أفسده كثيراً أن القضاة كانوا يعينون بانتخاب شعبى ولأجل قصير . فكان هذا الأمر يجعل من الجمهور نوعا من محكمة استئناف نهائية ، واضطر القضاة — شأن أعضاء الجمعية أن يمثلوا لأهل الشرفة[٢] . واستولت الدولة على جميع ما كان للكنيسة من أملاك هائلة وأخذت تديرها بنفسها . وقوضت كل المؤسسات الدينية التى لا تشتغل بالتعليم أو الإحسان ، وجعلت مرتبات رجال الدين فرضاً على الأمة . ولم يكن هذا فى حد ذاته شيئاً تكرهه الطبقة الدنيا من رجال الدين بفرنسا ، الذين كانوا فى غالب

---

(١) يريد بها المؤلف دولة بولندة التى اقتسمتها تلك الدول الثلاث . انظر المعالم ص ١١١٦ وما بعدها ج ٤ ط ٢ . (المترجم)

(٢) وهو تعبير مجازى : معناه محاولة الحصول على الشعبية باسترضاء وممالأة أذواق الدهماء وتحيزاتها وأهوائها . (المترجم)

الأحيان يتناولون أجوراً بخسة بشكل فاضح بالموازنة إلى رؤسائهم الأكثر ثروة . ولكن أضيف إلى ذلك أن وظائف القسيسين والأساقفة جعلت بالانتخاب ، وهو أمر أصاب الفكرة الأساسية للكنيسة الكاثوليكية فى الصميم ، وهى التى كانت تمركز كل شىء حول البابا ، والتى تأتى فيها السلطة من أعلى إلى أسفل . والواقع العملى أن الجمعية الوطنية أرادت أن تجعل الكنيسة الفرنسية بروتستانتية بضربة واحدة ، بروتستانتية فى التنظيم إن لم يكن فى المبادئ . وحدثت فى كل مكان مناقشات ومنازعات بين قسوس الدولة الذين أنشأتهم الجمعية العمومية وبين القسيسين المعاندين (الذين لا يحلفون اليمين) ، الذين أخلصوا الولاء لروما .

وهناك شىء عجيب فعلته الجمعية الوطنية فكان من أثره أن أضعف من قبضتها على زمام الأمور . إذ أنها أصدرت مرسوماً يقضى بأن لا يكون أى عضو من أعضائها وزيراً تنفيذياً . وكان ذلك محاكاة منهم للدستور الأمريكى ، حيث الوزراء هناك أيضاً منفصلون عن الهيئة التشريعية . وكانت الطريقة الانجليزية تقضى بأن يكون كل الوزراء أعضاء فى الهيئة التشريعية ، وأن يكونوا على استعداد للإجابة على الأسئلة وتقديم الحساب عن تفسيرهم للقوانين وإدارتهم لشئون الشعب . فإذا كانت الهيئة التشريعية تمثل الشعب ذا السيادة ، وجب إذن ولا شك أن يكون الوزراء على أوثق إتصال بسيدهم . وتسبب عن فصل الهيئة التشريعية عن التنفيذية بفرنسا حدوث كثير من سوء التفاهم وعدم الثقة . إذ كانت السلطة التشريعية تعوزها السيطرة والسلطة التنفيذية فقيرة فى القوة المعنوية . فأفضى هذا إلى أن أصبحت الحكومة المركزيه غير فعّالة إلى حد أنه كانت تكتشف فى كثير من النواحى فى ذلك الزمان كوميونات (أحياء) ومدن يتبين أنها مجتمعات تحكم نفسها بنفسها أو تكاد ؛ فكانوا يقبلون أوامر باريس أو يرفضونها حسبما يمليه عليهم هواهم ، ويأبون دفع الضرائب ، ويقتسمون أرض الكنيسة طبقاً لمشتهياتهم المحلية .

١٠ – ثورة اليعاقبة

من المحتمل جداً أنه لو أن الجمعية الوطنية حصلت على عون من التاج يتجلى فيه الإخلاص ووطنية يتبدى فيها التعقل من جانب النبلاء ، فعسى أن كانت تلك الجمعية

تتعثر فى طريقها حتى تصل إلى شكل ثابت لحكومة برلمانية لفرنسا — بالرغم من شرفائها العالية العجيج وبالرغم من غلبة روح روسو عليها ومن ضؤولة خبرتها — وكان لها فى ميرابو رجل دولة له بصيرة نافذة باحتياجات العصر . وكان يعرف مواطن القوة والضعف فى النظام البريطانى ، وكان جليا أنه قد نصب نفسه ليؤسس فى فرنسا نظاماً سياسياً مماثلا للإنجليزى على أساس اقتراع أفسح مجالا وأشد أمانة وشرفاً . حقاً إنه قد استمرأ نوعا من الغزل الروريتانى[1] مع الملكة وكان يلقاها خفية ، ويصرح عنها جاداً غير مازح أنها هى « الرجل الوحيد » حول الملك ، ويكاد فى هذا الأمر أن يصم نفسه بالغباء والحماقة . على أن خططه كانت تقوم على نطاق أوسع كثيراً من نطاق سلالم التويلرى الخلفية : ولا شك أن فرنسا فقدت بموته ١٧٩١ واحداً من أشد سياسييها قدرة بناءة ، وكذلك فقدت الجمعية الوطنية آخر فرصة للتعاون مع الملك : وحيثما وجد بلاط ملكى كان هناك فى العادة التآمر ، وكانت تدبيرات الملكيين وبث الملكيين للشر آخر قشة يضعونها فى كفة الميزان ضد الجمعية الوطنية . ولم يكن الملكيون يهتمون بميرابو ولا كانوا يهتمون بفرنسا ؛ وكل ما كانوا يريدونه هو الرجوع وكَفِّى إلى فردوس امتيازاتهم المفقود ، وإلى صلفهم ، وسرفهم الذى لا حد له . وخيل إليهم أنهم لو استطاعوا فقط أن يعقدوا الأمور على حكومة الجمعية الوطنية ليجعلوا إدارتها للشئون أمراً مستحيلا ، فإن العظام الرميم النخرة عظام الدولة القديمة لابد أن تبعث من جديد حية بمعجزة من المعجزات . ولم يخالجهم أى إدراك للاحتمال الآخر وهو هوة الجمهوريين المتطرفين التى كانت فاغرة فاها تحت أقدامهم .

وفى إحدى ليالى شهر يونية من ١٧٩١ ، حدث بين الساعة الحادية عشرة ومنتصف الليل ، أن الملك والملكة وطفليهما إنسلوا متنكرين من قصر التويلرى ثم اخترقوا باريس وجلين ، وداروا من شمال المدينة إلى الشرق ، حتى وصلوا

---

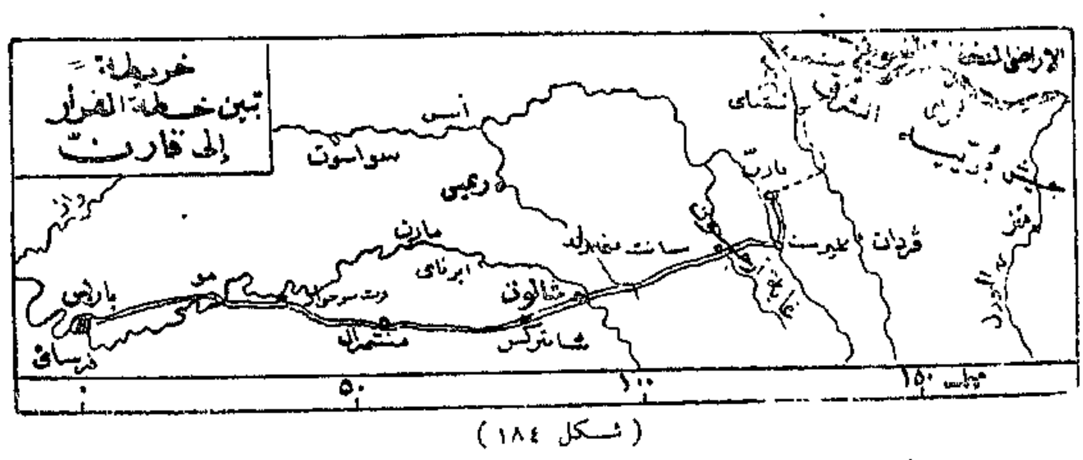
(١) فى ذلك إشارة إلى رواية سجين زندا التى عشق الملكة فيها نبيل إنجليزى عشقا عذرياً .
(المترجم)

آخر الأمر إلى عربة سفر كانت معدة لنقلهم إلى شالون . كانوا يفرون للانضمام إلى جيش الشرق إذ كان جيش الشرق « مواليا » أى أن قائده وضباطه على الأقل كانوا على استعداد للتخلى عن فرنسا وللإنضمام إلى الملك وبلاطه . وهكذا وصلنا آخر الأمر إلى المغامرات التى تروق فؤاد الملكة ، ويستطيع الإنسان أن يتخيل ويفهم النشوة والسرور يعم الفئة الصغيرة والأميال تباعد بينها وبين باريس . وكان ينتظرهم فوق التلال البعيدة ، التوقير والانحناء العميق ولثم الأيدى ثم تأتى العودة إلى فرساى . وإطلاق يسير للنار على دهماء باريس وبعض طلقات من المدافع إذا استلزم الأمر وإعدام بعض الناس وإن لم يكونوا من ذوى المكانة . وعهد إرهاب أبيض[1] يستمر أشهراً قلائل . ثم يعود كل شيء فيصبح على خير ما يرام . وربما عاد كالونى أيضاً ومعه تدبيرات مالية جديدة . وكان فى ذلك الوقت مشغولا بجمع المدد من بين ظهرانى الأمراء الألمان . وهناك عدد جم من القصور لا بد من إعادة بنائها ، ولن يكاد يكون فى مستطاع القوم الذين أحرقوها أن يتشكّوا إن وقع عبء إعادة بنائها ثقيلا فادحاً نوعا ما على أعناقهم القذرة .

على أن كل هذه الأمانى الزاهية المرجوة ما لبثت حتى تحطمت فى تلك الليلة تحطماً قاسياً عند ڤارن" . فإن صاحب دار خيل البريد عرف الملك فى سانت مين هولد ، وبينما الليل يرخى سدوله كان ينطلق فى جو الطرق المؤدية شرقاً وقع سنابك خيول الرسل وهم يوقظون البلاد ويحاولون أن يقطعوا الطريق على الهاربين . وكان هناك خيل أخرى على أهبة الانتظار فى القرية العليا من ڤارن" وكان الضابط الشاب المنوط بالنوبة قد انصرف عن الملك فترة الليل وآوى إلى فراشه — على حين ظل الملك المسكين مدة نصف ساعة فى القرية السفلى وهو يتنازع مرتديا ثياب الخدم — مع الحوذى والسواس الذين كانوا يتوقعون أن يجدوا أبدالهم فى القرية السفلى ويرفضون أن يتقدموا بالعربة خطوة واحدة . وأخيراً رضوا أن يواصلوا المسير . ولكن رضاءهم جاء بعد فوات الأوان . فإن الفئة القليلة

(١) كان اللون الأبيض شعار آل بوربون . (المترجم)

وجدت هناك ناظر البريد بسانت مين هولد — بعد أن سبقها والسواس فى لجاجهم يجادلون — ومعه ثلة قد جمعها من الجمهوريين المحترمين فى ڤارن ؛ وانتظر بها عند الجسر الموصل بين جزئى المدينة . وأقيمت على الجسر المتاريس . وصوبت القرابينات إلى المركبة ، وقيل لمن فيها : « جواز سفركم ! » عندئذ سلم الملك بدون مقاومة . وأخذت الفئة الصغيرة إلى منزل أحد موظفى القرية . قال الملك « حسناً ! ها أنا ذا بين أيديكم ! » ثم ذكر كذلك أنه جوعان . وأثنى أثناء تناوله الطعام على النبيذ وقال « نبيذ ممتاز جداً » ولم يسجل أحد لنا ما قالته الملكة . وكانت هناك جنود ملكية على مقربة من المكان ولكنهم لم يحاولوا أن ينقذوا الملك . وأخذ جرس الخطر يدق وأضاءت القرية نفسها تحرزا من المباغتة .



(شكل ١٨٤)

ومن ثم عاد إلى باريس حمل العربة الملكية مهيضاً ذليلا ، وقابلته جماهير غفيرة فى صمت وسكون . إذ سرى بين الجماهير النذير بأن من اجترأ على إهانة الملك جلد ، ومن هتف له يقتل . .

لم يحدث إلا بعد هذه المغامرة الحمقاء أن استولت فكرة الجمهورية على أذهان الفرنسيين . أجل كانت تخالج الناس لا ريب قبل هذا الفرار إلى ڤارن عاطفة مبهمة نحو الجمهورية ، ولكن لم يكد أن يكون فى فرنسا أحد من الناس يجهر برغبته فى إلغاء الملكية . وقد حدث حتى فى شهر يولية يوم لم ينقض على الفرار إلا شهر واحد ،

حين عقد اجتماع عظيم فى شان دى مارس (Champ de Mars) : لتعضيد القيام بملتمس بعزل الملك — أن فرقت السلطات شمله ، وقتل فيه خلق كثير ، ولكن هذه مظاهر الحزم لم تحل بين الدرس المستفاد من ذلك الفرار وبين التغلل إلى أذهان الرجال . وكما حدث فى انجلترة فى أيام شارل الأول فكذلك حدث الآن فى فرنسا ، أن أدرك الناس أن الملك لم يكن ليؤتمن — وأنه مصدر خطر . وقويت شوكة اليعاقبة بسرعة . وشرع زعماؤهم روبسپير ودانتون ومارا الذين كانوا يلوحون حتى آنذاك غلاة مستحيلين ، أن يتسلطوا على الشئون الفرنسية .

وكان هؤلاء اليعاقبة نظير الراديكاليين الأمريكيين ، وهم رجال ذوو فكرات تقدمية ضارية غير مروضة . وتقوم قوتهم على خلوهم مما يعوق الناس من مال أو سلطان وأن لهم مضاء واستقامة . كانوا رجالا فقراء ليس لديهم ما يخشون فقدانه . وكان حزب : « الاعتدال » والتفاهم مع بقايا النظام القديم يقوده رجال من ذوى المكانة الوطيدة أمثال الجنرال لافاييت ، الذى ميز نفسه فى شبابه بقتاله متطوعاً فى صفوف المستوطنين الامريكيين ، وميرابو وهو أرستقراطى كان على استعداد أن يصوغ نفسه على غرار أرستقراطية الانجليز الأغنياء الواسعى النفوذ . بيد أن روبسپير كان محامياً شاباً فقيراً ذكياً من أراس ، كان أثمن ما يملكه هو إيمانه بروسو ؛ وكان دانتون محامياً هو الآخر بباريس ، ولكنه لا يكاد يفوقه ثراء ، وكان شخصاً ضخماً كثير الإشارة بليغ العبارة ميالا إلى الأسلوب الخطابى ، فأما مارا فكان رجلا أسن منهما وكان سويسرياً على شىء من الامتياز العلمى وإن عادلها فى انطلاق سراحه من كل ما يكبل الناس من الاموال والممتلكات . قضى سنوات عديدة فى انجلترة وكان يحمل شهادة الدكتوراه الفخرية فى الطب من جامعة سانت أندروز ، وله فى علم الطب بعض مقالات قيمة نشرها بالانجليزية . وكان كتابه فى علم الفوزيقى موضع إعجاب كل من بنيامين فرانكلين وجيته . فهذا هو الذى يسميه كارليل « الكلب الكليب » و « الفظيع » و « القذر » و « مطبب الكلاب » . ولعل هذه الكنية الأخيرة جاءت من قبيل الاعتراف بفضل علمه ! !

دعت الثورة مارا أن يخوض غمار السياسة ، وكانت أقدم ثمار قريحته التى

أدلى بها فى معمعان جدلها العظيم تمتاز بالسداد وسلامة التفكير . وكانت تنتشر فى فرنسا فكرة خاطئة تقول بأن انجلترة أرض حرية . ولكن مقالته التى جعل عنوانها « عيوب الدستور الانجليزى » تبين حقيقة الأوضاع الانجليزية . وقد جن جنونه فى سنيه الأخيرة لاصابته بمرض جلدى لا يكاد يطاق انتقل إليه عندما كان مختبئاً إبان الثورة فى مجارى باريس فراراً من عواقب اتهامه الملك ووصفه إياه بالخيانة بعد فراره إلى ڤارن . ولم يكن ليستطيع أن يجمع شوارد ذهنه للكتابة إلا وهو جالس فى حمام حار . لقد لقى معاملة شديدة وقاسى الآلام ، فأصبح شديداً قاسى الفؤاد ، ومع هذا فإنه يبرز فى التاريخ بوصفه رجلا ذا نزاهة ممتازة . ويلوح أن فقرة بوجه خاص كان يستثير سخرية كارليل منه .

« يا لطول الطريق الذى يقطعه ! ! وها هو الآن يجلس عند قرابة الساعة السابعة والنصف ، وهو يسلق نفسه فى حمامه ، متقرح الجسد ، مصاباً بالسقام ، مريضاً بحمى الثورة . . . رجلا عليلا مضنى مفرطاً فى العلة والضنى ، فقيراً مملقاً معه من النقود ما يعادل بالضبط أربعة قروش وستة مليمات من العملة الورقية ، مع حمام على صورة حذاء ، ونضد للكتابة متين بثلاثة أرجل ، ومتاعب ، ومعه غسالة قذرة تقوم بمرافق بيته . . . ذلك هو مسكنه ومثواه فى شارع مدرسة الطب . وإلى هذا المكان دون أى مكان آخر اقتاده سبيله . . . أنصت ! فإن هناك طرقاً ثانياً ، وإن هناك لصوتاً موسيقياً لامرأة ، وهى تأبى أن تحرم الدخول : إنها هى المواطنة التى تريد أن تؤدى لفرنسا خدمة . وإذ يسمع ماراً الحوار من الداخل ، يصيح أن أدخلها . ويؤذن لشارلوت كورداى بالدخول » .

وقد عرضت البطلة الشابة أن تقدم إليه بعض المعلومات الضرورية حول الثورة التى قامت ضدهم فى كاين ، وبينما هو مشغول فى تدوين ما أدلت به من حقائق ، طعنته بسكين كبيرة ذات غمد (١٧٩٢) . . .

تلك صفة معظم زعماء حزب اليعاقبة . فإنهم كانوا رجالا لا أملاك لهم ، رجالا لا قيد من ثم يغل أيديهم . وكانوا أقل ترابطاً بعضهم ببعض وأقرب إلى الطبيعة الاصلية من أى حزب آخر . وكانوا على استعداد أن يدفعوا بفكرات الحرية والمساواة إلى غاية متطرفة منطقية . وكانت معايير الفضيلة الوطنية عندهم عالية وخشنة وكان

هناك شيء غير إنسانى حتى فى حميتهم لحب الخير : وكانوا ممتعضين مما يرون من ميل المعتدلين إلى تلطيف الأمور وتسكينها ، وإلى إبقاء العامة فى حالة احتياج هونا ما وإلزامهم احترام للغير شيئاً ما ، وأن يجعلوا الملكية (وذوى الاعتبار من الرجال) موقرين قليلا ما ، وقد أعمتهم عبارات مذهب روسو عن الحقيقة التاريخية القائلة بأن الإنسان يكون بطبعه إما ظالماً أو مظلوماً ، وأن الناس لن يجعلوا سعداء أحراراً إلا ببطء بواسطة القانون والتعليم وروح المحبة فى العالم .

وبينما حدث فى أمريكا أن صيغ ديمقراطية القرن الثامن عشر كانت فى جملتها مستنهضة للناس معينة لهم ، لأنها كانت بالفعل أرض المساواة العملية فى الهواء الطلق ما اختص الأمر بالبيض من الرجال ، فقد انتجت هذه المبادئ فى فرنسا خليطا جنونيا خطراً على سكان المدن لأن أجزاء جسيمة من مدن فرنسا كانت أحياء فقيرة مليئة بأقوام ممن جردوا من أملاكهم وانحلت أخلاقهم وانحطت مرتبتهم وتمررت أرواحهم . وكانت جماهير باريس بوجه خاص فى حالة يأس مخطرة ، لأن صناعات باريس كانت فى معظمها صناعات ترف . وكان الشيء الكثير من أعمالها من النوع الطفيلى الذى يعيش على نقائص الطبقة الراقية ورذائلها . والآن وقد ولى عالم أهل النعيم وذهب إلى ما وراء الحدود ، وصار الحال إلى التضييق على المسافرين ، وداخل الاضطراب الأعمال ، أصبحت المدينة مليئة بأقوام عاطلين غاضبين . ولكن الملكيين بدل أن يدركوا حقيقة هؤلاء اليعاقبة وما هم عليه من أمانة خطرة وما لهم من سلطان خطر على خيال الدهماء ، قد بلغ من اغترارهم بأنفسهم أنهم ظنوا أن فى إمكانهم أن يتخذوا منهم أداة يعملون بها . وكان موعد إحلال الجمعية التشريعية محل الجمعية الوطنية تطبيقا للدستور الجديد قد قرب أوانه ، وعندما اقترح اليعاقبة بقصد تمزيق شمل المعتدلين ألا يكون لأحد من أعضاء الجمعية الوطنية الحق فى عضوية الجمعية التشريعية ، انضم إليهم الملكيون فى جذل عظيم وأنفذوا الاقتراح . ذلك أنهم أدركوا أن الجمعية التشريعية وقد اجتثت منها على تلك الشاكلة كل خبرة وتجربة ، سوف تكون ولا مرية هيئة ذات كفاية من الناحية السياسية . وعند ذلك يعود عليهم

« الإفراط في الشر بالخير العميم » ، وعند ذلك تعود فرنسا فتهوى صريعة لا معين لها في أيدي سادتها الشرعيين . هكذا دبروا وقدروا . بل لقد فعل الملكيون أكثر من هذا . فإنهم ناصروا انتخاب أحد اليعاقبة عمدة لباريس . وكأني بهذا التصرف في ذكاء من يجتلب إلى منزله نمراً جائعاً ليقنع زوجته بحاجتها إليه . وهي هيئة أخرى تقف مستعدة عن كثب وإن لم يحسب هؤلاء الملكيون حسابها ، وكانت أحسن عدة من البلاط وأقدر على التقدم أماما والحلول محل جمعية تشريعية غير فعالة ، تلك هي كوميون باريس (أي هيئتها البلدية) القوى وهي هيئة قوية النزعات اليعقوبية مقرها دار البلدية .

وكانت فرنسا ما تزال حتى ذلك الحين تستظل السلام . فلم يهاجمها أحد من جيرانها ، لما بدا لهم من إضعافها نفسها بانقساماتها الداخلية . فأما الضحية التي قاست الآلام من جراء ارتباك الحالة في فرنسا فهي بولندة . ولكن لم يكن لدى جيرانها مانع يحول دون إهانتها وتهديدها وتمهيد السبيل لاقتسام تام عند ما يحلو لهم ذلك . واجتمع ملك بروسيا وإمبراطور النمسا في بلنيتز Pilnitz ١٧٩١ ، وأصدرا تصريحا يقول إن إعادة النظام والملكية في فرنسا أمر له أهميته لدى كل الملوك . وسمح الجيش من المهاجرين ونبلاء الفرنسيين وسراتهم وهو جيش يتكون في معظمه من الضباط — بالتجمع على مسافة دانية من الحدود .

وكانت فرنسا هي البادئة بإعلان الحرب على النمسا . وكانت الدوافع التي خالجت نفوس من ناصروا هذه الحركة دوافع متنازعة . فإن كثيراً من الجمهوريين كانوا يرغبون في ذلك لأنهم كانوا يشتهون أن يروا ذوي قرباهم سكان بلجيكا وقد تحرروا من النير النمسوي . وكان كثير من الملكيين يرغبون فيها لأنهم كانوا يرون في الحرب احتمالا لإعادة هيبة الملكية وسلطانها . وعارضها مارا معارضة مريرة في صحيفته صديق الشعب (L' Ami du Peuple) لأنه لم يكن يرغب أن تتحول الحماسة للجمهورية إلى حمى حرب . وقد حذرته غريزته من نابليون . وفي ٢٠ إبريل ١٧٩٢ جاء الملك إلى الجمعية واقترح بين مظاهر الاستحسان العظيم إعلان الحرب :

وابتدأت الحرب بكارثة . فإن جيوشاً فرنسية ثلاث دخلت بلاد البلجيك ؛ فهزم اثنان منها هزيمة منكرة ، وتراجع الثالث وكان بقيادة لافاييت . وعند ذلك أعلنت بروسيا الحرب مؤازرة منها للنمسا ، واستعدت الجيوش المتحالفة لغزو فرنسا تحت قيادة الدوق برنزويك . وأصدر الدوق إعلانا من أشد إعلانات التاريخ نزقا ؛ فإنه قال إنه يغزو فرنسا ليعيد سلطان الملكية إلى نصابه . وأن أية إهانة أخرى تلحق بالعرش الفرنسى سينتقم لها من الجمعية التشريعية وباريس « بالإعدام العسكرى رميا بالرصاص . » وكان هذا كافيا لتحويل أشد الفرنسيين ملكية إلى المذهب الجمهورى – لمدة الحرب على الأقل .

وكان الدور الجديد من أدوار الثورة ، وهو الثورة اليعقوبية ، هو الثمرة المباشرة لهذا الإعلان . ذلك أنه جعل من المحال استمرار جهود الجمعية التشريعية ، التى كان يتسلط عليها الجمهوريون النظاميون (الجيروندبون) والملكيون ، كما جعل من المحال بقاء الحكومة التى أخمدت ذلك الاجتماع الجمهورى فى الشان دى مارس وتعقبت مارا حتى اختبأ بالمجارى . واجتمع العصاة فى دار البلدية ، وفى ١٠ أغسطس قامت بلدية (كوميون) باريس بهجوم على قصر التويلرى .

وتصرف الملك بغباء سمج ، وبذلك الإستخفاف بالغير الذى هو من امتيازات الملوك . وكان معه حرس سويسرى مكون من ألف رجل كما كان معه حرس أهلى ولاؤه غير مضمون . فصمد صموداً مبهماً حتى ابتدأ إطلاق النار ، ثم انتقل إلى دار الجمعية وهى المجاورة له ليضع نفسه وعائلته تحت حمايتها ، تاركاً حرسه السويسرى يقاتل . ولا شك أنه كان يطمع فى إلقاء الشقاق بين الجمعية وكوميون باريس ، ولكن لم يكن لدى الجمعية ذرة من روح المقاتلة التى كانت تستمتع بها دار البلدية . ووضع اللاجئون الملكيون فى مقصورة (لوج) معدة للصحفيين (وكانت تتصل بها حجرة صغيرة) ، وهناك ظلوا ستة عشر ساعة بينما كانت الجمعية تتناقش فى مصيرهم . وكانت تعلو فى الخارج أصوات معركة ضخمة ؛ وكان يحدث بين الآونة والأخرى أن تنكسر إحدى النوافذ . وكان السويسريون التعساء يقاتلون وظهورهم إلى الجدران ، إذ لم يكن أمامهم من سبيل إلى غير ذلك .

ولم تجرؤ الجمعية على مناصرة الحكومة فى تكرار ما عملته فى شان دى مارس فى شهر يولية : إذ كانت قوة الكوميون الشرسة تتسلط عليها . ولم يجد الملك فى الجمعية أية راحة لفؤاده فإنها عنفته وتناقشت فى « إيقافه عن العمل » . وقاتل السويسريون حتى تلقوا من الملك أمراً بالكف عن القتال . وعند ذلك أعمل الجمهور فيهم قتلا حتى قضى على معظمهم ، أن كان الغضب قد بلغ به حد التوحش من إجراء سفك الدماء الذى لا ضرورة له ، وأن كان جنونه قد جن إلى حد لم يعد معه إلى ضبطه سبيل .

وكانت المحاولة الطويلة المملة لصوغ لويس فى الغالب « الميروفنجى »[1] ولاستخراج جمهورى شريف متوّج من ملك مطلق غبى غير قابل للتكيف ، — قد قاربت آنذاك خاتمتها المحزنة . فإن كوميون باريس كان قد تسلم بالفعل مقاليد السلطان فى فرنسا . وأصدرت الجمعية التشريعية التى لحقها تغير ظاهر فى شجاعتها ، مرسوماً يقضى بإيقاف الملك عن القيام بمهام عمله ؛ وأودعته المعبد ، واستبدلت به لجنة تنفيذية ودعت مؤتمراً وطنياً لإنشاء دستور جديد .

وعندئذ أخذ توتر فرنسا الوطنية والجمهورية يصبح شيئاً لا يطاق . وكان كل ما تمتلك من جيوش يتدحرج منهزماً على الطريق المؤدية إلى باريس فى حالة يأس واستسلام (الخريطة ١٨٥) . وسقطت لونجوى (Longwy) ، وعقبتها قلعة فردان العظيمة ، ولم يكن يبدو هناك أى احتمال لإيقاف تقدم الحلفاء على العاصمة . وارتفع الإحساس بالخيانة الملكية إلى حد ملأ الناس بقساوة الرعب . وكان لا بد على كل حال من إسكات الملكيين وغل أيديهم وإرهابهم حتى يختفوا عن الأنظار . ونصب كوميون باريس نفسه لمطاردة كل ملكى يمكن العثور عليه ، حتى اكتظت بهم سجون باريس . ورأى مارا شبح المذبحة مقبلا . فحاول أن يفوز بإنشاء محاكم الطوارئ قبل أن يفوت الأوان بقصد تمييز البرىء من المذنب فى هذا الخليط العظيم

---

(١) أى ملكا بلا سلطان كملوك الميروفنجيين الذى كان يتولى السلطة الفعلية دونهم ناظر القصر . (انظر المعالم ص ... جـ ٣ ط ٢) . (المترجم)

من المتآمرين ، والمشتبه فيهم والسراة غير المذنبين . ولكنهم تجاهلوه ، وحدثت فى أوائل سبتمبر المذبحة التى لا بد منها .

ابتدأ الأمر على حين فجأة بأن عصابة من الرجال كانت تستولى على أحد السجون ثم على الآخر وهكذا . ثم تشكل ضرب من المحاكم المرتجلة الفجة . على حين يتجمع فى الخارج صنف من الدهماء الضارية مسلحاً بالسيوف والخوازيق والبلط . وكان السجناء يقتادون من زنزاناتهم واحداً بعد الآخر لا فرق فى ذلك بين رجل وامرأة ، ثم يستجوبون استجواباً وجيزاً ، ويعفى عنهم بصيحة « لتحيا الأمة Vive La Nation » ، أو يقذف بهم إلى الدهماء على الأبواب . وهناك كان الجمهور يتدافع ويتقاتل ليحدث فى الضحية جرحاً أو يصيبها بطعنة . وكان المحكوم عليهم يطعنون ، ويمزقون إرباً ويضربون حتى يقضوا نحبهم ، وكانت رءوسهم تحتز وترفع على الخوازيق وتحمل فى أرجاء المدينة وتلقى أجسادهم الممزقة جانباً . وهلك فيمن قتل الأميرة دى لامبال التى تركها الملك والملكة فى قصر التويلرى . وحملت رأسها على رمح إلى المعبد لتراها الملكة .

وكان فى زنزانة الملكة إثنان من الحرس الوطنى ، رغب أحدهما فى أن يجعلها تنظر من النافذة لتبصر هذا المشهد الفظيع ، ولم يرغب زميله رحمة بها أن يسمح لها بفعل ذلك .

وفى نفس هذا الوقت الذى كانت هذه المأساة الدموية تجرى فيه فى باريس ، كان الجنرال الفرنسى دوموريبه يُهرع بأحد الجيوش مسرعاً من فلاندر إلى غابة الأرجون ، ويرد جيوش الحلفاء إلى ما وراء ڤردان . وحدثت عند ڤالمى فى ٢٠ سبتمبر معركة انطوت فى الغالب على تبادل إطلاق المدافع . وأوقف تقدم بروسى لم يكن مصحوباً بالعزم ، وثبتت المشاة الفرنسية فى مكانها ، مذ كانت مدفعيتهم خيراً من مدفعية الحلفاء . وظل دوق برنزويك بعد ذلك عشرة أيام وهو يقدم رجلا ويؤخر أخرى ، ثم أخذ ينسحب إلى الراين . وكانت أعناب شامپانيا الحامضة قــد نشرت الدوسنتاريا فى الجيش البروسى . ومعركة ڤالمى هذه ــ

ولم تكن لتعدو كثيراً تبادل إطلاق المدافع — إحدى معارك التاريخ الفاصلة . وتم إنقاذ الثورة .

والتأم المؤتمر الوطنى فى ٢١ سبتمبر ١٧٩٢ ، وأعلن من فوره الجمهورية . ولم تكد تلك الأحداث تنتهى حتى تمت محاكمة الملك وإعدامه كنوع من الضرورة المنطقية . مات الملك بوصفه رمزاً لا بوصفه رجلا . إذ لم يجدوا أمامهم غير ذلك شيئاً يفعلونه به ، يا له من مسكين ، فإنه كان يسد مسالك الأرض . ولم تكن فرنسا لتستطيع أن تدعه يذهب ليشجع المهاجرين ، ولا هى بمستطيعة أن تمنعه من إحداث الشر فى بلادها ؛ فكان وجوده مصدر تهديد لها . وكان ماراً قد حض فى غير هوادة على القيام بهذه المحاكمة ، على أنه — بنظرته النفاذة — لم يكن يريد تقديم الملك إلى المحاكمة قبل أن يوقع الدستور ، لأنه يكون قبل ذلك ملكاً فعلياً ، ويكون فوق القانون وبذا لايمكن أن يكون غير شرعى . كذلك لم يكن ماراً ليقبل السماح بالطعن فى محامى الملك . . . والواقع أن مارا قد لعب فى الموضوع من أوله إلى آخره دوراً مريراً غير أنه دور عادل فى الغالب ؛ كان رجلا عظيماً ، ذا ذكاء لطيف ممتاز ، فى إهاب من نار ؛ يعصف به ذلك البغض العضوى المستقر فى الدم ، والذى ليس من ثمار العقل بل الجسد .

وقطعت رأس لويس فى يناير ١٧٩٣ . احتزت بالمقصله لأن المقصلة (الجيلوتين) أصبحت منذ أغسطس السابق أداة الاعدام الرسمية فى فرنسا . وكان دانتون فيما اتخذ لنفسه من دور الأسد ممتازاً جداً فى هذه المناسبة . فلقد زأر بأجهر صوت قائلا : « يريد ملوك أوربا أن يتحدّونا ، وها نحن أولاء نلقى إليهم رأس أحد الملوك » .

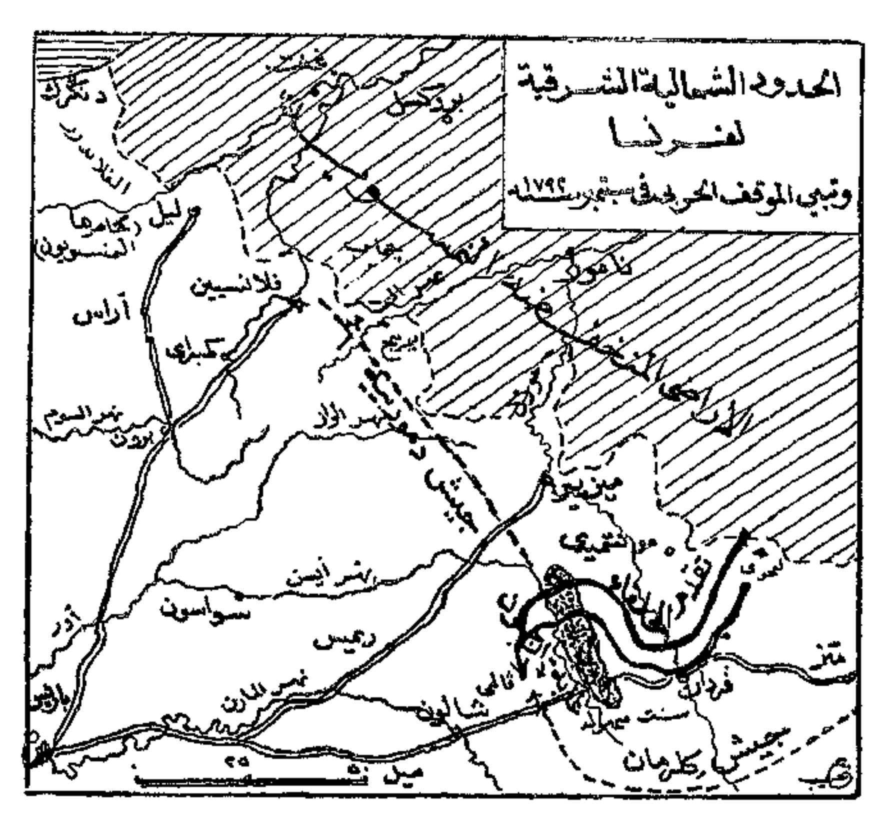
١١ — جمهورية اليعاقبة ١٧٩٢ — ١٧٩٤

ثم جاء بعد ذلك دور غريب فى تاريخ الشعب الفرنسى . فقد توقد وميض لهب عظيم من التحمس لفرنسا والجمهورية . وانعقدت العزائم على وضع حد لروح المسالمة داخل فرنسا وخارجها ، ففى الداخل أزمع القوم القضاء على الملكيين وكل شكل من أشكال عدم الولاء ؛ وفى الخارج ، صمموا أن تكون فرنسا حامية كل

الثوريين ومعينتهم . ولابد أن تصبح أوربا كلها بل الدنيا كلها جمهورية فى تكوينها . وانثال شباب فرنسا إلى الجيوش الجمهورية انثيالا . وانتشرت فى كل أرجاء البلاد أغنية جديدة مدهشة وهى أغنية لا تزال تعمل فى إحماء الدم فعل الصهباء هى « المارسيليز » . وقد حرجت إلى الوراء الجيوش الأجنبية تلقاء هذه الأنشودة وطوابير الوثابين من حملة السونكى الفرنسيين ومدافعهم المنطلقة فى حماسة . وقبل أن تأتى خاتمة ١٧٩٢ كانت الجيوش الفرنسية قد بلغت مدى تجاوز كل ما أحرزه الملك لويس الرابع عشر ؛ وإذا هم يطأون فى كل مكان أرضاً أجنبية . كانوا فى بروكسل وكانوا اجتاحوا سافويا ، وأغاروا حتى مايانس Mayence ، واستولوا من هولندة على الشلد . وعند ذلك فعلت الحكومة الفرنسية فعلة خرقاء . إذ كان أسخطها طرد ممثلها من انجلترة عند إعدام لويس ، فأعلنت الحرب على انجلترة . كانت فعلة خرقاء لأن الثورة التى أعطت فرنسا مشاة جديدة متحمسة ومدفعية زاكية متحررة من ضباطها الأرستقراطيين ومن كثير من التقاليد المعوّقة ، قد أفسدت نظام بحريتها وكان للانجليز السيادة فى البحر . ووحد هذا الاستفزاز كلمه انجلترة كلها ضد فرنسا ، بعد أن كان هناك فى بداية الأمر حركة متحررة كبيرة تعطف على الجمهورية .

ولسنا بمستطيعين أن ننبئك فى أى تفصيل حديث القتال الذى قامت به فرنسا فى السنوات القليلة التالية ضد محالف أوربى . فأزاحت النمسويين إلى الأبد من بلچيكا ، وحولت هولندة إلى جمهورية . وسلم الأسطول الهولندى وقد تجمد حوله الماء فى نهر التكسل ، لحفنة من الفرسان دون أن يطلق من مدافعه قذيفة واحدة . وتوقفت هجمات الفرنسيين نحو إيطاليا ردحا من الزمان ، ولم يحدث إلا فى عام ١٧٩٦ أن چنرالا جديداً هو نابليون بونابرت ، إقتاد الجيوش الجمهورية المهلهلة الثياب مظفرة عبر پيدمونت إلى مانتوا وڤيرونا . ولا يستطيع كتاب معالم تاريخية أن يصور لك الحملات بدقة ؛ غير أنه ملزم أن يلحظ الصفة الجديدة التى ظهرت فى الحرب . كانت الجيوش المحترفة القديمة تحارب لا غاية لها إلا القتال ذاته ، وتسعى فى بطء وتراخ ، كالعمال الذين يشتغلون بالساعة ؛ وكانت هذه الجيوش المدهشة الجديدة تحارب من أجل النصر — وإن كان جائعة ظمئة . وكان أعداؤهم يسمونهم « الفرنسيين

الجدد » . يقول س . ف آتكنسون[1] : « كان أشد ما أدهش الحلفاء هو عدد هؤلاء الجمهوريين وسرعتهم . فالواقع أنه ما كان ليعوق هذه الجيوش المرتجلة أى عائق . فكان من المتعذر الحصول على الخيام بسبب انعدام المال . وكان فى غير الامكان نقلها بسبب العدد الهائل من العربات التى لا مفر عندئذ من الاحتياج إليها ، وكانت كذلك غير ضرورية لأن المتاعب التى طالما سببت تسلل الجند زرافات لواذاً



(شـكل ١٨٤)

من الجيوش المحترفة ، كان يتحملها رجال ١٧٩٣ — ١٧٩٤ مسرورين مغتبطين . كما أن المدد لهذه الجيوش التى لم يسمع الناس حتى ذلك الحين بمثل حجمها لم يكن من المستطاع حمله فى قوافل ، وسرعان ما تعلم الفرنسيون « فكرة العيش على حساب البلاد » . وبذا شهدت ١٧٩٣ مولد طريقة الحرب العصرية : سرعة الحركة والتطور

(١) فى مقالته « الحروب الفرنسية الثورية » بالموسوعة البريطانية الطبعة الثانية عشرة .

الكامل القوة الوطنية ، والمجود[1] فى العراء والاعتماد فى الميرة على البلد المقهور وحشد القوات وإجبار الأهالى على تقديم ما يلزم للجيش ، وذلك كله مقابل المداورات الحذرة ، والجيوش الصغيرة المحترفة ، والخيام والجرايات الكاملة والألاعيب الدنيئة . وكان الأولون يمثلون روح الحسم فى الأمور ، ويمثل الآخرون روح الخطار بالقليل للحصول على القليل » .

وبينما كانت هذه الجيوش (العرمرم) المتحمسة فى أسمالها البالية تنشد « المارسيليز » وتقاتل من أجل « فرنسا » ، دون أن يتضح لها تمام الوضوح فيما يبدو ، هل كانت تنهب الأقطار التى انثالوا إليها أو تحررها ، - كانت الحماسة الجمهورية فى باريس تبدد نفسها بطريقة أقل مجداً وكرامة بكثير . وكان مارا وهو الرجل الوحيد ذو الذكاء القاهر بين اليعاقبة قد أصابه الجنون بسبب داءة العضال ، وسرعان ما قتل . وكان دانتون سلسلة من الصواعق الوطنية ؛ فلم يبق عندئذ غير روبسبير وتعصبه الراسخ الوطيد ، فتسيطر على الموقف . ومن العسير أن يفضى الإنسان فى هذا الرجل برأى ، كان رجلا ضعيف البنية خوافاً بطبعه مغروراً صلفاً . ولكن كان فيه ألزم مواهب القوة وهى الإيمان . كان يعتقد لا فى رب يألفه الناس ، بل فى كائن علىّ بعينه ، وكان يرى روسونبياً لذلك الكائن . فنصب نفسه لإنقاذ الجمهورية على الشاكلة التى يراها ، وكان يتوهم أنه ليس فى مستطاع أحد إلا إياه أن ينقذها . وبذا أصبح يعتقد أن بقاءه فى دست الحكم إنقاذ للجمهورية . وكان يشير إلى أن الروح الحية فى الجمهورية قد نشأت عن مذبحة الملكيين وعن إعدام الملك . وحدثت ثورات كثيرة : شبت واحدة منها فى الغرب فى محافظة لا ڤاندية ، حيث ثار الأهالى ضد التجنيد وضد طرد رجال الدين الأصليين من ممتلكاتهم ، وكان يقودهم فيها بعض النبلاء والقسيسين ، وأخرى فى الجنوب حيث ثارت ليون ومارسيليا وسمح ملكيو طولون لحامية إنجليزية وأسبانية بالنزول فيها . وكأنما ليس هناك أى جواب فعال على هذه الثورات إلا مواصلة قتل الملكيين . ولم يكن هناك شىء أحب من

---

(١) المجود : أى مبيت الجنود على الأرض دون خيام ولا لوازم معسكرات . (المترجم)

هذا إلى قساوة أفئدة سكان أحياء باريس الوضيعة . واخذت محكمة الثورة تعمل بجد ، وابتدأت عملية ذبح متواصلة .

وقد نفذ حكم الإعدام فى مدة الثلاثة عشر شهراً السابقة على يونية ١٧٩٦ فى ١٢٢٠ شخصاً ، ونفذ الاعدام فى الأسابيع السبعة التالية فى ١٣٧٦ شخصاً . وجاء اختراع المقصلة فى أنسب الأوقات لهذه الحالة التى ألمت بمزاج الناس . وقضت المقصلة على الملكة ، وكذلك قضت المقصلة على معظم خصوم روبسپير ، وقضت المقصلة !! ... على الملحدين الذين أنكروا وجود أى كائن على" أسمى ؛ وقضت المقصلة على دانتون لأنه رأى أن قد بولع فى استعمال المقصلة ! ! . ؟ . . وكانت هذه الآلة الجديدة الجهنمية تحز يوما بعد يوم ، وأسبوعاً بعد أسبوع ، الرؤوس ثم المزيد من الرؤوس ثم المزيد . وكان حكم روبسپير يعيش فيما يبدو على الدم ، ويتطلب منه المزيد فالمزيد ، كما يتطلب مدمن الأفيون المزيد منه فالمزيد ! ! ؟ . . .

وكان دانتون ما يزال هو دانتون ، إذ كان غضنفراً فوق المقصلة وكان موقفه عليها مثالياً . قال « لا ضعف يا دانتون ! » .

وأعجب شيء وادعاه إلى الضحك أن روبسپير كان شريفاً شرفاً لا يتطرق إليه الشك . بل لقد كان أشرف بكثير من أى فرد من جماعة الرجال الذين خلفوه وكان يطيف به إلهام يبث فيه رغبة حارة فى إنشاء نظام جديد للحياة الإنسانية . وأخذت لجنة الأمن العام وهى حكومة الإثنى عشر للطوارئ وهى التى كانت عند ذاك دفعت بالمؤتمر جانباً ، تقوم بعمل إنشائى بالقدر الذى استطاع أن يستنبطه لها روبسپير . وكان المعيار الذى حاولت أن تقيم عليه عملها البناء هائلا ضخماً . فإن كل المسائل المعقدة التى لابد لنا اليوم من الكفاح وإياها قوبلت بحلول سريعة سطحية ضحلة . وبذلت محاولات للتسوية بين الناس فى العقار . قال القديس چوست « الثراء شنعة » . فضربت الضرائب على أملاك الأغنياء أو صودرت لتقسيمها بين الفقراء . وكان لابد من أن يحصل كل رجل على منزل آمن ومورد رزق وزوجة وأولاد . وكان العامل جديراً بأجره ، ولكن ليس له الحق فى الحصول على منفعة من المنافع . وجرت محاولة لإلغاء الربح إلغاء تاماً ، وهو الحافز الخشن الفج لمعظم أعمال التجارة بين

الناس منذ ابتداء المجاعة الانسانية . والربح هو اللغز الاقتصادى الذى ما يزال يشكل علينا إلى اليوم . وصدرت قوانين عنيفة ضد الاستغلال بالسوق السوداء بفرنسا فى ١٧٩٣ . وجدير بالذكر أن انجلترة وجدت نفسها فى ١٩١٩ مضطرة أن تصدر قوانين أشبه ما تكون بتلك . ولم يقتصر همُّ حكومة اليعاقبة فقط على مجرد إعادة تخطيط النظام الاقتصادى — فى معالم صريحة — بل تجاوزته إلى النظام الاجتماعى كذلك . فجعل الطلاق فى نفس سهولة الزواج ، وألغى التمييز بين الأطفال الشرعيين وغير الشرعيين . واستحدث تقويم جديد ، مع أسماء جديدة للشهور وأسابيع مكونة من عشرة أيام وما إلى ذلك — وقد أزيل كل ذلك منذ زمن بعيد ؛ وكذلك أخلت العملة السمجة والموازين والمقاييس المعقدة بفرنسا القديمة مكانها للطريقة العشرية البسيطة الواضحة التى لا تزال موجودة . . . وتقدمت بعض الفئات المتطرفة تقترح إلغاء « الله » فيما يلغى من النظم الأخرى تمام الالغاء ، واستبدال عبادة العقل به . وأقيمت بالفعل حفلة للعقل بكاتدرائية نوتردام اتخذت فيها إحدى حسان الممثلات ربة للعقل . ولكن روبسبيير وقف فى وجه هذه الحركة إذ أنه لم يكن ملحداً . قال « إنما الإلحاد نزعة أرستقراطية » فأما الفكرة القائلة بذلك الكائن العلىّ الذى يراقب البرئ المظلوم ويكلؤه ويعاقب المجرم الظافر ، إنما هى بالضرورة فكرة الشعب » . ولذا قضى بالمقصلة على هيبير Hebert ، الذى احتفل بعيد العقل . كما قضى على كل أفراد جماعته .

وألم بروبسبيير مع تقدم صيف ١٧٩٤ شىء ملحوظ من الاضطراب الذهنى . كان مهتماً اعمق الاهتمام بديانته . (وكان اعتقال المشتبه فيهم وإعدامهم يجرى آنذاك على أتم نشاط . فكان « الارهاب » يجلجل فى شوارع باريس فى كل يوم بعرباته المليئة بالمحكوم عليهم) . وقد حمل روبسبيير المؤتمر أن يصدر مرسوماً بأن فرنسا تؤمن بكائن على أسمى ، كما تؤمن بذلك المبدأ الباعث الطمأنينة فى النفوس : مبدأ خلود الروح . وفى يونية أقام عيداً عظيماً هو عيد كائنه الأسمى . وسار إلى الشان دى‌مارس موكب ترأسه وهو فى ثياب زاهية يحمل باقة عظيمة من الأزهار وسنابل القمح . وأحرقت فى مشهد وقور رهيب تماثيل من مادة قابلة للاحتراق تمثل الإلحاد والرذيلة ؛ ثم نهض فى مكانها بطريقة آلية ماهرة وبشىء قليل من

الصرير ، تمثال للحكمة غير قابل للاحتراق . وألقيت الخطب — وألقى منها روبسبير أهمها — ولكن ظاهر أنه لم تجر أية عبادة . . . .

ومنذ ذلك الحين بدت على روبسبير بوادر الرغبة فى التأمل بمعزل عن شئون العالم . فظل شهراً كاملا بمنآة من المؤتمر . وحدث فى أحد أيام شهر يولية أنه حضر وألقى خطبة عجيبة انذرت بشكل واضح بقرب حدوث محاكمات جديدة . قال : « إنى وقد شخصت ببصرى متفكراً فى مجموع تلك الرذائل التى قوضها سيل الثورة الجارف ، كنت فى بعض الأحيان تأخذنى رعدة الخوف من أن أتدنس من جيرة الشريرين النجسة . . . وإنى لأعرف أن من السهل على عصبة الطغاة فى العالم أن يتكاثروا على فرد بمفرده ، غير أنى أعرف كذلك ماهو واجب الرجل الذى يقدر أن يموت دفاعاً عن الانسانية » .

وهكذا استطرد حتى وصل إلى عبارات مبهمة كان يبدو أنها تهدد كل إنسان .

واستمع المؤتمر هذه الخطبة فى صمت وسكوت ، ثم حدث عندما قدم اقتراح بطبعهاوتوزيعها ، أن جأر بصياح الغضب وأبى السماح بذلك وخرج روبسبير فى استياء مرير وذهب إلى نادى أنصاره ، وأعاد تلاوة خطبته عليهم ! وامتلأت تلك الليلة بالكلام والمقابلات والاستعداد للغد ؛ وفى اليوم التالى انقلب المؤتمر على روبسبير . وهدده شخص اسمه تاليان بخنجره . ولما حاول أن يتكلم صاح به الأعضاء حتى أسكتوه ، ودق الرئيس الجرس فى وجهه . وقال روبسبير « يا رئيس السفاحين إنى أطلب الكلمة ! » وأبيت عليه الكلمة . وخانه صوته . فأخذ يسعل ويصخب وصاح بعضهم « إن دم دانتون يخنقه » . فوجهت إليه التهمة . واعتقل هناك للوقت ومعه أهم أعوانه شأناً .

وعند ذلك ثارت ضد المؤتمر ثائرة دار البلدية وكانت لا تزال قوية النزعة اليعقوبية . وأخذ روبسبير ورفقاؤه عنوة من أيدى آسريهم . ومرت ليلة حدث فيها التجمع والزحف ثم الزحف المضاد ، وأخيراً التقت قرابة الساعة الثالثة قوات المؤتمر بقوات بلدية باريس خارج دار البلدية .

وكان هنريو ، قائد اليعقابة يرقد مخموراً فى الطابق الأعلى إثر يوم قضاه منهمكاً فى العمل ؛ وعقبت ذلك مفاوضات ، ثم انحازت جنود الكوميون بعد تردد قليل إلى صف الحكومة . وتصايح القوم فى انفعال وطنى وأطل أحدهم من نافذة بدار البلدية . ووجد روبسپير وآخر من بقى معه من إخوانه أن جنودهم انفضوا من حولهم وخانوهم وأوقعوهم فى الفخ . وألقى إثنان أو ثلاثة من هؤلاء الرجال بأنفسهم من إحدى النوافذ ، وأحدثوا بأنفسهم إصابات مروعة على الأسوار الحديدية دون أن يقتلوا أنفسهم . وحاول آخرون الانتحار . والظاهر أن أحد الجنود أصاب روبسپير برصاصة فى الفك الأسفل فقد وجدوه يحملق بعينين شاخصتين وسط وجه شاحب كان نصفه الأسفل من الدم .

وأعقب ذلك سبع عشرة ساعة قضاها فى الألم المبرح قبل أن تحين نهايته . ولم ينبس بكلمة طوال تلك المدة ، إذ كان فكه مربوطاً ربطاً خشناً بقطعه قذرة من القماش ، واقتيد هو ورفاقه ، والأجسام المهشمة المحتضرة لأولئك الرجال الذين قفزوا من النوافذ ــ وكانو فى مجموعهم اثنين وعشرين رجلا ــ إلى المقصلة بدل الذين قضى بإعدامهم فى ذلك اليوم . وكانت عيناه مغمضتين معظم الوقت ، ويقول كارليل إنه فتحهما فرأى السكين العظيمة ترتفع من فوقه وأخذ يقاوم ويتملص . كذلك حدث فيما يظهر أنه صرخ عندما رفع الجلاد عنه ضمادته . ثم هوت السكين سريعة رحيمة . وانتهى عهد الارهاب . ومنذ البداية حتى النهاية كان عدد المحكوم عليهم والمعدومين أربعة آلاف إنسان .

١٢ ــ حكومة الإدارة

مما يشهد بالحيوية الهائلة والخير العميم فى طوفان المثل العليا والمقاصد الجديدة التى أطلقت الثورة الفرنسية أسارها إلى عالم الجهود العملية ، أنها كانت لا تزال تستطيع أن تفيض بسيل خلاق بعد أن رأى الناس لها صورة ممسوخة وسخروا منها حين تمثلت فى شخصية روبسپير وحياته العجيبتين المضحكتين . وروبسپير صاحب الفضل فى الكشف عن أعمق أفكارها ، وهو الذى أبدى المتوقع من طرائقها وثمارها ،

خلال العدسات الغريرة المشوّهة التى صيغت منها كبرياؤه وأنانيته الخارجة عن كل معقول ؛ وهو الذى سود ولطخ بالدم والرعب كل آمالها وما ينتظر منها ؛ ومع ذلك فإن قوة هذه الفكرات لم تتدمر . إذ أنها تحملت الاختبارات القاسية التى ألمت بها أثناء عرضها على تلك الصورة المضحكة البشعة . وظلت الجمهورية بعد سقوطه تحكم حرة لا يهاجمها مهاجم منيعة لا ينال منها أحد منالا . ولكن لم يكن لها من زعيم يقودها ، وذلك أن خلفاءه كانوا جماعات من رجال مكرة أو عادين ، وواصلت الجمهورية الأوربية كفاحها مدة من الزمان ، ثم لم تلبث حتى سقطت ثم نهضت ثانية ، ثم سقطت ونهضت وما تزال تكافح ، وهى ترتطم بالعراقيل وتشتبك فى الأحابيل غير أنها منيعة لا تقهر .

ومن الخير أن نذكّر القارئ فى هذا المقام بالحجم الحقيقى لدور الإرهاب هذا ، الذى يروع الأخيلة أيما ترويع ، والذى بولغ فيه بناءً على هذا مبالغة هائلة بالقياس إلى بقية الثورة . فمنذ ١٧٨٩ إلى أخريات ١٧٩١ كانت الثورة الفرنسية عملية منتظمة ، ومنذ صيف ١٧٩٤ كانت الجمهورية دولة منتظمة مظفرةً . ولم يكن الإرهاب من عمل البلاد بأجمعها ، بل مما جنته أيدى رعاع المدينة الذين كانوا مدينين بوجودهم ووحشيتهم إلى سوء الحكم والظلم الاجتماعى فى الدولة البائدة ؛ وما كان انفجار حكم الإرهاب ليحدث لولا إصرار الملكيين على خياناتهم وعدم ولائهم ، إصراراً أثار المتطرفين إلى درجة الجنون ، وحمل كتلة الجمهوريين المعتدلين على عدم التدخل . وكان خيرة الرجال مشغولين بقتال النمسويين والملكيين على الحدود . وينبغى لنا أن نتذكرَ أنّ مجموع من قتلوا فى حكم الإرهاب وصل فى غاية جملته إلى بضع آلاف قليلة ، وكان بين هؤلاء الأعداد ولا ريب عدد كبير من خصوم الجمهورية العاملين ، الذين كان يحق لها أن تقتلهم قياسا على معايير ذلك الزمان . وكان من بينهم من الخونة وصناع الشر أمثال فيليب دوق أورليان ، صاحب قصر « الباليه رويال » الذى أعطى صوته محبذاً موت لويس السادس عشر .

ولقد ضاع من الأرواح على يد القواد الإنجليز وحدهم فى يوم افتتاح ما يسمى بإسم هجوم السوم فى يولية ١٩١٦ ، أكثر مما ضاع فى الثورة الفرنسية كلها منذ بدايتها إلى خاتمتها .

وإنا لنسمع كثيراً عن شهداء حكم الإرهاب لأنهم كانوا قوما من ذوى المكانة والمصاهرة والقرابة الطيبة ، ولأنه أثير ضرب من الدعاية حول ما قاسوا من عذاب . ولكن علينا أن نوازن فى أذهاننا بين ذلك وبين ما كان يجرى فى سجون العالم عامة فى ذلك الزمان . فعندما كانت مقاليد الحكم فى فرنسا بيد الإرهاب ،كان يقتل فى انجلترة وأمريكا لجرائر ارتكبت ضد الممتلكات – وغالباً ما كانت جرائر تافهة جداً – عدد يفوق كثيراً عدد من حكمت عليهم محاكم الثورة فى فرنسا بسبب الخيانة للدولة . وبديهى أنهم كانوا فى الواقع أناساً عاديين جداً ، ولكنهم قاسوا آلاما على طريقتهم الخشنة . فقد حدث مرة أن شنقت فتاة فى ماساشوستس ١٧٨٩ لأنها أخذت بالإكراه قبعة وحذاء ومشابك من فتاة أخرى لقيتها فى الطريق . كذلك وجد هوارد محب الإنسانية (قرابة ١٧٧٣) عدداً من الأفراد الأبرياء محجوزين فى السجون الإنجليزية بعد أن حوكموا وحكم ببراءتهم ولكنهم لم يستطيعوا أن يدفعوا أجرة السجان . وكانت تلك السجون أماكن قذرة لا تخضع لأية رقابة فعالة . وكان التعذيب لا يزال يستعمل فى الممتلكات الهانوڤرية لصاحب الجلالة البريطانية الملك جورج الثالث . وظل يستخدم فى فرنسا حتى عهد الجمعية الوطنية . فالحق أن هذه الأمور كلها تشير إلى مستوى العصر عامة .

وليس فيما سجل ما يدل على أن أى امرىء قد عذبه عمداً رجال الثورة الفرنسية أثناء حكم الإرهاب . فإن هؤلاء المئات القلائل من السراة الفرنسيين قد تردّوا فى حفرة كان يطيب معظمهم نفساً بأن تحفر للآخرين . كان الأمر فاجعاً لاجرم ، ولكن لم يكن فيه فاجعة عظيمة إذا قيس بمعيار التاريخ العام . فإن الرجل العامى فى فرنسا كان أوسع حرية وأوسع رزقاً ، وأشد سعادة إبان حكم « الإرهاب » مما كان فى ١٧٨٧ .

وإذا استعرضنا قصة الجمهورية بعد صيف ١٧٩٤ وجدناها قصة معقدة لمجموعة من الطوائف السياسية التى اتخذت لنفسها برامج وأهدافاً لا حصر لها ، منها ما هو جمهورى راديكالى ومنها ما هو ملكى رجعى ، غير أنها كانت تظللها رغبة عامة فى إقامة نظام ما محدد فعال وإن كلفها ذلك قدراً جسيما من الإذعان والتساهل . وأحدث

اليعاقبة والملكيون سلسلة من الفتن ، إذ يلوح أنه كان هناك فى باريس ما عسانا أن نسميه اليوم باسم طبقة مشاغبى الشوارع ، وهى على أتم الإستعداد للخروج للقتال والنهب فى صف أى من الطرفين . ومع هذا فإن المؤتمر أنتج حكومة ، هى حكومة الإدارة المكونة من خمسة أعضاء ، والتى حافظت لفرنسا على تماسكها أمد خمس سنوات . وقضى على آخر فتنة وأشدها خطراً فى أكتوبر ١٧٩٥ ، بمهارة فائقة وحزم نافذ عن يد جنرال شاب ناهض هو نابليون بونابرت .

كانت الإدارة مظفرة فى الخارج ، غير انها كانت حاملة غير خلاقة فى الداخل ، إذ كان أعضاؤها أحرص على الاستمساك بحلاوة الوظيفة وأمجادها ، من أن يعدوا دستوراً يخليهم من العمل ويحل غيرهم محلهم ، وكانوا أخون من أن يسلموا لغيرهم مقاليد عملية إعادة الإنشاء الاقتصادية والمالية التى تتطلبها حالة فرنسا . ولسنا بحاجة أن نذكر إلا إسمى رجلين منهم – أحدهما كارنوه (Carnot) الذى كان جمهوريا شريفا ؛ وباراّ (Barras) الذى كان لصاً بشكل ملحوظ . وقد كون حكمهم هذا الممتد خمس سنوات قصة عجيبة مثّلت بين فصول هذا التاريخ الحافل بالتغييرات العظيمة . فإنهم تناولوا الأمور كما وجدوها . ولعبت حماسة الدعاة للثورة دوراً عظيما فى حمل الجيوش الفرنسية إلى هولندة وبلچيكا ، وسويسرا وجنوب ألمانيا ، وشمال إيطاليا . كان الملوك يطردون فى كل مكان وتقام فى أماكنهم الجمهوريات .

ولكن حماسة تلك الدعاية التى أثارتها حكومة الإدارة لم تحل دون انتهاب كنوز الشعوب المحررة بغية تخفيف ما تلقاه الحكومة الفرنسية من الإضطراب والعسر المالى . وأخذت حروبهم تنحدر رويداً رويداً عن صفتها كحرب حرية مقدسة ، وتقترب أكثر فأكثر من حروب الحكم البائد العدوانية . وكانت السياسة الخارجية آخر ما كانت فرنسا ترغب فى التجرد منه من مظاهر الملكية العظمى . وإنا لنستطيع أن نتبين أن تلك السياسة ظلت على نفس قوتها الأولى أثناء حكم حكومة الإدارة كأنما لم يحدث هناك أية ثورة .

١٣ – توقف التعمير وفجر الإشتراكية العصرية

لقد اقتربت الآن ساعة انحسار هذا الفيض الدافق من الثورة فى العالم ؛ ذلك الفيض الذى خلق جمهورية أمريكا العظيمة وهدد بأن يغمر بطوفانه كل الملكليات الأوربية . وكأن شيئاً قد اندفع إلى أعلى من دون سطح الشئون الإنسانية ، وبذل جهداً جباراً ، ثم ما لبث أن تلاشى بددا إلى حين . وجرف أمامه كثيراً من الأشياء المهجورة والضارة ، ولكن بقيت من بعده أمور كثيرة ضارة غير عادلة . نعم إنه حل مسائل كثيرة ، ولكنه ترك الرغبة فى الزمالة والنظام تواجه مسائل أكثر ضخامة لم يبد عليه أنه تجاوز حد هتك الستر عنها . وذهبت أشكال معينة من الامتيازات ، كما ذهب الكثير من ألوان الاستبداد والاضطهاد الدينى . وعندما اختفت أشياء الحكم البائد هذه ، بدت كأنما لم تكن لها أبداً أية أهمية ، وكل ما كان يهم فعلا هو أن الرجال العاديين بالرغم من تمتعهم بالأصوات الانتخابية وحق الاقتراع ، وبالرغم من كل دفعات نفوسهم وجهودهم ، كانوا ما يزالون لا هم بالأحرار ولا هم بالمستمتعين بقسط متعادل من السعادة ، وأن الوعد الهائل الموعود والأمل فى تفيؤ أكناف عالم جديد وهما الأمران اللذان جاءت الثورة بهما ، ظلا وهماً لا ظل لها من الحقيقة .

ومع هذا فإن موجة الثورة هذه قد حققت تقريباً كل شىء فكر فيه الناس تفكيراً واضحا قبل مجيئها . ولم تكن تفشل الآن بسبب امتناع الدافع ، بل بسبب إمتناع الفكرات المدروسة المصقولة . فقد جرفت إلى الأبد كثير من الأشياء التى طالما أوقعت الظلم بالإنسانية . والآن وقد جرفت وانتهى أمرها ، بات واضحاً لكل ذى عينين ، كم كان الرجال غير متأهبين لتلقى النهزات الخلاقة التى أتاحتها لهم هذه الإزالة . وما فترات الثورة إلا فترات عمل ؛ وفيها يحصد الرجال ثمار الفكرات التى نمت أثناء أدوار فترات الهدوء بين الثورات . إنها لتترك الحقول نظيفة مستعدة لموسم جديد من مواسم النماء ، ولكنها لا تستطيع أن تنتج على الفجاءة فكرات جديدة منضجة لتقابل بها لغزاً غير متوقع .

وكان طرد الملك والنبيل ، والقسيس وقاضى محكمة التفتيش ، وصاحب الأراضى

وجابى الضرائب وملاحظ الأشغال ، قد غادر كتلة الناس يواجهون لأول مرة بعض نواحى معينة جوهرية جداً للتركيب الاجتماعى ، وهى العلاقات التى سلموا بها من قبل ولم يدركوا البتة ضرورة التفكير الشديد وإطالة النظر فيها . وظهر أن النظم التى كانت تبدو قطعة من طبيعة الأشياء ، والأمور التى كان يبدو أنها تحدث نتيجة لذلك النوع من الضرورة التى تطلع الفجر وتأتى بالربيع - ظهر أنها كانت أموراً إصطناعية يمكن ضبطها والتحكم فيها ، لولا ما هى عليه من التعقيد المربك ، كما ظهر أنها الآن وقد ألغت الروتينات القديمة وتخلص الناس منها ، - أصبحت فى أمس الحاجة إلى يد تضبطها وتهيمن عليها . ووجد النظام الجديد نفسه تلقاء ألغاز ثلاثة ، كان غير مستعد مطلقا لحلها : وهى المِلْكية والعملة والعلاقات الدولية .

وسنتناول هذه المسائل الثلاثة بالترتيب ، ونسأل عن ما هيتها وكيف نشأت فى الشئون الإنسانية ؟ فإن كل حياة انسانية تتصل بها اتصالا عميقاً ، كما أن حلها يمسها مساً مباشراً . والحق إن البقية الباقية من هذا التاريخ ستصبح من الآن بشكل واضح يتزايد وضوحاً كل يوم ، تطوراً للمجهودات المبذولة لحل هذه المسائل ، أو بمعنى آخر أن هذا « التاريخ » سيصبح من الآن جهداً غايته « تفسير المِلْكية ، وتأسيس العملة ، وإدارة دولاب العلاقات الدولية » ، - على شاكلة تجعل فى الامكان إنشاء « مجتمع من الإرادة على أن يكون سعيداً وتقدمياً ، يعم العالم أجمع . فهن الألغاز الثلاثة التى يرمز لها صمت « أبى هول » القدر ، والتى يجب على الدولة الانسانية أن تجد لها جوابا وإلا كان مآلها الهلاك .

وتنشأ فكرة المِلْكية من غرائز المقاتلة فى النوع البشرى . فقبل أن كان الانسان إنساناً بزمان مديد كان القرد الجد مالكا . والملكية البدائية هى ما يقاتل الوحش من أجله . فالكلب والعظمة ، والبرة ووجارها ، والغزال الهادر وسربه ، كل هذه مِلْكيات يتوهج أوارها . وليس ثمة تعبير أسخف فى علم الاجتماع من عبارة « الشيوعية البدائية » . فإن الرجل المسن فى قبيلة العائلة فى الأزمان المبكرة من العصر الحجرى القديم (الباليوليثى) كان يصر على ملكيته فى زوجاته وبناته وأدواته ولعالمه المرئى المحيط به . فلو دخل أى رجل إلى عالمه المرئى المحيط به لقاتله ، ولذبحه

إن استطاع . ونمت القبيلة على مر العصور ، كما بين ذلك أتكنسون تبياناً مقنعاً فى كتابه « القانون البدائى »[١] . وكان نموها نتيجة للتسامح التدريجى الذى أبداه الرجل المسن نحو وجود الشبان الأصغر منه سناً ، ونحو ملكيتهم للزوجات اللائى يؤسرن من خارج القبيلة ، والآلات والحلى التى كانوا يصنعونها والصيد الذى كانوا يقتلون . ونمت الجماعة الانسانية بفضل التوفيق بين ملكية هذا الفرد وملكية ذاك . كان ذلك التوفيق فى أكبر شأنه توفيقاً وتحالفاً اضطر الرجال إليه اضطراراً بسبب ضرورة دفع قبيلة أخرى إلى خارج عالمهم المرئى المحيط بهم . فلئن لم تكن التلال والغابات والأنهار أرضك أو أرضى ، فذلك لأنه كان لزاماً أن تكون أرضنا . وإن كلا منا ليؤثر لو أنها كانت « أرضه هو » ، ولكن هذا لا يمكن العمل به . فنى تلك الحالة يقوم الرجال الآخرون بتدميرنا . فكأن الجماعة الإنسانية إذن ، إنما هى منذ بدايتها تخفيف لغلواء الملكية . والملكية فى الوحش الضارى وفى المتوحش البدائى كانت أشد حدة منها فى العالم الممدن اليوم . فهى فى غرائزنا أقوى مغرساً منها فى عقولنا

وليس هناك اليوم تحديد لنطاق الملكية عند المتوحش الفطرى ولا الرجل غير المتعلم . ومن الخير لنا أن نتذكر دوما أنه ما من إنسان يزيد بعده اليوم على أربعمئة جيل من جده المتوحش البدائى وكل ما تستطيع أن تقاتل من أجله إنما هو شىء أنت قادر على امتلاكه : — من النساء وممن تبقى عليهم من الأسرى ومن الضوارى المصيدة . ومن مسالك الغابة ومن مآخذ الحجر إلى غير ذلك . ومع نمو المجتمع ، وتولى ضرب بدائى من القانون الحد من القتال الفتاك ، طور الناس طرائق خشنة وسريعة لإقامة الملكية . فصار الرجل يقدر أن يملك ما كان أول من صنعه أو وضع يده عليه أو ادعاه . وكان يبدو طبيعياً أن كل مدين لا يستطيع تسديد دينه لا بد أن يغدو ملكاً لدائنه ؛ ويعادل هذا فى جريانه على الطبيعة أن الرجل بعد ادعائه امتلاك رقعة من الأرض ، لابد له من تحتيم دفعات مالية على كل رجل آخر يريد استعمالها . ولم يحدث إلا مع البطء الشديد ، ومع بزوغ فجر احتمالات الحياة المنظمة وظهور بوادرها على الناس ، أن ابتدأ الناس يرون فى هذه الملكية غير المحدودة لأى شىء كان —

(١) Atkinson Primal Law .

مصدر إزعاج ومضايقة لهم . وألفى الرجال أنفسهم يولدون إلى عالم مملوك كله ومدعى ملكيته كله – لا بل وجدوا أنفسهم مملوكين أو مدعى ملكيتهم . ومن العسير الآن علينا أن نقفو أثر الكفاحات الاجتماعية فى المدنيات الأشد قدما ، غير أن التاريخ الذى حدثناك به عن الجمهورية الرومانية يكشف لك مجتمعاً يستيقظ على فكرة أنه ربما غدا الدّين مضايقة عامة ، ولا بد عند ذاك من إنكاره والامتناع عن أدائه ، وأن الملْكية غير المحدودة للأرض إنما هى كذلك مضايقة من المضايقات . وإنا لنجد أن مملكة بابل (بابلونيا) عمدت فى عهدها المتأخر إلى تحديد حقوق الفرد فى امتلاك الأرقاء تحديداً شديداً . وأخيراً نجد فى رسالة ذلك الثورى العظيم ، يسوع الناصرى ، هجوماً وطعناً فى الملْكية لم يوجد مثله قبل ذلك أبداً . قال « أيسر أن يمر الجمل من ثقب الإبرة من أن يدخل غنى (مالك العقارات العظيمة) ملكوت السموات » .

ويلوح أن العالم ظل طوال الخمسة والعشرين أو الثلاثين قرناً الأخيرة يوجه سهام النقد بلا انقطاع للمقدار الذى يمكن السماح به من الملْكية . وها نحن بعد انقضاء تسع عشرة مئة من السنين على يسوع الناصرى ، نجد كل العالم المستظل بالتعاليم المسيحية مقتنعاً بأن الملكية فى الأشخاص أمر لا يمكن أن يكون ، إذ حدث من ناحية هذا الأمر انقلاب فى الضمير العام . وكذلك الفكرة القائلة « بأن الرجل يستطيع أن يفعل ما يشاء فيما يملك » قد هُزت هزاً واضحاً كبيراً وضعفت ضعفاً ملموساً بالعلاقة إلى أنواع أخرى من الملْكية . على أن هذا العالم الذى نشهده فى نهاية القرن الثامن عشر ، لم يبلغ بعد فى هذه المسألة إلا مرحلة الشك والإستفسار . ذلك أنه لم يكن لديه شىء واضح وضوحاً كافياً يستطيع أن يتخذه أساساً يعمل عليه ، فضلا عن شىء مستقر استقراراً كافياً . وكان من أوائل دوافعه حفظ الممتلكات من أن يعبث بها جشع الملوك وتبذيرهم وحمايتها من استغلال النبلاء المغامرين . وقد شبت الثورة من أجل الحفاظ على الملْكية الخاصة . ولكن مبادئ المساواة التى اتخذت ، دفعت بها فى غمرات النقد والتجريح للملْكية التى نهضت لحمايتها . إذ كيف يستطيع الرجال أن يكونوا أحراراً متساوين بينما العدد الجم منهم ليس لديهم أرض يعيشون

عليها ولا شيء يطعمونه ، كما أن الملاك لا يرضون بإطعامهم ولا بإيوائهم ما لم يكدحوا كدحاً شديداً مسرفاً — تلك هي شكوى الفقراء .

وكان رد اليعاقبة على ذلك اللغز أن أكبوا على « التقسيم » . فإنهم أرادوا أن يشدوا أزر الملكية ويعمموها . وكان هناك من قبل فى القرن الثامن عشر قوم يرمون إلى نفس الغاية وإن كان ذلك بطريق آخر ، هم جماعة بدائية بعينها من الاشتراكيين — أو بمعنى أدق من الشيوعيين — كانوا يريدون أن يلغوا الملكية الخاصة إلغاءاً تاماً . وكان على الدولة فى رأيهم أن تملك كل الممتلكات . ولم يشرع الناس إلا بعد مضى فترة كبيرة من القرن التاسع عشر ، يدركون أن الممتلكات ليست شيئاً واحداً بسيطاً . بل هى مركب عظيم من الملكيات ذوات القيم والأهميات والدرجات المختلفة . وأن كثيراً من الأشياء (من أمثال بدن الإنسان وأدوات الفنان والثياب وفرش الأسنان) إنما هى ممتلكات شخصية بصورة عميقة جداً ولا علاج لها أبداً . وأن هناك نطاقاً عظيما من الأشياء أمثال السكك الحديدية والآلات ذوات الأنواع المختلفة والمنازل والحدائق المزروعة وزوارق المتعة وكل منها بحاجة أن يلقى منا تاملا خاصاً جداً لنقدر إلى أى درجة وتحت أى حدود يمكن وضعها تحت اسم الملكية الخاصة ، وإلى أى مدى تقع فى نطاق الملكية العامة ويمكن أن تديرها وتؤجرها الدولة خدمة للمصلحة الجماعية . ونحن نمتاز اليوم على الجيل الثورى الأول بذخر كبير من الأبحاث التى دارت فى مدى السنوات المئة والثلاثين الأخيرة ، ولكن حتى هذا « الأدب » المسطر فى الملكية والنقد الموجه إليها لا يزال إلى اليوم اختماراً هائلا حامى الوطيس أكثر منه علماً مقرراً . وكان من المستحيل والحالة هذه أن تستطيع فرنسا القرن الثامن عشر أن تنتج أى مشهد اخر عدا تلك الحركات الشعبية الغامضة المرتبكة الراغبة فى حرمان الملاك من أملاكهم ، وعدا مشهد طبقات من الملاك الصغار والكبار الذين يستمسكون بما لديهم استمساك الغاضب المتجهم مطالبين قبل كل شيء بضمان الملكية .

ومما يتصل أوثق اتصال بغموض فكرة الملكية فى أذهان الناس غموض فكرائهم عن « العملة » . فإن كلا من الجمهوريتين الأمريكية والفرنسية أصيبت من جراء هذا

الأمر بمتاعب خطيرة . وإنا لنعالج هنا أيضاً أمراً ليس بالهين اليسير ، بل هو ثمرة من العرف المتبع والأوضاع التقليدية والقوانين والعادات العقلية الفاشية ، التى تنشأ عنها مسائل تسمح بأى حل يقوم على أسس بسيطة ، والتى هى مع ذلك صاحبة أهمية حيوية فى حياة المجتمع اليومية . وصحة الاعتراف الذى يتناوله الرجل مقابل اشتغاله يومياً ، ذات أهمية أولية تماماً ، كما هو بيّن ، فى عمل الجهاز الاجتماعى . وهناك نوعان من النمو تما بالتدريج على كر التاريخ الإنسانى ، هما نمو الثقة فى المعادن النفيسة ونمو العملة نمواً اقتنع به الناس عملياً أن العملة الجيدة يمكن الاطمئنان إلى امتلاكها قوتها الشرائية فى أى مكان .

ولما كان استقرار ذلك الاطمئنان متوسطا ، فإنه تعرض لتأزمات وارتباكات جسيمة جداً ، نتجت عما كانت تعمد إليه الحكومات من خفض العملة ومن استبدال النقود المعدنية الفعلية بالوعود الورقية بالدفع . فما كادت تحدث زلزلات سياسية واجتماعية خطيرة ، حتى أخذ نظام النقود يعمل بصورة متأزمة غير مضبوطة .

وقد ابتدأت كل من الولايات المتحدة والجمهورية الفرنسية حياتها فى دور عسر مالى . وكانت كل من الحكومتين تقترض النقود وتصدر وعوداً ورقية بدفع الفوائد ، وهى فوائد تفوق ما كانتا تستطيعان جبايته فى غير مشقة . وأفضت كل من الثورتين إلى الشيء الكثير من الإنفاق والإقتراض العام المستيئس ، وأدت فى نفس الوقت إلى انقطاع فى عملية الزراعة والإنتاج زاد فى إنقاص الثروة الحقيقية التى يستطاع فرض الضرائب عليها . وإذ أن كلا من الحكومتين لم تستطع أن تواصل الدفع بالذهب ، فقد لجأت إلى إصدار العملة الورقية (البنكنوت) ، التى تعد فيها بأن تدفع بضمان الأراضى غير المتطورة (فى أمريكا) أو أراضى الكنيسة المصادرة حديثاً (فرنسا) . وتجاوز القدر الصادر فى كل من الحالتين حد ثقة الناس فى الضمان الجديد تجاوزاً بعيداً . وهرب الذهب من الأسواق حيث أخفاه مكرة الناس ، أو أرسل إلى الخارج تسديداً لأثمان البضائع المستوردة ، ووجد الناس أنفسهم يحملون أنواعاً مختلفة من الصكوك وورق البنكنوت بدل العملة وكلها ذات قيمة متناقصة غير محققة .

ومهما يكن شأن أصول العملة من التعقيد ، فإن آثارها العملية والغاية التي لا بد لها من خدمتها فى المجتمع يمكن أن تذكر هنا بطريقة إجمالية . فإن النقود التي يتلقاها الرجل عن عمله (عقلياً كان أم جسمانياً) ، أو عن التخلى عن ملكيته مقابل منفعة إستهلاكية لا بد أن تستطيع فى النهاية أن تشترى له ولاستعماله قدراً يعادل ذلك بالتقريب من السلع المستهلكة . (ولفظة « السلع المستهلكة » عبارة نحب أن تفهم على أوسع معانيها بحيث تمثل حتى إحدى الرحلات ، أو الاستماع إلى محاضرة أو حضور إحدى المسرحيات أو السكن أو الاستشارة الطبية وما إليها من الأشياء) . فإذا ضمن كل فرد من المجتمع توفر هذه الأشياء له ، وضمن أن النقود لن تنحط قوتها الشرائية – فإن العملة وتوزيع البضائع بالتجارة تكون عندئذ فى حالة سليمة مرضية . فعند ذلك ، وعند ذلك فقط ، يشتغل الرجال مسرورين راضين .

والحاجة الحتمية إلى ذلك الاستقرار وذلك الضمان فى العملة ، إنما تقوم بناءً على هذا فى الحقائق الثابتة (Datum) التى منها يجب أن تبدأ الدراسة العملية للعملة والرقابة عليها . ولكن لابد دائماً من وجود التقلبات فى قيمة العملة ولو فى ظلال أثبت الأحوال وأرسخها . فإن صافى جملة السلع القابلة للشراء والاستهلاك فى العالم وفى أقطار متنوعة ، تختلف من سنة إلى أخرى ومن فصل إلى فصل ؛ ولعل الخريف زمن خيرات ووفرة بالموازنة إلى الربيع ؛ فإذا حدثت زيادة فى السلع التى يمكن الحصول عليها فى العالم تزداد القوة الشرائية للعملة ، ما لم يرافق ذلك زيادة فى مقدار العملة ، فإن كان هناك من الناحية الأخرى نقص فى إنتاج السلع الاستهلاكية أو تدمير عظيم غير مربح فى السلع الاستهلاكية ، شأن ما يحدث فى الحروب ، نقص نصيب جملة السلع الاستهلاكية ممثلا فى مبلغ من المال ، ثم تعلو لامحالة الأسعار والأجور . فربما حدث فى الحروب العصرية أن انفجار قنبلة كبيرة واحدة ، وإن لم تصب شيئاً ، يستهلك من العمل والمواد ما يعادل لدى أحد الرجال بالتقريب أجرة منزل ريفى ظريف أو نفقة عطلة سنوية . فإن أصابت القنبلة شيئاً ما ، وجبت إضافة ذلك التدمير الآخر إلى النقص فى السع الاستهلاكية . ولقد كانت كل قنبلة تنفجر فى الحرب العظمى

تنقص جزءاً يسيراً من القوة الشرائية لكل عملة فى العالم بأجمعه . فإن كان هناك أيضاً زيادة فى العملة أثناء فترة تستنفد فيها السلع الاستهلاكية ولا تستبدل تمام الاستبدال بغيرها — وضرورات الحكومة الثورية والعاملة على الحرب تكاد تتطلب ذلك على الدوام — تكون الزيادة عند ذلك فى الأسعار والهبوط فى قيمة العملة المدفوعة أجوراً ، أكبر وأكبر .

وقد جرت العادة كذلك بأن الحكومات تضطر مدفوعة بتلك الشدائد إلى اقتراض المال ، أعنى أنها تصدر أوراقاً تحمل الفائدة بضمان رغبة المجتمع العام ومقدرته على تحمل الضرائب .

وتكون مثل هذه العمليات على درجة كبيرة من الصعوبة إن كان من يقوم بها رجالا على تمام الشرف يقومون بها فى صراحة ، تحت كامل ضياء العلانية والمعرفة العلمية . ولكن هذا الأمر لم يحدث البتة حتى يومنا هذا ؛ فنى كل آن ومكان تجد الأنانى البارع أى الصنف الشرير من الرجل الغنى ، يحاول أن ينحرف بالأمور قليلا نحو مصلحته الخاصة . كذلك يجد الإنسان فى كل مكان الأنانى الغبى ، على أهبة الاستعداد للتشرب بالخوف والتخاذل ذعراً . ومن ثم تنكشف لنا الدولة على الفور وقد فدحتها وفرة فى العملة ، التى هى فى واقع الأمر بمثابة دين لا يدفع الفوائد ، كما يبهظها كذلك عبء فوائد القروض . ويبدأ كل من « الائتمان Credit » والعملة فى التمايح والتقلب الشديد مع تبخر (تناقص) الثقة العامة . وقد نستطيع أن نقول عنهما عندئذ إنهما فى حالة انحلال معنوى خلقى .

والعاقبة النهائية لعملة أصيبت بتمام الانحلال المعنوى هى إيقاف كل عمل وكل تجارة لا يستطاع مواصلتها بالدفع عيناً أو مقايضة . فإن الرجال يرفضون عند ذلك أن يعملوا ، اللهم إلا مقابل الطعام والثياب والمسكن والدفع عيناً . والنتيجة المباشرة لعملة منحلة انحلالا معنوياً جزئياً هى رفع الأسعار وجعل التجارة أمراً مخيفاً مخطراً ، وملء نفوس العمال بالريب والشكوك والتهيؤ للهياج . فى مثل هذه الظروف يميل الرجل الذكى إلى إبقاء النقود فى حوزته إلى أقصر أمد ممكن ؛ فهو يطلب أقصى ما يستطيع فى مقابل حقيقته التى بين يديه ، ويشترى مرة ثانية

حقيقة أخرى بأسرع مستطاعه لكى يباعد ما بينه وبين تلك المادة القابلة للهلاك ، وأعنى بها العملة الورقية . ويكابد كل أرباب الدخل الثابت والرصيد المدّخر ويقاسون من غلاء الأسعار ، ويجد الأجراء ولهيب غضبهم يزداد فى كل آن أوارا ، أن القيمة الحقيقية لأجورهم فى تناقص مطرد .

ومن الواضح أن تلك حالة يحتّم فيها الواجب على كل شخص ذكى أن يبذل العون ويقوم بجهد فى سبيل إعادة الأمور إلى نصابها وبث الطمأنينة فى نفوس الناس . على أن كل تقاليد المسعى الخاص ، وكل فكرات الجزء الأخير من القرن الثامن عشر ، اتجهت إلى تبرير أعمال ذوى الذكاء الشديد والمهرة من الناس الذين نصبوا أنفسهم لتجميع الإدعاءات ، والألقاب والأملاك المحسوسة فى ظلال العواصف والتزلزلات والتقلقلات التى تحدث أثناء انهيار هذه العملة . ومن عجب أن الرجال المدركين للحقائق فى العالم والذين كانوا ينصبون أنفسهم فى إخلاص وبساطة لإعادة ما للعملة والائتمان من أحوال شريفة يمكن التعامل فى ظلالها ، كانوا رجالا قليلى العدد ، عديمى الأثر . فإن معظم رجال المال والمضاربات فى ذلك الزمان كانوا يلعبون دور رجال كورنوال[١] دون وعى منهم إلى ما فى ذلك من قلة الشرف ، بل يفعلونه فيما يبدو بأتم أنواع الاستحسان الذاتى وأكمل مظاهر رضى زملائهم . لقد كان هدف كل شخص ذكى ماهر أن يجمع أكثر ما يستطيع من الثروة القابلة للتداول ، وعند ذلك ، وعند ذلك فقط ، يعمد إلى تدبير وسيلة تؤدى إلى التوطيد السياسى ، وتغادر له ملكية ما جمع أعود ما تكون عليه نفعاً . فهذه هى عوامل جو اقتصادى ردىء ملىء بالشكوك والعصبية المحمومة والجشع والمضاربات . . .

فأما الاتجاه الثالث الذى اتجهته الثورة دون أن تستعد له بفكرات نيرة واضحة ، وهو مسألة العلاقات الدولية ، فقد قدر عليها فيه تطورات تفاعلت أسوأ التفاعل وأجلبه للكوارث مع هذه الحالة ، حالة المغامرة المالية والاقتصادية

---

(١) يشير الكاتب هنا إلى ما كان يفعله سكان كورنوال بغرب انجلترة ؛ إذ يستدرجون السفن ويخدعونها بالأنوار لتتدمر على شاطئهم فينهبوها . (المترجم)

وهذا التخاطف والارتباك وانشغال بالهم بما أصاب ملكيتهم الخاصة ومركزهم النقدى فى بلادهم ، من انزلاق محير للعقول . فقد وجدت الجمهورية نفسها يوم ميلادها مشتبكة فى حرب . وقد ظل المجندون الجدد ردحاً من الزمن يخوضون غمار هذه الحرب بوطنية وحماسة لم ير العالم لهما فى تاريخه نظيراً . ولكن لم يكن فى الإمكان أن يستمر هذا الحال إلى الأبد . ووجدت حكومة الإدارة نفسها على رأس بلاد فاتحة ، ولكنها كانت من الناحية الداخلية فى عسر مالى واضطراب لايطاقان ، ووجدت نفسها تحتل أراضى أجنبية غنية مليئة بثروة يمكن الاستيلاء عليها ، عامرة بالفرص المادية والمالية . ويحمل كل منا فى طياته طبيعة مزدوجة . ويلوح أن الفرنسيين بوجه خاص قد تطوروا بشكل منطقى متناسق (سيمترى) فى حمل كلتا الطبيعتين . فقد جاءت فرنسا إلى هذه الأقاليم المغزوّة مُحرِّراً ومعلماً وكانت أستاذة الإنسانية فى الروح الجمهورية . ومن ثَم أصبحت هولندة وبلجيكا تسميان الجمهورية الباتافية ، وأصبحت جنوا وملحقاتها الرڤييرا الجمهورية الليجورية ، وغدا شمال إيطاليا الجمهورية السيزألبينية ، وغير اسم سويسرا إلى الجمهورية الهلڤاتية (Halvatian Republic) ، وسميت روما وميلوز (Mulhausen) ونابولى جمهوريات . فإذا تجمعت هذه الجمهوريات حول فرنسا فإنها كانت على أن تكون مجموعة من كواكب الحرية اللوامع تقود العالم وتهديه . تلك هى الناحية المثالية فى الموضوع . وفى نفس الوقت تقدمت الحكومة الفرنسية ، والأفراد الفرنسيون مجتمعين مع الحكومة للقيام باستغلال كامل استنفادى لموارد تلك البلاد المحررة .

وبذا تبدأ فرنسا الجديدة فى مدى عشر سنوات من اجتماع مجلس الطبقات أن تتخذ لها شبهاً عجيباً بفرنسا القديمة . بل هى أشد عنفواناً وأنشط قوة ؛ وهى ترتدى فوق رأسها قلنصوة الحرية فى مكان التاج ؛ ولديها جيش جديد غير أن لديها أسطولا محطما ؛ وإن فيها لأناساً أغنياء جدداً مكان الأغنياء القدماء ، وفيها فلاحون جدد يكادون يكدحون أكثر من سابقيهم ويدفعون ضرائب أفدح ؛ وفيها سياسة خارجية جديدة عجيبة الشبه بالسياسة الخارجية القديمة الملغاة ؛ ولم يظهر فيها العهد الذهبى عهد المسيح المنتظر .

الفصل السادس والثلاثون

سيرة نابليون بونابرت

١ – أسرة بونابرت فى كورسيكا

ها نحن أولاء نصل الآن إلى شخصية من أشد شخصيات التاريخ إشراقاً وسطوعاً ، هى شخصية مغامر مُحَطِّم ، يبدو أن قصته تظهر فى نصاعة خارقة للعادة النضال العام الخفى الدقيق بين الأنانية والكبرياء والشخصية ، وبين مرعيات المصلحة المشتركة الأشد ضعفاً والأكثر اتساعاً . وإنك لتلحظ قبالة هذه الخلفية المكونة من الارتباك والمحنة والأمل ، أى قبالة هذه القارة الأوربية والدولة الفرنسية المنهكتين اللاهثتين ، وهذا الفجر العاصف الضخم ، ظهور هذه الشخصية الضئيلة القديمة الطراز بما لها من الصلابة والتماسك والكفاية وعدم الاستمساك بمبادئ الشرف مع الميل إلى التقليد والسوقية المتقنة . ولد فى ١٧٦٩ بجزيرة كورسيكا التى كانت ما تزال نصف همجية . وكان ابناً لرجل غير ذى شأن تقريباً ، وهو محام كان فى بادئ أمره وطنياً يناضل الملكية الفرنسية ، التى كانت تحاول أن تخضع كورسيكا ، ثم انقلب عند مولده على وطنه وانضم إلى صف المغير الغاصب . وكانت أمه ذات طبيعة أقوى ، محتدمة الوطنية ولها قوة شكمية ومقدرة فى الكياسة وتدبير الأمور . (كانت تضرب أولادها بالمقرعة ، حتى لقد ضربت نابليون ذات مرة وهو فى السادسة عشرة) . وكان هناك إخوة وأخوات كثير ، وظلت العائلة تلاحق الحكومة الفرنسية بالالحاف فى طلب المكافآت والوظائف . وفيما عدا نابليون فإن العائلة تبدو

عائلة « جائعة » عادية تماماً . كان ماهراً ذكياً سيئ الخلق متكبراً غطريسا . اكتسب من أمه وطنية (رومانسية) كورسيكية .

حصل بفضل رعاية محافظ كورسيكا الفرنسى على تعليم ابتدأ بمدرسة برين Brienne العسكرية ثم بالمدرسة الحربية بباريس ، ومنها انتقل إلى المدفعية فى ١٧٨٥ . كان دارساً مجتهداً لكل من الرياضيات والتاريخ ، وكانت ذاكرته قوية قوة خارقة ، وكان يدون ملحوظاته فى دفاتر ضخمة ما تزال موجودة . ودفاتر المذكرات تلك لا تظهر فيه أى ذكاء استثنائى ، كما أنها تحتوى كذلك على قطع صغيرة من الانشاء الأصيل – حول الانتحار وما يماثله من موضوعات المراهقين . وقد وقع فى حبائل سحر روسو منذ زمن مبكر ، ثم تزايدت حساسيته رهفاً وتطور فى نفسه الاحتقار لمفاسد المدنية . وكتب فى ١٧٨٦ نشرة ضد قسيس سويسرى هاجم روسو . وكان يحلم بكورسيكا المستقلة المتحررة من نير الفرنسيين . ثم أصبح مع شبوب الثورة جمهورياً متحمساً ونصيراً للنظام الجديد فى كورسيكا . وظل يعقوبياً بضع سنوات حتى سقوط روبسبيير .

٢ – بونابرت قائداً جمهورياً

وسرعان ما ذاع صيته بأنه ضابط نافع مقتدر ، وقد استطاع بوساطة شقيق روبسبيير الأصغر أن يحصل على أول فرصة يبز بها أقرانه فى طولون . وكان الملكيون قد سلموا طولون للبريطانيين والأسبان ، واحتل أسطول متحالف ميناءها . وأعطيت لبونابرت قيادة المدفعية ، واستطاع الفرنسيون بقيادته أن يرغموا الحلفاء على مغادرة الميناء والمدينة .

ثم عين بعد ذلك قائداً للمدفعية فى إيطاليا ، ولكنه قبل أن يتسلم مقاليد عمله اكفهر الجو وبدا فى الأفق أن موت روبسبيير قد يجر مصرعه أيضاً ؛ فوضع تحت الاعتقال بوصفه يعقوبياً ، وظل خطر المقصلة محدقاً برقبته ردحاً من الزمان . ثم انقشع ذلك الخطر . وعين قائداً للمدفعية فى غارة على كورسيكا لم تأت بفائدة ، ثم ذهب إلى باريس (١٧٩٥) وهو فى حال رثة . وتصف مدام جونو فى مذكراتها وجهه الهزيل

ومظهره الرث فى ذلك الزمان ، وشعره « الأشعث سيء التذرير يتدلى فوق معطفه الرمادى » ، ويداه العاطلتين عن القفاز وحذاءه السيء الدهان . كان ذلك زمان إجهاد وإنتكاس أعقبا قساوات الجمهورية اليعوقبية . يقول هولاند روز « كان نجم الحرية قد أخذ يأفل فى باريس تلقاء إشراق عطارد (Meieury) والمريخ (Mars) والزهرة (Venus) » أى المالية والثياب العسكرية والبهاء الاجتماعى . وكان خيرة الرجال العاديين يعملون فى الجيوش وراء الحدود . ولقد سبق أن ذكرنا من قبل آخر ثورة للملكيين فى ١٧٩٥ . ومن حسن طالع نابليون أنه كان فى باريس فى ذلك اليوم ، فلقى فى هذه المسألة نهزته الثانية . فأنقذ جمهورية الإدارة .

وأثرت كفايته فى كارنو أيما تأثير ، وهو أشد المديرين استقامة فأعجب به . زد على ذلك أنه تزوج من أرملة شابة حسناء ، هى مدام چوزفين دى بوهارنية ، وكان لها سلطان عظيم على باراه (Barras) . والرجح أن هذين الامرين هما اللذان ساعداه على الحصول على القيادة فى إيطاليا .

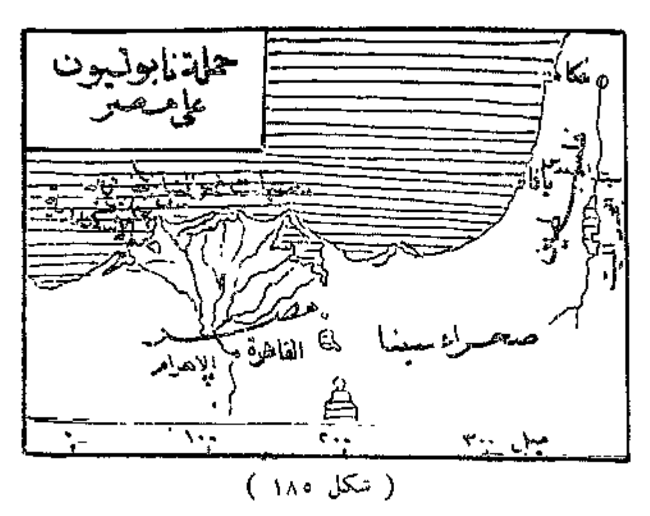
وليس أمامنا هنا متسع لقصة حملاته الزاكية فى إيطاليا (١٧٩٦ — ١٧٩٧) ، ولكن لابد لنا من كلمة أو اثنتين عن الروح التى تمت بها تلك الحملات على إيطاليا ؛ لأنها تبين أنصع تبيان، تلك الروح المزدوجة لفرنسا ونابليون، وكيف أخذت الفكرة المثالية الجمهورية فى الشحوب تلقاء الظروف العملية القاهرة . فإنه أعلن على الإيطاليين أن الفرنسيين إنما يقدمون لتحطيم أغلالهم — وكانوا عند قولهم ! ؟ . . . على أنه يكتب إلى حكومة الإدارة يقول : « لسوف نجبي عشرين مليوناً من الفرنكات ، نحتم على الأهالى دفعها فى هذه البلاد ؛ فإنها من أغنى بلاد العالم » . فأما جنوده فإنه خاطبهم بقوله : « إنكم جياع وتكادون تكونون عراة . . . وإنى لأقودكم إلى أخصب سهل فى العالم . ولسوف تجدون هناك مدناً عظيمة وولايات غنية وشرفاً ومجداً وثروة . . . »

ونحن البشر مفطورون لاجرم — على طبيعة مخلطة كهذه ؛ بيد أن هذه الفقرات التى كتبها شاب فى السابعة والعشرين ، يلوح أنها تظهر الطلاء الذهبي المموه للمثالية العليا الشريفة وقد زال عنها ونصل فى سن مبكرة تبكيرا غير عادى .

وكان نجاحه فى إيطاليا زاكياً كاملا . وكانت رغبته فى الذهاب إلى إيطاليا راجعة إلى أنه كان يتوقع أن يجد فيها أشد الأعمال اجتذابا له ؛ فخاطر بوظيفته فى الجيش برفضه أن يقبل العمل المضنى فى قيادة حملة على العصاة فى لافنديه . وكان قد أكب طويلا على قراءة تراجم بلوتارك[1] والتاريخ الرومانى ، فكان خياله البالغ النشاط ملتهباً عند ذاك بالأحلام ، أحلام إنبعاث الفتوح الشرقية للإمبراطورية الرومانية . تخلص نابليون من جمهورية البندقية بأن مزقها بين فرنسا والنمسا ، محتفظاً لفرنسا بالجزائر الأيونية والأسطول البندقى . وقد أثبتت الأيام فيما بعد أن هذا الصلح المسمى صلح كامبو فورميو كان صفقة خاسرة لكل من الطرفين . فقد اشتركت جمهورية فرنسا الجديدة فى قتل جمهورية قديمة — وأنفذ نابليون رأيه مخالفاً بذلك صيحة سخط وإنكار تعالت فى فرنسا — وحصلت النمسا على مقاطعة فينيتيا ، وهى الأراضى التى قدر عليها فى ١٩١٨ أن تنزف فيها حتى تموت . وكانت هنالك كذلك فقرات سرية اتفقت فيها فرنسا والنمسا على الحصول فيما بعد على الأراضى الألمانية الجنوبية . ولم يكن الحلم بالتوسع الرومانى نحو الشرق هو وحده الذى كان آنذاك يعمل عمله فى عقل نابليون . فهذه هى أرض قيصر نفسها ، وكان قيصر مثالا سيئاً لذلك الجنرال الموفق فى جمهورية غير وطيدة .

وكان قيصر قد عاد إلى روما من بلاد الغال بطلا وفاتحاً . فكان مقلده يريد أن يعود من مصر والهند مظفراً كذلك ، ومن ثم تكون مصر والهند هى بلاد الغال بالنسبة إلى نابليون . وكانت عناصر الفشل تحملق بعينها فى وجهه . إذ كان الطريق إلى مصر والهند بحرياً ، وكان البريطانيون بالرغم من حدوث تمردين بحريين قريبى العهد ، أقوى مُنّة فى البحر من الفرنسيين . زد على ذلك أن مصر كانت جزءاً من الإمبراطورية العثمانية ، ولم تكن هذه بأى حال دولة يستهان بها فى تلك الأيام . ولكنه مع ذلك أقنع حكومة الإدارة ، التى كانت بهرتها فى إيطاليا أعماله العظيمة

(١) تراجم بلوتارك . وهو كاتب إغريقى ولد فى خيرونيا ، وكان يلقى المحاضرات بروما فى عصر هادريان . وكتابه « التراجم المتماثلة » يتكون من أزواج متقابلة من سير القادة والسياسيين الإغريق والرومان تعقبها مقارنات بين كل اثنين . (المترجم)



(شكل ١٨٥)

بالسماح له بالذهاب . وخرجت أرماداً[1] من طولون فى مايو ١٧٩٨ واستولت على مالطه ، ومن يمن طالعها أن تجنبت الأسطول البريطانى ووصلت إلى الإسكندرية . فأنزل جنوده على عجل ، ولم تلبث معركة الأهرام أن جعلته سيداً على مصر .

وكان الأسطول البريطانى الرئيسى فى ذلك الوقت فى ظاهر المحيط الأطلسى قبالة قادس ، ولكن أمير البحر كان أفرد قوة من خيرة سفنه ، بقيادة القيس أميرال نلسون — وهو نابغة عظيم فى الشئون البحرية نبوغ نابليون فى الأمور العسكرية البرية — أرسله ليتعقب العمارة الفرنسية الصغيرة وينازلها . وطفق نلسون حيناً من الزمان يبحث عن الأسطول الفرنسى بلا جدوى ؛ حتى وجده أخيراً فى مساء يوم أول أغسطس راسياً فى خليج « أبى قير » فأخذه على غرة ؛ إذ كان كثير من الرجال على البر وكان ثمة مجلس منعقداً فى سفينة القيادة . ولم تكن لديه خرائط ، وكانت قيادة السفن فى مياه ضحلة تحت أنوار الأصيل الكابية أمراً محفوفاً بالمخاطر . ومن ثم استنتج الأميرال الفرنسى أن البريطانيين لن يهاجموه قبل طلوع الصبح ، ولذا لم يتعجل فى استدعاء رجاله الموجودين على البر إلى سفنهم حتى فات الأوان . ومهما يكن من شىء ، فإن نلسون أخذ يضرب من فوره مخالفاً بذلك نصيحة كثير من قواده . ولم تشحط منه إلا سفينة واحدة فقط . فدلت بذلك بقية الأسطول على

(١) عمارة بحرية من سفن الحرب . (المترجم)

المنطقة الضحلة . وتحرك الأميرال بسفنه هاجماً فى خط مزدوج قرب غروب الشمس ، فوضع الفرنسيين بين نارين . وأرخى الليل سدوله وقد التحم الطرفان فى المعركة ؛ وكان القتال يهدر ويهزم تحت جنح الظلام حتى أضاء المكان من فوره بلهيب السفن الفرنسية المحترقة ، ثم بوميض سفينة القيادة الفرنسية الأوريئت (L'Orient) . وقد انفجرت . . . ولم ينتصف الليل حتى كانت معركة النيل قد انتهت ، وكان أسطول نابليون قد تدمر . وبذلك انقطع الطريق على نابليون إلى فرنسا .

ويقول هولاندروز نقلا عن تيير Thiers ، إن هذه الحملة المصرية كانت « أشد المحاولات التى سجلها التاريخ هوجا وتسرعاً » . فقد غودر نابليون فى مصر والعرب يتجمعون عليه والطاعون يفتك برجاله : ومع هذا فإنه استمر ردحاً من الزمان يواصل القيام بهذه الخطة الشرقية . فأحرز فى يافا نصراً ، وإذ كانت تعوزه الميرة فإنه أعمل الذبح فى كل أسراه . ثم حاول أن يستولى على عكا ، حيث استعملت ضده مدفعية الحصار الخاصة به ، وكان البريطانيون استولوا عليها فى البحر قبل ذلك بزمن يسير . حتى إذا عاد إلى مصر خائب المسعى قد أسقط فى يده ، فإنه أحرز فوزاً عظيماً على جيش تركى عند أبى قير ، ثم تخلى بعد ذلك عن جيشه فى مصر — ولكن ذلك الجيش بقى يقاوم حتى عام ١٨٠١ ، حتى استسلم لقوة بريطانية — وفر نابليون بجلده إلى فرنسا ١٧٩٩ ، وقد نجا بأعجوبة من أن تأسره طرادة بريطانية بالقرب من صقيلة .

ولقد لقى فى هذه المشروع من الاخفاق ما يسقط كل ثقة بأى قائد — لو أن أمر ذلك الاخفاق عرف . بيد أن الطرادات البريطانية التى أوشكت أن تلقى عليه القبض هى التى أعانته على إخفاء خيبته إذ منعت تسرب أى علم بحقيقة الموقف فى مصر إلى مسامع الشعب الفرنسى . فاستطاع أن يقيم ضجة عظيمة حول معركة أبى قير وأن يخفى فشله فى عكا . ولم تكن الأمور فى فرنسا فى ذلك الحين على ما يرام . إذ منيت بالهزائم العسكرية فى مواطن عدة ؛ فضاع منها أكثر إيطاليا ؛ وإيطاليا مما غرسته يدا بونابرت ، فأدى هذا إلى اتجاه الأنظار إليه بوصفه المنقذ الطبيعى

للموقف ، هذا إلى أنه حدث الشيء الكثير من الاختلاس ، وأن أخبار بعضها أخذت تتسرب إلى الناس . فكانت فرنسا فى أحد أدوار فضائحها المالية ، ولم يكن نابليون قد امتدت يده إلى أى مال ، فكان الجمهور من ثم فى تلك الحالة الكليلة حالة التعب المعنوى التى يطلب عندها الرجل القوى المتين ، الرجل المدهش الفذ المستحيل المثال ، الذى ينزل على قلب الأمة نزول البلسم والترياق ، ويقوم بكل شىء لكل إنسان . وأخذ الناس يقذفون فى روع أنفسهم أن هذا الفتى الحسن الظواهر ذا الوجه الجامد ، الذى أعادته العناية الإلهية من مصر — إنما هو الرجل القوى الأمين المنشود — وأنه واشنجتون آخر .

واستجاب نابليون لمطلب زمانه وفى مؤخرة ذهنه صورة يوليوس قيصر أكثر منها صورة واشنجتون . ودبرت مؤامرة محكمة لاستبدال حكومة الإدارة بثلاثة « قناصل » يكون نابليون كبيرهم — وكأنى بكل إنسان فى ذلك الزمان يتلو أكثر مما ينبغى فى صفحات التاريخ الرومانى يقرأها ويستوعب ما فيها . والقيام بهذه المؤامرة عمل أعقد من أن يتسع له هذا المكان : وقد تضمن على طريقة كرومويل تشتيت المجلس الأدنى (أى مجلس الخمسمئة) ، وفى هذا الأمر فقد نابليون رباطة جأشه . فإن النواب صاحوا به ودفعوه ، حتى ليلوح أن الخوف داخله . فكاد أن يغمى عليه وأخذ يتمتم ويلجلج وأرتج عليه فلم يحر كلاماً ، ولكن أخاه لوسيان أنقذ الموقف ، بأن استقدم الجنود وفرّق المجلس . على أن هذه الورطة الصغيرة لم تؤثر فى نجاح الخطة النهائى . ونزل القناصل الثلاثة فى بناء قصر لوكسمبرج ، ومعهم قوميسيران إثنان لإعادة وضع الدستور .

وأخذ نابليون يعمل حيال زميليه والقوميسيرين بمنتهى الجرأة والصلف بعد أن عادت إليه كل ثقته بنفسه وبعد أن تحقق من نصرة الشعب له . وأنشىء دستور جعله الموظف التنفيذى الأكبر ولقبه القنصل الأول ، وخوله سلطات هائلة . وكان لزاماً أن يكون هو نابليون ، إذ كان ذلك منصوصاً عليه فى صلب الدستور . وكان على أن يعاد انتخابه أو يستبدل بغيره بعد إنقضاء عشر سنوات.

وكان على أن يساعده مجلس الدولة ، يعينه هو بنفسه ، ويكون من حقه أن ينشيء التشريعات وأن يرسل مقترحاته إلى هيئتين ، هما الهيئة التشريعية (التى كانت تستطيع أن تعطى أصواتها فى الموضوعات دون أن تناقشها) وهيئة التربيون (The Tribunate) (وكانت تستطيع أن تناقش المسائل دون أن تعطى فيها صوتا) ، وينتخب الهيئتين مجلس شيوخ أعضاؤه معينون من بين أفراد طبقة خاصة هى « ذوو المكانة » فى فرنسا ، الذين كان ينتخبهم « ذوو المكانة فى المديرية أو المحافظة » الذين كان ينتخبهم « ذوو المكانة فى الكوميون » الذين كان ينتخبهم الناخبون العاديون ؟ وكان الإقتراع على انتخاب ذوى المكانة فى الكوميون حقاً مباحاً للجميع . فكان هذا هو المظهر الوحيد للديمقراطية فى هذا الهرم المذهل المحير !! ...

وكان هذا الدستور فى معظم أمره الثمرة المشتركة لفيلسوف جليل هو « سيايس Siéyès » (أحد القناصل الثلاثة) — بالإشتراك مع بونابرت . على أن فرنسا بلغ بها الإعياء من متاعبها وجهودها ، وبلغ من ثقة الناس فى فضيلة واقتدار هذا الرجل مبعوث المقادير ، أنه عندما حدث فى مستهل القرن التاسع عشر أن قدم هذا الدستور إلى البلاد أقره ٣،٠١١،٠٠٧ صوتاً ضد ١٥٦٢ . لقد وضعت فرنسا نفسها بين يدى بونابرت وضعاً مطلقاً وأعدت العدة لأن تعيش فى سلام وسعادة ومجد .

٣ — نابليون قنصلا أول ١٧٩٩ — ١٨٠٤

وليس هناك من وجه للشك فى أنه سنحت هنا فرصة لم تسنح قط لرجل فى العالم من قبل . فهنا منصب قد يتقوس له ظهر أى امرئ إشفاقاً من نفسه على نفسه ، وأن يبحث فى زوايا قلبه ، وأن يخدم الله والإنسان بأقصى مستطاعه . إن النظام القديم قد قضى أو كاد ؛ وأخذت قوى عجيبة جديدة تندفع فى أرجاء العالم تبحث عن شكل تصوغ فيه نفسها وقائد يوجهها . وكان الوعد المنتظر والأمل المعقود بجمهورية عالمية وبسلام عالمى دائم يداعبان أفئدة جمهور غفير من ذوى الأذهان المنزعجة . وكانت فرنسا بين يديه وكانت أداة طيّعة له يفعل بها ما يشاء وهى أرغب

ما تكون فى السلام ، غير أنها شاحذة للحرب شحوذ مهند ممتاز . ولم يكن يعوز هذه الفرصة العظيمة إلا الخيال النبيل . وإذ فات نابليون ذلك فإنه لم يكن ليستطيع إلا أن يتبختر بخيلاء على قنة جبل النهزات ذاك العظيم ، كما يتبختر الديك الفرخ فوق تل من الروث . فإن الشخصية التى يكونها لنفسه فى التاريخ شخصية بها ما لا يكاد يصدقه عقل من الغرور بالنفس والاحتقار الوقاح لكل من وثقوا به وعدم الاكتراث بهم . وجنون عظمة يقلد به قيصر والإسكندر وشرلمان تقليد القردة ، لولا أنه مخضب بالدماء الإنسانية الزكية لكان مبعث السخرية والاستهزاء . حتى « جاء » كما يقول ڤكتور هوجو بطريقته الهائلة « يوم ضاق فيه الله به ذرعاً » ، فقذف به ركلا بالأرجل ليختم أيامه فى ركن منعزل يشرح ويشرح كم كانت أشنع أخطائه مسرحاً للذكاء والمهارة وهو يتربص فى أرجاء جزيرته الحارة الموحشة متصيداً الطيور ويتشاجر شجاراً وضيعاً مع سجان منحط التربية لم يكن يوليه « الاحترام » اللائق .

ولعل عمله كقنصل أول أقل أدوار حياته معرة . فإنه تناول فى يده الشئون العسكرية التى تقوضت أثناء حكم الإدارة . وبعد حملة معقدة فى شمال إيطاليا ، بلغ بالأمور إلى نصر حاسم عند مارينجو قرب اليساندريا فى (١٨٠٠) . وكان نصراً قارب فى بعض أوقاته أن يكون كارثة كبيرة . وفى ديسمبر من السنة نفسها أوقع الجنرال مورو (Moreau) هزيمة ساحقة منكرة بالجيش النمسوى قرب هوهنليندن ، فى ظروف تكنفته فيها عوامل الثلج والوحل والجو الفظيع الرهيب فلو أن نابليون فاز بهذه المعركة لاحتسبت من بين أبرز مآثره وأعلاها كعباً . وبهذه الأمور صار السلم المرجو أمراً ممكناً . وفى ١٨٠١ تم التوقيع على الخطوة الأولى الممهدة للصلح مع انجلترة والنمسا . وانتهى الصلح مع انجلترة بمعاهدة أميان فى سنة ١٨٠٢ . وصار نابليون مطلق اليدين يستطيع أن يتفرغ لفن السياسة والتدبير الخلاق المبتدع الذى كانت فرنسا — وأوربا بأجمعها من وراء فرنسا — فى أشد الحاجة إليه . لقد أتاحت الحرب لفرنسا أن تمد رقعة أرضها وتوسع حدودها ، وبمقتضى المعاهدة مع انجلترة استرجعت فرنسا إمبراطوريتها فى المستعمرات وأصبحت

فى حالة أمن تتجاوز أقصى ما كان يحلم به الملك لويس الرابع عشر . وكان الباب مفتوحاً أمام نابليون لكى ينتج ويدعم نظام الأمور ويصنع دولة عصرية تكون نبراساً ومصدر وحى وإلهام على كل أوربا والعالم قاطبة .

على أنه لم يحاول أن يعمل شيئاً من هذا القبيل . إذ كان خياله الهزيل المقلّد مليئاً بحلم أن يكون هو قيصر من جديد . فكان يدبر الخطط لجعل نفسه إمبراطوراً حقيقياً ، يضع على رأسه التاج ويجعل منافسيه وزملاءه فى المدرسة وأصدقاءه عند موطىء قدميه . ولم يكن هذا ليمنحه أية قوة جديدة ليست فى يديه حتى آنذاك ، على أن ذلك يكون شيئاً أعظم أبهة وأشد فخامة ، يكون شيئاً يدهش أمه . فيالها من استجابة يستجيب بها رأس من هذا النوع للتحدى الرائع الخلاق فى ذلك الزمان ؟ ! ! .

ولكن لا بد أن تدرج فرنسا قبل كل شيء فى مدارج الرخاء . إذ من المحقق أن فرنسا الجائعة لا تطيق وجود إمبراطور . فنصب نفسه لتنفيذ مشروع قديم للطرق كان لويس الخامس عشر أقره ، وأنشأ الترع تقليداً منه للترع الإنجليزية ؛ ثم أعاد تنظيم البوليس ووطد شئون الأمن فى البلاد . وتمهيداً لمشهد درامته الشخصية ، نصب نفسه لجعل باريس تبدو فى شكل روما بمالها من عقود كلاسيكية وعمد كلاسيكية . ونشأت فى تنظيم البنوك خطط جديدة تستدعى الإعجاب ، فاستعملها . وكان فى كل هذه الأمور مسايراً لزمانه ؛ فإنها أمور كانت لا بد آتية مع قدر من الإستبداد أقل — وقدر من التمركز أضأل ، ولو لم يولد نابليون قط . ونصب نفسه لإضعاف الجمهوريين الذين كان يدبر الخطط للعدوان على معتقداتهم الجوهرية . فسمح بعودة المهاجرين على شريطة أن يقدموا التوكيدات المرضية على احترام النظام الجديد . وكان منهم كثير يرغبون أشد الرغبة فى العودة على مثل تلك الشروط وأن يدعوا آل بوربون وشأنهم ويعدوهم فى خبر كان . ثم توصل إلى صلح عظيم أبرم به « ميثاقا Concordat » مع روما . تعهدت به أن تناصره وتعهد أن يعيد سلطانها فى الأبروشيات . إذ كان يرى أن فرنسا لا يمكن أن تكون طيعة سلسلة القياد ، وأنها لن تستطيع أن تطيق ملكية جديدة من غير الدين . قال :

« كيف تستطيع أن تجد فى دولة نظاماً من غير الدين ؟ فالجماعة الإنسانية لا تستطيع أن تعيش من غير التفاوت فى الثراء ، الأمر الذى لا يمكن أن تقوم له قائمة مستديمة بمعزل عن الديانة . فعندما يوشك أحد الرجال أن يقضى نحبه جوعاً إلى جوار آخر مريض بالكظة والبشم ، فإنه لا يستطيع أن يرضى بهذا الفارق ما لم تكن هناك سلطة تعلن أن الله إنما يريد ذلك كذلك ؛ ولا بد للعالم من أن يحوى الفقير والغنى ؛ ولكن تقسيم الأشياء فى العالم الآخر وفى كل الأبدية الخالدة سيكون على أساس مخالف » . وكانت الديانة فى رأيه وبخاصة الديانة من الصنف الكاثوليكى المتأخر ، مادة ممتازة يستطاع بها تسكين العامة . وكان فى أيامه اليعقوبية الأولى قد طعن فى الدين لنفس ذلك السبب .

وثمة عمل جليل آخر يدل على مجال خياله وتقديره للطبيعة الانسانية وذلك هو نظام « جوقة الشرف Legion of Honour » ، وهى خطة للانعام على الفرنسيين بقطع من الشريط ، خطة دبرت تدبيراً محكماً معجباً بقصد تحويل نظر ذوى الطموح من الرجال عن القيام بتصرفات هدامة .

كذلك اهتم نابليون بالدعاية المسيحية . وها هى ذى فكرة نابليون عن فوائد المسيح السياسية ، وهى فكرة تلطخت بها كل البعثات الدينية الفرنسية منذ ذلك الحين . قال : « قد اتجهت رغبتى إلى إعادة إنشاء مؤسسة الارساليات التبشيرية الأجنبية ؛ إذ أن المبشرين الدينيين ربما كانوا ذوى نفع كبير لى فى آسيا وإفريقيا وأمريكا ، وذلك أنى سأكلفهم بتعرف كل الأراضى التى يزورونها . ولن تقف قداسة ثيابهم عند حد حمايتهم بل سوف تخفى وراءها أبحاثهم السياسية والتجارية . ولن تكون روما بعد اليوم مستقر رئاسة مؤسسة المرسلين ، بل باريس » .

ألا ترى فى هذا فكرات تاجر لص لا فكرات رجل دولة ؟ وعلاجه لمسألة التعليم يُظهر فى وضوح عمايته عن حقائق الفجر الجديد المنبثق من حوله . فأما التعليم الأولى فإنه أهمله إهمالا يكاد يكون تاماً ؛ فتركه لضمير السلطات المحلية ، كذلك قرر أن المعلمين يجب أن تدفع رواتبهم من مصروفات التلاميذ ، وواضح أنه لم يكن يرغب فى أن يتعلم عامة الناس العلم ؛ إذ لم تكن لديه أية بارقة إدراك ولو خاطفة عن

السبب الذى من أجله يجب أن يتعلموا ؛ ولكنه كان يهتم بتزويد المدارس الفنية والعليا بالمال ، لأن دولته كانت فى حاجة إلى خدمات رجال أذكياء واسعى الاطلاع يسعون وراء مصالحهم الذاتية . وكان هذا تراجعاً يبعث الذهول ، عن الخطة العظيمة التى كتب مسودتها للجمهورية كوندورسيه[1] فى ١٧٩٢ ، محبذا إقامة نظام كامل من التعليم المجانى للشعب بأكمله . وتحقق الايام فى بطء ولكن بثبات واستمرار مشروع كوندورسيه ؛ فإن الامم العظيمة فى العالم تضطر أن تضعه موضع التنفيذ والتحقيق رويداً رويداً ، وتخرج وسائل نابليون من نطاق إهتمامنا . أما تعليم زوجات وأمهات جنسنا فدونكم حكمة نابليون فيه : « لست ممن يعتقدون أن بنا حاجة إلى أن نتعب أنفسنا بعمل خطة لتعليم الإناث الصغيرات ، فليس فى المستطاع أن يربيهن أحدٌ خيراً من امهاتهن . وليس التعليم العام مناسباً لهن ؛ لأنهن لا يطلبن قط للعمل العام ، وإنما الاخلاق هى الكل فى الكل لهن ، والزواج كل غايتهن » .

ولم يكن القنصل الأول أعطف على النساء فى قوانين نابليون (Code Napoléon) . إذ لم يكن يباح للزوجة مثلا أن تتصرف فى أملاكها ، بل كانت (أى الزوجة) فى يد زوجها . وكان هذا القانون فى معظمه من عمل مجلس الدولة . ويلوح أن نابليون كان يعطل مناقشات ذلك المجلس ويعتاقها أكثر مما يساعدها . وإنه ليجتاح الجلسات غازياً بلا سابق إخطار ، ويتكرم على أعضائه بإلقاء محاضرات طويلة مسهبة ، كثيراً ما كانت تخرج عن الموضوع قيد الدرس خروجاً تاماً . وكان المجلس يستمع إليه باحترام عميق ؛ إذ كان ذلك هو كل ما يستطيع المجلس أن يفعله . وإنه ليستبقى مستشارية إلى ساعات متأخرة من الليل ، مخالفة لكل معقول ، ويظهراً افتخاراً ساذجاً بقدرته الفائقة على السهر . وقد تذكّر تلك المناقشات بارتياح عجيب إبان

(١) كوندورسيه (١٧٤٣ – ١٧٩٤) : فيلسوف ورجل دولة فرنسى . اشترك فى إنشاء الموسوعة وأكسبته مقالته فى نظرية الإمكانيات شهرة واسعة ، انضم إلى الثورة وانتخب عضواً فى الجمعية التشريعية (١٧٩١ – ١٧٩٢) ، وكانت خطته التى كتبها عن واجب الدولة فى التعليم أساساً لخطة فرنسا التعليمية . عارض وإن كان من رجال الثورة فى قتل الملك ، فأهدر دمه . ولما قبض عليه فى النهاية وجد ميتاً ، ولعله تجرع السم . (المترجم)

سنيه الأخيرة ، ولاحظ فى إحدى المناسبات أن مجده وفخاره لا يقوم على كسبه أربعين معركة بل على إنشائه قانون نابليون . . . وكان قانونه هذا شيئاً حسنا ، بقدر ما ذهب بالمعميات القانونية العسيرة القديمة ، وأحل محلها الواضح البين من البيانات ، فإنه جمع شتات مجموعة هائلة غير منتظمة من القوانين القديمة والجديدة ثم نقحها ووضحها . والقانون شأن كل عمله الإنشائى ، كان يهدف إلى الكفاية المباشرة ، فإنه وضع التعاريف للأشياء والعلاقات ، حتى يشرع الناس فى العمل عليها بلا مناقشة جديدة . ومما يقلل من أهميته المباشرة العملية أنه كثيراً ما كان يُعرِّف تلك الأشياء تعريفاً خاطئاً . ولم يكن وراء عملية التقنين هذه أية قوة ذهنية تنهض كشىء متميز عن النشاط الذهنى . إذ أنها سلمت بكل شىء قائم : « إن جلالته لا يعتقد إلا فى الموجود[1] » . والواقع أن الفكرات الجوهرية الأساسية للمجتمع الممدن ، وقواعد التعاون الإنسانى كانت تمر فى مرحلة إعادة تشكيل قطبها ومدارها نابليون — ولكنه لم يشعر بذلك الأمر أبداً . وكل ما فعله أنه قبل دوراً من أدوار التغير . وحاول أنه يثبته إلى الأبد . ولا تزال فرنسا إلى يومنا هذا مُقَمَّطَةً مشدودة الوثاق بهذا الصُّديرى الضيق الذى يرجع به العهد إلى أوائل القرن التاسع عشر ، والذى حشرها فيه نابليون . ذلك بأنه ثبت أحوال النساء وثبت أحوال العمال وأحوال الفلاحين ، ولا يزالون جميعاً يكافحون إلى يومنا هذا بين خيوط شبكة تعريفاته الجامدة . وتقدم نابليون فى نشاط وقوة فنصب ذهنه الجامد الصافى الضيق الأفق لكى يستنهض قوة فرنسا ويشد من عزمها . ولم يكن ذلك الاستنهاض إلا جزءاً من الخطط الأعظم شمولا التى كانت تملأ جوانب نفسه وتتسلط عليها . فقد اتجه خياله اتجاه الاصرار والعزم إلى « قيصرية Caesarism » جديدة . وفى ١٨٠٢ جعلهم يعينونه قنصلا أول مدى الحياة مع إعطائه حق تعيين خلف له ، وترتب على مراميه الواضحة إلى إلحاق هولندة وإيطاليا بفرنسا بالرغم من التزاماته فى المعاهدات بأن يتركهما منفصلتين ، أن أخذت معاهدة أميان تترنح ترنحاً شديداً منذ البداية بذاتها . ولما كان من الضرورى أن تثير عليه خططه حرباً مع انجلترة ، فقد كان يجدر به أن يتريث بأى ثمن حتى يرتفع ببحريته

---

(١) من اقباس لهولاند روز عن جورجو 'Sa Majesté ne croit que ce qui est.'

إلى حد التفوق على البحرية البريطانية . فإنه كان مطلق اليد يتحكم في موارد عظيمة لبناء السفن ، وكانت الحكومة البريطانية حكومة واهنة ، وكانت سنوات ثلاث أو أربع كفيلة بتحويل كفة الميزان . ولكنه بالرغم مما لقى فى مصر من تجربة شاقة قاسية ، لم يدرك قط أهمية القوة البحرية . وفى ١٨٠٣ عجل احتلاله لسويسرا بالأزمة ؛ ونشبت الحرب من جديد مع انجلترة . فقد حدث أن الوزير الضعيف أدينجتون أخلى مكانه فى انجلترة لوليم پت الأعظم منه مقدرة . ومنذ تلك الساعة أصبحت بقية قصة نابليون تدور حول تلك الحرب .

وقد ظل القنصل الأول أثناء مدة القنصلية يعمل ناشطاً على زيادة ثروات إخوته وأخواته . وهو أمر يتصل إلى النفس البشرية بسبب قوى ويمت إلى حب العشيرة وإلى المزاج الكورسيكى كما أنه ينفعنا فى أن نفهم بالضبط كيف كان الرجل يقدر منصبه والنهزات الماثلة بين يديه . وهناك عامل ضخم فى تكوين نابليون هو الرغبة فى أن يذهل ويدهش ويروع أذهان آل بونابرت وجيرانهم ويخضعها لسلطانه . فكان يرقى إخوته بشكل يثير الضحك إذ أنهم كانوا رجالا عاديين جداً ولكن شخصاً واحداً كان يعرفه حق المعرفة لم تخالجه الدهشة ولا داخلته الروعة ولا الخضوع . وكان ذلك الشخص هو أمه . كان يرسل إليها المال لتنفقه وتدهش به جيرانها ؛ وكان يحضها على أن تتخذ لنفسها مظهراً عظيماً ، وأن تعيش العيش الذى يتناسب وأم مثل هذا الإبن العجيب الذى يهز العالم هزاً .

غير أن السيدة الوقور التى قرعت بالمقرعة رجل الأقدار وهو فى سن السادسة عشرة ، لأنه لعَّب وجهه لجدته ، لم تنبهر ولم تنخدع له عند سن الثانية والثلاثين . قد تستطيع فرنسا كلها أن تعبده ولكن الأم لم يساورها أى وهم خادع من قبله . فكانت تضع النقود التى يرسلها جانباً ؛ وتواصل المضى على اقتصادها المعتاد . قالت : « عند ماينتهى كل شىء سيكون إدخارى هذا موضع سرورك » .

٤ – نابليون الأول ، إمبراطوراً ١٨٠٤ – ١٨١٤

لن نفصل لك القول فى الخطوات التى غدا بها نابليون إمبراطوراً . وكان تتويجه ابتعاثاً للقديم هو أشد ماقد يتصوره العقل من ابتعاث القديم خرقاً للمعتاد . ولم يعد

قيصر هو نموذجه المحتذى ؛ بل كان نابليون عند ذاك هو شرلمان . فإنه توج إمبراطوراً ، حقاً إنه لم يتوج فى روما ، بل فى كاتدرائية نوتردام بباريس ، واستحضر البابا بيوس السابع من روما للقيام بطقوس الاحتفال ؛ ولما بلغ الأمر أوجه أخذ نابليون الأول التاج بيده ودفع البابا جانباً ، وتوج نفسه بنفسه . وبذلك تكون نصيحة شرلمان للويس[1] قد أوتيت آخر الدهر ثمارها . وفى سنة (١٨٠٦) ابتعث نابليون قطعة أخرى وقورة من الماضى السحيق ، إذ أنه لما كان ما يزال يتعقب خطى شرلمان ، فانه توج نفسه بتاج لومباردى الحديدى فى كاتدرائية ميلان . وعندئذ صار لزاما على الجهوريات بنات فرنسا الأربع أن يصبحن ممالك : ففى ١٨٠٦ نصب الأخ لويس فى هولندة والأخ چوزيف فى نابولى . على أنه قصة الممالك التابعة التى خلقها فى أوربا ، قصة أعقد وأقصر عمرا من آن تتحملها هذه المعالم ، وإن كان هذا العبث بالحدود عونا على ما تلا ذلك من توحيد إيطاليا وألمانيا . .

ولم يعمر هذا الحلف الذى تم بين شرلمان الجديد وليو الجديد ، زمنا طويلا جداً . ففى ١٨٠٧ شرع نتحدى البابا ويضغط عليه . وفى ١٨١١ جعل منه أسيراً مضيقاً عليه فى فونتنبلُو . ولا يبدو أن هذه الإجراءات تنطوى على حكمة كبيرة . فإنها نفرت منه الرأى العام الكاثوليكى ، كما نفر منه تتويجه الرأى العام المتحرر . وبذلك كف عن أن يكون نصيراً وممثلا للقديم والجديد على السواء . فأما الجديد فقد خان ، وأما القديم فقد فشل فى اكتسابه . وأخيراً لم يعد يمثل أحدا إلا نفسه .

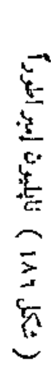
ويبدو أن سياسته الخارجية لم تكن تنطوى إلا على مثل ذلك القدر الضئيل من التعقل ؛ فإنها زجت آنذاك أوربا فى غمرة دورة جديدة من دورات الحرب . ولما كان قد اختلف مع بريطانيا العظمى فى أوان مبكر جدا فإنه حشد جيشا عرمرما فى بولونية (Boulogne) ليغزو به إنجلترة ، غير ناظر إلى الموقف البحرى . بل لقد بلغ به الأمر أن صك مدالية وأقام عموداً فى بولونية تخليداً لذكرى نصره فى غزوته

---

(١) هو لويس الورع ابن سرلمان . انظر المعالم ص ٨٥٤ حـ ٣ ط ٢ . (المترجم)

المنتظرة . وكان دبر بطريقة نابليونية محضة أن يخدع الأسطول البريطانى ويستدرجه بعيداً ، وأن يهرب جيش بولونية ذالك عبر مضيق المانش على أسطول صغير من الأرماث والزوارق ، وأن تؤخذ لندن قبل أن يعود الأسطول . وفى نفس الوقت اضطرت النمسا والروسيا إزاء اعتداءاته فى جنوب ألمانيا ، إلى عقد تحالف وطيد مع بريطانيا ضده . وفى ١٨٠٥ وقعت ضربتان قاتلتان على كل أمل له فى النصر النهائى ، أنزلهما به أميرا البحر البريطانيان كالدر ونلسون . فإن الأول أنزل فى يولية هزيمة منكرة بالأسطول الفرنسى فى خليج بسكى ؛ وفى أكتوبر دمر الثانى أسطول فرنسا وأسبانيا المشترك فى معركة الطرف الأغر . ومات نلسون ميتة رائعة وهو مظفر فوق سفينته « النصر » . ومنذ تلك اللحظة استحكم العداء مريرا بين نابليون وبريطانيا ، وهى فى منعة لا تستطيع أن يصل إليها ولا أن يقهرها ، بينما كانت هى تستطيع أن تضربه هنا أو هناك على امتداد كل شواطىء أوربا .

وتكتم نابليون الخبر وأخفى أنباء ذلك الجرح القاتل الذى أصابه فى « الطرف الأغر » بضع سنوات عن مسامع الفرنسيين . وكل ما سمعوه هو أن « العواصف قد سببت لنا خسارة بعض السفن الحربية بعد قتال أخرق . » وبعد انتصار كالدر سحب نابليون جيشه من مدينة بولونية على عجل ، واندفع به عبر أوربا وهزم النمسويين فى « أولم » « وأوسترلتز » . ودخلت بروسيا الحرب ضده فى هذه الظروف المشئومة . فهزمت هزيمة تامة وحطمت قواها فى معركة يينا (Jena) (١٨٠٦) . ومع أن النمسا وبروسيا قد كسرتا فإن الروسيا كانت ما تزال قوة مقاتلة ، وخصصت السنة التالية لذلك الخصم الأصعب مراساً الأبعد منالا الأعسر مدخلا . ولسنا بقادرين أن نتعقب فى أى تفصيل صعوبات الحملة البولندية على الروسيا ، ولقى نابليون شراً كبيراً فى بَلْتَسْكَ — التى أعلن فى باريس أنها نصر عظيم — وكذلك لقى مثل هذا الشر فى إيلاو (Eylau) . ثم دحر الروس فى فريد لاند ١٨٠٧ . ولم يكن حتى ذالك الوقت قد مس الأرض الروسية بقدمه ، وكان الروسيون لا يزالون غير مقهورين كالبريطانيين سواء بسواء ؛ ولكن سنحت عند ذلك لنابليون بارقة عجيبة من الحظ الحسن . فإنه استطاع بواسطة خليط من التفاخر والخداع والمداهنة ، أن يضم إلى



(شكل ١٨٦) نابليون إمبراطورا

جانبه قيصر الروسيا الشاب الطموح اسكندر الأول – إذ كان سنه لا يتجاوز الثلاثين – وأن يحمله على عقد تحالف معه . وتلاقى الامبراطوران على عوامة فى وسط نهر النيمن قرب تِلْست (Tilsit) . حيث تفاهما .

وكان الاسكندر تشرب بالشيء الكثير من النزعة التحررية أثناء تلقيه العلم فى بلاط كاثرين الثانية . وكان يناصر بكل قواه الحرية والتعليم ونظام العالم الجديد – شريطة خضوعها لاستعلائه هو . قال أحد خلطائه فى مستهل شبابه « إنه يسره أن يرى كل إنسان حراً ، على شريطة أن يكون كل إنسان مستعداً أن يفعل بحرية ما يريده بالضبط » . وقد أعلن أنه مستعد أن يلغى نظام « موالى الأرض Serfdom » وإن كلفه ذلك رأسه ثمنا – لو حدث فقط أن تقدمت نتيجة لذلك أسباب الحضارة . وقال إنه يخوض الحرب مع فرنسا لكى يحرر الشعب الفرنسى – لأن نابليون كان طاغية مستبداً . وبعد معركة فريد لاند أخذ يبصر نابليون تحت ضياء جديد . تلاقى هذان الرجلان بعد تلك الهزيمة بأحد عشر يوما ، وكان الاسكندر يمر ولا ريب فى حالة من التعظيم التبريرى الموافق لطبيعة أبناء طرازه حين يكونون فى حالة مزاجية من التغير .

ولا بد أن المقابلة كانت مرضية تمام الارضاء لنابليون . فقد كان ذلك أول لقاء له مع أحد الأباطرة على أساس من التكافؤ . وحلق فى الجو خيالان من فوق ظهر تلك العوامة فى تلْستْ . قال الاسكندر : « ما هى أوربا ؟ إنما نحن أوربا » . تناقشا فى شئون بروسيا والنمسا متأثرين بهذه الروح ، وتقاسما تركيا مقدماً ، ودبرا أمر غزو بلاد الهند ، بل الواقع أنهما دبرا غزو معظم آسيا وأن تأخذ الروسيا فنلندة من السويديين ؛ على أنهما أغفلا تلك الحقيقة المرة وهى أن القسم الأكبر من العالم مكون من بحر ، وأن الأسطول البريطانى كان عند ذاك يبسط قلوعه فى البحار غير منازع . وكانت بولندة قاب قوسين أو أدنى ، وهى على أتم استعداد لأن تثور وتكون حليف فرنسا المتحمس لو أن نابليون رغب قط فى هذا . على أنه كان عن بولندة فى عماية تامة . كان يومه يوم رؤى لا رؤية فيه . وقد أخفى نابليون فى نفسه فيما يبدو حتى فى ذلك اليوم ، تلك الفكرة الجريئة بأن يتزوج يوما ما أميرة روسية ، أميرة

حقيقية . على أنه ما لبث حتى تعلم بعد ذلك فى ١٨١٠ – أن فى هذا تجاوز لحدوده بعض الشيء . . .

وحدث بعد تلْستْ تقوض ملحوظ فى صفات نابليون ؛ فإنه أصبح أكثر اندفاعا وأقل صبراً على العقبات ، واشتد به استبداد فكرة سيد العالم الذى هيأته الأقدار ، وتزايدت مضايقته لكل من لقيه . وفى (١٨٠٨) ارتكب غلطة خطيرة جداً . فإن أسبانيا كانت حليفه الذليل ، وكانت تحت مطلق تصرفه تماما ، ولكنه رأى من المناسب أن يخلع ملكها البوربونى لكى يرقى إلى عرشه أخاه جوزيف من عرش الصقليتين[1] . وقد أتم فتح البرتغال من قبل على نية أن يوحد تحت تاج أخيه كلا من المملكتين البرتغالية والأسبانية . ومن ثم ثار الأسبان عليه فى حنق وطنى متأجج ، وأحاطوا بجيش فرنسى فى بايلن ، وأجبروه على التسليم . وكان ذلك ثلمة مدهشة فى سيرة النصر الفرنسى المتواصل .

(شكل ١٨٧) القيصر اسكندر الأول

ولم يتباطأ البريطانيون عن التقاط موطىء القدم الذى أتاحته لهم تلك الثورة . فقد نزل فى أرض البرتغال جيش بريطانى بقيادة السر آرثر ولزلى (المسمى بعد ذلك بإسم الدوق ولينجتون) وهزم الفرنسيين فى ڤيميرو ، وأجبرهم على الإنسحاب إلى أسبانيا . وأثارت أخبار هذه الهزائم هياجا عظيما جداً فى الخواطر فى ألمانيا والنمسا ، وعاد القيصر فأظهر ازاء حليفة قدرا أكبر من الغطرسة .

---

(١) الصقليتين : مملكة كانت تتكون من صقلية وجنوبى إيطاليا (نابولى) . (المترجم)



(شكل ١٨٨)

ثم تمت مقابلة أخرى بين هذين العاهلين فى « إرفورت Erfurt » ، كان فيها القيصر أقل تأثراً وانبهارا بخطط نابليون الوهاجة . وأعقبت ذلك أربع سنوات قضتها فرنسا فى رفعة مُقَلْقَلَةٍ غير ثابتة ، على حين كانت الحدود ترفرف على خريطة أوربا وفرفة الثياب على حبل الغسيل فى يوم رائح . ونمت إمبراطورية نابليون الشخصية بما ألحق بها صراحة من أقطار ، حتى تضمنت هولندة وشطرا كبيرا من ألمانيا الغربية وكثيراً من إيطاليا وكثيراً من الشاطىء الأدرياتى الشرقى . ولكن المستعمرات الفرنسية كانت تسقط فى أيدى البريطانيين واحدة تلو أخرى ، وأخذت الجيوش البريطانية فى شبه الجزيرة الأسبانية تدفع بالفرنسيين فى بطء نحو الشمال يساعدها فى ذلك المتطوعون الأسبان . وكانت أوربا بأجمعها قد أخذت تمل نابليون أشد الملل ؛ ولم يعد خصومه عند ذلك مجرد الملوك والوزراء ، بل شعوباً بأكملها كذلك . وكان البروسيون بعد كارثة « يينا Jena » فى ١٨٠٦ قد هبوا للعمل على تنظيم بيتهم . فإنهم قاموا بقيادة الفرايهر فون شتين وأطرحوا نظامهم الإقطاعى

جانباً ، وألغوا الامتيازات ونظام موالى الأرض ، ونظموا التعليم الشعبي ، والوطنية الشعبية ، وأتموا تقريباً — وكان هذا فى واقع الأمر بلا نزاع داخلى — كل شيء حصلت عليه فرنسا فى ١٧٨٩ . ولما وافت ١٨١٠ كانت هناك بروسيا جديدة ، هى النواة لألمانيا الجديدة . وعند ذلك أخذ الإسكندر وقد قُذفت فى روعه فيما يبدو أحلام السيادة العالمية — يتخذ من جديد وضع صديق الحرية . وفى ١٨١٠ حدث احتكاك جديد بسبب إعتراض الاسكندر على مطامع نابليون فى الزواج . ذلك أن نابليون كان قد أخذ عند ذلك بأسباب الطلاق من معينته القديمة جوزفين ، لأنها لم تعقب ولداً يضمن استمرار الملك فى أسرته . والآن وقد أبيت على نابليون أميرة روسية بل الواقع أن الإسكندر حقره وذكره بضعة مولده ، فإنه اتجه شطر النمسا وتزوج الأرشيدوقة مارى لويز . ذلك أن رجال السياسة النمسويين قرأوه قراءة صادقة . وكانوا على أشدّ الاستعداد لالقاء أميرتهم إليه . وبهذا الزواج أوقع نابليون نفسه فى أيديهم من أجل نظام الأسرة المالكة . وربما كان يستطيع أن يكون مكون عالم جديد ، ولكنه آثر أن يكون صهرا للعالم القديم .

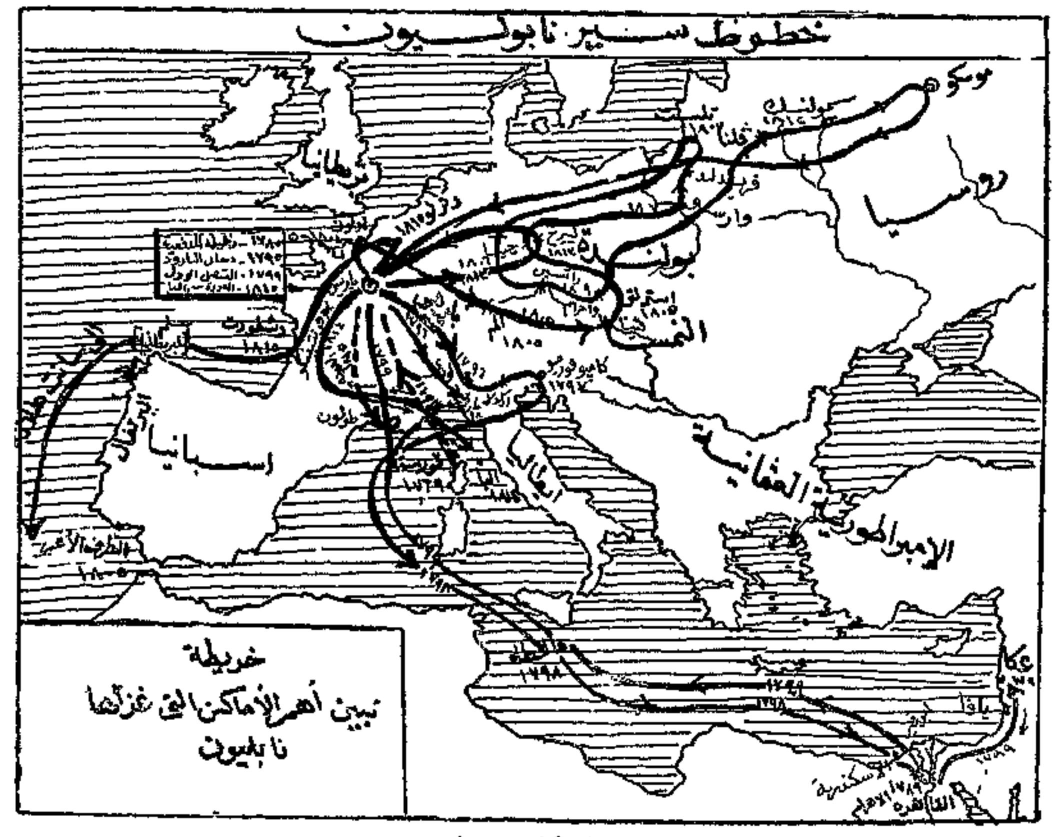
وفى السنتين التاليتين داخل الوهن والانحطاط شئونه . فلم يعد بعد قائد الثورة ومكمل ما فاتها ؛ ولم يعد بعد ذلك هو الروح المجسد لعالم مولود من جديد ؛ بل كان مجرد صنف جديد من أصناف الأوتواقراطى أشد فجاجة . وقد باعد ما بينه وبين كل ذوى النفوس الحرة من الرجال ، كما استدعى عداوة الكنيسة له . فكان الملوك واليعاقبة فيه على رأى واحد متفق ضده عند ما بلغ الرأى حد القضاء عليه . وكانت بريطانيا عند ذلك هى خصمه اللدود ، على حين كانت تتأجج فى أسبانيا روح لا بد أنها ميسورة الفهم لكل كورسيكى ؛ ولم يكن الأمر بحاجة إلا إلى شيء واحد هو الانفصال عن الاسكندر الأول لكى تدفع هذه الامبراطورية امبراطورية الخداع والمناظر المسرحية دفعا يدعثرها ويسقطها . وجاء الخلاف . وكانت مشاعر الاسكندر نحو نابليون على الدوام مبهمة مخلطة جداً ، فإنه كان يحسد نابليون بوصفه منافساً ويحتقره بوصفه عصامياً وضيع المنبت . زد على ذلك أن الاسكندر كان يتكنفه نوع من العظمة المبهمة العاطفية ؛ وقد غلبت عليه نزعة تدين صوفية ،

وأخذت تساوره فكرة رسالة تدعوه والروسيا معاً إلى اجتلاب السلام إلى العالم بتحطيم نابليون . على أن اجتلاب السلام إلى أوربا ، لم يكن يتناقض فى رأيه مطلقاً مع ضم بولندة إليه ، واستلحاقه معظم بولندة واستيلائه على أجزاء عظيمة من الامبراطورية التركية ! ؟ وكان يرغب بوجه خاص أن يعيد التجارة مع بريطانيا ، التى كان نابليون مصراً على انقطاعها . وذلك أن تجارة ألمانيا جمعاء تقلقلت ، وأن طبقات التجار الألمان كانت فى غيظ شديد من « النظام القارى النابليونى » ، الذى يرمى إلى القضاء على بريطانيا بطرد كل البضائع البريطانية من أقطار أوربا أجمع . وكابدت الروسيا من جراء ذلك عناء كثيراً ولعلها قاست أكثر من ألمانيا .

وجاء الشقاق فى ١٨١١ ، عندما انسحب الإسكندر من « النظام القارى » . وفى ١٨١٢ اجتمعت جموع هائلة من الجنود تبلغ فى مجموعها ٦٠٠,٠٠٠ مقاتل ، وأخذت تتحرك نحو الروسيا تحت القيادة العليا للأمبراطور الجديد . وكان نصف هذه القوة تقريباً من الفرنسيين على حين جمع الباقون من حلفاء فرنسا والشعوب الخاضعة لها . كان جيشاً مخلطاً أشبه شىء بجيش دارا أو جيش قباذ . وكانت الحرب الأسبانية ما تزال على قدم ؛ ولم يقم نابليون بأى جهد لإنهائها . وقد اقتطعت من فرنسا قوة يبلغ مجموعها ربع مليون رجل . فشق طريقه مقاتلا عبر بولندة والروسيا إلى موسكو قبل حلول الشتاء — وظلت الجيوش الروسية تمتنع فى جل شأنها عن قتاله — وأصبح مركزه خطراً خطورة واضحة حتى قبل أن يطبق عليه الشتاء . فاستولى على موسكو متوقعاً أن يضطر ذلك الاسكندر إلى عقد الصلح . ولكن الاسكندر لم يرغب فى عقد الصلح ، ووجد نابليون نفسه فى مركز هو أشبه شىء بمركز دارا فى جنوب الروسيا ، قبل ذلك بألفين وثلاثمئة من السنين . وكان الروسيون وهم ما يزالون بعد غير مغلوبين يهاجمون مواصلاته ويفنون أفراد جيشه — يساعدهم فى ذلك المرض ، فهلك من رجاله خمسة عشر ألفاً حتى قبل أن يصل إلى موسكو . ولكن كانت تعوزه حكمة دارا فلم يرغب فى التقهقر . وظل الشتاء معتدلا مدة طويلة طولا غير عادى — فكان فى فى مقدوره أن ينجو . ولكنه بدلا من ذلك أقام فى موسكو يدبر الخطط المستحيلة . فقد كان قبل ذلك سعيد الحظ سعادة عجيبة فى كل مقامراته السابقة مع القدر ؛ وقد نجا من مصر نجاة لا يستحقها ، وأنقذه من التحطيم فى بريطانيا الانتصارات

البحرية البريطانية ؛ ولكن ها هو ذا قد وقع فى الفخ مرة أخرى ، وما كان لينجو هذه المرة . ولعله كان يبغى أن يقضى الشتاء فى موسكو ، ولكن الروسيين طردوه بسحب الدخان طرد النحل من أكواره ، إذ أضرموا النار فى المدينة وأحرقوا معظمها .

تأخر به الأوان فى أكتوبر ، بل تأخر به أكثر مما ينبغى ، قبل أن صح عزمه على العودة . فحاول محاولة غير مجدية أن يخترق طريقه إلى خط تراجع جديد إلى الجنوب الغربى ، ثم حول وجهة من تبقى له من جيشه اللجب نحو القطر الذى عاثوا فيه فساداً أثناء تقدمهم . وكانت المسافات الشاسعة تفصلهم عن كل أرض موالية . ولم يكن الشتاء متعجلا . وظل الجيش العرمرم أسبوعاً وهو يكافح بين الوحول ؛ ثم جاء الصقيع الشديد ألواناً ، ثم تهاطلت أوائل ندف الثلج ، ثم الثلج فالثلج . . . . .



(شكل ١٨٩)

وأخذ النظام ينحل رويداً رويداً . وانتشر الجيش الجائع يبحث عن الميرة حتى أصبح مجرد ثلل من المغيرين . وقام الفلاحون عليهم دفاعاً عن النفس على أقل تقدير وأخذوا يكمنون لهم فى الطرقات ويقتلونهم . وكانت غمامة من الراكبة الخفيفة ما تنفك تلاحقهم وتصيب منهم على الشاكلة الإسكيذية[١] . وهذا التقهقر من أكبر مآسى التاريخ .

وأخيراً ظهر نابليون فى ألمانيا ومعه هيئة قيادته وثلة من الحرس والأتباع ، ولم يحضر معه جيشه ، وإنما كانت تتبعه فقط شراذم تجر سيقانها جراً ، وقد فقدت كل معنوياتهم . ولكن الجيش العظيم المتقهقر بقيادة موراه وصل إلى كونجسبرج فى حالة انتظام ، بعد أن لم يتبق منه إلا ألف من الرجال من قرابة الستمئة ألف . وتراجع موراه من كونجسبرج إلى پوزن . وكانت الفصيلة البروسية قد استسلمت للروس ؛ وانفصل عنه النمسويون واتجهوا جنوباً نحو وطنهم . وفى كل مكان كان اللاجئون المتناثرون والرثو الثياب الهزيلو الأجساد الذين عضهم الصقيع ينشرون أخبار للكارثة .

لقد تبدد سحر نابليون أو كاد . ففر مهرولا إلى باريس . وشرع ينظم مجندين جدداً ويجمع جيوشاً جديدة بين حطام إمبراطوريته العالمية . وانقلبت عليه النمسا ١٨١٣ ؛ وكانت أوربا بأكملها تواقة إلى الثورة على مؤتمن الحرية الذى قصر فى حقوقها وفرط فى أمانتها ، ولم يخرج عن مجرد مغتصب محض . لقد تخلى عن النظام الجديد ، فالآن دمره النظام القديم ، الذى أنقذه وابتعثه . وثارت بروسيا ، وابتدأت « حرب التحرير » الألمانية وانضمت السويد إلى زمرة أعدائه . وثارت هولندة بعيد ذلك وكان موراه جمع فى پوزن حول نواته المنظمة أربعة عشر ألف فرنسى . وتراجعت هذه القوه خلال ألمانيا ، كما قد يتراجع رجل تجرأ على المرور وسط قفص ملئ بالسباع المخدّرة فوجد آثار التخدير قد أخذت تتبخر . وفى الربيع تناول نابليون القيادة العليا على جيوش جديدة ، ثم كسب معركة عظيمة عند درسدن ، ثم يلوح أنه قد أصيب ردحاً من الزمان بتشتت وانهيار فى قواه الفكرية والمعنوية . فأصبح سريع التأثر بشكل جنونى ، ثم أخذت تلم به أحياناً حالات

---

(١) الإسكيذية أو الأشقوذية أنظر ص ٣٤٣ ح ٢ من المعالم ط ٢ . (المترجم)

من الجمود . فإنه لم يفعل إلا القليل ، أو لم يفعل شيئاً على الإطلاق يشفع به معركة درسدن . وفى سبتمبر نشبت « معركة الأمم » حول ليبزج وبالقرب منها ، وانضم السكسون فى أعقاب ذلك إلى الحلفاء وكانوا حتى ذلك اليوم يتبعون نجمه . ولم تنته السنة حتى كان الفرنسيون يتراجعون إلى فرنسا مندحرين .

وكانت ١٨١٤ هى حملة الختام . فاجتيحت فرنسا من الشرق والجنوب . فعبر الراين السويديون والألمان والنمسويون والروسيون ، وجاء البريطانيون والأسبان من فوق جبال البرانس . وأخذ نابليون يقاتل مرة أخرى قتالاً زاكياً رائعاً ، ولكنه قتال غير مجد . على أن الجيوش الشرقية لم يستطع أن تهزمه قدر ما استطاعت أن تشق طريقها إلى جواره ، واستسلمت باريس فى مارس . ولم يمض طويل حتى تنازل الإمبراطور فى فونتنبلو عن العرش وكادت تقضى على حياته جماعة من الرعاع الملكيين فى بروفانس وهو فى طريقه إلى الخارج .

٥ ــ المئة يوم

تلك هى الخاتمة الطبيعية الصائبة لحياة نابليون[١] . وها قد قضى عليه آخر الأمر . فلو كانت هناك حكمة حقيقية فى تصريف الشئون الانسانية ، لوجب علينا الآن أن نحدثك عن تمركز العلم الإنسانى والإرادة الإنسانية ، وتوفرها على أداء الواجب الذى قطعت حياته حبل أدائه وأعنى به واجب إنشاء نظام عالمى للعدالة والجهد الحر بدل النظام القديم المفلس . ولكنا لسنا بمحدثيك عن شىء من هذا القبيل . فقد كان العلم والحكمة غائبين غياباً ظاهراً ملموساً عن مجلس الحلفاء العظيم . ووافت إليه النزعة الإنسانية المبهمة والغرور الحالم عنــد القيصر الإسكندر ، ووافاه آل هابسبرج النمسويون الضعفاء ، وآل هوهنزولرن البروسيون المغضبون ، ووفدت عليه تقاليد بريطانيا الأرستقراطية وهى ما تزال وجلة الروع من الثورة ،

(١) الملاحظ هنا أن المؤلف يشتد فى أحكامه على نابليون ويقسو عليه ويقلل من أهميته وينتقص قدر فتوحه ، بل ويكاد يشمت فيه عند ما سقط ، وما أدرى هل خرج ولز هنا عن نزعة الانصاف التى امتاز بها ، أم غلبت عليه النزعات البريطانية ؟ . (المترجم)

وضميرها لا يبرح منحرفا مثقلا بما يبهظه من أراضى عامة مغتصبة وأطفال مصانع مكدودين عملا . ولم يحضر المؤتمر أى شعب من الشعوب بل توافى له الملوك ووزراء الخارجية دون غيرهم . ولم يكد المؤتمر يجتمع حتى أقبل الدبلوماسيون على العمل على عقد الصفقات والمعاهدات السرية كل من وراء ظهر أخيه . وبين مظاهر الفخامة والجلال التى لا يعلو عليها شىء ، اجتمع المؤتمر فى ڤيينا بعد زيارة شرف فخمة أداها ملوك الحلفاء للندن . وكانت الناحية الاجتماعية من المؤتمر قوية جداً ، فقد كثرت فيه السيدات الحسان ، وتألقت به مجموعة زاهرة من النجوم وأصحاب البدلات الرسمية ، وأقيمت به ما لا نهاية له من المآدب وحفلات الرقص ، وروى فيه فيض جارف من النوادر والنكات المشرقة اللألاءة . وكان أذكى أفراد المجتمعين روحاً شخص بعينه اسمه تاليران ، وهو أحد « أمراء » نابليون ،كان حقاً رجلا ذكياً جداً ، عمل قسيسا قبل عهد الثورة ، وهو الذى اقترح ما قامت به الثورة من مصادرة أملاك الكنيسة ، وهو الذى كان الآن داعية إلى إعادة آل بوربون ! ؟ ....

وأضاع الحلفاء الثمين من الزمان فى منازعات تجلى فيها الطمع والجشع متزايدين ، وعاد آل بوربون إلى فرنسا . وعاد معهم بقية « المهاجرين Émigrés » ، وهم أشوق ما يكونون إلى التشفى والانتقام . وكأنما دفعت أنانية عظيمة جانبا ـــ لا لشىء إلا لكى تكشف الستر عن حشد من الأنانيين الأكثر دناءة وخسة . كان الملك الجديد أخا للويس السادس عشر ، وما كان أشد تلهفه إلى التسمى باسم لويس الثامن عشر بمجرد أن علم بوفاة ابن أخيه (لويس السابع عشر) فى المعبد . كان مصابا بالنقرس ، وبليداً . ولعله لم يكن من ذوى المقاصد السيئة ، غير أنه كان رمزاً يمثل النظام القديم البالى ، فأحس كل ما هو جديد فى فرنسا بنذير الرجعية الثقيل الذى لازم مجيئه . لم يكن ذاك تحريراً ، بل استبداداً وطغيانا جديداً ليس غير ـــ بل هو طغيان ثقيل وضيع بدلا من آخر نشيط رائع .

أليس أمام فرنسا من أمل غير هذا ؟ وأظهر آل بربون حقداً خاصا إزاء كبار ضباط الجيش العظيم ، وكانت فرنسا فى ذلك الحين غاصة بأسرى الحرب العائدين ، الذين وجدوا أنفسهم فى ظل غمامة قاتمة . وقد أرسل نابليون إلى إمبراطورية

صغيرة فى جزيرة إلبا يتعزى بها عما أصابه . وكان على أن يظل ملقبا باللقب الإمبراطورى وأن تكون له دولة بعينها . فإن فروسية الإسكندر . . أو هوائيته ! . . أبت إلا أن يعامل منافسه المخلوع هذه المعاملة . وانتزع آل هابسبرج منه إمبراطورته الهابسبرجية - فذهبت راضية قريرة العين إلى ڤيينا ، ولم يرها نابليون بعد ذلك أبداً .

وبعد أن قضى نابليون فى إلبا أحد عشر شهراً قدّر أن فرنسا ضاقت ذرعا بآل بوربون ، فاحتال حتى أفلت من السفن البريطانية التى كانت تراقب جزيرته وظهر فى كان بفرنسا ليقوم بآخر لعبة له مع القدر . وكان مسيره إلى باريس موكب نصر عظيم ، وطأ فيه بقدميه القبعات البوربونية البيضاء . ثم غدا ، أمد مئة يوم « وهى فترة المئة يوم » سيداً على فرنسا من جديد .

وأثارت عودته حالة ارتباك لدى كل فرنسى شريف . فمن ناحية كان ثمة هذا المغامر الذى خان الجمهورية ، وكان هناك من الناحية الأخرى ذلك العبء السمج الذى جلبته عودة الملكية القديمة . ولم يكن الحلفاء ليقبلوا أن تحدث أى تجارب جديدة فى موضوع الجمهورية . ومن ثم كان الإختيار عندهم بين أمرين : إما نابليون وإما آل بوربون . أعجيب إذن أن تكون فرنسا على الإجمال فى صف نابليون ؟ وها هو ذا قد عاد معترفا بأنه تغير وأصبح رجلا آخر ؛ فلن يكون ثمة أى طغيان ؛ ولسوف يحترم النظام الدستورى .

جمع جيشا ، وبذل بعض المحاولات فى سبيل السلام مع الحلفاء ؛ على أنه ما لبث عندما وجد هذه الجهود غير مجدية ، أن تقدم فضرب البريطانيين والهولنديين والروسيين فى بلاد البلچيك ضربة سريعة ، مؤملا أن يهزمهم قبل أن ينضم إليهم النمسويون والروس . فأوشك أن يصل إلى غرضه هذا تقريبا . فإنه كسر البروسيين عند بلني (Ligny) ، وإن لم يكسرهم بالقدر الكافى ؛ وعند ذلك هزم هزيمة لا أمل له بعدها نتيجة لصلابة عود البريطانيين بقيادة ولنجتن عند وتُرلو (١٨١٥) ؛ على حين وصل البروسيون بقيادة بلوخر وأطبقوا على جناحه الأيمن وقد تقدم النهار . وانتهت معركة وتُرلو بتشتيت شمل جيشه ، وغادرت نابليون بلا معين

وبلا أمل . وأعرضت عنه فرنسا مرة ثانية وكان كل إنسان انضم إليه تواقا عند ذاك إلى مهاجمته والتبرؤ منه حتى يمحو الغلطة التى ارتكب . وأمرته حكومة مؤقتة فى باريس أن يغادر البلاد ، وأمهلته أربعا وعشرين ساعة يتم فيها ذلك .

فحاول أن يذهب إلى أمريكا ، ولكن ميناء روشفور التى وصل إليها كانت تراقبه الطرادات البريطانية . والآن وقد رفعت عن أعين فرنسا غشاوة الأوهام ، وعادت فأصبحت على مضض ملكية من جديد ، فإنها قامت تلاحقه فى حرارة . فاعتلى ظهر مدمرة بريطانية ، هى البلروفون طالباً أن يقبل لاجئاً لائذاً ، ولكنه فى الواقع عومل كأسير . فأخذ إلى بليموث ثم حمل من بليموث مباشرة إلى جزيرة سانت هيلينا المدارية الموحشة .

وهناك بقى حتى وافته منيته بالسرطان فى ١٨٢١ ، بعد أن كرس نفسه بوجه رئيسى لتحضير مذكراته ، التى كانت خطته فيها أن يعرض كبريات أحداث حياته تحت ضياء ساطع جذاب ، وكان رجلان ممن معه يسجلان محادثاته ، ويثبتان انطباعاتهما عنه .

وراجت هذه المؤلفات رواجاً عظيما فى فرنسا وأوربا . وظل الحلف المقدس بين ملوك الروسيا والنمسا وبروسيا (الذى دعى ملوك آخرون للإنضمام إليه) يعمل عمله بمشقة كبيرة فى ظلال وهم باطل بث فى روعهم أنهم يوم هزموا نابليون قد هزموا الثورة ، وأرجعوا ساعة القدر أدراجها ، وأعادوا الملكية العظمى إلى أبد الآبدين . ويقال إن الوثيقة الرئيسية لخطة الحلف المقدس رسمت بوحى من البارونة فون كرودنر ، التى يبدو أنها كانت نوعاً من المدبر الروحى للإمبراطور الروسى وكانت بدايتها كما يأتى : « باسم الثالوث المقدس الذى لا تنفصم عراه » ، وكانت تلزم الملوك المشتركين فيها ، « بأن يعدوا أنفسهم نحو رعاياهم وجيوشهم فى مكان الوالد من العائلة » وأنهم « إذ يعد أحدهم الآخر مواطنا له » ، يشد أحدهم أزر الآخر ، ويحمون الدين الحق ويحضون رعاياهم على تقوية أنفسهم وتدريبها على القيام بالواجبات المسيحية . ويصرح الحلف بأن المسيح هو الملك الحق لكل الشعوب المسيحية ، وعسانا نستطيع أن نلاحظ أنه

كان بناء على هذا ملكاً ميروڤنجيا بكل معانى الكلمة ولا سلطان له إزاء هؤلاء الملوك المتربعين فى دست الأحكام والذين هم لديه بمثابة محافظين[1] للقصر ؟ . . ولم يكن لملك بريطانيا أى سلطة تخول له أن يوقع هذه الوثيقة ، ولم يطلب أحد إلى البابا ولا السلطان أن يوقعاها ، وانضم إليها سائر ملوك أوربا بما فيهم ملك فرنسا . على أن ملك بولندة لم يوقع لأنه لم يكن ثمة ملك لبولندة ! ! ،وذلك لأن الإسكندر قام وهو فى حالة من حالات الذهول الورع فالحق ببلاده معظم بولندة ! . ولم يصبح الحلف المقدس أبداً محالفة قانونية بين الدول ، بل حلت محله عصبة أمم حقيقية ، هى « اتحاد أوربا » الذى انضمت إليه فرنسا فى ١٨١٨ ، والذى انسحبت منه بريطانيا فى ١٨٢٢ . وعقبت ذلك فترة سلام وعسف فى أوربا . وكان كثير من الناس يميلون فى تلك الأيام التى انقطع فيها حبل الأمل أن يرمقوا حتى ناپليون نفسه بنظرة إحسان ، وأن يقبلوا منه إدعاءه بأنه عندما كان يؤيد حقه ، كان يؤيد حق الجمهورية وفرنسا ، على طريقة لا يمكن تفسيرها . ونمت بعد وفاته نحلة تعده شيئا ذا بطولة صوفية دينية .

٦ ــ خريطة أوربا فى ١٨١٥

ظلت فكرة الحلف المقدس ، والاتحاد الأوربى الذى تمخض عنه ذلك الحلف ، وسلسلة المؤتمرات والاجتماعات التى عقبت الاتحاد ، محافظة مدة أربعين عاما على سلام مرعزع الأركان فى أوربا التى خرجت من الحروب منهوكة القوى . وهناك أمران رئيسيان حالا بين هذه الفترة وبين أن تكون سلاماً اجتماعياً ودولياً كاملا ، ومهدا السبيل لدورة الحرب التى وافت بين ١٨٥٤ ، ١٨٧١ . وكان أول هذين الأمرين هو ميل البلاطات الملكية المختصة إلى استرداد الامتيازات غير العادلة ، والتدخل فى حرية الفكر والكتابة والتعليم . وكان الثانى هو مجموعة الحدود المستحيلة التى رسمها الديبلوماسيون فى ڤينا .

---

(١) محافظ القصر : فى ذلك إشارة إلى تاريخ پيپن وشارل مارتل فليرجع إليها القارئ ص ٨٣٦ ج ٣ من المعالم ٢ . حيث كان الملك اسما للأسرة الميروڤنجية ومقاليد الحكم كلها بيد محافظ القصر الذى يتولاها باسم الملك . (المترجم)

وكان ميل الملكية إلى الرجوع إلى الأحوال القديمة البائدة واضحاً أولا وبوجه خاص فى أسبانيا . حتى لقد بلغ الأمر هناك أن أعيدت محاكم التفتيش . فأما عبر المحيط الأطلسى ، فإن المستعمرات الأسبانية حذت حذو الولايات المتحدة وثارت على نظام الدول الكبرى الأوربى ، عندما نصب نابليون أخاه چوزيف ملكاً على أسبانيا فى (١٨١٠) . وكان زعيم الاستقلال وواشنجتون أمريكا الجنوبية هو الجنرال بوليڤار . ولم تستطع أسبانيا أن تقمع هذا العصيان ، فطال به الأمد مثلما طال بحرب استقلال الولايات المتحدة ، وأخيراً تقدمت النمسا باقتراح يتسق وروح الحلف المقدس ، تذكر فيه أن من واجب ملوك أوربا أن يساعدوا أسبانيا فى كفاحها ذاك . فعارضت فى ذلك بريطانيا فى أوربا ، فأما فى أمريكا فإن العمل السريع الذى قام به رئيس الولايات المتحدة الرئيس مونرو فى (١٨٢٣) ، هو الذى قضى على مشروع هذا الاسترداد لسلطان الملوك قضاء نهائياً . فإنه أعلن أن الولايات المتحدة تعدّ أى بسط للنظام الأوربى فى نصف الكرة الغربى عملا عدائيا . وبذا نشأ « مبدأ مونرو » ، الذى ضد نظام الدول الكبرى عن أمريكا قرابة مئة من السنين ، وسمح للدول الجديدة فى أمريكا الأسبانية بأن تكوّن مقدراتها على الشاكلة التى ترضيها . ولئن فقدت الملكية الأسبانية مستعمراتها ، فقد كانت على الأقل تستطيع تحت حماية الإتحاد الأوربى أن تفعل ماتشاء فى أوربا . وأخمد جيش فرنسى فتنة شعبية قامت فى أسبانيا فى (١٨٨٣) ، بانتداب من أحد المؤتمرات الأوربية ، وفى الوقت ذاته قمعت النمسا ثورة شبت فى نابلى .

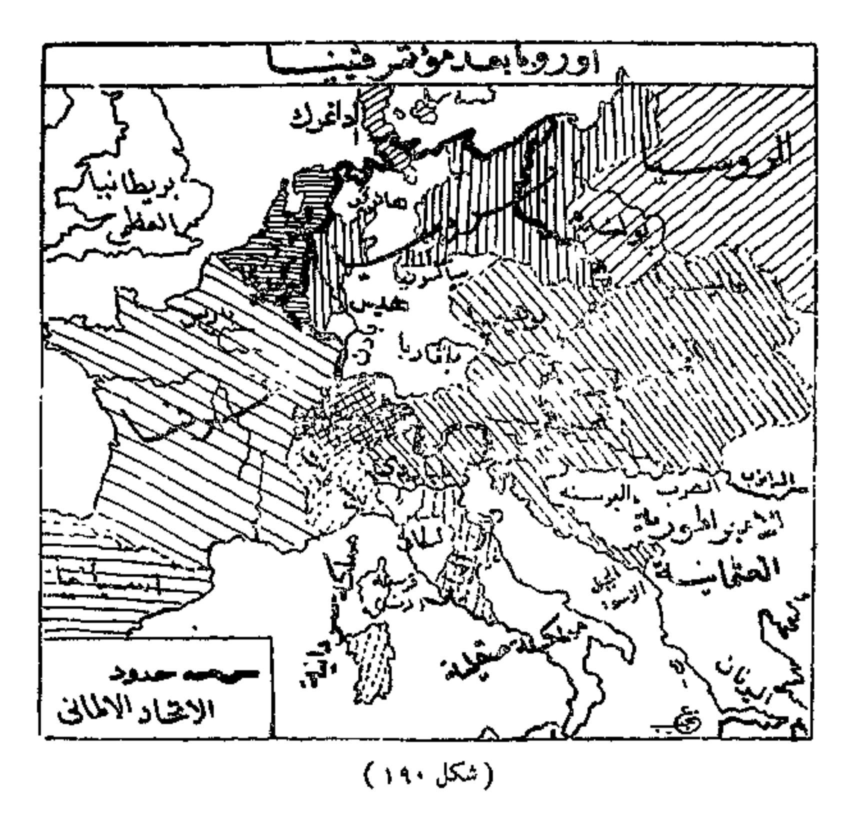
وفى (١٨٢٤) مات لويس الثامن عشر ، وخلفه كونت أرتوا الذى رأيناه مهاجراً يرفرف ويحوم من فوق الحدود الفرنسية فى (١٧٨٩) فاتخذ لقب شارل العاشر . ونصب شارل نفسه لتدمير حرية الصحافة والجامعات وإعادة الحكم المطلق ، وأخذ الصوت بالموافقة على اعتماد بليون فرنك لتعويض النبلاء عن إحراق قصورهم ومصادرة أملاكهم فى (١٧٨٩) . وفى (١٨٣٠) ثارت باريس ضد هذا الملك الذى يتمثل فيه النظام العهيد[1] ، وتبدلت به لويس فيليپ ابن فيليپ دوق أورليان

---

(١) ورد فى معجم الوسيط ما نصه : « العهيد : القديم العتيق الذى مر عليه عهد طويل » . (المترجم)

المعروف ، الذى حكم عليه بالإعدام أثناء حكم الإرهاب . ولم تتدخل فى هذا الشأن بقية الملكيات الأخرى بأوربا ، إذ واجهها استحسان على من بريطانيا العظمى واختمار تحريرى قوى فى ألمانيا والنمسا . ومهما يكن من شىء فإن فرنسا كانت ما تزال محتفظة بالنظام الملكى . وظل هذا الملك الشاب لويس فيليب (١٨٣٠ — ١٨٤٨) هو ملك فرنسا الدستورى أمد ثمانية عشر عاماً . ولكنه سقط فى (١٨٤٨) وهى سنة عظيمة الأحداث فى أوربا ، وسنحدثك عنها فى الفصل التالى .

تلك هى التأرجحات القلقة التى ألمت بصلح مؤتمر ڤيينا ، والتى أثارتها التصرفات الرجعية لأنصار الملكية . فإن التأزمات التى نشأت عن خريطة الديبلوماسيين غير المدروسة دراسة علمية تسببت فى تجمع القوى بتعمد أكثر ، ولكنها كانت أشد خطراً على سلام البشرية . فإن من أكثر الأمور عسراً ومضايقة أن يدير السياسى شئون أقوام مختلفين عنصراً يتكلمون لغات مختلفة ويقرءون من ثم أدباً مختلفاً ولهم فكرات عامة مختلفة ، وخاصة إذا بلغت هذه الفروق والإختلافات حد السخط بسبب المنازعات الدينية . وليس فى طوق أى شىء اللهم إلا بعض المصالح القوية المتبادلة (من أمثال إحتياجات الدفاع المشترك لدى سكان سويسرا الجبليين) ، أن يبرر إقامة ترابط وثيق بين شعوب متباينة فى لغاتها وعقائدها ، بل إن سويسرا ذاتها يقوم بها أقصى درجات الحكم الذاتى المحلى استقلالا . وعندما تموت فى النهاية تقاليد الدولة الكبرى وتوارى التراب فعسى هؤلاء السكان السويسريون أن ينجذبوا نحو وشائجهم الطبيعية فى ألمانيا وفرنسا وإيطاليا . وعندما يكون الحال كشأنه فى مقدونيا حيث يختلط السكان تخلطاً موزعا إلى رقاع صغيرة من القرى والنواحى ، فعندئذ تحتم الظروف قيام نظام الكانتونات . ولكن إذا نظر القارئ إلى خريطة أوربا كما رسمها مؤتمر ڤيينا ، رأى أن هذا المجلس كان كمن يرسم خطة الوصول بالسخط المحلى إلى أقصاه . فإنه دمر الجمهورية الهولندية ، ثم راح بغير ما داع ، فجمع بين الهولنديين البروتستانت وبين الكاثوليك المتكلمين بالفرنسية الذين كانوا فى الأراضى المنخفضة الأسبانية (النمسوية) . وأقام بهما مملكة للأراضى المنخفضة . ولم يكتف بأن يسلم جمهورية البندقية القديمة فقط ، بل كل شمال إيطاليا حتى ميلان



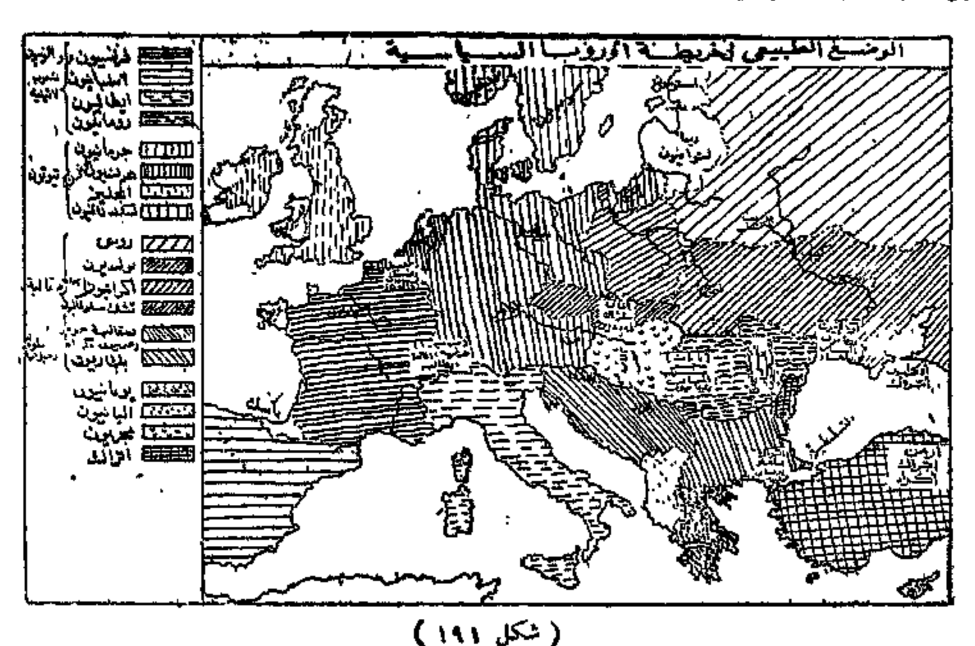
(شكل ١٩٠)

للنمسويين الناطقين بالألمانية . وأدمج منطقة الساڤويا الناطقة بالفرنسية مع أجزاء من إيطاليا بغية إرجاع مملكة سردينيا . وكانت امبراطورية النمسا والمجر من قبل ذلك خليطاً به ما يكفيه من عوامل التفجر من الجنسيات المتنافرة غير المتسقة ما بين ألمانيين ومجريين وتشيكوسلوڤاك ويوغوسلاڤ ورومانيين وانضم إليهم الآن الإيطاليون ، ثم جعلتها أحداث (١٧٧٢ ، ١٧٩٥) أكثر استحالة مما كانت . فأما البولنديون الكاثوليك ذوو الروح الجمهورية فقد أسلموا بصفة رئيسية إلى حكم القيصر الأقل حضارة وصاحب الدين اليونانى الأرثوذكسى ، عدا أن أجزاء هامة منها ذهبت إلى بروسيا البروتستانتية . كذلك ثبتت قدم القيصر فيما احتازه من بلاد الفنلنديين المختلفين عنه اختلافاً كليا . ورُبط الشعبان غير المتشابهين النرويجى والسويدى تحت حكم ملك واحد . وتركت ألمانيا — كما سيرى القارئ — فى حالة ارتباك خطرة بوجه خاص . فقد كانت كل من بروسيا والنمسا داخلتين جزئياً وخارجتين جزئياً فى اتحاد كنفدرالى

(Confederation) ألمانى كان يضم عدداً كبيراً من الدول الصغرى . ودخل ملك الدانمارك على مائدة الاتحاد الكنفدرالى بسبب وجود ممتلكات له فى ذلك الاتحاد تتكلم الألمانية فى هولشتين . وأدخلت لكسمبورج فى ذلك الاتحاد الكنفدرالى الألمانى ، مع أن حاكمها كان كذلك هو ملك الأراضى المنخفضة ، ومع أن كثيراً من سكانها كانوا يتكلمون الفرنسية . وهنا نلمس اغفالا تاماً لحقيقة واقعة هى أن القوم الذين يتكلمون الألمانية ويبنون فكراتهم على الأدب الألمانى ، وأن القوم الذين يتكلمون الإيطالية ويبنون فكراتهم على الأدب الإيطالى ، وأن القوم الذين يتكلمون البولندية ويبنون فكراتهم على الأدب البولندى سوف يكونون جميعاً أسعد حالاً ويكونون من أعود الناس على سائر الإنسانية نفعاً ومعونة وأقلهم بها شراً وضراً ، إذا هم أداروا شئونهم على تراكيب لغتهم داخل نطاق لسانهم الخاص . أعجيب إذن أن تكون من بين أشد الأغنيات ذيوعاً فى الناس فى ألمانيا أثناء تلك الفترة ، أغنية تصرح بأنه حيثما كان اللسان الألمانى يتكلم ، كانت أرض الأجداد الألمانية .

ولا يزال الناس حتى فى يومنا هذا كارهين أن يعترفوا بأن مناطق الحكم ليست من الشئون التى يجوز فيها المساومات والتفاعلات بين القياصرة والملوك ووزارات الخارجية . وهنالك « خريطة ضرورية سياسية للعالم » تتعالى فوق كل هذه الأمور . وثمة طريقة أخرى هى « أحسن الطرق المستطاعة » يقسم بها أى جزء من أجزاء العالم إلى مناطق إدارية ، وذلك بالنظر إلى لغة وجنس سكانها ، وإنه لما يهمنا جميعاً أن نضمن وجود هذه الأقسام وأن تؤسس أشكال الحكومة تلك بصرف النظر تماماً عن الديبلوماسيات والرايات « والمدعيات » « والولاءات » الميلودرامية الانفعالية ، وعن خريطة العالم السياسية الموجودة اليوم . وخريطة العالم السياسية المخططة حسب الطبيعة تأبى إلا أن تنفذ . وهى تضطرب وتتحرك تململا من دون الخريطة السياسية الاصطناعية كما يتململ جبار فى وضع لا يريحه . فنى (١٨٣٠) قامت بلاد البلچيك الناطقة بالفرنسية — وقد حفزتها الثورة فى فرنسا — فثارت على شريكتها الهولندية فى مملكة الأراضى المنخفضة . وسارعت الدول إلى تسكين هذا الموقف وقد أرعبها إمكان

قيام جمهورية بها أو إستلحاقها إلى فرنسا ومنحت البلجيكيين ملكا هوليوبولد الأول أمير ساكس كوبرج جوثا . وحدث كذلك فى (١٨٣٠) ثورات لم يكتب لها التوفيق بإيطاليا وألمانيا ، وفتنة أشد خطورة بكثير فى بولندة الروسية . وقامت فى وارسو حكومة جمهورية وصمدت عاماً كاملا حيال نيقولا الأول (الذى خلف الإسكندر فى ١٨٢٥) ، ثم قُضى عليها عند ذاك بعنف وقساوة كبيرين . وصدر قرار بتحريم اللغة البولندية ، واستبدلت بالكنيسة الكاثوليكية الكنيسة اليونانية الأرثوذكسية بوصفها الديانة الرسمية للدولة . . .



(شكل ١٩١)

وهناك انفجار فى خريطة العالم السياسية المطابقة للطبيعة حدث فى (١٨٢١) ، وانتهى بالحصول على مناصرة انجلترة وفرنسا والروسيا . وكان ذلك الانفجار هو ثورة اليونان ضد الأتراك . ذلك أن اليونانيين ظلوا يقاتلون قتال المستيئس أمد ست سنوات ، على حين وقفت حكومات أوربا تنظر إليهم متفرجة . واحتج الرأى الحر على هذه الجمود ، وانضم إلى الثوار المتطوعون من كل دولة أوربية ، وانتهى الأمر بأن قامت بريطانيا وفرنسا والروسيا بعمل مشترك . فدمر الأسطولان الإنجليزى

والفرنسي الأسطول التركي في معركة نوارين (١٨٢٧) وغزا القيصر تركيا. وأعلنت حرية بلاد اليونان بمعاهدة أدرنة (١٨٢٩)، ولكن لم يسمح لها بأن تواصل تقاليدها الجمهورية القديمة. واتخذت الدول لبلاد اليونان ملكاً ألمانيا هو أمير باڤارى اسمه أوتو - فغلبت عليه أوهام اعترته حول حقه المقدس، ونبذ في ١٨٦٢ - وأقيم حكام مسيحيون في الولايات الدانوبية (التي هي الآن رومانيا)، وسربيا (وهي جزء من منطقة يوغوسلافيا). وكان هذا إذعانا جزئيا للخريطة السياسية الموافقة للطبيعة، ولكن كان لا بد من سفك الدم الكثير قبل أن طرد التركي طرداً تاماً من هذه الأراضي. وبعد ذلك بزمن يسير قامت الخريطة السياسية المطابقة للطبيعة تنادى بحقوقها في ألمانيا وإيطاليا.

٧ - طراز الإمبراطورية

انعكست محاولة نابليون إعادة الإمبراطورية الرومانية إنعكاساً تبدت فيه الأمانة البالغة في فن العمارة والثياب والأثاث وفن التصوير في تلك الفترة. وقد قاموا في كل هذه الأمور بمحاولة ابتعاث الأشكال والروح المطابقة لواقع روما الإمبراطورية. وكأنما أفلتت من المتاحف ألبسة الرأس النسائية وثياب السيدات وخرجت تسعى في الطرقات. وأخذت مجاميع الأعمدة وأقواس النصر تهادى وتتبختر في طريقها إلى أعظم مواقع المدن الكبرى كافة. وفازت باريس بقوس النصر وقلدتها لندن على الفوز فكان لها قوس الرخام (Marble Arch). واختفت من الوجود تطورات البِّروق (الباروك)[1] والركوكو[2] في مباني النهضة لأن الناس فضلوا عليها واجهات

(١) كلمة باروك مأخوذة عن الكلمة البرتغالية Barroco ومعناها الجوهرة غير المنتظمه الشكل وتدل في الاصطلاح الفني على طراز خاص شديد الزخرف شاع في أوربا بين عامى ١٦٠٠ - ١٧٢٠ أو ١٧٦٠ والكلمة من أصل عربي هو لفظ « براق ». (المترجم)

(٢) روكوكو: مأخوذة عن الكلمة الفرنسية Rocaille ومعناها الحصاة على شكل الصدفة وهو اصطلاح في الفنون الزخرفية يطلق على زخرف يتألف من الأصداف والأحجار وقد شاع منذ عام ١٨٣٠ عند ختام الطراز الباروكي (المترجم)

أخرى أقسى وأعبس مظهراً . وكان كانوفا الإيطالى هو المثّال العظيم لذلك الزمان . وكان دافيد يطرب لأشكال الأبطال العراة . وخلد إنجرس (Ingress) أميرات نابليون على صورة ربات منازل رومانيات وربات رومانيات . وتماثيل لندن العامة تمثل ساسة تلك الفترة وملوكها الموقرين فى أشكال أعضاء السناتو والأباطرة . وعندما اختارت الولايات المتحدة تصميماً لخاتمها الأعظم ، كان من الطبيعى أن تختار فيه النسر وأن تضع فى مخالبه سهم المشترى[1] .

---

(١) المشترى : أكبر آلهة الرومان . (المترجم)

الفصل السابع والثلاثون

حقائق القرن التاسع عشر وخيالاته

١ – الانقلاب الآلى .
٢ – العلاقة بين الانقلابين الآلى والصناعى .
٣ – انهيار الفكرات فى ١٨٤٨ .
٤ – تطور فكرة الاشتراكية .
٥ – عيوب الاشتراكية بوصفها خطة للجماعة الإنسانية .
٦ – كيف أثر مذهب داروين فى الفكرات الدينية والسياسية .
٧ – فكرة القومية .
٨ – المعرض الكبير فى ١٨٥١
٩ – سيرة حياة نابليون الثالث .
١٠ – لنكولن والحرب الأهلية فى أمريكا .
١١ – الحرب الروسية التركية ومعاهدة برلين .
١٢ – التدافع الثانى على الإمبراطوريات وراء البحار .
١٣ – السابقة الهندية فى آسيا .
١٤ – تاريخ اليابان .
١٥ – ختام فترة التوسع وراء البحار .
١٦ – الإمبراطورية البريطانية فى ١٩١٤ .
١٧ – التصوير والنحت والعمارة فى القرن التاسع عشر .
١٨ – الموسيقى فى القرن التاسع عشر .
١٩ – نهوض القصة إلى المرتبة العليا فى الأدب .

١ – الانقلاب الآلى

تبدو حياة نابليون الأول وشخصيته فى مؤلفات القرن التاسع عشر التاريخية ضخمة لا تتناسب وأهميته . فإنه كان قليل الأهمية بالنسبة للحركة الرحيبة السائرة قدماً بالشئون الإنسانية نحو الأمام . ولم يزد على أن كان مقاطعاً لتلك الحركة ومذكراً بالشرور الكمينة ، كما كان أشبه شىء ببكتريا بعض الأوبئة . ولو نظرنا إليه حتى من زاوية الأوبئة واعتبرناه باكتريا ، فإنه لم يكن منها فى المقام الأول ؛ فإنه قضى على عدد من الأنفس يقل عما قضى عليه وباء الأنفلونزا فى سنة ١٩١٨ ، وأنتج من التمزيق السياسى والاجتماعى أقل مما أنتجه الطاعون فى عصر چستنيان .

لم يكن بد من ظهور تمثيليته الصغيرة على المسرح بين فصول المسرحية الكبرى ، ولم يكن مندوحة من حدوث تلك التسوية الأوربية المرقعة التي تتبدى في الاتحاد الأوربي ، ذلك أنه لم يكن هناك مجموعة مدروسة من الفكرات يمكن أن يقام عليها عالم جديد . وإن الاتحاد الأوربي نفسه كان ينطوى على عامل من عوامل التقدم . فإنه على الأقل أطرح جانباً روح « الفردية » الممثلة فى الملكية المكيافلية وأعلن أنه توجد دولة إنسانية أو على الأقل دولة أوربية . فلئن قسم ذلك الاتحاد العالم بين الملوك ، فإنه أدى تحية التجلة والإكبار للوحدة الإنسانية وخدمة الله والإنسان .

والواجب الدائم الأثر الذى كان على الإنسانية أداؤه ، قبل أن يكون فى الإمكان إقامة أى بناء سياسى واجتماعى جديد مستديم ، وهو الواجب الذى ما تزال الفطنة الإنسانية منشغلة به رغم ما ألم به من فترات التوقف والمقاطعة وما أحاط به من مظاهر الغضب والشغب – كان وما ينفك هو واجب إنتاج وتطبيق : « ا » علم للملكية يكون أساً تبنى عليه الحرية والعدالة الاجتماعية ، « ب » علم للعملة يضمن وجود وسيط اقتصادى كفء ، « حـ » علم لأصول الحكم والعمليات الجماعية ، يستطيع به الناس فى كل مجتمع أن يتعلموا كيف يتولون مصلحتهم المشتركة بتوافق وانسجام ، « د » علم للسياسة العالمية يمكن أن يقضى على ما فى الحروب بين الجنس والجنس ، والشعب والشعب ، والأمة والأمة ، من التدمير والإسراف الشديد والقساوات الفظيعة ، ويمكن به أن توضع بفضله مصالح البشرية المشتركة تحت رقابة مشتركة ؛ وفوق كل شىء ، « هـ » علم يكفل قيام نظام للتعليم شامل للعالم قاطبة يدعم إرادة الناس ومصلحتهم فى مغامرتهم الإنسانية المشتركة .

فأما صناع التاريخ الحقيقيون فى القرن التاسع عشر ، وهم القوم الذين سوف تحدد عواقب أعمالهم الحياة الإنسانية مقدماً لمدة قرن كامل من الزمان ، فقد كانوا هم أولئك الذين روجوا لهذا الجهد الحماسى البناء وأسهموا فيه . فلوقيس إليهم وزراء الخارجية ورجال الدولة والسياسيون فى تلك الفترة لما زادوا عن فئة من التلاميذ المشاغبين الذين يصلون أحياناً إلى حد إضرام النار والإحراق ، أو

بضع نفر من سراق المعادن ، الذين يعبثون هنا وهناك ويحدثون شراً موقوتاً بين المواد الباقية على أرض بناء عظيم لم يفهموا كنهه .

وعلى حين أن عقل المدنية الغربية فى القرن التاسع عشر بأكمله ، وهو العقل الذى أطلقته النهضة من عقاله ، ظل يُجمع نفسه لأداء واجب التعمير الاجتماعى والسياسى الخلاق الذى ما يزال عليه عبء القيام به — فقد غمرت العالم موجة تغير عام فى القوة البشرية وفى أحوال الحياة المادية التى أباحت سبل وجودها الجهود العلمية الأولى لهذا العقل المتحرر .

وابتدأت نبوءات روجر باكون تعيش فى عالم الحقيقة . فإن المعرفة والثقة المتجمعة لدى الأجيال القليلة المتعاقبة من الناس الذى حملوا لواء التنمية العلمية ، قد أخذت عند ذلك تؤتى ثماراً كان فى مستطاع العامة من الناس أن يفهموها . وكانت الآلة البخارية هى أشد تلك الثمار الأولى وضوحاً . وكانت أولى الآلات البخارية المستعملة فى القرن الثامن عشر مضخات تستعمل فى صرف المياه إلى خارج مناجم الفحم المحتفرة حديثا . وكانت مناجم الفحم هذه تشغل لاستخراج الكوك بغية استعماله فى صهر الحديد الذى كان الفحم النباتى المتخذ من الخشب يستخدم فيه آنفا . وإلى جيمس وات وهو صانع آلات دقيقة فى جلاسجو يرجع الفضل فى تحسين تلك المضخة البخارية ، وجعل استعمالها لدفع الماكينات أمراً ممكناً . وقد وضعت أول آلة استعملت لهذا الغرض فى مصنع لنسج القطن بنوتنجهام فى (١٧٨٥) .

وفى (١٨٠٤) كيف ترفيثيك آلة وات وجعلها صالحة لأعمال النقل ، وأنشأ أول قاطرة . وفى (١٨٢٥) فتح للسفر أول خط حديدى بين ستوكتون ودارلنجتون . وما تزال الآلة الأصلية وهى (القاطرة رقم ١ ، ١٨٢٥) تزين رصيف محطة دارلنجتون . وما وافى منتصف القرن حتى كانت شبكة من الطرق الحديدية قد عمت كل أرجاء أوربا .

هنا حدث انقلاب فجائى فيما ظل زمانا طويلا حالة ثابتة فى الحياة الإنسانية ، وأعنى بذلك أقصى سرعة للنقل البرى . وقد سافر نابليون بعد كارثته الروسية من قرب ڤيلنا إلى باريس فى ٣١٢ ساعة ، وهى رحلة تقارب الألف والأربعمئة من

الأميال . كان يسافر مستمتعاً بكل ما تتصوره العقول من الميزات ، وكان معدل مسيره يقل عن خمسة أميال فى الساعة . وذلك فى حين أن الراكب العادى لم يكن ليستطيع أن يقطع هذه المسافة فى ضعف هذا الوقت . وكانت هذه السرعة تقارب نفس سرعات السفر القصوى التى كانت ممكنة بين روما وبين بلاد الغال فى القرن الأول الميلادى ، أوبين سارديس وسوسا فى القرن الرابع ق . م .

ثم جاء على الفجاءة تغيير هائل . فإن السكك الحديدية خفضت هذه الرحلة لأى راكب عادى إلى ما يقل عن ثمانية وأربعين ساعة ، أى أنها خفضت المسافات الأوربية الرئيسية إلى ما يدانى عشر ما كانت عليه . وجعلت من الممكن القيام بالعمل الإدارى فى مناطق تكبر بعشرة أضعاف ما كان فى الإمكان إدارته حتى ذلك الحين بواسطة إدارة واحدة . وما برح المغزى الكامل لهذا الاحتمال فى أوربا ينتظر الأيام التى تحققه . فإن أوربا ما برحت تقسمها شبكة حدود رسمت فى عصر الحصان والسكة الزراعية . وكانت آثار ذلك الحدث فى أمريكا سريعة مباشرة . وكان معنى ذلك لدى الولايات المتحدة الأمريكية الزاحفة غربا ، هو إمكان وجود إتصال مستمر بواشنجتون ، مهما تكن المسافة التى تنتقلها الحدود عبر القارة . وكان معنى ذلك هو الوحدة التى تصان على معيار كان لولاها من أضرب المستحيل .

وكان ظهور الزورق البخارى أسبق قليلا من الآلة البخارية فى مراحلها الأولى . وكان هناك زورق بخارى هو (شارلوت دنداس) ، ينتقل فى قناة (الفورث والكلايد بانجلترة) فى (١٨٠٢) ، وفى (١٨٠٧) كان لأمريكى يدعى فالتون باخرة معدية ، هى الكليرمونت بها آلات مصنوعة ببريطانيا ، وكانت تسير فى نهر الهدسون أعلى نيويورك . وكانت أول سفينة بخارية سارت فى البحر أمريكية كذلك وهى « الفينكس » التى كانت تسير من نيويورك (هوبوكن) إلى فيلادلفيا . وكذلك كان شأن أول سفينة تستخدم البخار (وكان لها أيضا قلوع) عبرت الأطلسى ، وهى السافانا (١٨١٩) . وكانت كل هذه زوارق ذات عجلة رفاصة ، ولكن زوارق العجلة الرفاصة لا تصلح للعمل فى عرض البحار الثقيلة . فإن الطارة الرفاصة سهلة الكسر ، وعند ذلك يصبح الزورق عاجزاً أشل .

وظهرت عقب ذلك السفينة البخارية ذات الداسر اللولبي [1] . وكان لا بد من التغلب على كثير من الصعاب قبل أن أصبح الداسر اللولبي شيئاً عملياً يمكن الانتفاع به . ولم تشرع حمولة السفن البخارية فى أن تزيد على حمولة السفن الشراعية إلا بعد أن بلغ القرن منتصفه . وبعد ذلك أمسى التطور فى النقل البحرى سريعاً . وأخذ الناس لأول مرة يعبرون البحار والمحيطات وهم على شئ من التحقق من موعد وصولهم . وكان عبور الأطلسى قبل ذلك مغامرة غير محققة تمتد أسابيع كثيرة قد تترامى إلى الشهور ، فلم تزل السرعة فيه تزداد حتى خفضت مدته فى (١٩١٠) فى حالة أسرع البواخر ، إلى أقل من خمسة أيام ، مع إمكان تحديد ساعة الوصول على وجه التقريب . وشمل نفس هذا التخفيض فى الزمن ونفس هذا التحقق من المواصلات الإنسانية جميع محيطات العالم وبحاره .

وساير تطور البخار على سطح الأرض وفى عباب الماء ، ظهور أمر آخر جديد رائع أضيف إلى تسهيلات التواصل البشرى ، ونشأ عن أبحاث « فولتا » و « جالفانى » و « فارادى » فى الظواهر الكهربية المتنوعة . وظهر التلغراف الكهربى إلى عالم الوجود فى (١٨٣٥) ووضع أول سلك بحرى (كابل) تلغرافى تحت أطباق البحر فى (١٨٥١) بين انجلترة وفرنسا . ولم تمض بضع سنوات حتى كان نظام التلغراف قد عم العالم المتمدن بأكمله ، وبذا أصبحت الأخبار التى كانت حتى ذلك اليوم ترحل متباطئة من موضع إلى موضع تنتشر فى كل أرجاء المعمورة فى وقت واحد تقريباً .

وقد كانت هذه الأشياء وأعنى بها السكك الحديدية البخارية والتلغراف الكهربى أشد المستحدثات روعة وثورة لدى أذهان عامة الناس فى منتصف القرن التاسع عشر ، على أنهما لم يكونا إلا أبرز وأسمج تباشير عملية أشد منهما اتساعاً وعظماً . وأخذت المهارة والمعرفة الصناعية التكنيكية تتطوران فى سرعة غير مألوفة ، وإلى حد غير مألوف إذا قيس تقدم ذلك العصر بتقدم أى عصر سابق عليه .

---

(١) الداسر اللولبى (Screw) أو الدافع اللولبى : هو مرواح (Propeller) ويستعمل فى دفع السفن أو الطائرات . (المترجم)

وانبسطت قدرة الإنسان على المواد الإنشائية المتنوعة وكان انبساطها فى البداءة أقل ظهوراً بكثير فى حياته اليومية ، ولكنه أصبح آخر الأمر على درجة عظيمة من الأهمية . وقبل أن ينتصف القرن الثامن عشر كان الحديد يستخلص من خامه بواسطة فحم الخشب ، وكان يتناول قطعاً صغيرة ثم يطرق ويصاغ فى الشكل المطلوب . كان مجرد مادة يعمل فيها صانع . وكانت جودة نوع الحديد وطريقة معالجته تعتمد اعتماداً هائلا على خبرة الصانع الفرد وفطنته . وكانت أكبر كتل الحديد التى يستطاع معالجتها فى مثل تلك الظروف تصل فى أعظم شأنها (فى القرن السادس عشر) إلى طنين أو ثلاثة . (فكان هناك إذن حدٌ أعلى محدود جداً لحجم المدفع) . ونشأ الفرن العالى[1] فى القرن الثامن عشر وازداد تطوراً باستخدام فحم الكوك . ولسنا نجد قبل القرن الثامن عشر صفائح الحديد المسحوبة (بين الدرافيل) (١٧٢٨) ، ولا الأسياخ والقضبان المسحوبة (بين الدرافيل) (١٧٨٣) . وجاءت مطرقة « نازميث » البخارية فى زمن متأخر هو (١٨٣٩) .

ولم يستطع العالم القديم أن يستعمل البخار بسبب تأخره فى علوم المعادن والتعدين . فأما الآلة البخارية حتى المضخة البدائية ، فلم يكن فى الإمكان تطويرها قبل أن تتيسر صفائح الحديد . وتبدو الآلات الأولى لعين الرائى العصرى قطعاً من الحديد الخردة سمجة مستوجبة لأشد الرثاء ، ولكنها كانت أقصى ما يستطيع علم المعدنيات أن يخرجه فى ذلك الزمان . وجاءت طريقة « بسمر » فى زمن يقارب فى تأخره (١٨٥٦) ، ثم تلتها على الفور (١٨٦٤) ، عملية الأتون المفتوح الذى كان فى المستطاع إذابة الصلب وكل أنواع الحديد فيه ، وتنقيتها وصبها بحالة وعلى مقياس لم يسمع الناس بهما حتى آنذاك . ولقد يستطيع الإنسان اليوم أن يرى فى الفرن الكهربائى أطناناً من الصلب الوهاج المبيض بالحرارة وهو يَهْدِرُ هدير اللبن المغلى .

وليس فى مراحل التقدم الإنسانى العملية السابقة ما يعدل فى عواقبه ما بلغه الإنسان اليوم من تلك السيادة التامة على كتل هائلة من الصلب والحديد وعلى تكوينها ودرجة جودتها . وكانت السكك الحديدية الأولى والآلات المبكرة بجميع أصنافها

---

(١) الفرن العالى (Blast-Furnace) هو فرن لصهر الحديد ينفخ فيه الهواء الساخن . (المترجم)

مجرد انتصارات للوسائل الجديدة لمعالجة الفلزات[1] . وسرعان ما ظهرت سفن الحديد والصلب والكبارى الضخمة ، وطريقة جديدة للبناء بالفولاذ على معيار هائل . وأدرك الناس بعد فوات الزمن الطويل أنهم كانوا يصممون سككهم الحديدية على مقياس سعة[2] يتجلى فيه الخوف المفرط ، وأنه كان فى مستطاعهم أن ينظموا أسفارهم على أساس قدر أوفى من الثبات والراحة باستعمال مقياس سعة أعظم كثيراً من الموجود .

ولم تكن هناك فى العالم قبل القرن التاسع عشر أية سفن تتجاوز حمولتها ألفين من الأطنان . وليس هناك اليوم أى عجب فى وجود باخرة ذات خمسين ألف طن . ومن الناس من يهزءون بهذا التقدم راعمين إياه تقدماً فى « مجرد الحجم » فقط ، غير أن هذا النوع من الزراية إنما يدل على ضيق أفقهم .

فليست السفينة العظيمة ولا المبنى ذو الهيكل الفولاذى صورة مضخمة من سفينة الماضى الصغيرة أو بناء الماضى الصغير كما يتوهمون ، وإنما هى شىء مختلف فى نوعه ، يبنى بناءاً أخف وأقوى ، من مواد أجود وأمتن . وبدل أن تكون شيئاً يعتمد على السوابق والحساب التقريبى ، إذا بها شىء يرجع إلى حسابات دقيقة معقدة . فى المنزل أو السفينة القديمة ، كانت المادة هى المتسلطة — فكان الحال يقتضى أن تطاع المادة وما يلزمها طاعة العبيد ؛ فأما السفينة الحديثة أو المنزل الجديد فقد قبض فيهما على ناصية المادة وغُيِّرت معالمها وضبطت أحوالها . تصور ذلك الفحم والحديد والرمل المستخرجة من المحاجر والمناجم ، وهى تؤخذ وتشغل ، وتصهر وتصب لكى تقام آخر الأمر برجا[3] رفيعاً براقاً من الصلب والزجاج يعلو على المدينة المزدحمة بستمئة قدم ! وهذه التفاصيل عن تقدم معرفة الإنسان بالخواص الفلزية للصلب ونتائجها قد

---

(١) علم الفلزات (Metallurgy) : هو العلم والفنون المطبقه على المعادن ، بما فى ذلك استنزالها من خامها وتنقيتها وخلطها سبائك وتشكيلها ومعالجتها ودراسة تكوينها وبنيتها وخواصها . (المترجم)

(٢) مقياس سعة (Gauge) مسافة ما بين القضبان . (المترجم)

أدلينا بها على سبيل المثال والتوضيح . وفى إمكاننا أن نروى لك قصة مماثلة لهذه عن الخواص الفلزية للنحاس والقصدير وعن عدد غفير من المعادن نجتزئ منها بذكر اثنين هما النيكل والألومنيوم ، وهما معدنان لم يكونا معروفين قبل انبثاق فجر القرن التاسع عشر .

وإنما يعود إلى هذه السيادة العظيمة النامية على المواد ، أعنى على الأنواع المختلفة من الزجاج وعلى الصخور وأنواع (البياض) وما إليها ، وعلى الألوان والتكوين ، الفضل فى إحراز الإنسان أهم انتصاراته فى الثورة الميكانيكية حتى هذا الأوان . ومع هذا فإنا ما نزال فى مرحلة إجتناء أول بواكير ذلك الأمر . لدينا القوة ، ولكن ما يزال علينا أن نتعلم كيف نستخدم قوتنا . وكثيراً ما كانت هبات العلم هذه تستخدم استخدامات سوقية أو قبيحة الذوق أو مبهرجة أو سمجة حمقاء أو شنيعة . ولم يكد الفنان ولا الفنى المنفذ[1] أن يشرعا حتى الآن فى العمل فى الأضرب اللا نهائية للمواد التى هى الآن بين أيديهما .

ونما علم الكهرباء الجديد نمواً مماثلا لهذا التوسع فى الاحتمالات الميكانية . ولم يحدث إلا فى العقد الثامن من القرن التاسع عشر أن شرعت هذه المجموعة من الأبحاث العلمية أن تؤتى ثماراً تؤثر فى العقل السوقى . ثم جاء بغتة كل من النور الكهربائى والجر الكهربائى ؛ وشرعت عقول الناس العاديين تدرك أن فى الإمكان تبديل القوى (Transmutation) ، أعنى احتمال إرسال القوة التى يمكن تحويلها إلى حركة ميكانيكية أو ضوء أو حرارة حسبما يختار الإنسان ، على امتداد سلك من النحاس ، كما ترسل المياه داخل الأنابيب .

وكان البريطانيون والفرنسيون فى مبدأ الأمر هما الشعبان القائدان للعالم فى مضمار هذا الإخصاب العرفانى العظيم . ولكن ما عتم الألمان الذين تعلموا الذلة فى حكم نابليون أن أظهروا للوقت من الحماسة والدأب فى البحث العلمى ما جعلهم يدركون

---

(١) المنفذ الفنى (Adapter) المعد لخطة المهندس . (المترجم)

هؤلاء القادة . وكان العلم البريطانى فى معظم أمره من خلق رجال من الإنجليز والاسكتلنديين[1] الذين يشتغلون خارج مراكز الحذلقة العادية .

وقد أسلفنا إليك من قبل كيف أن الجامعات فى إنجلترة قل عليها الإقبال الشعبى بعد الإصلاح الدينى ، وكيف أنها أصبحت وقفاً على النبلاء والأعيان كما صارت الحصن المنيع للكنيسة الرسمية . وتغلبت عليها روح إدعاء كلاسيكية ران عليها الغباء والتفاخر بالفخامة ؛ كما أنها تسلطت على مدارس الطبقتين الوسطى والعليا . وكانت المعرفة الوحيدة التى تعترف بها هى الإلمام بنصوص لمختارات من الأدب الكلاسيكى اللاتينى والإغريقى إلماماً لا ينطوى على نقد ولا تمحيص ، وكانت أمارة حسن الأسلوب هى وفرة ما فيه من اقتباسات وإشارات وعبارات متحجرة جامدة .

ومن ثم تواصل التطور المبكر للعلم البريطانى ، بالرغم من هيئة التعليم الرسمية ، ورغم أنف العداوة المريرة التى أبداها أصحاب مهنتى التعليم والكهنوت . كذلك تسلطت على التعليم الفرنسى تقاليد اليسوعيين الكلاسيكية ، وترتب على ذلك أنه لم يعسر على الألمان أن ينظموا هيئة من البحاثة ، كانت صغيرة بالنسبة لاحتمالات الموضوع ، ولكنها كبيرة بالنسبة إلى الفئة القليلة من المخترعين والتجريبيين البريطانيين والفرنسيين . ومع أن هذا العمل عمل البحث والتجريب كان آخذاً بأسباب جعل بريطانيا وفرنسا أغنى بلاد العالم وأقواها ، فإنه لم يكن بجاعل رجال العلم والابتداع أغنياء ولا أقوياء . وهناك ضرب ضرورى من الروح غير الدنيوية يحيط برجل العلم المخلص لعلمه . فإنه أشد انشغالا بمباحثه من أن يدبر ويخطط وسائل يستطيع أن يجر من ورائها المغانم .

وبناء على ذلك تقع عملية الاستغلال الاقتصادى لمكتشفاته بشكل سهل جداً وطبيعى تجداً فى أيدى طراز من الناس أكثر ميلا إلى الاقتناء والاحتياز . وكان كل دور جديد من أدوار التقدم العلمى والتكنيكى ينتج فى بريطانيا العظمى محصولا

[1] ولكن ليلاحظ القارئ بويل والسير و . م . هملتون بوصفهما من رجال العلم المبرزين الإرلنديين . (المؤلف)

جديداً من الأغنياء الذين كانوا من تمام الرضا عن أنفسهم بحيث يتركون الأوزة الذهبية البيض تموت جوعاً ، وإن لم يظهروا كما فعل العلماء المدرسانيون ورجال الأكليروس نفس الرغبة الجامحة فى إهانة أوزة البيض الذهبي القومى وقتلها . كانوا يرون أن المخترعين والمكتشفين يجيئون بحكم الطبيعة لكى ينتفع من ورائهم من هم أشد منهم ذكاءً ومهارة .

وكان الألمان أكثر منهم حكمة بقليل فى هذا الأمر . فإن « العلماء » الألمان لم يظهروا نفس الكراهية العنيفة نحو العلم الجديد بل سمحوا له بالتطور . كذلك لم يكن يخالج الألمانى صاحب الأعمال والمصنع نحو مواطنه العالم نفس ما كان يخالج منافسه البريطانى من احتقار للعلماء . كان هؤلاء الألمان يعتقدون أن المعرفة ربما أصبحت محصولا مزدرعاً يستجيب للمخصبات . لذلك سلموا للذهن العلمى بقدر معين من الفرصة ينتهزه ؛ فكانت مصروفاتهم العامة على أعمال البحث أكبر نسبياً ، وجوزى هذا الإنفاق أوفى الجزاء

وما بلغ القرن التاسع عشر نصفه الثانى حتى كان العالم الألمانى قد جعل اللغة الألمانية لغة ضرورية لكل طالب علوم يرغب فى أن يكون على الدوام فى الطليعة مماشياً آخر إنتاج فى فرع علمه ، وأحرزت ألمانيا فى فروع معينة من العلوم وفى الكيمياء بوجه خاص تفوقاً عظيما جداً على جيرانها الغربيين . وأخذ الجهد العلمى فى ألمانيا فى العقدين السابع والثامن يحدث آثاره فى ثمانينات القرن ، وأخذ الألمان يسبقون بريطانيا وفرنسا سبقاً متواصلا فى النجاح التطبيقى الفنى (التكنيكى) والصناعى . ومن المستحيل فى معالم للتاريخ مثل هذه أن نتعقب شبكة العمليات العقلية المركبة التى أدت إلى هذا التوسع المتواصل فى المعرفة والقوة الذى يجرى الآن فى العالم . وكل ما نستطيع فعله هنا أن نسترعى التفات القارئ إلى أبرز نقائد التحول التى اقتادت آخر الأمر « زلاقة » الشئون الإنسانية إلى ما هى عليه من حال التقدم السريع .

وقد حدثناك عن أول فكاك للتطلع الإنسانى ، وعن بدايات البحث والتجريب .

المنتظم . كذلك حدثناك كيف حدث عند ما جاء النظام الرومانى البلوتوقراطى[1] وما ترتب عليه من روح استعمارية ثم ذهب من العالم ثانية — أن تجددت عملية البحث هذه . وحدثناك عن إفلات البحث من الاستخفاء والاستفادة الشخصية إلى فكرة النشر وإلى الإخوة فى المعرفة ، ولاحظنا تأسيس الجمعية الملكية البريطانية ، والجمعية الفلورنسية ، وأشباههما بوصفهما نتيجة لهذا التنظيم للفكر على أسس « الإشتراكية » . كانت هذه الأمور هى جذور الإنقلاب الميكانيكى ، وما دام جذر البحث العلمى الصرف حياً فلن يقف تقدم ذلك الإنقلاب عند حد . وربما جاز لنا أن نقول إن الثورة الميكانية ذاتها ابتدأت باستهلاك ما فى إنجلترة من الخشب فى مصانع الحديد . وأفضى ذلك إلى استعمال الفحم ، وأدى منجم الفحم إلى المضخة البسيطة ، وأدى التحول بالمضخة على يد « وات » إلى آلة تدفع الماكينات ، إلى ظهور القاطرة والسفينة البخارية . وكان ذلك هو الدور الأول من أدوار توسع عظيم فى استعمال البخار . وابتدأ دور ثان للثورة الميكانية بتطبيق العلم الكهربى على المسائل العملية وعلى تطوير الإضاءة الكهربية ونقل القوة والجر .

وثمة دور ثالث لا بد من تمييزه ، جاء عندما ظهر فى العقد التاسع طراز جديد من الآلات ، وهى آلات حلت فيها قوة التمدد فى خليط متفجر محل قوة التمدد فى البخار : ولم تلبث الآلات الخفيفة العالية الكفاية التى أصبحت بذلك فى حيز الإمكان إن طبقت على السيارة ، وتطورت آخر الأمر حتى بلغت درجة عالية من الخفة والكفاية تجعل الطيران شيئاً عملياً ، والطيران فكرة كان معروفاً منذ زمن مديد أنها ممكنة .

وكان جهد إخوان رايت فى أمريكا ذا أهمية أولية فى هذا الميدان . وفضلا عن هذا فإن الأستاذ لانجلى التابع لمعهد سميثسون بنيويورك تمكن فى زمن يرجع إلى (١٨٩٧) من صنع آلة للطيران ، وإن لم تبلغ من السعة حد حمل جسم إنسانى . فأما مجهوده الثانى وهو طائرة كاملة الحجم ، فقد فشل فى محاولاته الأولى ، ولكن كوريس وفق بعد إدخال تغييرات عظيمة جداً عليها ، إلى الطيران بها بنجاح بعد

---

(١) البلوتوقراطى : القائم على حكم الأثرياء . (المترجم)

ذلك ببضع سنين . حتى إذا وافت (١٩٠٩) أصبح فى إمكان الطائرة أن تعمل فى النقل الإنسانى . وكانت بوادر بعض التوقف فى زيادة السرعة الإنسانية قد لاحت فى الأفق مع إحكام السكك الحديدية والانتقال بالسيارة فى الطرق ؛ ولكن جاءت مع آلة الطيران تخفيضات جديدة فى قيمة المسافة بين نقطة على سطح الأرض ونقطة أخرى . وقد كانت المسافة بين لندن وإدنبرة تستغرق ثمانية أيام فى القرن الثامن عشر . وفى (١٩١٨) قدمت لجنة النقل الجوى البريطانية تقريراً تقول فيه إن الرحلة من لندن إلى ملبورن وهى نصف الدورة الكاملة حول الأرض ، يرجح أن يمكن فى بضع سنين أن تتم فى نفس مدة الأيام الثمانية .

وينبغى ألا نبالغ فى التشديد على هذه التخفيضات الرائعة فى المسافة الزمنية بين مكان وآخر . فما هى إلا مجرد مظهر واحد من مظاهر تكبير الاحتمالات الإنسانية أعظم عمقاً وأشد ضخامة . فإن علم الزراعة والكيمياء الزراعية مثلا أصابا أطواراً من التقدم مماثلة لهذه تماماً إبان القرن التاسع عشر . وبلغ من تعلم الناس تخصيب الأرض أن أنتجوا أربعة أضعاف وخمسة أضعاف المحاصيل التى كانوا يحصلون عليها من المساحة نفسها فى القرن السابع عشر . وكان هناك تقدم أشد خرقاً للمعتاد فى العلوم الطبية . فارتفع معدل متوسط العمر وزادت الكفاية اليومية وتناقص ضياع الحياة بدداً بسبب سوء الصحة .

من أجل ذلك كله يجتمع لنا الآن تبدل تام فى الحياة الإنسانية يبلغ من ضخامته أن يكون طوراً جديداً فى التاريخ . فقد أوجد الإنسان هذه الثورة الميكانية فيما يربى على القرن بقليل . وقام الإنسان إبان تلك المدة بخطوة فى أحوال حياته المادية أسرع من كل ماخطاه فى جميع الفترة الطويلة المحصورة بين المرحلة الباليوليثية (العصر الحجرى القديم) وعصر الزراعة ، أو بين أيام ببى فى مصر وأيام جورج الثالث . وظهر إلى عالم الوجود هيكل جديد هائل للشئون الإنسانية . ومن الواضح أنه يتطلب إعادة تنسيق طرائقنا الاجتماعية والاقتصادية من جديد . بيد أن هذه التنسيقات الجديدة المطلوبة قد ترتبت بالضرورة على تطور الثورة الميكانيكية ، وهى ما تزال حتى اليوم فى مراحلها الافتتاحية لما تتجاوزها .

٢ ـ العلاقة بين الإنقلابين الآلى والصناعى

تجنح كثير من كتب التاريخ إلى الخلط بين ما سميناه هنا باسم الانقلاب الآلى ، الذى كان شيئاً جديداً تمام الجدة فى الخبرة الإنسانية ناشئاً عن تطور العلم المنظم ، وكان خطوة جديدة تشبه إختراع الزراعة أو اكتشاف المعادن ، وبين شيء آخر مختلف تمام الاختلاف فى مصادره وأصوله ، شيء كان له من قبل سابقة تاريخية ، هو التطور الاجتماعى والمالى الذى يسمى الانقلاب الصناعى أو الثورة الصناعية .

كانت العمليتان تسيران جنباً إلى جنب ، وكانتا تتفاعلان بعضهما مع بعض تفاعلا مستمراً ، ولكنهما كانتا مختلفتين أساساً وروحاً وجوهراً . إذ لم يكن بد من أن يحدث إنقلاب صناعى من نوع ما ، ولو لم يوجد الفحم الحجرى ، ولو لم يوجد البخار ولا الماكينات ، ولعله كان سيقتفى فى هذه الحالة بدقة أشد ، خطى التطورات المالية والاجتماعية التى حدثت فى السنوات المتأخرة للجمهورية الرومانية . ولعله كان يعيد قصة المزارعين الأحرار المشردين عن أملاكهم ، وقصـة مناسر العمال ونظام المزارع الكبيرة والثورات المالية الكبرى ، وإحدى العمليات المالية المقوضة للمجتمع .

والواقع أن طريقة المصنع ذاتها جاءت قبل ظهور القوة والماكينات . فكأن المصانع لم تكن ثمرة للآلات ، بل « لتقسيم العمل » . فإن العمال المدربين المكدودين كانوا يصنعون أشياء من أمثال قبعات السيدات وصناديق الورق المقوى والأثاث ويقومون بتلوين الخرائط وصور الكتب وما إليها ، قبل أن تستعمل العجلات المائية نفسها فى العمليات الصناعية . وكانت هناك مصانع فى روما فى أيام أوغسطس ، فإن الكتب الجديدة مثلا كانت تملى على صفوف من النساخ فى مصانع الوراقين . وسوف يدرك كل لبيب من دارسى الكاتب الإنجليزى دانيال ديفو ونشرات فيلدنج السياسية ، أن فكرة جمع الفقراء كالقطيع فى أماكن ليشتغلوا أحشاداً فى كسب رزقهم ، كانت أمراً سبقت معرفته فى بريطانيا قبل نهاية القرن السابع عشر . وهناك من الإشارات ما يدل على هذا حتى فى زمان يرجع فى قدمه

إلى أيام اليوتوبيا[1] التى ألفها السير توماس مور (١٥١٦) . كان الانقلاب تطوراً اجتماعياً وليس ميكانياً .

وكان تاريخ أوربا الغربية الاجتماعى والسياسى إلى ما بعد منتصف القرن الثامن عشر يترسم فى الحقيقة نفس الطريق الذى سارت فيه الدولة الرومانية فى القرون الثلاثة السابقة على ميلاد المسيح . وكانت أمريكا من نواح كثيرة أسپانيا جديدة . وكانت الهند والصين مصراً جديدة . على أن الإنقسامات السياسية فى أوربا ، والفورات السياسية ضد الملكية ، وعناد العامة وربما أضيف كذلك قابلية الذكاء الأوربى الغربى العظيمة لتلقى الفكرات والمستحدثات الميكانيكية ، قد حولت العملية إلى وجهات جديدة تمام الجدة . وبفضل المسيحية بوجه خاص انتشرت فكرات الترابط الإنسانى انتشاراً أعم وأعظم فى هذا العالم الأوربى الأحدث جدة ، ولم يكن السلطان السياسى مركزاً إلى هذا الحد . ومن ثم سارع النشيط من الرجال التواق إلى الثراء ، فوجه كل همه عن طيب خاطر منصرفاً عن فكرة الرقيق ومناسر العمال إلى فكرة القوة الميكانيكية والماكينة .

أما الثورة الآلية (الميكانيكية) أى عملية الإختراع والاكتشاف الآلى ، فكانت شيئاً جديداً فى الخبرة الإنسانية ، وقد سارت فى سبيلها غير عابئة بالعواقب الاجتماعية والسياسية والاقتصادية والصناعية التى عسى أن تترتب عليها . فأما الثورة الصناعية من الناحية الأخرى ، شأن معظم الشئون الإنسانية الأخرى ، فقد ألم بها وما يزال يلم بهاالعميق المتكاثر من التغير والإنحراف بسبب التغير المستمر فى الأحوال الإنسانية الناشىء عن الثورة الميكانيكية . وينحصر الفارق الضرورى بين اختزان القناطير المقنطرة من الأموال ، وإبادة صغار المزارعين وصغار رجال الأعمال ، وطور المالية الكبيرة فى القرون المتأخرة للجمهورية الرومانية من ناحية ، وبين الحالة الشديدة المماثلة لتلك والتى قوامها تركز رءوس الأموال فى القرن الثامن عشر

---

(١) اليوتوبيا : جزيرة خيالية تصورها السير توماس مور حاوية لأكمل النظم السياسية والدينية والقانونية والاقتصادية . واسمها الأصلى بالعربية الطوبى . (المترجم)

والتاسع عشر من الناحية الأخرى ، ينحصر فى الفارق العميق فى خصائص العمل التى كانت الثورة الميكانيكية تحدثها .

كانت القوة فى العالم القديم هى قوة الإنسان ، فكان كل شىء يعتمد اعتماداً مطلقاً على قوى الدفع فى العضل الإنسانى ؛ عضل الجهلة والمقهورين من الرجال . وكان قليل من العضل الحيوانى قوامه ثيران وخيول الجر وما إليها يضاف إلى عمل الإنسان . فأنى كان هناك حِمْل لابد من رفعه فقد كان الرجال هم الذين يرفعونه ، وأنى وجب أن يقطع حجر ، كان الرجال يقدُّونه ، وأنى لزم حرث حقل من الحقول ، كان الرجال والثيران يحرثونه ، وكان المعادل الرومانى للسفينة البخارية هو الغليون (Galley) أى السفينة القديمة بما فيها من صفوف المجدفين المكدودين .

وكانت نسبة ضخمة من أفراد البشرية تستخدم فى المدنيات الأولى فى العمل الشاق الآلى البحت . والماكينات المدفوعة بالقوة لم يبد فيها عند البداية ما يبشر بأى أمل فى فكاك الإنسان من ربقة مثل هذا العناء العضلى الذى لا زكاء فيه . فكانت جماعات عظيمة من العمال تستخدم فى حفر القنوات ، وفى عمل قطوع السكك الحديدية وجسور[1] الأنهار وما إليها . تزايد عدد عمال المناجم تزايداً هائلا . ولكن اتساع التسهيلات وإنتاج السلع تزايد أكثر من ذلك جداً . ومع مضى الزمن بالقرن التاسع عشر أخذ المنطق البسيط الواضح للموقف الجديد يثبت وجوده بشكل أشد وضوحاً . فلم تعد الكائنات الإنسانية تطلب بعد ذلك بوصفها مصدراً لمجرد قوة لا يميز بين مفرداتها أحد . إذ كان ما يمكن صناعته آليا بواسطة الكائن الإنسانى ممكناً صناعته أسرع وأجود بواسطة الآلة ؛ ولذا لم تعد هناك الحاجة إلى الكائن الإنسانى الآن إلا حيث يتطلب الأمر الاختيار والذكاء . فكأن الكائنات الإنسانية لم تعد تطلب إلا بوصفها كائنات إنسانية لا غير . فأما ذلك العسيف[2] المشتغل بالأعمال الشاقة الذى قامت على أكتافه كل المدنيات السالفة ، ذلك الكائن المخلوق لمجرد الطاعة ،

---

(١) الجسور ليست هنا بمعنى الكبارى بل بالمعنى الذى يقال عنه فى مصطلح أهل مصر الكورنيش . (المترجم)

(٢) العسيف (Drudge) : عامل تساء معاملته ويرهق بالباهظ الحقير من الأعمال . (المترجم)

ذلك الإنسان الذى كان عقله شيئاً لا لزوم له ـ فقد أصبح غير ضرورى لرفاهة الإنسانية .

وصدق هذا على الصناعات العتيقة كالزراعة واستخراج المعادن صدقه على أحدث عمليات التجهيز فى المعدنيات . فأما الحرث والبذر والحصاد فقد ظهرت لها آلات سريعة تعمل عمل عشرات الرجال . وفى هذا الميدان تزعمت أمريكا العالم القديم . وكانت الحضارة الرومانية تقوم على كائنات إنسانية رخيصة منحطة عن مكانتها ، والحضارة العصرية يعاد بناؤها على القوة الميكانيكية الرخيصة . إذ جاءت مئة من السنين اطرد فيها رخص القوة وغلاء العامل . فلئن اضطرت الماكينات أمد جيل أو بعض جيل أن تنتظر دورها فى المنجم ، فإن ذلك كان لمجرد أن الرجال لبثوا ردحاً من الزمان أرخص من الماكينات . فكانوا يقدرون فى نورثمبرلند وديرهام فى أيام استخراج الفحم الأولى تقديراً يبلغ من الرخص والحطة أنه لم تجر العادة بإقامة التحقيق حول أجساد القتلى فى كوارث المناجم . وكانت الحاجة إلى نقابات العمال ماسة لتغيير حالة الأمور هذه .

ولكن هذا الاتجاه العام نحو إكمال العمل اليدوى والقضاء عليه بواسطة الآلات ، كان انقلاباً ذا أهمية من الدرجة الأولى تماماً فى الشئون الإنسانية . وكان أهم ما يشغل بال الغنى والحاكم فى المدينة القديمة أن يحتفظ بمدد متواصل من العسفاء المشتغلين بالأعمال الشاقة . إذ لم يكن هناك أى مصدر آخر للثراء . فلما تطاول العهد بالقرن التاسع عشر أخذت تزداد وضوحاً لدى القوم الأذكياء الموجّهين للآخرين ، الفكرة القائلة بأن الرجل العادى لا بد له الآن من أن يكون شيئاً أحسن من فاعل عسيف يكدح . فكان لابد من تعليمه للحصول على « الكفاية الصناعية على الأقل » . وكان لابد له من أن يفهم ما عليه حال الدنيا .

وقد كان التعليم الشعبى منذ أيام الدعاية المسيحية الأولى ، ناراً تتقد تحت الرماد فى أوربا ، كما كانت تتقد تحت الرماد فى آسيا حيثما وضع الإسلام قدمه ، بسبب الضرورة القاضية بجعل المؤمن على شىء من الفهم للعقيدة التى تنقذ روحه ، وتمكينه من قراءة ما تيسر من الكتب المقدسة التى تحمل إليه اعتقاده . وقد أدت الخصومات

بين الطوائف المسيحية وما صحبها من تنافس على الأنصار ، إلى حرث التربة وتمهيدها لبذر بذور التعليم الشعبي العام . فقد حدث في انجلترة مثلا عندما ضرب القرن التاسع عشر في عقديه الرابع والخامس ، أن أنتجت منازعات الطوائف وضرورة الإستحواذ على الأنصار صغاراً ، وفرة في المدارس الليلية ، ومدارس الأحد وسلسلة من الهيئات التعليمية للأطفال ، والمدارس البريطانية غير المنتمية إلى أية طائفة دينية والمدارس القومية التابعة للكنيسة ، بل حتى المدارس الأولية الكاثوليكية .

وكان أصحاب المصانع الأقدمون عهداً والأقل استنارة وعلماً يكرهون هذه المدارس ويعارضونها لضيق أفقهم حتى عن النظرة الخاصة إلى مصالحهم الخاصة . وفي هذا المجال أيضاً تزعمت ألمانيا الفقيرة الأكثر جيرانها منها ثروة . وسرعان ماوجد المعلم الديني في بريطانيا أن طالبي المكاسب قد انحازوا إليه ، وقد غلبهم شغف غير متوقع إلى تعليم عامة الناس ، وإلا فإلى « تدريبهم » إلى مستوى أعلى في الكفاية الاقتصادية والإنتاجية .

وكان النصف الثاني من القرن التاسع عشر فترة تقدم سريع في التعليم الشعبي العام في كل أرجاء العالم المصطبغ بالصباغ الغربي . ولم يصحب هذا تقدم مماثل في تعليم الطبقات العليا — ولا ريب أن قد حصل شيء من التقدم ولكنه ليس شيئاً يعادل ذاك ويقابله — وبذا لم يعد ذلك الجون العظيم الذي كان حتى حين يقسم العالم إلى الطبقة القارئه والمجموعة غير القارئة ، يزيد كثيراً عن فارق ضئيل جداً في المستوى التعليمي . وكانت الثورة الميكانيكية تقف من وراء هذه العملية . وكانت تسير غير عابئة في الظاهر بالظروف الاجتماعية ، ولكنها مصرة في الحقيقة إصراراً عنيداً على إلغاء الطبقة التامة الأمية في كل أرجاء العالم إلغاء كاملا .

ولم يستطع عامة سكان روما بأية حال فهم الثورة الإقتصادية في الجمهورية الرومانية فهماً واضحاً . فإن المواطن (المادن) الروماني العادي لم ير قط التغيرات التي كان يعيش فيها رؤية واضحة مفهومة كما نراها نحن الآن . على أن الثورة الصناعية وهي تمضي في سبيلها قرب نهاية القرن التاسع عشر ، كانت واضحة لأعين العامة الذين كانت تؤثر فيهم ، وكانوا يعرفون أنها عملية واحدة متماسكة :

لأنهم كانوا قد أخذوا للوقت يستطيعون القراءة والمناقشة والتواصل ، ولأنهم كانوا يضربون فى الأرض ويرون الدنيا على شاكلة لم تصل إليها فئة من العامة قبلا . ولقد حرصنا فى هذه « معالم التاريخ » أن نومىء لك إلى الظهور التدريجى للعامة بوصفهم طبقة لها إرادة مشتركة وفكرات مشتركة . ومن رأى الكاتب أن الحركات الضخام لعامة الناس فوق مساحات جسيمة ، لم تصبح فى الإمكان إلا نتيجة لديانتى الدعاة : المسيحية والإسلام ، وإصرارهما على الاحترام الذاتى للفرد . وقد سقنا قصة حماسة العامة للحرب الصليبية بوصفها مميزاً لدور جديد من أدوار التاريخ الاجتماعى .

غير أن هذه الحركات الضخام بذاتها كانت قبل القرن التاسع عشر ، محدودة نسبياً . ولكن فتن الفلاحين للمطالبة بالمساواة ظلت ابتداءاً من زمان ويكليف فما عقبه ، مقصورة على مجتمعات للفلاحين فى مواضع محلية محدودة ، ولم تنتشر إلا على بطء إلى نواح تؤثر فيها مؤثرات مشابهة . أجل إن صناع المدن كثيراً ما كانوا يشغبون ، ولكن ذلك كان شيئاً محلياً بحتاً .

ولم يكن إحراق القصور فى الثورة الفرنسية من عمل فلاحين قد قلبوا حكومتهم ، بل من عمل فلاحين أطلقهم من قيودهم قلب حكومتهم . وكان « كوميون » باريس أول ظهور فعال لصناع المدينة بوصفهم قوة سياسية ، وكان الجمهور الباريسى فى الثورة الأولى جمهوراً شديد التخلط بدائى التفكير متوحشاً ، بالموازنة إلى أى جمهور أوربى بعد (١٨٣٠) .

على أن الثورة الميكانيكية لم تقتصر على إدخال التعليم قسراً على السكان كافة ، بل كانت مؤدية إلى رأسمالية كبيرة وإلى إعادة تنظيم كبير المعيار للصناعة قدر له أن ينتج فى العامة نظاماً من الفكرات جديداً مميزاً بدلا من مجرد العناد القلق والثورات الأولية التى تحدث من دهماء أميين .

ولقد سبق أن لاحظنا كيف شقت الثورة الصناعية الطبقة الصانعة ، التى كانت حتى حين ضربا من طبقة متوسطة مخلطة ، — إلى نوعين من الطبقات ، هى أصحاب

الأعمال الذين بلغوا من الثراء ما مكنهم من الإختلاط بالطبقات المالية والمتجرة وصاحبة الأراضى ؛ والمستخدمين (العمال) الذين كانوا ينتقلون إلى حالة تقرب رويداً رويداً من حالة مجرد عمال المناسر والزراعة . وبينما كان العامل الصناعى يهبط ، كانت ترتفع قيمة العامل الزراعى بسبب إدخال الآلات الزراعية والزيادة فى قوة إنتاجة الفردى .

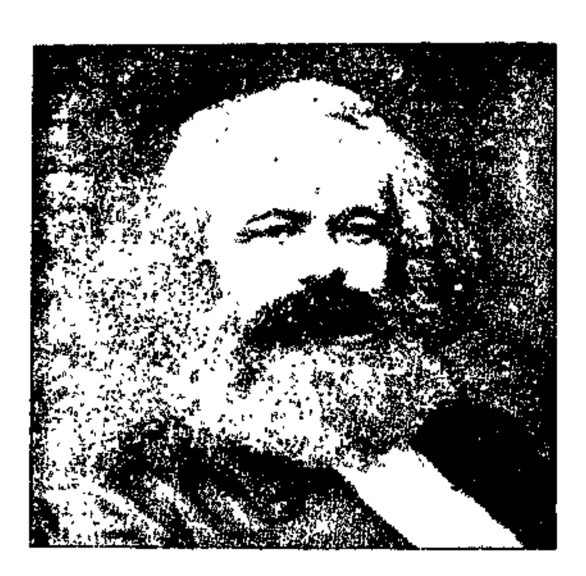
وعند منتصف القرن التاسع عشر ، كان كارل ماركس (١٨١٨ — ١٨٨٣) وهو يهودى ألمانى بلغ بسطة عظيمة من العلم ، قد أخذ يشير إلى أن تنظيم الطبقات العامة على يد جماعة ملاك رأس المال المتزايدى التمركز تزايدا متواصلا مستمرا ، كان يطور تصنيفاً اجتماعياً جديدا يحل محل أنظمة طبقات الماضى الأكثر تعقيدا . ذلك أن الأملاك بالقدر الذى هى به قوة ، كانت تجمّع بعضها إلى بعض فى أيد قليلة نسبياً ، هى أيدى كبار الأغنياء ، أى طبقة الرأسماليين ، على حين كان ينتج هناك إختلاط عظيم فى العمال الذين لديهم القليل أو ليس لديهم شىء من الأملاك ، الذين كان يسميهم باسم « أصحاب الأملاك سابقاً » أو « البروليتارية[١] » — (وهو استعمال خاطئ لهذه الكلمة) — وهم الذين لا مناص لهم بسبب تنازع مصالحهم ومصالح الأغنياء من أن يطوروا « وعياً مشتركاً » بين أفراد طبقتهم .

وقد جاء على الناس ردح من الزمان بدا لهم فيه أن الفوارق فى التعليم والتقاليد بين العناصر الاجتماعية المتنوعة الأقدم عهدا ، والتى كانت تمر فى عملية الصهر والخلط بعضها ببعض لتصبح الطبقة الجديدة طبقة (أصحاب الأملاك سابقاً) ، — قد أخذت تناقض هذا التعميم الجارف . فكانت تقاليد أصحاب الحرف وصغار أصحاب العمل والمزارعين الفلاحين ومن إليهم تختلف جميعاً بعضها عن بعض وعن التقاليد الحرفية المتنوعة للعمال . ولكن هذا التعميم « الماركسى » يصبح الآن مقبولا أكثر فأكثر مع انتشار التعليم ورخص ثمن الكتب .

---

(١) البروليتارية (Proletariat) : هى الطبقات الدنيا أو عامة الشعب أو العمال وهى كلمة مشتقة من اللفظة اللاتينية (Proletarius) ، ومعناها مواطن من أدنى طبقة ، يخدم الدولة لا بأملاكه بل بنسله (Proles) ومن ثم يشير المؤلف إلى الفارق بين استخدام اللفظ قديماً وحديثا . (المترجم)

هذه الطبقات التى لم يكن يربطها فى أول الأمر رابط غير فقر مشترك أصابهم جميعاً على السواء ، كانت ولا تزال تنخفض عن نفس مستوى الحياة أو ترتفع إليه وتجبر على قراءة نفس الكتب والاشتراك فى نفس المضايقات . ومن ثم فإن شعوراً من التماسك بين كل أنواع الرجال الفقراء الذين لا أملاك لهم ضد الطبقة التى تكدس الأرباح وتمركز الثروة ، قد أخذ يزداد وضوحاً أكثر فأكثر فى عالمنا هذا . فإن الفوارق القديمة تذوى ، فيذهب الفارق بين رب الحرفة والعامل فى العراء . وبين الموظف صاحب السترة (الجاكتة) السوداء والعامل صاحب معطف العمل الواقى (العفريتة) ، وبين القسيس الفقير ومعلم المدرسة الأولية ، وبين رجل الشرطة وسائق الأومنيبوس . فلا بد لهم جميعاً من مشترى نفس الأثاث الرخيص ، ولا بد لهم من سكنى البيوت الرخيصة المتشابهة . ولا بد أن يختلط أبناؤهم وبناتهم جميعاً ويتزوجوا بعضهم من بعض . ويصبح النجاح فى المستويات العليا أمراً ينقطع دونه أكثر فأكثر أمل عامة الناس . وتبرر الحوادث كل يوم أكثر فأكثر آراء ماركس الذى لم يدافع عن حرب الطبقات قدر ما تنبأ بها ؛ وهو يعنى بحرب الطبقات الحرب التى تشنها طبقة « أصحاب الأملاك سابقاً » على الأقلية التى لا تبرح تمتلك الأملاك . وقد يدفع بعضهم أحياناً فى جدله ضد ماركس بأن نسبة الناس الذين لهم مدخرات مستثمرة قد تزايدت فى كثير من المجتمعات العصرية . فهذه المدخرات هى من الناحية الفنية التكنيكية « رأسمال » وأصحابها إنما هم « رأسماليون » على ذلك المنوال ، ويظن أولئك أن هذا يناقض بيانات ماركس القائلة بأن الملكية تتمركز فى أيد تنتقل فى عددها من القليل إلى الأقل .



(شكل ١٩٢ كارل ماركس)

وكان ماركس يستعمل كثيراً من مصطلحاته بلاعناية وبسوء إختيارها ، وكانت فكراته خيراً من ألفاظه . فقد كان عندما يكتب « الأملاك » يعنى « الأملاك إلى الحد الذى هى به قوة » . وللمستثمر الصغير قوة صغيرة صغراً ملحوظاً على رأس ماله المستثمر .

٣ – اختمار الفكرات فى ١٨٤٨

لا شك أن من أعسر الأمور تعقب المعالم الإجمالية لاختمار الأفكار الذى كان يحدث أثناء الإنقلابين الآلى والصناعى فى القرن التاسع عشر . على أنه لزام علينا أن نحاول ذلك إن نحن شئنا أن نربط بين ما سبق حدوثه فى هذا التاريخ وبين حال عالمنا اليوم .

ومن المناسب أن نميز بين فترتين رئيسيتين فى السنوات المئة الممتدة بين (١٨١٤ ، ١٩١٤) . فقد جاءت أولا الفترة بين (١٨١٤–١٨٤٨) ، وفيها حدث قدر جسيم جداً من التفكير المتحرر والكتابة الأسمحية المتحررة فى دوائر محددة ، ولكن لم تحدث فيها أية تغييرات عظيمة أو تطورات كبيرة فى الفكر بين كتلة الشعب العامة . وكانت شئون العالم تلك الفترة تعيش – إن جاز لنا مثل هذه العبارة – على رأسمالها الذهنى القديم ، فإنها كانت تمضى وفق الفكرات الرئيسية « للثورة » والثورة « الرجعية » المضادة . وكانت الفكرات التحررية السائدة هى الحرية وضرب مبهم بعينه من فكرة المساواة . وكانت فكرات المحافظين هى الملوكية ، والديانة المنظمة ، والامتيازات الإجتماعية والطاعة .

وكانت روح المحالفة المقدسة حتى (١٨٤٨) ، وهى روح مترنيخ تكافح لمنع أى انتعاش للثورة الأوربية التى خانها نابليون وأرجعها أدراجها . ومن الناحية الأخرى كانت الثورة فى أمريكا بجزئيها الشمالى والجنوبى ، قد انتصرت . وكانت الروح التحررية فى القرن التاسع عشر تسودها لا ينازعها هناك منازع . وكانت بريطانيا قطراً قلقاً ، لا هى تميل بولائها تمام الميل إلى الرجعية ولا تميل به تمام الميل إلى حركة التقدم ، ولا هى صادقة فى روحها الملكية ولا صادقة فى روحها الجمهورية فكانت أرض كرومويل وكذلك كانت أرض الملك المرح شارل ، وكانت مضادة للنمسا ؛

ومضادة لآل بوربون ، ومضادة للبابا ، ومع ذلك فإن روح القمع فيها كانت ضعيفة . ولقد حدثناك عن أول سلسلة من عواصف التحرر فى أوربا فى (١٨٣٠) وحواليها . وصدر فى بريطانيا فى (١٨٣٢) مشروع قانون إصلاح يوسع حق الانتخاب توسيعاً عظيما ويعيد إلى مجلس العموم شيئاً كثيراً من خصيصته التمثيلية ، فخفف كثيراً من توتر الموقف .

وجاءت قرابة (٨٤٨) وحواليها مجموعة ثانية من الإنفجارات أشد من الأولى خطورة بكثير ، أفضت إلى خلع ملكية آل « أورليان » ، وتأسيس جمهورية ثانية فى فرنسا (١٨٤٨ – ٥٢) ، وأثارت شمال إيطاليا والمجر ضد النمسا ، وأهاجت البولنديين فى « بوزن » على الألمان ، وجعلت البابا يفر من وجه الجمهوريين فى روما . وعقد فى براج مؤتمر شائق جداً هو مؤتمر الكتلة السلافية الذى تسلف مقدماً كثيراً من تلك التسويات والتعديلات الإقليمية التى تمت فى (١٩١٩) . وانفض المؤتمر بعد أن قمعت الجنود النمسوية عصياناً شب فى براج . فأما العصيان الهنغارى فكان أشد قوة فواصل الكفاح سنتين . وكان زعيمه الأكبر هو لويس كوسوث . ولم يبرح بعد أن دحر ونفى ، يواصل دعاية عظيمة فى سبيل حرية وطنا وقومه .

وقد أخفقت كل هذه الفتن فى النهاية إخفاقاً تاماً . وترنح النظام القائم ولكنه ظل واقفاً على قدميه . ولا ريب أن هذه الفتن كانت وراءها تذمرات اجتماعية خطيرة ، ولكن لم تكن لهذه الثورات حتى آنذاك ، اللهم إلا فى حالة باريس ، أية صورة واضحة ملموسة . وأحسن ما يقال عن عاصفة (١٨٤٨) هذه – بقدر مايهم أوربا – أن تنعت فى كلمة واحدة باسم « ثورة الخريطة السياسية الطبيعية » على الترتيبات الإصطناعية للديبلوماسي ڤينا ، وعلى نظام القمع الذى ترتب على تلك الترتيبات .

ومن ثم يكون تاريخ أوربا من (١٨١٥ – ١٨٤٨) على وجه العموم ، لاحقا لتاريخ أوربا من (١٧٨٩ – ١٨١٤) . ولم يكن ينطوى على أية فكرات جديدة حقاً وما برح رأس المتاعب هو الكفاح بين مصالح الرجال العاديين وبين نظام

الدولة العظمى التى أرهقت بالضغط حياة البشرية وقيدتها — وإن يكن فى الكثير من الأحايين كفاحاً أعمى سيىء التوجيه .

ولكن حدث بعد (١٨٤٨) ، أى من (١٨٤٨ إلى ١٩١٤) أن عملية إعادة تسوية الخريطة إعادة تتجه إلى إيجاد إيطاليا حرة موحدة ، وألمانيا موحدة ، تواصلت ولم تقف عند حد . فقد بدأ دور جديد فى عملية التكيف الذهنى والسياسى وفق ما بلغته البشرية من المعرفة الجديدة والقوى المادية الجديدة . ثم حدث انفجار عظيم للفكرات الجديدة الإجتماعية والدينية والسياسية ، تغلغل بها فى العقل الأوربى العام . ولسوف نتأمل فى الأقسام الثلاثة التالية مصادر هذه الإنفجارات ونوعها ذلك بأنها وضعت لنا الأسس التى تبنى عليها اليوم فكرنا السياسى ، غير أنها ظلت زمناً طويلا وليس لها أثر كبير على السياسة المعاصرة . فاستمرت السياسة المعاصرة تجرى على السنن القديمـــة . وإن داخل الوهن المتواصل ما لها من دعامة فى ضمائر الناس واعتقاداتهم الفكرية .

ولقد وصفنا لك آنفاً الطريقة التى قوضت بها إحدى العمليات الذهنية القوية نظام الملكية العظمى بفرنسا قبل (١٧٨٩) . وثمة عملية تقويض مماثلة كانت تجرى فى أرجاء أوربا إبان فترة الدول الكبرى من (١٨٤٨ — ١٩١٤) . إذ انتشرت فى كل أرجاء الهيئة الاجتماعية شكوك عميقة حول نظام الحكومة وحول مدى الحريات التى لكثير من أشكال الملكية فى النظام الاقتصادى . ثم جاءت حرب هى أعظم حروب التاريخ وأشدها تدميراً ، ومن ثم استحال على الذين عاشوا بعدها مباشرة أن يقدروا قوة ومجال الفكرات الجديدة التى تجمعت فى هذه السنوات الست والستين . فلقد مرت الدنيا فى ملمة كبرى أعظم كثيراً ، حتى من الكارثة النابليونية نفسها ، وما نحن إلا فى فترة راكدة بين المد والجزر تقابل فترة (١٨١٥—٣٠) وتمت إليها بسبب . وما زلنا نتوقع أن تأتينا سنتنا (١٨٣٠ ، ١٨٤٨) الخاصتين بنا وبالقرن العشرين فتكشفان لنا أين نحن وقوف .

٤ - تطور فكرة الإشتراكية

قفونا فى كل أرجاء هذا الكتاب التضييق التدريجى الذى حاق بفكرة الملكية منذ الإدعاء الأول غير المحدود للرجل القوى على ملكية كل شيء ، ومنذ إدراك الناس تدريجياً الفكرة الأخوية بوصفها شيئاً يسمو على البحث الشخصى عن الذات. وقد بدأ الأمر بأن أُخضع الناس بدافع الخوف من الملك والله ، لسلطان شيء أعظم من المجتمعات القبلية . ولم يحدث إلا فى خلال الآلاف الثلاثة أو على الأكثر الآلاف الأربعة الأخيرة من السنين ، أن تهيأ لنا برهان واضح يدل على أن نكران الذات الإختيارى فى سبيل غاية أعظم ، وبغير أجر يرجى أو ثواب ينتظر ، كان فكرة مقبولة لدى الناس ، أو أن أى إنسان قد قام بطرحها على الناس .

ثم إننا نجد شيئاً ينتشر على وجه الشئون الإنسانية ، كما تنتشر رقاع من ضياء الشمس ثم تمر فوق جوانب التلال فى يوم ريح من أيام الربيع ، هو الفكرة القائلة بأن فى التضحية بالنفس سعادة أعظم من أى إرضاء ذاتى أو انتصار شخصى ، وحياة للبشرية مختلفة وأعظم قدراً وأكثر أهمية من صافى مجموع حياة الأفراد الذين يوجدون فى نطاقها ؛ ورأينا هذه الفكرة تصبح وهاجة كالنبراس ، ناصعة نصاعة ضياء الشمس حين تلتقطه إحدى النوافذ وتعكسه على منظر طبيعى فتبهر به الأبصار، رأيناها فى تعاليم « بوذا » ، « ولاوتسى » وبوجه أشد ما يكون وضوحاً فى تعاليم « يسوع » الناصرى .

ولم تفقد المسيحية قط أثناء كل ما ألم بها من التغيير والمفاسد بارقة إخلاص لملكوت الرب تجعل بذخ الملوك والحكام الشخصى أشبه الأشياء بوقاحة خادم أفرط فى أناقة ثيابه ، وتجعل أبهة الأثرياء وإشباعهم لشهواتهم أشبه شيء بتبذير اللصوص . وما من رجل يعيش فى مجتمع مسته أنامل ديانة مثل المسيحية أو الإسلام ، يستطيع أن يكون عبداً تام العبودية . فإن فى هاتين الديانتين صفة لا تمحى تجبر الرجال على إصدار الأحكام على سادتهم وعلى تحقيق مسئوليتهم الخاصة نحو العالم .

وبينما كان الناس يتلمسون طريقهم نحو حالتهم الفكرية الجديدة منتقلين إليها

من حالة الشره الأنانى العنيف وروح القتال الغريزية الشرسة فى جماعة العائلة الباليوليثية الأولى ، فإنهم جهدوا أن يعبروا عن اتجاه أفكارهم وضروورياتهم تعبيراً متخالفاً جداً . ووجدوا أنفسهم على خلاف وفى نزاع مع الفكرات القديمة المقررة . وكانت بهم نزعة طبيعية لمناقضة هذه الفكرات مناقضة صريحة ، والوثوب من فوقها إلى عكسها المطلق .

وقد قامت الحركة الأولى متسرِّعة نافدة الصبر ، فأعلنت أنها تهدف إلى مساواة شاملة ، ولكن غلبتها والحق يقال الفوضى الشاملة ، خاصة وقد واجهها عالم ، الحكم فيه والطبقات والنظام تبدو جميعاً وكأنما لا هم لها إلا إيتاء الفرص للأنانية الشخصية والظلم الفاجر . وواجهها عالم تبدو فيه الملْكية أنها لا تزيد كثيراً عن وقاية للأنانية ووسيلة إلى الإستعباد ، وكان من الطبيعى أيضاً أن نجحد كل ملْكية .

ويبين لنا تاريخنا أن هناك على الدوام دافعاً متزايداً يدفع الناس إلى الثورة على الحكام وعلى الملكية . وقد تعقبنا ذلك الدافع فى القرون الوسطى ، وهو يحرق قصور الأغنياء ويجرب التجاريب فى الثيوقراطية[1] والشيوعية . وكان هذا التمرد المزدوج واضحاً جلياً فى الثورات الفرنسية . فإنا نجد فى فرنسا رجالا يصرحون وأعينهم مسلطة على ضرائب الحكام ، بأن الأملاك حرمة يجب ألا تنتهك ، كما نجد آخرين يصرحون وأبصارهم شاخصة إلى مساومات صاحب العمل القاسية أنه يجب أن تلغى الملكية . وهم يعيشون جنباً إلى جنب ويستلهمون جميعاً نفس الروح الواحدة ، كما أنهم أعضاء طبيعيون فى الحركة الثورية نفسها . ولكن ما كانا فى كلا الحالين ثائرين عليه إنما هو أن الحكام وصاحب العمل ، لا يزالون كغيرهم من البشر أفراداً أنانيين يبحثون عن خير أنفسهم ويظلمون الناس بدل أن يكونوا خداماً للمجتمع .

وإنا لنجد هذا الاعتقاد ينمو فى أذهان الناس على مر العصور : وهو أن فى الإمكان قيام ذلك التنظيم الجديد للقوانين والسلطات قياماً يقدم للناس الحكم

---

(١) الثيوقراطية (Theocracy) : حكومة تسوس تدعى أن الله مصدر سلطتها . (المترجم)

والنظام ، بينما هو لا يبرح يصد أنانية أى حاكم وأية طبقة حاكمة قد تكون ضرورية ، ويزود الناس بذلك التعريف للملكية الذى يمنح الحرية من غير قوة ظللة . وقد شرعنا ندرك فى أيامنا هذه أنه ليس فى المستطاع بلوغ هذه الغايات إلا بمجهود إنشائى مركب ، فإنها تنشأ بسبب منازعات الحاجات الإنسانية الجديدة ضد الجهالة والطبيعة الإنسانية القديمة ، بيد أنه شاع طوال القرن التاسع عشر ميل مستمر ثابت إلى حل المسألة ببعض الحلول البسيطة . (ليكون الناس سعداء إلى أبد الآبدين ، وذلك بغض النظر عن أن الحياة الإنسانية كلها ، بل والحياة عامة ، ليست على مر العصور إلا محاولة متواصلة لإيجاد حل لمشكلة معقدة مستمرة) .

وقد شهد النصف الأول من القرن التاسع عشر عدداً من التجارب فى تكوين جماعات إنسانية تجريبية ذات نوع جديد . ومن أهم تلك التجارب من الناحية التاريخية ، تجاريب وفكرات روبرت أوين (١٧٧١ — ١٨٥٨) ، وهو غزّال قطن من مانشستر هو بعد بوجه عام المؤسس للاشتراكية العصرية . ونشوء كلمة « الاشتراكية » لأول مرة إنما كان بالعلاقة إلى عمله حوالى (١٨٣٥) . ويلوح أنه كان رجلا من رجال الأعمال على غاية من الكفاية . فإنه ابتكر عدداً من المستحدثات فى صناعة غزل القطن ، وجمع ثروة لا بأس بها فى سن مبكرة . وقد أحزنه ضياع ما فى عماله من احتمالات بشرية بددا ؛ فنصب نفسه لتحسين حالهم وتحسين العلاقات بين صاحب العمل والعمال . فجهد أن ينفذ ذلك أولا فى مصنعه بمانشستر ثم فى نيولانارك بعد ذلك ، حيث ألفى نفسه متصرفاً بالفعل فى مصانع تستخدم ألفين من الأفراد .

وتوصل بين (١٨٠٠ ، ١٨٢٨) إلى أمور ضخمة جداً . فإنه أنقص ساعات العمل ، وجعل مصنعه صحياً مقبولا ، وألغى استخدام الأطفال صغار السن جداً ، وحسن تدريب عماله وزود العمال بأجور البطالة أثناء فترة كساد فى التجارة ، وأسس مجموعة من المدارس ، وجعل من نيولانارك مثالا يحتذى لحركة عمالية صناعية أحسن وأطيب ، على حين كانت فى نفس الوقت تحافظ على رخائها التجارى . كتب كتابات قوية مدافعاً عما كانت تتهم به أغلبية البشرية من

الإفراط فى المسكرات وعدم التبصر فى العواقب ، التى كان أهل العصر يتخذون منها مبرراً يبررون به مظالم الزمان . وكان يرى أن الرجال والنساء هم فى أكبر شأنهم ثمرة لبيئتهم التعليمية ، وهى مسألة لا تحتاج فكرتها اليوم إلى من يحامى عنها . ثم نصب نفسه للقيام بالدعاية للنظريات التى أثبتت صحتها تجربة نيولانارك .



(شكل ١٩٣) روبرت أوين

وهاجم ما عليه إخوانه أصحاب المصانع من تكاسل أنانى ، وفى ١٨١٩ صدر أول « قانون للمصانع » بناء على إلحاحه فى غالب الشأن ، وهو أول محاولة للحد من استغلال أصحاب المصانع باجتناء أفدح الفوائد بكل غباء وجر المغانم من وراء فقر عمالهم . وإن من بين قيود ذلك « القانون » ما يدخل اليوم إلى أذهاننا أعظم الذهول . إذ يكاد يكون مما لا يصدق به عقل أن تقوم يوماً ما ضرورة تدعو إلى حماية الأحداث الذين فى التاسعة من العمل فى المصانع ، أو تحديد ساعات العمل الإسمية لمثل أولئك العمال باثنتى عشرة ساعة .

وربما أخطأ بعض الناس فجنح إلى الكتابة عن الانقلاب الصناعى (الثورة الصناعية) كأنما كانت هى السبيل إلى استرقاق الأطفال المساكين وتشغيلهم فوق طاقتهم . وأنهم كانوا حتى ذلك الحين سعداء أحراراً . على أن هذا أمر يفسر التاريخ تفسيراً خاطئاً . إذ أن الأطفال الفقراء الصغار ظلوا منذ بدايات المدنية ذاتها يجبرون دائماً على القيام بأى عمل يستطيعون أداءه . ولكن نظام المصنع جمع عناء الأطفال هذا كله فى صعيد واحد وجعله شيئاً نظامياً واضحاً للعيان يجر من ورائه العار والشنار . وتحدى نظام المصنع فى هذه النقطة ضمير الإنسانية الناهض الآخذ

بأسباب الانتعاش . وكان « قانون المصانع البريطانى » فى ١٨١٩ ، وإن بدا لأعيننا ضعيفاً هزيلاً ، هو « العهد الأعظم Magna Charta » للطفولة . ومن بعدها ابتدأت عملية حماية أطفال الفقراء ، من الكد فى أول الأمر ثم من الجوع الجثمانى الشديد ومن الجهل .

ولسنا بمستطيعين أن نفصل لك فى هذا المقام القصة الكاملة لحياة أوين وأفكاره . فإنه كان يحس أن عمله فى نيولانارك لا يتجاوز مجرد محاولة فى حدود نموذج صغير . كان يذهب إلى أن ما يستطاع عمله لمجتمع صناعى ، يمكن أن ينسحب على كل مجتمع صناعى آخر فى البلاد . وكان يدافع مطالباً بإعادة إسكان السكان الصناعيين فى مدن على غرار ما حدث فى نيولانارك .

ومضت فترة من الزمان خُيِّل للناس أثناءها أنه استولى على خيال العالم . فناصرت صحيفتا التيمس والمورننج بوست مقترحاته . وكان من بين زوار نيولانارك الغراندوق نقولا ، الذى خلف الإسكندر الأول على عرش الروسيا ؛ وكان دوق كنت ابن چورج الثالث ووالد الملكة ڤكتوريا صديقاً حميا له . ولكن كل أعداء التغيير وكل من يوسوس له الشيطان حسد الفقراء — وقلما خلا زمان من عدد وفير من هؤلاء — وكل أصحاب المصانع الذين كانوا عرضة للمضايقة بسبب مقترحاته كانوا يتلمسون ذريعة يهاجمونه بها ، وقد وجدوها فى تعبيره عن آرائه الدينية ، التى كانت معادية للمسيحية الرسمية ، وبهذا المأخذ نجح أعداؤه فى الكيد له وتحقيره . ولكنه واصل عمله فى تطوير مشروعاته وتجاريبه ، التى كان أهمها مجتمعاً فى نيوهارمونى بولاية إنديانا بالولايات المتحدة ، أضاع فيه معظم رأسماله . فاشترى منه شركاؤه نصيبه فى مصنع نيولانارك وأخرجوه فى ١٨٢٨ .

وقد ذاعت تجارب أوين ومقترحاته ذيوعاً مترامياً جداً ، وهى لا تقع تحت مبدأ معين بمفرده . ولم يكن يحيط به شىء من جو الرجل النظرى غير العملى . وكانت تجربته فى نيولانارك أول تجربة فى عدد من « الأعمال الخيرية » فى العالم . وإنما تجىء مدينة اللورد ليفرهولم المسماة بورت سانلايت ، ومدينة كاد بورى المسماة بورنفيل ومصانع فورد فى أمريكا أمثلة عصرية واقتراباً من الشيوعية . وكانت

مقترحاته المتعلقة بالتسويات التى تقوم بها الدولة هى ما قد نسميه اليوم باسم اشتراكية الدولة . وتشير تجربته الأمريكية وكتاباته الأخيرة إلى شكل للاشتراكية أكثر كمالا فيه مزيد من التقدم عن حالة الأمور الراهنة .

وواضح أن لغز « العملة » قد شغل بال أوين . فإنه أدرك أننا لا نستطيع أن نأمل فى العدالة الاقتصادية الحقة ، بينما نحن ندفع مقابل العمل نقوداً ذات قيمة متأرجحة ، – إلا بمقدار ما نرجو وجود عالم منتظم المواعيد إذا كان طول الساعة الزمنى تتغير فى كل آن . ومن التجارب التى قام بها أنه حاول نشر أوراق للعمل تمثل ساعة واحدة أو خمس ساعات أو عشرين ساعة من ساعات العمل . وقد نشأت الجمعيات التعاونية لهذا الزمان – وهى جمعيات أناس فقراء تتحد للشراء والتوزيع الجمعى للضروريات ، أو للصناعة الجماعية أو صنع الألبان أو أشكال أخرى من أشكال الزراعة ذات اللون الجماعى ، – نشأت مباشرة عن ابتداءاته ، وإن انتهت الجمعيات التعاونية الرائدة فى زمانه إلى الفشل . على أن الجمعيات التى خلفتها انتشرت فى كل أرجاء العالم ، ويبلغ عدد أنصارها اليوم ثلاثين وأربعين مليوناً .

وهناك نقطة جديرة بالملاحظة فى شأن اشتراكية أوين المبكرة هذه ، هى أنها لم تكن فى البداية « ديمقراطية » بأى حال ، بل مزجت بها الفكرة الديمقراطية فيما بعد . وكانت دوافعها الأولى خيرية ، وكانت صورتها المبكرة قائمة على نظام الأبوة . كانت شيئاً يرتفع إليه العمال بالتعليم ، على يد ذوى السماحة من أصحاب المصانع والزعماء . وإذن فلم تكن الإشتراكية الأولى حركة عمال . بل حركة سادة . وقد كانت المباحث المذهبية فى الاشتراكية فى كل تاريخها بأجمعه ، من عمل رجال ليسوا من العمال فى شىء . ويصف بير (Beer) كارل ماركس بأنه « ارستقراطى » ؛ وكان إنجيلز من التجار ، وأما لينين فكان عضواً منفياً من عائلة من أصحاب الأراضى .

وقد سايرت عمل « أوين » هذا سلسلة أخرى من التطورات مستقلة تمام الاستقلال بكل من أمريكا وبريطانيا ، وقدر لها آخر الأمر أن تتصل بفكراته الاشتراكية . فقد كان القانون الإنجليزى يحظر من أمد بعيد اندماج الجماعات بقصد حصر التجارة واحتكارها ، ويحظر الاندماجات الهادفة لرفع الأسعار أو الأجور

بوساطة العمل الجماعى . ولم تكن هناك أى صعوبات كبيرة فى هذه المحظورات قبل أن تطلق التغيرات الزراعية والصناعية فى القرن الثامن عشر فكالك أسراب عظيمة من العمال يشتغلون « من اليد إلى الفم » ويتنافسون على قدر من الأعمال غير كاف . وكان العمال يجدون أنفسهم تحت هذه الظروف الجديدة فى حال من الضيق والضغط لا تطاق . وكان أرباب الأعمال يلعبون بأحدهم ضد الآخر . وكان كل منهم يقضى أيامه بل ساعاته فى قلق لا يدرى ما يكون من زميل له من الإذعان والتنازل ، وما قد يترتب على ذلك من التنقيص الجديد فى الأجور أو الزيادة فى الشقاء .

فأصبح من الضرورات الحيوية للعمال أن يعقدوا إتفاقات وإن تكن غير قانونية ضد مثل هذا التخفيض فى الأجور . وكان لا بد لهذه الاتفاقات فى مبدأ الأمر من أن تتم وتُصان على يد جمعيات سرية ، أو نوادٍ مؤسسة فى الظاهر لأغراض مختلفة تماماً ، أمثال النوادى الاجتماعية وجمعيات الجنائز وما إليها ، التى كانت تقوم بستر الاندماجات الواقية للأجور . وكان عدم قانونية هذه الجمعيات يجعل أعضاءها ينزعون إلى العنف . كانوا كالوحوش على « المتسللين[1] والفيران » من إخوانهم الذين لا ينضمون إليهم ، وكانوا أكثر وحشية مع الخونة .

وفى (١٨٢٤) اعترف مجلس العموم بأن من المرغوب فيه تخفيف التوتر فى هذه الأمور بتسليمه بحق العمال فى تكوين اندماجات « للمساومة الجماعية » مع السادة . ومكن هذا نقابات العمال (Trade Unions) من التطور على مجالٍ كبير من الحرية . وقد ارتقت نقابات العمال بالتدريج — وكانت فى مبدأ الأمر تنظيمات سمجة شديدة البدائية ذات حرية محدودة جداً ، حتى أصبحت « طبقة رابعة حقيقية » فى البلاد ، أى مجموعة عظيمة من الهيئات تمثل كتلة العمال الصناعيين .

نشأت تلك النقابات فى بريطانيا وأمريكا أولا ، ولكنها ما لبثت — مع تعديلات قومية منوعة ، وتحت أحوال قانونية مختلفة متغيرة — أن انتشرت إلى فرنسا وألمانيا وكل المجتمعات الغربية الصبغة .

---

(١) المتسللين والفيران : العمال الذين يقبلون العمل وإخوانهم فى إضراب رسمى أو يقبلون أجوراً أقل من إخوانهم . (المترجم)

وقد نظمت حركة نقابات العمال فى الأصل للحفاظ على الأجور ودعمها ومنع عدد الساعات الذى لا يطاق ، وكانت فى البداية شيئاً مميزاً تام التميز عن الاشتراكية . فكان العضو فى نقابة العمال يحاول أن يستخلص لنفسه أحسن الغُنم من الرأسمالية الموجودة ومن أحوال العمل الموجودة . على حين كان الاشتراكى يرمى إلى تغيير النظام .

وإلى خيال « كارل ماركس » وقدرته على التعميم يرجع الفضل فى ربط هاتين الحركتين برباط العلاقة والاتصال . كان رجلا تميزت فيه قوة الإحساس بالتاريخ ؛ وكان من أوائل من أدرك أن الطبقات الاجتماعية القديمة التى استدامت منذ بداية المدنية ، كانت تعتريها عملية حلٍّ وعودةٍ إلى التجمع . وقد جعلت منه الروح التجارية المستقرة فى عنصره اليهودى خير من يدرك العداء بين الملكية والعمل أوضح إدراك . وجعلته تنشئته فى ألمانيا — (وهى بلد كان نظام انفصال الطبقات فيها أوضح منه فى أى قطر أوربى آخر حتى أنها كانت أميل إلى التجمد والتحول إلى طوائف) — يتخيل العامل شخصاً يصبح من فوره ذا وعى طبقى[1] معادياً عداءً جماعياً للطبقات التى تركز الملكية فى يدها . وكان يعتقد أن حركة نقابات العمال التى كانت تنتشر فى العالم أجمع — هى تطور خاص بالعامل صاحب الوعى الطبقى .

كان يتساءل قائلاً : ماذا تكون نتيجة « حرب الطبقات » بين الرأسماليين والبروليتارية ؟ فقد كان يدفع بأن مغامرات الرأسماليين المغامرين بسبب ما افتُطروا عليه من الشراهة وحب المقاتلة ، لا يلبث حتى يجمع التسلط على رأس المال فى أيد لا تبرح تقل وتقل ، حتى ينتهى الأمر بهم إلى تركيز كل وسائل الإنتاج والترانسيت (Transit) وما إليها إلى شكل يستطيع العمال أن يقبضوا عليه ، أولئك العمال الذين يتطور بالمثل وعيهم الطبقى وتماسكهم بوساطة عملية تنظيم الصناعة وتركيزها .

وإنهم ليستولون على ذلك الرأسمال ويستثمرونه لحساب أنفسهم . ويكون ذلك

---

(١) الوعى الطبقى (Class Consciousness) : شعور الإنسان بطبقته فى المجتمع وتعصبه لها مع العداء الشديد للطبقات الأخرى . (المترجم)

هو الثورة الاجتماعية : وعند ذلك تُسترجع الملكية الفردية والحرية الفردية ، مؤسستين على الملكية المشتركة للأرض وقيام المجتمع كمجموع بإدارة الخدمات الإنتاجية الكبيرة التي سبق أن نظمها وركزها الرأسمالي الخاص . وتكون تلك هي نهاية نظام الفرد « الرأسمالي » ، ولكنها لا تكون نهاية النظام الرأسمالي . إذ عند ذلك تحل رأسمالية الدولة محل رأسمالية المالك الخاص .

وفي هذا انحراف كبير عن اشتراكية « أوين » . وكان « أوين » — شأن أفلاطون — يشخص ببصره إلى حسن تمييز الرجال وسداد بصرهم بالأمور في أي طبقة أو في كل الطبقات ، راجياً أن تكون تلك الخلة وسيلتهم إلى إعادة تنظيم البناء السياسي الاقتصادي الاجتماعي العرضي الخاطئ . واكتشف « ماركس » شيئاً آخر شبهه بالقوة الدافعة في العداوة بين الطبقات يقوم على انتزاع الأملاك وعلى الظلم . على أنه لم يكن مجرد نظري متنبئ بل كان كذلك من دُعاة ثورة العمال ، ثورة من يقال لهم « البروليتارية » . وقد أدرك أن للعمال مصلحة مشتركة ضد الرأسمالي في كل مكان ، وإن أظهر بتأثير تجربة حروب الدول الكبرى لذلك الزمان ، ولا سيما حروب تحرير إيطاليا ، أنه قد فاته أن يفهم أن العمال في كل مكان لهم مصلحة مشتركة في سلام العالم . ولكنه نجح فعلا — والثورة الاجتماعية نصب عينيه — في الإيحاء بفكرة إنشاء عصبة دولية للعمال ، هي الدولية الأولى (The First International) .

وكان ما عقب ذلك من تاريخ الإشتراكية يترجح بين ظلال تقاليد « أوين » البريطانية وبين « الشعور الطبقي » الألماني عند « ماركس » . وقد لقي ما يسمى باسم الاشتراكية الفابية (١) وهو تفسير الاشتراكية الذي قامت بوضعه الجمعية الفابية بلندن — قبولاً من الرجال المعقولين في كل الطبقات . ثم إن ما كان يسمى باسم « مذهب التنقيح Revisionism » في الاشتراكية الألمانية ، كان يميل صوب نفس ذلك

---

(١) الاشتراكية الفابية أو الفابيانية : مذهب اشتراكي ظهر بانجلترا في القرن التاسع عشر ، وهو يعتمد على وسائل التطور التي يأمل أن يبلغ بها إقرار الاشتراكية بوساطة مجموعة متعاقبة من الإصلاحات التدريجية . (المترجم)

الاتجاه غير أنه يمكن القول على الجملة أن « ماركس » هو الذى فاز على « أوين » . فكانت النزعة العامة للاشتراكيين فى كل العالم هى الاعتماد على تنظيم العمال ، والعمال دون أى شىء آخر ، ليكونوا مصدراً للقوى المقاتلة التى سوف تقول بإخلاء سبيل التنظيم السياسى والاقتصادى للشئون الإنسانية من أيدى الملاك والمغامرين الخصوصيين الذين هم على درجة ما من عدم المسئولية والذين كانوا يتصرفون فيها .

تلكم هى المظاهر الإجمالية للمشروع المسمى باسم الاشتراكية وسوف نناقش فى قسمنا التالى ما فيها من نقص وعدم كفاية . وربما كان أمراً لا مندوحة منه أن تضطرب الاشتراكية إضطراباً كبيراً وأن تنقسم وتتفرع ، إذ تتناولها يد الشكوك والمنازعات والشيع والمدارس . وما هذه إلا أعراض النمو شأن البقع على وجه يافع من الشبان . وما نحن بمستطيعين هنا إلا أن ننظر نظرة لامحة إلى الفارق بين اشتراكية الدولة ، التى تنزع إلى إدارة الجهد الإقتصادى فى البلاد بوساطة حكومتها السياسية ، وبين مدارسها الأخرى المتأخرة ، مدارس « إشتراكية إتحادات العمال Syndicalism» ، « واشتراكية نقاباتهم الحرفية Guilds » ، التى تكل نصيباً كبيراً من إدارة كل صناعة بالعمال المشتغلين فى تلك الصناعة أيا كانت درجتهم بما فى ذلك المديرين والمراقبين . فهذه « الإشتراكية النقابية » إنما هى فى الحقيقة نوع جديد من الرأسمالية ، تحل فيها لجنة من العمال والموظفين فى كل صناعة محل الرأسماليين الخصوصيين الأحرار فى تلك الصناعة . وتصبح هيئة الموظفين الصناعية هى الرأسمالى الجماعى .

٥ — عيوب الاشتراكية بوصفها خطة للجماعة الإنسانية

قال السير « وليم هاركورت » منذ سنوات عدة : إننا جميعاً الآن اشتراكيون ، وهذا القول يصدق اليوم صدقاً مرسلاً غير محكم . فقلما وجد أمروٌ يفوته أن يدرك الطبيعة الموقوتة والتقلقل الخطر اللذين يتسم بهما نظامنا السياسى والاقتصادى الحاضر ، وأقل منهم كذلك من يعتقدون اعتقاد « الفرديين » النظريين غير العمليين ، القائلين إن اقتناص الربح أو سياسة « اذهب كيفما شئت واصنع ما شئت » سوف تقود البشرية إلى مرفأ من مرافىء الرغد والسعادة . والواقع أنه ينبغى للأمور أن يعاد تنسية

تنسيقاً عظيماً وأن يتم لها بسند منهجى منظم من القانون إخضاع التماس المصلحة الشخصية لأهداف المصلحة العامة .

ومعظم الرجال المعقولين إنما هم إلى هذا الحد اشتراكيون . على أن هذه ما هى إلا مقترحات تمهيدية . فإلى أى حد وصلت الاشتراكية والفكر العصرى بوجه عام إلى إنتاج الفكرة الذهنية لهذا النظام السياسى والاجتماعى الجديد، الذى يقف عالمنا باعتراف الجميع وهو فى أمس الحاجة إليه ؟ ونحن مضطرون أن نجيب أنه ليس هناك تصور واضح للحالة الجديدة التى نكافح نحوها كفاحاً مبهما ، وأن علمنا بالعلاقات الإنسانية ما يزال بالغاً من الفجاجة والإمعان فى النظرية إلى حد لا نجد فيه هداية محدودة فى عشرات من النقاط السياسية الهامة . ولسنا اليوم فى مركز يجعلنا نقيم فى العالم نظاماً سياسياً متصوراً تصوراً علمياً إلا بقدر ما كان الناس يستطيعون أن يقيموا محطة كهربائية فى (١٨٢٥) . فإنهم لم يكونوا عند ذاك ليستطيعوا ذلك ولو كانت فيه نجاة حياتهم .

وتشير الطريقة الماركسية إلى أن القوى الثورية تتراكم فى العالم العصرى . فإن هذه القوى لن تبرح تنزع باستمرار نحو الثورة . ولكن ماركس افترض بغاية التعجل أن الدافع الثورى ينتج بالضرورة دولة منظمة ذات نوع أحدث وأحسن . إذ الواقع أن الثورة قد تقف فى منتصف الطريق عند مجرد التدمير . ولم تقم أية شيعة اشتراكية حتى الآن بتعريف حكومتها المقترحة تعريفاً واضحاً . ويلوح أن البلاشفة كانوا يسترشدون فى تجربتهم الروسية بعبارة « ديكتاتورية البروليتارية » ، ومن الناحية العملية أثبت « تروتسكى » و « لينين » فيما يقال أنهما يعدلان فى أوتوقراطيتهما القيصر اسكندر الأول الأقل منهما ذكاء والمعادل لها فى حسن المقاصد .

وقد حرصنا كل الحرص أن نبين لك أثناء دراستنا الموجزة للثورة الفرنسية ، أن ليس فى مستطاع ثورة من الثورات أن تؤسس أى شىء ثابت لم يُقتل تفكيراً قبل ذلك ولم يكن مفهوما للرأى العام . فالجمهورية الفرنسية ، لم تلبث وقد واجهتها صعوبات غير متوقعة فى الاقتصاديات والعملة والعلاقات الدولية — حتى انهارت إلى يد أنانيات رجال الإدارة الحديثى الثراء ، ثم انهارت آخر الأمر تلقاء

أنانية نابليون . والمحافظة فى ثبات على القانون وعلى خطة مرسومة ، أشد ضرورة فى أزمان الثورات منها فى أيام الهدوء العادية ، لأن الجماعة الإنسانية تتدهور منحلة بغاية السرعة فى أزمنة الثورات إلى مجرد عملية تخاطف مشوشة تحت سيادة الأقوياء العنيفين والمكرة والمحتالين .

فلو أننا نظرنا بصوره عامة إلى ما فى عصرنا من علوم سياسية واجتماعية وقدرناها قدرها ، لكنا بهذا نقدر شيئاً من العمل الفكرى التمهيدى الذى لا يزال على البشرية اتمامه قبل إمكان نشوء أية مجرزات بناءة دائمة تنبثق من الروح النقليدية والجنوح إلى المغامرة اللذين يتسلطان على شئوننا الجماعية فى زماننا هذا .

فهذه الاشتراكية التى تزعم أنها نظرية كاملة لنظام اجتماعى جديد ، يتبين لنا ونحن نتفحصها أنها شىء لا يتجاوز نظرية جزئية — مرشدة لنا جهد اتساع مجالها فى شئون الملكية .

وقد بحثنا قبل الآن علاقة التطور الاجتماعى بتقييد فكرة الملكية . فإن هناك مذاهب متنوعة للفكر تتفاوت فى تقييد الملكية قوة وضعفاً . فالشيوعية إنما هى الاقتراح بإلغاء الملكية إلغاء تاماً ، أو بعبارة أخرى جعل كل شىء مشاعاً . وتميز الإشتراكية العصرية — أو قل « الجماعية[1] Collectivism » إن شئت اسماً أدق وأضبط — تميزاً فعلياً واضحاً بين الملكية الشخصية والملكية الجماعية . وزبدة مقترحات الاشتراكيين هى أن الأرض ، وكل وسائل الإنتاج الطبيعية ، والترانسيت والتوزيع يجب أن تملكها الجماعة ملكاً جماعيا . ولسوف يكون هناك داخل هذه الحدود كثير من الملكية الخصوصية والحرية الشخصية غير المقيدة . فلو أتيح لهذا المقترح إدارة ذات كفاية ، فلعل من المشكوك فيه أن كثيراً من الناس ينازعون فيه . بيد أن الإشتراكية لم تدخل قط فى امتحان كامل لذلك الشرط القاضى بوجود إدارة ذات كفاية .

ومن وجه آخر ، ما هو ذلك المجتمع الذى سوف يحرز الملكية الجماعية —

---

(١) انظر الهامش ص ١١٨٧ .

أهو الحاكم أو المدينة أو المقاطعة أو الأمة أو البشرية ؟ إن الاشتراكية لا تعطيك أية إجابة واضحة . والاشتراكيون يسرفون فى استخدام كلمة « تأميم Nationaliztion » ولكننا دأبنا على جعل كلمتى « الأمم Nations » و « القومية Nationalism » . هدفاً لشيء من النقد المدمر فى هذا الكتاب . فلو اعترض الاشتراكيون على إدعاء فردى لشخص واحد بأن منجماً أو متسعاً عظيماً من الأرض الزراعية إنما هو ملكه الفردى الذى يحق له أن يقبل أو يرفض المبادلة على استعمال الآخرين له أو كسبهم من ورائه ، فلماذا يسمحون لأمة واحدة أن تحتكر المناجم أو الطرق التجارية أو الثروة المعدنية فى الأراضى التى تعيش فيها ، مضادة فى فى ذلك البشرية جمعاء ؟ .

ويلوح أن النظرية الاشتراكية فى هذه المسألة على اضطراب عظيم . وما لم تصبح الحياة الإنسانية اجتماعاً عظيما للجنس البشرى ينعقد فى دورة مستمرة ، فكيف يستطيع المجتمع أن يعين موظفيه الذين يقومون بتنفيذ شئونه الجماعية ؟ وفضلا عن ذلك فليس المالك الخاص للأرض أو للعمل أو ما أشبه إلا ضرباً من الموظف العام بالقدر الذى يسمح فيه المجتمع بوجود ملكيته وحمايته لها . فبدل أن تدفع إليه المرتبات أو الأجور ، يسمح له بأن ينال ربحاً .

والسبب الصحيح الوحيد لطرده من ملكيته هو أن الهيمنة الجديدة التى ستحل محل الأولى سوف تكون أكثر كفاية وأعود نفعاً وأدعى لرضى المجتمع . وبعد أن يطرد يكون له على أقل تقدير نفس الحق فى المطالبة بنفس رعاية المجتمع التى أظهرها هو نفسه من قبل للعامل المطرود من العمل بسبب اختراع ميكانيكى .

وهذه المسألة مسألة الإدارة ، وهى العائق السليم الصحيح لكثير من ألوان التشريك التوى[١] ، توصلنا إلى تلك المسألة التى لم تبرح غير محلولة إلى حد كبير ، وهى مسألة الترابط الإنسانى . فكيف نستطيع أن نحصل على خير توجيه للشئون الإنسانية وأن نحصل على ذلك التوجيه على النهاية القصوى من التعاون المتطوع ؟

---

(١) التشريك التوى (Immediate Socialization) : الصبغ المباشر بالصبغة الاشتراكية . وقد صيغت اللفظة على غرار لفظتى التأميم والتصنيع . (المترجم)

فهذه مسألة سيكولوجية بلغت غاية التعقيد ، ولكن من السخف أن يدعى المرء أنها مسألة عويصة لا حلّ لها . ولابد من أن توجد حالة يمكن تعريفها وتحديدها هي خير الحالات وهي الشيء الصحيح في هذه الأمور . ولكنها إن كانت لا حل لها ؛ فإن الإدعاء بأنها قد حلت لا يقل عن ذلك سخفاً فالمسألة وهي في أتم صورها تنطوي على إنتاج أحسن الطرائق في النواحي الآتية وعلى ترابطها التام :

١ — التعليم : وهو إعداد الفرد ليتعاون في شئون العالم تعاون الفاهم وعن طيب خاطر .

٢ — الإعلام : عرض الشئون العامة عرضاً صادقاً ومستمراً على الأفراد ليصدروا حكمهم فيها ويوافقوا عليها . ومما يتصل اتصالا وثيقاً بهذه الحاجة إلى الإعلام المتواتر أمر جمع القوانين وتنسيقها ، وهي مسألة جعل القانون على الدوام صريحاً واضحاً هين المدخل على الجميع .

٣ — التمثيل النيابي : وهو اختيار المندوبين والوكلاء الذين يعملون في المصلحة الجماعية ، في انسجام مع الإدارة العامة المبنية على ذلك التعليم وذلك الإعلام الصريح البسيط .

٤ — الهيئة التنفيذية : تعيين الوكلاء التنفيذيين والاحتفاظ بالوسائل التي تجعلهم على الدوام مسئولين أمام المجتمع — دون أن يعوق ذلك في نفس الوقت ابتداءات ذوي الذكاء وعملهم الابتكاري .

٥ — الفكر والبحث : وهو النقد المنظم للمسائل والقوانين لتكوين مادة علمية (Data) تكون موضع الحكم العام الشعبي ، وضمان التحسين الدنيوي للتنظيمة الإنسانية عن طريق هذه الأحكام .

تلك هي الرءوس الخمسة التي تتجلى فيها أمامنا المسألة الإجمالية للجماعة البشرية فانظر حولك ماذا ترى ؟ . إنا لنرى فيما يحيط بنا من العالم وسائل يقصد بها إلى مجرد « سدخانة » أو إيجاد بديل مؤقت ، وهي تعمل عملها في كل هذه الفروع ؛

وكلها وسائل سيئة التناسق إحداها مع الأخرى ، كما أنها فى ذاتها غير مرضية . وإنا لنرى نظاما للتعليم يتجلى فى تمويله وتجهيزه الشح والدناءة ، وفى تنظيمه سوء الإدارة ، ويعقّده تدخل الهيئات الدينية وعداوتها ، ونرى الإعلام الشعبى العام تقدمه بوجه رئيسى صحافة مرتشية تعتمد على الإعلانات والإعانات المالية . وإنا لنشهد طرائق للانتخاب هزلية تعيد إلى السلطان سياسيين يبلغون فى عدم تمثيلهم للشعب مبلغ أى حاكم وراثى أو أى فاتح عرضى . وإنك لترى القوة التنفيذية فى كل مكان تتأثر نوعا ما أو تتحكم فيها بدرجة متفاوتة جماعات من الأغنياء المغامرين ، وترى الاشتغال بالعلوم السياسية والاجتماعية والنقد العام ما يزال من عمل أفراد متكرسين ذوى أطوار غريبة بدل أن يكون عملا من أعمال الدولة مكرماً معترفاً به .

وإن هناك لواجباً ضخماً ينتظر الرجال ذوى التفكير الصحيح لكى يقوموا بتنظيف وتجميل حظيرة السياسيين . فحتى تتحقق هذه الغاية فإن من المستحيل أن يتم فهم الاشتراكية فهماً تاماً . وما دام المغامرون الخصوصيون يهيمنون على حياة الدولة السياسية ، فإن من المضحك أن يفكر الناس فى أن تضطلع الدولة بالمصالح الاقتصادية الجماعية منتزعة إياها من يد المغامرين الخصوصيين .

والحركة الاشتراكية لم تقف حتى الآن فقط عند الفشل فى إنتاج خطة مدروسة على أساس علمى لإيجاد الترابط فى التعليم والقانون وممارسة السلطة العامة ، بل إنه حتى فى الميدان الاقتصادى كما سبق أن بينا لك ، ما تزال هناك قوة خلاقة تنتظر فكرة يصمم بها تنظيم صحيح للائتمان (Credit) وتستنبط منها طريقة صحيحة للدفع والتبادل (Interchange) . ومن البديهيات الأولية أن رغبة العامل وإقباله تتوقف فيما تتوقف عليه من أمور على ثقته التامة فى القوة الشرائية للعملة التى يقبض أجره منها . ومتى ذهبت تلك الثقة بطل العمل اللهم إلا فى الحالة التى يمكن فيها أن يكافأ العامل بدفع الأجور عيناً . ولكن ليس هناك القدر الكافى من علم العملة ولا من «علم نفس» الأعمال لرد الحكومات عن التدخل فى الائتمان العام وفى التداول .

تدخلا يزعج الناس أيما إزعاج . ويؤدى مثل هذا التدخل مباشرة إلى التوقف عن العمل أى التوقف عن إنتاج الأشياء الضرورية .

فى مثل هذه المسائل الحيوية العملية لا يكاد يكون من المبالغة أن يقال إن أغلبية هؤلاء الاشتراكيين الذين يرغبون فى إعادة صوغ العالم ليست لديهم أية فكرات محددة إصالة . ولكن الناس سواءاً كانوا فى عالم اشتراكى أم فى أى نوع آخر من العوالم ، يجب أن يقبضوا نقوداً مقابل عملهم بدل أن يقبضوا أجورهم عيناً ، إن كان يجب أن يستمر شىء اسمه الحرية الفردية . وهنا أيضاً ينبغى أن يكون هنالك شىء محقق صحيح يجب على الناس أن يعملوه . فحتى يتحدد ذلك ، فلن يظل التاريخ فى هذه الأمور سجلا للتجاريب قدر ما يكون سجلا للتخبطات .

وهناك اتجاه آخر كان فية التفكير الاجتماعى والسياسى فى القرن التاسع عشر ، يواجه ما عليه الثورة الميكانيكية من ضخامة ، وجِلا خائفاً محدوداً غير كاف ، وكان ذلك بالنظر إلى العلاقات الدولية . وسوف يجد قارئ الأدب[1] الاشتراكى ، الاشتراكيين وهم يكتبون ويتكلمون عن « الدولة » بلا انقطاع ، دون أن يبدو عليهم أنهم يدركون أن « الدولة » قد تكون أى نوع من أنواع التنظيمات وأنها تحددها جميع المساحات ، ابتداء من جمهورية سان مارينو إلى الإمبراطورية البريطانية . حقاً إن كارل ماركس كانت لديه فكرة عن تماسك المصالح بين العمال فى كل الأقطار المصنّعة . ولكن لا تكاد اشتراكية ماركس تحوى إشارة إلى النتيجة المنطقية لهـذا ، وهى تأسيس حكومة ديمقراطية عالمية اتحادية (Federal) (من دونها حكومات قومية أو إقليمية للدول) بوصفها نتيجة طبيعية لثورته الاجتماعية المقترحة .

ومهما عظم الأمر ، فليس هناك أكثر من أمل مبهم . ولكن إذا كان الماركسى على أى قدر من المنطق ، وجب أن يكون ذلك هو غايته السياسية الصريحة العلنية

---

(١) كلمة الأدب هنا مستعملة بمعناها العام ، الذى يشمل ما كتب فى تلك المادة من كتب وصحف ومجلات ونشرات . (المترجم)

التى يجب أن يعمل من أجلها بلا انقطاع . غير أن اشتراكيي معظم الأقطار الأوربية تقريباً قد أظهروا يوم عجمت عودهم حرب (١٩١٤) ، أن ما لديهم من الوعى الطبقى بالدولية كان لعمرى ضئيل الحظ من التوقير والكرامة ومن الإيثار الجدى على مشاعرهم الوطنية القومية ، وأن ذلك الوعى لم يحلّ بأى حال محلها . فقد كان الاشتراكيون فى كل مكان أثناء الحرب الألمانية ينعون على تلك الحرب أنها من عمل حكومات رأسمالية . ولكن طعن الناس فى حكومة أو نظام عالمى لن يكون له إلا أثر ضئيل ما لم تكن لديهم فكرة عملية عن حكومة من طراز أحسن ونظام أحسن تحل محلها .

ونحن إنما نذكر هذه الأمور هنا لأنها حقائق ، ولأنها جزء حى ضرورى من نظرة شاملة معاصرة إلى التاريخ الإنسانى . وليس من واجبنا الآن أن ندافع عن الاشتراكية ولا أن نختصمها . ولكن مما يدخل فى الصورة القائمة بين أيدينا أن نلحظ أن الحياة السياسية والاجتماعية إنما هما — ولا بد لهما من أن تظلا — فى حال من الفوضى واستجلاب الكوارث ما لم يحدث تطور لبعض الخطط الإنشائية من أضراب ما تخططه الاشتراكية ، فضلا عن أن نوضح مقدار بعد العالم فى الوقت الحاضر عن أى خطة من هذا النوع .

ولا بد من أن يحدث قدر هائل من العناء الذهنى والبحث والمناقشة والتعليم ، ولا بد من انقضاء السنوات العديدة ، التى قد تصل إلى العشرات أو القرون ، إذ لا يستطيع أحد أن يعرف مدى ذلك — قبل أن يعم الأرض بأكملها نظام جديد مصمم كما تصمم السفن والسكك الحديدية ، وأن يجرى كما تجرى خطوط التلغراف البحرى وأعمال التوزيع فى البريد . فحتى يستطيع مثل هذا النظام أن يضم بشبكته شتات البشرية بعضها إلى بعض ، فلا بد للحياة الإنسانية كما سنعرضها عليك من فورنا بقصة الحروب الأوربية منذ (١٨٥٤) ، من أن تصبح عرضية خطرة تعسة ، وقلقة مليئة بالكوارث بسبب هذه الوسائل الحربية التى لا تبرح تشتد قوة وتدميراً كل يوم ، نتيجة لتواصل الثورة الميكانيكية .

٦ ـ كيف أثر مذهب دارون فى الفكرات الدينية والسياسية[1]

بينما كانت الثورة الميكانيكية[2] التى نتجت عن نموّ علم الفوزيقا (الطبيعة) آخذة بأسباب تدمير التصنيف الاجتماعى القديم للدولة الممدنة التى تطورت على مر آلاف من السنين ، وشارعة فى إنتاج احتمالات جديدة ومثل عليا جديدة لمجتمع إنسانى بر صالح ، ونظام عالمى بر صالح ـ كان يجرى فى حقل الفكر الدينى تغيير هو على أقل تقدير معادل لتلك الثورة فى العظم والجدّة . وكان نفس هذا النمو فى المعارف العلمية الذى نشأت عنه الثورة الميكانيكية هو الدافع المحرك لهذه الاضطرابات الدينية .

ولقد قدمنا إليك فى الفصول الافتتاحية الأولى من هذا الكتاب القصة الرئيسية لسجل الصخور ؛ وصورنا الحياة على حقيقتها إذ هى بداية وعى صغيرة ، مظهرين إياها وهى لا تزال تسبح فى ضخامة ما أمامها من فراغ ينتظرها بين الفضاء والزمان . ولكن قبل أن يشارف القرن الثامن عشر نهايته كان هذا مشهد الماضى الضخم ـ الذى يملأ الذهن العصرى بالمذلة وبما لا حد له من الأمل ، ـ شيئاً خافيا مستتراً على الوعى العام لجنسنا . إذا كان يستره عن الأعين سجف[3] من أسطورة سومرية . فإن السماوات لم تكن لتزيد على خلفية مسرح من المسارح تقوم من وراء تمثيلية أبطالها الملوك . وكان الناس أشد إنشغالا بشهواتهم الخاصة وشئونهم الشخصية من أن يأبهوا بما يلوح لهم من المقدّرات العظيمة التى كانت تحيط بهم من كل ناحية .

ولقد علموا مركزهم الحقيقى فى « المكان » قبل أن يضعوا أنفسهم فى الزمان بأمد بعيد . وسبق لنا أن ميّزْنا لك الفلكيين الأقدمين ، وأخبرناك كيف أجبر « جاليليو » على إنكار قوله أن الأرض تدور حول الشمس ، حيث أجبرته الكنيسة على أن

---

(١) إن شئت وجهة نظر دينية دقيقة رثيقة المماثلة لهذه المذكورة ها هنا ، فانظر كتاب « Outspoken Essays للأسقف إنج » ، المقالات رقم ٨ و ٩ عن القديس بولس وعن التمسك بالنظم والتدين (Istitutionalism & Myst ism) .

(٢) الثورة الميكانيكية والانقلاب الآلى بمعنى واحد . (المترجم)

(٣) السجف : الستار . (المترجم)

يفعل ذلك ، مدفوعة بإعتقادها أن أى شك يحيط بأن الأرض مركز العالم ضربة قاتلة تزلزل سلطان المسيحية .

ولعمرى إن من يقص التاريخ العصرى مضطر فى هذا الموضوع أن يصطنع الحذر والجرأة فى آن واحد . ولا بد له من أن يتحسس موطئ قدميه ، بين التملص الجبان من ناحية والتعصب من ناحية أخرى . ولا بد له من أن يقصر نفسه جهد طاقته على الحقائق وأن يحتفظ لنفسه بما يرى من آراء . ومع ذلك فمن الخير أن نتذكر أن الاحتفاظ المطلق بالآراء أمر ليس فى الإمكان . ولكاتب هذه السطور إقتناعاته وآراؤه القوية المحددة وهو أمر لا بد للقارىء أن يعيه فى ذاكرته .

ومن الحقائق المقررة فى التاريخ أن تعاليم يسوع الناصرى كان فيها شيء جديد عميق الجدة خلاق قوى الخلق . فإنه بشّر بمملكة جديدة للسماوات فى قلوب الناس ودنياهم . ولم يكن فى تعاليمه شيء — بقدر ما نستطيع أن نحكم عليها من هذا البعد الزمنى — يتعارض أو يتدخل مع أى اكتشاف أو توسع فى تاريخ العالم والبشرية . ولكن من الحقائق التاريخية أيضاً أن القديس بولس وخلفاءه قد أضافوا إلى تعاليم يسوع الصريحة الممعنة فى الثورية ، أو أكملوها أو فرضوا عليها أو تبدلوا بها مبادىء أخرى — (واختر لنفسك من هذه الألفاظ ما تشتهى) — وذلك ببسطهم نظرية للخلاص دقيقة معقدة ، وهو خلاص يمكن الحصول عليه فى معظم الأمر بالإيمان والشكليات ، دون دخول أى تغير جدى فى مألوف عادات المؤمن وأعماله العادية ، وأن تلك التعاليم البولسية كانت تحتوى فعلا على معتقدات محددة جداً حول تاريخ العالم والإنسان .

وليس من شأن المؤلف أن يجادل فى هذه الأمور أو يشرحها . فإن مرد قيمتها النهائية إلى علماء اللاهوت . أما اختصاص المؤرخ فينحصر فى أن المسيحية الرسمية فى جميع أنحاء العالم تبنت وجهة نظر القديس بولس ، التى عبر عنها فى رسائله بأجلى بيان ، والتى يستطاع قص آثارها فى الأناجيل ، وهى وجهة النظر القائلة بأن معنى الديانة لا يقع فى المستقبل وإنما يقع فى الماضى ، وأن يسوع لم يكن معلماً لأشياء جديدة رائعة ، قدر ما كان قرباناً دموياً مقدساً عامراً بالخفايا العميقة والقدسية

البالغة ، هيأه القدر كفارة عن حدث تاريخي خاص من أحداث عصيان الخالق إقترفه والدانا الأولان ، آدم وحواء إستجابة لإغراء أفعى فى جنة عدن . وقد بنت المسيحية المذهبية مبادئها على هذا الاعتقاد فى تلك « الخطيئة » بإعتبارها حقيقة ، لا على شخصية يسوع الناصرى ، وقامت على نظريات بولس لا على وصايا يسوع .

وقد لاحظنا آنفاً أن هذه القصة ، قصة الخلق الخاص للعالم وآدم وحواء والأفعى ،كانت كذلك قصة بابلية قديمة ، ولعلها أيضاً قصة سومرية أقدم عهداً وأبعد أمداً ، وأن الكتب اليهودية المقدسة كانت الوسيط الذى أدخل إلى المسيحية أسطورة الأفعى العتيقة هذه البدائية « الهليوليثية »[1] الأصل — وقد حملت المسيحية الرسمية هذه القصة معها حيثما حلت . ذلك أنها ربطت نفسها بتلك القصة .

وكان العالم المصطبغ بالمسيحية يشعر إلى قرن سلف أو أقل من ذلك ، بأنه ملزم أن يعتقد ، بل كان يعتقد فعلا ، أن الكون خُلق خلقا خاصاً فى ستة أيام بكلمة من الله صدرت قبل بضعة آلاف من السنين أى سنة ٤٠٠٤ ق . م . — كما يقول الأسقف « أشر Bishop ussher » (وكتاب « التاريخ العام » الصادر فى اثنين وأربعين سفراً الذى نشرته فى (١٧٧٩) جماعة من تجار الكتب فى لندن يبحث هل كان التاريخ الدقيق للخلق هو ٢١ مارس أو ٢١ سبتمبر سنة ٤٠٠٤ ق . م ، ويميل إلى ترجيح التاريخ الثانى) .

وعلى هذا الفرض التاريخى كان ينهض الصرح الدينى للمدنية الغربية أصلا والغربية صباغاً ، ومع ذلك فإن العالم بأجمعه كانت تزحمه الأدلة ، فإن التلال والجبال والدلتاوات والبحار كانت تنفجر صائحة بالسخافة المطلقة لهذه النظرية . وكانت الحياة الدينية لدى كبريات الأمم وهى ما تزال حياة دينية جادة جداً عامرة بالإخلاص ، تجرى فى دار للتاريخ بنيت على أس من الرمل .

وإن الأدب الكلاسيكى ليحوى من الشواهد الكثيرة الورود فيه ، ما يدل على

---

[1] (١) الهليوليثية : عصر الحضارة الحجرية الشمسية . انظر ص ١٣٥ — ١٣٧ جـ ١ ط ٢ من المعالم . (المترجم)

وجود مباحث فى بدء الخليقة أصح وأسلم . فإن أرسطو تنبّه للمبادئ الإجمالية للچيولوچيا العصرية ، وإنها لتلمح فى ثنايا تأملات لوكريشيوس ، كذلك لاحظنا التفسير النير الذى فسر به ليوناردو داڤنشى (١٤٥٢ — ١٥١٩) الحفريات . وقد ارتأى الفرنسى العظيم ديكارت (١٥٩٦ — ١٦٥٠) الآراء الجريئة حول بدايات كرتنا الأرضية ، وأنها كانت فى أول أمرها كرة متوهجة نارية ، وبدأ دانماركى اسمه ستينو (١٦٣١ — ١٦٨٦) العمل فى جمع الحفريات ووصف الطبقات الأرضية . ولكن حدث — وقد أشرف القرن الثامن عشر على نهايته — أن خطت الدراسة المنظمة للچيولوچيا خطوات فساح أثرت بقوة فى الاعتماد العام على رواية الكتاب المقدس التى هى صورة من القصة السومرية العتيقة .

وممن عاصر « كتاب التاريخ العام » الذى اقتبسنا منه آنفاً . عالم فرنسى بالتاريخ الطبيعى هو بوفون (Buffon) ، وكان يكتب عن « حقب الطبيعة » (١٧٧٨) ، ويمد عمر العالم فى جرأة إلى سبعين ألفا أو خمسة وسبعين ألفا من السنين . وقد قسم قصته إلى ستة أحقاب تقابل الأيام الستة فى قصة الخليقة . وقد ذهب الرجل إلى أن هذه الأيام الستة إنما هى أيام مجازية ؛ كانت فى حقيقتها عصوراً . وحاولت الجيولوچيا بهذه الحيلة المريحة أن تعقد صلحاً مع التعاليم الدينية المسيحية إستمر إلى منتصف القرن الثامن عشر .

ولسنا نستطيع هنا أن نقص ما أداه رجال من أمثال هاتون وپلايفير وسير شارل ليال ، والفرنسيين لامارك وكوڤييه من جليل الخدمات فى كشف اللثام عن سجل الصخور[١] وفى تطويره والنهوض به . ولم يحدث إلا ببطء أن أخذ الذكاء العام فى العالم الغربى يستيقظ على حقيقتين أقضتا مضجعه ! أولاهما ، أنّ تعاقب الحياة فى السجل الجيولوچى لم يكن يقابل الأعمال التى جرت فى أيام الخليقة الستة ؛ وثانيتهما ، أن السجل فى اتساق منه مع مجموعة كبيرة من الحقائق البيولوچية ، يشير إلى عكس ما يقرره الكتاب المقدس من أن كل نوع خلق خلقاً منفصلا ويشير إشارة صريحة إلى أن هناك علاقة وراثية بين كل أشكال الحياة « علاقة كانت تضم

---

(١) سجل الصخور : راجع المجلد الأول من المعالم ص ٢٣ ط٢ . (المترجم)

الإنسان نفسه » ! ! وكانت أهمية هذه النقطة الأخيرة لدى النظام المذهبي الموجود بينة واضحة . فلو أن كل الحيوانات والإنسان كان نصيبها النشوء والإرتقاء على تلك الشاكلة المتصاعدة ، ترتب على ذلك أن لم يكن هناك أبوان أولان ، ولا عدن ولا « خطيئة » . وإذا لم تكن ثمة خطيئة فإن كل الصرح التاريخي للمسيحية ، وقصة الخطيئة الأولى وهي السبب الداعي إلى الكفارة ، التي أسس على أركانها التعليم السارى للعواطف المسيحية والأخلاق المسيحية ، فإن ذلك كله ينهار كبيت من ورق اللعب .

فلا عجب إذن أن تتبع جماهير عظيمة من الرجال الشرفاء ذوى النفوس المتدينة فى شيء يماثل الرعب عمل عالم التاريخ الطبيعي الإنجليزى تشارلز دارون (١٨٠٩ — ١٨٨٢) . ففى ١٨٥٩ نشر كتابه « أصل الأنواع بوساطة الإنتخاب الطبيعى » وهو عرض قوى لا تبلى قيمته لهذه الفكرة الخاصة بتغير الأنواع وتطورها التى رسمناها لك فى إيجاز فى الفصل الثانى . وفى ١٨٧١ أتم معالم عمله بكتابه « أصل الإنسان » ، الذى أدخل الإنسان إدخالا محدداً فى خطة التطور نفسها مع سائر الحياة والأحياء .

ولا يزال على قيد الحياة بين ظهرانينا رجال ونساء كثيرون يستطيعون أن يتذكروا الرعب والحزن الذى استولى على الأذكياء العاديين فى المجتمعات الغربية عندما أخذت تتكشف للناس القضية التى لا تقهر ، قضية البيولوچيين والجيولوچيين ضد « مبحث بدء الخليقة » فى المسيحية السلفية[1] . وقاومت عقول كثير منهم المعرفة الجديدة مدفوعين بالغريزة وعدم التعقل . ذلك لأن صرحهم الخلقى كله كان مشيداً على دعامة من التاريخ الزائف ، وقد كانوا أكبر سناً وأشد جموداً من أن يرفعوا بناءه مرة أخرى ، وخالوا هذه الحقيقة الجديدة لا تتمشى مع ما كانوا يحسونه من الصدق العملى فى معتقداتهم الخلقية . واعتقدوا أن فى التسليم بها تمهيدا لسبيل تقوض العالم من الناحية الخلقية . ومن ثم أحدثوا انهياراً خلقياً بعدم موافقتهم عليها .

ولما كانت الجامعات فى إنجلترة بخاصة هيئات دينية فى تكوينها قبل كل شيء ،

---

(١) المسيحية السلفية Orthodox Christianity : أى المحافظة على التقاليد المذهبية الصحيحة (المترجم

فإنها قاومت العلم الجديد مقاومة جد مريرة . فكانت أرجاء العالم الممدن تغلى بالخصومة العاصفة إبان السبعينات والثمانينات . ولعل أدل شيء على نوع المناقشات وعلى الجهالة القتالة للكنيسة إيراد وصف جاء فى كتاب « الأمور العادية » بقلم هاكت ، بالجلسة للجمعية البريطانية فى ١٨٦٦ ، هاجم فيه الأسقف ويلبر فورس العلامة هكسلى (Huxley) ، النصير العظيم لآراء دارون ، على هذه الشاكلة .

اتجه الأسقف نحو هكسلى وعلى فمه ابتسامة وقحة ورجاه أن يعرفه « هل كان ادعاؤه الإنحدار عن أحد القرود عن طريق جدته أو جده » ؟ والتفت هكسلى إلى جاره وقال « إن الرب قد أسلمه لى فى يدى » . ثم وقف أمامنا ونطق بهذه الكلمات الهادئة « إنه ليس يخجله أن يكون جده قرداً ، ولكن يخجله أن تكون له صلة برجل يستعمل المواهب الكبيرة فى تعمية الصدق » . (وثمة رواية ثانية تنقل القصة على هذا النحو : « من المحقق أنى قلت : إنه ليس هناك ما يدعو رجلا من الرجال أن يخجل أن يكون جده قرداً . فلئن كان هناك جد أخجل من تذكره ، فأحر بذلك أن يكون رجلا ذا ذهنية قلقة قلابة يخوض غمار مسائل علمية ليست له بها دراية صحيحة ، لا لشيء إلا لإدخال الخفاء والغموض عليها باستعمال بلاغة لا تستهدف غرضاً ، وأن يحول إلتفات سامعيه عن النقطة الحقيقية التى هى مدار النزاع بواسطة الانحراف عن الموضوع بفصاحته واللجوء الماهر إلى روح التحامل والتحيز ») . ولا شك أن هذه الكلمات قد نطقت فى حدة . إذ كان المشهد مشهد انفعال عظيم . فأغمى على إحدى السيدات كما يقول هاكت . . . وذلك هو طراز الخلق العنيف فى هذه الخصومة .

وقد أخذت الحركة الداروينية ، المسيحية الرسمية بغتة وعلى غرة . فووجهت المسيحية الرسمية بغلطة فى بياناتها اللاهوتية يمكن إثباتها والبرهنة عليها . ولم يؤت اللاهوتيون المسيحيون حظاً كافياً من العقل والحكمة ولا من نشاط الذهن يحملهم على قبول الصدق الجديد ، وعلى تعديل قانون الإيمان الذى لديهم ، وأن يصروا على الحيوية الخالدة التامة التى لم ينقص شيء منها . حيوية الحقيقة الدينية التى كانت قوانين الإيمان حتى ذلك الحين كافية للتعبير عنها . فإن اكتشاف انحدار الإنسان عن

أشكال شبه إنسانية لا يمس وإن من بعيد تعاليم ملكوت السماوات . ومع هذا فإن القساوسة والأساقفة ثاروا بدارون ثورة عنيفة ؛ وقام بعضهم بمحاولات حمقاء لمصادرة مؤلفاته وإهانة أنصار الأراء الجديدة وشراحها . وتبادل القوم قدراً كبيرا من جارح القول في « الخصومة بين الدين والعلم » .

والحق أنه لم يخل عصر من العصور من متشككة في المسيحية . فإن الإمبراطور فردريك الثاني كان على وجه التحقيق أحد المتشككين ؛ وفي القرن الثامن عشر كان جيبون وڤولتير ينكران المسيحية صُراحاً وجهاراً ، وأثرت كتاباتهما في عدد من القراء مبعثرين هنا وهناك . على أن هؤلاء كانوا أناساً غير عاديين . . . . فأما الآن فقد أصبحت كل المسيحية بوجه الإجمال متشككة . إذ مست هذه الخصومة الجديدة كل إنسان قرأ كتاباً أو سمع محاورة بين أذكياء . ونما جيل جديد من الشباب ، نظر حوله فوجد المدافعين عن المسيحية في حالة من الشراسة الحادة ، يحاربون من أجل قضيتهم بلا كرامة ، ولا إنصاف . وكان الذي زُجَّ في مأزق الخطر بسبب تقدم العلم الحديث هو اللاهوت التقليدي الفلسفي ، غير أن اللاهوتيين الغضاب كانوا يصرحون بأن الخطر إنما يحدق بالدين .

وقد يكتشف الناس في النهاية أن الدين سوف يزيد من بريق صقاله عندما يزول منه كل ما هو ملفف به من مبادئ مذهبية ، فأما الشباب فخيل إليهم أنه كان هناك نزاع فعلا بين العلم والدين ، وأن العلم كان المظفر في ذلك النزاع الكبير في فكرات الناس وطرائقهم في طبقات الموسرين وذوي النفوذ في كل أرجاء العالم الغربي الصبغة ، أثرا هداما بالغا في الواقع . ولم يأت العلم البيولوجي الجديد حتى ذلك الحين بشيء إنشائي يحل محل الأشياء القديمة التي طرحت جانبا . وتلا ذلك إنحلال خلقي حقيقي .

وكان المستوى العام للحياة الإجتماعية في تلك الطبقات أعلى كثيراً في بداية القرن العشرين منه في بداية القرن السابع عشر ، ولكن هناك منحى واحداً لعل النغم فيه في العصر الأقدم كان أحسن منه في العصر الأحدث هو منحى إمتناع المصلحة الذاتية ومراعاة الضمير في تلك الطبقات . ويرجح أنه كان في طبقات الملاك وأرباب النشاط في القرن السابع عشر — بالرغم من وجود عدد قليل من « الكفرة » حقاً

نسبة مئوية أعلى كثيراً منها فى سنوات مدخل القرن العشرين من الرجال والنساء الذين كانو يصلون بإخلاص ، والذين كانوا يبحثون فى زوايا نفوسهم ليعرفوا هل أحدثوا شراً ، كما كانوا على إستعداد لتحمل الآلام والقيام بتضحيات عظيمة فى سبيل ما يظنونه الحق .

وقد أصيب العالم بنقص حقيقى فى الإيمان بعد ١٨٥٩ . وكثيراً ما كان ذهب الدين الإبريز ينبذ ويطرح مع الكيس البالى الذى ضمه بين دفتيه زمنا طويلا ، ولكن أحداً لم يسترجعه بعد ذلك . حتى إذا شارف القرن التاسع عشر نهايته كانت صورة ممسوخة فجة لمذهب داروين قد غدت المادة العقلية الجوهرية عند جماهير غفيرة من « المتعلمين » فى كل مكان . وكانت عند ملوك القرن السابع عشر وملاكه وحكامه وزعمائه فكرة فى مؤخرة أذهانهم توحى إليهم بأنهم إنما يتولون ما يتولون بإرادة من الله . وكانوا يخشونه حقا وكانوا بطلبون القسرس لكى يصلحوا الأمور بينهم وبينه . فإن كانو من الأشرار اجتهدوا ألا نفكروا فيه ولكن العقيدة القديمة عقيدة ملوك مفتتح القرن العشرين وملاكه وحكامه اضمحلت تحت ذلك الشعاع النورانى الذى يلقيه النقد العلمى .

وكانت الشعوب المتغلبة عند ختام القرن التاسع عشر يعتقدون أنهم إنما يسودون بحكم « تنازع البقاء » الذى يتغلب فيه القوى الماكر على الضعيف الواثق المخدوع . وكانوا يعتقدون فضلا عن ذلك بأنه لا بد لهم من أن يكونوا أقوياء ناشطين قساة ، عمليين أنانيين ، لأن الله قد مات ، وكان على الدوام فيما يخالون ميتاً — وهذا شيء يتجاوز تماما ما تبرره المعارف الجديدة .

وسرعان ما تجاوزوا مرحلة الفهم الخاطئ الفج الشعبى الأول لمذهب دارون . وهو الفكرة القائلة بأن كل إنسان يعيش من أجل نفسه وحدها . ولكنهم تردوا فيما هو آسوأ . ذلك بأنهم قطعوا بأن الإنسان حيوان اجتماعى مثل كلب الصيد الهندى . هو أكثر كثيراً من كب عادى ، ولكنهم لم يبصروا تلك الحقيقة . وكما يحدث بالضبط فى سرب الكلاب من ضرورة إخضاع الأصغرين والأضعفين وإرهابهم فى سبيل الصالح العام ، فكذلك بدا فى أعينهم أن من الصواب أن تقوم الكلاب الكبيرة

فى السرب الإنسانى بإرهاب الغير وإخضاعه . ومن ثم نشأت زراية جديدة بفكرات الديموقراطية التى رانت على العقول فى أوائل القرن التاسع عشر ، وانبعثت من جديد مشاعر الإعجاب بالمتبجحين والقساة .

وكان مما يوافق خصيصة ذلك الزمان تمام الموافقة أن يقتاد المستر كبلنج[1] أطفال الطبقتين الوسطى والعليا فى الجمهور الإنجليزى عائداً بهم إلى الغاب ليتعلموا « القانون » ، فهو فى كتابه « ستوكى وشركاه » يقدم وصفاً كله التقدير للتعذيب الذى ناله ولدان على يد ثلاثة آخرين ، كانوا قد اختدعوا ضحاياهم حتى ربطوهم ربطاً مؤلماً لافكاك لهم منه ، — قبل إظهارهم مقاصدهم العدائية .

ويجدر بنا أن نوجه شيئاً من الإلتفات إلى هذه الحادثة فى كتاب « ستوكى وشركاه » ، لإنها تنير لنا غوامض السيكولوچيا السياسية للإمبراطورية البريطانية عند نهاية القرن التاسع عشر إنارة ناصعة جداً . وليس فى المستطاع فهم تاريخ نصف القرن الأخير دون تفهم للإلتواء الذهنى الذى تعد هذه القصة مثلا من أمثلته . والولدان اللذان يعذَّبان « مشاغبان شريران » ، وذلك هو العذر الذى يعتذر به معذبوهما ، هذا فضلا عن أن الذى حرّض هؤلاء الأخيرين على هذا العمل الفاضح هو أحد القساوسة . وما يستطيع شيء أن يقلل من المرح الذى شرعوا ينفذون به عملهم . ويلوح أن التعليمات كانت تقضى بأنه قبل اللجوء إلى التعذيب ، يجب عليهم أن يستدرجوهم فى الحديث حتى يزل لسانهم زلة تستثير شيئاً من الغيرة الأخلاقية التى يمكن تبريرها ، وعندئذ يصبح كل شيء على ما يرام « فإنكم إذا ضمنتم أن تكون السلطات إلى جانبكم ، لم يكن هناك وجه لتوجيه اللوم إليكم » . وواضح أن ذلك هو المبدأ البسيط لهذا الإستعمارى النموذجى . على أن كل معتد أثيم قد اتبع ذلك المبدأ على أحسن ما تتيحه له مقدرته ، منذ أن تطور فى الحيوان البشرى الذكاء الكافى لجعله قاسياً قساوة واعية .

وهناك نقطة أخرى فى القصة ذات مغزى كبير جداً فى الواقع . فان كلا من

---

(١) كبلنج : هو چوزيف رديارد كبلنج (١٨٦٥ — ١٩٣٦) شاعر وكاتب استعمارى شهير ولد بالهند وله مؤلفات كثيرة وحصل على جائزة نوبل (١٩٠٧) . (المترجم)

الناظر ومساعده الكتانى يُمتلان بوصفهما عاملين خفيين . فإنهما ليرغبان فى حدوث هذا الشجار والتعدى . وبدلا من أن يستعملا ما فى أيديهما من سلطان ، تراهما يستعملان هؤلاء الصبيان أبطال المستر كبلنج ليعاقبوا الضحيتين وإن الناظر والقسيس ليعيران شكاة الأم الغاضبة أذناً صماء . ويعرض المستر كبلنج هذا كله بوصفه أقصى المرغوب من الأحوال .

وإنا لنلمس فى هذا مفتاح أقبح فكرة للاستعمار العصرى (Imperialism) وأشدها رجعية وأعظمها فى النهاية خطراً عليه وقتلا له . وهى فكرة « **مؤامرة ضمنية بين القانون والعنف غير الشرعى** » . وكما أن القيصرية الروسية دمرت نفسها آخر الأمر بتشجيعها سراً سفاحى « المئات السوداء » الذين كانوا يذبّحون اليهود وأقواما آخرين ممن زعم القيصر أنهم معادون له ، فكذلك تلطخ الاسم الطيب « للحكومة الإمبراطورية البريطانية » — وما يزال ملطخاً — بغارة غير مشروعة قام بها الدكتور چيمسون[١] ، على الترنسفال قبل « حرب البوير » ، وبما سوف نصف لك من فورنا من مخامرات السير إدوارد كارسون[٢] (المعروف فيما بعد باسم اللورد كارسون) فى إرلندة ، وبإغضاء الحكومة البريطانية الضمنى فى إرلندة عما يسمونه « بأخذ الثأر » الذى قام به الموالون للحكومة ضد مرتكبى (أو من يزعمونهم مرتكبى) اعتداءات السين فين[٣] .

وإنما تدمر الإمبراطوريات نفسها بمثل هذه الخيانات التى ترتكبها ضد رعاياها . فإن القوة الحقة للحكام والإمبراطوريات تقوم لا على أساس الجيوش والبحريات ، بل على اعتقاد الرجال بأنهم صُرحاء صادقون قانونيون لا تلين قناتهم فى الصراحة

---

(١) الدكتور چيمسون (١٨٥٣ - ١٩١٧) : سياسى بالمستعمرات ولد بإدنبره . وكان طبيباً بكمبرلى حيث أصبح صديقاً لسسل رودس . وفى أوائل ١٨٩٦ قاد حملة چيمسون من ميفكنج إلى الترنسفال . (المترجم)

(٢) عن السير إدوارد كارسون : انظر المعالم الفصل ٣٨ القسم الثالث (المترجم)

(٣) السين فين : الحزب الوطنى الإرلندى أسسه آرثر جريفث ١٩٠٥ ، وسياسته مقاومة الحكم البريطانى . وانتقلت زعامته عند ١٩١٧ إلى ديفاليرا كبير الحركة الجمهورية ، وقد تغلب فى ١٩١٨ على الحزب القديم الداعى إلى الحكم الذاتى ، وزال من الوجود بعد ١٩٣٢ . (المترجم)

والحق والقانون . فلا تكاد حكومة تخرج عن ذلك المعيار ، حتى تكف عن أن تكون شيئاً يتجاوز مجرد « منسر يتولى الحكم » وتصبح أيامها معدودة .

٧ – فكرة القومية

سبق أن أشرنا إلى أنه لا بد من وجود خريطة سياسية طبيعية للعالم تقدم خير ما فى المستطاع من التقسيم الجغرافى للإرادة الإنسانية . فأما أى تقسيم سياسى آخر للعالم غير هذه الخريطة السياسية المطابقة للطبيعة ، فسوف يكون بحكم الضرورة شيئاً مقلقلا حرم نعمة التوافق ، ولا بد أن يفضى إلى العداوات والفتن التى تنزع إلى تحريك الحدود فى الاتجاه الذى تشير إليه الخريطة السياسية الطبيعية .

وقد تلوح هذه المقترحات واضحة من تلقاء نفسها لولا أن الديبلوماسيين فى ڤيينا لم يكونوا يعتقدون ولا يفهمون شيئاً من ذلك القبيل كما هو واضح من تصرفاتهم ، وظنوا أنفسهم أحراراً فى أن يقطعوا أوصال العالم ، حرية من يقطع مادة لينة كالجبن لاعظم فيها . ومعظم الثورات والمنازعات التى ابتدأت فى أوربا عندما أفاق العالم مما غشيه من إعياء بسبب حروب نابليون ، كانت كما هو واضح تمام الوضوح ، محاولات يبذلها الرجال العاديون للتخلص من الحكومات التى هى من عدم المطابقة لرغباتهم بدرجة تجعلها فى كثير من الأحايين شيئاً لا يطاق . وعلى وجه العموم كانت الحكومات القائمة فى كل أرجاء أوربا كالشجى فى حلوق الناس ، لأنها لم تكن تمثل الناس تمثيلا اجتماعياً ، وبذا كانت تعوق الإنتاج وتضيع الاحتمالات الإنسانية بدداً . حتى إذا أضيف إلى تلك المضايقات العامة ، الإختلاف فى الدين وفى الثقافة العنصرية بين الحكام والمحكومين (كما فى معظم إرلندة) ، والفوارق فى العنصر واللغة (كما هو الحال فى إيطاليا الشمالية النمسوية وفى معظم أرجاء الإمبراطورية النمسوية) ، أو الفوارق فى كل هذه النواحى مجتمعة (كما فى بولندة والإمبراطورية التركية فى أوربا) ، فقد بلغ السخط حداً دفع الناس إلى سفك الدماء .

كانت أوربا مجموعة من الأجهزة الحكومية يشعة التركيب والتوافق . وعن ضغط سوء التركيب هذا ، إستقت الحركات « القومية » المنوعة التى لعبت ذلك الدور الكبير فى تاريخ القرن التاسع عشر ، قوتها المحركة .

ما هي الأمة ؟ (Nation) . وما هي القومية ؟ (Nationality) ؟ فلئن نجحت قصتنا عن العالم فى التدليل على شيء ، فلقد أظهرت نماذج الأجناس والشعوب وعدم ثبات التقسيمات الإنسانية ، وتنوع المجموعات البشرية والفكرات الخاصة بالترابط الإنسانى تنوعاً سريع التقلب والدوران . فلقد قيل إن الأمة إنما هي تجمّع من الكائنات الإنسانية يظنون أنهم شعب واحد . ولكن يخبروننا أن إرلندة أمة ، ومن المحقق أن « آلستر البروتستانتية » لا تشاطر أصحاب هذا الرأى رأيهم . وكذلك لم تكن إيطاليا تعتقد أنها شعب واحد حتى مضى على تحقيق وحدتها زمن طويل . وعندما كان المؤلف فى إيطاليا فى (١٩١٦) سمع الناس يقولون « ستجعلنا هذه الحرب شعباً واحداً » .

وكذلك هل الإنجليز أمة ؟ أم هم قد انغمروا فى « قومية بريطانية » ؟ الظاهر أن الاسكتلنديين لايعتقدون كثيراً فى هذه القومية البريطانية . وليس فى إمكان مجتمع للجنس أو اللغة أن يكوّن أمة ، وذلك لأن الجيليين[1] (Gaels) واللولنديين (Lowlanders) هما قوام الأمة الإسكتلندية . كما أنه ليس فى الإمكان أن يكون أساس هذا المجتمع هو الديانة المشتركة ، لأن بانجلترة عشرات من الديانات ؛ ولا أدباً عاماً ، وإلا فلماذا ترى بريطانيا منفصلة عن الولايات المتحدة ؟ وجمهورية الأرجنتين منفصلة عن أسپانيا ؟ وربما ذهبنا إلى أن الأمة إنما هي فى الواقع أية جماعة أو خليط أو حشد مضطرب من الناس إما أن يكون منكوباً بوزارة خارجية أو يرغب فى أن يكون منكوباً بوزارة خارجية خاصة به ، حتى تتصرف بكامل جماعتها كأنما كانت حاجتها ورغباتها وكبرياؤها أشد أهمية من المصلحة العامة للإنسانية بوجه لا مجال للمقارنة فيه .

وقد سبق أن تعقبنا من قبل تطور الملكيات المكيافلية حتى انتقلت إلى حكم وزارات خارجيتها وهي تلعب دور « الدول (Powers) » . ولم تكن « القومية » التى تسلطت على الفكر السياسى فى القرن التاسع عشر لتزيد فى حقيقتها عن المبالغات

---

(١) الجيليين : هم السكان المسمون فى إسكتلندا باسم الهايلنديين ولغتهم هى الجيلية وهى فرع من الكلتية . (المترجم)

الرومانسية والعاطفية فى التأزمات الناتجة عن الخلافات بين الخريطة السياسية الطبيعية وبين التنظيمات السياسية غير المناسبة داخل مصالح مثل تلك « الدول » .

وقد كان يجرى فى آناء القرن التاسع عشر كله ، وفى نصفه الثانى بوجه خاص ، إنضاج عظيم لهذه القومية فى العالم . أجل إن كل الناس إنما هم بحكم الطبيعة متعصبون محبون لأوطانهم ، ولكن الروح القبلية الطبيعية للناس فى القرن التاسع عشر ، كانت روحاً مبالغاً فيها مبالغة غير طبيعية . كانت روحاً مغيظة مغضبة منبّهة فوق ما ينبغى كما كانت ملهّبة ومضغوطة قسراً فى قالب القومية .

كانت القومية تعلم فى المدارس ، وتؤكدها الصحف وتُثبّت فى نفوس الناس بالتبشير والسخرية والغناء ، حتى غدت أغنية فظيعة سودت وجه كل الشئون الإنسانية . حتى لقد دُفع الناس إلى الشعور بأنهم من غير قومية يكونون من عدم اللياقة على حال من يخرج عارياً على زحمة الناس . وأولعت بالقومية الشعوب الشرقية التى لم تسمع بها أبداً ، مثلما أولعت بسجائر الغرب وقبعاته المستديرة السوداء . حتى لقد أصبحت الهند أمة — وهى ذلك الخليط المكون من متباين الأجناس والديانات والثقافات ما بين دراقيدية ومغولية وآرية !؟ . . . . وبديهى أنه كانت هناك حالات مربكة كما يحدث عندما يضطر أحد الشبان اليهود بحى هوايت شابل[1] أن يقرر لنفسه هل هو ينتمى إلى الأمة البريطانية أو اليهودية .

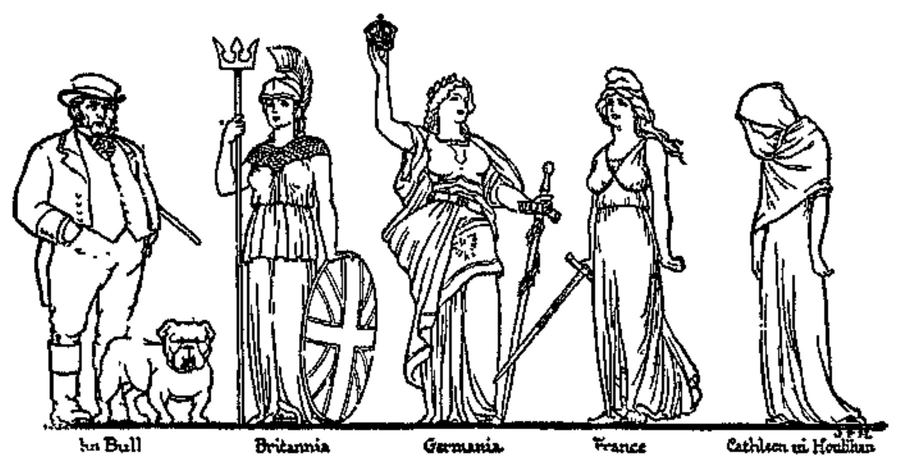
ولعبت الصور الساخرة الكاريكاتورية والرسوم المتحسركة (Cartoons) السياسية دوراً كبيراً فى هذا الإعلاء الذى رفع نحلة تلك الأرباب القبلية الأحدث عهداً والأكبر حجماً — وما الأمم العصرية إلا أرباب قبلية — إلى ما وصلت إليه من عزة وتلسط على خيال القرن التاسع عشر . فلو تصفح أحدنا مجلة « پنش » (Punch) تلك السجل العجيب المعاصر للنفس البريطانية ، التى تعيش إلى اليوم منذ (١٨٤١) ، لوجد أشكال بريطانيا وهيبرنيا[2] وفرنسا وجرمانيا وهى تتعانق

---

(١) هوايت شابل (White Chapel) : حى من أحياء شرق لندن يقوم به برج لندن . (المترجم)

(٢) Hibernia : الاسم القديم الذى كان الرومان يطلقونه على إيرلندة . (المترجم)

وتتنازع وتتعاتب وتفرح وتحزن . ومما ساعد الدبلوماسين مساعدة عظيمة على مواصلة لعبة الدول الكبرى حملهم السياسة فى شكلها هذا إلى الفطنة العامة للبشرية المرتابة .



(شكل ١٩٤) الأرباب القبليون فى القرن التاسع عشر

فإذا غضب الرجل العامى لإن ابنه أرسل إلى الخارج لكيما يقتل ، أخذوا يوضحون له أن ذلك كان فى الحقيقة جزءاً ضرورياً من كفاح هائل يستهدف البر والخير ، ولا مندوحة منه بين اثنتين من هذه الذوات القدسية المبهمة الضخمة بدل أن يقولوا له إن ذلك نتيجة لعناد اثنتين من وزارات الخارجية وشراهتهما . لقد أساءت چرمانيا إلى فرنسا ، أو كانت إيطاليا تظهر للنمسا الروح الواجبة .

ولم يعد مقتل الإبن يُعد انتهاكاً للعقل والحكمة ؛ بل دارت حوله هالة أسطورية من الكرامة . وكان العصيان يستطيع أن يتشح بنفس الثوب الرومانسى الذى تكتسى به الدبلوماسية . فأصبحت إرلندة ربة تشبه « سندرلاّ » هى كاثلين نى هولهان (Cathleen ni Houlihan) ، المنكوبة بالإساءات التى تمزق القلوب والتى لا يمكن اغتفارها . وسمت « الهند الفتاة » مرتفعة فوق حقائقها بعبادتها باندى ماتارام (Bande Mataram).

وقد كانت الفكرة الجوهرية لقومية القرن التاسع عشر هى « المطلب المشروع » لكل أمة بالسيادة التامة ، وهو ادعاء كل أمة بأن لها الحق فى إدارة شئونها الخاصة داخل حدود أراضيها الخاصة بصرف النظر عن أية أمة أخرى . وكان عيب هذه

الفكرة هو أن شئون كل مجتمع عصرى ومصالحه إنما تمتد إلى أقصى أجزاء الأرض . فإن الجريمة التى حدثت فى سراجيفو فى ١٩١٤ مثلا ، والتى تسببت عنها الحرب العظمى ، قد ترتب عليها نزول أشد المحن بهنود لبرادور ، لأن تلك الحرب أوقفت الاتجار بالفراء ، الذى يعتمدون عليه فى الحصول على الضروريات من أمثال الذخيرة ، التى لم يكونوا يستطيعون بدونها أن يحصلوا على القدر الكافى من القوت .

وإن عالماً من الأمم المستقلة ذات السيادة ليعنى إذاً عالماً من الإساءات المستديمة عالماً من دول مستعدة على الدوام للحرب أو مشعلة نارها أبداً . على أنه كان يساير التبشير بتلك القومية ويناقضها فى الوقت نفسه ، دعاية قوية انتشرت بين الشعوب الكبيرة الأقوى مُنَمّة لمجموعة أخرى من الفكرات : — هى فكرات الاستعمار (الامبريالية) الذى يُسلِّم فيه لأمة قوية ومتقدمة ، بالحق فى التسلط على أمم أخرى أقل تقدماً أو أمم أو شعوب أقل حظاً من التطور السياسى ، ولمّا تتطور قوميتها بعد ، وتتوقع منها الشعوب الكبيرة أن تشكر لها صنيعها فى حمايتها إياها وتسلطها عليها

وواضح أن هذا الإستعمال لكلمة الإمبراطورية إنما هو إستعمال مختلف عن معناها العام السابق . فإن الإمبراطوريات الجديدة لم تدّع أنها استمرار لإمبراطورية روما العالمية . بل هى فقدت آخر الصلات التى تربط بين فكرة الإمبراطورية وبين سلام العالم .

وهاتان الفكرتان فكرتا القومية ، ثم « الإمبراطورية » بوصفها تاجاً على مفرق النجاح القومى — غلبتا على الفكر السياسى الأوربى ، بل غلبتا فى الواقع على الفكر السياسى للعالم فى كل آناء النصف الثانى من القرن التاسع عشر ، وغلبتا عليه حتى نبذتا نبذاً عملياً كل فكرة ذهنية أوسع منهما أفقاً تدور حول موضوع الخير الإنسانى المشترك . كانتا فكرتين عمليتين غير سليمتين بشكل خطر . ولم تكونا تمثلا أى شىء جوهرى أو ثابت دوماً فى الطبيعة البشرية ، كما أنهما فشلتا فى أن توجها الحياة الجديدة للهيمنة العالمية والأمن العالمى اللذين لم تفتأ الثورة الميكانيكية تجعلهما كل يوم ألزم وأحتم .

وقد قبلت هاتان الفكرتان لأن الناس عامة لم تكن لديهم الآراء الجارفة التى تتيحها دراسة التاريخ العالمى ، كما لم يعد لديهم الخبر الشامل الذى تتيحه ديانة عالمية . ولم يدرك الناس خطرهما على جميع روتينات الحياة اليومية العادية إلا بعد فوات الأوان .

٨ – المعرض الكبير ١٨٥١

بعد أن تخطى القرن التاسع عشر منتصفه ، انفجر هذا العالم ، عالم الدول الجديدة والفكرات القديمة ، هذا النبيذ[١] الجديد الآخذ فى الاختمار والموضوع فى الزجاجات القديمة للدبلوماسيين – مفلتاً من القيود الركيكة الهزيلة التى أنشأتها معاهدة ڤيينا – ومنقلباً إلى سلسلة من الحروب . بيد أنه كان من سخرية المصادفات أن سبق مجموعة الإضطرابات الجديدة احتفال سلمى أقيم فى لندن هو المعرض العظيم فى ١٨٥١ . وهذا المعرض يستحق منا فقرة أو ما إليها .

كان الروح المحرك فى هـــذا المعرض هو ألبرت أمير ساكس كوبرج جوثا ، وهو ابن أخى ليوبولد الأول ، الملك الألمانى الذى وضع على العرش البلچيكى فى ١٨٣١ ، والذى كان كذلك خال الملكة الصغيرة ڤيكتوريا الإنجليزية . وكانت اعتلت العرش فى ١٨٣٧ وعمرها ثمانية عشر عاماً . وما لبث الأميران الشابان – وكانا فى سن واحدة – حتى تزوجا فى ١٨٤٠ تحت رعاية خالها . وكان الأمير ألبرت يعرف عند البريطانيين باسم « الأمير الزوج Prince Consort » . كان شاباً ذا ذكاء موفور وتعليم ممتاز غير عادى ، ويلوح أنه صدم صدمة كبيرة بسبب ذلك الركود الذهنى الذى انحدرت إنجلترة إليه .

وكانت أكسفورد وكامبردج ، هذان المركزان المؤتلقان ما تزالان تفيقان على مهل من ذلك الانخفاض والهبوط الذهنى الذى أصابهما فى أواخر القرن الثامن عشر . ولم يكن عدد الناجحين سنوياً فى امتحانات القبول ليزيد فى أى من الجامعتين عن

---

(١) يقول المثل الإنجليزى : « نبيذ » (أو خمر) قديم فى زجاجات جديدة : كناية عمن لا يأتى بجديد وقد قلب المؤلف منطوق المثل وعكس معناه . (المترجم)

أربعمئة عداً . وكانت الامتحانات فى معظم أمرها رسميات شفوية ، وإذا استثنينا كليتين فى لندن (جامعة لندن) ، وكلية فى ديرهام ، فإن ذلك كان كل التعليم الذى تقدمه إنجلترة فى المستوى الجامعى .

وقد كان لابتداهات هذا الأمير الألمانى الشاب المظلوم ، الذى تزوج الملكة البريطانية ، الأثر الأكبر فى تشكيل لجنة الجامعات ١٨٥٠ ، كما أنه قصد إلى زيادة وعى إنجلترة بأن شجع على إقامة المعرض الدولى الأول كيما تتاح الفرصة لعمل موازنة بين المنتجات الفنية والصناعية لدى الأمم الأوربية المختلفة .

على أن المشروع لقى فى انجلترة اعتراضاً مريراً . وتنبأ بعضهم فى مجلس العموم بأن يجتاح الأفاقون والثوريون الأجانب إنجلترة ثم يفسدوا أخلاق الناس ويحطموا كل عصيدة وولاء فى البلاد .

وعقد المعرض فى هايد پارك داخل مبنى جديد من الحديد والزجاج ، بنى فيما بعد مرة ثانية تحت اسم قصر البلّور . فأوتى من الناحية المالية نجاحاً عظيماً ؛ إذ جعل كثيراً من الإنجليز يدركون أن بلادهم ليست القطر الصناعى الوحيد فى العالم ، وأن الرخاء التجارى ليس احتكاراً بريطانياً أمرت به العناية الإلهية . كما تجلت أمام العيون أوضح الشواهد على أن أوربا تتعافى باطراد مما ألم بها من دمار الحروب النابليونية ، وأنها أخذت تتغلب سريعاً على زعامة البريطانيين فى التجارة والصناعة . وبعد ذلك المعرض مباشرة أنشئت إدارة للفنون والعلوم (١٨٥٣) ، لتدارك ما فات بريطانيا من تأخر فى التعليم ، إن كان إلى إدراكه سبيل .

٩ – سيرة حياة نابليون الثالث

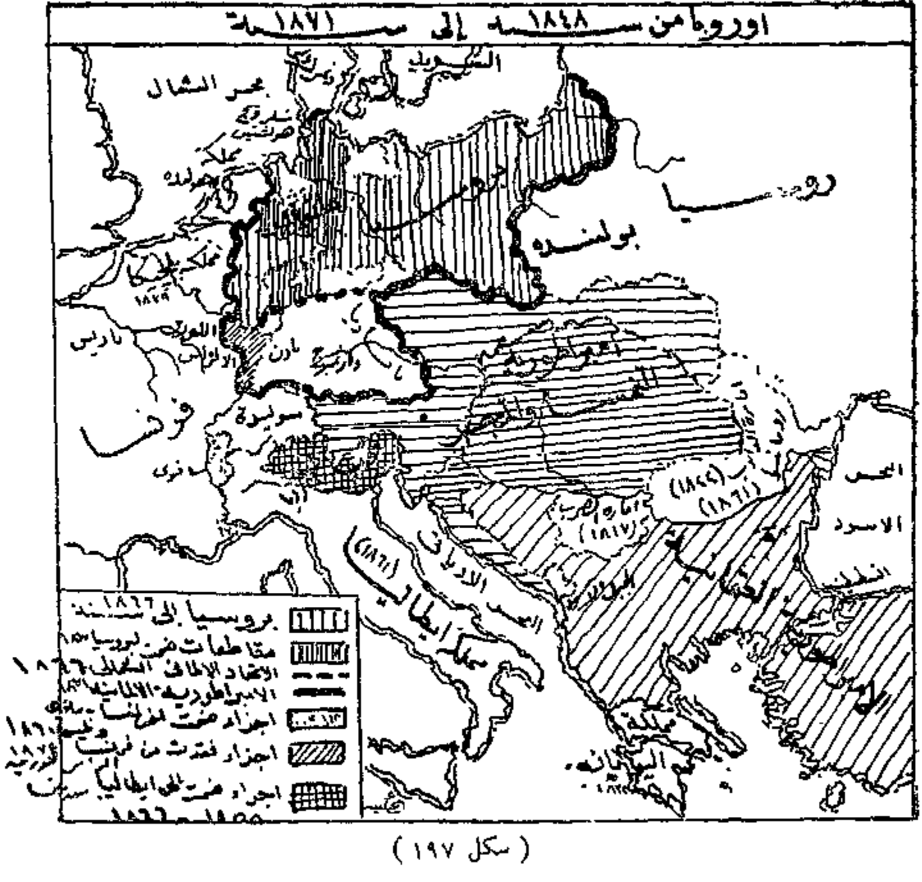
أطلق المعرض الكبير فى ١٨٥١ أسار قدر جسيم من الأحاديث والمشاعر الدولية . وكان قبل ذلك قد وجد لساناً يترجم عنه فى شعر الشعراء الشبان من أمثال تنيسون الذى ألقى نظرة نحو آفاق المستقبل حين قال :

« حتى لا تعود طبول الحرب إلى الدق مرة أخرى

وحتى تلفف رايات القتال وتطوى ،

فى برلمان الإنسان وفى دولة العالم المتحدة » .

على أن تلك الرؤيا كانت سابقة لأوانها . فمن دون السلام الظاهرى فى تلك الفترة ، فترة الأسمحية التحررية والاستنارة السطحية ، كانت تنبت بذور محصول جديد من المنازعات الدولية . فكانت فرنسا جمهورية تحررية إسماً . ولكن رئيسها كان من أسرة بونابرت وابن أخى ناپليون الأول ، وكان شخصاً ذا دهاء عظيم وإقدام كبير ، وكان مقدراً له أن يجلب على فرنسا وأوربا نوازل كانت أشد وأنكر مما نزل بها من قبل حتى مما أوقعه عمه قبل ذلك بنصف قرن .



(شكل ١٩٧)

ذلك بأنه تهيأ للجمهورية الفرنسية التى حلت محل ملكية آل أورليان فى ١٨٤٨ ،

حياة وجيزة مضطربة . وكان يثقلها منذ البداية مقترحات اشتراكية فجّة ترتب عليها قدر كبير من الاضطراب الاقتصادى وقدر أكبر من القلق فى الأعمال . فأما نابليون بونابرت الجديد — وقد لبس مسوح « الأمين » على التحرر والملاذ الذى يعيد الثقة ويثبت أركان الأمور — فإنه استطاع أن يفوز بالانتخاب لمنصب الرياسة فى أكتوبر من تلك السنة . وأقسم اليمين باعتباره رئيساً بأن يظل مخلصاً وفياً للجمهورية الديمقراطية ، وأن يعدّ كل من يحاول تغيير شكل الحكومة عدواً له . ولم تمض سنتان (ديسمبر ١٨٥٢) حتى غدا إمبراطوراً على الفرنسيين .

وقد نظرت إليه الملكة ڤيكتوريا أول الأمر نظرة يخالطها كثير من الارتياب ، أو قل نظر إليه تلك النظرة البارون ستوك مار ، صديق الملك ليوبولد البلچيكى وخادمه ، والحفيظ على الضمير الدولى للملكة البريطانية وزوجها الملكى . وكانت هذه المجموعة من آل ساكس كوبرج جوثا كلها حماسة معقولة كريمة لوحدة ألمانيا ورفاهيتها على أسس من التحرر . وقد جنحوا إلى الانزعاج من انتعاش آل بونابرت من جديد . غير أن اللورد بلمرستون كان من الجهة الأخرى يعطف على المغتصب منذ البداية ؛ فاستوجب إستياء الملكة بإرساله الرسائل الودية للرئيس الفرنسى ، دون أن يعرضها عليها لتفحصها ، وأن يعطيها بذلك المهلة الكافية لاستشارة ستوك مار فيها ، فأجبر على التخلى عن منصبه . على أن البلاط البريطانى ما عتم بعد ذلك أن دار دورة جعلته فى وضع أدنى إلى المودة نحو المغامر الجديد .

وبشرت السنوات الأولى لحكمه بملكية تحررية أكثر منها بسيرة نابليونية ، وبحكومة تقوم على « الخبز الرخيص والأشغال العامة العظيمة والأجازات[1] » ، وقد عبر بحرارة عن عطفه الشديد على فكرة القومية ، التى كانت بحكم الطبيعة فكرة مقبولة جداً لدى أى ألمانى ذكى متحرر . وحدث أن برلماناً وجيز الأمد ، يمثل ألمانيا كلها التأم فى فرانكفورت فى ١٨٤٨ ، وفضه ملك بروسيا فى ١٨٤٩ ،

وقبل ١٨٤٨ كانت كل البلاطات الأوربية الكبيرة صاحبة تسوية ڤيينا تجتمع

---

(١) نقلا عن ألبرت توماس فى الموسوعة البريطانية .

على نوع من المحالفة خشية اندلاع ثورة ثانية ديمقراطية أوسع انتشاراً . وبعد إخفاق الحركات الثورية فى ١٨٤٨ وعودة الملكية إلى فرنسا ، ارتفع هذا الخوف ، وأصبح الجميع أحراراً فى أن يرجعوا إلى ما كانوا فيه من تدبير الخطط وتخطيط أضدادها شأنهم فى الأيام السابقة على ١٧٨٩ - خاصة وقد صارت تحت تصرفهم الجيوش والأساطيل الأكثر قوة والأضخم عدداً وهى التى أتاحها لهم الطور النابليونى . وبعد فترة دامت ستين عاماً ، ابتدأت من جديد لعبة « الدول الكبرى » فى حمية ونشاط ، واستمرت حتى أنتجت كارثة ١٩١٤ .

وانتهج نابليون الجديد خطة الحذر ردحاً من الزمن . وكان نقولا الأول قيصر الروسيا هو الذى قام بالخطوة الأولى نحو الحرب . فإنه عاد إلى توجيه الضربة التقليدية ، وهى طعنة بطرس الأكبر نحو القسطنطينية . واخترع نقولا عبارة «رجل أوربا المريض» التى أطلقها على السلطان ، وإذ وجد عذراً يتكئ عليه فى سوء إدارة الدولة حيال السكان المسيحيين فى الإمبراطورية التركية ، فإنه احتـــل الإمارات الدانوبية فى ١٨٥٣ .

كان ذلك نكسة دولية حقيقية . فإن الدبلوماسيين الأوربيين وجدوا أنفسهم حيال « مسألة » من طراز القرن الثامن عشر نفسه . وكان مفهوماً أن خطط روسيا تصطك بخطط فرنسا فى سوريا ، وتهدد طريق بريطانيا العظمى إلى الهند عبر البحر الأبيض ، وتمخض الموقف عن قيام محالفة بين فرنسا وإنجلترة تعضيدا لتركيا وشبوب حرب هى حرب القرم التى انتهت بطرد الروسيا . وربما زعم المرء أن الحد من تصرفات الروسيا كان أحرى به أن يكون من عمل ألمانيا والنمسا ، ولكن شهوة وزارتى الخارجية فى فرنسا وانجلترة إلى إحراق أصابعهم فى الشئون الروسية كانت على الدوام شهوة لا سبيل إلى كبح جماحها . ووجد نابليون الجديد فى هذه الحرب فرصة يقوى بها روابط صداقته غير الوطيدة مع بريطانيا والبلاط البريطانى ، الذى كان حتى ذلك الحين يترفع عليه .

والطور الهام الثانى من أطوار هذا الانتعاش فى مسرحية الدول الكبرى ، كان استغلال الامبراطور نابليون الثالث وملك مملكة سردينيا الصغيرة بشمال

إيطاليا ، لما تنطوى عليه حالة إيطاليا الممزقة من متاعب وشقاوات ، وبوجه خاص للحكم النمسوى فى الشمال . وقام ملك سردينيا ڤيكتور عمانويل بصفقة من صفقات العهد الماضى للحصول على مساعدة ناپليون مقابل ولايتى نيس وساڤوى ، اللتين تأخذهما فرنسا ، على أن تعوض سردينيا عن ذلك فى إيطاليا . وما لبثت الحرب حتى شبت بين فرنسا وسردينيا من جهة والنمسا من جهة أخرى فى ١٨٥٩ ، وانتهت فى بضعة أسابيع . فهزم النمساويون هزيمة منكرة فى ماچنتا وسلفرينو . وعمل ناپليون إلى عقد الصلح لأن بروسيا هددته على نهر الرين ، وبذلك ترك لسردينيا غنيمة عظيمة هى لومباردى .

وكانت الحركة الثانية فى لعبة ڤيكتور عمانويل ووزيره الأول كاڤور حركة ثورية فى صقلية يقودها الوطنى الإيطالى العظيم غاريبالدى وحررت صقلية ونابولى وانتقلت إيطاليا بأجمعها إلى يد ملك سردينيا فيما عدا روما (التى ظلت على ولائها للبابا) وسقطت البندقية (التى كانت فى يد النمسويين) فى قبضه ملك سردينيا . واجتمع فى تورينو برلمان إيطالى عام ١٨٦١ ؛ وبذلك أصبح ڤيكتور عمانويل أول ملك لإيطاليا .



(شكل ١٩٦) غاريبالدى

ولكن انتقل حينذاك مركز الاهتمام فى لعبة هذه الدبلوماسية الأوربية إلى ألمانيا . وكان قبول الناس لفكرة وحدة إيطاليا فى حدودها الجغرافية الطبيعية قد صار عقيدة ثابتة . ففى ١٨٤٨ إتحدت كل ألمانيا بما فى ذلك بالطبع النمسا الألمانية ردحاً من الزمان تحت ظلال برلمان فرانكفورت . ولكن هذا النوع من الاتحاد أثار بنوع خاص إستياء كل البلاطات ووزارات الخارجية الألمانية ؛ فإنهم لم يكونوا يرغبون



(شكل ١٩٩) نابليون الثالث

فى قيام ألمانيا متحدة بإرادة أهلها ، بل يريدون أن تتحد ألمانيا بواسطة جهود الملوك والديبلوماسيين كما اتحدت إيطاليا .

وفى (١٨٤٨) أصر البرلمان الألمانى على أن ولايتى شلزويج وهولشتين الألمانيتين فى معظم أمرهما ، اللتين كانتا عضوين فى الحلف الألمانى ، لابد أن تنتميا إلى ألمانيا . وأمر الجيش البروسى باحتلالها ، فأبى ملك پروسيا أن يتلقى الأوامرَ من برلمان ألمانيا ، وبذلك عجّل بسقوط تلك الهيئة . وعندئذ أقبل ملك الدانيمارك كريستيان التاسع لا لسبب معقول سوى ما فطر عليه الملوك من حماقة ، فأقدم على حملة معكرة لصفو الألمان فى هاتين الدوقيتين . وكانت شئون بروسيا آنذاك موكولة فى غالب الشأن إلى وزير من طراز القرن السابع عشر ، هو فون بسمارك (لقّب كونتاً فى ١٨٦٥ وأميراً فى ١٨٧١) فرأى فى هذا الخلاف فرصة ذهبية يجب انتهازها . فأصبح

نصير القومية الألمانية فى هاتين الدوقيتين (ولزام عليك أن تتذكر أن ملك بروسيا رفض أن يقوم بهذا الدور لحساب ألمانيا الديمقراطية فى ١٨٤٨) وأقنع النمسا بأن تنحاز إلى بروسيا وتتدخل معها تدخلا عسكرياً .

ولم تكن أمام الدانيمارك أية فرصة إزاء هاتين القوتين الكبيرتين . فهزمت فى سهولة وأجبرت على التخلى عن هاتين الدوقيتين .

وعند ذلك تلمس بسمارك خلافاً مع النمسا فى شأن امتلاك هاتين المقاطعتين الصغيرتين . وبذا أحدث حرباً لا ضرورة لها ، يقتل فيها الألمانى أخاه ، ولم يكن يرمى بها إلا استجلاب المجد العظيم إلى بروسيا فضلا عن رفعة آل هوهنزولرن فى ألمانيا ثم وحد بين أجزاء ألمانيا بزعامة آل هوهنزولرن البروسيين . ولقد يذهب الكتاب الألمان ذوو النزعة الرومانسية ، إلى تمثيل بسمارك على صورة رجل دولة عظيم يدبر خطط وحدة ألمانيا ؛ ولكنه لم يكن فى الواقع يقوم بأى شىء من ذلك . فإن وحدة ألمانيا كانت حقيقة واقعة فى ١٨٤٨ . كانت وما تزال جزءاً من طبيعة الأشياء . ولم تكن الملكية البروسية تفعل شيئاً إلا مجرد تأخير مالا مندوحة منه ، لكى تبدو صاحبة الفضل فى إحرازه على الطريقة البروسية . ولهذا حدث أنه عندما توحدت ألمانيا آخر الأمر . فإنها بدلا من أن تتخذ هيئة شعب عصرى ممدن ، قدمت نفسها للعالم بوجه ذلك البسمارك العتيق البالى ذى الشارب المخيف المزعج والحذاء الطويل الضخم والسيف والخوذة ذات الأسلة[1] .

(شكل ١٩٨) بسمارك

---

(١) الأسلة ، طرف مستدق يركب فى أعلى الخوذة . (المترجم)

وفى هذه الحرب بين بروسيا والنمسا كانت إيطاليا ظهيرة لبروسيا ، على حين كان غالب الولايات الألمانية الأدنى شأناً ، والتى تخاف خطط بروسيا تقاتل فى صفوف النمسا . وطبيعى أن يرغب القارئ فى أن يعرف لماذا لم ينتهز ناپليون الثالث لصالحه الخاص هذه المناسبة البديعة المواتية لصناعة السياسة ، ويدخل الحرب ؟ وكانت كل قواعد لعبة « الدول الكبرى » تنادى بضرورة دخوله . فإنه كان يسمح بذلك لمنافس خطر لفرنسا أن ينهض فى أوربا على صورة بروسيا . وكان ينبغى له أن يقوم بشىء ما للحيلولة دون ذلك . ولكن ناپليون كان لسوء حظه واضعاً أصابعه فى مصيدة على الجانب الآخر من الأطلسى ، ولم يكن فى مركز يسمح له أن يتدخل فى تلك الساعة .



(شكل ١٩٩) ناپليون الثالث

فقد أغرته أمريكا إغراء مؤلماً فإن الشقاق بين مصالح ولايات الجنوب والشمال اتحاد أمريكا الشمالية ، ذلك الخلاف الراجع إلى الفوارق الإقتصادية القائمة على الرقيق ، أدى آخر الأمر إلى نشوب الحرب الأهلية الصريحة . وسنعالج فى قسمنا التالى موضوع هذه الحرب الأهلية ببيان أوفى . ولن نزيد هنا عن القول بأنها دامت أربع سنوات ، وانتهت آخر الأمر بالولايات المتحدة وقد عاد إليها اتحادها . وشمل الفرح

كل عناصر الرجعيـــة فى أوربا أثناء سنوات الخلاف الأربع هذه . وانضمت الأرستقراطية البريطانية صراحة مع الولايات الجنوبية الكنفدرالية ، وسمحت الحكومة البريطانية لعدة سفن حربية خصوصية ، نخص بالذكر منها السفينة « ألاباما » بأن تصنع وتنزل إلى البحر فى انجلترا لمهاجمة سفن الفيدراليين .

وكان نابليون الثالث أشد هوجاً واندفاعاً بزعمه أنه مهما يكن من شىء ، فإن العالم الجديد قد سقط أمام القديم . وكانت الولايات المتحدة حظرت حتى ذلك الحين كل تدخل أوربى فى قارة أمريكا . ويعد ذلك الحظر على وجه الإجمال قاعدة ثابتة للسياسة الأمريكية . ولكن تلك الدرع الواقية التى هى « مبدأ مونرو » ، قد ألقيت آنذاك جانبا . . . . . وإلى الأبد فيما خاله نابليون ! .... وبذا جاز للدول الكبرى الآن أن تتدخل مرة ثانية فى أمريكا ، وأن تعود بركات الملكية المغامرة سيرتها الأولى هناك ! . .

والتمست المعاذير للتدخل . . . فوجدت فى بعض التصرفات المتخذة حيال أملاك الأجانب من رئيس جمهورية المكسيك . واحتلت حملة عسكرية مشتركة من الفرنسيين والبريطانيين والأسبان ثغر ڤيراكروز ، على أن مشروعات نابليون كانت أجرأ من أن يطيقها حلفاؤه ، فإنسحبوا عندما اتضح لهم أنه لم يكن يدبر شيئا يقل عن تأسيس إمبراطورية مكسيكية . وقد وفق إلى ذلك فعلا بعد الشىء الكثير من القتال العنيف ، وعين الأرشيدوق ماكسمليان النمسوى إمبراطوراً على المكسيك فى ١٨٦٤ . على أن القوات الفرنسية تملكت البلاد مع ذلك تملكا فعلياً ، وانهال إلى بلاد المكسيك حشد من المغامرين الفرنسيين بغية استغلال مناجمها ومواردها .

إلا أن الحرب الأهلية انتهت فى الولايات المتحدة فى أبريل ١٨٦٥ ، ووجدت الفئة القليلة من الأوربيين المتملكين بلهفة للمكسيك ، نفسها تواجه حكومة الولايات المتحدة المظفرة وهى فى حالة تجهم وعبوس تام ، وبين يديها جيش عظيم ينذر منظره بالشر . وخير الاستعماريون الفرنسيون تخييراً صريحاً بين الحرب مع الولايات المتحدة أو الانسحاب من أمريكا . والواقع أن هذه كانت إشارة تلوح له بالرحيل . تلك هى الورطة التى حالت بين نابليون الثالث وبين التدخل فيما شجر

بين بروسيا والنمسا فى ١٨٦٦ ، وكان هذا هو السبب الذى من أجله عجّل بسمارك بنزاعه مع النمسا .

وعلى حين كانت بروسيا تقاتل النمسا كان نابليون الثالث يحاول أن يخرج بكرامته من مآزق المكسيك الشائكة . فاخترع خلافاً حقيراً على مسائل مالية مع ماكسمليان وسحب الجنود الفرنسية . وكان الواجب يقضى على ماكسمليان حسب قواعد الملوكية أن يتنازل عن العرش . ولكنه بدلا من ذلك أخذ يقاتل من أجل امبراطوريته . فهزمه رعاياه المعاندون وقبضوا عليه ، وأعدموه فى ١٨٦٧ رمياً بالرصاص بوصفه مصدراً للقلق العام . وبذا أعيد سلام الرئيس مونرو إلى العالم الجديد .

وبينما كان نابليون مشغولا فى مغامرته الأمريكية الفاشلة ، كانت بروسيا وإيطاليا تختطفان النصر على النمسويين (١٨٦٦) . حقا إن إيطاليا أصيبت بهزيمة شديدة فى كاستوزّا وفى معركة ليسّا البحرية ، ولكن الجيش النمسوى بلغ من هزيمته الساحقة على يد البروسيين فى معركة سادُوا أن سلمت النمسا تسليما ذليلا . وكسبت إيطاليا مقاطعة البندقية ، وبذلك خطت خطوة أخرى جديدة نحو الوحدة — ولم يبق خارج المملكة إلا روما وتريستا ومدن قليلة صغيرة على الحدود الشمالية والشمالية الغربية — وأصبحت بروسيا رأساً لاتحاد احتلافى ألمانى شمالى ، أخرجت منه بافاريا وورتنبرج وبادن وهيس والنمسا .

وترتب على انتصار بروسيا هذا وعلى قمع النمسا الذى ترى ، بوصفها على الأقل الرأس الإسمىّ للشئون الألمانية ، وعلى هذه الرجعة لسلطان مملكة فردريك الكبير — أن أصبحت بروسيا وفرنسا وجها لوجه . وأصبح من الأمور الواضحة أنهما ستشتبكان فى منافسة عظيمة ، وهى منافسة قدر لها أن تنتج آخر الأمر أعظم الحروب وأشدها تدميرا وإفسادا على مر التاريخ . لم يكن الأمر إلا أمر زمن لابد أن تصطك بعده ألمانيا وفرنسا . وكان كل من الطرفين يعد العتاد الحربى ،

ولكن بروسيا تفوقت على فرنسا فى أن لديها مدرسين خيرا من مدرسيها ومستوى من الطاعة والكفاية أعلى مما لدى فرنسا .

وكادت الحرب أن تنشب فى ١٨٦٧ ، يوم حاول نابليون بمجرد أن أفلت من المكسيك أن يثير مع بروسيا خلافا على مسألة لوكسمبرج . ثم وافت الحرب فى ١٨٧٠ على أسس تمتّ إلى القرن الثامن عشر بأوثق الأسباب ، بسبب منازعة حول المرشحينْ لعرش أسبانيا الشاغر . وكانت تساور عقل نابليون فكرة بأن النمسا وبافاريا وورتمبرج والولايات الأخرى فى خارج الاتحاد الكنفدرالى الألمانى الشمالى سوف تنحاز إليه ضد بروسيا . ولعله ظن أن ذلك لا بد أن يحدث لأنه أراده أن يحدث . ولكن الألمان منذ ١٨٤٨ ، كانوا متى تعرضت بلادهم للتدخل الأجنبى يصبحون شعبا متحداً . وكل ماعمله بسمارك أنه فرض ملكية أسرة هوهنزولرن ، فى جو من الفخامة والرسميات وسفك الدماء ، على حقائق قد تحققت . وانحازت ألمانيا كلها إلى بروسيا ضد فرنسا .

وفى أوائل أغسطس ١٨٧٠ إجتاحت القوات الألمانية المتحدة فرنسا . وأظهرت أنها خير من القوات الفرنسية فى عددها ونظامها وعتادها وقيادتها . وكان انهزام فرنسا سريعا تاما .

وبعد معركتى ورث (Worth) وجرافيلوت ، اضطر جيش فرنسى بقيادة بازان (Bazaine) أن يرتد إلى داخل متز ثم أحيط به هناك . وفى أول سبتمبر اضطر جيش آخر كان معه نابليون ، أن يسلم بعد أن هزم فى سيدان ، وأخذ نابليون أسيرا . ووجدت باريس نفسها مكشوفة أمام الغزاة . وللمرة الثانية خذلت الوعود النابليونية فرنسا خذلانا ماحقا .

وفى اليوم الرابع من سبتمبر أعلنت فرنسا نفسها جمهورية من جديد ، وإذ عادت إليها فتوتها على هذه الشاكلة ، فإنها استعدت للقتال من أجل البقاء ضد البروسية المظفرة . ذلك أنه ، مع أن ألمانيا التى تغلبت على الروح الإمبراطورية الفرنسية كانت ألمانيا المتحدة ، فقد كانت بروسيا منها على صهوة السرج . ولم يلبث الجيش المحصور فى متز حتى استسلم فى أكتوبر . وخضعت باريس بعد أن

فرض عليها الحصار وضربت بالقنابل فسلمت فى يناير ١٨٧١ ، والتمست فرنسا الصلح . وهناك فى قاعة المرايا بقصر فرساى بين مظاهر الأبهة والاحتفال الرسمى ووسط تشكيلة عظيمة من الحلل العسكرية نودى بملك بروسيا إمبراطورا لألمانيا ، ووقف بسمارك وسيف آل هوهنزولرن يدعيان الفضل فى تلك الوحدة الألمانية التى طالما أكدها منذ زمن مديد لغة مشتركة وأدب مشترك .

وكان صلح فرانكفورت الذى أعقب ذلك صلحا لآل هوهنزولرن . وكان بسمارك قد أفاد من شعور ألمانيا القومى واستغله فى الحصول على عون الولايات الألمانية الجنوبية ، ولكن أنى له أن يدرك القوى الجوهرية التى حبته وحبت سيده الملكى بالنصر . فإن القوى التى دفعت ألمانيا إلى النصر كانت قوة خريطة أوربا السياسية الطبيعية التى تحتم وحدة الشعوب الناطقة بالألمانية . وكانت ألمانيا فى الناحية الشرقية ترتكب بالفعل الخطايا ضد الخريطة الطبيعية بإدارتها لبوزن ولنواح بولندية أخرى . والآن وقد أعماها الشره إلى الأراضى وبوجه خاص إلى مناجم الحديد ، فإنها ألحقت بها قدراً جسيما من اللورين الناطقة بالفرنسية بما فى ذلك متز ، والألزاس التى كانت بالرغم من لغتها الألمانية فرنسية الميول فى غالب شأنها .

ولم يكن ثمة مندوحة من أن يحدث التصادم بين الحكام الألمان والرعايا الفرنسيين فى هذه الولايات المستلحقة . وكان لا مندوحة من أن تتردد للإهانات والمرارة التى مست فرنسا المقهورة فى اللورين أصداء مدوية فى باريس وأن تجعل غضب فرنسا الشديد مضطرما محتوما على الدوام . وسوف نقص عليك فيما بعد كيف تأجج هذا الحقد متسعرا فى لهيب انتقام عظيم . . . وأخفى نابليون رأسه المتداعية فى إنجلترة ، ومات هناك بعد انهياره بسنة أو مايقاربها ، وهكذا انتهت الدولة البونابرتية الثانية بفرنسا .

١٠ ــ لنكولن والحرب الأهلية فى أمريكا

مما يريح الفؤاد أن ينتقل الإنسان من هذا المغامر البونابرتى ومن أعماله التى جلبت الكوارث على فرنسا ، ومن النصر المؤقت الذى أحرزه آل هوهنزولرن

على الحركة الشعبية فى ألمانيا ، — إلى شخص أعظم تماماً وأكبر أهمية وأبلغ قيمة ، هو شخص أبراهام لنكولن الذى يمكن أن تجمع حوله بغاية اليسر والراحة حوادث الحرب الكبرى الأهلية فى أمريكا .

وقد كان النصف الأول من القرن التاسع عشر الذى هو عصر رجعية وانتعاش فى أوربا ، كان فى أمريكا فترة من فترات النمو الباذخ المسرف . فإن وسائل المواصلات الجديدة وأعنى بها الزورق البخارى والسكة الحديدية ثم التلغراف الكهربائى الذى أعقبهما من فوره ، جاءت فى أنسب الأوقات لدفع حركة السكان قُدماً عبر القارة . ولولا هذه الوسائل الميكانيكية المساعدة ، فلربما لم تصل الولايات المتحدة غرباً حتى فى يومنا هذا إلى ما يتجاوز جبال روكى ، وربما كان شعب يخالف من نرى تمام المخالفة يكون هو المتملك على الشاطئ الغربى .

ولا يزال أمرا لا يفهمه السياسيون إلا فهما أبتر قاصرا ، مسألة إلى أى حد تبلغ درجة اعتماد المساحات المحوطة بالحدود الحكومية والإدارية على وسائل المواصلات المستعملة وعلى طبيعة البلاد من حيث علاقتها بالنقل . فإن الوديان المفتوحة إذا اتيحت لها الطرق والكتابة ، تنزع إلى الارتباط فى ظل حكومة واحدة . فأما الحواجز الجبلية فما كانت لتفصل الشعوب فحسب بل الحكام أيضاً ، وكانت الإمبراطورية الرومانية إمبراطورية « طريق سلطانى »[1] وعجلة ، وكان تقسمها وتفرقها وسقوطها راجعة إلى استحالة إقامة مواصلات سريعة بين الجزء منها والجزء . وكانت أوربا الغربية التى خرجت من غمرة العاصفة النابليونية ، مقسمة إلى دولات قومية ، لعلها وصلت إلى أقصى اتساع تستطيع أن تبلغه دون فقدان التماسك ، على حين كانت قوة جر الحصان على الطريق السلطانى أسرع وسائل الارتباط لديها .

فلو أن سكان الولايات المتحدة انتشروا فوق القارة الأمريكية وليس لديهم إلا جر الحصان ، والطريق الخشن الوعر وكتابة الرسائل ، وسيلة لترابطهم بعضهم ببعض ، فإنه يلوح أمراً لا مندوحة منه أن الفوارق فى الأحوال الأقتصادية المحلية

---

(١) طريق سلطانى (High-road) : أى طريق كبير يمتد بين المدن والأقطار . (المترجم)

كانت لا بد متطورة فمنتحة طرزاً إجتماعية مختلفة ، وأن الافتراق الفسيح كان لا بد له من أن يقوى فروقا فى اللهجات وأن يزيل التعاطف ، وأن العناء الذى يقاسيه من يريد حضور جلسات الكونجرس بواشنطون ، كان لا بد مزداداً مع كل تقدم



(شكل ٢٠٠) لنكولن وحفيده

للحدود صوب الغرب ، حتى يترامى الأمر بالولايات إلى التفرق فى عصبة منحلة العرى مكونة من أمم متباعدة مستقلة تقريباً . وإذن لكانت الحروب على الثروة

المعدنية والمنفذ إلى البحر وما إليها ، تعقب ذلك ولا مناص ، وكانت أمريكا تغدو أوربا أخرى .

غير أن الزورق البخارى النهرى والسكة الحديدية والتلغراف ، وصلت فى أوانها لمنع هذا التفرق . وأصبحت الولايات المتحدة هى الأولى فى طراز جديد من الدولة ذات النقل العصرى ، وهى أكبر تماما وأشد قوة وأبلغ إدراكا لوحدتها من أية دولة رآها العالم من قبل . إذ أن النزعة السائدة اليوم فى أمريكا ليست إلى التفرق والتباعد بل التمثل والامتصاص ، حتى ليزداد المواطنون فى الأجزاء المختلفة من الولايات ، لا اختلافا بعضهم عن بعض بل اتفاقا فى الحديث والفكر والعادة . حقاً إن الولايات المتحدة لا تقارن بدولة أوربية مثل فرنسا وإيطاليا ، بل إنها طراز من التنظيمة السياسية أجد عهدا وأكبر حجما .

وقد قامت فى العالم إمبراطوريات تضاهى الولايات المتحدة فى المساحة وعدد السكان ، ولكنها كانت مجرد تجمع من شعوب دافعة للجزية لا يوحدهم شىء إلا حكومة من الحكومات . فأما وحدة الولايات المتحدة ففطرية فهى مجتمع قائم على اتجاه ذهنى لشعب يربى على مئة مليون من الناس فالسكك الحديدية التى زادت منازعات أوربا ومشاحناتها حدة ، والمخترعات التى أنقصت مسافة الضربة التى تضربها الجيوش الأوربية . وأتاحت لهم قوى مدمرة تزداد على مر الأيام ، إلى حد أنه يلوح الآن أنه لا اختيار أمام أوربا الغربية بين التوحيد طوعاً أو التوحيد كرهاً تحت سلطان إحدى الدول الغالبة ، وبين الفوضى والدمار ، — هذه السكك الحديدية ، وهذه المخترعات قد مكنت ورسخت الوحدة الحرة لأمريكا الجمهورية . وقد عاد البخار على أوربا بالإحتقان وجلب لأمريكا الفرص السوانح .

ولكن الشعب الأمريكى مرّ وهو فى طريقه إلى هذه العظمة الراهنة والأمنة الحاضرة فى دور من أدوار الصراع الرهيب . ذلك أن الزوارق البخارية النهرية والسكك الحديدية والتلغراف ، وما أشبهها من تسهيلات ، لم تصل بالسرعة التى تمكنها من تجنب النزاع المتزايد عمقاً فى المصالح والفكرات بين الولايات الجنوبية

المالكة للرقيق وبين الشمال الصناعى الحر – بل الواقع أن الزوارق البخارية والسكك الحديدية لم تقم فى مبدأ الأمر إلا بزيادة أوار وعنف الفارق الثابت من قبل والراسخ من قبل . كان هناك فارق عميق فى الروح بين قسمى الولايات المتحدة ، وترتب على تزايد توحيد البلاد الناجم عن وسائل النقل الجديدة ، أن أصبحت مسألة المفاضلة بين سيادة روح الشمال أو روح الجنوب ، ذات خطورة تزداد حدة على الدوام . وكان الأمل فى التقارب والصلح ضئيلا . فإن الروح الشمالية كانت روحاً حرة فردية واتجهت الروح الجنوبية إلى الضياع الكبيرة وإلى سادة ذوى وعى قوى بأنفسهم يحكمون حشداً من الرعايا أسمر البشرة خاضعاً . وكانت عواطف الراديكاليين والأحرار البريطانيين منضمة إلى أهل الشمال ؛ بينما كانت عواطف أصحاب الأملاك البريطانيين والطبقة الحاكمة البريطانية منحازة إلى أهل الجنوب .

وأصبحت كل قطعة من الأرض تنظم فى شكل ولاية ، وكل إضافة جديدة إلى المجموعة الأمريكية السريعة النمو ، – تصبح ميداناً للنزاع بين الفكرتين . فهل يجب أن تكون الولاية الجديدة ولاية من المواطنين الأحرار أم ينبغى أن يشملها نظام الضياع الكبيرة ذاك ؟ ولم تزل هذه نقطة النزاع تتدرج ببطء حتى تسلطت على الشئون الأمريكية بعد تأسيس ولاية مسّورى فى ١٨٢١ وأركنساس فى ١٨٣٦ بوصفهما ولايتين تملكان الرقيق . ومنذ ١٧٣٣ كانت هناك جمعية لمنع الرقيق لم يقتصر أمرها على مقاومة التوسع فى ذلك النظام ، بل كانت تحرك البلاد من أقصاها إلى أقصاها بغية إلغائه إلغاءً تاماً . وتأجج الخلاف صراعاً حول إدخال تكساس إلى حظيرة الإتحاد . وكانت تكساس فى الأصل جزءاً من جمهورية المكسيك ؛ ولكن كان معظم من يستعمرها أمريكيين من الولايات المتملكة للرقيق ، فانفصلت عن المكسيك وأسست استقلالها فى ١٨٣٦ . وأعقب ذلك اضطراب قوى من أجل استلحاق تكساس ، وألحقت تكساس فى ١٨٤٤ ، وأدخلت ولاية فى الاتحاد فى ١٨٤٥ . وكان الرقيق محظوراً فى تكساس فى ظل القانون المكسيكى ، ولكن الجنوب طالب الآن بتكساس من أجل الرقيق وحصل عليها .

زد على ذلك أن الحرب التى شبت بينهم وبين المكسيك بسبب استلحاق

تكساس ، أدت إلى إضافة نيومكسيكو ومساحات أخرى إلى الولايات المتحدة وفى هذه المناطق كذلك كان الرقيق مباحاً ، وجاء مشروع قانون العبدان الآبقين فزاد فى كفاية وسائل القبض على العبدان الذين يهربون إلى الولايات الحرة لإعادتهم إلى أربابهم . وفى نفس الوقت كان تطور فن الملاحة فى المحيطات يجتلب أفواجاً متزايدة من المهاجرين من أوربا يزيدون فى عدد سكان الولايات الشمالية الآخذين فى الانتشار ، وأدى رفع إيُوَا وويسكونسين ومينيسوتا وأريجون ، وهى كلها أراضى مزارع شمالية ، إلى مرتبة الولايات إلى منح الشمال المعارض للرقيق أغلبية تمكنه من التسلط فى كل من مجلسى الشيوخ والنواب . وإذ ثارت ثائرة الجنوب الزارع للقطن لهذا التهديد المتزايد الذى يصدر عن حركة الداعين إلى الغاء الرق ، وإذ خشى هذا التسلط الشمالى فى الكونجرس ، فإنه راح يتحدث فى الانفصال عن الإتحاد . وشرع أهل الجنوب يحلمون بضم ما يقع جنوبيهم من أراضى فى بلاد المكسيك وجزائر الهند الغربية ، وبدولة عظيمة للعبدان منفصلة عن الشمال وممتدة من خط ماسون وديكسون إلى پناما .

وأصبحت كنساس مسرح البت النهائى فى الأمر . فإن الكفاح على الرقيق غمر منطقة كنساس فيما أوشك أن يكون حرباً أهلية بين المستقرين فيها من أهل الولايات الحرة والمهاجرين إليها من أهل ولايات الرقيق ، وهى حرب استمرت حتى ١٨٥٧ وانتهت بفوز أنصار منع الرقيق من المستوطنين . ولكن كنساس لم ترفع إلى درجة ولاية حتى ١٨٦١ . وكانت توسعة مجال الرقيق هى نقطة الخلاف الرئيسية المطروحة على البلاد فى انتخابات الرياسة فى ١٨٦٠ . وتعتبر دعوة أبراهام لنكولن بوصفه رئيساً مناهضاً للتوسع ، عاملا حاسماً حفز الجنوب على أن يقرر فصم عرى الوحدة .

فأصدرت كارولينا الجنوبية « مرسوماً بالانفصال » ، واستعدت لخوض غمار الحرب . وانضمت إليها فى أوائل ١٨٦١ ولايات المسيسبى وفلوريدا وألاباما وجورجيا ولويزيانا وتكساس . واجتمع مؤتمر فى مونتجمرى بولاية ألاباما ، واختار جيفرسون دافيز رئيساً « للولايات الكنفدرالية » الأمريكية ، وتبنى دستوراً

يشابه دستور الولايات المتحدة ولكنه كان يؤيد بنوع خاص « نظام استرقاق الزنوج » .

ذلك هو الموقف السياسي الذي دعي أبراهام لنكولن لمعالجته بوصفه رئيساً للاتحاد . وكان بمحض المصادفة رجلا نموذجياً في تمثيله للشعب الجديد الذي ظهر بعد حرب الاستقلال . وكان أهله أناساً لا يزيدون على العاديين من عامة الناس ، فلم يكن أبوه ليعرف القراءة أو الكتابة إلا بعد زواجه ، وكانت أمه فيما يقال ابنة غير شرعية . وكانت امرأة أوتيت عقلا راجحاً وخلقاً ممتازاً .

وقد قضى سنيه الأولى بوصفه جزيئاً صغيراً يتنقل مع فيض السكان العام المتجه غرباً . ولد في كنتكي في ١٨٠٩ ، وحمل إلى إنديانا وهو غلام ، ثم أخذ بعد ذلك إلى إلينوي . وكانت الحياة خشنة في تلك الأيام في غابات إنديانا البعيدة عن العمران ، فكان المنزل لا يزيد على كوخ من الكتل الخشبية مقام في البرية ، وكان حظه من التعليم المدرسي ضئيلا وعارضاً . على أن أمه علمته القراءة منذ بواكير حداثته ، ثم أصبح قارئاً هائلا يلتهم كل ما تقع عليه يده من كتب .

وعندما بلغ السابعة عشرة أصبح شاباً رياضياً ضخم الجثة ، مصارعاً عظيما وعداءً قوياً . ولما بلغ التاسعة عشرة انحدر في النهر إلى نيوأورليان أجيراً في زورق . واشتغل حيناً كاتباً في أحد المتاجر ، وعمل متطوعاً في الجيش في حرب ضد الهنود ، ودخل ميدان الأعمال فأنشأ متجراً مع شريك سكير ، فوقع في ديون لم يستطع أن يسددها تماماً إلا على مدى خمسة عشر عاماً . ثم حصل أخيراً عندما قارب الرابعة والعشرين على عمل يشتغل فيه وكيلا لمساح مقاطعة سانجامون وهو عمل قال عنه إنه « أمسك رمقه بالجهد الجهيد » .

وكان مكباً على القراءة كل ذلك الزمان . وكانت الكتب الأولى التي قرأ — تلك التي تكوّن الذهن — قليلة ولكن من الصنف الجيد فيما يلوح ؛ كان يقرأ كل ما تصل إليه يده ؛ وكان يعرف شيكسپير وبيرنز جيد المعرفة ، وحياة واشنجتون وتاريخ الولايات المتحدة الخ . وكان التعبير لديه غريزة فطرية ، فكان منذ يفاعته يكتب مثلما يدرس ، منتجاً الشعر والمقالات وما أشبهها . ولكن

الكثير من إنتاجه هذا مادة خشنة متواضعة . وسرعان ما اجتذبته السياسة إليها . ففي ١٨٣٤ يوم كانت سنه لا تزيد على خمسة وعشرين من السنين انتخب عضواً في مجلس النواب عن ولاية إلينوى ؛ ودرس الحقوق وانتظم فى سلك المحاماة فى ١٨٣٦ . وانقضى عليه زمان اشتغل فيه بالقانون أكثر من السياسة .

ولكن المسألة العظمى المطروحة أمام شعب الولايات المتحدة كانت تصر على شغل إنتباه كل رجل أوتى الاقتدار . والحق أن هذا الرجل الضخم المقتدر المعلم نفسه بنفسه ، والذى كان مثالا نموذجياً بالغاً لرجل الغرب الأوسط ، لم يسعه إلا أن يتأثر تأثراً عميقاً بالتطور المستمر فى الخلافات على الرق والانفصال . وكانت المسألة ملتهبة الأوار فى إلينوى بوجه خاص لأن الزعيم العظيم فى الكونجرس لحزب التوسع فى الرقيق كان هو السناتور دوجلاس وهو من إلينوى . وكانت هناك منافسة شخصية بين الرجلين . إذ كان كلاهما قد خطب السيدة التى أصبحت المسز لنكولن . وكان دوجلاس رجلا ذا اقتدار ومقام عظيمين ، وظل لنكولن بضع سنين يحاربه بالخطابة والنشرات فى إلينوى بادئ الأمر ثم فى الولايات الشرقية برمتها ، وهو يرتفع فى ثبات إلى مركز خصمه القوى والمنتصر آخر الأمر . وبلغ كفاحهما الأوج بحملة انتخابات الرياسة فى ١٨٦٠ . وفى ٤ مارس ١٨٦١ احتفل بلنكولن رئيساً ، والولايات الجنوبية فى حالة انفصال فعال وهى ترتكب أعمالا حربية .

وكان أول اجراء قام به الإنفصاليون هو استيلاؤهم على جميع حصون الاتحاد الفدرالى ومخازنه الموجودة داخل حدودهم . وكانت هذه المراكز التابعة للاتحاد مبنية على أراض تملكها الولايات التى كانت فيها ، وادعت هذه الولايات لنفسها الحق فى « استرجاع ممتلكاتها » . وقاومت حامية فورت سمتر فى شارلستون ، وابتدأت الحرب بإطلاق القنابل على هذه القلعة فى ٢ أبريل ١٨٦١ . ولم يكن لدى أمريكا فى ذلك الوقت سوى جيش نظامى صغير جداً ، أقام على ولائه للرئيس ، ومن ثم فإن الذين قاموا بهذه العمليات الافتتاحية الأولى للاتحاد الكنفدرالى لولايات الجنوب كانوا مجندين جدداً جمعوا من الولايات . واستدعى الرئيس لنكولن على

الفور خمسة وسبعين ألفاً من الرجال ، وانضمت تنسى وأركنساس وكارولينا الشمالية وفرجينيا مباشرة إلى الاتحاد الإحتلافي[1] الذى كان آنذاك قد رفع علمه الخاص به المكون من « النجوم والخطوط الرأسية » مقابل النجوم والشقق الأفقية .

وبذلك ابتدأت الحرب الأهلية فى أمريكا . وكان يقوم بالقتال فيها جيوش مرتجلة أخذت تنمو نمواً مطرداً من عشرات قليلة من الآلاف إلى مئات الآلاف — حتى أربت قوات الاتحاد الفدرالى آخر الأمر على مليون من الرجال ؛ وكانت الحرب تتقلب فوق مساحات هائلة تمتد بين نيومكسيكو والبحر الشرقى . وكانت واشنجتون وريتشموند هما الهدفان الرئيسيان . وإنه لمما يتجاوز مجالنا الراهن أن نحدثك عن تلك الهمة المتزايدة لذلك الكفاح الحافل بالبطولة والذى كان يهدر متدحرجاً ذهاباً وجيئة عبر التلال والآجام فى تنسى وفرجينيا وينحدر من وادى المسيسبى . وجرّت الحرب فى أذيالها كل فظيع من القتال والدمار . وكانت الطعنة تتلوها الطعنة المضادة ؛ وكان اليأس يحل محل الرجاء ، ثم يعود الأمل فيُفرخ ثم يعود القنوط فيخيم . وكانت واشنجتون تبدو فى بعض الأحايين فى متناول يد الاتحاد الكنفدرالى . ثم تعود جيوش الاتحاد الفدرالى فتنساب نحو ريتشموند .

وكان المتخلفون رجال الجنوب الكنفدرالى وهم أقل عدداً وأفقر كثيراً فى الموارد ، يقاتلون بقيادة قائد ذى كفاية فائقة اسمه الجنرال لى . وكانت قيادة الاتحاد الشمالى أدنى كثيراً من ذلك كفاية وإقتدارا . وظل لنكولن متعلقا زمنا طويلا بالجنرال ماك كيلان « نابليون الصغير » ، وهو قائد مدّع ميال للتسويف مخيب لما كان يعقد عليه من آمال . وطفق الرئيس يطرد القواد ويعين آخرين جددا ، حتى انتهى الأمر بأن جاء الفوز على يد شرمان وجرانت على الجنوب الرث الناهك القوى . وفى أكتوبر ١٨٦٤ اخترق جيش الاتحاد بقيادة شرمان ميسرة الجنوب الكنفدرالى ، ثم تقدم

---

(١) يلاحظ القارئ أننا سمينا (Confederacy) باسم الاتحاد الاحتلافى (الكنفدرالى) أى الولايات ذات الرابطة المفككة ، على حين جعلنا الاتحاد (أو الاتحاد الفدرالى) مقابلا كما هو معلوم لكلمتى (Federacy) ، (Union).

انظر ص ١١٧٥ من المعالم . (المترجم)

من تنسى عبر جورجيا إلى الشاطئ ، مخترقا بذلك أرض الجنوب الكنفدرالى أكمل اختراق ، ثم عرج خلال الكارولينتين الشمالية والجنوبية حتى أطبق على مؤخرة جيوش الجنوب . وفى نفس الوقت كان جرانت يوقف لى أمام ريتشموند حتى أطبق عليه شرمان .

وفى اليوم الثانى من ابريل ١٨٦٥ أخلت جيوش الكنفدراليين مدينة ريتشموند ؛ وفى اليوم التاسع من ابريل ، سلم لى وجيشه عند أبوماتوكس كورت هاوس ، ولم يمض شهر حتى كانت جيوش الانفصاليين الباقية قد وضعت السلاح جميعاً وحتى كانت دولة الاتحاد الكنفدرالى قد انتهت .

ولكن هذا الكفاح الذى دام أربع سنوات أصاب شعب الولايات المتحدة بإجهاد هائل جثمانى وخلقى . فكان الراى منقسما انقساماً حاراً فى شأن الحرب . كثير من الولايات من أمثال مارى لاند وكنتكى . وذلك بأن مبدأ الحكم الذاتى فى الولاية كان مبدأ عزيزاً جداً على أذهان كثيرة ، والحق أن الشمال كان يبدو فى زى من يقسر الجنوب على إلغاء الرقيق كرها . ولذا كان الكثير من الرجال يعارضون فكرة الرقيق ، ولكنهم كانوا كذلك ضد التدخل فى شأن السلطان الحر لكل ولاية على سكانها ؛ فأما الولايات التى على الحدود فإن الأخوة وأبناء العم ، بل حتى الآباء والأبناء ، ربما كانوا ينضوون تحت ألوية متضادة ويجدون أنفسهم فى جيوش متقاتلة متعادية . وكان الشمال يشعر بأن قضيته قضية بر وخير ، ولكن هذا البر والخير لم يكن فى رأى عدد عظيم من الناس براً كاملا غير منقوص ولم يكن مكينا لا يمكن تحديه .

ولكن لنكولن لم تساوره خلجة شك . فإنه بقى صافى الذهن وهو فى غمرات هذا الارتباك . وكان الاتحاد مبدأه الذى يؤمن به ويناضل من أجله ؛ وكان سلام أمريكا العظيم عقيدته الراسخة . كان يعارض الرق ، ولكنه يرى أن الرق إنما هو مسألة خلاف ثانوى . وكان غرضه الأول هو ألا تتمزق الولايات المتحدة إلى قسمين متباينين متناحرين . ولذا فإنه ظل طوال سنوات الكفاح الأربع المديدة ، صامدا كأنما هو عقيدة راسخة لا تلين وعزيمة ثابتة لا تهن .

وعندما حدث فى مراحل الحرب الأولى أن الكونجرس وقواد الاتحاد شرعوا

فى إصدار قرار بإعتاق الرقيق عليه طابع العجلة والتسرع ، اعترض لنكولن على ذلك وخفف من حدة حماستهم . فإنه كان يرى وجوب تحرير الرقيق على مراحل ومع التعويض . ولم يصل الموقف إلا فى يناير (١٨٦٥) إلى درجة النضج التى تسمح للكونجرس بأن يقترح إلغاء الرقيق إلغاء أبدياً بتعديل دستورى ؛ حتى لقد انتهت الحرب فعلا قبل أن تم تصديق الدولة على التعديل .

وبينما كانت الحرب تسير متثاقلة أثناء سنتى ١٨٦٢ ، ١٨٦٣ ، خبت الحدة الأولى والحماسات السابقة ، وتعلمت أمريكا علم كل أدوار سآمة الحرب والاشمئزاز من الحرب . وحل التجنيد الإجبارى محل التطوع وبدل من روح القتال فى كل من الجنوب والشمال . وأصبحت الحرب كفاحا مديدا عبوساً يقتل فيه الأخ أخاه .

وشهد شهر يوليو ١٨٦٣ مدينة نيويورك تشغب على مشروع التدابير الحربية المقدم إلى الكونجرس ، وحاول الحزب الديموقراطى فى الشمال أن يفوز فى انتخابات الرياسة بحجة أن الحرب قد فشلت وأنها يجب أن توقف . وكان معنى هذا بالبديهة نصرا عمليا للجنوب . ونظمت المؤامرات لهزيمة المشروع بالكونجرس . وألفى الرجل النحيف الطويل صاحب البيت الأبيض نفسه إزاء دعاة هزيمة وتردد ، وخونة وقواد معزولين ، ووجد من ورائه سياسيين حزبيين لولبيين ، وشعباً متشككا متعباً ، وشهد أمامه قوادا غير ملهمين وجنوداً منحطة الروح المعنوية . ولا بد أن أكبر سلوته كانت فى شعوره بأن چيفرسون دافيز فى ريتشموند لا يمكن أن يكون أحسن منه حالا .

وأساءت الحكومة البريطانية السلوك ، فسمحت لوكلاء الجنوب الكنفدرالى فى انجلترة أن ينزلوا إلى البحر ثلاث سفن حربية خاصة سريعة ويمونوها بالرجال — كانت ألاباما أشهر ما يتذكره الناس منها — وطفقت تلك السفن تتعقب سفن الولايات المتحدة وتطاردها فى البحار وكان الجيش الفرنسى فى المكسيك يُمرغ مبدأ مونرو فى الوحل . ثم جاءت من ريتشموند مقترحات خبيثة : أن تجاوزوا عن الحرب ، وأن دعوا الخلافات المؤدية إلى الحرب إلى مناقشات تالية ، وانقلبوا جميعاً من فدراليين وكنفدراليين إلى التحالف على الفرنسيين فى المكسيك .

ولكن لنكولن أبى أن يصغى إلى مثل هذه المقترحات ما لم يحافظ الكل على سلامة الاتحاد . فقد يستطيع الأمريكيون أن يفعلوا ذلك كشعب واحد لا كشعبين .

وقد شدّ لنكولن الولايات المتحدة بعضها إلى بعض خلال شهور طويلة مضنية ، شهور من الهزائم والمجهود غير المثمر ، وخلال أدوار سوداء حالكة من الفرقة والشجاعة المتداعية . وليس هناك أى سجل يسجل أنه تردد يوماً فى القصد إلى أهدافه . ومرت به أزمان لا يستطاع فيها عمل شيء ، وعندئذ كان يجلس فى البيت الأبيض صامتاً جامدا لا يتحرك ، وكأنما هو تمثال متجهم للعزم والإصرار ؛ وأزمان كان يُجِمّ فيها ذهنه بالمزاح والنوادر غير اللائقة . كان عامر النفس بالفكاهة الساخرة ، لكنه كان شديد رقة الاحساس لآلام الآخرين . وعندما جاءه بعض أعداء جرانت ليخبروه أن ذلك الجنرال يشرب الخمر ، سأل من فوره عن ماركة الويسكى الذى يشرب — « خدمة للآخرين » . فأما هو فى حد ذاته فكان رجلا متقشفاً فى كل عاداته ، يتحمل كلا من الجهد الهائل فى العمل والصبر الهائل على المكاره .

وأخيراً أصبح من الجلى فى الشهور الأولى من عام ١٨٦٥ أن بوادر النصر أخذت تقبل عليه ، فنصب نفسه بكل قواه ليجعل التسليم سهلا ومعاملة المقهورين بداية للتراضى . فإن مذهبه وعقيدته كانت هى « الاتحاد » . وسرعان ما اشتبك فى نزاع مع المتطرفين من أعضاء حزبه هو ، الذين كانوا يرغبون فى صلح انتقامى .

وشهد « الاتحاد » منصوراً مظفراً . ودخل ريتشموند فى اليوم التالى لتسليمها وسمع بتسليم «لى» . ثم عاد إلى واشنطون ، وفى اليوم الحادى عشر من إبريل ألقى خطبته العامة الأخيرة . وكان محور فكرته فيها هو الصلح والتراضى ثم إعادة إنشاء الحكومات الموالية فى الولايات المهزومة . وفى مساء ١٥ ابريل ذهب إلى مسرح فورد بواشنطون ، وبينما هو جالس ينظر إلى التمثيل أصيب برصاصة فى مؤخر الرأس ، وقتل على الفور من يد ممثل اسمه « بوث » ، كان يحمل فى قلبه شيئاً من الضغن عليه ، وكان قد تسلل إلى المقصورة دون أن يشعر به أحد .

فلئن تعطل التئام الجراح ، ولئن أصيبت الولايات المتحدة بالمزيد من المتاعب

والمرارات فى السنوات التى أعقبت الحرب أكثر مما كانت الأمور تقتضيه ، فإن ذلك راجع إلى أن لنكولن قد مات. ولكن عمله كان قد تم ، وكان الاتحاد أُنقذ ، وأُنقذ إلى أبد الآبدين . ولم تكن هناك عند بداية الحرب سكة حديدية تمتد إلى ساحل الپاسفيكى (الهادى) . فأما الآن فقد انتشرت السكك الحديدية وتفرعت تفرع نبات سريع النماء حتى أمسكت كل أراضى الولايات المتحدة المترامية وربطتها ونسجتها فيما هو اليوم وحدة ذهنية ومادية لا يمكن أن تنفصم عراها .

ومنذ ذلك الزمان تواصل تماسك بنيان الولايات المتحدة تواصلا راسخا مستمرا ؛ ولم يمض عليها نصف قرن حتى كان سكانها قد تجاوزوا حد المئة مليون عدًّا . وليس هناك أى دلالة تدل على أن النماء والتطور بلغا حتى الآن أوجهما . فهذه الديموقراطية الجبارة التى لا ملك لها ، ولا سياسة خارجية تفصيلية محكمة ، إنما هى — ونكرر هذا القول — شيء جديد فى خبرة العالم . وهى ليست « دولة عظمى » بالمعنى الذى تستعمل فيه تلك الكلمة فى أوربا . وإنما هى شيء أكثر عصرية فى طبيعته ، وأضخم حجماً ، وله مقدّرات أعظم وأبلغ .

١١ — الحرب الروسية التركية ومعاهدة برلين

ابتدأت فى ١٨٧٥ ثورة جديدة ، لما سميناه فى هذا الكتاب باسم الخريطة الطبيعية ، ضد الترتيبات الديبلوماسية التى وضعتها معاهدة ڤيينا ، عندما دب دبيب الاضطراب والعصيان بين الأجناس المسيحية فى البلقان وبخاصة البلغار . واتخذ الأتراك حيالهم تدابير قمع عنيفة ، ثم لجأوا إلى إعمال التقتيل فى البلغاريين على نطاق هائل .

وعند ذلك تدخلت الروسيا فى (١٨٧٧) ، وأجبرت الأتراك بعد عام قضى فى حرب باهظة النفقة على توقيع معاهدة سان استفانو ، التى كانت فى مجملها معاهدة معقولة ، تمزق الدولة التركية المصطنعة ، وتؤسس الخريطة الطبيعية إلى حد كبير ؛ ولكن كان قد أصبح من تقاليد السياسة البريطانية أن تعترض « خطط الروسيا » — لسبب لا يعلمه إلا الله وحده ! — كلما بدا أن للروسيا خُطة . فتدخلت وزارة الخارجية البريطانية وكان رئيس الوزراء آنذاك هو اللورد بيكونزفيلد — مهددة بالحرب إن لم تسترجع تركيا إلى حد كبير ما كانت تحظى به من ابتزاز الأموال

والاضطهاد والتقتيل ! ؟ ! . . . وانقضى زمن أوشكت فيه الحرب أن تقع بين الطرفين . وأخذت قاعات الموسيقى البريطانية ، وهى المصابيح المضيئة للسياسة البريطانية ، توقد وتنار بنيران الوطنية ، حتى لقد بلغ الأمر أن الغلام الساعى فى لندن كان يتغنى وهو يسير فى جولاته ، مرددا فى غنائه معانى كرامة شعب عظيم .

« لسنا نريد القتال ، ولكنى أقسم بجنجو[1] لئن قاتلنا ، فلدينا السفن ، ولدينا الرجال ، ولدينا الذخيرة أيضاً » .

وهكذا : حتى تصل الأمور إلى ذروتها فى قوله ، —

« لن يأخذ الروس القسطنطينية » .

وكانت نتيجة تلك المعارضة البريطانية ، أن اجتمع فى ١٨٧٨ مؤتمر فى برلين لتنقيح معاهدة سان إستفانو ، تنقيحا يتجه بصفة رئيسية إلى مصالح ملوك تركيا



(شكل ٢٠١)

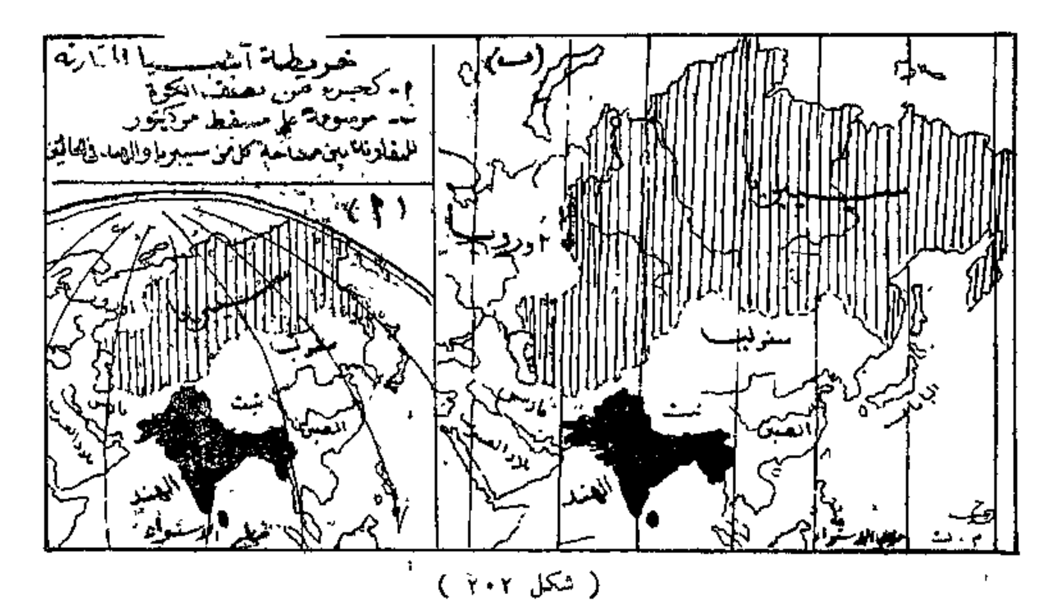
---

(١) جنجو هو قسم ساخر فى هذه الأغنية الحربية ومن ثم أطلقت جنجو أيضاً على أى وطنى مهووس يدعو إلى الحرب . (المؤلف)

والنمسا . وحصل البريطانيون على جزيرة قبرص ، التى لم يكن لهم فيها أى حق مطلقاً ، والتى لم تعد عليهم أبدا بأقل فائدة ؛ وعاد اللورد بيكونزفيلد مظفراً من مؤتمر برلين ، يحمل ما جعل البريطانيين فى ذلك الزمان يزعمون بأنه « السلام مع الشرف » . وكانت معاهدة برلين هذه هى العامل الرئيسى الثانى – (إذ كانت معاهدة فرانكفورت هى العامل الأول) – الذى أدى إلى الحرب العظمى حرب ١٩١٤ – ١٩١٨ .

١٢ – التدافع الثانى على الإمبراطوريات وراء البحار

ألمعنا أن الثورة الميكانيكية لم تنتج أى تغييرات جد ثورية فى تاريخ أوربا السياسى بين سنتى ١٨٤٨ ، ١٨٧٨ . فإن « الدول الكبرى » التى أعقبت الثورة كانت فى الواقع ما تزال داخل حدود لا تزيد على اتساع رقعتها الأولى وما تزال محتفظة بكثير من الشكليات التى كانت عليها فى الأزمة السابقة على الثورة . ولكن الذى حدث هو أن زيادة السرعة والثقة بوسائل النقل والمواصلات التلغرافية أحدثت تغيرات جسيمة فى الأحوال والمناهج ، وقامت وراء البحار مشروعات مالية وتجارية لبريطانيا وغيرها من الدول الأوربية الأخرى ، كما نشأت صلات شتى بين آسيا وأفريقيا من جهة وأوربا من جهة أخرى .



(شكل ٢٠٢)

وكانت نهاية القرن الثامن عشر فترة تمزيق للإمبراطوريات ورفع لغشاوة الخداع عن أبصار دعاة التوسع العدوانى . فإن الرحلة الطويلة الشاقة بين بريطانيا وأسبانيا وبين مستعمراتهما فى أمريكا كانت تحول دون كثرة الذهاب والغدو بين أرض الوطن الأم وبين بناتها التوابع ، وبذا انفصلت المستعمرات وتحولت إلى مجتمعات جديدة مميزة ، ذات فكرات ومصالح مميزة بل مختلفة فى أساليب كلامها . وكلما نمت المستعمرات زادت شداً ورهقا لتلك الرابطة الواهنة غير المحققة رابطة السفن التى كانت همزة الوصل بينهما . أجل إن مراكز التجارة الضعيفة فى البرية (أمثال ما كان لفرنسا فى كندا) ، أو المؤسسات التجارية فى المجتمعات الأجنبية الكبيرة ، (شأن ما كان لبريطانيا فى الهند) ، ربما كانت تتشبث متعلقة من أجل البقاء المحض بالأمة التى تمد لها يد العون وتقيم لها سبب الوجود . ذلك على الأكثر دون أى شيء آخر هو ما كان يبدو فى أعين كثير من المفكرين فى القسم الأول من القرن التاسع عشر ، الحد الذى يحد الحكم وراء البحار

وفى ١٨٢٠ كانت المعالم غير البينة « للإمبراطوريات » الأوربية العظمى خارج أوربا ، التى طالما ظهرت على صورة ضخمة لافتة للنظر فى خرائط منتصف القرن الثامن عشر ، قد تقلصت أبعادها تقلصا بالغا جداً . وكانت الإمبراطورية الروسية هى وحدها التى تزحف كأوسع ما يكون الزحف عبر آسيا . ولكنها كانت تزحف فى أخيلة كثيرين من الأوربيين أكثر مما تزحف فى حقيقة الأمر ، بسبب ما جرت به عادتهم من دراسة جغرافية العالم على أساس مشروع مركاتور[1] الذى يبالغ مبالغة هائلة فى حجم سيبريا .

وكانت الإمبراطورية البريطانية فى ١٨١٥ تتكون من أقاليم النهر والبحيرات الساحلية القليلة السكان بكندا ، ومن أرض عظيمة داخلية مكونة من برية لم يكن فيها من المستقرات فى ذلك الحين سوى محطات تجارة الفراء التابعة لشركة خليج هدسن ؛ وكانت قرابة ثلث شبه الجزيرة الهندية تحت حكم شركة الهند الشرقية ؛ وكانت تضم النواحى الساحلية عند رأس الرجاء الصالح ، التى يسكنها السود والمستوطنون

---

(١) مشروع مركاتور : طريقة لرسم الخرائط تنسب إلى الجغرافى ورسام الخرائط الفلمنكى چيراردیوس مركاتور (١٥١٢ – ١٥٩٤) . (المترجم)

الهولنديون ذوو الطبع الثائر ، وبضع محطات تجارية على ساحل إفريقيا الغربية وصخرة جبل طارق وجزيرة مالطة وجمايكا وممتلكات صغرى قليلة عمالها من العبيد فى جزائر الهند الغربية وغيانا البريطانية بأمريكا الجنوبية ، وأما فى الجهة الأخرى من العالم فلم يكن ثم غير محطى تفريغ للمجرمين عند خليج بوتانى باستراليا وفى تسمانيا .

وكانت أسبانيا محتفظة بكوبا ومستقرات قليلة فى جزائر الفلبين . وكانت للبرتغال فى أفريقيا بعض آثار تدل على مزاعمها القديمة . وكانت لهولندة جزائر وممتلكات مختلفة بجزائر الهند الشرقية وبغيانا الهولندية ، كما كان للدانمرك جزيرة أو ما إليها من جزائر الهند الغربية . فأما فرنسا فكان لها جزيرة أو اثنتان من جزائر الهند الغربية وغيانا الفرنسية . وكان هذا فيما يلوح هو القدر الذى تحتاج إليه الدول الأوربية أو القدر الذى يحتمل أن تحرزه من بقية العالم . ولم يكن أحد عدا شركة الهند الشرقية يظهر أى نزوع للتوسع .

وكانت إمبراطورية ذات سمة خاصة عجيبة تتكون فى بلاد الهند كما أسلفنا ، لا يكونها الشعب البريطانى ولا الحكومة البريطانية ، بل تكونها تلك الشركة ، شركة المغامرين الخصوصيين بما لديهم من احتكار ومرسوم ملكى . وقد اضطرت الشركة أن تصبح قوة حربية وسياسية أثناء سنى الانقسام الهندى وعدم الأمنة الذى أعقب تجزؤ الهند بعد وفاة أورا نغزيب فى ١٧٠٧ . وكانت الشركة تعلمت أن تتجر فى الولايات والشعوب أثناء القرن الثامن عشر . فأسس كلايف هذا النوع العجيب من الإمبراطورية وتولى وارن هاستنجس تنظيمها ؛ وقهرت المنافسة الفرنسية كما سبق أن أخبرناك ؛ ولما وافت ١٧٩٨ عين اللورد مورنجتون حاكماً عاماً على الهند ؛ وهو الذى أصبح فيما بعد المركيز ولزلى ، وهو الأخ الأكبر للملك الجنرال ولزلى الذى أصبح دوق ولنجتون ، فأقام سياسة الشركة بصورة نهائية على أساس إقامة حكمها هى فى مكان إمبراطورية المغولى العظيم الغاربة .

وكانت حملة نابليون على مصر هجمة مباشرة على إمبراطورية هذه الشركة البريطانية . وبينما كانت أوربا مشغولة بالحروب النابليونية ، راحت شركة الهند الشرقية تحت فئة متعاقبة من المديرين العامين ، تلعب فى الهند نفس الدور الذى

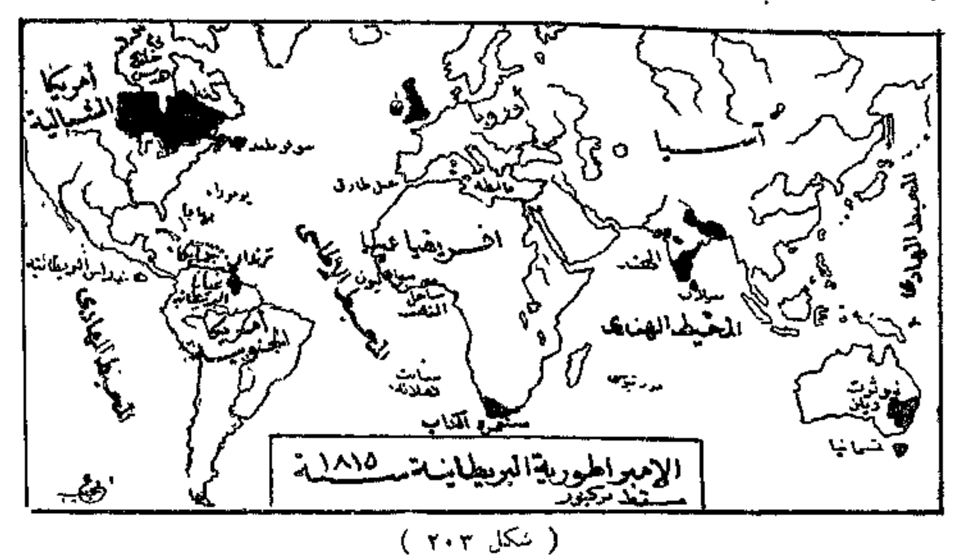
كان يلعبه من قبل التركمان ومن إليهم من الغزاة النازحين من الشمال ، ولكنها كانت تلعبه على مرتبة من الكفاية أعظم وفى عنف وقساوة أقل وأدنى كثيراً . واستمرت فى عملها بعد معاهدة فيينا تجمع إيراداتها ، وتشن الحروب وتبعث بالسفراء إلى الدول الأسيوية ، كانت دولة شبه مستقلة ، وهى مع ذلك دولة ذات ميل ملحوظ إلى إرسال الثروة نحو الغرب .

وقد سبق فى فصل مضى ، أن لخصنا لك سيرة تحطم إمبراطورية المغولى العظيم وظهور ولايات المهراتا والإمارات الرجبوتية ، ومملكتى أوده والبنغال الإسلاميتين ونشوء طائفة السيخ . ولسنا بقادرين أن نخبرك هنا فى أى تفصيل ، كيف شقت الشركة البريطانية طريقها نحو السيادة ، تارة بوصفها حليفاً لتلك الدولة وتارة لتلك الأخرى ، وأخيراً بوصفها قاهرة للجميع . وامتد سلطانها إلى أسام والسند وأوده . وأخذت خريطة الهند تتخذ صورة المعالم المألوفة لدى التلاميذ الإنجليز اليوم ، وهى رقاع كثيرة من الولايات الوطنية تضمها وتربطها بعضها إلى بعض الولايات الكبيرة التى تحت الحكم البريطانى المباشر .

والآن ، وبينما كانت هذه الإمبراطورية العجيبة التى لم يسبق لها مثيل فى التاريخ ، إمبراطورية الشركة تنمو فى المدة بين ١٨٠٠ ، ١٨٥٨ ، كان الانقلاب الميكانيكى يلغى فى غير ضجيج المسافة العظيمة التى كانت يوماً ما تفصل الهند عن بريطانيا ؛ وكان حكم الشركة فى الأيام القديمة قليل التدخل فى الحياة الداخلية للولايات الهندية ؛ وكل الذى فعلته أنها منحت الهند سادة أعلين أجانب ، ولكن الهند طالما تعودت حكم السادة الأعلين الأجانب ، ولطالما تمثلتهم حتى ذلك الحين ؛ فأما هؤلاء الإنجليز فكانوا ينزلون البلاد شباباً ويعيشون فيها معظم حياتهم ، ويصبحون جزءاً من نظامها . ولكن الانقلاب الميكانيكى كان قد أخذ فى تغيير حالة الأمور هذه . فأصبح أيسر على الموظفين البريطانيين أن يجتلبوا زوجاتهم وعائلاتهم ، وكفوا عن أن يصطبغوا بالصبغة الهندية ؛ وظلوا بشكل أوضح أجانب وغربيين وزاد عددهم . ثم إنهم شرعوا يتدخلون فى العادات الهندية تدخلا أقوى وأشد . ووصلت إلى البلاد أشياء سحرية فظيعة من أمثال التلغراف والسكك الحديدية . وأقبلت البعثات التبشيرية تعمل

بصورة مكدرة للنفوس . فلئن لم يتيسر لهم تحويل عدد وافر من الرجال عن دينهم ، لقد أوجدوا على الأقل المتشككة بين أتباع الديانات الأقدم عهداً . وشرع شبان المدن يصطغون بالصبغة الأوربية . ويا لرعب آبائهم العظيم !! . . .

ولطالما تحملت الهند من قبل تغييرات كثيرة أو حكاماً كثيرين . ولكن لم تتعرض أسانيها قط لمثل هذا النوع من التغيير الذى كانت تؤذن به الأمور .



(شكل ٢٠٣)

واستولى الجزع على كل من العلماء المسلمين والكهنة البراهمة على السواء ، ولم البريطانيون على تقدم الإنسانية . وأخذت المنازعات على المصالح الاقتصادية تزداد حدة مع ازدياد قرب أوربا ، ولقيت الصناعة الهندية وبخاصة الصناعة القطنية العهيدة كل الشر من التشريعات التي كانت توضع لمؤازرة أصحاب المصانع البريطانيين .

وارتكبت الشركة قطعة لا يصدقها عقل من الحماقة ، عجلت باندلاع انفجار شديد . فإن البقرة لدى البرهمي مقدسة ؛ والخنزير عند المسلمين نجس . وقد صرفت الشركة لجنودها الهنود بندقية جديدة تحتاج إلى خرطوشات مدهونة بالدهن ولا بد للرجال من قضمها قبل إطلاقها ؛ واكتشف الجنود أن الخراطيش مطلية بدهن البقر والخنازير . وأدى هذا الاكتشاف إلى التعجيل بتمرد جيش الشركة

الهندى ، وهى الحركة المسماة « الفتنة الهندية » (١٨٥٧) . فتمرد الجنود أولا فى ميروت . ثم ثارت دلهى تبغى استعادة إمبراطورية المغولى العظيم .

وعلى حين بغتة اكتشف الجمهور البريطانى بلاد الهند . فتنبهوا إلى تلك الحامية الصغيرة من الرعايا البريطانيين ، المقيمين على تلك المسافة الشاسعة فى تلك الأرض العجيبة ذات الغبار النارى والشمس المحرقة المنهكة ، وهم يقاتلون فى سبيل الحياة جماهير غفيرة سوداء تهاجمهم . فكيف بلغوا ذلك المكان ؟ وأى حق لهم هناك ؟ لم يسأل الجمهور البريطانى هذين السؤالين . فإن العطف على بنى الجلدة المعرضين للخطر يتغلب على مثل تلك الأسئله . وكانت ثمة مذابح وقساوات . وكانت (١٨٥٧) سنة قلق عظيم فى بريطانيا العظمى . واستطاع الزعماء البريطانيون ، وعلى الأخص لورنس ونيكولسون أن يقوموا بالعجب العجاب على يد فئات من الجنود قليلة لا تكاد تفى بشىء . فإنهم لم يكونوا يظلون جامدين فى أماكنهم حتى يحاصرهم العدو على حين ينظم المتمردون صفوفهم ويقوون نفوذهم ، فلو أنهم فعلوا ذلك لأدى بهم إلى فقد الهند فقداناً أبدياً . وكانوا كثيراً ما يغيرون علىّ عدو هائل ترجحهم كفته رجحاناً جارفاً . قال لورانس : « إن ورقة الإسباتى هنا هى الرابحة لا البستونى !! ... ورب فئة قليلة . . . »

ولزم جنود السيخ والجركا والبنجاب جانب البريطانيين . وظل الجنوب هادئاً . وإنا لنحيل القارئ على كتب تاريخية أخرى لتنبئه بمذابح كونبور ولكنو فى أوده ، وكيف استطاعت قوة بريطانية صغيرة يتفوق عليها العدو فى العدد تفوقاً عظيماً أن تحاصر دلهى وتأخذها عنوة . وما حل أبريل (١٨٥٩) حتى كانت آخر جمرات فى ذلك اللهيب قد أطفئت وديست بالأقدام ، وأصبح البريطانيون سادة على الهند من جديد ، ولم تكن تلك الفتنة بأى حال ثورة شعبية ، بل كانت مجرد تمرد فى الجيش البنغالى ، يرجع فى معظم شأنه إلى سوء تصرف موظفى الشركة صغار الأحلام . وقصة تلك الفتن مليئة بالأمثلة التى تشهد بما أحيط به اللاجئون البريطانيون من رعاية الهنود ورفقهم . غير أنها كانت تحذيراً ونذيراً .

وكانت النتيجة المباشرة للفتنة هى إلحاق الإمبراطورية الهندية بالتاج البريطانى .

وبمقتضى القانون المرسوم « قانون إصلاح حكومة الهند » ، أصبح الحاكم العام نائب ملك يمثل الملك ، وحل محل الشركة وزير للهند مسئول أمام البرلمان البريطانى . واستكمالا لهذا العمل حمل اللورد بيكونزفيلد ، الملكة فكتوريا على أن ينادى بها إمبراطورة للهند فى ١٨٧٧ .

وعلى هذه الأسس الخارقة للعادة ترتبط الهند وبريطانيا فى هذا الزمان . وما تزال الهند هى إمبراطورية المغولى العظيم بعد أن وُسعت أطرافها ، غير أن المغولى العظيم حلت محله جمهورية بريطانيا العظمى المتوجة . وأصبحت الهند دولة استبدادية مطلقة من غير عاهل مطلق . ويجمع الحكم فيها بين أضرار الملكية المطلقة وبين اللاشخصية وعدم المسئولية اللذين تتسم بهما الإدارة الديمقراطية فإن الهندى الذى له ظلامة لم يكن أمامه ملك ظاهر يلجأ إليه ، إذ أن إمبراطوره ليس إلا رمزاً ذهبياً . ولا بد له من أن يذيع التشهير فى انجلترة أو يوحى إلى من يقدم له فى مجلس العموم سؤالا . وكلما زادت مشغلة البرلمان بالشئون البريطانية ، نقص حظ الهند من التفاته ورعايته ، وزاد وقوعها تحت رحمة فئتها الصغيرة من كبار الموظفين .

وواضح أن دوام مثل هذا الحال كان من المحال . فإن الحياة الهندية أيا كانت عوامل التضييق عليها لم يكن بد من أن تتحرك أماماً مع بقية العالم . وكانت للهند صحافة آخذة فى النمو ، وعدد متزايد من المتعلمين المتأثرين بالأفكار الأوربية ، وإحساس متزايد بالألم المشترك ضد حكومتها . ولم يقابل هذا الوضع الجديد أى تقدم فى نوع الموظف البريطانى فى الهند وأساليب إعداده وتعليمه أثناء ذلك القرن . أجل إن تقاليده كانت عالية ، وكثيراً ما كان رجلا ذا صفات غير عادية ، ولكن النظام كان نظاما أحمق عقيم الخيال جامداً لا لين فيه . زد على ذلك ، أن القوة العسكرية التى كانت تقف من خلف هؤلاء الموظفين لم تتطور فى خلقها ولا فى ذكائها أثناء هذا القرن وأصبحت هناك طبقة بلغت من الركود الذهنى ما بلغته الطائفة العسكرية البريطانية .

فالرجل العسكرى البريطانى عندما واجهته الهند الجديدة الأكثر تعليما ،

وعندما أدرك فى قلق نقائصه التعليمية ودام يخشى المزوّ به ، — أظهر ميلا متزايداً إلى العنف التشنجى الذى كانت له بعض النتائج المستوجبة لشديد الأسى .

وقد تجلى فى تعاليم المستر كبلنج الداعية إلى العنف والتى سبق أن أشرنا إليها ، نوع من الإستصواب لقلة المعرفة وانعدام القدرة وضبط النفس .

ولم يكن نمو الامبراطورية البريطانية فى اتجاهات أخرى عدا الهند سريعاً إلى هذا الحد بأى حال أثناء النصف الأول من القرن التاسع عشر . وكانت فئة كبيرة من المفكرين السياسيين فى بريطانيا ميالة إلى اعتبار الممتلكات وراء البحار مصدراً لضعف المملكة . وتتطورت المستوطنات الأسترالية تطوراً بطيئاً ضعيفاً إلى أن عادت إليها الأهمية بعد اكتشاف مناجم غنية للنحاس فى ١٨٤٢ ومناجم للذهب فى ١٨٥١ ، وكانت التحسينات المتزايدة فى وسائل النقل تزيد فى رواج الصوف الأسترالى فى السوق الأوربية كذلك كندا فإنها لم تتقدم تقدماً ملحوظاً حتى ١٨٤٩ ، إذ كانت تعوق تقدمها الخلافا[illegible] سكانها الفرنسيين والبريطانيين ، وحدثت فيها ثورات خطيرة عديدة ، ولم [illegible] راتها الداخلية إلا فى ١٨٦٧ يوم صدر دستور جديد أنشىء بمقتضاه دومنيون كندا الاتحادى . وكانت السكك الحديدية هى صاحبة الفضل فى تغيير مستقبل كندا . فإنها مكنت كندا ، كما مكنت الولايات المتحدة من أن تمتد غرباً ، وأن تسوّق قمحها ومنتجاتها الأخرى فى أوربا ، وأن تبقى بالرغم من نمائها السريع المترامى — مجتمعاً واحداً فى لغته وتعاطفه ومصالحه . وكانت السكك الحديدية والسفينة البخارية والسلك التلغرافى والبحرى تُغيِّر فى الواقع كل أحوال التطور الإستعمارى .

وكانت مستقرات إنجليزية قد ابتدأت قبل ١٨٤٠ فى نيوزيلندة ، فتأسست شركة لأراضى نيوزيلندة لإستغلال ما قد يكون فى الجزيرة من إمكانيات . وفى ١٨٤٠ أضيفت نيوزيلندة أيضاً إلى الممتلكات الاستعمارية للتاج البريطانى . وكانت كندا كما لاحظنا أول الممتلكات البريطانية استجابة كريمة خصيبة للمحتملات الإقتصادية الجديدة التى فتحت أبوابها وسائل النقل الجديد . وسرعان ما أخذت جمهوريات أمريكا الجنوبية وبخاصة الأرجنتين تشعر فى تجارة ماشيتها وفى زراعة البن

فيها بتزايد قربها من السوق الأوربية . وكان رأس السلع التى تجذب دول أوربا حتى الآن إلى الأقاليم الهمجية (البربرية) غير المسكونة هى الذهب أو المعادن الأخرى ، والتوابل والعاج أو العبدان . ولكن تزايد السكان فى أوربا فى الربع الأخير من القرن التاسع عشر أخذ يجبر الحكومات على الرمى ببصرها فى الخارج بحثاً عن مواد الطعام الأساسية ، كما أن نمو الصناعة القائمة على العلم كان يخلق الطلب على مواد خام جديدة ، أمثال الشحوم والدهون بجميع أنواعها ، والمطاط ، ومواد أخرى كان الناس يغفلون شأنها حتى آنذاك . وكان جلياً أن بريطانيا العظمى وهولاندة والبرتغال كن يحصدن ثمار مزية تجارية عظيمة متزايدة نامية من سيطرتهن الجسيمة الضخمة على المنتجات المدارية ودون المداريه . وبعد ١٨٧١ شرعت ألمانيا ثم فرنسا وإيطاليا فيما بعد فى البحث عن مناطق للمواد الخام لم تلحق بأحد ، أو عن أقطار شرقية تستطيع أن تعود بالربح من وراء صبغها بالصبغة العصرية .

وبذلك ابتدأ تدافع جديد شمل الأرض قاطبة لامتلاك البلاد التى لم ترزق حماية سياسية واقية ، ولم ينج منه إلا البلاد الأمريكية حيث كان مبدأ مونرو يحول عند ذلك دون مثل هذه المغامرات . وكانت قارة إفريقيا تقع على مقربة من أوربا ، وهى مليئة بإمكانيات يشوبها الغموض . وكانت فى ١٨٥٠ قارة خفايا سوداء ؛ ولم يكن معروفاً منها إلا مصر والمناطق الساحلية . ولابد أن تظهرك إحدى الخرائط على ضخامة الجهالة الأوربية فى ذلك الزمان . ولابد لنا من كتاب يقارب فى الطول هذه « المعالم » حتى يفى بحق التقدير الواجب للقصة المذهلة التى تسرد ما أسداه المكتشفون والمغامرون من فضل على البشرية حين اخترقوا لأول مرة غيابة الظلماء هذه ، وتذكر كذلك الوكلاء السياسيين والمديرين والمتجرين والمستوطنين ورجال العلم الذين ترسموا خطاهم . وكشف القناع عن أجناس من الناس عجيبة من أمثال الأقزام ودواب غريبة كالأوكابى (okabi)[1] . وثمار وأزهار وحشرات مدهشة وأمراض وبيلة ومناظر للغابات والجبال تذهب بالألباب

---

(١) الأوكابى أو الأقاب : حيوان من ذوات الأربع يشابه الزرافة يعيش فى أفريقيا الغربية .
(المترجم)

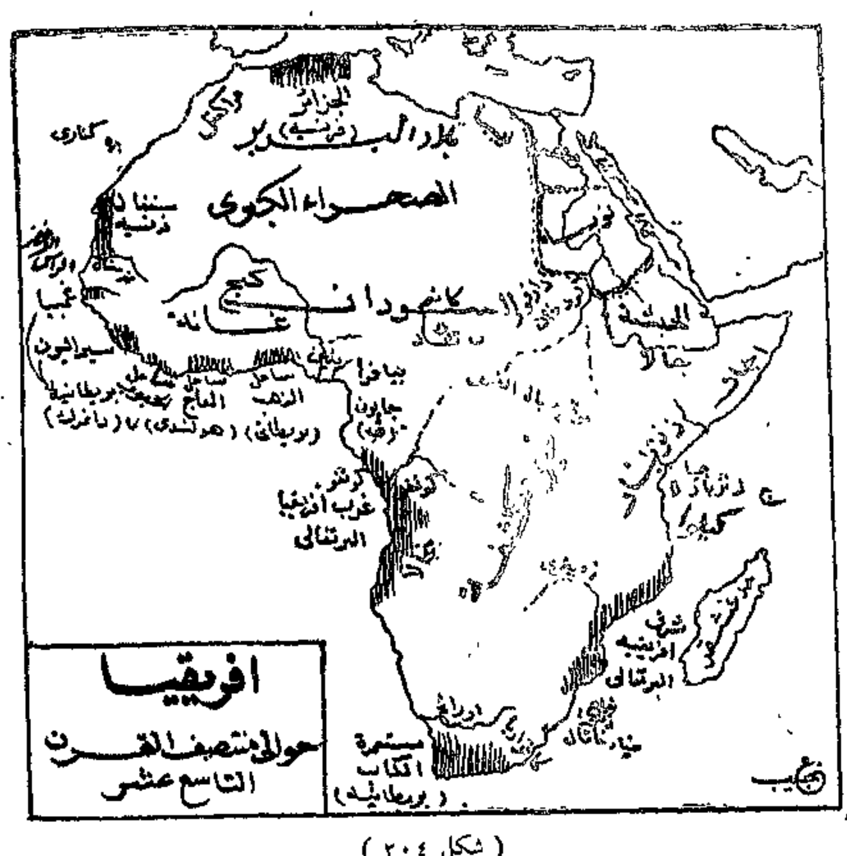
وبحار داخلية ضخمة وأنهار هائلة ومساقط مائية عظيمة كشف الستر عنها جميعاً — وهى وحدها عالم جديد بأكمله . بل لقد كشفت فى زمبابوى آثار لحضارة بائدة غير معروفة ، وهى ثمرة جهود قام بها فى نصف الكرة الجنوبى شعب قديم .

وإلى هذا العالم الجديد هبط الأوربيون ، فوجدوا البنادق موجودة من قبل فى أيدى تجار الرقيق العرب ، ووجدوا حياة الزنوج فى اضطراب وخلل . وعند ١٩٠٠ كانت كل إفريقيا قد رسمت خريطتها وارتيدت أرضها وقدرت قيمها وقسمت بين الدول الأوربية ؛ أجل قسمت ، ولكن فى كثير من الزمجرة والشحناء إلى أجزاء تركت كل دولة قلقة أو متذمرة غير راضية ، ولكن التقسيم ظل على حاله تقريباً حتى ١٩١٤ . ولم يراع أحد إلا قليلا مصالح الأهالى الوطنيين أثناء هذا التدافع . نعم إن النخاس العربى قد أبيد أكثر مما طرد ، ولكن الجشع فى طلب المطاط الذى كان منتجاً طبيعياً يجمعه الوطنيون قهراً فى الكنغو البلچيكية — وهو جشع بلغ حدّ التسخط بشح ملك البلچيك الذى لا رحمة فيه — والتصادم بين المديرين الأوربيين الأغمار غير المحنكين وبين السكان الوطنيين ، كانا أمرين أفضيا إلى فظائع شنيعة . وليست هناك دولة أوربية واحدة تستطيع أن تقول إن يديها طاهرتان تماماً من هذه الجرائم .

ولسنا بقادرين أن نذكر لك هنا فى أى تفصيل كيف استطاعت بريطانيا أن تستولى على مصر ١٨٨٣ [1] ، وظلت فيها بالرغم من أن مصر كانت من الناحية الرسمية (التكنيكية) جزءاً من الإمبراطورية التركية — ولا كيف أوشك هذا التخاطف أن يؤدى إلى الحرب بين فرنسا وبين بريطانيا العظمى فى ١٨٩٨ ، عندما حاول كولونيل فرنسي بعينه اسمه مارشان وهو يعبر إفريقيا الوسطى من الساحل الغربى أن يستولى عند فاشودة على النيل الأعلى . فأما فى أوغندة فإن البعوث الكاثوليكية الفرنسية والأنجليكانية الانجليزية نشرت صورة للمسيحية مثقلة بأعباء الروح النابليونية ، وملحة فى النهاية على أدق أنواع الفروق فى العقيدة ، إلى حد أن

---

(١) الصحيح هو ١٨٨٢ . (المترجم)

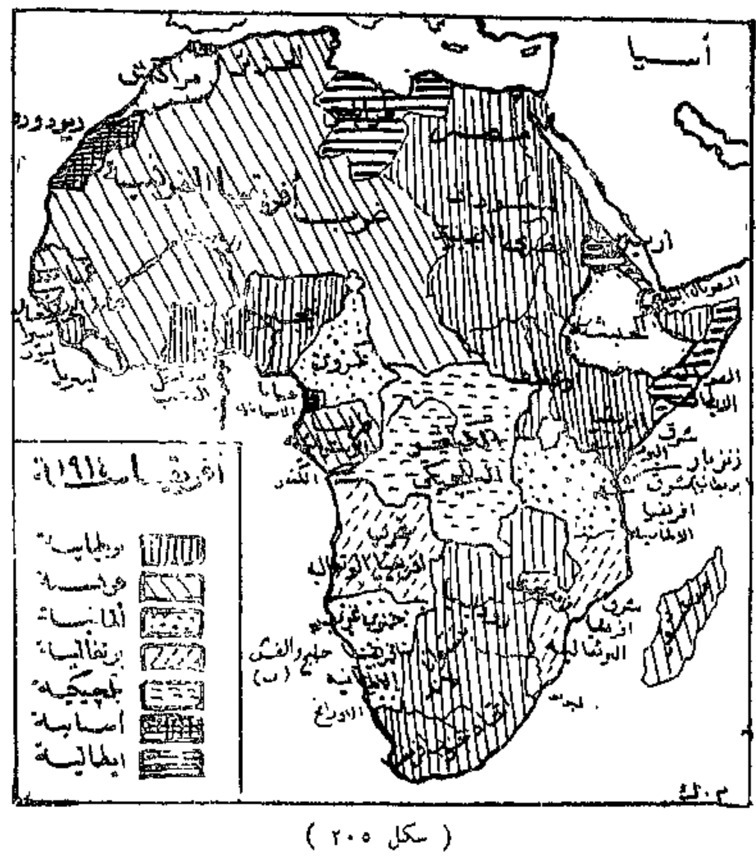


(شكل ٢٠٤)

مدينة منجو عاصمة أوغندا بعد سنوات قلائل من ظهور أول بصيص للحضارة الأوربية فيها ، قد ملئت شوارعها بالقتلى من « البروتستانت » و « الكاثوليك » ، الذين يعسر عليك أعظم العسر أن تميز بينهم وبين المقاتلة غير الروحانيين فى النظام القديم .

كذلك لا نستطيع أن نخبرك كيف سمحت الحكومة البريطانية فى البداية للبوير أو المستقرين الهولنديين بمنطقة نهر الأورانج وفى بلاد الترنسفال ، بأن يقيموا جمهوريتين مستقلتين بالمناطق الداخلية بجنوب إفريقيا ، ثم عادت فندمت على ذلك وضمت إليها جمهورية الترنسفال فى ١٨٧٧ ، ولا كيف قاتل بوير الترنسفال من أجل الحرية وفازوا بها بعد معركة تل ماجوبا ١٨٨١ . ولا كيف تسببت حملة صحفية ملحة فى جعل معركة تل ماجوبا تتقرح فى ذاكرة الشعب الإنجليزى . ونشبت حرب

مع كل من الجمهوريتين فى ١٨٩٩ ، وهى حرب ثلاث سنوات باهظة النفقة على الشعب البريطانى ، إنتهت آخر الأمر بتسليم الجمهوريتين كلتيهما لبريطانيا .



(شكل ٢٠٥)

ولكن فترة إخضاعهما لم تطل . فقد حدث فى ١٩٠٧ بعد سقوط الحكومة الاستعمارية التى قهرتهما ، أن تناول الأحرار مسألة جنوب إفريقيا ، وأصبحت هاتان الجمهوريتان السابقتان حرتين وصارتا برغبتهما تقريباً أختين (صنوين) لمستعمرة الرأس وناتال فى اتحاد احتلافى (كنفدرالى) يضم كل ولايات جنوب إفريقيا بوصفها جميعاً جمهورية واحدة تحكم نفسها بنفسها تحت التاج البريطانى .

وانتهى العمل فى تجزئة إفريقيا واقتسامها فى مدى ربع قرن . وظلت أقطار ثلاثة صغيرة نسبياً غير ملحقة بأحد هى : ليبريا ، وهى مستقرة على الساحل الغربى للرقيق الزنوج المعتقين ؛ ومراكش ويحكمها سلطان مسلم ؛ والحبشة وهى قطر همجى ،

به نوع من المسيحية قديم عجيب ، وقد نجحت فى الاحتفاظ باستقلالها سلبماً من يد إيطاليا فى معركة عدوة فى ١٨٩٦ .

– السابقة الهندية فى آسيا

من العسير أن يعتقد الإنسان أن أية جمهرة عظيمة من الناس قد قبلت حقا هذا الصبغ المتعجل لخريطة إفريقيا بالألوان الأوربية ، باعتباره تسوية مستديمة جديدة لشئون العالم ، على أن من واجب المؤرخ أن يسجل أنّ التقسيم قُبل على ذلك الوجه .

ولم يكن هناك من وراء العقل الأوربى فى القرن التاسع عشر إلا خلفية تاريخية ضحلة ، ولم يكد أن يكون لديه أى شعور بالمقومات التى تكون نظاماً سياسياً مستديماً ، كما أن العقل الأوربى لم يتعود النقد العميق . وإن المزايا الوقتية البحتة التى أضفتها بداية الثورة الميكانيكية فى الغرب على الدول الأوربية الكبرى دون سائر العالم القديم وآثرتها بها ، كانت تعد فى نظر الناس ، ممن يجهلون كل الجهل غزوات المغول العظيمة فى القرن الثالث عشر وما عقبه من قرون ، أمارات تدل على سيادة الأوربيين المستديمة المحققة على الجنس البشرى . ولم يدرك أحد منهم قابلية العلم وثماره للانتقال . ولم يدر بخلدهم أن الصينيين والهنود كان فى مستطاعهم أن يواصلوا العمل فى الأبحاث بنفس الاقتدار الذى عليه الفرنسيون أو الإنجليز . فإنهم كانوا يعتقدون أن هناك نوعاً من الدافع الذهنى الفطرى موجوداً فى الغرب ، ونوعاً من التراخى والمحافظة الفطريين فى الشرق ، يؤكدان للأوربيين السيادة الأبدية على العالم .

وكانت عاقبة هذا الجنون هى أن وزارات الخارجية الأوربية المختلفة نصبت نفسها لا لمجرد منافسة البريطانيين فى التدافع إلى الأقاليم الهمجية غير المتطورة على سطح الكرة الأرضية ، بل نشطوا كذلك لتقطيع أقطار آسيا الممدنة الآهلة بالسكان ، كأنما لم تكن هذه الشعوب أيضاً لتزيد على مواد خام تنتظر الاستغلال الأوربى ! ! . . فإن استعمار الطبقة البريطانية الحاكمة للهند ، ذلك الاستعمار المقلقل فى داخله الباذخ

فى ظاهره ، فضلا عن أملاك الهولنديين الواسعة المربحة فى جزائر الهند الشرقية ملأت قلوب الطبقات الحاكمة والتجارية فى الدول الأوربية المنافسة بأحلام عظمة مماثلة للسيادة فى بلاد أخرى مثل فارس ، والإمبراطورية العثمانية المفككة ، وفيما بقى من الهند وفى الصين واليابان .

وفى أثناء السنوات الختامية للقرن التاسع عشر — كما يستطيع القارئ أن يحقق ذلك بفحصه أدب (: مؤلفات) تلك الفترة المتداول — كان الناس يفترضون أن من الطبيعى الذى لا مفر منه أن يقع العالم بأجمعه تحت السيطرة الأوربية . وأعد الذهن الأوربى نفسه — فى شىء من روح الخير المتكرهة — لتناول ما سماه المستر رديارد كبلنج « واجب الرجل الأبيض » وأعنى به السيادة على الأرض . ونصبت الدول نفسها لهذا المشروع وهى فى حالة منافسة متدافعة بالمناكب مع أن سكانها بأرض الوطن متعلمون نصف تعليم أو جهلة أميون ، وليس فى جعبتها غير فئة قليلة من الرجال لا تزيد على الحثوة عداً أولا تتجاوز فى أقصاها بضعة آلاف ، مشتغلين بالبحث العلمى ، بينما نظمها السياسية الداخلية فى حالة توتر أو تغير تشنجى ، ونظامها الاقتصادى ضعيف متداع ، كما أنه وقتى طارئ غير مستقر إلى أقصى حد ، وبينما دياناتها قد بلغت من التصدع والانحلال كل مبلغ . كانوا يعتقدون اعتقاداً حقيقياً أن فى الإمكان إخضاع سكان آسيا الشرقية الهائلى العدد إخضاعاً مستديماً لمثل أوربا هذه ...!!...

ولا يزال يوجد فى العالم حتى هذه الأيام رجال كثيرون يفوتهم أن يدركوا الحقائق الضرورية فى هذا الموقف . فإنهم لا يدركون أن معدل الذكاء فى آسيا لا يقل فى نوعه ذرة واحدة عن معدل ذكاء العقل الأوربى . وأن التاريخ يظهر الآسيويين وهم من الجرأة والقوة والكرم والتضحية بالذات والاقتدار على العمل الحشدى القوى كالأوربيين سواء بسواء ؛ وأنه يوجد فى هذا العالم — وسيظل يوجد — من الآسيويين عدد عظيم يفوق كثيراً عدد الأوربيين .

وقديماً كان من العسير على الدوام الحيلولة دون تسرب العرفان من شعب إلى آخر ، فأما اليوم فذلك من أعظم المحال . فالظروف العصرية الراهنة تجعل المساواة الشاملة بين أجزاء العالم عامة فى الشئون الاقتصادية والتعليمية أمراً لا مندوحة منه على

مر الزمان . وإن هناك لدعوة فكرية وخلقية لاستنهاض الآسيويين فى هذا الزمان . فإن ما أفسدته فترة الانحراف اليسيرة التى امتدت قرناً أو ما يقارب القرن ، تصلحه عشرات قليلة من السنين . إذ يوجد فى العصر الحاضر مثلا ، مقابل كل إنجليزى يعرف الصينية معرفة تامة ، أو له أى إلمام وثيق بالحياة الصينية والفكر الصينى ، مئات من الصينيين يعلمون كل شىء يعلمه الإنجليز .

وربما كان رجحان ميزان العرفان فى ناحية الهند أكبر من هذا كثيراً . فالهند تبعث الطلاب إلى بريطانيا ؛ على حين ترسل بريطانيا إلى الهند الموظفين — وهم فى معظم الحالات رجال غير مدربين على الملاحظة العلمية . وليس هناك منظمة أياً كانت لإرسال الطلاب الأوربيين بوصفهم طلاباً — للتعمق فى تاريخ الهند ودراسة آثارها وثقافتها القديمة وشئونها الجارية وللقيام فيها بالأبحاث ؛ ولإيجاد وسيلة يتصل بها العلماء الهنود بالطلاب البريطانيين فى بريطانيا .

ومنذ (١٨٩٨) وهى سنة استيلاء ألمانيا على كياوتشاو واستيلاء بريطانيا على واى هاى واى وتأجير بورت آرثر للروسيا — تحركت الأحداث فى الصين أسرع مما تحركت فى أى قطر آخر فيما عدا اليابان . فإن كرها عظيماً للأوربيين قد سرى فى الصين سريان النار ، ونمت جمعية سياسية ترمى إلى طرد الأوربيين ، هى جمعية البوكسر[1] ، التى تحولت إلى العنف فى ١٩٠٠ . وكان هذا اندلاعاً للهيب الغضب والشر على صورة قديمة الطراز تماماً . ففى سنة ١٩٠٠ قتل البوكسر ٢٥٠ أوربياً كما قتلوا فيما يقال ما يقارب ٣٠٠٠٠ مسيحى . وكانت الصين ، ولم يكن ذلك لأول مرة فى التاريخ ، تحت نفوذ إمبراطورة أرملة . وكانت امرأة جاهلة ، ولكنها كانت على درجة عظيمة من قوة الخلق كما كانت تعطف على البوكسر عطفاً وثيق العرى . فناصرتهم وحمت من تسببوا فى الاعتداء على الأوربيين . وكان كل ذلك هو ما عسى أن يحدث إزاء الهون فى ٥٠٠ ق . م أو ما يقاربها .

ووصلت الأمور إلى أزمة فى ١٩٠٠ . فإن البوكسر تزايد خطرهم وتهديدهم

---

(١) عن البوكسر وجميع شئون آسيا والصين انظر للمترجم : « آسيا والسيطرة الغربية » تأليف السردار پانيكار طبع دار المعارف لوزارة الثقافة والإرشاد . (المترجم)

للأوربيين فى الصين . واتخذت محاولات ترمى إلى إرسال حراس إضافيين إلى السفارات الأوربية فى بيكين ، ولكن لم تكن لذلك من نتيجة إلا التعجيل بتفاقم الامور . فإن الوزير الألمانى[١] قد قتله بالرصاص فى شوارع بيكين جندى من الحرس الإمبراطورى . واجتمع بقية الممثلين الدبلوماسيين الأوربيين ، وجعلوا من السفارات التى كانت ذات موقع أنسب وأحسن من غيرها ـ حصناً وقاوموا حصاراً دام شهرين . ومن ثم سُيرت على بيكين قوة متحدة متحالفة بقيادة جنرال ألمانى ، وخلصت السفارات مما كانت فيه ، وفرت الإمبراطورة إلى سيان فو ، وهى عاصمة تاى تسونج القديمة فى شانسى . وارتكب بعض الجنود الأوربيين فظائع خطيرة فى السكان المدنيين الصينيين وهذا يرجعنا إلى قرابة مستوى ١٨٥٠ ، على وجه التقريب .

ثم قامت الروسيا عقب ذلك بضم منشوريا إليها ... ثم نشب نزاع بين الدول . ثم غزو بريطانى فى ١٩٠٤ لبلاد التبت ، وكانت حتى ذلك الحين قطراً محرماً . ولكن الشىء الذى لم يظهر على سطح هذه الأحداث ، والذى جعل كل هذه الأحداث مختلفة اختلافاً جوهرياً ، إنما هو أن الصين كانت تحتوى آنذاك على عدد ضخم من الناس المقتدرين الذين تعلموا تعليماً أوربياً وألموا بالعرفان الأوربى .

وهدأت فتنة البوكسر ، ثم أخذ سلطان هذا العامل الجديد يظهر فى الحديث عن إنشاء دستور ١٩٠٦ ، وفى منع تدخين الأفيون ، وفى الاصلاحات التعليمية . وظهر إلى عالم الوجود فى ١٩٠٩ دستور على الطراز اليابانى ، يجعل الحكم فى الصين ملكياً مقيداً . ولكن الشعب يأبى أن تُصبَّ الصين فى قالب يابانى ، ومن ثم فقد استمرت الحركة الثورية . وكانت اليابان قد عمدت أثناء معاودتها تنظيم شئونها تمشياً منها مع مزاجها الخاص ، إلى تحويل وجهها إلى الغرب ذى النظام الملكى ، ولكن الصين كانت تنظر عبر المحيط الهادى . وفى ١٩١١ ابتدأت الثورة الصينية الجوهرية . وفى ١٩١٢ تنازل الإمبراطور عن العرش وأصبح أكبر مجتمع فى العالم جمهورية . وكان خلع الإمبراطور هو فى الوقت ذاته خلع أسرة مانشو ، ولم تعد

---

(٢) والوزير الألمانى هو البارون فون كتلر وقتل معه أيضاً مستشار السفارة اليابانية . (المترجم)

الضفيرة المغولية التى كان يرسلها الصينيون منذ ١٦٤٤ شيئاً إلزامياً على الناس .

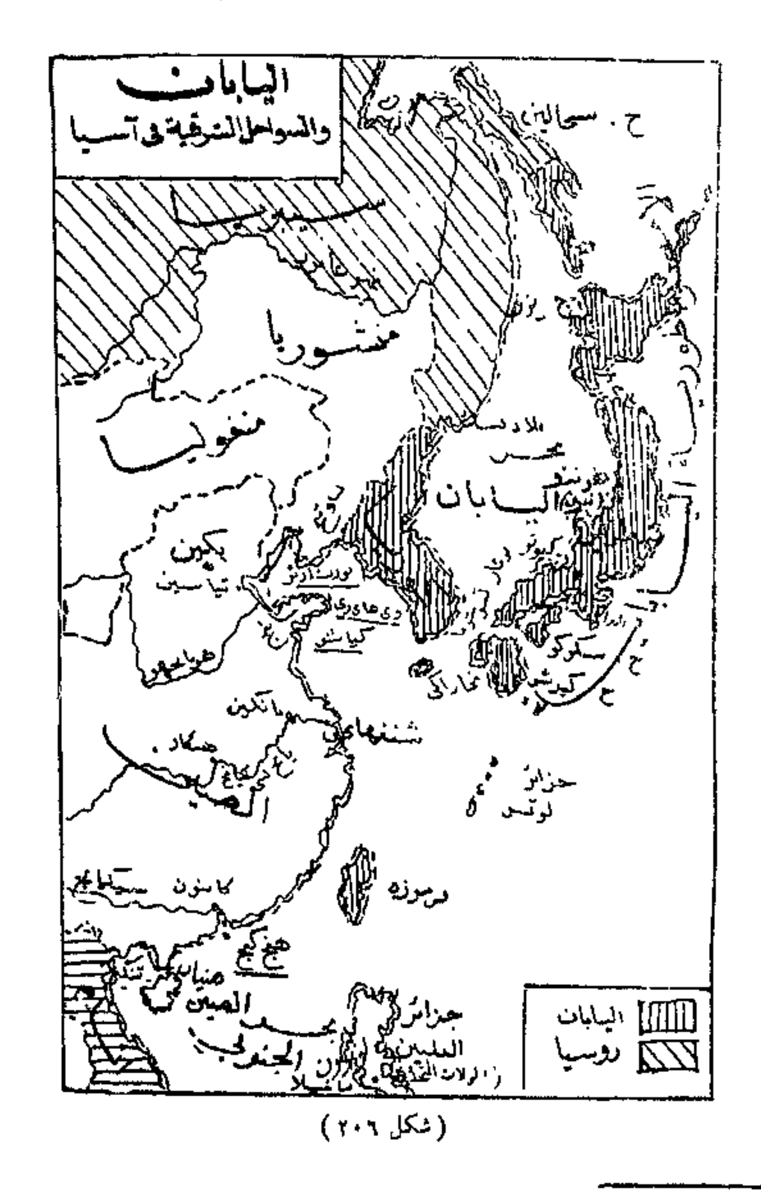
ومن الراجح أنه فى هذا الزمن الراهن يوجد ببلاد الصين من المادة الذهنية المتعقلة الجيدة ومن الرجال المخلصين الذين يشتغلون فى صبغ الحضارة الصينية بالصبغة العصرية وإعادة تنظيم تلك الحضارة عدد أكبر مما قد نراه موجهاً لمصلحة أى شعب أوربى بمفرده . وسوف يكون للصين للفور كتابة عصرية عملية وصحافة وجامعات عصرية جديدة عفية ، ونظام صناعى قد أعيد تنظيمه ، ثم هيئة نامية من البحاثين فى العلم والاقتصاد ؛ وسوف يطلق سراح ما ركب فى شعبها الهائل من الاجتهاد الطبيعى والمهارة الفطرية حتى يتعاون على قدم المساواة مع العالم الغربى .

نعم ما يزال أمامها بعد صعاب داخلية عظيمة ؛ وهو أمر لا يستطيع إنسان أن يقضى فيه برأى . ولا مندوحة من مرورها فى دور حرب أهلية وفتنة . ومع هذا فقد لا يكون بعيداً ذلك الزمان الذى تصبح فيه « الولايات الصينية المتحدة » يداً واحدة مع الولايات المتحدة الأمريكية ومع أوربا المتسالمة المتصالحة ، وتكون معواناً فى إقامة صرح السلام المنظم فى العالم .

١٤ – تاريخ اليابان

غير أن القطر السباق الى الانتعاش بين الشعوب الأسيوية لم يكن مع ذلك هو الصين بل اليابان . وقد تعجلنا مسير قصتنا حين تحدثنا عن الصين . ولم تلعب اليابان حتى الآن إلا دوراً صغيراً فى هذا التاريخ ؛ فإن حضارتها المنعزلة لم يتهيأ لها أن تقوم بنصيب كبير فى الصوغ العام لمصائر البشرية ؛ وقد تلقت من الدنيا الشىء الكثير ، ولكنها لم تعطها إلا قليلا . ولعل السكان الأصليين فى الجزائر اليابانية كانوا شعباً شمالياً له وشائج نوردية بعيدة ، وهم الأينو(Ainu)المشعرون . ولكن اليابانيين الأقحاح إنما ينتسبون إلى العنصر المغولى . وإنهم ليشبهون من الناحية الجثمانية الأمرنديين (Amerindians) (أى الهنود الأمريكيين) ، وهناك أوجه شبه غريبة بين خزف اليابان قبل التاريخى وكثير غيره من الأشياء وبين ما يماثلها من المنتجات المصنوعة فى

بيرو . وليس من المستبعد أنهم يمثلون انسيابا إلى الخلف متراجعاً عن تيار ثقافة العصر الحجرى الحديث (النيوليثى) فى مسيرها عبر المحيط الهادى ، ولعلهم امتصوا كذلك من الجنوب عنصراً من الملايو أو حتى عنصراً من النجريتو[1] .



(شكل ٢٠٦)

(١) النجريتو : أو النجريللو : شعب متأخر من الأقزام يسكن شبه جزيرة الملايو وجزائر الفيليبين . (المترجم)

ومهما يكن أصل اليابانيين ، فليس ثمة شك فى أن مدنيتهم ، وأن كتابتهم وأن تقاليدهم الأدبية والفنية مشتقة من الصينية . كانوا أخذوا ينفضون عنهم غبار الهمجية فى قرنى الحقبة المسيحية الثانى والثالث ، وكان من أقدم أعمالهم — بوصفهم شعباً — خارج بلادهم ، غزوهم لبلاد كوريا تحت حكم ملكة متطرفة التعصب فى وطنيتها ، يلوح أنها لعبت دوراً كبيراً فى تأسيس حضارتهم . وتاريخهم تاريخ شائق رومانسى ؛ فإنهم طوروا نظاماً إقطاعياً وتقاليد للفروسية ، وما هجماتهم على كوريا والصين إلا معادل شرقى لحروب الإنجليز فى فرنسا .

وقد حُملت اليابان لأول مرة على الاتصال بأوربا فى القرن السادس عشر . إذ حدث فى ١٥٤٢ أن بعض البرتغاليين وصلوا إلى برها فى سفينة صينية ، وفى ١٥٤٩ شرع مبشر يسوعى اسمه فرانسيـــس زاڤير يقوم بالتبشير هناك . وتقول بيانات اليسوعيين فى ذلك الزمان أن بلادهم بلاد خربتها الحروب الإقطاعية المستديمة تخريباً كبيرا . وظلت اليابان ردحا من الزمان ترحب بالعلاقات مع أوربا ، واستطاعت الإرساليات المسيحية أن تدخل فى الدين المسيحى عدداً كبيراً من الناس . وأصبح شخص بعينة اسمه وليم آدمز من جلنجهام فى كنت ، أوثق مستشار أوربى تطمئن له نفس اليابانيين ، وهو الذى علمهم كيف يبنون السفن الكبيرة . وقام اليابانيون بسفن مبنية فى اليابان برحلات إلى الهند وبيرو .

ثم نشأ شقاق معقد بين الدومينيكيين الأسبان واليسوعيين البرتغاليين . وبين البروتستانت الإنجليز والهولنديين ، وكان كل يحذر اليابانيين من خُطط الآخرين السياسية الخبيثة . وابتسم الحظ يوماً لليسوعيين وأتاح لهم دوراً من أدوار التسلط والفوز على منافسيهم فعمدوا إلى اضطهاد البوذيين وإهانتهم فى شىء كثير من الشراسة . واشتبكت هذه الفتن مع منازعات الزمان الإقطاعية . وانتهى اليابانيون إلى الحكم بأن الأوربيين ومسيحيتهم آفة لا تطاق ، وأن المسيحية الكاثوليكية بوجه خاص ليست إلا مجرد ستار يخفى وراءه أحلام البابا السياسية وأحلام ملك أسبانيا السياسية — الذى كان يملك من قبل جزائر الفلبين ، وحدث اضطهاد حاسم عظيم للمسيحيين ؛ وفى ١٦٣٨ أصبحت اليابان مقفلة إقفالا تاماً فى وجوه الأوربيين

باستثناء مصنع هولاندى تعس على جزيرة ديشيا الضئيلة فى ميناء نجازاكى ، وظلت مقفلة زماناً يربى على مئتى سنة .

وتعرض الهولنديون القاطنون ديشيا لإهانات لا تكاد تطاق ولم يكونوا يتصلون بأى يابانى اللهم إلا الموظفين المختصين المعينين للتعامل معهم . وظل اليابانيون قرنين من الزمان منقطعين تمام الانقطاع عن بقية العالم كأنما كانوا يعيشون على ظهر كوكب آخر . وكان محظوراً عليهم أن يبتنوا فلكا يكبر عن محض زورق ساحلى . ولم يكن فى مستطاع أى يابانى أن يسافر إلى الخارج ، ولا أى أوربى أن يدخل البلاد .

وظلت اليابان قرنين وهى بمنآة عن تيار التاريخ ومجراه الأكبر . وقد واصلت العيش فى حال من الإقطاع الجذاب تنعشها المنازعات الدموية . وكان فيها جماعة من السكان يقاربون الخمسة فى المئة هم الساموراى (أعنى رجال الحرب) والنبلاء وعائلاتهم ، يظلمون سائر السكان ظلماً فاحشاً لاحد له . وكان العامة جميعاً يجثون كلما مربهم أحد من النبلاء ؛ فإن إبداء الرجل أيسر قدر من عدم الاحترام للنبيل معناه أن يضربه « ساموراى » أى جنود ذلك النبيل بالسياط إلى أن يقضى نحبه . وكانت الطبقات الممتازة تعيش عيش المغامرات الرومانسية التى لا يتسرب إليها أى شعاع من الجدة ينقذها مما هى فيه من إملال ؛ كانو يعشقون ويتقاتلون ويتمسكون بضروب من فعال الشرف الممتازة — ولعل ذلك كان يدخل أشد السآمة إلى أذهان الأذكياء منهم . ومن اليسير علينا أن نتصور تعاسة الذهن الطُّلعة ، حين يعذبه الشوق إلى الرحلة والمعرفة وهو مصفد بالأغلال فى تلك جزائر الرومانس الجوفاء .

وفى نفس الحين كان العالم الكبير فى الخارج يسير قُدُماً نحو رُؤى أرحب وقوى أحدث . وتكاثر عدد السفن العجيبة التى تمر برؤوس الأراضى اليابانية الممتدة فى البحر ، وكانت بعض السفن تتحطم فى بعض الأحايين ويحمل ملاحوها إلى الشاطئ . وعن طريق ديشيا الحلقة الوحيدة التى تصلهم بالعالم الخارجى ، جاءتهم النذر تقول إن اليابان لا تساير قوة العالم الغربى . وفى ١٨٣٧ دخلت خليج يدو سفينة رافعة علماً غريباً من الخطوط والنجوم ، تحمل بعض بحارة يابانيين التقطتهم

وقد قذف بهم التيار بعيداً فى المحيط الهادى . وأطلق الساحل على السفينة قذيفة مدفع طردتها خارج الميناء .

وسرعان ما عادت هذه الراية إلى الظهور على سوارى سفن أخرى . جاءت إحداها فى ١٨٤٩ للمطالبة بإخلاء سبيل ثمانية عشر ملاحاً أمريكياً تحطمت بهم سفينتهم . ثم وصلت فى ١٨٥٣ أربع سفن أمريكية بقيادة القومودور پرى perry ، ورفضت أن تنسحب وألقى القومودور مراسيه فى مياه محظورة ، وأرسل الرسائل إلى الحاكمين اللذين كانا آنذاك يشتركان فى حكم اليابان . وفى ١٨٥٤ عاد ومعه عشر سفن مدهشة يدفعها البخار ، وهى مزودة بالمدافع الضخام ، فقدم مقترحات يطلب بها التجارة والتبادل والتواصل . ولم يكن لليابانيين قِبَلٌ بمقاومتها . ونزل إلى البر يحف به حرس مكون من خمسمئة رجل لكى يوقع المعاهدة . واصطفت الجماهير وهى بين مصدق ومكذب ووقفت ترقب هذه البعثة الوافدة من العالم الخارجى وهى تشق الشوارع .

ثم قفت الروسيا وهولندة وبريطانيا خطوات أمريكا . ودخل الأجانب إلى بلاد اليابان وتبع ذلك وقوع المنازعات بينهم وبين الأذكياء من سراة اليابان . فقتل أحد الرعايا البريطانيين فى إحدى مشاجرات الشوارع ، وأطلق البريطانيون مدافعهم على إحدى المدن اليابانية فى ١٨٦٣ . ورأى أحد كبار النبلاء الذى تستشرف أملاكه مضيق شيمونوسيكى ، أن من المناسب أن يطلق النار على السفن الأجنبية ، فكان عاقبة ذلك أن قام أسطول ثان مكون من سفن بريطانية وفرنسية وهولندية وأمريكية بقذف بطارياته بالقنابل وتدميرها وتشتيت شمل سائفته . وأخيراً جاءت عمارة بحرية متحالفة (١٨٦٥) فألقت مراسيها خارج أوساكا ، وفرضت على اليابان التصديق على المعاهدات التى فتحت أبوابها للعالم .

وكان تحقير هذه الأحداث وإذلالها لليابانيين شديداً حاراً ، ويظهر أن خلاص الشعوب ينحصر إلى حد كبير فى هذه الإهانات . فقام اليابانيون قومة تجلى فيها العجب العجاب من النشاط والذكاء ونصبوا أنفسهم لرفع ثقافتهم ونظامهم إلى مستوى الدول الأوربية . ولم يحدث قط فى التاريخ الإنسانى بأجمعه أن خطا شعب

خطوة كالتى خطاها الشعب اليابانى يوم ذاك . ذلك أنها كانت فى ١٨٦٦ شعباً ينتمى إلى القرون الوسطى ، وكانت صورة هزلية مضحكة للنظام الإقطاعى الرومانسي المتطرف . وفى ١٨٩٩ كان شعبها قد أمسى شعباً تام الاصطباغ بالصبغة الغربية ، على قدم المساواة مع أشد الدول الأوربية تقدما ، بينما كانت تسبق الروسيا بمراحل كثيرة . فأزالت من الأذهان تماما ذلك الاعتقاد القائل بأن آسيا متأخرة عن أوربا بطريقة قاطعة ، تأخراً لا رجاء فى إصلاحه . كما أن جهودها الجبارة جعلت التقدم الأوربى يبدو - بالمقايسة - متوانيا عارضاً .

ويضيق المقام هنا عن الاسهاب فى ذكر وقائع حرب اليابان مع الصين فى ١٨٩٤ - ١٨٩٥ . وبحسبك أن تعلم أنها كشفت عن مدى إصطباغها بالصبغة الغربية . فكان لها جيش غربى ذو كفاية وتدريب ، وأسطول سليم التكوين وإن يكن صغيراً . ولكن أهمية نهضتها ، وإن كانت تقدرها بريطانيا والولايات المتحدة حق قدرها ، وهما الدولتان اللتان كانتا تعاملانها بالفعل كأنما هى دولة أوربية ، لم تفهمها الدول الكبرى الأخرى المشتغلة بالبحث عن « هند » عظيمة أخرى فى قارة آسيا . فكانت الروسيا تشق طريقها دفعا خلال منشوريا إلى كوريا ، وكانت فرنسا قد وطدت بالفعل أقدامها فى الجنوب الأقصى فى تونكين وأنام ، وكانت ألمانيا تتربص تربص الجياع بحثا عن مستقر تركن إليه . واتحدت الدول الثلاث لمنع اليابان من اجتناء أية ثمرة من الحرب الصينية ، ولمنعها بوجه خاص من توطيد أقدامها على أرض القارة والمناطق المطلة على بحر اليابان . وكانت الحرب مع الصين استنفدت قواها ، فهددوها بإعلان الحرب عليها

وفى ١٨٩٨ أطبقت ألمانيا على الصين ، متخذة من مقتل اثنين من المبشرين ذريعة ، وضمت إليها جزءاً من مقاطعة شان تونج . وعند ذلك استولت الروسيا على شبه جزيرة لياوتونج ، وانتزعت من الصين قسراً قبولها مد خط سكة حديد سيبريا إلى بورت آرثر ؛ وفى ١٩٠٠ احتلت منشوريا . ولم تستطع بريطانيا أن تقاوم النزوع إلى المحاكاة ، فاستولت على ميناء واى هاى واى ١٨٩٨ .

وإن نظرة واحدة إلى الخريطة لتدلك كم كانت هذه الحركات مجلبة للفزع فى قلب كل يابانى ذكى الفؤاد . ولم تلبث تلك الحركات حتى أدت إلى حرب مع الروسيا تأذنت بحقبة جديدة فى تاريخ آسيا ، هى حقبة انتهاء فترة العجرفة الأوربية . ومن البديه أن الشعب الروسى لم يكن له علم ولا جريرة فى هذه التدابير التى كانت تُصنع له فى تلك الشقة السحيقة من العالم ، وكان رجال السياسية الروسيون الأكثر حكمة واتزانا يناهضون هذه الضربات الحمقاء ، ولكن عصابة من المغامرين الماليين كانت تحيط بالقيصر ؛ من بينهم بعض الغراندوقات من أبناء عمومته . وقد غرقوا حتى الأذقان فى مقامرتهم التى يرمون بها إلى نهب منشوريا والصين ، ومن ثم لم يسمحوا لأنفسهم بأن يتراجعوا عن خطتهم أدنى تراجع . ومن ثم شرعت اليابان فى إرسال الجيوش الجرارة من الجنود اليابانية عبر البحر إلى بورت آرثر وكوريا ، ونهضت الروسيا لإرسال عدد لاحصر له ولا نهاية من أحمال القطارات المثقلة بالفلاحين الروسيين على طول خط سكة حديد سيبريا لكى يموتوا فى ميادين القتال النائية هذه .

وهزم الروسيون فى البر والبحر على السواء لما كانوا عليه من سوء القيادة وعدم الأمانة فى التموين بالميرة والذخيرة . ودار أسطول الروسـيا بالبلطيق حول إفريقيا لكى يُحطم عن آخره فى مضيق تسوشيما . وقامت حركة ثورية بين العامة من سكان الروسيا الذين أحنقتهم هذة المذابح الجسيمة التى لا مبرر لها ، فأجبرت القيصر أن ينهى الحرب فى (١٩٠٥) ؛ فرد النصف الجنوبى من جزيرة سخالين التى استولت عليها الروسيا فى ١٨٧٥ ؛ وأخلى منشوريا وتنازل عن كوريا لليابان . فالرجل الأبيض قد شرع بذلك ينفض عن نفسه عبأه وتبعته فى آسيا الشرقية . وظلت ألمانيا مع هذا تمتلك كياوتشاو امتلاكا قلقاً غير مطمئن .

١٥ – ختام فترة التوسع وراء البحار

لاحظنا آنفاً كيف أن مغامرة إيطاليا فى الحبشة صُدت فى معركة عدوة الرهيبة فى ١٨٩٦ ، التى قتل فيها ما يربى على ثلاثة آلاف إيطالى وأخذ فيها أكثر من أربعة

آلاف أسير . وكان دور التوسع الاستعمارى على حساب الدول المنظّمة غير الأوربية قد أخذ يدنو من خاتمته دنواً بيناً . وهو دور ورط الشئون السياسية والاجتماعية لكل من بريطانيا العظمى وفرنسا وأسبانيا وإيطاليا وألمانيا والروسيا التى تحمل ما يكفيها من التعقيد والعُسر ، وشبكها بشئون أمم غريبة متكرهة غير قابلة للتمثيل . فاستولت بريطانيا على مصر (وإن لم تلحقها بها حتى ذلك الحين رسمياً) ، والهند وبورما وعدداً من تلك المشاكل الصغرى أضراب مالطة وشنغهاى ؛ وأبهظت فرنسا نفسها بتونكين وأنام بالإضافة إلى الجزائر وتونس ؛ واشتبكت أسبانيا حديثاً فى بلاد مراكش ؛ وخلقت إيطاليا لنفسها المتاعب بطرابلس ؛ وكان الاستعمار (الإمبريالية) الألمانى وراء البحار وإن بد مركزه « تحت الشمس » هزيلا — يعلل النفس بقدر جهده بفكرة القيام فى المستقبل بحرب مع اليابان على تياوتشاو .

وكانت كل هذه الأراضى « المحكومة » تضم سكاناً على مستوى من الذكاء والتعليم لا يقل إلا قليلا جداً عن مستوى القطر المتملك ، وكان تطور الصحافة الوطنية والوعى الذاتى والحشدىّ والمطالبة بالحكم الذاتى ، أمراً لا محيص منه فى كل حالة من هذه الحالات ، وكان رجال السياسة والتدبير فى أوربا فى شغل شاغل بالحصول على هذه الإمبراطوريات ، حتى لم تكن لديهم فكرة صحيحة عما ينتوون أن يفعلوه بها عند حصولهم عليها .

إن الديمقراطيات الغربية اكتشفت أثناء استيقاظها إلى ضياء الحرية أنها دول « استعمارية » ، فأربكها ذلك الاكتشاف كل الارتباك . وكان الشرق يفد إلى عواصم الغرب حاملا طلبات محيرة . ففى لندن أخذ الرجل الانجليزى العادى وهو أشد ما يكون شغلا بالاضطرابات والألغاز الاقتصادية ومسائل التأميم الحكم المحلى والتأميمات المحلية وإقامة اللا مركزية ، يجد من يقطع عليه الطريق ومن يغشى إجتماعاته العامة من عدد جم متزايد الكثرة من رجال ظاهرى الدماثة مهذبين ، رجال سمر يرتدون الطرابيش والعمائم وأنواعاً أخرى عجيبة من لباس الرأس ، وكلهم يقول ما معناه الواقعى « لقد استحوذتم علينا . والرجال الذين يمثلون حكومتكم قد حطموا حكومتنا ، وهم يحولون بيننا وبين إنشاء حكومة جديدة . فماذا أنتم فاعلون بنا ؟ . . . »

١٦ ـ الإمبراطورية البريطانية فى ١٩١٤

ربما جاز لنا الآن أن نلحظ فى إيجاز تام الطبيعة الشديدة الاختلاف للاجزاء التى كانت تتكون منها الإمبراطورية البريطانية فى ١٩١٤ . فإنها كانت وما تزال خليطاً سياسياً فريداً فى نوعه تماماً . إذ لم يظهر على وجه البسيطة قط شىء من قبيلها . فهى شىء جديد فى التاريخ السياسى ، كما أن الولايات المتحدة شىء جديد فيه أيضاً . وهى شىء أكبر وأشد تعقيداً من أى دولة من تلك الدول القومية المذهب أضراب فرنسا وهولندة والسويد .

وكانت الدولة الأولى والمركزية فى تلك المجموعة بأسرها هى « الجمهورية المتوجة » أى المملكة المتحدة البريطانية ، المحتوية على إرلندة (على غير إرادة فريق جسيم من الشعب الإرلندى) . وكانت الأغلبية فى البرلمان البريطانى ، وقوامه البرلمانات الثلاثة المتحدة لانجلترة واسكتلندة وإرلندة ، هى التى تحدد رياسة الوزارة وصفتها وسياستها ، ويكون ذلك التحديد إلى حد كبير ، بناء على اعتبارات تتصل بالسياسة البريطانية الداخلية . وهذه الوزارة هى الحكومة العليا الفعالة ، وبين يديها سلطات تخولها التصرف فى السلم والحرب على سائر أجزاء الإمبراطورية جميعاً .

وكان يلى هذه الولايات البريطانية فى الأهمية السياسية ، « الجمهوريات المتوجة » ، أستراليا وكندا ونيوفوندلند (أقدم ممتلكة بريطانية ١٦٨٣) — ونيوزيلندة وجنوب إفريقيا ، وكلها دول مستقلة تقريباً تحكم نفسها بنفسها وهى متحالفة مع بريطانيا العظمى ، على أن بكل منها ممثلا للتاج تعينه الحكومة التى فى الحكم . ثم تجىء بعد ذلك الإمبراطورية الهندية وهى امتداد لإمبراطورية المغولى الأعظم ، وتمتد الآن بما فيها من ولايات تابعة ومحمية ، من بلوخستان إلى بورما كما تضم عدن . ولكن التاج البريطانى فى كل أرجاء تلك الإمبراطورية ، ووزارة الهند (تحت الرقابة البرلمانية) يقومان فى كل هذه الإمبراطورية بدور الأسرة التركمانية الأصلية .

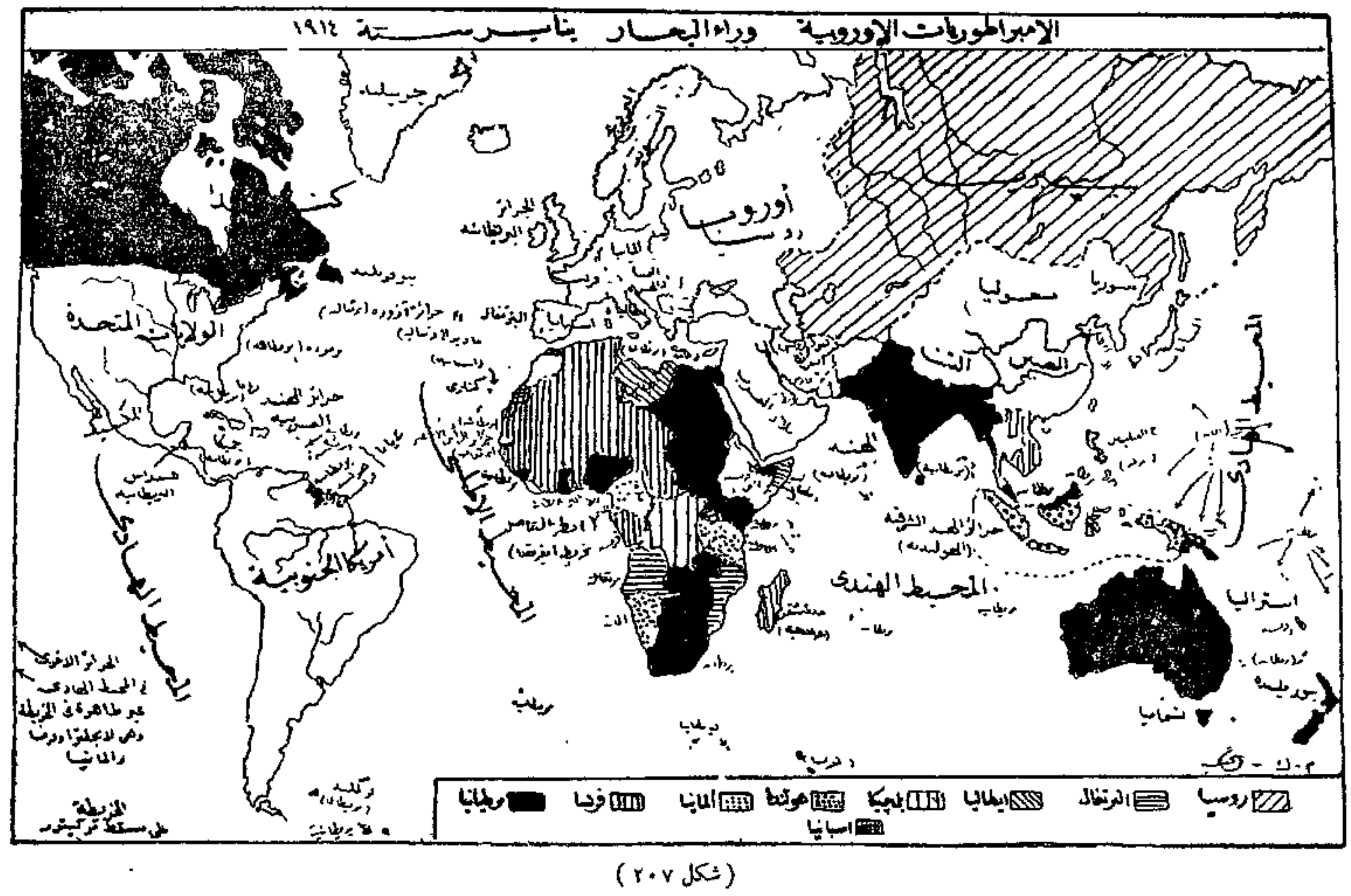
ثم تجىء ممتلكة مصر الغامضة الوضع ، وهى ما تزال من الناحية الإسمية جزءاً

من الإمبراطورية التركية ، وما تزال تحتفظ بعاهلها الخاص وهو الخديو ، ولكنها تحت حكم الموظفين البريطانيين الذى يكاد يكون استبدادياً . وليلحظ القارئ أن مصر جعلت مملكة شبه مستقلة « متحالفة » مع بريطانيا فى ١٩٢٢ . ثم تأتى ولاية السودان المصرى الانجليزى التى مركزها السياسى هو أشد غموضاً ، والتى يحتلها ويحكمها الحكومتان البريطانية والمصرية مشتركتين .

وثم عدد من المجتمعات التى تحكم نفسها حكماً جزئياً ، ومنها ما هو بريطانى الأرومة ومنها ما هو غير بريطانى ، ولها مجالس تشريعية منتخبة وهيئات تنفيذية معينة ، أمثال جمايكا وجزائر الباهاما وبرمودا ومالطة . وقد أعلن فى يونية ١٩٢٠ دستور مالطى جديد أكثر تحررية ، ويكاد يضع مالطة فى مستوى مستعمرة تحكم نفسها بنفسها .

ثم إن هناك مستعمرات التاج ، التى يكاد فيها حكم الحكومة البريطانية الأصلية فى بريطانيا (بواسطة وزارة المستعمرات) يقارب الحكم المطلق ، كما فى سيلان وترينيداد وفيجى (وفيها مجلس يؤخذ أعضاؤه بالتعيين) ، وجبل طارق وسانت هيلانه (ويحكمها حاكم) ؛ ثم مناطق عظيمة من أراض مدارية (فى معظم الأمر) ، وهى مناطق تنتج المواد الخام ولها مجتمعات من الوطنيين ضعيفة سياسيا وناقصة فى المدنية ، كانت من الناحية الأسمية محميات ، وكان يديرها إما مندوب سام ينصب فوق الرؤساء الوطنيين كما هو الحال فى باسوتولاند ، أو من فوق شركة ذات مرسوم كما هو الحال فى روديسيا . وكانت وزارة الخارجية فى بعض الحالات أو كانت وزارة المستعمرات فى بعض الحالات أو وزارة الهند فى بعض الحالات ، هى الوزارة ذات الشأن فى الاستحواذ على الممتلكات التى تقع تحت هذا الصنف الأخير الذى هو أقل الأصناف تحديداً ، ولكن وزارة المستعمرات كانت فى معظم الشأن هى المسئولة الآن عنها . .

وعلى هذا فمن الجلى أنه ما من وزارة بمفردها وما من عقل بمفرده قد تفهم قط الإمبراطورية البريطانية فى مجملها . كانت خليطا من النموات والتجمعات يختلف إختلافاً كليا عن أى شىء سمى من قبل باسم إمبراطورية . وكانت تضمن للناس « سلماً » مترامى الأطراف وأمنة شاملة ؛ فمن أجل ذلك يعينها ويناصرها ويحتملها كثير



الإمبراطوريات الأوروبية وراء البحار يناير سنة ١٩١٤
أوروبا
روسيا
الولايات المتحدة
أمريكا الجنوبية
الصين
منغوليا
الهند
المحيط الهندي
استراليا
نيوزيلندة
تسمانيا
جرينلند
نيوفوندلند
روسيا
البرتغال
ايطاليا
بلجيكا
هولندة
ألمانيا
فرنسا
بريطانيا
اسبانيا
الخريطة على مسقط مركيتور

(شكل ٢٠٧)

من رجال الشعوب « المحكومة » – بالرغم مما يقاسون من استبداد الموظفين وإعوازهم في الكفاية وعظيم التهاون والإهمال الذى يبديه جمهور بريطانيا فى « أرض الوطن » .

وشأن هذه الإمبراطورية هو شأن « الإمبراطورية الآثينية » ، قديما ، من حيث أنها إمبراطورية تمتد وراء البحار ؛ طرقها هى الطرق البحرية ، ورابطتها المشتركة هى الأسطول البريطانى . وتماسكها شأن كل الإمبراطوريات يقوم من الناحية التكوينية على وسيلة من وسائل المواصلات . وقد أدى التطور فى فن الملاحة البحرية وبناء السفن والسفينة البخارية فيما بين القرن السادس عشر والتاسع عشر إلى جعل ذلك السلم وأعنى به « السلم البريطانى Pax Britannica » أمراً ميسوراً مريحاً ؛ وربما أدت التطورات الجديدة فى النقل الجوى أو البرى أو السريع أو فى فن الحرب بأعماق البحار إلى جعله أمراً غير مريح أو شيئاً معرضاً للخطر تعرضاً لا مرد له .

١٧ – التصوير والنحت والعمارة

كنا نكتب عبارة « القرن التاسع عشر » لأن ذلك لفظ متداول يسهل علينا استعماله ، ولكن لعل من الجلى لدى القارئ أن فترة هذا الفصل ليست فى الحقيقة محصورة بين ١٨٠٠ ، ١٩٠٠ بل بين ١٨١٥ ، ١٩١٤ . ولم تحدث بين هذين التاريخين كوارث ساحقة ولا أزمات قلابة جائحة . أجل كانت التغيرات الجارية جسيمة جداً فى واقع الأمر ، بيد أنها لم تكن تغيرات فجائية ولا هى كانت بأى حال نقضاً وعكساً للسيرة العامة للأمور .

وقبل أن نعالج تلك الفتنة العارمة التى ختم بها قرن التقدم والاختراع هذا ، فإن من الخير أن نجرد ثلاثة أقسام للأشكال التى عبر بها الفن عن نفسه . ولقد سبق أن عالجنا تطور معارفه العلمية وفلسفته السياسية ؛ وسننظر الآن أولا إلى فن التشكيل والتصوير فيه ، ثم نتجه بأبصارنا إلى حياته الموسيقية ؛ ثم نوجه التفاتنا إلى أدبه الخلاق المعبر .

وتعكس لنا قصة التصوير الأوربى إبان النصف الأول من القرن التاسع عشر صورة التغيرات الإجتماعية فى ذلك الأوان . وهو زمان أخذت فيه الطبقة الوسطى

وأعنى بها الطراز التجارى الجاد من الناس تزداد ثروة وأهمية بسرعة فائقة . فكان ذاك زمان أصحاب مصانع أثروا واغتنوا وزمان ماليين جُدد أصابوا من التوفيق المالى حظاً كبيراً . وسرعان ما ظهرت السكك الحديدية والسفن البخارية والتجارة الخارجية فى مواد الطعام الرئيسية كما ظهرت الثروات المكونة بالمضاربة الناتجة عن هذه الأمور بطريقة مباشرة أو غير مباشرة . وكان يساور البلاطات الأوربية التى أعيدت إلى الحكم نزوع إلى استرضاء أصحاب هذه الثروة الجديدة والاختلاط بهم . وأمسى الموسرون من أرباب المصانع هم رعاة التصوير والعمارة النموذجيون ، وكانوا يحاولون أن يدخلوا فى عداد الجنتلمانية والسراة . فكانوا يرغبون فى أن تكون لهم الصور التى يعملها الجنتلمان للجنتلمان ، أكثر مما تشخص أبصارهم إلى احتياز القوة الرائعة أو الجمال المحير . وإن أحدهم ليرغب فى إقتناء صور يستطيع أن يتناول بإزائها طعامه أو يحتسى شايه . وقد امتلأ قلبه بشعور الارتياح والرضا ، كما أنه كان على استعداد أن يبذل فيها المال بسخاء . ومضى عن هذا العالم الفنان الاسبانى المتقلب المدهش جويا (١٧٤٦ - ١٨٢٨) ومصوراً المناظر البرية الإنجليزية العظيمان : كونستابل (١٧٧٦ - ١٨٣٧) وترنر (١٧٧٥ - ١٨٥١) ثم دافيد وإنجرس اللذان حدثناك عن كونهما المعبرين عن روح الإمبراطورية الفرنسية ، مضوا جميعاً ولم يبق لهم على ظهر البسيطة من ضريب . على أن التصوير أصبح مهنة رائجة جداً وضخمة جداً . وكانت الأكاديمية الملكية البريطانية والصالون[1] الفرنسى يقيمان المعارض السنوية للصور المرسومة بغية إدخال اللذة والسرور على الأفئدة ، وكان الفنانون يشترون الدور الكبيرة الفخمة ويعيشون عيش الترف الكريم . بل لقد بلغ أمرهم فى انجلترة أن أنعم على العديد منهم بلقب سير . وسار النحت فى هذا الاتجاه . ولئن كف تقدير الناس للصور عن أن يكون عميقاً شديد العمق ، فلقد أصبح منتشراً واسع الانتشار . وأوشك الرحيل السنوى إلى لندن « لمشاهدة معرض الأكاديمية » أن يصبح أمراً إلزامياً على جموع كبيرة من الجمهور الإنجليزى .

---

(١) الأكاديميه البريطانية والصالون الفرنسى : جمعيتان تهتمان بالفنون الجميلة وتقيمان لها المعارض . (المترجم)

ولكن حدث مع تجاوز القرن لسنيه الوسطى ، أن ظهر فى عالم الفن نفس الميل إلى القلق وعدم الاستقرار ، ذلك الميل الذى كان السبب فيما حل بالنظام الدينى والاجتماعى فى أوربا من اضطراب . ففى انجلترة شرع رسكن (١٨١٩ – ١٩٠٠) ووليم موريس (١٨٣٤ – ١٨٩٦) ، ينتقدان خواء الأكاديمية وتفاهتها فى الفنون والزخارف المعاصرة انتقاداً كان له تأثير مزعج . وحدث بين رجال التصوير تصدع وانقسامات .

وظهرت مدارس جديدة ، نخص بالتنويه منها أصحاب مذهب « ماقبل رافائيل « Pre-Raphaelites » الذين يجدون فى البحث عن السوابق والأساليب فى عمل تلك الأيام القديمة أى قبل أن يصبح التصوير رسمياً . فولوا وجوههم يظللهم استحسان رسكن وموريس شطر العصور الوسطى ، وأخذوا يصورون صوراً تمثل أبطال الملك آرثر[1] والعذارى المباركات (Blessed Damosels) . ووجه آخرون منهم من ذوى النفوس الأكثر ثورة أنظارهم إلى العالم المحيط بهم . وظل كوروت (١٧٩٦ ١٨٧٥) محتفظاً بكل قوة بصيرته طوال سنى الركود تلك . وشهدت فرنسا بعد كارثة (١٨٧٠ – ١٨٧١) وفى عمل الأساتذة من أضراب ديجاز ومانيه ورنوار رجعة كبيرة إلى سوابق رامبراندت وفلاسكويز . ولابد لنا من أن نذكر مع هؤلاء الفرنسيين اسم هويسلر الأمريكى العظيم (١٨٣٤ – ١٩٠٣) . ودب فى الناس وهم لا يكادون يعون – دبيب البرم بالصورة المحتشمة ، ثم ظهر طراز من عمارة الدور لم يكن ليسمح بترك فراغ من الجدران للصورة الزيتية ذات الإطار . حتى إذا اقتربت تلك الفترة من نهايتها تناقص بشكل محسوس ما تنتجه يد المصور من صور تباع وتعلق على الجدران فى أى موضع كان ، وأخذ المسئولون يوجهون ذلك السيل المنهمر من طلاب الفنون توجيهاً مطرد النجاح – إلى طاب الفنون الزخرفية الأكثر تواضعاً والأقرب إلى النفوس

وظهرت عند مختتم القرن التاسع عشر بوادر كثيرة تدل على أن طريقة التمثيل

---

(١) الملك آرثر : ملك بريطانى قديم وبطل فى الأساطير ، كتب عنه اللورد تنيسون قصة « موت آرثر » نقلا عن أساطير القرون الوسطى . (المترجم)

الدقيق المضبوط قد تخطاها الفن . فاختفت من البُسط والسُدُف وأقمشة الثياب ، الصور التى تمثل الأزهار والأشكال الإنسانية ، وأصبح التمثيل صفة ثانوية خافتة فى فنى التصوير والنحت . ولقد لاحظنا فيما سلف فترة سابقة تتجه إلى إظهار الواقع أثناء حكم أخناتون فى مصر وأخرى فى العهد الإغريقى الرومانى ، كما لاحظنا كيف انحدر هذا الدور الأخير سريعاً إلى الجمود وقلة العمق والرمزية فى الآثار البيزنطية والقوطية كما تحول إلى الطريقة الشكلية والهندسية فى الزخرفة الإسلامية . وقبل ذلك بكثير حدث أن الروح التأثرية (الانطباعية Impressionism) المشرقة التى ظهرت فى العصر الحجرى القديم الثانى قد عقبها المذهب الشكلى الذى تجلى فى فن العصر الحجرى الحديث الأبكر ، وهنا أيضاً نرى الفن فى العقدين الأولين من القرن العشرين وهو يغير سبيله وكأنما أصابته كظة فانحرف عن الواقع صارفا النظر عن الشكل الخارجى إلى ترسم آثار الحركة ، عائداً من جديد إلى التحليل والرمز . ويبدو أن من المحتمل أن يطرد الفن فى سبيله هذا . ومما يعينه الآن كذلك الزيادة فى كفاية التصوير الضوئى (الفوتوغرافى) فى كل ما يتعلق بالدقة العارضة البحتة . وإن العالم ليضيق ذرعاً بالحقائق غير المهضومة .

وقد افتتح ذلك القرن بدور من أدوار الجمود فى العمارة . فإن التقاليد الكلاسيكية التى كان يدعمها غلبة الأدعياء الكلاسيكيين على المدارس ، قد تسلطت شيئاً فشيئاً على التطور الحر لطراز النهضة وصدت بالتدريج تياره ، وكأنى بمعظم العمائر الجديدة وقد ران عليها مظهر الأسف على عصر مضى منذ ألفين من السنين ! ! . . . فقد كانت تظهر كل مكان واجهات من الزخارف الجصية[1] بيضاء معمدة . ثم ظهر – مع النهضة الرومانسية فى الأدب ، التى سوف نبحثها من فورنا بإسهاب ، ومع محاولة نابليون ابتعاث روما الإمبراطورية – تحول فى التفات هذه الفترة الشديدة الكلف بالتقليد والمحاكاة صوب العصور الوسطى . إذ حدث بعد الانتعاش

---

(١) الزخارف الجصية (Stucco) : استعيرت هذه الكلمة للدلالة على طراز بذاته أكثر منها على مادة بعينها ، وهى تطلق عادة على النقوش البارزة وأمثالها من زخارف البناء . وهى تصنع من الجبس أو الأسمنت أو لاصوق الجير . (المترجم)

الكلاسيكى انتعاش قوطى تبدت قوته بوجه خاص فى بريطانيا ، وأنتج فيما أنتج من مآثر عظيمة باهرة كثيرة ، دارى البرلمان الحاليين . ثم استعيدت فترة الملكة آن ، التى تميزت بتطور خاص فى طرائق عصر النهضة التى كانت لاتزال قائمة . وإن المهندسين المعماريين فى بريطانيا ليبنون لك قصراً أو داراً على الطراز الكلاسيكى أو القوطى أو الاسكتلندى البارونى أو طراز الملكة آن ؛ فأما الطراز الوحيد الذى لم يظهر على ظهر الأرض البتة فهو طراز القرن التاسع عشر . كان رجال الإنجليز يغدون ويذهبون فى سراويل وقبعات عالية وثياب دكناء يحرصون فيها كل الحرص على أن تكون عصرية محترمة إلى حد كبير ، ولكن بيوتهم ومبانيهم العامة كانت تكسى فى ثياب الماضى الموات الخالى من الروح ، كأنما كانت تهيأ لحفلة رقص تنكرية تظللها الكآبة والمقت .

على أنه ظهر فى فرنسا وألمانيا قدر أوفى وأكثر من المبادهة والابتكار فى فن العمارة ؛ فإن طراز « عصر النهضة » كان ما يبرح يعيش ويتطور فى فرنسا . وهنالك مسائل شائقة واجهها فن العمارة فى أنواع المبانى الجديدة أضراب محطات السكك الحديدية وكبارى السكك الحديدية والمخازن والمستودعات والمصانع وما إليها ، ومع ذلك لم يجرب فيها إنسان واحد مقدرته بصورة جدية فى أى مكان باستثناء ألمانيا فيما يحتمل . وكان القبح الدال على عدم الكفاية المعمارية هو القاعدة فى إقامة تلك المبانى . وكأنما كان اندفاع الاحتياجات الجديدة والمواد الجديدة والفرص الجديدة قد غلب المهندس المعمارى على أمره وسلبه شجاعته فى ذلك العصر . ومن أعجب منتجات دور التخوف ذاك وأشدها دلالة على عصرها قنطرة برج لندن ، التى خُلط فيها بين هيكل متين خفيف من الصلب المكسو بالجص وبين لمحات من النحت الحجرى الفلمنكى وبين ذكريات لقنطرة رافعة[1] من قناطر العصور الوسطى . على أن جميع مبانى بريطانيا فى القرن التاسع عشر طافحة بذكريات تاريخ سقيم بال .

وفضلا عن هذا فإن فن عمارة المنازل انحدر أكثر مما انحدر فن عمارة المبانى

---

(١) القنطرة الرافعة (Drawbridge) قنطرة كانت توضع على الخندق المحيط بإحدى القلاع ونقطة تحركها فى نهايتها ، فإذا أريد إغلاقها رفعت . (المترجم)

العامة إبان شطر كبير من القرن . فإن الزيادة الضخمة فى عدد السكان فى دول أوربا وهى الزيادة التى استنفدت قدراً طائلا من موارد ذلك العصر المزيدة ، قد أدت إلى زيادة مخيفة فى بناء البيوت المنحطة الرتبة حول المدن النامية ، فأقيمت صفوف لا حصر لها من البيوت الصغيرة الوضيعة فى بريطانيا ، ومساكن قبيحة فى معظم الأقطار الأوربية الأخرى . ولم يحدث إلا عندما قارب القرن غايته وهبطت نسبة المواليد وظهر أثر السيارة فى إعادة توزيع السكان الذين كانوا يتوالدون ويتزاحمون حول محطات سكة الحديد ، — أن ابتعث اهتمام عام بفن عمارة المنازل وأن ظهرت أنماط عصرية لطيفة من الدور الخلوية الصغيرة وبيوت الريف .

وكانت أمريكا قد أنتجت أيام الاستعمار طرازاً من طرز البيوت الريفية ملائماً تمام الملاءمة ، نشأ بوجه أخص فى ڤرجينيا وبلاد الجنوب ، وهو تكييف لفن عمارة البيت الريفى البريطانى طبق الأحوال المحلية ، والبيت الريفى البريطانى نشأ متفرعاً من جذع شجرة النهضة المثمرة . وقد سبق أن أشرنا إلى فضل السيركريستوفررن على هذا التطور . وفيما عدا هذا المنحى المنزلى لم يكن فن العمارة الأمريكى يزيد فى جل شأنه حتى أخريات القرن التاسع عشر عن تصميمات أوربية منقولة . مثال ذلك أن الكابيتول المقام فى واشنجتون إنما هو من عمل الفرنسيين . وربما كان من الممكن إقامته فى باريس أو بروكسل . وكان الشىء الكبير من مبانى المنازل هزيلا عادياً . وعندما اقتبست بريطانيا نافذة شرائح الزجاج[1] (Sash Window) احتفظت أمريكا بالنافذة العادية المستعملة فى القارة الأوربية . على أنه حدث والقرن فى عقديه التاسع والعاشر ، أن الثروة المتزايدة والاعتماد النامى على الذات فى العالم الجديد فجّرا ابتكارات معمارية جديدة قوية . فقد شرعت أمريكا فى استعمال مبانى الفولاذ والزجاج والخرسانة ، استعمالا تجلى فيه قدر متزايد من الجرأة والنجاح . وكان من أثر هذه المواد واختراع « المصعد » وإحكامه أن أصبح من الميسور بناء مبان

---

(١) نافذة سرائح الزجاج : هى نافذة ذات فرواز بصعد وينزل تمييزاً لها عن النافذة العادية (Casement Window) التى تنفتح وتنغلق على مفصلات وهى الموجودة بجميع المنازل العصرية . (المترجم)

ذوات إرتفاع واتساع ليس لها مثيل سابق . فنى ١٨٧٠ لم يكد يكون هناك شيء اسمه فن العمارة الأمريكى ؛ ولكن عندما حلت ١٩١٠ كانت أمريكا قد سبقت كل قطر آخر فى العالم بمراحل فيما تجلى بمبانيها من جدة وجرأة . وبرزت ألمانيا فترة أثناء ذلك . وتبرز أسماء ريتشاردسون (١٨٣٨ – ١٨٨٦) وستانفورد ويت (١٨٥٣ – ١٩٠٦) بين أسماء المهندسين المعماريين الأمريكيين فى هذا العهد الجديد .

فإلى أمريكا القرن العشرين يجب أن تشخص الأبصار لترى التعبير التدريجى عن القوى والموارد الجديدة التى كشفها القرن التاسع عشر لأنظار الإنسانية ممثلا فى البناء وإعداد المنازل . وربما جاز لنا بالعلاقة إلى هذا التطور فى فن العمارة أن نعتمد أيضاً على تطورات أخرى جديرة بالتنويه فى النحت والتصوير والفسيفساء (الموزايكو Mesaic) وفى فنون الزخرفة عامة . ولسوف تكون فى تلك القارة الفرصة الكبرى ، والثروة الكبرى وحرية الفكر الكبرى .

١٨ – الموسيقى فى القرن التاسع عشر

سار فيض الخلق والإبداع الموسيقى الذى اطرد إبان القرن الثامن عشر فى طريقه الطبيعى دون أن يلقى شيئاً يذكر من الموانع أو العراقيل طيلة فترة هذا الفصل . وقد سبق أن ذكرنا أسماء موزار وبيتهوفن بوصفهما كوكبين بلغا الذروة بالقرن الثامن عشر . ويحملنا بيتهوفن قدُماً إلى صميم القرن التاسع عشر ، ولا بد لنا من أن نذكر بإزائه معاصره ويبر (١٧٨٦ – ١٨٢٦) وهو رجل أخذ نفسه بالتجريب والابتكار وله فيهما صولات ذات أهمية جوهرية ، ثم خلف بعدهما بقليل شخصيات جليلة القدر منها شوبرت (١٧٩٧ – ١٨٢٨) ومندلسون (١٨٠٩ – ١٨٤٧) وشومان (١٨١٠ – ١٨٥٦) . وليس فى مستطاعنا كذلك أن نغفل شأن « كاتدرائيات النغم » لسيزار فرانك (١٨٢٢ – ١٨٩٠) .

وكانت الموسيقى قد أخذت تنتقل رويداً رويداً من موضعها الأول تحت رعاية الملوك والنبلاء إلى صالة العزف[1] وإلى الاستقامة لأذواق جمهور مهذب تهذيباً

---

(١) صالة العزف (Concert Hall) قاعة تقام فيها الحفلات الموسيقية للجمهور . (المترجم)

خاصاً . وكان هناك إلى جوار الأوبرات عدد متزايد من قطع الغناء والبيانو أنشئت للمنازل المهذبة الأذواق وقطع من موسيقى الرقص للحفلات الاجتماعية . ولم يكن ثمة تقدم مقابل لهذا فى الموسيقى الدينية بعد أيام هاندل وباخ . على أن الرعاية الملكية كانت ما تزال ذات أهمية كبرى لمؤلفى ألحان الأوبرات ، وكان بلاطا باڤاريا والروسيا بوجه خاص مثابة لنوع جديد من « دراما الأوبرا » ولمفهوم جديد عن رقص الباليه[١]

وإنك لتستطيع أن تتأثر فى موسيقى ذلك القرن مهمات[٢] العصر ومصالحه المتزايدة الأفق . فأخذ الملحنون يطلبون موضوعات جديدة وفكرات طريفة وروحاً جديدة يبتغونها فى موسيقى العامة من سكان أوربا الشرقية والشعوب الشرقية .

فاستعمل شوپان الموسيقى البولندية (١٨٠٩ – ١٨٤٩) ، واتخذ ليست (١٨١١ – ١٨٨٦) وچواكيم (١٨٣١ – ١٩٠٧) من المصادر الهنغارية موردا للوحى بردانه ، وتجاوز برامز (١٨٣٣ – ١٨٩٧) هذا الميدان حين عرّج على الهند يطلب مادة يدخلها على ألحانه التى هى بطبيعتها كلاسيكية . وولد ڤاجنر فى ١٨١٣ وتوفى فى ١٨٨٣ . فتأثر خطى ويبر ومزق تقاليد الأوبرا الراسخة . فأدخل الروح الدرامية على موسيقى الآلات ووسع مجالها إلى حد بعيد ، وحمّلها قوة جديدة وعاطفة جديدة . ثم أعقبه بعد ذلك فى الروسيا تشايكوفسكى (١٨٤٠ – ١٨٩٣) وموسورچسكى (١٨٣٥ - ١٨٨١) ورمسكى كورساكوف (١٨٤٤ – ١٩٠٨) فكشفوا عن عوالم جديدة من البهجة واللون . وهذا المجال الضيق الذى بين أيدينا لا يسمح لنا بأكثر من الاقتصار على ذكر اسم داڤوراك التشيكى (١٨٤١ – ١٩٠٤) وأن ننوه بالإقدام الحيوى الذى كان عليه ريتشارد شتراوس (الذى ولد فى ١٨٦٤) والجمال البهيج لدى ديبوسى (١٨٦٢ – ١٩١٨) .

ولم تنتج أمريكا حتى اليوم إلا الشىء القليل من الموسيقى العظيمة المشهورة .

---

(١) رقص الباليه : سلسلة متقنة من الرقصات تتم على نغمات الموسيقى ، وتمثل فيها الأفعال والشخصيات والمشاعر الخ . (المترجم)

(٢) المهمات : هى الموضوعات التى يهتم بها الناس . (المترجم)

ولكن كما أن الولايات المتحدة وثبت فجأة من العدم فى العمارة إلى فن العمارة العظيم الذى تهيأ بظهور الأحوال الجديدة ، وأعنى بذلك المبنى الفولاذى والمواد التى لم تسبق تجربتها حتى تسعينات القرن التاسع عشر ، فمن المحتمل أن يبزغ عن الغرب (أمريكا) فى أى وقت فجرُ أشكال موسيقية جديدة وتحررات جديدة . ومنذ أمد غير بعيد « والضجيج » ينتقل من أمريكا إلى أوربا بدرجة متزايدة الارتفاع ولكنه فى بعض الأحايين « ضجيج » مرح كل المرح . وقد أثرت الروح الزنجية أثرها فى حجرة الرقص وفى قاعات الموسيقى . وليس بمستبعد أن يأتى ذلك اليوم الذى يصبح فيه الأمريكى فى صالة الموسيقى – على الأقل – فخوراً سعيداً بهذا الينبوع الأسود النابع فى الجنوب . على أنا لا نستطيع أن نتحدث ها هنا عن موسيقى الجاز (Jazz) وما يتصل بها من تطورات .

ولسنا بمعاودين القول فى الموسيقى فى هذه « المعالم » . والفترة الحالية تتميز بانتشار فسيح المدى لشىء كان فى قديم الزمان امتيازاً لطبقة مثقفة . فإن الحاكى والبيانولا[١] وجهاز الراديو تجعل العالم بأجمعه ضرباً بخير الملحنين وأعظمهم .

١٩ – نهوض القصة إلى مرتبة الصدارة فى الأدب

إن المجال الذى نجده بين أيدينا الآن أضيق من أن يتسع لأكثر من بيان موجز فى أضيق الحدود وأشدها تبسيطاً عن ذلك الفيض العظيم من المناشط الأدبية التى حاولت القوى الجديدة التى ظهرت فى قرن التوسع ذاك أن تعبر بها عن نفسها . وقد سبق أن عالجنا الفكرات الرئيسية لمؤسسى الاشتراكية ومكونيها وتأثير النظرة العلمية النامية على الفكرات الدينية والسياسية والاجتماعية . على أنه من المستحيل علينا أن نفى بكامل حقوق الأهمية الدائمة والتأثير المتواصل لمفكرين عمليين عظماء من أضراب آدم سميث (١٧٢٣ – ١٧٩٠) ومالثوس ، (١٧٦٦ – ١٨٣٤) وخلفائهما ، أو لتلك التأملات العميقة النفاذة التى جاد بها شوبنهور (١٧٨٨ –

---

(١) البيانولا : هى البيانو الأوتوماتيكى الذى تشغله البدالات ، ويجوب به بعض الناس فى الطرقات . (المترجم)

١٨٦٠) ونيتشا (١٨٤٤ – ١٩٠٠) فى ألمانيا . ثم يجىء هيجل (١٧٧٠ – ١٨٣١) وهو أشبه ما يكون بصنف جذاب مغرٍ يرد فى أسفل قائمة أطعمة طويلة جداً . ولا بد لنا من تركه . ولقد انحرف بتيار الفكر العصرى انحرافاً عجيباً جداً ، ولكنه ينتعش من تأثير انحرافه به .

كذلك ليس فى طوقنا أن نناقش هاهنا مصادفات الذوق وسخافات التأويل التى جعلت من اللورد بيرون (١٧٨٨ – ١٨٢٤) ذلك الهجاء الركيك الشعر الذى يضم بين جوانحه فلسفة متسكع من رجال المدن ولا يزيد ، – شخصية عظيمة فى فكرة القرن التاسع عشر عن الأدب فى كل أرجاء أوربا ، كذلك لسنا بواضعين جيته (١٧٤٩ – ١٨٣٢) فى كفة الميزان ، وهو من ظل طوال سنين عديدة رب ألمانيا الذهنى والجمالى . فلقد فقد تلك المنزلة الرفيعة من زمن بعيد بعد أن نثر على العقل الألمانى ثروة عظيمة من الآداب والنزعات الكلاسيكية المنقولة . كان عظما رشيقاً مجتهداً . وكان هو المصنف النبيل فى ميادين الأدب . كما كان بيرون فيها هو الثائر النبيل

وقد استهل القرن بتفجر جسيم فى ينابيع الشعر ، تجلى فى بريطانيا بوجه خاص على أنه كان شعراً يتصف بخصائص مميزة خاصة به ؛ إذ يتجلى فيه إدراك جديد للطبيعة بوصفها على علاقة عاطفية بالإنسان ، وإغفال لا شعورى للعقائد .وتعرض مطلق إلى أعمق مسائل الحياة ، وكأنما انفلت الشاعر وهو لا يكاد يشعر من صلب المعتقدات المقررة المعتنقة إلى عالم طليق . وإن لقصائد هذا الدور عامة للمسة قصصية ربما رقت فى بعض الحين فأصبحت نسيماً هفهافاً – وإنها لتتهادى وعليها من الرشاقة وحب الجدل وكثرة التنوع أبراد جميلة زاهية . وأبرز الأسماء فى هذا العصر شللى (١٧٩٢ – ١٨٢٢) وكيتس (١٧٩٥ – ١٨٢١) ووردسورث (١٧٧٠ – ١٨٥٠) . ولقد كان وردسورث بما جبل عليه من روح فنان منوعة الأشكال هو الطائر المغرد بالمذهب التصوفى الحلول الذى يحس إحساساً عميقاً بالله فيما ابدعته يده من طبيعة . وكان شللى أول الشعراء العصريين وأعظمهم . وكان مشبع الذهن بالفكرات العلمية ، وكان إدراكه للسمة الوقتية التى عليها النظم السياسية فى زمانه

يسبق كل معاصريه بمراحل عديدة . ثم اطرد الدافع الشعرى فى انجلترة فى الجيل التالى بقدر أعظم من الألحان والجمال وحظ أدنى من التضمينات قصية المرامى على يد تنيسون (١٨٠٩ – ١٨٩٢) ، الذى نال محبة عظيمة من الناس ، وتزلف الملكة ڤكتوريا ، وكان أول من نال لقب اللوردية من أجل شعره من الشعراء الإنجليز وقصيدته « موت آرثر Morted' Arthur » خليقة أن تقف بازاء فن عمارة ذلك الزمان . ولم تكن شهرة لونجفيلو (١٨٠٧ – ١٨٨٢) راجعة إلى أنه كان الكفو الأمريكى لتنيسون قدر ما تعود إلى أنه الترجيع الأمريكى لصوته .

وارتقى الشكل المسمى بفن القصة النثرى – متطوراً على درجة أعظم بطئاً وفى وجه معارضة وتثبيط من الهيئات المدرسانية[1] والأكاديمية[2] والنقدية – فسما شيئاً فشيئاً حتى أصبح والشعر بمنزلة سواء ثم ما لبث أن استعلى عليه . وكان ذلك الشكل هو ما كان الناس يقرأون حقاً وهو الشىء الذى يطلبه الزمان . وأخذ الكتاب النثرى العظيم المتحدث عن الحياة ، والذى يخالط التسلسل القصصى مادته ، والذى تسلفه من قبل رابليه ونهض به ما أنتجه فيلدنج وسترن من روايات غير مطردة السياق ، – يبرز فى مهل إلى حال من الاكتمال وإلى منزلة اعتراف الناس به مع تقدم الزمن بالقرن . ومع اطراد نموه طولا وقوة ظهرت إلى جواره الرواية القصيرة والأقصوصة[3] .

وكانت القصص الأولى حكايات تصف الحوادث والأخـلاق . وترجع بنافانى برنى (١٧٥٢ – ١٨٤٠) إلى عالم الدكتور جونسون . وجاءت جين أوستن (١٧٧٥ – ١٨١٧) تعمل داخل حدود ضيقة ، فواصلت النهوض بتقاليد المرأة فى دقة الملاحظة والمشاهدة معبرة عنها أبرع تعبير . ومن مثل هذا النوع من القصة المعنية بالأخلاق والإحساسات وما يكبلها من أغلال وحدود ، تمضى القصة الإنجليزية فتحطم أغلالها بالتدريج مع تحطيم ذهن ذلك العصر لما كان يحده من أصفاد .

---

(١) المدرسانية (Scholastic) هيئات التدريس المتحذلقة بجامعات القرون الوسطى . (المترجم)

(٢) الأكاديمية : العلمية . (المترجم)

(٣) الرواية القصيرة (Short Novel) الأقصوصة أو القصة القصيرة (Short Story) .

وهناك شخصية عظيمة جداً كبيرة الأثر فى توسيع الرواية هى الكاتب الألمانى چان پول ريختر (١٧٦٣ – ١٨٢٥) . فإن قصصه مجرد سمط تُسالك فيه الخرافات عن السياق مزخرفة مرصعة بالجواهر . وثمة كاتب ألمانى كبير هو هينى (١٧٩٧ – ١٨٥٦) . وقد أثر ريختر فى مؤلفات الكاتب الإنجليزى توماس كارليل أعمق التأثير . وعن طريق كارليل اتصل تأثير ريختر الجذل غير المطرد السياق تشارلز ديكنز (١٨١٢ – ١٨٧٠) وچورج مرديث (١٨٢٨ – ١٩٠٩) . وكان تاكارى (١٨١١ – ١٨٦٣) وهو المنافس الكبير لديكنز يحمل قُراءه ويهيم بهم فى الأرض ويغمرهم بالتفلسف ممسكاً بتلابيبهم على شاكلة أقرب إلى طريقة سترن منها إلى الألمان . وقد أمثل تشارلز ريد فى روايته « الدير والبيت »[1] النزاع الذى ما يزال قائماً بين البروتستانت والكاثوليك فى أوربا فى ثنايا قصة رومانسية عظيمة . واكتشف كل من ثاكارى وكارليل أن نزوعهما إلى مناقشة الحياة بكثرة قد اقتادهما عن أشكال الرواية الصريحة إلى التفسير والتعليق على الأدوار التاريخية . وإن هناك لرابطة طبيعية ضرورية بين الرواية العظيمة ذات الطراز الإنجليزى وبين التاريخ . وكانا كتابا كارليل « الثورة الفرنسية » و « فردريك الكبير » يقرآن كما تقرأ الروايات . وأحرز ماكولى (١٨٠ – ١٨٥٩) نجاحاً باهراً بكتابه : « تاريخ الفترة الاستيوارتية الأخيرة » . والحق إن الذنب فى عدم إقبال جمهرة الناس على قراءة التاريخ يقع على عاتق المؤرخين لا الجمهور . فإن أمثال ليتون واستراتشى وجود اللا وبيلوك من نوابغ كتاب التاريخ محبوبون فى إنجلترة وأمريكا كحب مؤلفى الروايات سواء بسواء .

فأما فى فرنسا فإن نفس الضرورات والتطلعات التى وسعت الرواية الإنجليزية من مجرد حكاية إلى صورة للحياة وتفسير لها ، قد ألهمت بلزاك (١٧٩٧ – ١٨٥٠) إلى القيام بذلك الجهد الجليل « الكوميديا الإنسانية Comédie Humaine » . وبعد بلزاك وأدنى منه بمسافة بعيدة يجئ خليفته زولا (١٨٤٠ – ١٩٠٢) ، ويكتب كتابه « طبقات عائلة روچون ماكار Rougon-Macquart cyele » الشبيه بمؤلفات

---

(١) « الدير والبيت Cloister & the Hearth »

بلزاك ، وهو مجموعة من الروايات تتأثر حظ أسرة فرنسية وفيرة العدد مدى أجيال عديدة . ويقف شخص ڤكتور هوجو (١٨٠٢ — ١٨٨٥) فريداً فى زمانه وهو صاحب ذهن فياض جرئ زاهر يبلغ فى بعض الحين حد الهرجة المسرفة ، فيقذف بالتمثيليات والقصائد والروايات والبحوث السياسية . ولكن الواقع أنه حدث فى فرنسا أن سلطان الأكاديمية والتقاليد الكلاسيكية وتقاليد النظام المدرسانى ، قد روضت على الجملة فن الرواية وأخضعته رغم أنها لم تستطع أن تكبح هذه الحالات الاستثنائية . قال البيداجوجيون[1]: ينبغى للرواية أن تتخذ « شكلا » ، ولا بد لها من أن تكون « صحيحة » . ويجب ألا يكون فيها استطراد إلى موضوعات خارجة عن موضوعها ، ويجب أن تكون مؤدبة غير شخصية فى منوالها . وبذلك أعتيقت الرواية الفرنسية وهى فى طريقها إلى حريات التجريب غير المحدودة ، التى كانت تنعم بها المدرسة الإنجليزية . وفلوبير (١٨٢١ — ١٨٨٠) وهو يكتب مضيقاً عليه بهذه الحدود الثابتة — هو أشد الكتاب الفرنسيين لباقة وصقلاً وإتقاناً .

وينتمى توماس هاردى (١٨٤٠ — ١٩٢٨) آخر الروائيين العظام فى العصر الڤيكتورى إلى هذه المدرسة الفرنسية الكلاسيكية أكثر مما ينتمى إلى تقاليد الرواية الإنجليزية . ولقد ثار فى أخريات أيامه على القيود التى غل نفسه بأغلالها ، ثم هجر الرواية هجراناً تاماً ، ثم بلغ أوج عظمته الفنية بكتابه الأمراء[2]، وهو تمثيل وعرض للمغامرة النابليونية بأكملها فى صورة دراما ، وهو مثال جديد على الوشائج الوثيقة التى تربط بين الروائى العظيم وبين المؤرخ المفسر للتاريخ .

فالرغبة فى المعرفة بالحياة وما يحدث لها ، وهى النزوع إلى استجواب الحياة استجواباً وثيقاً حاراً ، تلك الرغبة التى جعلت البريطانيين يضيقون ذرعاً بقيود الشعر وتضييقاته الشكلية ورفعت الرواية (: القصة) وأشكالها القريبة إلى مرتبة السيادة الأدبية ، — قد انتشرت فى كل الأقطار الأوربية . فأنتجت ألمانيا والروسيا

---

(١) وهم المتحذلقة من العلماء والمدرسين . (المترجم)

(٢) الأمراء (Dynasts) : هى كما أشرنا ص ٣٥٩ من المعالم (ط ٢) ملحمة شعرية درامية . (المترجم)

وإسكنديناوة بوجه خاص ، أدباً عظيماً صاغته فى شكل روايات . وأبرز اسم يبدو بين حشد حاشد من الروائيين المبدعين الألمان هو اسم چوستاف فرايتاج (١٨١٦ – ١٨٩٥) . وانتجت النرويج مؤلفها بيورنسون (١٨٣٢ – ١٩١٠) ؛ وأشرقت فى الروسيا مجموعة كبيرة من النجوم المتألقة تبدأ بجوجول (١٨٠٩ – ١٨٥٢) وتمضى إلى دوستويفسكى (١٨٢١ – ١٨٨١) وتورجنيف (١٨١٨ – ١٨٨٣) وتولستوى (١٨٢٨ – ١٩٠٠) ، وتشيكوف (توفى ١٩٠٤) .

على أنه لا يمكن القول بأن جميع القراء فى القرن التاسع عشر كانوا تواقين إلى المعرفة مستطلعين – إذ كان يمازج الأنماط والطبقات المليئة الأذهان بالشكوك والتقدم ، أنماط وطبقات اجتماعية أخرى غير ناشطة تقاوم الفكرات الداعية إلى التقدم مقاومة فعالة .

وإلى جوار ذلك ، وفى قدر عظيم تام متزايد من التآليف التى كانت تستثير العقول وتنبهها ، ظهر فى أوربا وأمريكا على السواء ، إنتاج ضخم من المادة المكتوبة فى كل مستوى من مستويات التقدم الفنى (التكنيكى) ، قصد به إلى الإمتاع والمصانعة والتطمين .

وكان الناس قد تعلموا القراءة ، إذ وجد لديهم الزمن الوفير والحاجة الكبيرة إلى القراءة ، وكانوا يقرأون رغبة منهم فى كبح تيارات أذهانهم لا فى تشجيعها على الفيض .

والسير والتر سكوت (١٧٧١ – ١٨٣٢) شخصية سوف يحير الأجيال المقبلة نفوذها الهائل على معاصريها ، كما حيرهم نفوذ اللورد بيرون . فإنه بدأ حياته الأدبية شاعراً ، وكتب قصيدتين قصصيتين مسهبتين مليئتين بالثرثرة وذلاقة اللسان ؛ ثم انقلب يكتب سلسلة من القصص الرومانسية التاريخية . يمجد فيها الماضى الرومانسى . ويشيد بالولاء للملكيات ، وبثراء التقاليد وجذالتها .

ولشد ما راقت هذه النغمة الأثرياء والجنتلمانية الثراة ، وقد ملأ الجزع نفوسهم بالشكوك وعدم الطمأنينة التى أثارها حاضرهم المتغير المرتاب .

كان أبا لموجة من الروايات الرومانسية المعبرة عن الأسف ، لا فى كل العالم المتكلم بالإنجليزية فقط ، بل فى كل أرجاء أوربا .

فأما فى قارة أوربا ، فإن هذين الكاتبين اللذين أقبل الناس بصورة عجيبة على ترجمة أدبهما شعراً أو بعبارة نثرية ، قد اتخذا رمزاً لموجة عظيمة مبهمة من التأثيرات ، موجة معقدة المصدر مفككة غير مترابطة من حيث هدفها وكنهها ، موجة قد تبددت اليوم لحسن الحظ ونفض الناس أيديهم منها : وأعنى بها الحركة الرومانسية . وكان معناها عودة روح القرون الوسطى ، وكان معناها عودة الألوان النضرة الزاهية ، وكان معناها الإيماء بالمحبة إلى المغامرة فى الدروع السوابغ وعدم الارتياح للأساليب والمصالح المعاصرة . وكان معناها قيام الغريزة ضد العقل والعاطفة ضد العلم . وكان يخفف من حدة نزوعها إلى اللغة العتيقة المهجورة ما كان عليه حملة لوائها من تراخ وخمول . وكانت أقرب إلى حالة السكر التى تعقبها العربدة منها إلى دور من أدوار التقدم الفكرى والجمالى . ولم يقف الأمر بها عند تعارضها مع حقائق الزمن الحاضر بل تجاوزته إلى التصاد والماضى الكلاسيكى . كانت حركة كاثوليكية كما كانت تنزع منزع المذهب الفردى ، وكانت هى المبتعثة للفيرى[1] والرائعة فى أساطير مفتعلة زائفة ؛ كانت أى شىء ، وكانت إذا قدرتها تقديرها النهائى مجرد لا شىء .

وقد كتب عنها الكانبون فى ألمانيا كتابات هائلة وفيرة ، ولكنها عمّت كل أوربا . وادعى بعضهم أن شكسبير كاتب رومانسى ؛ وقامت كذلك « فلسفة رومانسية » و« لاهوت رومانسى » تجلى فيهما السخف والغباء . وظهر فى الإنجليزية قدر جسيم من الروايات فى أزياء القرون السالفة ، وهى القرين الفكرى لعملية ابتعاث فن العمارة القوطية فى إنجلترة ، وكان سماسرة البورصة والمتعبون من رجال الأعمال يجدون فرجة ينسون بها مسئوليات أعمالهم التجارية ، وينسون بها الوجود

---

(١) الفيرى (Fairy) : كثير من الآداب الأوربيه عامرة بقصص الفيرى التى يفترضون أنها كائنات فوق انسانية صغيرة الحجم ويزعمونها على صورة الإنسان وأن فى يديها قوة سحرية خارقة . (المترجم)

كله والمصير الذى يسيرون إليه - إن كان ثمة مصير يظنون أنهم يسيرون إليه - بأن يستغرقوا فى أحلام يرون فيها أنفسهم فى صورة الصليبيين البواسل والجنود الكماة والقراصنة المخيفين والمنقذين الآنسات اللواتى ألمت بهن النوازل ، وهى الشخصيات التى كانت تلك القصص تتخذ منها أبطالها . ولم يكن هناك حتى من يدعى أنه يقوم بتحليل مظاهر ومغزى الزمان الذى ظهرت فيه تلك القصص المرتدية أزياء الماضى . وكان ذلك هو موطن السحر فيها . فكانت هى الملجأ الذى تلتجىء إلية عقول ترغب بكل قوتها فى ألا تفكر . وكانت عقلية أبطال تلك القصص هى عقلية الطبقة الوسطى الغنية ، بعد تصفيتها ورفعها إلى المثل العليا .

وقد اعترف روبرت لويس ستيفنسون (١٨٥٠ - ١٨٩٤) آخر من لف لف سكوت من الكتاب الرومانسيين ، بأنه كان يستطيع أن يأتى بخير مما أتى ، ونعت نفسه بلقب « البغى العقلى » وهو ما كان عليه شأنه فى واقع الأمر . وهذا القصص المرتدى للأزياء العتيقة كتب أيضاً فى قارة أوربا ، ولكنه لم يصبح هناك البتة صناعة جدية كما أصبح فى بلاد المجموعة الناطقة بالإنجليزية ، لأن التطور السريع لطبقة متوسطة ثرية ميالة إلى القراءة ، حدث فى القارة الأوربية فى زمن متأخر وفى ظروف أشد استثارة للأذهان .

وهناك تطور حديث جداً جاء على فترة توقف فى نمو القصة ، ويشير إليه ظهور شىء من النزوع إلى تجميع الروايات فى ثلاثيات أو توسيعها بأجزاء متممة لها ، ثم ظهر توسيع آخر قشيب لهذا الشكل . يبدو محتملا بفضله أن تتحول القصة إلى صورة للعالم بأجمعه ترى خلال أعين فرد طرازى[١] . وأشد هذه الروايات الطويلة الجديدة جدارة بالإعجاب رواية « چان كريستوف » من تأليف رومان رولاند[٢] ، وقد نشرت فى عشرة مجلدات متعاقبة . ومما يتصل اتصالا وثيقاً بهذا التوسيع ، ظهور

---

(١) الفردى الطرازى (Typical) : هو الذى يمتلك أو يظهر خصائص طراز بعينه بشكل تام بحيث يصبح مثالا له أو عينة منه تمثل الطراز كله . (المترجم)

(٢) رومان رولاند (١٨٦٦ - ١٩٤٤) كاتب فرنسى قصصى ومسرحى ومدرس تاريخ الموسيقى بجامعة السوربون . كتب كتباً عن بيتهوفن وهاندل . وحصل على جائزة نوبل ١٩١٥ مكافأة له على قصة چان كريستوف الضخمة . (المترجم)

الكتب الهائلة التى لا شكل لها ولا نهاية ، كتب الذكرى والتعليق والوصف ، التى يمثل طراز كتابتها پروست (المتوفى ١٩٢٢) . وهناك شخص يكاد يقف وحيداً فى أدب العالم أجمع فى هذا العصر هو أناتول فرانس (١٨٤٤ - ١٩٢٤) - الذى تبدى روايته « قصص برجريه المسلسلة (Bergeret Series) نمس النزعة إلى أن يحل محل الرواية (Roman) المعزولة بحوادثها عما حولها تعليق سيار على الأشياء عامة . والآنسة دوروثى ريكاردسون التى تكتب بغزارة مشرقة معبرة عن جدول ضيق من الخبرة الرقراقة ، كاتبة ربما جاز لنا أن نسميها « چين أوستن » العصرية للقصة المطولة .

وهناك تغير شائق يتداخل القصة مع انتقال الزمن بالقرن التاسع عشر إلى العشرين ، هو الزيادة المطردة فى الأبحاث الاجتماعية والسياسية والدينية . وذلك أن الروائيين من طراز ديكنز وثاكارى كانوا يكتبون لجمهور فكراته وقيمه الاجتماعية مستقرة أتم استقرار . فإنهم لا يناقشون شيئاً ؛ بل يفترضون وجود خلفية من المناظر الأخلاقية ويركزون الاهتمام على الصفات الخلقية أعنى على الجبلات والطباع الشخصية . ولم يكن ثاكارى يناقش بل يعظ ؛ والوعظ شيء والمناقشة شيء آخر تماماً . وكانت الشخصيات ومسلكها فى رواية القرن التاسع عشر قوام المادة التى يتكون منها الموضوع كله . على أن حالة عدم الاستقرار الذهنى فى الزمن الحاضر تجد نفسها منعكسة فى القصص العصرى على صورة مناقشة للفكرات . ولم تنج الدراما من تلك النزعة حيث دخلتها الفكرات والنظريات . وهى وإن أشبعت ميول الناس ، إلا أنها أسدلت شيئاً من الغموض على ذلك الصنف من صوغ الشخصية صياغة مؤكدة قوية وبها قدر من الحياة يعظم مالها فى الواقع ؛ وهو أعلى ما تمتاز به القصة فى العهد الفكتورى .

وليس هناك من يشك أن فى الإمكان أن يلمس الإنسان فى أدب العصور الحوالى إبتداء من « قصة الحمار الذهبى » فما تلاها ، - إرهاصات بكل هذه التطورات فى القصة العصرية تتجه نحو نقد جوّال سهل هين للحياة وما فيها من وجهات نظر . ولكن شيئاً من هذه الإرهاصات فى ناحيتى الشكل والحجم لم يظهر فى أى شيء

ظهوره فى التنوع الكبير والحجم الفخم اللذين تمتاز بهما كتابات القرن التاسع عشر مهما يكن مدى قربها أو بعدها من شكل الرواية ، ولا تكاد أى منها تحتوى تلك الصفة الخاصة : صفة المحكم الحر غير الموجه فى شئون الحياة جملة وتفصلا ، وهى الصفة التى تميز ذهن القرن التاسع عشر وبها يتفاضل عن كل الأدوار التى سبقته .

وكان قيام « الدراما »[١] يعتمد حتى ذلك الحين على وجود مجتمع مستقر ، له عادات ومعتقدات ثابتة ، يستطيع أن يمدها بجمهور نظارة مستمر عامر القلب بالعطف عليها . وكان من الطبيعى فى عصر من الفوضى الاجتماعية وإعادة بناء المجتمع ، أن يتقوض ما استقر فى الناس من عادات الذهاب إلى المسارح . ومن ثم فقد انقضى نصف قرن أو يزيد تحولت فيه عن المسرح الحشود المنوعة الأشكال من الناس الذين كانوا يفكرون ويناقشون ويبحثون عن الجديد من الأشياء . ومر المسرح الأوربى فى دور تفاهة وانحطاط وأخذ يدارج الروايات والقصص الرومانسية الشعبية فى نزعتها إلى تمكين الناس من قضاء الوقت فى سمر لطيف .

وكانت « الدراما » الفرنسية رشيقة وإن كانت جوفاء وكذلك كان شأن الدراما فى انجلترة . وإن لم تصل مطلقاً إلى درجة الرشاقة الفرنسية . والحق إن القوى العظيمة التى كانت تطالب بالمناقشة والفكرات أخذت تبدى أثرها فى العالم الدرامى بغاية التدرج وفى وجه معارضة هائلة من النقاد . وكان إبسن النرويجى (١٨٢٨ — ١٩٠٦) هو الشخصية الفعالة المركزية التى بفضلها عادت الدراما إلى الاتجاه نحو مناقشة الحقيقة المعاصرة . وكان لنزوة بارى (Bairre) اللطيفة أثر كبير فى تحطيم التقاليد الجامدة « للمسرحية المحبوكة » كما كانوا يسمونها فى انجلترة ، ثم شرع برناردشو (Shaw)[٢] المولود فى (١٨٥٦—١٩٥٠) يكافح فى بطء مرتفعاً إلى أوج التفوق والنفوذ ،

---

(١) الدراما هى فن التأليف والتمثيل المسرحى . (المترجم)

(٢) جورج برناردشو : المتوفى فى نوفبر ١٩٤٠ وهو الكاتب القصصى والمسرحى العظيم . ولد بدبلن وانتقل إلى لندن حيث ذاع صيته وراجت مؤلفاته التى تعد بالمئات وحصل على جائزة نوبل ١٩٢٥ . (المترجم)

ومن أبرز الدراميين الألمان فى هذا الدور الجديد دور الاخلاص والقوة ، هوبتمان المولود فى (١٨٦٢) وسودرمان المولود فى (١٨٥٧) وقد أوقفت الحرب حركة النشاط الدرامى ردحاً من الزمن ، ولكن انتهاءها أطلق فيضاً عمياً من النشاط الحى المبشر بالخير على كل من جانبى المحيط الأطلسى . وينعم المسرح فى كل أوربا وأمريكا فى الوقت الحاضر بظل وارف قوى من الاستحداث والتجديد .

فإذا حولنا أنظارنا إلى تطور الأدب الأمريكى ، وجب علينا أن نميز بين دورين متباينين أشدالتباين ، أولها دور السيادة الأوربية ، ما بين انجليزية وفرنسية، وثانيهما دور الفكاك وانطلاق السراح . وقد مضى على المناشط الأدبية الأمريكية حين طويل من الدهر تركزت أثناءه فى نيوانجلند ، ولم تكن إلا محض فرع وإن يكن فرعاً عفياً عارماً من الأدب العام الإنجليزى والأوربى . وكان مركز ذلك مدينة بوسطن . وأكثر كتابُ هذا الدور من الحديث فى إعلان الاستقلال ، ولكنهم من حيث استمرار « الشكل والمنهج » كانوا كمن لم يدرك بعد أن الاستقلال قد وقع فعلا . وكانت لأمريكا أذواقها المميزة ؛ فإنها كانت أسرع من انجلترة إلى التقاط كارليل ؛ وأخذت ترسل نغمة من عندياتها تتجلى فى مقالات إمرسون (١٨٠٣ – ١٨٨٢) ؛ على أن لونجفلو لم يكن إلا مجرد شاعر إنجليزى تصادف أن ولد فى أمريكا وأن كتب فى موضوعات أمريكية . وكان إدجار ألان پو (١٨٠٩ – ١٨٤٩) يتبع فى كتابته مناهج أوربية أكثر منها إنجليزية ، وأبدى هوثورن (١٨٠٤ – ١٨٦٤) أن به لمسة من شعوذة تيوتونية لها وعيها الذاتى . وكذلك كتب و . د . هاولز (١٨٣٧ – ١٩٢٠) سلسلة من الروايات المتزمتة الممتازة ، بطريقة تسلكه فى سمط مع توماس هاردى تحت نوع المدرسة الفرنسية فى تصنيف عام للرواية . وكان هنرى چيمس (١٨٤٣ – ١٩١٦) أمريكياً ولكنه لم يكن يكتب على شاكلة الانجليز ولا شاكلة الأمريكان ، بل كأمريكى انتقل إلى بيئة أوربية ؛ وكانت مناظره على الدوام أوربية ، وكان موضوعه الأثير لديه هو الاصطدام بين الأمريكى الساذج وبين معقدات المدنيات القديمة

ولعل أشد كتاب القرن التاسع عشر اصطباغاً بالروح الأمريكية مارك توين[١] (١٨٣٥ – ١٩١٠) .

ولم يحدث إلا بعد بزوغ فجر القرن الجديد أن شرع الكتاب الأمريكيون بوصفهم هيئة فى مهاجمة ظواهر الحياة الإجتماعية الجديدة ومشكلاتها فى أمريكا ، مهاجمة يتجلى فيها شىء يشبه القوة الطليقة التى يتحلى بها خير ما أثر عن أوربا من تقاليد . وإنما تظهر كتب من أمثال شارع مين « Main Street » « وبابيت » لسنكلير لويس (١٨٨٥ – ١٩٥١) والتراجيديا الأمريكية لدرايزر (١٨٧١ – ١٩٤٦) ، وقد أصبح الذكاء الأمريكى مهتما بأمريكا اهتماماً مباشراً بحتاً غير ناظر بعد ذلك أبداً صوب الشرق يطلب المنهاج والاستحسان من أوربا . والواقع أن الشعر ورسائل الغرام الأمريكية قد أصبحت مستقلة استقلالا توشك أن تبدو فيه روح العدوان . ويحاول أمثال منكن (١٨٨٠ – ١٩٥٦) من الكتاب الناقدين أن يروعوا العالم بما يمتازون به من القشابة وصفاء الرؤيا ، بمحاولات يتجلى فيها الجد والاجلاب والحدة . وكذلك يتكشف كتاب من أمثال شروود أندرسون (١٨٧٦– ١٩٤١) وجيمس برانش كابل (المولود ١٨٧٩) عن جدة وقوة ابتكار تبشر بكل خير . ومع أنه لا يوجد حتى الآن فى عالم الأدب الأمريكى العصرى أسماء عظيمة ممتازة تلفت الأنظار[٢] ، ولا انتاج متقن إتقاناً كبيراً ، فإنه من العسير على المرء إذا راعى ما عليه حال ذلك الجمهور الكبير الجديد الميال للقراءة ، من الثراء والوفرة والتطلع الضخم ، أن يعتقد أنه لن تظهر هناك للفور هيئة ضخمة لإنتاج أدبى من الطراز الأول تظهر استجابة لما تتطلبه الفرص الأمريكية السانحة .

وليس من اليسير فى الوقت الحاضر على كاتب أورى أن يقدر درجة جودة الأدب الهندى إبان القرن الأخير . فإن الحكم البريطانى يجنح إلى تجاهل الجهد

---

(١) مارك توين اسم القلم الذى أطلقه على نفسه الكاتب الأمريكى صمويل لا نجهورن كليمنز ، المولود فى فلوريدا ، وكان كاتباً فكها مسلياً . (المترجم)

(٢) لقد ظهرت الأدب الأمريكى بعد وفاة المؤلف أسماء لامعة كثيرة منها إرنست همنج واى . (المترجم)

الفكرى الهندى أو التقليل من شأنه ، وليست توجد إلا ترجمات قليلة من بين العدد الضخم من الحكايات والقصص المكتوبة باللغات الوطنية حول الحياة المعاصرة والتى أنتجت فى السنوات الأخيرة . ولرابندرانات طاغور[1] (١٨٦١ – ١٩٤١) شهرة عظيمة فى الغرب . على أنه معروف بوصفه شاعراً أكثر منه روائياً وكاتباً سياسياً ، ويلوح أن الشرق يتعقب خطى الغرب فى تطوراته الاقتصادية والاجتماعية ويوم تصبح القوى الجديدة التى كونت القصة العظيمة والرواية القصيرة والأقصوصة والقصيدة الغنائية القصيرة ، وهى الأشكال القائمة للتعبير الأدبى فى الغرب – ذات أثر فعال فى آسيا ، فلعلها تنتج نتائج مماثلة . وتنطوى اليابان والصين على حركة اختمار ذهنى كبيرة جداً . وما يزال فن الترجمة والتأويل بين الشرق والغرب فجا غير متطور كما لا يزال بحاجة إلى التنظيم ، على أن هذه أمور لا يبرح يلحقها التحسين والتوسع السريع ، وقد لا يكون بعيداً ذلك الزمن الذى يصبح فيه كتاب المنثور على الأقل إن لم يكن كتاب الشعر الغنائى منذ فجر حياتهم العملية تقريباً موضع إعجاب جمهور من القراء يعم أرجاء العالم كلها .

فأما البحث العلمى والفكر الفلسفى والنشاط الأدبى العام فى هذه المدة التى تأملناها ، فكانت أوفر كثيراً وأعلى كثيراً فى كنهها عامة وتصل إلى يد عدد أوفر من الناس ، ونسبة أكبر من سكان العالم تفوق ما كان عليه الحال من قبل . وليس هناك أبداً ما يدل على أى توقف جسيم فى هذا الفيض الفكرى الذهنى المطرد الاتساع .

---

(١) طاغور (١٨٦١ – ١٩٤١) شاعر وكاتب هندى ، ولد فى كلكتا . وكان من أعظم رجال الهند الحديثة ، وكان كاتباً وقصصياً ومربياً ووطنياً عظيماً . وكانت مثله العليا تدعو إلى البساطة فى العيش وإلى إيجاد علاقة بين التربية الغربية والفلسفة الشرقية . حصل على جائزة نوبل سنة ١٩١٣ . (المترجم)

الفصل الثامن والثلاثون

كارثة الإستعمار العصرى[1]

---

١ – السلام المسلح قبل الحرب العظمى

احتفظت أوربا طوال ستة وثلاثين عاماً بعد معاهدة سان استفانو ومؤتمر برلين ، بسلم مقلقل داخل حدودها ولم تنشب أية حرب بين الدول الكبرى إبان تلك المدة . بل كانت إحداها تحتك بالأخرى وتخيفها وتهددها ولكنها لا تصل إلى الحرب الفعلية وقد أدرك الناس عامة بعد ١٨٧١ أن الحرب العصرية أمر أشد خطورة بكثير من الحروب التى كان يقوم بها الجند المحترفون فى القرن الثامن عشر ، وأنها مجهود للشعوب بكلياتها ربما حض على التكوين الاجتماعى عضاً عنيفاً ، وأنها مخامرة يجدر بالناس ألا يتهوروا بالإقدام عليها . ذلك أن الانقلاب الميكانيكى ما برح يقدم أسلحة مطردة القوة متزايدة النفقة فى البر والبحر ، ويستجدث وسائل للمواصلات أسرع ؛ كما كا يزيد كل يوم فى تعذر مواصلة الحرب بدون إحداث زعزعة تامة لحياة المجتمع

---

(١) أطلق المجمع اللغوى كلمة التسلطية لتكون مقابلا للفظة (imperialism) وهى المبدأ الداعى إلى توسيع رقعة الدولة بالاستعمار والاستلحاق والإضافة كلها وكيفما أمكن ذلك ، وإلى ربط الدولة أو الإمبراطورية مختلف ممتلكاتها حتى تصبح وحدة وثيقة الترابط ؛ وقد استعملنا لفظة الاستعمار أحياناً حين رأينا المقام يقتضيها فصلا عن استخدامنا لفظة إمبريالية لنفس المعنى . (المترجم)

الاقتصادية . بل لقد بلغ الأمر أن وزارات الخارجية نفسها أخذت توجس من الحرب خيفة .

ومع أن الناس كانوا يخشون الحرب كما لم يخشوها قط فى العالم فيما سلف ، لم يقم أحد بعمل يرمى إلى إقامة رقابة اتحادية لمنع الشئون الانسانية من أن تسير فى طريق الحرب . حقاً إنه حدث فى ١٨٩٨ أن القيصر الشاب نيقولا الثانى (١٨٩٤–١٩١٧) أصدر تصريحاً ملكياً يدعو به الدول الكبرى الأخرى إلى عقد مؤتمر دولى يرمى : « إلى تمكين الفكرة الكبرى فكرة السلام العام من النصر على عناصر الشغب والفرقة . » ويذكرنا تصريحه هذا بالاعلان الذى أعلنه سلفه إسكندر الأول والذى كان يدعو فيه لفكرة المحالفة المقدسة ، ولكن الشىء الذى أفسد التصريح إفتراض هؤلاء السادة بأن السلام يمكن أن يؤسس بين حكومات ذات سيادة ، لا باللجوء الشامل إلى حاجات وحقوق شعب البشرية الواحد . فأما الدرس المستفاد من الولايات المتحدة الأمريكية وعظتها التى أظهرت أنه من المحال أن توجد وحدة فى العمل أو سلام حتى تتغلب على النعرة القائلة « الشعب ڤرچينيا » — « وشعب ماساشوستس » فكرة « شعب الولايات المتحدة » جمعاء — فقد أغفل إغفالا تاماً فى كل ما بذل من محاولات للسلام فى أوربا .

وعقد مؤتمران فى لاهاى بهولندة ، أحدهما فى ١٨٩٩ والثانى فى ١٩٠٧ ، وكانت كل دول العالم ذات السيادة ممثلة تقريباً فى ذلك المؤتمر الثانى . على أن تمثيل تلك الدول كان تمثيلا ديبلوماسيا ، ولم يصدر أى توجيه يلفت الفطنة العالمية العامة إلى مناقشات المؤتمر وأعماله . بل إن الرجل العادى لم يكن ليعرف حتى مجرد أن هذين المؤتمرين كانا ينعقدان ، وكان الممثلون المجتمعون يقومون فى معظم أمرهم بمراوغات ثعلبانية حول نقط فى القانون الدولى تمس الحرب ، مهملين موضوع إلغاء الحرب زعماً منهم أنها وهم مخيف لا ظل له من الحقيقة . ولم يسفر هذان المؤتمران عن ثمرة ما تبدد الفكرة القائلة بأن الحياة الدولية إنما هى حياة منافسة بحكم الضرورة . بل على العكس فإن المؤتمرين فيهما سلموا بهذه الفكرة . ولم يقوموا بأى شىء يطورون به الوعى الخاص بالدولة العامة العالمية التى تعلو هامات الملوك

ووزارات الخارجية . وكان رجال السياسة والقانون الدولى الذين حضروا هذين الاجتماعين غير ميالين إلى الإسراع بإنشاء دولة عالمية على مثل هذا الأساس ، شأنهم فى ذلك شأن رجال السياسة البروسيين فى ١٨٤٨ فى عزوفهم عن الترحيب ببرلمان يمثل ألمانيا كلها ويسمو فوق حقوق وسياسة ملك بروسيا .

وفى أمريكا عقدت سلسلة من ثلاث مؤتمرات ترمى إلى إنشاء كتلة أمريكية فى ١٨٨٩ ، ١٩٠١ ، ١٩٠٦ فسارت شوطا ما فى سبيل وضع خطة لإيجاد تحكيم دولى فى القارة الأمريكية بأجمعها .

ولن نناقش هنا فى أى إسهاب شخصية وحسن نية نيقولا الثانى الذى كان صاحب الفضل فى عقد مؤتمرى لاهاى هذين ، فلعله زعم أن الزمان كان حليف الروسيا . على أن الأمر الذى لا شك فيه أن الدول العظمى قد نفرت جميعاً من احتمال قيام قوة تغطى على الدول ذوات السيادة وتغمرها فى طياتها ، وهى القوة التى لا تكون مشروعات السلم الدائم بدونها إلا سخفاً وهراء . ولم يكن ما يرغبون فيه هو إيقاف التنافس الدولى ومرحلته الحامية العنيفة وأعنى بها الحرب ، بل يبتغون تخفيض نفقات الحرب التى أخذت تصبح باهظة ثقيلة . وكانت كل من الدول ترغب فى الاقتصار فيما ينتج عن المنازعات والمشاحنات الصغرى من سرف ، وتشريع قوانين دولية تربك أقوى خصومها أثناء الحرب دون أن تضايق نفسها بشىء . تلك هى الغايات العملية التى يطلبون من مؤتمر لاهاى . كان إجتماعاً حضروه ليرضوا نيقولا الثانى على نفس الشاكلة التى اشترك بها ملوك أوربا فى المقترحات الدينية المسيحية الخاصة بالحلف المقــدس لكى يرضوا إسكندر الأول ، ولما أن حضروه حاولوا جاهدين أن يحصلوا منه على ما ظنوه شيئاً من الإفادة به لأنفسهم .

٢ ـ ألمانيا القيصرية

غادر صلح فرانكفورت ألمانيا موحدة مصطبغة باللون البروسى ، وخلفها اشد دول أوربا الكبرى منة . وكانت فرنسا قد أصبحت ذليلة عاجزة وبات محتملا أن

تحولها إلى النظام الجمهوى قد يفضى إلى تركها وحيدة بغير صديق فى أى من البلاطات الأوربية . وكانت إيطاليا حتى آنذاك مجرد دولة حديثة العهد . وأخذت النمسا تتدهور سريعاً آنذاك إلى مرتبة الولاية التابعة فى السياسة الألمانية . وكانت الروسيا دولة ضخمة ولكنها غير مطورة ولا منظمة . ولم تكن الإمبراطورية البريطانية ذات بأس إلا على صفحة البحر . فأما خارج أوربا فإن الدولة الوحيدة التى كانت ألمانيا تحسب حسابها فهى الولايات المتحدة ، وقد تنمو عند ذاك وتصبح أمة صناعية كبيرة ، وإن لم يكن لها جيش ولا أسطول جديران بأى اعتبار حسب المعايير الأوربية .

وكانت ألمانيا الجديدة التى ضمتها الإمبراطورية التى خُلقت فى فرساى ، مزيجاً مركباً مدهشاً من قشيب القوى الذهنية والمادية فى العالم ، مع أضيق ما فى النظام الأوربى من تقاليد سياسية . اتجهت إلى التعليم بكل قوتها ، فكانت أشد دول العالم قاطبة اهتماماً بالتعليم . فهى صاحبة السبق فى التعليم والقائدة لكل جيرانها ومنافسيها .

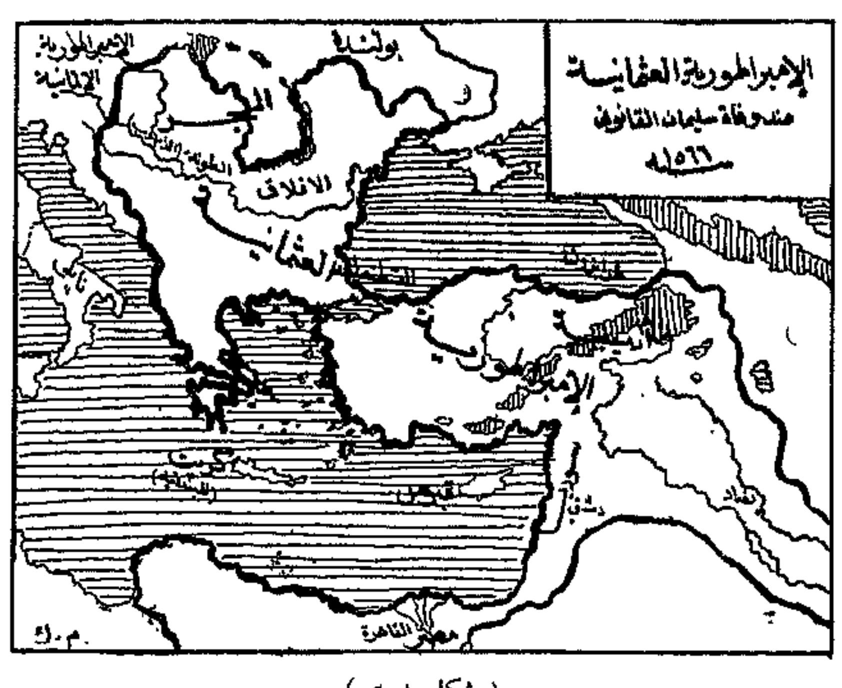
وفى هذا الوقت الذى نقدم فيه حساب ألمانيا ، ربما ساعد القارئ البريطانى على اتخاذ موقف متزن منها أن يتذكر تلك الاستثارة التعليمية التى تدين بها بلاده للأمير الألمانى زوج الملكة فكتوريا أولا ثم للمنافسة الألمانية . فإن تلك الغيرة الوضيعة التى كانت تخالج طبقة الحكام فى بريطانيا من الرجل العادى المتعلم ، والتى لم يستطع أى شعور بالكبرياء الوطنى أو بالدافع السمح الكريم أن يتغلب عليها أبداً ، تلك الغيرة قد تقوضت إزاء ذلك الخوف المتزايد من الكفاية الألمانية . وحملت ألمانيا نظام البحث العلمى ونظام تطبيق الطريقة العلمية فى التطورات الصناعية والاجتماعية ، على مستوى من الإيمان والنشاط والهمة لم يصل إليه مجتمع آخر من قبل قط

فكانت ألمانيا طيلة كل هذه فترة الهدنة المسلحة تحصد وتبذر من جديد ثم تعود وتحصد المحاصيل ، المحاصيل الثابتة المضمونة ، العائدة من العرفان المنثور نثراً طليقاً . وسارت ألمانيا بخطى سريعة حتى أصبحت دولة صناعية وتجارية كبرى . وقد برّ

إنتاجها فى الصلب إنتاج بريطانيا ، وأصبحت ألمانيا قائدة العالم ورائده فى مئات من الميادين الجديدة للانتاج والتجارة ، حيث المعوّل الأول على الذكاء والنظام أكثر منه على مجرد مكر التاجر ، من أمثال صناعة زجاج العدسات ، والأصباغ وعدد كبير من المنتجات الكيماوية ، وفيما لا يحصى من العمليات المستحدثة . وقد اعتاد أصحاب المصانع البريطانيين أن يروا المخترعات تنحدر إلى مصانعهم مصحوبة برجاء قبولها واستعمالها ، ودون أن يعرفوا من أين جاءت تلك المستحدثات ولا لماذا جاءت ، ولذا كانوا يرون فى هذا الأسلوب الألمانى الجديد الذى يحتفظ برجال العلم ويدفع لهم المرتبات ، معاملة ظالمة ظلماً بشعاً . وكانوا يشعرون بأن ذلك ضرب من اجتذاب الأموال قسراً . أو قل إن ذلك فى نظرهم كان ضرباً من رصّ أوراق اللعب بقصد الغش والتدليس . وكان ذلك أمراً ينطوى على تشجيع طبقة دنسة من ذوى العقليات الذكية أن يتدخلوا فى شئون رجال الأعمال الشرعيين . ولذا فإن العلم غادر موطنه الأول إلى الخارج كما يغادر الطفل المكروه دار أبيه . إذ أن صناعة ألمانيا الكيمائية الفاخرة كان الأصل فيها عمل السير وليم پركن ذلك الرجل الانجليزى ، الذى لم يجد من بين رجال الأعمال الانجليز رجلا « عملياً » يناصره .

كذلك قادت ألمانيا العالم فى كثير من أشكال التشريعات الاجتماعية . إذ أدركت ألمانيا أن العامل « رصيد » قومى ، وأن ذلك الرصيد تبليه العطالة ، وأنه لابد من أجل الخير المشترك من أن يُعنى به خارج المصانع . وكان صاحب العمل البريطانى ما يزال متأثراً بالخدعة القائلة بأنه ليس من حق العامل أن يعيش خارج المصنع ، وأنه كلما ساء حال عيشه الخارجى ذاك ، كان ذلك خيراً له على شاكله ما . زد على ذلك أن اصحاب الأعمال كانوا بسبب تفشى الأمية بينهم شديدى النزعة الفردية ، ولذا فإن المنافسة الشائعة بينهم كانت من الصنف الأحمق الذى يتميز به العقل السوقى . وكان الواحد منهم يكره من يحيطون به من أصحاب المصانع كرهه عماله وزبائنه . فأما المنتجون الألمان فكانوا من الناحية الأخرى ، مقتنعين بالفوائد الكبيرة التى تجنى من التضامن والدماثة . ولذا كانت مشروعاتهم تنزع إلى السير كتلة واحدة وتتخذ رويداً رويداً سمة العمل القومى .

وكانت ألمانيا هذه المعلمة لشعبها والعلمية الروح والمنظمة لأعمالها هى التطور الطبيعى لألمانيا التحررية فى ١٨٤٨ ؛ وكانت جذورها ترجع إلى عهد قديم بعيد وإلى ذلك الجهد الناجع الذى كان يستمد الدافع من الخجل من الفتوح النابليونية . فكل مانالها من خير ، وكل ما أصابت من عظمة ، فألمانيا العصرية هذه تدين فيه لمدرسيها بالفضل الكبير .



(شكل ٢٠٨)

على أن هذا الروح العلمى المنظم لم يكن إلا واحداً من العاملين اللذين كونا الإمبراطورية الألمانية الجديدة . فأما العامل الثانى فهو أسرة هوهنزولرن التى بقيت بعد معركة يينا ، والتى خدعت ثورة ١٨٤٨ وتغلبت عليها ، والتى ارتفعت الآن بقيادة بسمارك إلى مرتبة الرياسة الشرعية لألمانيا بأجمعها فيا عدا النمسا . وفيا عدا الروسيا القيصرية لم تحافظ دولة أوربية أخرى على تقاليد ملكية القرن الثامن عشر العظمى كما فعلت الدولة البروسية . فكان مكياڤلى عند ذلك هو المسيطر على ألمانيا بطريق تقاليد فردريك الأكبر . وعلى ذلك فإنه لم يكن يجلس على عرش هذه

الدولة العصرية الجديدة الممتازة عقل عصرى ممتاز يقودها إلى السيادة العالمية فى خدمة العالم ، بل كان يتولاها عنكبوت عجوز يتحرق شوقاً إلى القوة . فكانت ألمانيا البروسية هى فى نفس الوقت أحدث وأقدم شيء فى أوربا الغربية . كانت خير الدول فى زمانها وأشدها شراً .

ولم تزل سيكولوجية الأمم علما بدائياً ليس غير . فإن علماء النفس لم يكادوا يبدأون بعد فى دراسة ناحية المواطن فى الرجل الفرد . على أننا نرى من الفائدة القصوى لموضوعنا أن يوجه دارس التاريخ العام شيئاً من تفكيره إلى النمو العقلى فى أجيال المتعلمين الألمان منذ انتصارات ١٨٧١ . فمن الطبيعى أن يداخلهم الغرور لما أصابوه من انتصارات جارفة ليسوا أهلا لها ، ولما نالوه من انتقال سريع من الفاقة النسبية إلى الثراء المطلق . ولعلنا نكلفهم ضد طبيعة الإنسان إذا توقعنا منهم ألا يغلب عليهم شيء من الإسراف فى الغرور الوطنى . ولكن هذا رد الفعل قد أُمسك به قصداً وتُعهد ونُمِّى بواسطة استغلال ينظمه ورقابة مُحْكَمة للمدرسة والجامعة والأدب والصحافة لمصلحة آل هوهنزولرن .

فكل مدرس أو أستاذ فى الجامعة لا يدرّس ولا يبشر بمناسبة وبغير مناسبة باستعلاء الألمانيين العنصرى والذهنى والخلقى والجثمانى على بقية الشعوب جميعاً ، وتعلقهم غير العادى بالحرب وأسرتهم المالكة ، ومركزهم الذى لا محيص للأيام من أن تبوئهم إياه تحت هذه الأسرة فى قيادة العالم ، — فشخص شاذ قد ندّ عن الجماعة وقدر عليه الفشل وضياع المستقبل . وأمسى تعليم التاريخ فى ألمانيا تزييفاً هائلا منظما لماضى البشرية ، لا ينظر إلا إلا مستقبل آل هوهنزولرن . وكانت كل الشعوب الأخرى تُمثَّل لأنظارهم فى صورة المنحلّة غير ذات الكفاية ؛ وأن البروسيين هم قادة الجنس البشرى ومجددو شبابه .

فيقرأ شباب ألمانيا هذا القول فى المدرسة ويسمعونه فى الكنيسة ، ويجدونه على صفحات كتب الأدب ، ثم يصبه فيهم بحمية وإيمان وثيق أستاذهم ، ويبثه فيهم كل أساتذتهم بلا استثناء . وإن المحاضرين فى علم البيولوجيا والرياضيات لينفلتون من موضوعاتهم الأصلية لينعموا بفقرات طويلة من الهذر الوطنى . ولم يكن

ليستطيع أن يقاوم مثل هذا السيل المنهمر من الإيحاء إلا من أوتوا عقولا قوية ذات أصالة غير عادية . وهكذا أقيمت فى ذهن الألمان دون أن يشعروا فكرة تصور ألمانيا وقيصرها فى صورة الشيء المستعلى الفاخر الفخم الذى لم ير العالم مثله من قبل ، صورة شعب صيغ على غرار الآلهة وألبس « دروعاً سابغات لامعة » وهو يهز « الحسام الألمانى البتار » وسط عالم من شعوب أدنى مرتبة ذات نفوس ميالة للشر .

ولقد أسلفنا إليك قصة أوربا ، وفى إمكان القارئ أن يحكم هل كان بريق السيف الألمانى يخطف الأبصار حقاً بشكل ليس له من ضريب ؟ . إن « چرمانيا » كانت تُعطى المخدر عمداً ، ثم تُستبقى ثملة بطريقة مرتبة منظمة ، بواسطة هذا الضرب من البلاغة الوطنية . وإن أكبر جريمة اقترفها آل هوهنزولرن أن تاجهم كان يعبث بالتعليم عبثاً متواصلا ملحاحاً ، وبوجه خاص بتعليم التاريخ . ولم تقترف أية دولة عصرية أخرى مثل هذا الاسم فى حق التعليم . أجل إن حكم القلة (الأوليجركية) فى الجمهورية البريطانية المتوجة ربما يكون عرقل التعليم ومنع عنه القوت ، ولكن آل هوهنزولرن قد أفسدوه واتخذوا منه بغياً .

ولسنا نغالى مهما بالغنا فى توضيح تلك الحقيقة — التى هى أعظم حقائق تاريخ نصف القرن الأخير أهمية — إذا قلنا إن الشعب الألمانى قد بثت فيه بطريقة منهاجية الفكرة القائلة بسيادة ألمانيا العالمية المؤسسة على القوة والجبروت ، والنظرية القائلة بأن الحرب ضرورة من ضرورات الحياة . وإنك لتعثر على مفتاح السياسة الألمانية فى تعليم التاريخ فيما أثر عن الكونت مولتكه من قوله : « إن السلام الدائم حلم من الأحلام بل إنه ليس حلما جميلا . وإنما الحرب عنصر من عناصر نظام العالم أمر به الله . فلولا الحرب لأسن العالم وفقد نفسه فى الروح المادية . » كذلك وجد الفيلسوف الألمانى نيتشه نفسه متفقاً فى الآراء مع هذا الفيلد ماريشال الورع !!... فيقول « إن من محض الوهم وجميل العاطفة ، أن يتوقع المرء شيئاً كثيراً ، بله أى شيء من البشرية إذا هى نسيت كيف تشب نار الحرب ولا يعرف الناس حتى يومنا هذا وسيلة تدعو كل شيء إلى الحركة والنشاط قدر ما تفعل إحدى الحروب الكبرى : تلك الطاقة

الخشنة التى يتخمض عنها المعسكر ، وذلك الضرب العميق من فناء الشخصية الذى يستقى وجوده من الكراهية ، وذلك الضمير المستوى من القتل ورباطة الجأش ، وتلك الحميّة الراجعة إلى الجهد المبذول فى إبادة الأعداء ، وذلك الكبرياء الذى يوحى بعدم الاكتراث بالخسائر ، بل بوجود المرء نفسه ، بل بوجود زملائه أيضا ؛ وذلك الضرب من رج النفوس رج الزلزال الذى يحتاجه الشعب إذا هو فقد حيويته » .

وكان حتما أن يلحظ الناس فى الخارج ذلك النوع من التعليم الذى كان يأخذ بأطراف الإمبراطورية الألمانية من أقصاها إلى أقصاها ، وكان حتما أن تنزعج له كل دولة أخرى وكل شعب آخر فى العالم ، وكان حتما أن يستثير تحالفاً ضد الألمان ، خاصة وقد صحبته مظاهرة من استعدادات القوة العسكرية ، سرعان ما عقبها استعدادات للقوة البحرية ، هددت فرنسا والروسيا وبريطانيا على السواء . وأثرت تلك التربية أيضاً فى أفكار الشعب الألمانى وأخلاقه ومعنوياته .

فبعد ١٨٧١ كان الألمانى فى خارج بلاده يبرز صدره ويرفع عقيرته . فنزل العالم يحيط به جو من الدفع بالمناكب والدوس بالأقدام حتى فى العمليات التجارية البحتة . وجاءت آلاته إلى أسواق العالم وغمرت سفنه البحار فكان لها رشاش من التحدى الوطنى . بل لقد طالما استعمل مناقبه ومحاسنه نفسها وسيلة لتكدير صفو من عداه . (والراجح أن معظم الشعوب الأخرى ، ما كانت لتسلك إلا مثل هذا السبيل ، لو أنها لقيت مثل تجاربهم وتلقت نفس تعليمهم .)

وقد حدث بسبب بعض ما يحدث فى التاريخ من مصادفات تتقمص الكوارث وتعجل بها ، أن حاكم ألمانيا وأعنى به القيصر غليوم الثانى كان يتجسم فيه التعليم الجديد لشعبه والتقاليد الهوهنزولرنية بأكمل أشكالها . تولى العرش فى ١٨٨٨ وهو فى التاسعة والعشرين ؛ وكان أبوه فردريك الثالث قد عقب جده غليوم الأول فى مارس ولكنه توفى فى يونيه من تلك السنة نفسها . وكان غليوم الثانى حفيداً للملكة فكتوريا من ناحية أمه ، ولكن لم يبد على مزاجه أى أثر للتقاليد الألمانية التحررية التى تمتاز بها عائلة ساكس كوبرج جوثا . بل كانت رأسه مليئة بذلك الزبد الأجوف عن « التسلطية » الجديدة . وقد ميز توليته العرش بخطاب وجهه إلى جيشه وأسطوله ،

وجاء خطابه إلى شعبه بعد ذلك بثلاثة أيام . وبذلك ارتفعت فى الجو نغمة عالية من الإحتقار للديمقراطية : « إن الجندى والجيش وليس الأغلبيات البرلمانية هما اللذان التحمت على أيديهما أجزاء الإمبراطورية الألمانية بعضها ببعض ، وإنى لأضع ثقتى فى الجيش » وهكذا أنكر الإمبراطور عمل المدرسين الألمان الذى قاموا به بصبر [illegible] ، وأهملوا تعليم الألمان وهم منطوون على الأغريق والرومان !! .

وكانت ثانية فعال الملك الشاب أن يتخلص من مستشاره الشيخ بسمارك (١٨١٥ — ١٨٩٨) ، الذى كون الإمبراطورية الألمانية الجديدة وأن عزله فى (١٨٩٠) ولم تكن هنالك أية خلافات عظيمة فى الرأى بينهما ، ولكن الأمر كان كما عبر عنه بسمارك ، أن الإمبراطور قرر أن يكون مستشاراً لنفسه .

وهاتان الحادثتان هما الفاتحتان الاستهلاليتان لحياة تجلى فيها النشاط والعدوان . وكان غليوم الثانى هذا يرمى إلى إحداث ضجة فى العالم ، ضجة أعلى صوتاً مما أتاه أى ملك آخر فى العالم . ومن ثم كان ما يحدث فى كل أوربا شخص الداخل الجديد ، وهو على الدوام فى زى عسكرى أشد ما يكون بريقاً والتماعاً ، ويتفرس بعينيه تفرس الكمى الشجاع وقد فتّل شاربيه فتلا عنيفاً ، كما أخفى بمهارة ذراعه الأيسر الأكتع الصغير الحجم . وكان يضع على صدره لوحات من المعدن الفضى البراق ويرتدى عباءات طويلة بيضاء . وتجلت فى الأفق سحائب عظيمة من القلق . وكان واضحاً أنه يرى فى نفسه شخصاً وضعت بين يديه مقدّرات أمور عظيمة ، ولكن انقضى على الناس زمن لم يتبينوا فيه ما هى تلك المقدرات الخاصة العظيمة . فلم يكن هنالك هاتف يهتف فى دلفى أنه لا بد محطم إمبراطورية عظيمة[1] .

وقد داخل الانزعاج كثيراً من رعاياه لما شهدوه عليه من مظاهر مسرحية أعقبها عزل بسمارك ، ولكن اطمأنت قلوبهم من فورهم إلى أنه إنما يستعمل نفوذه فى توطيد السلم وفى تمكين الروابط المتينة بين أجزاء ألمانيا . ولقد أكثر من السفر ، إلى لندن

---

(١) يشير المؤلف هنا إلى النبوءة التى تلقاها كروسوس من وحى دلفى عندما استشاره فى أمر محاربة قورش (انظر ص ٣٤٣ ط ٢ المعالم) . (المترجم)

وفيينا وروما (حيث قام بمحادثات خاصة مع البابا) وإلى أثينا ، (حيث تزوجت شقيقته من الملك فى ١٨٨٩) وإلى القسطنطينية . فكان أول عاهل مسيحى حل ضيفاً على سلطان . كذلك ذهب إلى فلسطين . ونقبت له فى سور بيت المقدس القديم بوابة خاصة حتى يستطيع أن يدخل المدينة راكباً ، إذ كان الدخول إليها على القدم أمراً لا يتناسب ومكانته . وحمل السلطان على البدء بإعادة تنظيم الجيش التركى على أسس ألمانية وبقيادة ضباط ألمان .

وفى ١٨٩٥ أعلن أن ألمانيا « دولة عالمية كبرى » وأن « مستقبل ألمانيا يقوم فى صفحة البحر » — غير عابئ إلى أن البريطانيين كانوا يعدون أنفسهم مستوين على سطحه من قبل وأصحاب الحق فيه . وأخذ يهتم أكثر فأكثر ببناء بحرية عظيمة . كذلك وضع الفن الألمانى والأدب والألمانى تحت رعايته ، واستعمل نفوذه للاحتفاظ بالحروف الألمانية الخاصة السوداء المتعبة للبصر دون الحروف اللاتينية التى تستعملها بقية أوربا الغربية ، كذلك ناصر حركة الكتلة الألمانية الكبرى التى تدعى انضواء الهولنديين والإسكندناويين وفلمنكيى بلچيكا وألمان سويسرا فى عضوية أخوّة ألمانية عظيمة — وهى فى الواقع مادة طيبة يمكن تمثلها فى إمبراطورية جائعة صغيرة تريد أن تكبر وتنمو . وغطى ضياؤه الباهر على ضياء كل عاهل فى أوربا .

واستغل الشعور العدائى العام الذى فشا فى كل أوربا ضد بريطانيا بسبب الحرب بينها وبين جمهوريتى البوير ، لكى يواصل خططه الرامية إلى تكوين أسطول عظيم ، فأدى ذلك عدا النمو السريع والتحدى الظاهر فى اتساع مستعمرات الإمبراطورية الألمانية فى أفريقيا والمحيط الهادى ، إلى غلبة الانزعاج على البريطانيين وإثارة ثائرتهم . وألفى أحرار الرأى فى بريطانيا بوجه خاص أنفسهم تحت ضرورة تقذى لها نفوسهم حنقاً ، تضطرهم أن يناصروا فكرة الاستمرار فى زيادة أساطيلهم البحرية البريطانية زيادة متواصلة . قال : « لن يهدأ لى بال حتى أرفع بحريتى إلى نفس المستوى الذى يتبوأه جيشى » . ولم يكن أشد الناس فى الجزائر البريطانية حباً فى السلام ليستطيع أن يتجاهل هذا التهديد . وكان

قد أخذ من بريطانيا فى ١٨٩٠ جزيرة هليجولند الصغيرة ، فحولها إلى قلعة بحرية عظيمة .

وكان كلما كبرت بحريته كثرت مشروعاته ومطامعه . فأعلن أن الألمان هم « ملح الأرض » وأنهم يجب « ألا يمسهم فى خدمة المدنية لغوب ؛ وأن ألمانيا شأن روح روما الإمبراطورية يجب أن تتسع وتفرض على الناس نفسها » . وقد نطق بهذا التصريح فى الأراضى البولندية مناصراً به ما تبذله ألمانيا من مجهودات متواصلة للقضاء على اللغة البولندية والثقافة البولندية ، ولصبغ نصيب ألمانيا من پولندة بالصبغة الألمانية . ولقد نعت الله بأنه « حليفه المقدس » . وكان الملك فى الدول الاستبدادية القديمة إما هو الرب نفسه أو وكيل الرب المختار ؛ فأما القيصر فكان يعد الله تابعه الأمين . قال فى كثير من مظاهر المحبة والتودد « ربنا الشيخ » . وعندما إستولى على كياوتشاو انطلق يتكلم عن « القبضة الفولاذية الألمانية » . وعندما ناصر النمسا على الروسيا تكلم عن ألمانيا فى « دروعها اللامعة » .

ولما أصيبت الروسيا بالكوارث فى منشوريا فى ١٩٠٥ إنطلقت الروح الاستعمارية الألمانية من عقالها لتقوم باعتداءات أكثر جراءة . إذ بدأ أن الخوف من قيام فرنسا والروسيا بهجوم مشترك أخذ خطره يزول . وقام الامبراطور بشىء يشبه الرحلة الملكية فى الأراضى المقدسة ، ونزل فى طنجة ليؤكد لسلطان مراكش مناصرته له على الفرنسيين ، ثم أنزل بفرنسا إهانة بليغة بإجبارها على عزل وزير خارجيتها دلكاسيه تحت التهديد بإعلان الحرب عليها . كذلك زاد فى شد الروابط بين النمسا وألمانيا ، وفى (١٩٠٨) تحدت النمسا ــ بمناصرته ــ كل أوربا بأن أخذت من الترك الولايتين اليوغسلافيتين البوسنة والهرسك . وبهذا التحدى البحرى لبريطانيا وبهذه الاعتداءات على فرنسا والسلافيين أجبر بريطانيا وفرنسا والروسيا على إنشاء تفاهم دفاعى ضده ؛ وكان لضم البوسنة أثر آخر هو إغضاب إيطاليا ، التى كانت حليفة له حتى ذلك الحين .

تلك هى الشخصية التى أبى شؤم الطالع إلا أن يجلسها على عرش ألمانيا لكى يستثير العالم كله وينظمه فى سمط واحد ويجعل من المستحيل عليه أن يُطيق الكبرياء

الطبيعي والاعتداد بالذات من شعب عظيم أفلت آخر الأمر بعد قرون طويلة من الفرقة والضعف — من قبضة حكم متفرق لثلة من الأمراء . ثم اتخذت كلمته وحاز إحترام العالم . وكان طبيعياً أن قادة ألمانيا الجديدة هذه فى ميادين التجارة والصناعة الذين أخذوا عند ذلك يثرون ، وأن الماليين المهتمين بأعمال الاستغلال وراء البحار ، وأن الموظفين والسوقة ، — لا بد واجدون فى هذا الزعيم شخصاً يروقهم كثيراً ويتفق مع أذواقهم تماماً . والكثير من الذين كانوا يظنونه أهوج شديد التظاهر فى قرارة نفوسهم ، كانوا ينصرونه فى العلن لأنه كانت له نغمة نجاح أخاذة . ليحيا القيصر (Hoch der Kaiser) .

ومع هذا فإن ألمانيا لم تسلم نفسها دون مقاومة للتيار الاستعمارى المنهمر . فإن عناصر هامة فى الحياة الألمانية كانت تكافح ضد هذه الأوتوقراطية الجديدة المختالة . فرفضت الشعوب الألمانية القديمة والبافاريون بوجه خاص أن تبتلعهم الروح البروسية . وكذلك حدث مع انتشار التعليم وانتقال ألمانيا السريع إلى الصناعة ، أن طورت هيئات العمال المنظمة فكراتها وأن ظهرت حركة عداء مطرد لشقشقة عاهلها فى شئون العسكرية والوطنية . وأخذ ينمو فى البلاد حزب سياسى جديد ، هو حزب الديمقراطيين الاشتراكيين الذى كان يقول بمبادئ ماركس . واطرد نمو هذا الحزب بالرغم من كل أنواع المعارضة التى صدرت من ناحية الهيئات الرسمية والدينية ، وبالرغم من قوانين القمع الصارمة التى صدرت ضد دعايته وضد كل اتحاد أو تكتل .

وراح القيصر يتوعده المرة بعد الأخرى . وسيق زعماؤه إلى السجون أو طردوا خارج ألمانيا . ومع هذا فإن الحزب تزايد ونما . فإن عدد ناخبيه عند ما تولى القيصر العرش لم يكن يتجاوز نصف المليون . وأربى ناخبوه فى ١٩٠٧ على الثلاثة الملايين عداً . وحاول القيصر أن يقبل أشياء كثيرة كالتأمين ضد الشيخوخة والمرض متخذاً منها منحة يمن بها عليهم ، وهى أشياء كان الحزب يطالب بها للعمال بوصفها حقاً أصيلا لهم . وكان اعتناقه مذهب الاشتراكية أمراً ملحوظاً ، ولكنه لم يكسب مذهب التسلطية (Imperialism) أنصاراً جدداً . وشرع الحزب يشهر بأطماعه البحرية تشهيراً مريراً

تجلت فيه الكفاية والاقتدار . وأخذ هذا الحزب القائم على الرجل العادى وما ركب فيه من سداد البصر بالأمور يهاجم مغامرات الرأسماليين الألمان المحدثين فى بلاد المستعمرات مهاجمة متواصلة لا هوادة فيها . على أن الحزب الاشتراكى الديمقراطى كان يولى الجيش مناصرة متوسطة ، لأنهم مهما بلغ من كراهيتهم للأوتوقراطى المستبد الذى يتضخم فى أرض الوطن ، فلشد ما كانوا يكرهون ويزدرون [illegible] الأوتوقراطية الروسية الهمجية (المتبربرة) الوحشية الرابضة على حدودهم الشرقية .

وكان الخطر البارز أمام ناظرى ألمانيا هو أن تدعم هذه الروح الاستعمارية [illegible] بريطانيا والروسيا وفرنسا على القيام ضدها بهجوم متحد مشترك عليها [illegible] خطة هجومية دفاعية . وكان القيصر يتأرجح بين اتخاذ موقف الشدة حيال بريطانيا وبين محاولات سمجة لا سترضائها ، على حين كان أسطوله [illegible] للاشتباك مع الروسيا وفرنسا . وعندما اقترحت الحكومة البريطانية فى [illegible] الجانبين عن إقامة المنشآت البحرية لمدة عام واحد ، رفض الاقتراح .

ومن نكد طالع القيصر أن نكبته الأيام بولى عهد وويث أشد تعصباً لآل هوهنزولرن ، وللاستعمار والكتلة الألمانية من أبيه نفسه . تغذى بألبان الدعاية الاستعمارية . وكانت لعبه جنوداً وبنادق ومدافع . فحاول أن يختطف قبل الأوان محبة شعبه بأن يبز أباه فى اتخاذ مظاهر الوطنية والعدوان . وكان الناس يشعرون أن أباه قد دلف إلى الكهولة والى ما يرافقها من زيادة حذر واحتراس . فجدد ولى العهد شباب أبيه . ولم تكن ألمانيا بلغت قط من قبل مثل هذه الدرجة من القوة ، ولا من الاستعداد لمغامرة جديدة كبيرة ولحصول جديد من الانتصارات . وقد عُلِّم أن الروس فى اضمحلال وأن الفرنسيين فى فساد وانحلال وأن الانجليز على شفير حرب أهلية .

ولم يكن هذا الولى العهد الشاب إلا نموذجاً لشباب الطبقة العليا الألمانية الوثاب الوفير العدد فى ربيع ١٩١٤ . إذ كانوا بأجمعهم نهلوا من كأس واحدة . فكان أساتذتهم ومعلموهم وخطباؤهم وزعماؤهم وأمهاتهم وحبيباتهم ، يعدونهم للمناسبة العظيمة التى كانت عند ذاك وشيكة فى متناول الأيدى . وكان يملأ نفوسهم شعور

فياض مختلج بالصراع الداخلي الوشيك ، وبالنفير يدعوهم إلى القيام بأعمال جسام هوائل ، وبالنصر على البشرية فى الخارج ، والفوز على العمال المعاندين فى الداخل . وكانت البلاد متوترة تتفزز للحرب كما يتوثب مُتبار رياضى عند نهاية تدريبه .

٣ — الروح الإستعمارية فى بريطانيا وإرلندة

كانت ألمانيا طيلة فترة الهدنة المسلحة هي البادئ بكل شيء والقدرة المحتذاة فى كل شيء فى أوربا بأجمعها . وكان تأثير مبادئها الجديدة الخاصة بالاستعمار العدوانى قوياً بوجه خاص فى الذهن البريطانى[1] ، الذى كان واهن القدرة على مقاومة أية طعنة ذهنية قوية توجه إليه من خارج بلاده . وكان دافع النشاط التعليمى الذى بعثها إليه « الأمير الزوج » قد ذهب بوفاته ، وحال بين جامعتى أوكسفورد وكمبردج وبين قيامهما بواجبهما فى تنقيح تعليم الطبقة العليا تنقيحاً فعالا ، ما قام فى سبيلهما من ألوان المخاوف والتحيز التى ثارت بسبب ما يسمونه باسم « الكفاح بين العلم والدين » — فى نفوس رجال الدين الذين كانوا يتسلطون عليهما بوساطة المجامع الإكليروسية ؛ وأدت الخصومات الدينية إلى تعجيز التعليم العام وخلّفته كسيحاً هزيلا ، وزاد حاله سوءاً شدة تقتير السلطات العامة عليه فى النفقات ، ورغبة أصحاب الأعمال فى استخدام الأطفال ، واعتراض أصحاب مذهب الفردية على « تعليم أبناء الناس الآخرين » .

وكانت تقاليد الانجليز القديمة ، وأعنى بها تقاليد الصراحة فى القول واحترام القانون والرغبة فى العدالة ، وقدر بعينه من الحرية الجمهورية ، قد ذوت ذوياً جسيماً أثناء ويلات الكفاح ضد نابليون . وكانت الروح الرومانسية ، التى كان بطلها الأكبر هو الروائى الكبير السيروالترسكوت ، قد دست فى الخيال القومى عدوى التلهف على الزاهى البرّاق والجميل الرائع . وكان المستر بريجز الشخصية

---

(١) يتحدث المؤلف عن قوة أثر ألمانيا وروحها الاستعمارية العدوانية فى الذهن البريطانى ، كأنما ذلك الذهن طفل ساذج غرير ليس له تاريخ القرون الطويلة من المكيافلية الماكرة والاستعمار العدوانى الأسود ! ! . (المترجم)

الكوميدية الانجليزية فى مجلة بَنْش (Punch) فى ١٨٥٠ ، ١٨٦٠ ممثلا تمثيلا لابأس به لروح الحركة الجديدة باتخاذه زى أهل المرتفعات الاسكتلندية وترصده الغزلان .

وسرعان ما خطر ببال المستر بريجز شىء عدّه حقيقة مشرقة جديرة بالتصديق لم يلحظها من قبل ، هو أن الشمس لا تغرب عن ممتلكاته أبداً ! ! . . . فالقطر الذى قدم للمحاكمة كلايف ووارن هاستنجس لمعاملتهما الآثمة لأهل الهند قد اقتنع الآن تمام الاقتناع بأن يعدهما شخصين من أهل الفروسية التامة والاخلاص المطلق . إذ أنهما من « بناة الإمبراطورية » . وحدث بتأثير سحر خيال دزرائيلى الشرقى الذى جعل من الملكة فكتوريا « إمبراطورة » ، أن التفت الرجل الانجليزى راضياً مسروراً نحو الأبهات الغامضة التى تنطوى عليها « الإمبريالية » العصرية .

وشرع كل من علم السلالات البشرية (الإثنولوچيا)[1] المحرف والتاريخ المشوه اللذين كانا بصدد إقناع الخليط الألمانى المكون من العناصر السلافية والكلتية والتيوتونية بأنها جنس مدهش قائم بذاته ، — أن يكون مثلا يحتذيه الكتاب الانجليز الذين أنشأوا يفخمون اختراعاً إثنولوچياً جديداً هو « الأنجلو ساكسون » . وقدم هذا المزيج العجيب إلى العالم بوصفه الأوج الذى بلغته الانسانية ، والتاج والثواب الأوفى للجهود المتراكمة التى بذلها الإغريق والرومان والمصريون والأشوريون واليهود والمغول وأمثالهم من السلف المنحط ، المؤذن بفخامته البيضاء . وكان للأسطورة السخيفة الخاصة بالفوق الألمانى أثر كبير فى إيغار صدور البولنديين فى پوزن والفرنسيين فى اللورين ، ولم يقتصر أمر الأسطورة الأشد مهزلة أسطورة تفوّق الأنجلوساكسون « على مجرد زيادة الحنق من الحكم الانجليزى فى إرلندة ، بل حطت من روح المعاملات البريطانية مع الشعوب « المحكومة » فى كل أرجاء العالم قاطبة . ذلك أن إنقطاع حبل الاحترام والتوقير عن ازدراع الفكرات الرفيعة ليس لها إلا معنى واحد هو امتناع التأدب والعدل .

ولم تقف محاكاة المفاهيم الألمانية الخاطئة فى الوطنية عند حد هذه الخرافة

---

(١) الأثنولوچيا : علم السلالات البشرية وتفرعاتها . (المترجم)

« الأنجلوساكسونية » . فإن النابهين من الشبان فى الجامعات البريطانية إبان العقدين التاسع والعاشر عمدوا وقد برموا بما يبدى فى السياسة الداخلية من تفاهة وقلة إخلاص ، إلى تقليد ومنافسة هذه التعاليم الجديدة التى كان ينشرها خصم إستعمارى قوى النزعة صلف ، خبيث قوى وأعنى به ذلك المزيج بين مكيافللى وأتيلا الذى كان يفرض على فكر ومناشط ألمانيا الفتية . فقد رأى شباب بريطانيا أولئك أن بلادهم كذلك يجب أن تكون لها دروعها اللوامع وأن تلوح بحسامها البتار

وقد وجد الاستعمار البريطانى الجديد شاعره فى شخص المستر كبلنج ووجد تأييداً عملياً من جانب عدة من أرباب المصالح المالية وأصحاب الأعمال الذين كان يضىء لهم نور الاستعمار طريق الاحتكار والاستغلال . وحمل هؤلاء الانجليز من دعاة المطالبون بالصباغ البروسى محاكاتهم لألمانيا إلى أبعد الغايات . ولا مراء فى أن أوربا الوسطى هى مجموعة إقتصادية واحدة متصلة الحلقات ، تُشغّل على أحسن حال بوصفها وحدة واحدة ؛ وقد فازت ألمانيا الجديدة باتحاد جمركى عظيم الشأن ، وهو إتحاد زولفراين (Zollverein)[1] يضم كل أعضاء أسرتها الألمانية . وطبيعى أن تصبح مجموعة متماسكة تماسك قبضة اليد المقبوضة . على حين كانت الامبراطورية البريطانية مفتحة الجنبات مثل يد مبسوطة فى كل أجزاء العالم . وكان أعضاؤها مختلفين فى الطبيعة والحاجات والعلاقات ، لا تربطهم مصلحة مشتركة اللهم إلا الضمان المشترك للأمنة والدفاع . على أن الاستعماريين الجدد كانوا عن هذا الفارق فى عماية وضلال . فلئن كان لألمانيا الجديدة إتحاد جمركى ، فإن الإمبراطورية البريطانية يجب أن تجارى العصر والزى ؛ ولا بد لها أن تعرقل فى كل مكان التطور الطبيعى لعناصرها الأولى بواسطة « التفضيلات والتمييزات الإمبراطورية » وما إليها . . .

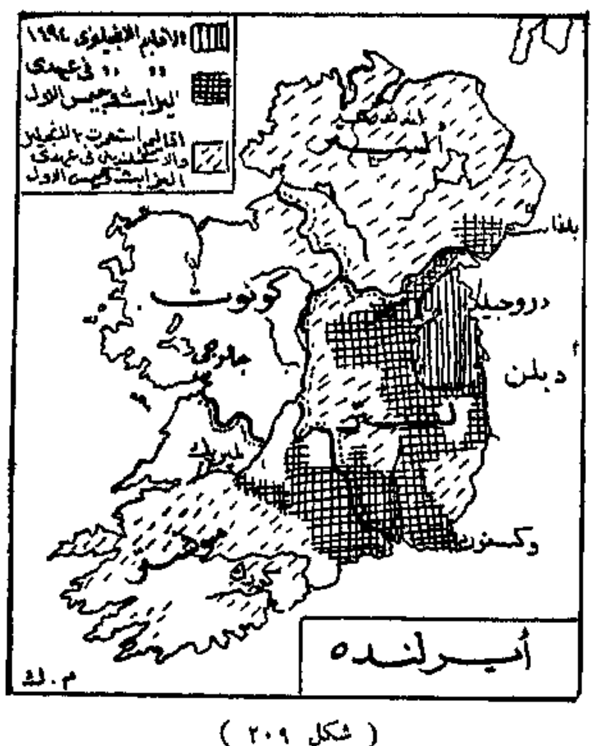
ومع هذا فإن الحركة الاستعمارية فى بريطانيا العظمى لم تبلغ قط من السلطان والإجماع ما بلغته فى ألمانيا . فإنها لم تكن نتاجاً طبيعياً لأى من الشعوب البريطانية الثلاث المتحدة وإن تفارقت ، فلم تكن مما يشاكل طبائعهم[2] . ولم تكن الملكة

---

(١) زولفراين : تطلق هذه الكلمة على الاتحاد الجمركى الذى تم بجهود بروسيا فى سنة ١٨٣٤ متدرجاً من إدماج إتحادات جمركية صغرى بعضها ببعض إلى تكوين الاتحاد القوى الألمانى . (المترجم)

(٢) يشير الكاتب هنا إلى المؤلفين الأحرار الذين كتبوا فى إنجلترة ضد الاستعمار مثل برنارد شو وغيره . (المترجم)

ڤكتوريا وخلفاؤها إدوارد السابع وجورج الخامس بميالين لا بحكم الجنس (بين ذكر وأنثى) ولا بحكم الشخصية والمظهر أو المزاج أو التقاليد ، أن يرتدوا « دروعاً لماعة » ولا أن يلوحوا « بقبضات من حديد » ولا أن يهزوا « سيوفاً بتارة » على طريقة آل هوهنزولرن . وكان لهم من الحكمة ما حملهم على الامتناع عن القيام بأى تدخل صريح فى الفكرات العامة . كذلك أثارت هذه الحركة الاستعمارية البريطانية منذ أول نشوئها عداوة العديد الكبير من الكتاب الإنجليز



(شكل ٢٠٩)

والإرلنديين والاسكتلنديين الذين أبوا أن يعترفوا بهذه القومية البريطانية الجديدة أو أن يقبلوا النظرية القائلة بأنهم هم الأنجلو ساكسون أصحاب مرتبة السوبرمان هذه . وفضلا عن ذلك كانت كثير من المصالح الكبيرة فى بريطانيا ، نخص بالذكر منها شركات الملاحة ، قد أقيمت على أساس التجارة الحرة ، وكانت ترمق المقترحات المالية للاستعماريين الجدد ، والمغامرين الماليين والتجاريين الجدد الذين كانوا يرتبطون بهم ، — بنظرة ارتياب لها ما يبررها .

على أن هاته الفكرات انتشرت انتشار النار فى الهشيم فى الطبقة العسكرية وهيئات الموظفين بالهند ومن إليها . وكان هناك حتى ذلك الحين جو من الناس المعاذير يحيط برجال الجيش فى إنجلترة . فإنهم كانوا غرباء عن تلك الأرض . وها قد حانت الفرصة فى تلك الحركة التى تجعلهم على درجة من الأهمية الفاخرة تعادل ما لقرينهم حامل السلاح فى بروسيا . كذلك وجدت فكرة الاستعمار مناصرة بين صفوف أصحاب الصحف الشعبية الرخيصة التى أخذت عند ذاك فى الظهور لكى تمون طبقة القراء الجديدة التى أوجدها التعليم الأولى . وكانت بهذه الصحافة حاجة إلى فكرات صريحة زاهية بسيطة مكيفة وفقاً لحاجات القراء الذين لم يكادوا يشرعون فى عملية التفكير بعد .

وبالرغم من هذه المناصرة ومن مواءمتها القوية للغرور القومى لم يستطع المذهب الاستعمارى البريطانى أبداً أن يتشرب الشعوب البريطانية بكامل كتلتها . فليس الإنجليز شعباً طيِّعاً من الناحية العقلية . وكان من أثر الحماسة الصاخبة التى تكاد تكون قسْرية ، تلك الحماسة للمذهب الاستعمارى وسياسة التعريفات الجمركية المرتفعة التى ينتهجها حزب التورى(١) القديم ، وطبقة العسكريين ورجال الدين فى المناطق الريفية ، وصالات الموسيقى والأجنبى المتجنس والثرى السوقى وأصحاب الأعمال الجدد الكبار ، — أن مالت طبقات العامة البسطاء ، وبوجه خاص الذين تنتظمهم الجماعات ، إلى اتخاذ وضع التشكك والارتياب . فلئن كانت القروح الأليمة التى مستنا من هزيمة ماجوبا دفعت البلاد إلى مواصلة القتال لفتح جمهوريتى البوير فى جنوب إفريقيا ، ذلك الفتح الفادح النفقة الشديد المتاعب الذى لم تكن لنا به حاجة ، فلقد أنتج الإعياء من هذه المغامرة ارتكاساً نحو الاعتدال والعدالة بلغ من قوته أن أعاد الحكم إلى يد حزب الأحرار ، وأن أزال أسوأ آثار الشر بإنشاء اتحاد جنوب أفريقيا الكنفدرالى .

واطرد التقدم الجسيم فى التعليم الشعبى وفى استرداد المصالح العمومية والثروة

---

(١) حزب التورى القديم : هو حزب المحافظين فى الزمن الحاضر . (المترجم)

العامة من قبضة القلة المالكة لها . كذلك حدث فى سنوات الهدنة المسلحة تلك ، أن أصبحت الشعوب البريطانية الثلاثة أقرب ما تكون من تسوية ما بينها ، وبين إرلندة من سوء تفاهم طال أمده ، تسوية تقوم على أسس عادلة معقولة نوعاً ما . ومن سوء طالعهم أن الحرب العظمى فاجأتهم وهم فى غمرات أزمة هذا الجهد .

وإرلندة شأن اليابان لم تبرز شخصيتها إلا قليلا فى هذه المعالم التاريخية ، وذلك لسبب واحد يجمع بين البلدين ، هو أن كلا منهما أرض جزيرة متطرفة تتلقى الكثير ولا تعطى حتى يومذاك إلا الشىء القليل لحقل الدراما البشرية العامة . وسكانها شعب مخلط جداً . فإن أساسه وربما مادته الكبرى أيضاً ، من تبعة البحر الأبيض الدكناء العيون والشعر ، السابقة على النورديين والآريين على السواء ، شأن شعب الباسك وسكان البرتغال وجنوب إيطاليا . وقد غمرت هذا الأساس الأصلى قرابة القرن السادس ق . م (بدرجة لا ندرى مداها) موجة من الشعوب الكلتية ، بلغت على أقل تقدير من القوة ما جعلها ترسى فى البلاد أسس لغة كلتية ، هى اللغة « الإرلندية الجايلية Irish Gaelic » . وحدثت غدوات وروحات ، ثم غزوات تلتها غزوات أخرى مضادة ، قام بها هذا أو ذاك من الشعوب الكلتية والمصبوغة باللون الكلتى بين إرلندة واسكتلندة وويلز وإنجلترة . ودخلت الجزيرة فى الدين المسيحى إبان القرن الخامس . ثم حدث بعد ذلك أن أغار أهل الشمال على الساحل الشرقى واستوطنوه ، على أنا لا ندرى المدى الذى بلغوه فى إحداث تغيير عنصرى .

وجاء الإنجليز النورمان فى ١١٦٩ فى زمان الملك هنرى الثانى وما تلاه . وربما كان العرق التيوتونى معادلا للكلتى فى القوة أو أقوى منه فى إرلندة العصرية . وقد كانت إرلندة حتى ذلك الحين قطراً قبلياً همجياً ليس به إلا القليل من مواطن الأمنة التى وجدت فيها الميول الفنية للعنصر القديم مجالا تبرز فيه نفسها فى أشغال المعادن وتحلية الكتب المقدسة بالصور . وقد حدث فى القرن الثانى عشر أن التاج البريطانى قام بفتح البلاد فتحاً غير تام ، وأنشأ الإنجليز والنورمان فى نواح مختلفة من البلاد مستقرات متناثرة هنا وهناك . وكان جلياً منذ البداية أن هناك فوارق عميقة فى المزاج بين الإرلنديين والإنجليز ، وهى فوارق زاد فى شدة وطأتها

الفوارق اللغوية ، وأصبحت هذه الفوارق أشد وضوحاً بعد الإصلاح الديني البروتستانتي . فاعتنق الإنجليز المذهب البروتستانتي ، وتجمع الإرلنديون بحافز رد الفعل الطبيعي حول الكنيسة الكاثوليكية المضطهدة .

وكان الحكم الإنجليزي في إرلندة منذ البداية حرباً أهلية متقطعة ترجع إلى ما بين الشعبين من الخلاف في اللغة وإلى الاختلاف في قوانين ملكية الأراضي والإرث . وما نحن بمستطيعين أن نحدثك في هذا المقام عن الفتن والمذابح والقهر التي حدثت بالجزيرة التعسة إبان عهدي إليزابث وچيمس الأول . على أنه حدث في عهد چيمس خلاف جديد بسبب مصادرة مساحات عظيمة من مقاطعة آلستر وسكنى مستوطنين اسكتلنديين من معتنقي المذهب البرزبتيري (Presbyterian) . فكونوا بذلك مجتمعاً بروتستانتيا يتنازع بحكم الضرورة تنازعاً مستديماً مع سائر إرلندة الكاثوليكية .

ولما حدثت المنازعات السياسية في حكم شارل الأول والجمهورية وحكم چيمس الثاني ووليم وماري ، كان الجانبان المتنازعان الإنجليزيان يجدان في الأحزاب الإرلندية من يعطف عليهما ومن يخالفهما . وهناك في إرلندة مثل سائر يقول إن مصائب إنجلترة فوائد عند إرلندة ، كذلك كان الشقاق الأهلي الإنجليزي الذي أفضى إلى إعدام سترافورد ، مناسبة أخرى لإعمال الذبح في الإنجليز بإرلندة (١٦٤١) . وحدث فيما بعد أن انتقم منهم كرومويل على هذه المذبحة بأن نكل تنكيلا شديداً بكل رجل وجده يحمل السلاح ، وهي قساوة لا تزال ذكراها الشديدة المرارة عالقة بأذهان الإرلنديين الكاثوليك . وعادت إرلندة فيما بين سنتي ١٦٨٩ ، ١٦٩١ فمزقتها الحرب الأهلية . فإن چيمس الثاني طلب عون الإرلنديين الكاثوليك على وليم الثالث ، فهزم أنصاره هزيمة منكرة في معركة بوين (١٦٩٠) وأوغريم (١٦٩١) .

ثم تمت بين الطرفين تسوية هي معاهدة ليمريك ، وهي تسوية كانت بدورها مثار نزاع ، وعدت فيها الحكومة الإنجليزية وعوداً كثيرة في شأن التسمح مع الكاثوليك ومن إليهم ، ولكنها لم تف بوعودها . وما برحت لمعاهدة ليمريك ذكرى مريرة في قصة الحزازات الإرلندية الطويلة الأمد . وليس بين الإنجليز من سمع قط باسم معاهدة

ربك هذه إلا أقلية نسبية ، فأما فى إرلندة فإنها لاتنى تُقرح النفوس إلى يومنا هذا

وكان القرن الثامن عشر قرناً تجمعت فيه المظالم والإحن . فإن أنانية الإنجليز فى الشئون التجارية أدت إلى فرض قيود ثقيلة على التجارة الإرلندية ، وقضت فى الجنوب والغرب على تطور صناعة الصوف . وما كان أهالى آلستر البروتستانت يلقون معاملة أحسن مما كان يلقاه الكاثوليك ، ومن ثم كانوا فى مقدمة العصاة .وقامت فى القرن الثامن عشر فتن على توزيع الأراضى كان شبوبها فى الشمال أشد منه فى الجنوب .

سنوجز لك فيما يلى بقدر ما يتيح لنا ضيق هذا المقام من الوضوح وجوه التشابه والتباين بين موقعى الإنجليز والإرلنديين فى هذا الزمان . كان لإرلندة برلمان ، ولكنه كان برلماناً بروتستانتيا ، تكوينه وسلطاته أضيق حدوداً ورجاله أشد فساداً من البرلمان الإنجليزى المعاصر له . وقامت فى دبلن وما حولها حضارة جسيمة ، وقدر كبير من النشاط الأدبى والعلمى ، يدور باللغة الإنجليزية ويتمركز فى جامعة ترينتى (Trinity) كوللدج البروتستانتية . تلك هى إرلندة التى أنتجت سويفت وجولد سميث وبيرك وبيركلى وبُويل . وكانت فى جوهرها شعبة من الثقافة الإنجليزية . ولم يكن فيها خصيصة إرلندية واحدة تميزها . ذلك أن الديانة الكاثوليكية واللغة الإرلندية كانت أشياء منبوذة مضطهدة منزوية فى الظلمات فى ذلك الزمان .

ومن إرلندة هذه التى تغشاها الظلمات نشأت إرلندة القرن العشرين المتكرهة المعاندة .وكان البرلمان الإرلندى وأدب إرلندة الرفيع وعلمها وثقافتها أموراً كان من الطبيعى أن تنجذب صوب لندن ، لأنها كانت جزءاً لا يتجزأ من العالم اللندنى . وكان كبار أصحاب الأراضى يذهبون إلى انجلترة للمقام بها ويعلمون أبناءهم فى ربوعها . وكان معنى هذا هو استنزاف مستمر للثروة من إرلندة إلى انجلترة فى شكل إيجار الأراضى ، الذى ينفق أو يستثمر خارج البلاد . وكان من أثر الزياد فى سهولة المواصلات أن اطردت هذه الحركة ازدياداً ، وأن استنفضت ما فى دبلن واستنزفت دماء إرلندة . وفى (أول يناير ١٨٠١) صدر «قانون توحيد البرلمانين» فكان هو

الائتلاف الطبيعي بين مجموعتين متقاربتين تقارباً تاما . أعني بين البرلمان الأنجلو إرلندى والبرلمان البريطانى ، وكلاهما هيئة أوليجركية وكلاهما فاسد من الناحية السياسية فساداً متشاكلا . وقامت ضد الاتحاد معارضة قوية لم تصدر من جانب الإرلنديين الكاثوليك بنفس القوة التى صدرت بها عن البروتستانت المستقرين فى إرلندة ، وحدث فى ١٨٠٣ عصيان فاشل بقيادة روبرت إرمت . وبعد أن كانت دبلن مدينة أنجلو إرلندية رائعة فى منتصف القرن الثامن عشر ، غادرتها الحياة الذهنية والسياسية شيئاً فشيئاً ، وغزاها إرلنديو إرلندة الأقحاح . وذوت منها الطبقة الراقية رويداً رويداً وحلت محلها حياة طبقة الموظفين التى تتركز حول نائب الملك نزيل قلعة دبلن ، وخفقت حياتها الفكرية خفقة ثم همدت ردحاً من الزمان وهى بين الحياة والموت .

ولكن على حين كانت إرلندة فى عهد سويفت وجولد سمث جزءاً لا يتجزأ من انجلترة فى زمن پوب (PoPe) والدكتور جونسون والسير چوشوا رينولدس ، وعلى حين لم يكن هناك مطلقا ولا يوجد حتى اليوم أى فارق محدد اللهم إلا الفارق الجغرافى — بين الطبقتين الحاكمتين فى كل من انجلسترة وإرلندة ، فإن عالم العامة والدهماء الإرلندى وقرينه الإنجليزى كانا متباعدين فى الجوهر أشد التباعد .

كان كفاح الديمقراطية الإنجليزية الشاخص نحو التعليم ، والمتطلع إلى الاعتراف بحقوقه السياسية مخالفاً فى كثير من الوجوه لكفاح الطبقات الدنيا الإرلندية . فإن بريطانيا كانت تنتج شعباً صناعياً عظيما من بروتستانت أو متشككين . حقاً إنه كان بها عمال زراعيون ولكن لم يكن بها فلاحون من صغار الملاك . وكانت إرلندة وهى بلاد خلو من الفحم ولها تربة أضعف وأصحاب أملاك يعيشون فى انجلترة ، قد أصبحت أرض فلاحين من صغار الملاك الذين يدفعون الإيجارات . وسمح المسئولون لزراعتها بأن تنحط انحطاطاً مطرداً حتى أصبحت قاصرة على زرع البطاطس وتربية الخنازير . وكان الناس يتزاوجون ويُعْقبون . ولولا احتساء شىء من الويسكى لمن استطاع إليه سبيلا وقليل من العراك ، فإن تسليتهم الوحيدة كانت منحصرة فى . . وإليكم النتائج الرهيبة لتلك الحال ، فإن عدد سكان إرلندة :

في ١٧٨٥ كان ٢,٨٤٥,٩٣٢ نسمة

في ١٨٠٣ بلغ ٥,٥٣٦,٥٩٤ نسمة

وبلغ ١٨٤٥ ٨,٢٩٥,٠٦١ نسمة

وحدث في تلك السنة أن البطاطس المسكين المكدود إنهار تحت حمله الضخم المتزايد من السكان ، فحدثت مجاعة رهيبة . فمات الكثيرون ، وهاجر الكثيرون ، إنتقلوا إلى الولايات المتحدة بوجه خاص ؛ وابتدأ سيل من الهجرة جعل إرلندة ردحاً من الزمان أرض شيوخ وبيوت خاوية .

وكان من نتائج توحيد البرلمانين ، أن الانتخابات كانت تجرى عند الانجليز والإرلنديين في وقت واحد . وكان معنى منح الكاثوليك حق الانتخاب في إنجلترة هو منحه للكاثوليك في إرلندة أيضاً . وكان الانجليز يحصلون على الأصوات لأنهم كانوا يرغبون فيها . أما العامة الإرلنديون فحصلوا على الأصوات لأن الانجليز حصلوا عليها . وكان تمثيل إرلندة في برلمان الاتحاد أكثر مما يجب ، لأن المقاعد الإرلندية كان التصرف فيها أسهل – منذ البداءة – على الطبقة الحاكمة منه فيالإنجليزية ؛ وبذا حدث أن إرلندة هذه الإرلندية القحة والكاثوليكية التي لم يكن لها قبل ذلك أي جهاز سياسي مطلقاً ، وجدت نفسها صاحبة القوة على قذف هيئة متراصة من الأعضاء في قلب الهيئة التشريعية لبريطانيا العظمى .

وبعد الانتخابات العامة في ١٨٧٤ ، سقط الأعضاء الإرلنديون المأجورون السابقون ، ووقفت الديموقراطية الإنجليزية التي منحت عند ذاك حقوقها الوطنية حديثاً ، وجهاً لوجه أمام ديموقراطية إرلندية عجيبة محيرة ، مختلفة عنها في ديانتها وتقاليدها وحاجاتها ، متحدثة بقصة من المظالم لم يسمع بها عامة الإنجليز من قبل قط ، صاخبة تطالب في حدة بإنفصال لم يكن الإنجليز ليفهموا له معنى ، ولكنه أشعرهم بوجه خاص أنه تصرف عدائي لا ضرورة له .

والأنانية القومية لدى الإرلنديين حادة شاحذة ؛ لأن ظروفهم جعلتها كذلك ؛ فلم يكن في مستطاعهم أن يقدروا حالة الأمور في إنجلترة : وجاء الحزب الإرلندي

الجديد إلى البرلمان الإنجليزى وقد عقد النية على عرقلة مصالح الإنجليز وإفساد نظامهم إلى أن تفوز إرلندة بحريتها ، وليجعلوا من أنفسهم شجى فى حلوق الإنجليز . وما كان هذا الروح إلا موضع الترحاب الشديد من الأوليجركية التى كانت ما تزال تحكم الإمبراطورية البريطانية ؛ فتحالفوا مع بروتستانت الشمال الموالين ـ أعنى الموالين للحكومة الإمبراطورية بسبب خوفهم من تسلط الكاثوليك الإرلنديين عليهم فى إرلندة ـ كذلك أخذوا يراقبون عن كثب ويزيدون فى إذكاء نار التسخط الذى حل بالعامة الإنجليز على التدريج بسبب هذه العداوة العمياء التى يبديها عموم سكان إرلندة .

وقصة العلاقة بين إرلندة وإنجلترة فى نصف القرن الأخير من القصص التى تكسو الطبقة الحاكمة للإمبراطورية البريطانية أقصى غاية الخزى ، ولكنها ليست شيئاً يحتاج عامة الإنجليز أن يخجلوا منه . فإنهم أبدوا مراراً وتكراراً أعظم الشواهد على حسن النية . والتشريع الإنجليزى بالعلاقة إلى إرلندة طيلة نصف قرن تقريباً ، يكشف لنا عن سلسلة من محاولات سمجة بذلها الأحرار رغبة فى القضاء على أسباب شكوى الإرلنديين وإقامة العلاقة بين القطرين على قدم الزمالة والأخوة ؛ ولكن كانت تقوم فى وجه تلك المحاولات معارضة قوية من جانب حزب المحافظين وسكان آلستر الإرلنديين . ويبرز اسم پارنل وهو إرلندى بروتستانتى بوصفه الزعيم الأكبر لحركة الحكم الذاتى (Home Rule) . وفى ١٨٦٦ جلب جلادستون ، رئيس وزراء الأحرار العظيم ، كارثة سياسية على نفسه بتقديمه إلى البرلمان أول مشروع قانون للحكم الذاتى الإرلندى ، وهى محاولة صادقة من جانبه لتسليم شئون إرلندة لأول مرة فى التاريخ إلى أيدى الشعب الإرلندى . وانصدع حزب الأحرار شطرين بسبب مشروع هذا القانون ، وقامت حكومة ائتلافية ، هى حكومة الاتحاديين ، فحلت محل حكومة المستر جلادستون .

واستطرادنا هذا إلى تاريخ إرلندة يبلغ بنا الآن إلى زمان تفشى عدوى المذهب الاستعمارى فى أوربا . فإن حكومة الاتحاديين التى خلفت المستر جلادستون كان يسودها عنصر المحافظين . وكانت « إستعمارية » الروح بصورة لم تكن لأية حكومة

بريطانية سابقة قط . والتاريخ السياسى البريطانى فيما عقب ذلك من سنوات هو فى جُل أمره تاريخ للصراع بين المذهب الإستعمارى الجديد ، الذى حاولت بواسطته نزعة قومية بريطانية صلفة أن تطأ بأقدامها بقية الإمبراطورية وبين ما ركب عليه المزاج الإنجليزى الميال بطبعه إلى التحررية والتعقل ، ذلك المزاج الذى كان ينزع إلى التطور بالإمبراطورية إلى اتحـاد احتلافى (كنفدرالى) مكون من أحرار راضين راغبين .

ومن الطبيعى أن أصحاب المذهب الإستعمارى البريطانيين كانوا يريدون الشعب الإرلندى خاضعاً مقهوراً ؛ ومن الطبيعى أيضاً أن الأحرار الإنجليز كانوا يرغبون فى شعب إرلندى حر مشارك لهم فى العمل . وفى ١٨٩٢ كافح جلادستون حتى عادت إليه مقاليد الحكم بأغلبية صغيرة تدين بالحكم الذاتى ؛ وفى ١٨٩٣ مر مشروع قانونه الثانى للحكم الذاتى فى مجلس العموم ، ولكن مجلس اللوردة رفضه ومع هذا فلم تتول الحكم حكومة استعمارية (امبريالية) إلا فى ١٨٩٥ . ولم يكن الحزب الذى تستند إليه الحكومة ينعت بصفة الاستعمار والاستعماريين بل يسمى حزب « الاتحاديين » ، وهو اسم غريب عن مسماه إذا راعينا الجهود الجهيدة التى واصلوا بذلها لتحطيم كل احتمال يبشر بقيام دولة حكم شعبى متحرر[1] تضم أجزاء الإمبراطورية . وظل السلطان فى يد هؤلاء الإستعماريين عشر سنوات . وقد سبق أن أشرنا إلى غزوهم لجنوب إفريقيا . وقد خذلوا فى ١٩٠٥ فى محاولة قاموا بها لإنشاء حاجز من التعريفة الجمركية على الطراز التيتو تونى . وعند ذلك حولت حكومة الأحرار التالية الهولنديين المقهورين فى جنوب إفريقيا إلى رعايا زملاء راضين قريرى الأعين بإنشاء دومنيون جنوب إفريقيا الذى يحكم نفسه بنفسه . ثم دخلت فى أعقاب ذلك فى غمرات نزاع طالما تهددها شره ، هو النزاع مع مجلس اللوردة المصر دائماً على مبادئه الاستعمارية .

. وكان هذا كفاحاً جوهرياً جداً فى الشئون البريطانية . وإنك لتجد فى ناحية أغلبية أهالى بريطانيا العظمى التحرريين وهم حريصون حرص الحكيم الشريف على

---

(١) دولة الحكم الشعبى المتحرر هى ما يعبر عنه بالإنجليزية باسم Common Weal .
(المترجم)

أن يضعوا هذه المسألة الإرلندية على أساس جديد يبشر بالأمل ، وأن يحيلوا إن استطاعوا عداوة الإرلنديين إلى مودة ؛ وتجد فى الجانب الآخر كل عوامل هذا الاستعمار البريطانى الجديد وقد صممت أن تعمل بأى ثمن وبالرغم من كل نتائج الانتخابات — وبطريقة قانونية إذا أمكن ، فإن تعذر فبطريقة غير قانونية — على أن تحتفظ بتسلطها على شئون الإنجليز والإسكتلنديين والإرلنديين وسائر أجزاء الإمبراطورية على السواء .

والحق إن هذا الصراع هو الكفاح الداخلى الدائر فى المجتمع البريطانى منذ أقدم العصور ؛ وهو نفس النزاع الذى سبق أن عالجناه فى حديثنا عن تحرير أمريكا ، النزاع الدائر بين العامة الأحرار ذوى الروح التحررية وبين الأقوياء من الزعماء والمغامرين الكبار والأشخاص المستبدين . وكانت إرلندة كما كانت أمريكا من قبل محض مسرح للقتال . ومن عجب أن الطبقة الحاكمة ومن يرتبط بها من مغامرين كانت فى الهند وإرلندة وانجلترة تدين بمبدأ واحد . ولكن الشعب الإرلندى لم يكن له بفضل فوارقه الدينية ، أى إحساس بالتماسك مع الإنجليز . ومع هذا فإن من بين الزعماء الإرلنديين أمثال ردموند ، زعيم الحزب الإرلندى فى مجلس العموم ، من تسامى عن هذه القومية الضيقة ردحاً من الزمان ، وأظهر من جانبه استجابة كريمة لنوايا الإنجليز الطيبة .

وأخذت العقبة المتمثلة فى شخص مجلس اللوردة تتحطم تحطماً وئيداً أكيداً ، وتقدم المستر أسكويث رئيس الوزارة فى ١٩١٢ بمشروع قانون ثالث للحكم الذاتى الإرلندى. وظل هذا القانون طوال ١٩١٣ والقسم الأول من سنة ١٩١٤ يلقى هجمات وحملات متكررة توجه عليه عن طريق البرلمان . وكان المشروع بادئ الرأى يمنح الحكم الذاتى لإرلندة بأكملها . ولكن سرعان ما أعلنت الحكومة وعداً بإصدار قانون يعدّل القانون الأول ويستبعد آلستر بشروط خاصة . ودام هذا الكفاح فى طريقه حتى شبوب نار الحرب الكبرى . وصدق الملك على القانون بعد ابتداء الحرب فعلا ، كما صدق أيضا على قانون يوقف تنفيذ الحكم الذاتى الإرلندى حتى تنتهى الحرب . وأضيفت هذه القوانين إلى سجل قوانين الدولة .

على أن المعارضة لقانون الحكم الذاتى الثالث اتخذت منذ تقديمه شكلا عنيفاً شديد التطرف . فإن السير إدوارد كارسون وهو محام فى دبلن أصبح من رجال المحاماة

الإنجليز ، وتولى منصباً قضائياً فى وزارة المستر جلادستون (قبل تصدعها بسبب الحكم الذاتى) ، وكان فى الحكومة الاستعمارية التالية ، هو المنظم والزعيم لهذه الحركة الرامية إلى مقاومة الصلح بين الشعبين . ثم شرع بالرغم من أصله الدبلينى يتزعم أهالى آلستر البروتستانت ، وأدخل فى معمعان النزاع ذلك الاحتقار للقانون الذى هو مميز خاص عادى جداً لكل محام ناجح فى عمله ، كما أنزل فى الميدان تلك العداوة اللجوج المطلقة بلا قيود والصلبة بلا هوادة التى كان يمتاز بها طراز معين من الإرلنديين . كان أبعد الناس عن الإنجليز إذ كان أدكن العينين والشعر ، رومانسى النزعات عنيفاً ، وكان منذ مبتدأ الكفاح ، يتكلم فى جذل عن المقاومة المسلحة لهذا الاتحاد الحر بين الإنجليز والإرلنديين الذى كان يبشر به مشروع الحكم الذاتى الثالث .

وتألفت فى آلستر ١٩١١ جماعة من المتطوعة ، وأخذت الأسلحة تهرب إلى داخل البلاد . وشرع السير إدوارد كارسون ومعه محام ناشئ اسمه ف . و . سمث يجوبان آلستر فى زى شبه عسكرى ، ليفتشا على هؤلاء المتطوعة ويُذكيا نار العداوة المحلية . وكان هؤلاء العصاة المنتظرون أول إشارة للثورة ، يحصلون على السلاح من ألمانيا ، ولطالما لمحت أقوال متنوعة صدرت من خلطاء السير إدوارد كارسون إلى مناصرة «ملك بروتستانتى عظيم لهم» . وعلى النقيض من آلستر ، كان سائر إرلندة فى ذلك الزمان أرض نظام واتزان ، تعتمد على زعيمها العظيم ردموند وعلى حسن نية الشعوب البريطانية الثلاثة .

ولم تكن هذه التهديدات المنذرة بالحرب الأهلية فى إرلندة شيئاً استثنائياً ولا مستغرباً فى تاريخ هذه الجزيرة التاعسة وسجلاتها ؛ ولكن الشىء الذى يجعلها ذات قيمة ودلالة فى تاريخ العالم فى ذلك الزمان هو ذلك التعضيد العنيف الذى لقيته بين الطبقات الحاكمة والعسكرية فى انجلترة ، وتمتع السير إدوارد كارسون وأتباعه بالحصانة من كل عقوبة أو تقييد .

ذلك أن جرثومة الفساد الذى ترتب على ما أصابه الاستعمار الألمانى من فخامة ونجاح قد انتشرت عدواها انتشاراً عظيماً ، بين كل الطبقات القوية الغنية فى بريطانيا العظمى كما سبق أن أوضحنا لك . ونشأ جيل تناسى تقاليد أجداده العظيمة ،

وتهيأ للتخلى عن عظمة العدالة والحرية الإنجليزية مقابل أشد أنواع الاستعمار زيفاً وبهرجة سخيفة . واكتتب الناس فى بريطانيا وبخاصة انجلترة بتبرعات مالية قدرها مليون جنيه لمعاونة ثورة آلستر ، وتكونت لآلستر حكومة مؤقتة ، ونزل إلى الحومة رجال مبرزون من الإنجليز وأخذوا يجوبون بسياراتهم أرجاء آلستر ، وهم يعاونون فى تهريب البنادق ، وهناك من الشواهد ما يدل على أن فريقاً من الضباط والقواد البريطانيين كانوا على استعداد للقيام بأعمال أشبه بأساليب أمريكا الجنوبية منها بالطاعة للقانون .

وكانت النتيجة الطبيعية لهذا الخروج على النظام المتفشى فى الطبقات العليا أن عمّ الانزعاج الجزء الرئيسى من إرلندة ، التى لم تقبل يوما ما على صداقة إنجلترة ؛ وأن شرعت إرلندة بدورها أيضاً فى تنظيم المتطوعين الوطنيين وتهريب السلاح . وأظهرت السلطات العسكرية اهتماماً بقمع الوطنيين أشد مما أظهرت فى قمع إستيراد السلاح لأهالى آلستر ، وفى يوليو ١٩١٤ أفضت إحدى المحاولات لتهريب السلاح فى هاوث بالقرب من دبلن إلى شبوب القتال وإراقة الدماء فى شوارع دبلن . وبذا أصبحت الجزر البريطانية على شفير الحرب الأهلية .

تلك هى خلاصة موجزة لقصة حركة الاستعماريين الثورية فى بريطانيا العظمى حتى ليلة الحرب الكبرى . ذلك أن حركة السير إدوارد كارسون وأشياعه هذه كانت ثورية لا جرم . إذ أنها كانت محاولة صريحة لدفع الحكومة البرلمانية جانباً وإزالة ما نالته الشعوب البريطانية من حريات ناقصة نمت فى بطء ومهل ، والقيام بمساعدة الجيش بإحلال طراز من الحكم أقرب إلى البروسى ، مع استعمال النزاع الإرلندى نقطة ارتحال تبدأ منها الحركة أعمالها . وكانت تلك حركة رجعية قام بها عشرات قلائل من آلاف الرجال لإيقاف حركة العالم المتجهة صوب القانون الديموقراطى والعدالة الاجتماعية ، وهى أشد ما تكون مشابهة وأوثق ما تكون عطفاً على الحركة الاستعمارية الجديدة التى قام بها الأشراف والأغنياء الألمان . على أن الاستعماريين البريطانى والألمانى كانا يتفارقان من وجهة واحدة هامة جداً . فإنه كان يتركز فى ألمانيا حول التاج ؛ وكان أشد أنصاره ضجيجاً وبروزاً هو ولى العهد .

على حين أن الملك فى بريطانيا العظمى وقف موقف المتباعد فلم يحدث أن أبدى الملك جورج الخامس بأى عمل علنى أدنى موافقة على الحركة الجديدة ؛ كما أن سلوك ولى العهد البرنس أوف ويلز ابنه ووريثه يعدل سلوكه سلامة واستقامة .

وفى أغسطس ١٩١٤ هبت على العالم عاصفة الحرب الكبرى . وفى سبتمبر كان السير إدوارد كارسون يطعن فى وضع قانون الحكم الذاتى الثالث فى سجل القوانين . فأوقف العمل به حتى ينتهى الحرب . وفى نفس اليوم كان المستر جون ردموند زعيم الأغلبية الإرلندية والممثل الحقيقى لإرلندة يهيب بالشعب الإيرلندى بأن يتحمل نصيبه الأوفى من عبء الحرب ومجهودها . واستمرت إرلندة ردحاً من الزمان تقوم بدورها فى الحرب إلى جوار إنجلترة بإخلاص واهتمام ، حتى حلت فى ١٩١٥ وزارة ائتلاف محل حكومة الأحرار ، فدخل الوزارة هذا السير إدوارد كارسون بسبب ضعف أخلاق المستر أسكويث ، وشغل منصب النائب العام (بمرتب قدره ٧٠٠٠ جنيه تضاف إليها الأتعاب) ، على أنه استبدل للوقت بالسير ف إ سميث زميله فى التغرير بآلستر

وهى إهانة لم يصب بأبلغ منها شعب صديق ، وكانت نتيجة ذلك أن العمل على الصلح والتراضى الذى ابتدأه جلادستون فى ١٨٨٦ ، وأوشك أن يبلغ غايته فى ١٩١٤ ، تحطم الآن تحطماً نهائياً تاماً . ففى ربيع ١٩١٦ قامت فى دبلن ثورة فاشلة ضد هذه الوزارة الجديدة . وأعدم رمياً بالرصاص جميع زعماء هذا العصيان وكان الكثيرون منهم مجرد غلمان ، ونفذ الحكم بقساوة سمجة متعمدة ، كان من أثرها وبالنظر إلى المعاملة المتهاونة التى لقيتها الثورة فى آلستر ، أن شعر الناس فى إرلندة بأجمعها بأنها ظالمة ظلماً فظيعاً بالغاً . وحدث أن أحد الجونة وهو السير روجر كاسمنت وكان قد نال لقب فارس لسابق خدماته للإمبراطورية حوكم وأعدم بحق وعدل ، ولكن المدعى العام كان هو السير ف . إ . سميث أخو العصيان آلستر — وكان اجتماع هذين الشخصين مدعاة للغضب والانزعاج .

والواقع أن تمرد دبلن لم يلق الشىء الكثير من التعضيد من إرلندة بعامة ، ولكن الذى حدث أن حركة المطالبة بجمهورية مستقلة نمت من بعده نمواً هائلا

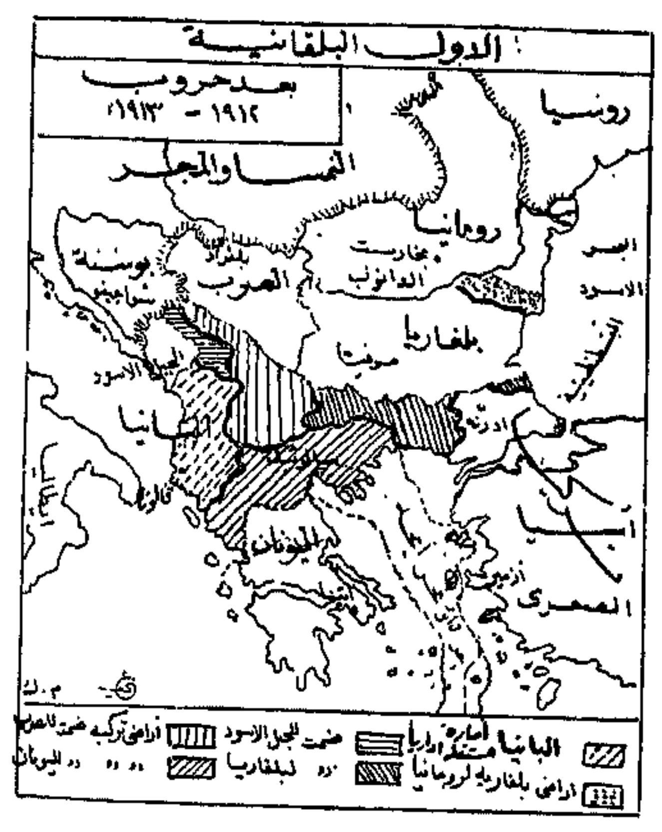
وكان ينافح ضد هذا الاندفاع العاطفى القوى أصحاب الفكرات المعتدلة بين رجال السياسة الإرلنديين من أمثال السير هوراس بلانكتّ ، الذى كان يتمنى أن يرى إرلندة وقد أصبحت دومنيونا ؛ أى « جمهورية متوجة » داخل الإمبراطورية ، تعيش على قدم المساواة مع كندا واستراليا .

٤ — النزعات الاستعمارية فى فرنسا وإيطاليا والبلقان

تبرز لنا دراستنا للنزعات الاستعمارية العصرية فى ألمانيا وبريطانيا قوى بأعيانها مشتركة بين البلادين ، وسوف نجد تلك القوى نفسها وهى تعمل على درجات مختلفة ومع تعديلات متنوعة فى حالة المجتمعات العظيمة العصرية الأخرى التى سوف ننظر الآن فى شأنها . وليس هذا الاستعمار العصرى بحركة توليفية ترمى إلى توحيد العالم شأن النظم الاستعمارية القديمة ؛ بل هو فى الجوهر « روح قومية تنطوى على جنون العظمة » ، وهى قومية أحالها الثراء عدوانية ؛ وإنها لتلقى على الدوام أقوى عضد لها بين طوائف الموظفين والجيش ، كما تجده من طبقة المجتمع المقدامة صاحبة المشروعات والميالة إلى الاحتياز ، أى فى أصحاب الثراء الحديث والأشغال الكبيرة ؛ وتجد أشد نقادها بين جماهير المتعلمين الفقراء وأعظم خصومها بين الفلاحين والعمال . وهى تقبل المَلكية حيث تجدها ، وإن لم تكن بالضرورة حركة مَلكية . ومهما يكن من شىء فإن بها حاجة إلى وزارة خارجية من الطراز التقليدى لكى تهئ لها أسباب تطورها كاملة . ويبين تلك الحقيقة بأتم وضوح مصدرها الذى تأثرناه بغاية العناية فى كتابنا هذا المؤرّخ لجنسنا . والاستعمار العصرى إنما هو التطور الطبيعى لنظام الدول الكبرى الذى نشأ مع منهاج وزارة الخارجية فى السياسة ، ناجماً عن الملوك المكيافليين بعد تحطم عالم المسيحية . ولن ينتهى أمره إلا عندما تحل جمعية إتحادية محل ما بين الأمم والشعوب من علاقات قوامها السفارات ووزارات الخارجية .

وكانت الإمبريالية (الاستعمار) الفرنسية أثناء مدة « الهدنة المسلحة » فى أوربا يتجلى فيها بطبيعة الحال قدر من الثقة والاطمئنان أقل مما لدى الألمان . وكانت تسمى نفسها « بالقومية » لابالإمبريالية ، فنصبت نفسها باللجوء إلى الكبرياء الوطنى لإحباط

جهود أولئك الاشتراكيين والعقليين[1] الذين كانوا يحاولون أن يتصلوا بالعناصر الرسمية فى الحياة الألمانية . وكانت لاتنى عن التفكير فى « الانتقام Revanche » أى فى الجولة التالية التى ترد بها الكيل لبروسيا . ولكنها بالرغم من انشغال بالها بهذا الخاطر نصبت نفسها لمغامرات الضم والاستغلال فى الشرق الأقصى وفى إفريقيا ، حيث نجت بأعجوبة من الحرب مع بريطانيا فى الخلاف على فاشودة (١٨٩٨) ، كذلك لم تتخل قط عن أحلامها فى امتلاك سوريا .



(شكل ٢١٠)

وأصيبت إيطاليا كذلك بحمى الاستعمار . على أن النزف ! ! ؟ . . . الذى أصيبت به فى عدوة هدأ من ثائرتها بعض الزمان ، ثم عادت إليها السورة فى ١٩١١

(١) العقليون (Rationalists) : الذين يذهبون إلى أن العقل هو مصدر المعرفة الثابتة المؤكدة (المترجم)

بحرب أشبتها على تركيا انتهت باستلحاق طرابلس . وكان الاستعماريون الإيطاليون يحضون أبناء وطنهم على نسيان مازيني والتعلق بذكرى يوليوس قيصر ؛ أليسوا ورثة الإمبراطورية الرومانية ؟ ومست يد الإمبريالية بلاد البلقان ؛ فإن دولا صغاراً لا تبعد عن الاستعباد أكثر من مئة عام أخذت تتبدى فيها بوادر الهمم الشماء والمقاصد العالية ! ! ؛ فإن فرديناند ملك بلغاريا اتخذ لقب قيصر ، فكان بذلك آخر قيصر زائف ، وفى أثينا كان الطالب الطلعة يستطيع أن يدرس فى نوافذ الدكاكين خرائط تبين الحلم بإمبراطورية يونانية ضخمة فى أوربا وآسيا .

وفى ١٩١٢ انقضت دويلات سربيا وبلغاريا واليونان على تركيا ، وكانت واهنة القوى من قبل بسبب حربها مع إيطاليا ، وطردتها من كل ممتلكاتها الأوربية فيما عدا الأراضى بين أدرنة والقسطنطينية ؛ وفى السنة التالية دب الخلاف فيما بينهم على تقسيم الغنائم . وانضمت رومانيا إلى اللعبة وساعدت على سحق بلغاريا . واستردت تركيا أدرنة . وفى تلك الأثناء كان الاستعمار الأكبر استعمار النمسا والروسيا وإيطاليا يرقب هذا النزاع ويرقب بعضه بعضاً فى الوقت عينه . . .

٥ – الروسيا تصبح دولة ملكية عظمى

بينما كان العالم بأجمعه إلى الغرب من الروسيا يتغير تغيراً سريعاً ، ظلت تلك الدولة تتغير طوال القرن التاسع عشر تغيراً بطيئاً جداً ولا جرم . فإنها كانت فى نهاية القرن التاسع عشر ، كما كانت عند بدايته ما تزال ملكية عظمى ذات طراز يرجع إلى النصف الثانى من القرن السابع عشر ، تقوم على أسس همجية ، ولم تبرح قابعة بالمرحلة التى تستطيع فيها دسائس البلاط والمقربون إلى القيصر أن يتصرفوا فى علاقاتها الدولية . وكانت مدت سكة حديدية عظيمة عبر سيبريا ، فلقيت فى نهايتها كوارث الحرب اليابانية ؛ وكانت تستعمل الأساليب العصرية والأسلحة العصرية بالقدر الذى تسمح لها به صناعتها غير المتطورة وما لديها من عدد قليل من المتعلمين تعليماً كافياً ؛ وقد استحدث لها كتاب من أمثال دوستويفسكى ضربا من المذهب الاستعمارى التصوفى يقوم على فكرة الروسيا المقدسة ورسالتها ، ويصطبغ بألوان الخداع العنصرى

والمناهضة للسامية[١]، ولكن هذا المذهب ، كما ستبدى لك الحوادث لم يتغلغل كثيراً إلى سويداء خيال الجماهير الروسية .

وكانت تسود حياة الفلاحين الأميين مسيحية مبهمة بسيطة جداً ، يخالطها شيء كثير من الخرافات . وكانت حياتهم شبيهة بحياة فلاحي فرنسا وألمانيا قبل الاصلاح الديني . وكان مفروضاً أن الموچيك (Moujik) أعني الفلاح الروسي يعبد قيصره ويوقره وأنه يحب أن يخدم أحد السادة السراة ؛ وكان الرجعيون من الكتاب الانجليز ما يزالون في ١٩١٣ يثنون على ولائه البسيط غير المتردد ولا المتشكك . ولكن كان يخالط هذا التوقير للملكية فكرة تقول بأن المليك أو النبيل لا بد له من أن يكون طيباً نافعاً شأن ما حدث في حالة الفلاح الأوربي الغربي في أيام ثورات الفلاحين ؛ وكان من الميسور أن ينقلب هذا الولاء البسيط — إن تهيأ له القدر الكافي من الاستفزاز إلى نفس التعصب القاسي ضد انعدام العدالة الاجتماعية ، ذلك التعصب الذي أدى إلى إحراق القصور أثناء فتنة الفلاحين[٢] ، وأقام الدولة الدينية في مونستر[٣] . وقد حدث مرة أن دب الغضب في العامة ، ولم يكن هناك روابط للتفاهم تتمثل في تعليم واسع الانتشار في الروسيا حتى تخفف من حدة الانفجار . وكانت الطبقات العليا تبعد عن مناط عطف الطبقات الدنيا بعدها عن أي جنس آخر من الحيوان . وكانت هذه الجماهير الروسية متخلفة ثلاثة قرون عن تلك النزعات القومية التسلطية التي كانت تبديها ألمانيا .

كذلك اختلفت الروسيا من وجهة أخرى عن أوربا الغربية العصرية ، وماثلت حالة أوربا في القرون الوسطى ، وذلك أن جامعاتها كانت مثابة لكثير من الطلبة الفقراء المدقعين الذين لم تكن تربطهم بالحكومة البيروقراطية[٤] الاستبدادية أية صلة

---

(١) مناهضة السامية (Anti-semitism) مصطلح سياسي يطلق على كراهية اليهود أو كراهية انتشار نفوذهم . (المترجم)

(٢) فتنة الفلاحين أو الجاكرى (Jacquerie) : هي ثورة الفلاحين بفرنسا في سنة ١٣٥٨ . (المترجم)

(٣) الدولة الدينية بمونستر . انظر المعالم (ج ٣ ط ١) ص ٧٨٧ ، أي ص ٩٧٥ من الطبعة الثانية . (المترجم)

(٤) البيروقراطية : هي الحكومة المعتمدة على الموظفين (المترجم)

ولا تعاطف . وقبل ١٩٨٧ لم يحس الفكر الأوربى بالدلائل المؤذنة باقتراب عاملى الثورات الأصليين هذين — وأعنى بهما وقود التذمر وثقاب الفكرات الحرة ، وقل من الناس من كان يدرك أنه كانت توجد فى الروسيا أكثر منها فى أية بلاد أخرى احتمالات نشوب ثورة جوهرية .

٦ — الولايات المتحدة والفكرة الاستعمارية

إذا انصرفنا عن هذه الدول الكبرى الأوربية بما لها من إرث هو وزارات الخارجية والسياسات القومية ، والتفتنا إلى الولايات المتحدة الأمريكية التى انفصلت إنفصالا تاماً عن نظام الدول الكبرى فى ١٧٧٦ ، لوجدنا حالة مناقضة على أعظم درجة من الإمتاع تتجلى فى عمل القوى التى تمخضت عن نزعات التوسع الاستعمارى فى أوربا .

فقد جلبت الثورة الميكانيكية على أمريكا كما جلبت على أوربا ، قرباً أصبح معه العالم بأجمعه قيد رحلة لاتتجاوز بضعة أيام . وكانت للولايات المتحدة شأن الدول العظمى مصالح مالية وتجارية تغشى العالم بأجمعه ؛ ونشأت فى البلاد حركة صناعية كبرى تضخمت وأمست بحاجة إلى أسواق خارجية وراء البحار ؛ وحدثت فى العالم الأمريكى نفس الأزمة التى ألمت بالمعتقدات والتى جلجلت أركان التماسك المعنوى الأوربى . وكان شعبها عالى الوطنية وثاب الروح كأى شعب آخر . فلم لم تطور الولايات المتحدة إذن الجيوش المسلحة والسياسة العدوانية ؟ ولماذا لا ترفرف النجوم والشفق[1] فوق بلاد المكسيك ؟ ولم لم تقم فى بلاد الصين تحت تلك الراية شبه قارة هندية أخرى .

وكان للأمريكى فضل فتح مغاليق اليابان . حتى إذا تم له ذلك ترك هذه الدولة تُسبغ على نفسها اللون الأوربى وتصبح قوية جبارة دون أن يصدر منه أى احتجاج على ذلك . وكان هذا وحده كافياً لجعل ميكافلى أبى السياسة الخارجية العصرية يتقلب فى رمسه .

---

(١) النجوم والشفق : فى هذا إشارة إلى علم الولايات المتحدة المكون من نجوم بيضاء ومن شقق أفقيه من القماش ذى اللونين الأبيض والسماوى . (المترجم)

فلو أن دولة كبرى مصطبغة بالصباغ الأوربى كانت فى مكان الولايات المتحدة ، لاضطرت بريطانيا العظمى إلى تحصين الحدود الكندية من أقصاها إلى أقصاها — وهى الآن خالية من السلاح خلواً تاماً — ولاضطرت إلى الاحتفاظ بترسانة أسلحة عظيمة على نهر السانت لورنس . ولكانت دول أمريكا الوسطى والجنوبية المنقسمة على نفسها غيلت وأخضعت من زمن بعيد ووضعت تحت الرقابة النظامية لموظفى الولايات المتحدة من « طبقة الحكام » . ولكانت تقوم حملة مستمرة تستهدف ضم استراليا ونيوزيلندا إلى أمريكا ، هذا إلى مدعٍ جديد بنصيب فى إفريقيا المدارية الاستوائية .

وقد حدث طوعاً لصدفة عجيبة أن أنتجت الولايات المتحدة فى شخص الرئيس روزفلت (الذى تولى الرياسة من ١٩٠١ — ١٩٠٨) رجلاً ذا همة تعادل فى عدم استقرارها حال القيصر الألمانى ، كما يعدله فى التشوق إلى جلائل الأمور وفى الفصاحة وذلاقة اللسان ، فهو رجل مغامر فيه انحياز إلى ناحية السياسة العالمية ، وفيه غريزة تدعوه إلى التسلح والجيوش المسلحة ، وهو الرجل عينه الذى نستطيع أن نتصور منه أن يقحم بلاده فى التخاطف على الممتلكات وراء البحار .

وليس يبدو أن هنالك أى تفسير آخر لذلك التحرم والامتناع العامين من ناحية الولايات المتحدة إلا نظمهم وتقاليدهم واختلافها عما لدينا من نظم وتقاليد . فى المقام الأول : ليس لدى الولايات المتحدة وزارة خارجية وهيئة دبلوماسية على الطراز الأوربى ، ولا مجموعة من « الخبراء » مهمتهما الاحتفاظ بتقاليد سياسة عدوانية . وللرئيس سلطات واسعة ، ولكن توقفها عند حدها سلطات مجلس الشيوخ الذى ينتخبه الشعب انتخاباً مباشراً . فلا بد لكل معاهدة تعقد مع دولة أجنبية من من أن تنال أولا موافقة مجلس الشيوخ . ومن ثم فإن العلاقات الخارجية للبلاد تحت رقابة صريحة علنية عامة . فالمعاهدات السرية مستحيلة إذن تحت مثل هذا النظام ، وتشكو الدول الأجنبية من صعوبة التفاهم مع الولايات المتحدة ... التحقق من ... بديع ورائع . وعلى هذا فإن الولايات المتحدة مغلولة

الأيدى من الناحية الدستورية ، عن القيام بنوع السياسة الخارجية التى جعلت أوربا طيلة زمان مديد على شفير الحرب باستمرار .

ومن الناحية الثانية : لم يوجد فى الولايات المتحدة حتى الآن أية منظمة تدير شئون ما قد يسميه الناس باسم « الممتلكات غير القابلة للتمثل » ولا أية تقاليد لمعالجة مثل هاته الممتلكات . وفضلا عن ذلك فحيث لا يوجد تاج لا يمكن أن توجد مستعمرات للتاج[1] . وكانت الولايات المتحدة إبان امتداد رقعتها عبر القارة الأمريكية قد طورت أسلوباً مميزاً لها تماماً فى معالجة شئون الأراضى الجديدة ، وهو مكيف تكيفاً بديعاً للأراضى غير المسكونة ، ولكنه غير ملائم تماما إذا هو طبق بملء الحرية على مناطق تحوى من قبل سكاناً أجانب . وكان هذا الأسلوب يقوم على فكرة أنه لا يمكن أن يوجد فى مجموعة الولايات المتحدة شعب تابع تبعية أبدية .

وكانت أول مراحل عملية التمثل العادية هى إنشاء « منطقة » تحت حكم حكومة الاتحاد ، يكون لها قدر جسيم من الحكم الذاتى ، وترسل إلى الكونجرس مندوباً (ليس له أن يعطى صوته) ولا بد لها إن سارت أمورها سيراً طبيعياً ومع استقرار الناس فيها وزيادة عدد سكانها ، أن تزدهر آخر الأمر فتنال كل حقوق الولاية تلك هى عملية التطور فى كل ولايات الاتحاد الأحدث عهداً ؛ وكانت آخر مناطق بلغت مرتبة الولاية هى آريزونا ونيومكسيكو فى ١٩١٢[2] . على أن برية الاسكا المتجمدة المشتراة من الروسيا ، ظلت غير متطورة من الناحية السياسية لمجرد أنها لم تحو عدداً من السكان يكفى للقيام بإنشاء ولاية .

ولما كان ما ضمته ألمانيا وانجلترة من أراض فى المحيط الهادى هدد البحرية الأمريكية بالحرمان من محطات للفحم فى ذلك المحيط ، فقد ضمت الولايات المتحدة إليها جزءاً من جزائر ساموا (١٩٠٠) كما ألحقت جزائر سندوتش (هواى)

---

(١) فى هذه الفقرة يذكر المؤلف القراء بجميع أنواع المستعمرات البريطانية وبطرق الحكم التى تتبعها بريطانيا فى حكمها لها . (المترجم)

(٢) لقد حدث فعلا ما تنبأ به المؤلف ، فإن الولايتين وهما ألاسكا وهواى قد أنشئتا فعلا وضمتا إلى الاتحاد . وبذلك أصبح عدد الولايات المتحدة خمسين . (المترجم)

(١٨٩٨) . وهنا وجدت الولايات المتحدة لأول مرة شعوباً محكومة تتعامل وإياها ولكن أمريكا اتبعت فيها نفس أسلوبها فى معالجة « المناطق » الجديدة فى بلادها ، وذلك لعدم وجود أية طبقة تماثل الموظفين الإنجليز فى الهند الذين يتسلطون على الرأى العام البريطانى . وقد بذل كل مجهود لرفع المستوى التعليمى فى هواى إلى نفس مستواه فى أمريكا ، ونظم مجلس تشريعى داخلى على غرار مجالس الولايات حتى ليخيل إلينا أن من المحتم أن ينال هؤلاء الجزريون السمر القاتمون فى النهاية كامل الحقوق المدنية للولايات المتحدة . (ويهيمن على جزائر ساموان الصغيرة مدير من قبل الولايات المتحدة تابع للبحرية) .

وفى ١٨٩٥ نشب بين الولايات المتحدة وبريطانيا العظمى خلاف حول ڤنزويلا ، واستمسك الرئيس كليڤلند بغاية الشجاعة بمبدأ مونرو . وعند ذلك صرح المستر أولنى[1] بهذا التصريح الهام : « اليوم تصبح الولايات المتحدة صاحبة السيادة الفعلية على هذه القارة ، كما أن أوامرها قانون فى الموضوعات التى تقصر عليها تدخلها » . ويشير هذا مجتمعاً مع ما عقد من المؤتمرات المنوعة التى تدعو إلى اتحاد الأمريكتين ، إلى « سياسة خارجية » حقيقية علنية تقوم على التحالف والمساعدة المتبادلة فى كل أرجاء أمريكا . ومعاهدات التحكيم نافذة المفعول فى كل أرجاء تلك القارة ، وكأنى بالمستقبل مشيراً إلى الاتجاه إلى تطور تدريجى نحو إنشاء منظمة دولية أى « سلم أمريكى Pax Americana[2] » الذى يضم الشعوب الناطقة بالإنجليزية والناطقة بالأسبانية وتكون فيه الأولى بمثابة الأخ الأكبر . وهنا نرى شيئاً لسنا بمستطيعين حتى أن نسميه إمبراطورية ، وهو شىء يتجاوز كثيراً التحالف الكبير فى الإمبراطورية البريطانية من ناحية المساواة الصريحة بين أجزائه .

---

(١) ريتشارد أولنى (Olney) : (١٨٣٥ - ١٩١٧) سياسى ومحام أمريكى . أصبح وزيراً ، كتب فى سنة ١٨٩٥ رسالته الشهيرة طالب فيها بضرورة خضوع بريطانيا للتحكيم فى خلافها مع ڤنزويلا . (المترجم)

(٢) فى ذلك وفى « السلم البريطانى » إشارة للسلم الرومانى (Pax Romana) الذى كان يفرض الأمن والسلام بالعالم إبان عظمة روما (المترجم)

ومما يتسق مع هذه الفكرة الهادفة إلى الصالح الأمريكي المشترك ، أن تدخلت الولايات المتحدة في ١٨٩٨ في شئون كوبا ، التي ظلت في حالة من العصيان المزمن على أسبانيا طيلة سنوات عديدة . ثم عقب ذلك حرب وجيزة الأمد انتهت بالاستيلاء على كوبا وبورتوريكو وجزائر الفلبين . وكوبا الآن جمهورية مستقلة تدير شئونها بنفسها . وأعطيت بورتوريكو وجزائر الفلبين نوعاً خاصاً من الحكم فيه مجلس نواب ينتخب الشعب أفراده ومجلس أعلى يحتوى على أعضاء عينهم بادئ الرأى مجلس الشيوخ بالولايات المتحدة . ومن البعيد أن تصبح أى من بورتوريكو والفلبين يوما ما ولايات في الاتحاد الأمريكي . والأرجح أن تصبحا دولا حرة على أساس تحالف شامل مع كل من أمريكا الناطقة بالإنجليزية وأختها اللاتينية .

ولقد استقبلت كل من كوبا وبورتوريكو التدخل الأمريكي في شئونها بالترحاب التام ، ولكن ظهرت في جزائر الفلبين حركة مطالبة بالحرية التامة الناجزة بعد الحرب الأسبانية ، كما نشبت مقاومة جسيمة للإدارة العسكرية الأمريكية . هنالك اقتربت الولايات المتحدة أشد اقتراب من طراز استعمار الدول الكبرى ، وأصبح سجلها في هذا المضمار أبعث ما يكون على الريبة على أن الشعب الأمريكي أبدى شيئاً كثيراً من العطف على العصاة . وهاكم الآن وجهة نظر الرئيس روزفلت كما كتبها في ترجمته الذاتية ١٩١٣ .

« فأما عن الفلبين فقد كان اعتقادى أنه يجب علينا أن ندرب أهاليها على الحكم الذاتى بأسرع ما يستطاع ، ثم نتركهم أحراراً في تقرير مصيرهم . ولم أكن ممن يؤمنون بتحديد الموعد الذى يجب أن نعطيهم فيه الاستقلال ، لأنى لم أكن أرى من الحكمة أن يتنبأ المرء بمقدار السرعة التي يصبحون فيها أهلا للحكم الذاتى ؛ فإذا قطعت ذلك الوعد فإنى أشعر بأنه من المحتم على أن أبرّ به . ولم تمض بضعة أشهر على توليّ مهام عملى حتى قضينا في جزائر الفلبين على آخر مقاومة مسلحة وهى مقاومة لم تكن مجرد حركة متفرقة ولا متناثرة ، وما أن توطد السلام في البلاد حتى وجهنا كل همنا إلى تطوير الجزر لمصلحة أهل البلاد ، فأسسنا المدارس في كل

مكان ؛ وأنشأنا الطرق ؛ وأقمنا عدالة نزيهة ؛ وفعلنا كل ما فى مستطاعنا لتشجيع الزراعة والصناعة ؛ وأخذنا نزيد باطراد فى استخدامنا لأهل البلاد للقيام بحكم أنفسهم وأخيراً زودناهم بمجلس تشريعى . . .

« لقد كنا وما زلنا نحكم جزر الفلبين لمصلحة أهلها أنفسهم . فلو قرر الفليبيون فى الوقت المناسب أنهم لا يرغبون أن يحكموا على هاته الشاكلة ، فإنى موقن بأننا سنغادر بلادهم عند ذلك . على أننا إذا غادرناهم بالفعل فيجب آن يكون مفهوماً فهما بيّناً أننا لا نحتفظ بأى حماية على الجزر ، وأننا فوق كل شىء لن نساهم فى أية حماية مشتركة — ولا نمنحهم أى ضمان بالحياد أو عدم الحياد ، وأننا بالايجاز خلو خلواً تاماً من كل تبعة ، من أى نوع ووصف قبلهم » .

تلك وجهة نظر مخالفة أتم المخالفة لوجهة نظر وزارة للخارجية بريطانية أو فرنسية أو موظف فى وزارة المستعمرات . على أنها لا تبتعد كثيراً عن تلك الروح التى خلقت الممتلكات المستقلة فى كندا وجنوب أفريقيا وأستراليا ، وقدمت مشروعات قوانين الحكم الذاتى الثلاثة لإرلندة . وهى شىء يتمشى والتقاليد الإنجليزية القديمة التى اختصصنا بها والتى انتهل منها إعلان الاستقلال . وهى تنبذ بلا مناقشة تلك الفكرة الممقوتة . فكرة « الشعوب المحكومة » . وان ندخل هنا فى المعقدات السياسة التى صحبت إنشاء قناة بناما ، لأنها لا تلقى أى ضياء جديد على هذا الموضوع الشائق موضوع منهج أمريكا فى السياسة العالمية . وتاريخ بنا تاريخ أمريكى بحت . ولكن من الواضح أنه كما كان التركيب السياسى الداخلى للاتحاد الأمريكى شيئاً جديداً فى العالم ، فكذلك كانت علاقاته بالعالم خارج حدوده .

٧ — الأسباب المباشرة للحرب العظمى

لقينا بعض المشقة فى الفحص عن حالة أوربا وأمريكا العقلية بالنظر إلى العلاقات الدولية فى السنوات التى انتهت بمأساة ١٩١٤ العالمية ، لأن تلك الحرب الكبرى وأمثالها — كما أخذ عدد متزايد من الناس يشعر بذلك — كانت نتيجة ضرورية لعقلية الزمان . فإن جميع الأشياء التى تصدر عن الأفراد والأمم إنما هى نتيجة

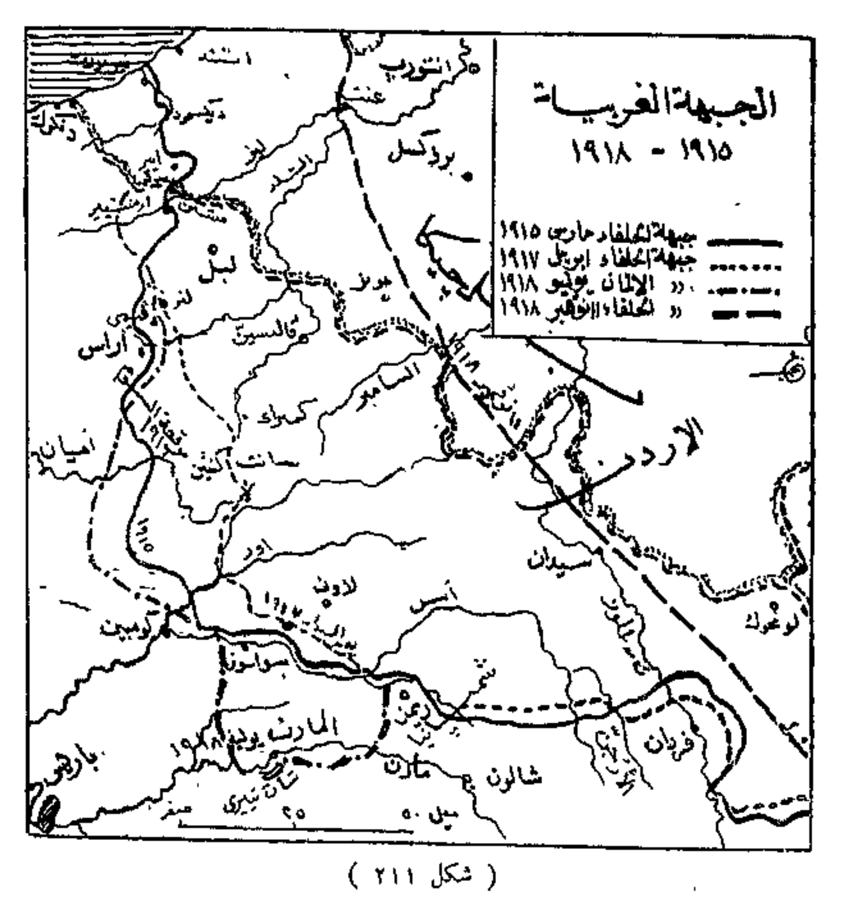
لدوافع غريزية لها رد فعل على الفكرات التى وضعها فى رءوس الناس الخطابة والكتب والصحف والمدرسون إلى غير ذلك من وسائل الإعلام وربما أخرجت نمو التاريخ الإنسانى عن جادته وانحرفت به وشوهت معالمه أشياء من أمثال الضرورات الطبيعية والأوبئة وتغيرات المناخ وما إليها من أشياء أخر ، ولكن الفكر هو الجذر الحى لذلك التاريخ .

فالتاريخ البشرى بأجمعه إنما هو فى جوهره تاريخ فكرات . فإن ما بين إنسان هذا الزمان ورجل الكرومانيون من فروق جثمانية وعقلية طفيف جداً ؛ وينحصر الفارق الأساسى بينهما فى سعة ومحتويات « الخلفية العقلية » التى اكتسبناها فى الأجيال الخمسمئة أو الستمئة التى تفصلنا عنهم .

ونحن من الحرب العظمى على مقربة بلغ من شدتها ألا نستطيع أن ندعى أن فى إمكان هذا الكتاب أن يسجل حكم التاريخ عليها ، على أنا ربما خاطرنا بأن نزكن أنه عندما تخف انفعالات النزاع ، فستكون ألمانيا صاحبة القسط الأوفى من اللوم على التسبب فيها ، وإنها لتلام لا لأنها كانت من الناحية الذهنية والخلقية مختلفة جداً عن جيرانها ، بل لأنها كانت مصابة بما تشركها فيه الدول جميعاً من داء الاستعمار ولكنه فيها على أتم صورة وأقواها نشاطاً . وليس هناك من مؤرخ يحترم نفسه ، مهما بلغت مراميه من السطحية والرغبة فى استرضاء العامة ، يستطيع أن يقبل تلك الأسطورة التى أنتجتها آلام الحرب وويلاتها ، والقائلة بأن الألمان نوع من الكائنات البشرية أشد قوة وأدعى للكراهية من أى جنس آخر من أجناس الناس . فإن دول أوربا الكبيرة كافة كانت فى ١٩١٤ فى حال من القومية العدوانية ، وكانت تنساق نحو الحرب ؛ ولم تقم حكومة ألمانيا بأكثر من قيادة الحركة العامة . فكانت أول من وقع فى الحفرة ، وهوت تتخبط فى أعمق أعماقها . وأصبحت المثل الفظيع الذى استطاع زملاؤها فى الإثم أن يشهروا به .

ذلك أن ألمانيا والنمسا ظلتا زمناً طويلا تبحثان عن متسع للنفوذ الألمانى شرقاً خلال آسيا الصغرى إلى بلاد الشرق . وتبلورت الفكرة الألمانية فى عبارة « برلين إلى بغداد » . وكانت أحلام الروسيا عدوة لأحلام ألمانيا ، فالروسيا كانت تدبر

الخطط الرامية إلى إمتداد السيادة السلاڤية (الصقلبية) إلى القسطنطينية وللوصول بطريق صربيا إلى البحر الأدرياتى . وكانت هذه الأطماع متضاربة متعارضة .



(شكل ٢١١)

وكانت حالة الحمى المتسلطة على شئون البلقان نتيجة طبيعية جداً للمؤامرات والدعايات التى تواصل القيام بها الخطط الألمانية والسلاڤية . ومدت تركيا يدها إلى ألمانيا تلتمس العون ، والتفتت صربيا صوب الروسيا . واتبعت رومانيا وإيطاليا وكلتاهما لاتينية التقاليد ، وكلتاهما حليف إسمىّ لألمانيا ، خططاً مشتركة بينهما أبعد مجالا وأعمق غوراً . وكان فرديناند قيصر بلغاريا يطلب غايات أشد حلوكة وسواداً ؛ كما أن خفايا البلاط اليونانى الذى كان ملكه صهراً للقيصر الألمانى تخرج عن مجال مقدرتنا الحالية على البحث والتقصى .

ولكن المعضلة لم تنته عند تربص ألمانيا فى جانب والروسيا فى الجانب المقابل . فإن جشع ألمانيا فى ١٨٧١ جعل من فرنسا عدواً لدوداً لها . وأدرك الشعب الفرنسى عجزه عن أن يسترد بقوته وحده مقاطعاته المسلوبة ، وعلل النفس بفكرات مضخمة عن قوى الروسيا ومساعداتها . وأسهم الشعب الفرنسى فى القروض الروسية إسهاماً هائلا . وكانت فرنسا حليفة للروسيا . فإذا اعتدت قوات الألمان على الروسيا فلامراء فى أن فرنسا تهاجمهم .

وكانت الحدود الفرنسية الشرقية القصيرة محصنة تحصيناً قوياً جداً . وبفضل هذا الحاجز لم يعد أمام ألمانيا إلا أقل الاحتمالات فى تكرار نجاحها فى ١٨٧٠-١٨٧١ . على أن الحدود الفرنسية البلچيكية كانت أطول وأضعف تحصينا . فالقيام بهجوم على فرنسا بطريق بلچيكا بقوات جارفة لاقبل لأحد بمقاومتها ، قد يعيد ١٨٧٠ على درجة أكبر وأبلغ . وربما رُدت الميسرة الفرنسية نحو الجنوب الشرقى إلى ڤردان جاعلة منها قطب دوران ، ثم تتزاحم متراجعة على الميمنة كما تطبق المدية أو الموسى .

وقد دبر الاستراتيچيون الألمان هذه الخطة بعناية وإحكام بالغين . وكان فى تنفيذها اعتداء على حرمة قانون الأمم : (أعنى القانون الدولى) ، لأن بروسيا تعهدت بضمان حياد بلچيكا ولم يكن بين الفريقين خلاف ، كما أن فيه خطر إدخال بريطانيا العظمى فى الموضوع (وهى دولة كانت كذلك متعهدة بحماية بلچيكا) من ألمانيا . ومع هذا فإن الألمان اعتقدوا أن أسطولهم بلغ من القوة مبلغاً يكفى لجعل بريطانيا تتردد فى التدخل ، وقاموا — ناظرين إلى الاحتمالات التى قد تجىء بها الأيام — بإنشاء مجموعة عظيمة من الخطوط الحديدية الاستراتيچية[1] تصل إلى حدود بلاد البلچيك ، وأعدوا كل عدة لتنفيذ هذه الخطة . لعلهم بذلك يستطيعون أن يقضوا على فرنسا بضربة واحدة ، ثم يلتفتون بعد ذلك إلى الروسيا وقتما يمليه عليهم هواهم .

وفى ١٩١٤ كان يلوح أن جميع الأمور متكافئة حسبما تهوى الدولتان الوسطيان . نعم إن الروسيا كانت تستعيد قواها منذ ١٩٠٦ ، ولكن ذلك لم يكن إلا ببطء

(١) الاستراتيچيا : فن القيادة بصفة عامة وعلم أو فن جمع الموارد العسكرية بعضها إلى بعض أو القيام بمناورات الجيوش . (المترجم)

شديد . وكانت فرنسا مبلبلة الفكر لما أصابها من فضائح مالية . ولم يلبث الحادث المذهل الذى صرع فيه المسيو كالميت محرر جريدة الفيجارو على يد زوجة المسيو كايّو[1] وزير المالية ، أن بلغ بهذه الفضائح أوجها فى مارس . فأما بريطانيا ، فإن ألمانيا بأجمعها كانت موقنة بأنها على شفير الحرب الأهلية فى إرلندة . وبذلت جهود متكررة من أقوام أجانب وانجليز على السواء للحصول على بيان محدد عما تنوى بريطانيا أن تفعله إذا هاجمت ألمانيا والنمسا دولتى فرنسا والروسيا . ولكن وزير الخارجية البريطانى السير إدوارد جراى ظل محتفظاً بستار من الغموض حتّى نفس اليوم الذى دخلت فيه بريطانيا الحرب . ونتيجة لذلك ، كان يعم القارة الأوربية إحساس بأن بريطانيا إما لا تنوى أن تحارب أو هى سوف ترجئ القتال . وربما شجع هذا ألمانيا أن تواصل تهديدها لفرنسا .

ومما تعجل سير الحوادث فى ٢٨ يونيه اغتيال الأرشيدوق فرانسيس فرديناند ، وارث عرش الإمبراطورية النمساوية وهو فى زيارة رسمية لسراچيڤو عاصمة مقاطعة البوسنة . وعند ذلك لاح أنسب الأعذار لدفع الجيوش إلى التحرك . قال إمبراطور الألمان « إما الآن وإلا فلا » . واتهمت صربيا بالتحريض على القتل ، وبالرغم من أن المندوبين النمسويين قدموا تقريراً يتضمن أنه ليست هناك أدلة على أن للحكومة الصربية ضلعاً فى الجريمة ، فإن حكومة النمسا والمجر دبرت التدابير لتوجيه هذا الاعتداء إلى ناحية الحرب . ففى ٢٣ يوليو أرسلت النمسا إلى الصرب إنذاراً نهائيا ، وبالرغم من تقدم الصرب بالخضوع الفعلى ، ومن جهود السير إدوارد جراى وزير الخارجية البريطانية لدعوة الدول إلى مؤتمر ، فإن النمسا أعلنت الحرب على صربيا فى ٢٨ يوليو .

وعبأت الروسيا جيوشها فى ٣٠ يوليو ، وفى أول أغسطس أعلنت عليها ألمانيا الحرب . وعبرت القوات الألمانية الحدود الفرنسية فى اليوم التالى ، وابتدأت الحرب

---

(١) كايو (Caillaux) ، (١٨٦٣ — ١٩٤٤) : سياسى فرنسى . تولى المالية ورئاسة الوزارة . قتلت زوجته المحرر لأنه هددها بنشر رسائل من كايو إليها وهى زوجة لرجل آخر . (المترجم)

الكبيرة ، حركة الهجوم على الجناح الأيسر خلال لوكسمبرج وبلچيكا . وسارت إلى الغرب راكبة الكشافة وحرس الطليعة . وانطلقت إلى الغرب أرتال من السيارات المحملة بالجنود . وتبع ذلك طوابير هائلة من المشاة ذوى البذلات الرمادية ؛ وكان معظمهم شباناً ألمانيين جميلى العيون شُقر الشعور ، وهم أحداث متعلمون ممن يطيعون القانون ويحترمونه وممن لم يحدث أن رأوا من قبل رصاصة تطلق غضباً . لقد أخبروهم «أن هذه هى الحرب» . وأنهم يجب أن يكونوا شجعاناً لا تجد الرحمة إلى قلوبهم سبيلا . وبذل بعضهم قصاراه فى تنفيذ تعليمات سادته العسكريين هذه على حساب أهالى بلچيكا التعساء .

وقد أثيرت حول تفاصيل فظائع الألمان فى بلچيكا ضجة لا تتناسب فى الحق مع الفعلة الجوهرية الشنعاء التى اقترفت فى أغسطس ١٩١٤ ، وأعنى بها اجتياح بلاد البلچيك . فلو سلمنا بهذا فإن كل ما يقع بعد ذلك من قتل ونهب ، ومن تدمير طائش للممتلكات ، ومن نهب للفنادق والمطاعم والمشارب يقوم به رجال جياع مكدودون ، وما يترتب على ذلك من إغتصاب للنساء ومن حرائق ، فأمور تعقب ذلك بحكم طبيعة الأشياء . وليس إلا البسطاء من الناس من يعتقدون بأن جيشاً فى ميدان القتال يقدر أن يحافظ على مستوى للأمانة واللياقة والعدالة ، كما يقدر أن يحافظ عليها مجتمع مستقر فى وطنه . هذا إلى أن تقاليد حرب الثلاثين سنة كانت ما تزال تؤثر أثرها فى الجيش البروسى[1] . فقد جرت العادة فى البلاد المتحالفة ضد ألمانيا أن يعالجوا هذا الاتضاع وسفك الدماء أثناء شهور القتال بالبلچيك كأنما هما أمران لم يحدث لهما مثيل من قبل أبداً ، وكأنما كانا يرجعان إلى نبعة شريرة تتميز بها أخلاق الألمان .

فأطلقوا عليهم اسم « الهون » تشهيراً بهم . ولكن جرائم الألمان فى بلچيكا أقل الأشياء شبهاً بالتدميرات المنظمة التى ارتكبها هؤلاء المترحلون (الذين فكروا مرة

---

(١) يحلو لكتاب الإنجليز أن يصموا جيوش غيرهم بكل نقيصة وينسون ما قامت به جيوشهم البريطانية من فظائع وشناعات على مر الأيام يندى لها جبين التاريخ وما مذابح الهند وبورما والعزيزية ببعيدة عن الأذهان . (المترجم)

فى إبادة السكان الصينيين على بكرة أبيهم لكى يعيدوا بلاد الصين إلى الرعى)
وكان الشيء الكثير من هذه الجرائم وحشية تسبب عن سكر رجال صاروا لأول مرة فى حياتهم أحراراً فى استخدام أسلحة مهلكة ، وكان الكثير منها هو العنف الهستيرى الذى يصدر عن رجال أزعجهم ما بدر منهم من تصرفات ، أو ألم بهم خوف قاتل من إنتقام الأهالى الذين وقع منهم الاعتداء على حرمة بلادهم ، وكان الكثير منها يحدث تحت ظروف من الاضطرار والضيق بسبب النظرية القائلة بأن الرجال يجب أن يكونوا فى الحرب فظيعين وأن خير وسيلة لإخضاع الأمم هى الخوف . وقد جمع العامة الألمان من حالة طاعة نظامية وزجوا فى هذه الحرب على صورة جعلت من المحتم أن يترتب عليها الفظائع . فإن أى شعب يجهز للحرب ويساق إلى غمراتها كما حدث للألمان فهو لابد متصرف على شاكلة مماثلة .

وفى ليلة ٤ أغسطس ، وبينما أوربا ما تبرح مستغرقة فى بحبوحة نصف قرن من السلم ، وما تبرح تستمتع الاستمتاع المعتاد بالحرية والرخص والوفرة الشاملة التى لن يراها أى حى مرة أخرى ، وتفكر فى إجازاتها الصيفية ؛ — كانت قرية ڤيزيه (Visé) البلچيكية الصغيرة فى أتون من النيران ، ثم كان فلاحوها المشدوهون يؤخذون ويعدمون رمياً بالرصاص بدعوى أن أحد الناس أطلق النار على الغزاة . ومن المؤكد أن الضباط الذين أصدروا هذه الأوامر والجنود الذين نفذوها شعروا بالرعب لغرابة ما أتوا . إذ لم يسبق لمعظمهم أن شهد حتى ذلك اليوم موتة عنيفة . وكانوا قد أضرموا النار لا فى قرية بمفردها بل فى عالم بأجمعه . كانت تلك بداية نهاية لعصر من الاستجمام والثقة والسلوك الرقيق اللائق فى أوربا .

وما كاد العالم يتحقق أن بلاد البلچيك سوف تغزى ، حتى كفت بريطانيا العظمى عن التردد ، وفى الساعة الحادية عشرة من مساء ٤ أغسطس أعلنت الحرب على ألمانيا . وفى اليوم التالى ضبطت سفينة ألمانية من ملقيات الألغام عند مصب نهر التيمز إذ اكتشفتها الطرادة (أمفيون Amphion) وأغرقتها — وهى أول مرة التقى فيها الألمان بالإنجليز فى حرب تحت راياتهما القومية سواء أكان ذلك فى البر أم فى البحر .

وما تزال أوربا بأكملها تتذكر الجو الغريب لأيام أغسطس المشمسة المليئة

بالأحداث هذه ، وتتذكر نهاية السلم المسلح . وقد ظل العالم الغربى قرابة نصف قرن وهو ساكن تبدو عليه الأمنة . ولم يكن هناك فى فرنسا إلا القليل من الكهول والشيوخ الذين شربوا لبان الحرب فعلا وتمرسوا بها عملياً . وطفقت الصحف تتحدث عن كارثة عالمية ، ولكن هذا الحديث لم يكن له إلا معنى ضئيل جداً لدى أولئك الذين كان العالم يبدو فى نظرهم على الدوام فى أمنة وسلام ، ومن كانوا فى الواقع لا يستطيعون تصوره إلا مستظلا بظلال الأمنة والسلام .

وتواصلت فى بريطانيا بوجه خاص روتينات زمن السلم وأحواله العادية تواصلا لا يخلو من اهتزاز وتردد . كانت الحال تشبه حال رجل ما يزال يمشى فى هذا العالم غير مدرك أنه مصاب بداء عضال سوف يغير كل مجرى حياته وكل عادة فيها . فاستمر الناس فى إجازاتهم الصيفية ؛ وكانت الدكاكين تطمئن زبائنها بإعلانهم بأن « العمل يجرى كالمعتاد » . وكان الحديث يكثر والإنفعال يشتد عندما تظهر الصحف ، ولكنه كان حديثاً وكان انفعالا لنظارة ليس لديهم شعور واضح بالاشتراك فى هذه الكارثة التى أوشكت أن تغمرهم جميعاً على الفور .

٨ – خلاصة للحرب العظمى حتى ١٩١٧

سنستعرض الآن بمنتهى الإيجاز الأدوار الرئيسية للكفاح العالمى الذى ابتدأ كما رأيت . وكما دبرت ألمانيا الأمر ، بدأت الحرب بهجوم سريع يهدف إلى ضرب فرنسا « ضربة قاضية » ؛ بينما تكون الروسيا منهمكة بتجميع قواتها فى الشرق . وسارت الأمور على ما يرام ردحاً من الزمان . ومن المعروف أن العلم العسكرى ليس بالعلم المماشى لتقدم زمانه فى ظروفنا العصرية هذه ، لأن العسكريين من الرجال إنما هم بوصفهم طبقة — رجال واهنو الخيال ، فهناك فى كل آن مخترعات لم تتطور ، تجد الفطنة العسكرية قد رفضتها ، بينما هى تستطيع أن تحطم ما جرى عليه العرف فى فنى التاكتيك[1] والاستراتيجيا .

---

(١) التاكتيك : فن قيادة الجند فى إحدى المعارك وفق قواعد مقررة وخطة مرسومة . (المترجم)

وكانت الخطة الألمانية مدبرة من سنوات عدة . فهى من ثم خطة عتيقة آسنة . ولعلها كانت تحبط منذ البداية لو أنها قوبلت باستعمال الخناق والأسلاك الشائكة والمدافع الرشاشة استعمالا صحيحاً ، ولكن الفرنسيين لم يكونوا بأى حال متقدمين فى فهم العسكرى تقدم الألمان ، فركنوا إلى أساليب الحرب المكشوفة التى كانت متأخرة عن الزمان بما لا يقل عن أربعة عشر عاما . ولم يكن لديهم عتاد مناسب لا من الأسلاك الشائكة ولا من المدافع الرشاشة ، وكان هناك تقليد مضحك يقول بأن الفرنسي لا يحسن القتال وراء المتاريس .

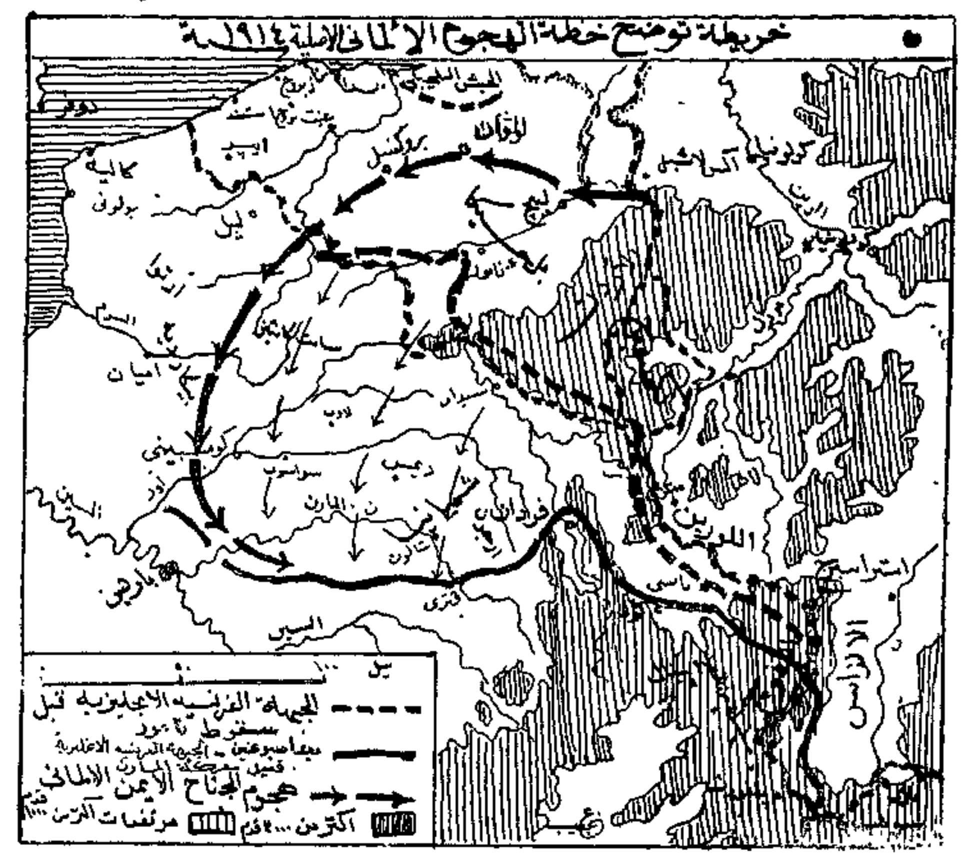
وكان الدفاع عن الحدود البلچيكية موكولا بحصون لييج (Liége) ، وهى حصون قديمة الطراز عشر سنوات أو اثنتى عشرة سنة ، وفيها استحكامات زودها بالأسلحة وركبها فى كثير من الحالات مقاولون من الألمان ، وكان العتاد فى الحدود الفرنسية الشمالية الشرقية رديئاً جداً . وطبيعي أن شركة الأسلحة الألمانية المسماة كروپ أعدت لهذه الحصون الهزيلة معاول تتمثل فى مدافع ذات ضخامة استثنائية تقذف بقنابل شديدة التفجر . وأثبتت هذه الحصون أنها ليست إلا مجرد مصايد لحماتها المدافعين .

وقام الفرنسيون بهجمة فاشلة فى جبال الأردن الجنوبية . وتأرجحت الجيوش الألمانية حول الميسرة الفرنسية حتى أيقن الناس أنها جيوش لا قبل لأحد بمقاومتها ؛ وسقط آخر حصن فى لييج فى ١٦ أغسطس ، وبلغ الألمان بروكسل فى ٢٠ أغسطس ، وعند مونز (Mons) أصيب الجيش البريطانى الصغير المكون من سبعين ألفاً والذى وصل إلى بلچيكا ، بضربة قاضية من قوات ساحقة ، ودفع إلى الخلف بالرغم من درس تاكتيك البنادق المهلك الذى تلقاه فى حرب جنوب أفريقيا . ودفعت القوة البريطانية الصغيرة إلى الجنوب . وانحدرت الميمنة الألمانية بصورة تترك باريس فى الغرب وتهرس الجيش الفرنسي بعضه فى بعض .

وبلغ من شدة ثقة القيادة الألمانية فى هذه المرحلة بأنها كسبت الحرب ، أنه قبل نهاية أغسطس كانت الجيوش الألمانية تسحب وتنقل فعلا إلى الميدان الشرقى ، حيث كان الروسيون يهلكون الحرث والنسل فى بروسيا الشرقية والغربية . وعند ذلك

جاء هجوم الحلفاء المضاد . وأبرز الفرنسيون فى ميسرتهم جيشاً غير منتظر ، وكان الجيش البريطانى الصغير الذى تزلزل فى البداية ، قد أمد بالقوات وأصبح قادراً على أن يقوم بدور كريم فى الضربة المضادة . ودأست بعض الميمنة الألمانية على بعض ، وقد ضلت اتصالها ببعضها بعضا ، ثم دفعت عن المـارن إلى الأيسن (Aisne) (معركة المارن من ٦ سبتمبر إلى ١٠ سبتمبر) . ولعلها كانت ستدفع إلى الخلف أكثر من ذلك لولا أنها أعدت فى جعبتها فكرة الالتجاء إلى الخنادق . ووقفت الميمنة عند نهر الأيسن واحتفرت لنفسها الخنادق . ولكن لم تكن المدافع الثقيلة ولا القنابل الشديدة التفجر ولا الدبابات — التى يحتاج إليها الحلفاء لتحطيم هذه الخنادق ومعاقلها ، قد ظهرت إلى عالم الوجود بعد .

ومزقت معركة المارن الخطة الألمانية الأصلية . ونجت فرنسا إلى حين . ولكن



(شكل ٢١٢)

الجيش الألمانى لم يهزم ؛ بل كان لا يزال لديه الفوق العدوانى العظيم فى المهارة العسكرية والعتاد . وكان خوفه من الجيش الروسى فى الشرق قد زال أو كاد بنصر هائل أحرزه فى تاننبرج . وكان الدور الثانى من أدوار الحرب حملة مدبرة تدبيراً أقل إحكاماً ترمى إلى تطويق ميسرة جيوش الحلفاء والاستيلاء على ثغور القنال الإنجليزى ومنع المدد الآتى من انجلترة إلى فرنسا . ومن ثم امتد كل من الجيشين غرباً وانطلقا إلى الساحل فيما يشبه السباق . ثم انطلق الألمان بما لهم من تفوق عظيم فى المدافع والعتاد محاولين إنزال ضربة بالإنجليز بالقرب من إيبر (Ypres) وكادوا أن يحدثوا ثغرة فى صفوفهم ، لولا أن صمد لهم الإنجليز .

ووكدت الحرب فى الميدان الغربى متحولة إلى حرب خنادق . ولم يكن لدى أحد من الطرفين من العلم والعتاد ما يكفل حلّ مسألة اختراق الخنادق العصرية وأحابيل المعوّقات الحديثة ، وعند ذاك اضطر كل من الطرفين إلى الالتجاء إلى أهل العلم والاختراع ومن إليهم من غير العسكريين يسألونهم النصح والمعونة فيما هم فيه من ورطة . وفى ذلك الوقت كانت المشكلة الجوهرية فى حرب الخنادق قد حُلت فعلا ؛ إذ كان يوجد فى انجلترة مثلا نموذج دبابة كانت تمنح الحلفاء ولا ريب نصراً سهلا سريعاً قبل ١٩١٦ . ولكن العقل العسكرى المحترف إنما هو بحكم الضرورة عقلٌ منحط سقيم الخيال ؛ فليس هناك إنسان رزق مزية ذهنية عالية يرضى بمحض اختياره بحبس مواهبه فى مثل هاته المهنة ؛ وجميع العسكريين المتفوقى العظمة يكادون أن يكونوا إما من الشبان الأغمار الناضرى الأذهان أمثال الإسكندر ونابليون وهوش[1] ، أو من السياسيين الذين انقلبوا إلى سلك الجندية أمثال يوليوس قيصر ، أو من المترحلين أمثال قواد الهون والمغول أو هواة من أمثال كرومويل وچورج واشنجتون . على أن هذه الحرب الناشبة بعد خمسين سنة من التهيؤ العسكرى كانت حرب محترفين أقحاح ؛ وكان من المستحيل منذ بدايتها حتى نهايتها استخلاصها من يد القواد العاديين ،

---

(١) هوش (١٧٦٨ - ١٧٩٧) قائد فرنسى نابغ ، دخل الجيش جندياً ورقى چنرالا ، وفى ١٧٩٣ تولى القيادة فى اللورين وطرد منها الجيوش البروسية . وقام بمحاولة محققة لغزو إرلندة فى ١٧٩٦ . (المترجم)

ولم يكن أى من قيادة الألمان أوقيادة الحلفاء بميالة إلى أن تنظر بعين التسمح إلى أى اختراع يقضى على أساليبهم التقليدية .

ومهما يكن الأمر فإن الألمان استحدثوا بالفعل بضعة مستحدثات . فإنهم فى ٢٨ فبراير أنتجوا مستحدثة تكاد تكون غير ذات أثر ، هى قاذفة اللهب التى كان من يستعملها معرضاً على الدوام أن يحرق حياً ؛ وفى أ.ـل وعند افتتاح هجوم عظيم ثان على البريطانيين (معركة إيبر الثانية من ٢٢ أبريل إلى ٢٤ مايو) استخدموا سحابة من الغاز السام . وقد استعملت هذه الوسيلة الفظيعة ضد جيوش جزائرية وكندية ، فزلزلهم العذاب الجسمانى الذى كان يصيبهم منها ، وآلام النزع التى يلقاها من يُسلمون الروح منهم ، ولكنها فشلت فى إحداث ثغرة فى صفوفهم . وجاءت بضعة أسابيع كان الكيماويون فيها أعظم أهمية من الجنود فى جبهة الحلفاء ، وما مضت ستة أسابيع حتى كان بين يدى الجيوش المدافعة أساليب ومستحدثات وقائية . وانقضت مدة عام ونصف حتى يوليو ١٩١٦ ، استمر فيها الميدان الغربى فى حالة توتر غير حاسم . وقام كل من الطرفين بهجمات شديدة كانت تنتهى بصدها بعد إراقة كثير من الدماء . وقام الفرنسيون بطعنات غالية الثمن فى آراس وفى شمبانيا فى ١٩١٥ ، وقام الإنجليز بمثلها فى لوس (Loos) .

وكان يمتد من سويسرا إلى بحر الشمال خطان مستمران من الخنادق لا ينقطعان ، لا يفصل بينهما فى بعض الأحايين إلا مسافة ميل أو يزيد ، وربما بلغت المسافة بينهما أحياناً بضعة أقدام (كما كان الحال فى أراس مثلا) ، وفى داخل خطىّ الخنادق هذين ومن حولها كان ملايين الرجال يكدحون ويقاسون الويلات ، ويغيرون على أعدائهم ، ويعدون العدة لهجمات دموية محتومة الفشل . ولو كانت هذه الجموع الآسنة فى أى عصر سلف لأنتجت الأوبئة الوبيلة ولا مناص ، ولكنْ فى هذا الموطن أيضاً استطاع العلم العصرى أن يغير ظروف الحرب . وظهرت أنواع بعينها من الأمراض الجديدة ، مثل « مرض الأقدام الخندقى[1] » ، المترتب على الوقوف طويلا فى المياه الباردة ،

---

(١) مرض الأقدام الخندقى أو عضة الصقيع للأقدام (Trench Feet) وهى حالة مرضية تصيب أقدام الجنود بالخنادق بسبب تعرضهم للبرد والرطوبة أثناء حرب الخنادق . (المترجم)

وأشكال جديدة من الدوسنتاريا وما أشبهها ، ولكن واحداً لم يتطور تطوراً يؤدى إلى تعجيز أى من القوتين المتحاربتين .

ومن خلف هذه الجبهة كانت كل حياة الأمم المتحاربة تُحوّل أكثر فأكثر نحو القيام بإنتاج مدد مستمر من الطعام والمهمات الحربية ، وللقيام قبل كل شيء بتقديم رجال يحلون يوماً فيوماً محل من يقتلون أو يصابون . وكان من حسن حظ الألمان أن كان لديهم عدد ضخم من مدافع الحصار الكبيرة المعدة لحصون الحدود . فاستعملوا هذه فى تحطيم الخنادق بالقنابل الشديدة الانفجار ، وهو استخدام لم يكن يتوقعه أحد . وكان الحلفاء طيلة السنوات الأولى أقل من الألمان بدرجة محسوسة فيما لديهم من المدافع الكبيرة والذخائر ، وكانت خسائرهم على الدوام أعظم من خسائر الألمان .

وشن الألمان على الفرنسيين هجوماً هائلا دام طيلة النصف الأول من ١٩١٦ حول ڤردان . ولكن الألمان أصيبوا بخسائر فادحة ثم صدوا ، بعد أن تقدموا فى الخطوط الفرنسية بضعة أميال . وعدلت الخسائر الفرنسية خسائر الألمان أو أربت عليها . وكان المشاة الفرنسيون يرددون قولهم « لن يمروا Ils ne Passersont pas. » أو ينشدونه غناء وقد بروا بكلمتهم .

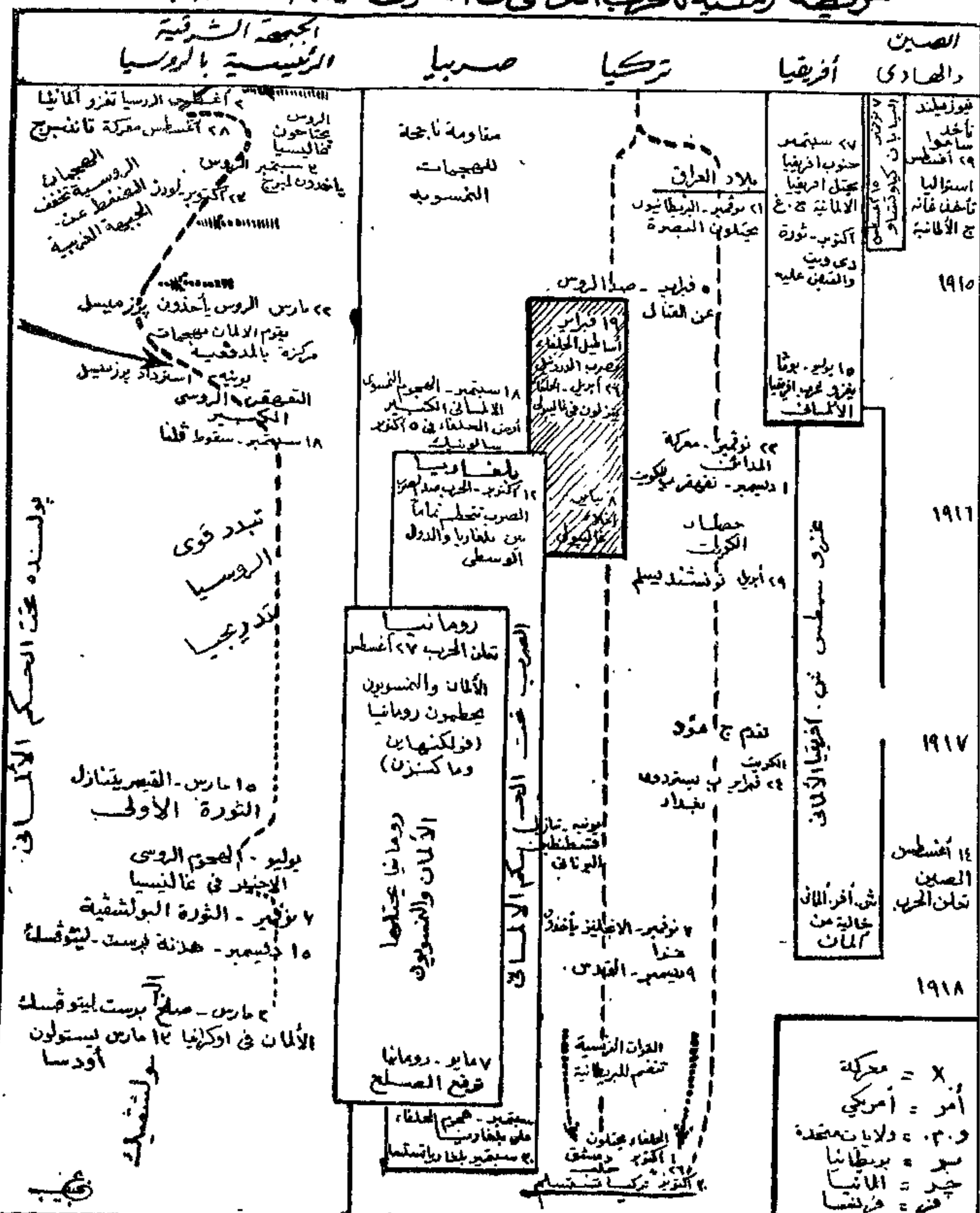
وكان طول الجبهة الألمانية الشرقية أكبر وخنادقها أقل انتظاماً من الجبهة الغربية . وواصلت الجيوش الروسية حيناً من الدهر ضغطها غرباً بالرغم من كارثة تاننبرج . فاستولوا من النمسويين على كل غاليسيا تقريباً ، وفتحوا لمبرج فى ٢ سبتمبر ١٩١٤ ، وقلعة پرزيميل الكبيرة فى ٢٢ مارس ١٩١٥ . وبعد أن فشل الألمان فى اختراق جبهة الحلفاء الغربية ، وبعد هجوم فاشل قام به الحلفاء دون الاستعداد له بما يلزمه من عتاد ومواد ، عاود الألمان التفاتهم إلى الروسيا . وأصابوا الروسيين بسلسلة من الضربات الفادحة استحدثوا فيها طريقة جديدة من الحشد الشديد للمدفعية ، فهزموهم بها فى جنوب الجبهة الروسية أولا ثم فى شمالها . وفى ٣ يونية استردوا پرزيميل ، ودفعوا بكل خط القتال الروسى إلى الخلف حتى وقعت ڤيلنا (فى ١٨سبتمبر) فى قبضة الألمان

وفى ٢٣ مايو ١٩١٥ انضمت إيطاليا إلى الحلفاء وأعلنت الحرب على النمسا . (ولكنها لم تُعلن الحرب على ألمانيا إلا بعد ذلك بأكثر من سنة) . فدفعت حدودها الشرقية نحو جوريتزيا (التى سقطت فى صيف ١٩١٦) ، ولكن تدخلها كان قليل الجدوى فى ذلك الأوان لأى من الروسيا أو الدولتين الغربيتين . وكل ما فعلته أن أقامت خطاً آخر من حرب الخنادق بين الجبال العالية الموجودة على حدودها الشمالية الشرقية الرائعة الجمال .

وعلى حين كانت الجبهات الرئيسية للمتقاتلين الكبار فيما رأيت من حال الجمود والتوقف المنهك للقوى ، كان كل من الطرفين يحاول أن يكيل ضربة يلف بها حول خطوط خصمه . وقام الألمان بسلسلة من الغارات بمناطيد زبلن ، ثم بالطائرات فيما بعد على باريس وعلى شرق انجلترة ، وكان هدف هذه الغارات الظاهرى هو المستودعات ومصانع المهمات الحربية وما اليها من أهداف ذات أهمية عسكرية ، ولكن الواقع أنهم كانوا يقذفون قذائفهم بلا تمييز على الأماكن المسكونة .

وكان المغيرون يسقطون بادئ الأمر قنابل غير كبيرة الأثر ، ولكن حجم ونوع القذائف أخذ يتزايد بعد ذلك شيئاً فشيئاً ، فأصيب من جراء ذلك عدد جسيم من الناس ما بين قتلى ومصابين ، وترتب عليه أيضاً أضرار كبيرة . وثار الشعب الإنجليزى ثورة غضب شديدة لهذه الإعتداءات . ومع أن الألمان كانوا يملكون مناطيد زبلن منذ بضع سنين ، فلم يفكر أحد من ذوى السلطان فى إنجلترة فى أمثل الطرق للقضاء عليها ، ولم يحدث إلا فى مؤخرات ١٩١٦ أن أعدت مقادير كافية من المدافع المضادة للطائرات واستعملت إستعمالا ناجعاً ، وأن هاجمت الطائرات الإنجليزية هؤلاء المغيرين مهاجمة منظمة .

ثم أعقب ذلك سلسلة من الكوارث حلّت بمناطيد زبلن ، حتى أنها بعد ربيع ١٩١٧ لم تعد تستخدم لأى غرض إلا الاستطلاع البحرى . وحل محلها فى الإغارة الطائرات الكبيرة (من طراز جوثا) . وأصبحت غارات هذه الآلات على لندن وشرقى انجلترة زيارات منظمة بعد صيف ١٩١٧ . واعتادت لندن أن تسمع فى كل ليلة مقمرة من ليالى شتاء ١٩١٧ — ١٩١٨ دوى صواريخ الإنذار وصفير التحذير



خريطة زمنية للحرب العظمى في الشرق ١٩١٤ - ١٩١٨
الجبهة الشرقية الرئيسية بالروسيا
صربيا
تركيا
أفريقيا
الصين والهادى
مقاومة ناجحة للهجمات النمسوية
بلاد العراق
١٩١٥
١٩١٦
١٩١٧
١٩١٨
بلغاريا
رومانيا
تبدد قوى الروسيا تدريجيا
١٥ مارس - القيصر يتنازل الثورة الأولى
٧ نوفمبر - الثورة البولشفية
حصار الكوت
٩ ديسمبر - القدس
٣٠ أكتوبر تركيا تستسلم
X = معركة
أمر = أمريكي
و.م = ولايات متحدة
بر = بريطانيا
جر = ألمانيا
فر = فرنسا

(شكل ٢١٣)

خريطة زمنية للحرب العظمى فى الغرب ١٩١٤ - ١٩١٨

الميدان الغربى

ألمانيا — فرنسا — بريطانيا

١٩١٤

- ٤ أغسطس (جر) يهاجمون فرنسا
- ٤ » (جر) يغزون بلجيكا
- ٩ أغسطس سقوط ليبج
- ٢٤ » مونس
- ١ سبتمبر جر بأميان وسواسون
- ٦-١٠ » × المارن
- ارتداد (جر) الى أيسن
- ٩ أكتوبر سقوط أنتورب
- أكتوبر نوفمبر × إيبر الاولى
- ... ألمانى

١٩١٥

- ٢٨ فبراير (جر) يستعملون قاذفات اللهب لأول مرة
- ابريل | × إيبر الثانية
- مايو | (جر) يستعملون الغاز السام لأول مرة
- يوليو - هجوم ولى العهد فى الارجون
- توقف
- حرب الخنادق

١٩١٦

- ٢١ فبراير × فردان
- يوليو - بدء هجوم السوم
- سبتمبر - بدء استعمال الدبابات

١٩١٧

- تطور الهجوم بالدبابات والدفاع ...
- مارس - تراجع (جر) لخط هندنبرج
- مايو - فشل الهجوم (الفر) بشمبانيا
- يونية - أول جنود (أمر) فى فرنسا
- ٦ ابريل و.م.أ. تعلن الحرب
- نوفمبر - × كامبراى

١٩١٨

- ٢١ يناير - أول الأمر فى خط القتال
- الجيوش (جر) تنسحب من الروسيا
- مارس - كارثة جوخ
- ١٠ ابريل - (جر) يهاجمون جبهة ايبر أمين
- ٢٧ ابريل - (جر) يأخذون جبل كمل
- ٢٧ مايو - ضربة (جر) لايسن
- ٣٠ مايو - (جر) يبلغون المارن
- ١٤ يوليو - هجوم (فر) مضاد
- ١٨ يوليو معركة تشاتو تيرى
- أغسطس } هجوم بلومر بالشمال — السوم
- أكتوبر - التقهقر الجر يصبح عاما
- ٩ نوفمبر - (بر) بالقسطنطين...
- ١١ » » ... (الامر) ... الهدنة

زيلن — غارات زبلن — غارات جوتا

إيطاليا

- ... مايو - تعلن الحرب على النمسا
- ... ـيو - الهجوم النمسوى على ترنتينو
- أغسطس - الطليان يأخذون جوريزيا
- أكتوبر - الهجوم الجر نمسوى: كابوريتو (... ورنو)، النمسويون يهددون البندقية
- ... الجنود ... البريطانيون ...
- ... - الهجوم النمسوى جبهة ... بياف
- ... ـدم ينهار
- أكتوبر - تقدم الطليان
- نوفمبر - النمسا تستسلم
- ... - ملك ايطاليا يدخل ترينتا

البحار

١٩١٤

- ٢٢ سبتمبر - الغواصات تغرق ٣ مدمرات (بر)
- ١ نوفمبر - نصر (جر) فى الهادى
- ٨ ديسمبر × جزائر فوكلاند

١٩١٥

- ٧ مايو غرق لوزيتانيا
- حرب الغواصات تغرق كثيراً من السفن ...

١٩١٦

- ٢١ مايو × جتلند

١٩١٧

- ٢١ يناير جر يعلنون حرب الغواصات غير المحدودة
- نظام السفن تحت الحماية ...

١٩١٨

- ٣ نوفمبر آخر ضحية للغواصات
- ٧ نوفمبر تمرد البحارة (جر)

الحاد من البوليس ، وإخلاء الشوارع سريعاً من المارة ، ودمدمة بعيدة تصدر عن عشرات ومئات من المدافع المضادة للطائرات تعلو باطراد حتى تصبح عزيفاً فظيعاً من أصوات الاصطدام والهدة والتكسر ، وصفير القنابل المنطلقة ، وأخيراً دوى القنابل المكتوم الثقيل إن قدر لإحدى الطائرات أن تخترق نطاق الدفاع الجوى . ثم يحدث للوقت إبان تناقص هزيم المدافع أن يسمع صوت عُدد المطافىء الذى لا يخطئه إنسان وإسراع عربات الإسعاف . . . لقد وصلت الحرب إلى دار كل لندنى بوساطة هذه المحن .

وبينما كان الألمان يهاجمون بهذه الطريقة أعصاب شعب أعدائهم فى قرارة بلاده ، كانوا كذلك يهاجمون تجارة البريطانيين وراء البحار بكل ما فى مستطاعهم من وسيلة . إذ كانت لهم فى بداية الحرب مدمرات تجارية منوعة مبثوثة فى كل أرجاء العالم ، وسرب من الطرادات القوية العصرية فى المحيط الهادى ، نذكر منها الطراد شارنهرست وجينسناو وليبزج ونورنبرج ودرسدن . واستطاعت بعض الطرادات المنعزلة وبخاصة الطراد إمدن أن تحطم قدراً جسيماً من السفن التجارية قبل أن أمكن القضاء عليها ، وأمسك السرب الرئيسى بقوة بريطانية أصغر منه بالقرب من ساحل شيلى وأغرق الطرادين جود هوپ (Good Hope) ومونموث فى أول نوفمبر ١٩١٤ . وبعد شهر وثبت قوة بريطانية بقيادة الأميرال ستاردى على نفس هذه السفن الألمانية فأغرقتها كلها (ما عدا الطراد درسدن) فى معركة جزائر فوكلاند . وبعد ذلك القتال ظل الحلفاء سادة للبحر بغير منازع ، سيادة لم تزلزلها معركة چاتلند البحرية الكبرى (٣١ مايو ١٩١٦) أدنى زلزلة .

وأخذ الألمان منذ ذلك الحين يزيدون فى تركيز التفاتهم على حرب الغواصات يوماً بعد يوم فأصابوا منذ بداية الحرب انتصارات ضخمة بواسطة الغواصات . ففى يوم واحد هو ٢٢ سبتمبر ١٩١٤ أغرقوا ثلاث طرادات قوية هى أبو قير وهوج وكريسى (Cressy) ومعها ١٤٧٣ رجلا . وظلوا يصيبون من السفن البريطانية طوال الحرب ، وكانوا فى البداية يستوقفون سفن الركاب والتجارة ويفتشونها ، ولكنهم أهملوا هذه العادة خشية الوقوع فى الأحابيل ، وفى ربيع ١٩١٥ شرعوا يغرقون السفن بلا إنذار .

وفى مايو ١٩١٥ أغرقوا باخرة الركاب العظيمة لوزيتانيا بلا إنذار ، فغرق بسبب ذلك عدد من الرعايا الأمريكان . فحز ذلك فى نفوس الأمريكيين وأثار ثائرتهم عليهم ، ولكن احتمال إيقاع الضرر ببريطانيا وربما اخضاعها بحصر بحرى بواسطة الغواصات هدف كان لديهم من العظم بحيث دفعهم إلى الإلحاح فى حملة الغواصات هذه ومواصلة التزيد من النكير والعنف ، غير آبهين بخطر جر الولايات المتحدة إلى صفوف أعدائهم .

وفى نفس الوقت كانت الجيوش التركية المزودة بأسوأ عتاد تبدى نحو مصر حركات التهديد خلال شبه جزيرة سيناء . وعلى حين كان الألمان يكيلون الضربات لبريطانيا على ما رأيت بطريق الهواء ومن تحت أطباق الماء ، وهى خصمهم الأشد قوة والأبعد عن منال أيديهم ، كان الفرنسيون والإنجليز كذلك مقبلين على هجوم مدمر فى الشرق على جناح دول الوسط عن طريق تركيا . وقد دبرت حملة غاليبولى أبدع تدبير ولكنها نفذت بأكبر معرة . فلو أنها نجحت لاستولى الحلفاء على القسطنطينية فى ١٩١٥ . ولكن الأتراك تلقوا إنذاراً قبل المشروع بشهرين وذلك عندما ضرب الدردنيل بالقنابل فى فبراير ، وربما كشف البلاط اليونانى كذلك سر الخطة بخيانته ، وعندما نزلت القوات البريطانية والفرنسية آخر الأمر فى شبه جزيرة غاليبولى فى أبريل ، وجدوا الأتراك قد أعدوا الخنادق أحسن إعداد كما رأوهم مزودين بما يلزم لحرب الخنادق خيراً منهم .

واعتمد الحلفاء فى ناحية المدفعية الثقيلة على مدافع السفن الضخمة ، التى كانت غير ذات جدوى نسبياً فى تحطيم تحصينات الخنادق ، ومن بين الأشياء الكثيرة الأخرى التى فاتهم أن يقدروا وجودها احتمال ظهور الغواصات المعادية . فضاعت لذلك سفن حربية عظيمة عديدة ، هوت إلى نفس المياه الصافية التى مرت عليها سفن إجزرسيس يوماً ما إلى مصيرها المحتوم فى سلاميس[1] . وقصة حملة غاليبولى من ناحية الحلفاء تجمع بين ظواهر البطولة وعوامل الأسى ، فهى قصة

---

(١) سلاميس : انظر المعالم جـ ٢ ص ٣٠٨ (ط ١) ، ص ٣٦٢ ، ٣٦٤ من الطبعة الثانية . (المترجم)

شجاعة وقلة اقتدار وقصة أنفس ذهبت بدداً وموارد أهلكت وهيبة ضاعت ، وبلغت حضيضها فى انسحاب مهين تم فى يناير ١٩١٦ .

ومما يتصل اتصالا وثيقاً بتذبذب بلاد اليونان طيلة ذلك الزمان دخول بلغاريا الحرب (فى ١٢ أكتوبر ١٩١٥) . وقد ظل ملك بلغاريا متردداً أكثر من سنة قبل أن يتخذ قراراً حاسماً فى الانضمام إلى أحد الطرفين . ولكن دفعه إلى ناحية الدول الوسطى ما رأى عند ذلك من فشل البريطانيين فى غاليبولى ، وقيام النمسويين والألمان فى الوقت نفسه بهجوم عنيف فى بلاد العرب . وبينما الصربيون فى شغل شديد بالمغيرين النمسويين والألمان على ديارهم الدانوبية ، هاجم الملك صربياً من الخلف ، وما مضت بضعة أسابيع حتى كانت البلاد قد غزيت تماماً . وتقهقر الجيش الصربى قهقرة فظيعة عابراً جبال ألبانيا إلى الساحل ، حيث أنقذ فلوله أسطول للحلفاء .

ونزلت قوة متحالفة إلى سالونيك . واندفعت فى البلاد نحو مناستر ، ولكنها عجزت عن تقديم أى مساعدة فعالة للصربيين . وكانت عملية سالونيكا هى التى ختم بها مصير حملة غاليبولى . وإلى الشرق من ذلك فى أرض الجزيرة (: العراق) قام البريطانيون مستخدمين فى غالب الأمر جنوداً من الهنود بهجوم جناح جانبي أبعد من الأول على الدول الوسطى . فأنزل إلى البر فى البصرة جيش كأسوأ ما تكون الجيوش عدة وعتاداً فى نوفمبر ١٩١٤ تهيؤاً للحملة التى تنتظره ، ثم دفع نحو بغداد فى السنة التالية . ففاز بنصر عند المدائن (كتيسيفون) عاصمة الأرشيكيين والساسانيين العتيقة وهى على مبعدة خمسة وعشرين ميلا من بغداد ، ولكن الأتراك تلقوا أمداداً عظيمة ، وتراجع البريطانيون إلى كوت الإمارة[1] ، وهناك أحيط بالجيش البريطانى تحت قيادة الجنرال تاونشند حتى ألجأه الجوع إلى التسليم فى ٢٩ أبريل ١٩١٦

وكانت كل هذه الحملات الدائرة فى الجو وتحت أطباق البحار وفى الروسيا وتركيا وآسيا ثانوية بالنسبة للجهة الرئيسية جهة الفصل فى الأمر ، الممتدة بين

(١) كوت الإمارة : مدينة على نهر الدجلة بالعراق ، وهى مركز لتجارة الحبوب وصنع السجاجيد . (المترجم)

سويسرا والبحر . وهناك كانت حشود الملايين الرئيسية ترقد فى خنادقها ، وتتعلم فى بطء الأساليب الضرورية للحرب العصرية العلمية . وحدث تقدم سريع فى استخدام الطائرة . فنى بداية الحرب كانت الطائرة تستخدم أغلب ما تستخدم فى الكشف بصفة رئيسية ، ثم استخدمها الألمان فى إلقاء علامات تسترشد بها المدفعية . ولم يكن الناس قد سمعوا بعد بشيء اسمه النزال الجوى . ولكن فى ١٩١٦ حملت الطائرات المدافع الرشاشة وأخذت تتقاتل فى الهواء ؛ وكانت أهمية ضربهم الأعداء بالقنابل تتزايد وضوحا ، وقد طوروا فن التصوير الجوى وهو فن مدهش حقاً . كما أن جميع الجانب الجوى من أعمال المدفعية سواء أتم بواسطة الطائرات أم بالونات المراقبة ، قد ألم به تطور هائل . ولكن العقل العسكرى لم يفتأ يقاوم استخدام الدبابة . التى هى السلاح الواضح للفصل فى حرب الخنادق .

وكان الكثير من أذكياء الناس خارج الدائرة العسكرية يفهمون هذا الأمر فهماً جلياً . فإن استخدام الدبابة ضد الخنادق كان تدبيرا واضحاً وضوحا مطلقاً . وقديما اخترع ليوناردو دافنشي دبابة مبكرة . وما أن انتهت حرب جنوب أفريقيا فى ١٩٠٣ حتى ثارت فى المجلات قصص تصف معارك خيالية تظهر فيها الدبابات ؛ وعرض على السلطات العسكرية البريطانية نموذج كامل شغال لإحدى الدبابات قام بصنعه المستر ج . ا . كرى (J. A Corry) أحد أهالى ليدز ، ولكنها بالطبع رفضته فى ١٩١١ . والواقع أن الدبابات اخترعت ثم أعيد اختراعها من جديد قبل أن تبدأ الحرب . ولو أن الأمر كان كله بيد العسكريين لما استخدمت الدبابات على الاطلاق .

وكان المستر ونستون تشرشل وزير البحرية فى ١٩١٥ ـ ١٩١٦ هو الذى أصر على صنع أول الدبابات ، ولقى إرسالها إلى فرنسا أشد معارضة وأعنفها . فإلى البحرية البريطانية وليس إلى الجيش يدين العلم العسكرى باستخدام هذه المستحدثات . وكان رأى السلطات العسكرية الألمانية مضاداً لها كذلك . وفى يوليو ١٩١٦ شرع السير دوجلاس هايج القائد البريطانى العام فى القيام بهجوم عظيم أخفق فى اختراق صفوف الألمان . وقد تقدم فى بعض الأماكن بضعة أميال ، وهزم فى

البعض الآخر هزيمة تامة . وحدثت مذبحة هائلة فى الجيوش البريطانية الجديدة . ومع ذلك لم يستخدم القائد الدبابات .

وفى سبتمبر عندما أخذ الفصل يصبح غير مناسب للقيام بهجوم متواصل ، ظهرت الدبابات لأول مرة فى الحرب . فقد استخدم القواد البريطانيون عدداً قليلا منها استخداما لا يتبدى فيه كثير من الذكاء . وكان مفعولها فى الألمان عميقا ، فإنها أحدثت فيهم أثراً أشبه ما يكون بالهلع البالغ ، وليس إلى الشك من سبيل أنها لو استعملت فى يوليه بأعداد كافية ، وأدار دفتها جنرال ذو خيال رحيب وهمة عالية ، لأنهت الحرب على الفور . فى ذلك الوقت كان الحلفاء أقوى من الألمان فى الميدان الغربى وكانت النسبة على وجه التقريب ٧ إلى ٤ . وكانت الروسيا وإن اقتربت سريعاً من مرحلة الإعياء — لا تبرح تقاتل ، وكانت إيطاليا تضغط على النمسويين ضغطاً شديداً ، ورومانيا قد دخلت من فورها الحرب فى صف الحلفاء . ولكن الإسراف فى إزهاق أرواح الرجال فى شهر يوليه الكارث ذاك أوقف الحلفاء على حافة الكارثة نفسها .

وما أن اطمأن الألمان لفشل البريطانيين فى يوليه ، حتى انقضوا على الرومانيين . وشهد شتاء ١٩١٦ فى رومانيا نفس المصير الذى حل بصربيا فى ١٩١٥ . فالسنة التى ابتدأت بالتقهقر عن غاليپولى والتسليم فى كوت انتهت بسحق رومانيا وبإطلاق مئات الطلقات من جمهور من الحزب الملكى فى شوارع آثينا على فئة من البحارة الإنجليز والفرنسيين نزلوا إلى البر . فكأنما كان قسطنطين ملك اليونان ينوى أن يقود شعبه فى أثر الملك فرديناند البلغارى . ولكن الساحل اليونانى أشد ما يكون تعرضاً للأعمال البحرية . فضرب الحصار البحرى على بلاد اليونان ، واتصلت قوة فرنسية من سالونيكا بقوة إيطالية آتية من ڤالونا لتقطعا على ملك اليونان سبيل الاتصال بأصدقائه فى أوربا الوسطى . (وفى يونية ١٩١٧ أجبر الحلفاء قسطنطين على التخلى عن العرش ، وتولى ابنه اسكندر العرش مكانه) .

وجملة القول أن بوادر الأمور كانت تبدو أقل خطراً على أمبريالية آل هوهنزولرن نهاية ١٩١٦ مما كانت عليه بعد إخفاق الاندفاع الأول العظيم فى المارن . وكان الحلفاء أضاعوا سنتين من الفرص الذهبية . وكانت بلاد البلچيك وصربيا ورومانيا

وأجزاء عظيمة من فرنسا والروسيا تحتلها قوات ألمانية نمساوية . وكانت الضربة المضادة تفشل تلو الضربة المضادة ، وأخذت الروسيا تترنح عند ذاك تهيؤاً للسقوط . فلو كان لدى حكام ألمانيا مسحة من حكمة لأبرموا معها صلحاً معقولا فى تلك الآونة . ولكن لمسة النجاح كانت قد أسكرت استعماريها . فإنهم لم يريدوا السلامة بل النصر ولم يريدوا خير العالم بل إمبراطورية العالم . وكان شعارهم : « إما سيادة العالم وإما السقوط » ، ولم يجد خصومهم إزاء شعارهم هذا بدا من مواصلة القتال حتى نهايته الفاصلة .

٩ - الحرب العظمى من انهيار الروسيا حتى الهدنة

انهارت الروسيا فى بواكير ١٩١٧ . وفى ذلك الوقت كانت شدة الحرب الماثلة تؤثر تأثيراً شديداً على كل الشعوب الأوربية . فقد فسد نظام المواصلات فساداً عظيما فى كل مكان ، وانقطع الاصلاح العادى وتوقف استبدال وتجديد السفن والسكك الحديدية وما إليها ، واستنفدت المواد بجميع أنواعها وتدهور إنتاج الأطعمة وسحبت من الصناعات لجماهير متزايدة من الرجال وتوقفت أعمال التعليم وتناقص باطراد ما اعتاده الناس من أمن الحياة ونزاهاتها .

وكان يتزايد فى كل يوم عدد السكان الأوربيين الذين ينقلون من بيئات وأحوال ألفوها ، إلى ظروف جديدة كانت تؤلمهم ، وتضيق عليهم وتستثيرهم وتفسد أخلاقهم . ولكن الروسيا كانت أول الدول وأكثرها مكابدة وعناء من جراء ما أصاب المدنية من زعزعة عامة خلعتها من جذورها . ذلك أن الأوتوقراطية الروسية لم تكن شريفة ولا ذات كفاية . وكان القيصر شأن كثير من أسلافه قد استسلم لحالة تقوى جنونية ، وتسلط على البلاط دجال دينى ، هو راسپوتين ، الذى كانت نحلته ذات شنعة لا نستطيع التحدث عنها فهى فضيحة صارخة فى وجه العالم . ومن وراء حكم هذه التصوفية القذرة ، كانت النذالة والبلادة تسئ إدارة الحرب .

فكان الجنود الروس العاديون يرسلون إلى ميدان القتال بغير مدفعية تعضدهم ، وبدون ذخائر للبنادق نفسها ، وكان ضباطهم وجنرالاتهم يضيعونهم و يلقون بهم فى حالة هذيان من الحماسة العسكرية . وظلوا زمناً ما يتألمون فى صمت كما تتألم البهائم ، ولكن

هناك حدا لتحمل الناس ، حتى أشدهم جهلا . فكان يسرى فى هذه الجيوش التى يغدر برجالها كبراؤهم ويضيعونهم ، شعور عميق بالاشمئزاز من القيصرية . ومنذ نهاية ١٩١٥ فما بعدها كانت الروسيا مصدراً للقلق المتزايد لدى حلفائها فى الغرب . وظلت طوال ١٩١٦ متخذة فى الغالب خطة الدفاع ، وراجت إشاعات تذكر صلحاً منفرداً مع ألمانيا . كما أن رومانيا لم تلق منها إلا مساعدة لا تذكر .

وفى ٢٩ ديسمبر ١٩١٦ قتل الراهب راسپوتين أثناء مأدبة غداء أقيمت فى بتروجراد ، وبذلت محاولة متأخرة لإعادة تنظيم القيصرية . وما وافى مارس حتى أخذت الأمور تتفاقم بسرعة ؛ فتطور الشغب على الطعام فى بتروجراد إلى عصيان ثورى ؛ وحاولت الحكومة إيقاف جلسات مجلس الدوما ، وهو الهيئة النيابية ، كما قامت محاولات للقبض على الزعماء الأحرار ، وتكونت حكومة موقتة تحت رياسة الأمير لقوف ، وتنازل القيصر عن العرش فى ١٥ مارس .

ومضى زمان لاح فيه أنه عسى أن تتمخض الأمور عن ثورة معتدلة مقيدة غير جامحة ، وربما كان ذلك فى ظل حكم قيصر جديد . ثم أصبح من الجلى أن ثقة الشعب الروسى قد دمرت تدميراً تجاوز كثيرا حدود مثل هاته التسويات . فإن الشعب الروسى استبدت به السآمة من النظام القديم لكل ما فى أوربا من أشياء : من القياصرة والحروب والدول الكبرى ؛ وكل ما كان يطلبه هو الراحة ، والراحة السريعة مما كابد من شقاوات لا تطاق . ولم يستطع الحلفاء فهم ما فى الروسيا من حقائق ؛ فإن رجال السياسية والديبلوماسية منهم كانوا أجهل الناس بالروسية ؛ فإنهم لما كانوا من المهذبين الذين يوجهون اهتمامهم إلى البلاط الروسى لا الروسيا نفسها ، فقد وقعوا فى الخطأ تلو الخطأ حيال الموقف الجديد . ولم تكن النزعة الجمهورية لتلقى كثيراً من رحابة الصدر من رجال السياسة والديبلوماسيين ، بل ظهر منهم ميل جلى إلى مضايقة الحكومة الجديدة بأكبر قدر مستطاع . وكان على رأس الحكومة الجمهورية الروسية زعيم بليغ جذاب اسمه كيرينسكى وجد نفسه هدفاً لهجمات قوى سرية لحركة ثورية أبعد غوراً ، هى « الثورة الاشتراكية » فى أرض بلاده ، وموضع إعراض من الحكومات المتحالفة فى الخارج . ولم يكن حلفاؤه ليسمحوا له

بأن يعطى الشعب الروسى مستقراً ولا سلاماً خارج حدودهم . فكانت الصحافة الفرنسية والبريطانية لاتنى تلاحق ذلك الحليف المنهك بالمطالبة بهجوم قوى جديد ، ولكن عندما حدث للفور أن الألمان قاموا بهجوم قوى على ريجا بحراً وبرا ، هلعت وزارة البحرية البريطانية خوفا من احتمال القيام بحملة فى البلطيق لنجدة الروس .

وكان أن اضطرت الجمهورية الروسية الجديدة إلى القتال بلا معين . وبالرغم من تسلط الحلفاء البحرى العظيم ومن الاحتجاجات المريرة التى نشرها الأميرال فيشر الانجليزى (١٨٤١ — ١٩٢٠) فإنا نسجل أن الحلفاء فيما عدا قيام غواصاتهم ببعض الهجمات ، تركوا للألمان السيادة المطلقة على بحر البلطيق طوال الحرب كلها .

وكانت الجماهير الروسية مصرة على إنهاء الحرب . وقد ظهر إلى عالم الوجود فى بتروجراد هيئة تمثل العمال والجنود العاديين ، هى السوفييت ، وكانت هذه الهيئة تصخب مطالبة بمؤتمر دولى من الاشتراكيين يعقد فى استوكهلم . وكثرت ببرلين فى ذلك الزمان حوادث الشغب من أجل الطعام ، واستبد السأم من الحرب بالألمان والنمسويين على السواء ، وليس لدينا شك إذ نستضئ الآن بنور ما أعقب ذلك من حقائق ، أن عقد ذلك المؤتمر كان لابد معجلا بصلح معقول على أسس ديمقراطية فى ١٩١٧ ومحدثاً ثورة ألمانية عاجلة .

وتوسل كيرينسكى إلى حلفائه فى الغرب أن يسمحوا لهذا المؤتمر أن ينعقد ، ولكنهم خشوا أن يحدث انعقاده انفجاراً للمذاهب الاشتراكية والجمهورية يعم العالم ، فرفضوا طلبه ، بالرغم من الاستجابة الحسنة التى أبدتها أغلبية صغيرة لحزب العمال البريطانى . وظلت الجمهورية الروسية « المعتدلة » تحارب بلا معاونة مادية ولا معنوية من الحلفاء ، ثم قامت فى يوليه بجهد هجومى مستيئس أخير . ولكنه فشل بعد أن أصاب شيئاً من النجاح المبدئى ، ونزلت بالروسيين مذبحة أخرى كبيرة .

وكان احتمال الروس قد بلغ عندئذ أقصى مداه . فنشبت فى صفوف الجيوش الروسية حركات التمرد ، وبخاصة فى الميدان الشمالى . وفى ٧ نوفمبر ١٩١٧ ، سقطت حكومة كيرينسكى وتملكت السلطة هيئة السوفييت التى يسيطر عليها

الاشتراكيون البلاشفة برياسة لينين ، وتعهدت بإبرام الصلح غير آبهة بالدول الغربية . وبذلك «خرجت» الروسيا من الحرب خروجاً قاطعاً .

وفى أبريل من ١٩١٧ قام الفرنسيون بهجوم فى شمبانيا أخفق دون اختراق صفوف الألمان وكلف المغيرين أفدح الأثمان ولم يأت بأية ثمرة . وإذن فقد جاء فى نهاية ١٩١٧ دور من الحوادث أشد ما يكون مواءمة لألمانيا . لو أن حكومتها كانت تحارب من أجل الطمأنينة وحسن الحال لا للفخار والانتصار . ولكن شعوب الدول الوسطى ظلت حتى النهاية نفسها وحتى بلغت أشد درجات الاعياء ، مقيدة بغاية ثابتة هى بذل الجهد للوصول إلى النصر التام .

وللوصول إلى تلك الغاية لم يعد من الضرورى فقط مقاومة بريطانيا بل إخضاعها وإذلالها ، ولكى تبلغ ألمانيا تلك الغاية جرّت أمريكا إلى دائرة أعدائها . فإن حملة الغواصات ظلت تزداد حدة طوال ١٩١٦ ، ولكنها كانت حتى ذلك الحين تحترم السفن المحايدة . وفى يناير ١٩١٧ أعلنت ألمانيا أنها ستفرض على بريطانيا وفرنسا حصراً بحرياً أشد وأكمل ، وحذرت جميع الدول المحايدة بأن تسحب سفنها من البحار البريطانية . وابتدأت عملية إغراق لسفن العالم بلا تمييز ، مما اضطر الولايات المتحدة أن تدخل الحرب فى ٦ أبريل ١٩١٨ . وبينما الروسيا تتداعى طيلة ١٩١٧ وتصبح غير قادرة على شىء ، كان الشعب الأمريكى يتحول بسرعة وإطراد إلى أمة حربية عظيمة . ولم تؤت حملة الغواصات المتحللة من كل قيد التى من أجلها قبل الاستعماريون الألمان خطر خلق هذا الخصم الجديد لأنفسهم ، — ما كان متوقعاً لها من توفيق . إذ أظهرت البحرية البريطانية أنها أوسع حيلة وأكثر تفنناً من الجيش البريطانى ؛ وحدث تطور سريع فى الوسائل المضادة للغواصات تحت الماء ، وعلى صفحته وفى الهواء ؛ وبعد أن انقضى شهر أو أكثر من التدميرات الخطيرة انخفض أثر الغواصات كثيراً . ووجد البريطانيون أن من الضرورى أن يعيشوا على نظام جرايات الأطعمة ؛ ولكن القواعد وضعت وضعاً متيناً وأديرت بكفاية ، وأظهر الجمهور روحاً رائعة وذكاء كبيراً ، وأبعد عن البلاد خطر المجاعة والفوضى الاجتماعية ، وإن على قيد بضع خطوات .

ومع ذلك فإن الحكومة الإمبراطورية الإلمانية واصلت القتال . فلئن لم تقم الغواصات بكل ما كان متوقعاً منها ، ولئن كانت جيوش أمريكا تتجمع تجمع السحاب الممطر الراعد ، فقد كان من المقطوع به أن الروسيا قد انهارت وزال كل خطر لها . وفى أكتوبر وجه الألمان نفس النوع من هجوم الخريف الذى أسقط صربياً فى ١٩١٥ ورومانيا فى ١٩١٦ إلى إيطاليا فسحقها سحقاً . فانهارت الجبهة الإيطالية بعد معركة كابوريتّو ، وانثالت الجيوش النمسوية الألمانية فى مقاطعة ڤينيتيا (Venetia) حتى أصبحت على مرمى المدافع من مدينة البندقية . ومن ثم شعرت ألمانيا بأن لها ما يبرر التشدد إزاء مقترحات الصلح الروسية ، وكان من أثر صلح برست ليتوڤسك (٢ مارس ١٩١٨) أن أخذ الحلفاء فى الغرب فكرة عن النصر الألمانى ومغزاه ومعناه عليهم . ذلك أنه كان سلاماً ساحقاً فادحاً ، أملى مع أقصى ما قد يبديه منتصر واثق مطمئن من الصلف والكبرياء .

وظلت الجيوش الألمانية تنتقل طوال الشتاء من الميدان الشرقى إلى الغربى ، والآن فى ربيع ١٩١٨ سيق ما تبقى لألمانيا الجائعة المكدودة النازفة من الحماسة الكابلة الواهنة للقيام بالجهد النهائى العظيم الذى قدر له أن ينهى الحرب حقاً وفعلا . وبقيت القوات الأمريكية بضعة أشهر فى فرنسا ، ولكن كتلة الجيش الأمريكى كانت ما تزال وراء الأطلسى . فكان ذلك أنسب الأوقات لتسديد الضربة النهائية للجبهة الغربية إن كانت هذه الضربة ستسدد يوماً ما .

فشنوا أول هجوم على البريطانيين فى منطقة السوم . فأخذوا على غرة قواد الخيالة غير الكبيرى الذكاء الذين مازالوا يتولون القيادة فى جبهة لا شك أن الخيالة فيها عبء لاغناء فيه . وفى ٢١ مارس فى « كارثة جوغ Gough » رد الجيش البريطانى الخامس فى غير نظام حتى وصل إلى قريب من أميان . وكان التحاسد بين القواد البريطانيين والفرنسيين قد حال دون توحيد القيادة لجيوش الحلفاء فى فرنسا ، ولم يكن هناك أى احتياطى عام أيا كان شأنه خلف جوغ . فقد الحلفاء قرابة ألف مدفع ، وعشرات من آلاف الأسرى . وظل الألمان طيلة شهرى أبريل ومايو يمطرون الجبهة المتحالفة بالهجوم وراء الهجوم . وأوشكوا أن يحدثوا ثغره

صفوف الحلفاء فى الشمال ، ثم دفعوا كل ما أمامهم دفعاً إلى المارن الذى وصلوه فى ٣٠ مايو ١٩١٨

وكان هذا أقصى غاية الجهد الألمانى . ولم يكن من ورائه من شىء إلا وطن منهك . ووضع المارشال فوش فى القيادة العليا لكل الجيوش المتحالفة . وكانت هناك جيوش جديدة تسرع من بريطانيا نحو الميدان عبر القنال الانجليزى ، وكانت أمريكا تصب عند ذاك الرجال بمئات الألوف إلى فرنسا . وفى يونية قام النمسويون المتعبون بجهد نهائى فى إيطاليا ، وانهاروا أمام هجوم إيطالى مضاد . وفى أوائل يونية بدأ فوش[1] يقوم بهجوم مضاد . ولما وافى يولية كان المد أخذ ينحسر وأخذ الألمان يرتدون إلى الوراء . وأظهرت معركة شاتوتييرى (١٨ يولية ١٩١٨) جودة صنف الجيوش الأمريكية الجديدة . وفى أغسطس افتتح البريطانيون طعنة عظيمة موفقة ، وتخادل الانبعاج فى الخطوط الألمانية نحو أميان ثم انهار . قال لودندورف « كان يوم ٨ أغسطس يوماً أسود فى تاريخ الجيش الألمانى » . وأكد الهجوم البريطانى فى سبتمبر على خط هندنبرج نصر الحلفاء .

إنتهت ألمانيا وولّت روح القتال من جيشها ، وكان أكتوبر شهر هزيمة وقهقرى على امتداد الجبهة الغربية بأكملها . وفى أوائل نوفمبر كانت الجيوش البريطانية فى ڤالنسيّن والأمريكيون فى سيدان . وفى إيطاليا كذلك كانت الجيوش النمسوية فى حالة تقهقر غير منتظم . ولكن قوات آل هوهنزولرن وآل هابسبرج كانت تنهار آنذاك فى كل مكان . وكان التحطم فى النهاية سريعاً سرعة مدهشة . ولم يستطع الفرنسيون والانجليز أن يصدقوا صحفهم وهى تنشر يوماً إثر يوم أخبار الاستيلاء على مئات أخرى من المدافع وألوف أخرى من الأسرى . وفى سبتمبر ترتب على هجوم للحلفاء على بلغاريا اندلاع الثورة فيها وتقديم مقترحات الصلح . وأعقبتها تركيا بالتسليم بلا قيد فى نهاية أكتوبر ، والنمسا والمجر ٣ نوفمبر . وحاولت ألمانيا أن تخرج

---

(١) الماريشال فوش (١٨٥١ – ١٩٢٩) هو ماريشال فرنسا ، وكان له الفضل فى صد الألمان وكيل الضربة النهائية لهم فى أخريات الحرب . وشغل منصب رئيس هيئة أركان حرب جيوش الحلفاء ثم صار قائداً عاماً . (المترجم)

أسطولها ليقوم بآخر نزال ، ولكن البحارة تمردوا فى ٧ نوفمبر . وفر القيصر وولى العهد عجلة وبلا أقل كرامة إلى هولندة . وفى ١١ نوفمبر وُقعت الهدنة ووضعت الحرب أوزارها .

لقد دامت الحرب أربع سنوات وربعاً بعد أن جرت إلى أتونها بالتدريج كل إنسان تقريباً فى العالم الغربى على الأقل . ويربى عدد من قتل فعلا أثناء القتال على ثمانية ملايين فرداً ، كما مات عشرون أو خمسة وعشرون مليوناً آخرين بسبب المصاعب والفوضى التى ترتبت عليها . وقاس عشرات الملايين الأمرين أو ألم بهم الضعف والهزال بسبب سوء التغذية والشقاء . وكانت نسبة عظيمة من الأحياء تشتغل عند ذاك فى أعمال الحرب ، فى التدريب والتسليح وفى صنع المهمات وفى المستشفيات وفى العمل بدلا من الرجال الذين انضموا إلى الجيش ، وما أشبه ذلك من أعمال . وراح رجال الأعمال يكيفون أنفسهم وفقاً للأساليب المعتلة التى لا بد منها لجمع الربح فى عالم محوط بالأزمات . فلقد أصبحت الحرب بالفعل جواً وعادة من عادات الحياة ونظاماً اجتماعياً جديداً . ثم انتهت بغتة .

فى لندن أعلنت الهدنة حوالى الساعة الحادية عشرة من صباح يوم ١١ نوفمبر . فأنتجت توقفاً عجيباً فى كل عمل روتينى عادى من أعمال الحياة . فخرج الكتبة من مكاتبهم وأبوا أن يعودوا إليها ، وهجر عمال المحلات دكاكينهم ، وأخذ سائقو سيارات الأومنيبوس وسيارات اللورى التابعة للجيش يقومون برحلات من تلقاء أنفسهم مع من يركب معهم من جمهور ذاهل هاتف لا مقصد خاصاً له ولا يهمه أنى ذهب به . وسرعان ما ازدحمت الشوارع بجماهير غفيرة مندهشة ، ورفعت الأعلام من أعلى كل بيت وكل دكان له علَم . ولما حل المساء أنير بأسطع الأنوار عدد كبير من الشوارع الكبرى التى كانت تطفأ أنوارها خشية الغارات الليلية . وكان من العجيب جداً أن يرى الإنسان حشودا متزاحمة من الناس تحت الأنوار الصناعية من جديد . وشعر كل إنسان بأنه فقد الغاية فى الحياة ، مع ضرب من شعور الارتياح المتأزم المؤلم . لقد انتهت الحرب آخر الأمر . لن يقتل بعد ذلك أى إنسان فى فرنسا ولن تحدث أية غارات جوية على لندن ، وسيصبح كل شىء على ما يرام .

وأراد الناس أن يضحكوا وأن يبكوا فلم يجدوا إلى الضحك ولا البكاء سبيلا . وأخذ الشباب الناهض والجنود الذين فى أجازات الراحة يكونون مواكب هزيلة صاخبة كانت تشق طريقها خلال الجماهير المتحركة ، وتبذل قصاراها للتعبير عن المراح والسرور . وجرت الجماهير مدفعاً ألمانيا من الغنائم أخذته من البول مول[١] ، حيث نصب للعيان عدد عظيم منها (أى الغنائم) ثم جرّ إلى ميدان الطرف الأغر حيث أحرقت مركبته . وكانت الصواريخ ومفرقعات الأطفال تلقى فى كل مكان . ولكن مظاهر السرور المتجمع كانت قليلة . فإن كل إنسان تقريباً قد خسر كثيراً أو تألم كثيراً حتى لم يعد يستطيع أن يفرح بأى قدر من حماسة .

---

(١) البول مول : شارع عظيم بلندن بالقرب من حديقة سان جيمس وقصر بكنجهام . (المترجم)

الفصل التاسع والثلاثون

عشرون سنة من التردد

١ – دور إجهاد خلقى

كان عالم الحضارات الأوربية الغربية فى السنوات التى أعقبت نهاية الحرب العظمى أشبه شيء برجل أجريت له عملية جراحية خطيرة الحيوية تمت كأسوأ وأخشن ما تجرى العمليات ، حتى لقد أضحى فى شك أفى استطاعته أن يواصل الحياة أو أن كيانه بلغ من التزلزل وبلغت إصابته من الخطورة الحد الذى يقرب بينه وبين منيته . كان عالماً ذاهلا مأخوذاً مبهوتاً . هزمت فيه الروح الاستعمارية العسكرية ، ولكن بثمن باهظ فادح ، بعد أن أصبحت ذات يوم قاب قوسين أو أدنى من النصر . وعاد كل شيء إلى مجراه بعد أن زال التأزم الشديد الذى ولده النزاع ، وإن كانت العودة فى شيء من التراخى والوهن وبطريقة عاصفة متقلقلة . كان هناك ظمأ عام إلى السلام ، وحنين عام إلى ما فقده الناس أثناء الحرب من حرية ورخاء ، دون وجود أى قوة عزيمة تحصل للناس على هذه الأشياء وتحتفظ بها فى أمان .

ولقد حل الفساد بكثير من النواحى . وكما حدث فى حالة الجمهورية الرومانية إبان محنة الحروب البونية ، فقد انسابت الآن أيضاً مظاهر عارمة من العنف والقساوة . وأصيبت أخلاقيات الشئون المالية والاقتصادية بانحلال كبير . فإن أرواحاً كريمة

ضحت بنفسها رخيصة فى سبيل مطاليب الحرب المستعجلة ، ولكن مكرة الرجال وسفلتهم عالمى الأعمال والمال ظلوا يرقبون فرص الزمان العصيبة القلابة حتى استطاعوا أن يقبضوا بيد من حديد على موارد بلادهم وعلى مقاليد السلطان السياسى فيها . إذ استحوذ على القوة والسلطان فى كل مكان رجال كانوا يعدون مغامرين مريبين مغموراً فى سمعتهم قبل ١٩١٤ على حين كدح من هم أفضل منهم بغير طائل . وكان من العسير إيقاف هذه الطبقة ، طبقة الأغنياء المحدثى الغنى والأقوياء الحديثى القوة عند حدهم فى هذا الدور من الانهاك الذى أعقب الحرب .

وتمت أثناء الحرب فى كل البلدان التجارية تقريباً تجارب خارقة فى الإدارة الجماعية . إذ أدرك المسئولون أن الوسائل العادية لتجارة أوان السلم من أمثال المماحكة فى السوق والتمسك انتظاراً لصفقة ملائمة ، أمور لا تستقيم مع حاجات الحرب السريعة . فوضعت تحت الرقابة العامة ، شئون النقل والوقود ومواد الغذاء وتوزيع المواد الخام التى لم يقف الأمر فيها عند حد الثياب والإسكاذ وما أشبهها وحدها ، بل كل شىء لازم لمهات الحرب .

ولم يعد من حق الفلاحين أن يتركوا شبراً من أرضهم لا يستغلونه فى الزراعة أيما استغلال ، ووضعت الماشية فى حدائق الغزلان وحرثت أراضى الكلأ ، سواء برضاء صاحبها أو بغير رضاه . وقيدت عمليات مبانى الترف وعمليات تحسين مراكز الشركات فى ميدان المضاربة . والواقع أنه تأسس ضرب من دولة الطوارئ الاشتراكية فى معظم دول أوربا المتحاربة . كانت عملية تنطوى على الارتجال والفجاجة والاسراف ولكنها كانت أجدى من معقدات اقتناص الربح الذى لا نهاية له ، وأصلح مما كان يأتيه أصحاب المشاريع « والمساعى الخاصة » من احتكار ومن اختزان للمواد ومن إنتاج لا ترابط بين أجزائه .

كذلك عم الناس فى سنوات الحرب الأولى فى كل الدول المتحاربة شعور عميم بالأخوة وبالحاجة إلى تأدية الخدمة من أجل المصلحة المشتركة . وكان عامة الرجال يضحكون فى كل مكان بالنفس والصحة من أجل ما اعتقدوا أنه خير الدولة العام . ولطالما تلقوا مقابل هذا وعوداً بأن الظلم الاجتماعى سوف يتناقص بعد الحرب ،

وسوف يزداد الإخلاص العام للمصلحة المشتركة ويصبح أعم وأشمل . فنى انجلترة مثلا كان المستر لويدجورج مصراً بوجه خاص على جعل بريطانيا بعد الحرب « أرضاً تليق بالأبطال » . وأخذ يتنبأ بدوام هذه الاشتراكية الجديدة التى أوجدتها الحرب وبقائها إلى زمان السلم بخطب ألقاها مليئة بالحماسة والروعة .

وأنشئت فى بريطانيا وزارة للتعمير ، كان مفهوماً أنها تخطط نظاماً اجتماعياً جديداً أحدث وأكرم ، وظروفاً للعمال أحسن ، واسكاناً خيراً من الموجود ، وتوسعة لنشر التعليم ومراجعة كاملة وعلمية للنظام الاقتصادى . وكانت كلمة « التعمير » تضفى على حياة الناس لوناً جميلا وتحى آمال الجماهير المحزونة فى كل مكان . كذلك بذلت وعود جميلة كهذه تبشر بعالم أفضل فأحيت آمال عامة جنود فرنسا وألمانيا وإيطاليا وقوت من عزائمهم . ولكن ستار هذه الخديعة انكشف فى الروسيا مبكراً فأفضى إلى انهيارها . ولذا كان يسرى فى أدمغة الناس فى أوربا الغربية قرب نهاية الحرب تياران من الآمال المرتقبة كل منهما خطر على أخيه . فكان الأغنياء والمغامرون وبوجه خاص المستغلون لظروف الحرب يدبرون خططهم لمنع تطورات من أمثال أن يصبح النقل الجوى ملكاً للدولة ، ولاختطاف الصناعات وإدارات السفن والمواصلات البرية وتجارة مواد الغذاء الرئيسية والخدمة العامة على وجه العموم ، واستردادها من يد الدولة مرة ثانية إلى قبضة طلاب الأرباح الخصوصيين . ومن أجل بلوغ تلك الغاية أخذوا يُعنون مقدما باحتياز الصحف ويشغلون أنفسهم باللجان الحزبية وما إليها ؛ على حين كانت جماهير الناس من الناحية الأخرى ، تشخص أماماً فى سذاجة انتظاراً لحالة للجماعة الإنسانية يكون الرائد فى تخطيطها هو مصلحتهم فقط ويكون الأساس فكرات عامة سخية . وتاريخ ١٩١٩ يغلب عليه الاصطدام بين تيارى الآمال المرتقبة هذين . وسارعت حكومة « رجال الأعمال » التى فى الحكم إلى بيع كل مشروع عام مربح إلى المضاربين الخصوصيين .

وعند منتصف ١٩١٩ كانت جموع العمال فى أرجاء العالم كافة خائبة الرجاء خيبة ظاهرية ومنفعلة غاضبة كل الغضب . ذلك بأن « وزارة التعمير البريطانية »

وضريباتها فى البلدان الأجنبية اتُّخذت خدعة للعيون ترمى إلى تهدئة الأعصاب. وشعر الرجل العام بأنه قد خُدع . فلن يكون هناك تعمير ، بل استرداد للنظام القديم ليس غير — ولكن على صورة أشد كآبة وبشاعة تمليها ظروف الفقر المتفشى فى هذا الزمن الجديد .

وقد ظلت مأساة الحرب أربع سنوات وهى تحجب المسألة الاجتماعية التى كانت تتطور فى الحضارات الغربية طوال القرن التاسع عشر . والآن وقد وضعت الحرب أوزارها ، فإن هذه المسألة ظهرت جهمة الشكل عارية مجردة ، على صورة لم يرها الناس من قبل .

ومما زاد تلك الاستثارات والصعاب شدة وزاد من أثر ما عم العالم من عدم طمأنينة فى هذا الزمان الجديد ، ظهور اضطراب عميق أصاب النقد والائتمان[١] . فإن النقود وهى نمو معقد من الأوضاع والتقاليد أكثر منها نظام للقيم ، حُرمت داخل الدول المتحاربة من سند معيار للذهب[٢] . إذ احتفظ الناس بالذهب للتجارة الدولية دون غيرها ، وكانت كل حكومة أفرطت فى إصدار ورق النقد لاستعماله داخلياً . حتى إذا تحطمت حواجز الحرب بات التداول الدولى ضربا من الاضطراب المتأرجح تأرجحات جنونية ، ومصدر غم وكرب لكل الناس فيما عدا عدد قليل من المقامرين والمضاربين . فتصاعدت الأسعار وتصاعدت — وكان لذلك أسوأ الأثر على كل كاسب أجر . فصاحب العمل يقاوم كل مطالبة له بزيادة الأجور ؛ على حين كانت شئون الطعام والمسكن والثياب تحتكر لغير مصلحته وتبهظ كاهله . أضف إلى ذلك أمراً هو أخطر ما فى الموقف وهو أنه أخذ يفقد كل ثقة اختلجت فى نفسه قط فى أن يؤدى أى صبر من ناحيته أو إقبال على الصناعة إلى التخفيف حقا من ذلك الإعواز وتلك المتاعب التى كان يقاسى من جرائها ما يقاسى .

---

(١) الائتمان (Credit) ، هو فى علم الاقتصاد الثقة بأن يدفع الشخص ثمن البضائع مؤجلا . (المترجم)

(٢) معيار الذهب (Gold Standard) . التثبيت القانونى لإحدى العملات على ما يعادلها من الذهب . (المترجم)

وكانت الحاجة ماسة إلى المنازل فى معظم الأقطار الأوربية . إذ توقف الناس طيلة الحرب لاعن البناء وحده بل عن الاصلاحات كذلك . وبلغ النقص فى المنازل فى ١٩١٩ إلى رقم يتراوح بين ٢٥٠,٠٠٠ إلى مليون منزل فى بريطانيا وحدها . وتكاد الأحوال فى ألمانيا وفرنسا أن تكون أسوأ وأنكى . فإن جماهير غفيرة من الناس كانوا يعيشون فى حالة من التزاحم الشديد تُسخط النفوس ، وكان أوقح أنواع الاستغلال الجشع للشقق والبيوت يحدث فى كل مكان ، كان الموقف عسيراً وإن لم يكن مستحيلا . فلو اتيحت نفس الحماسة والهمة وتضحية الذات التى طوعت التغلب على الأزمة الهائلة فى ١٩١٦ ، لأمكن القيام بالواجب الأكثر سهولة بكثير ، واجب إنشاء مليون من المنازل ، فى مدى سنة أو أكثر قليلا . ولكن الاحتكارات كانت تضيق الخناق على مواد البناء ، وكان النقل فى حالة غير منتظمة ، ولم يكن بناء المنازل يعود على أصحاب المشروعات الخاصة بالإيجار الذى يكون فى متناول من يحتاجون إليها من الناس . ولذا فإن أصحاب المشروعات الخاصة[1] ، وهم أبعد ما يكونون عن الاهتمام بالحاجة العامة إلى المبانى ، قصروا همهم على الاحتكار والمضاربة بالإيجارات وبالتأجير من الباطن . وكان الحال عند ذلك يستدعى أن تقدم الحكومة المنح للنهوض بالمشروع لكى يكون بناء المنازل عملا مربحاً .

وثم مثال آخر نسوقه هنا دليلا على عدم كفاية نظام الاستغلال الجشع فى حل مشكلات ذلك الأوان ، فقد حدث تكدس شديد للبضائع فى المستودعات وتزعزع فى أنظمتها ، بسبب نقص وسائل النقل على الطرق البرية عما يكفى . فكانت الحاجة ماسة إلى السيارات الرخيصة حتى تنقل البضائع والعمال من مكان إلى آخر . ولكن أصحاب المشروعات الخاصة فى صناعة السيارات تصوروا أنه مما يزيد فى أرباحهم كثيراً أن ينتجوا عربات فاخرة غالية الثمن من أجل أولئك الذين ملأت الحرب جيوبهم بالمال . وكان من أيسر الأمور أن تُحول مصانع

---

(١) أصحاب المشروعات أو المساعى الخاصة (Private interprise) : هم الرأسماليون الذين يقومون باستثمار أموالهم فى الصناعة وغيرها . (المترجم)

المهمات وهى مبنية بمال مدفوع نقداً إلى مصانع لإنتاج السيارات الرخيصة بالجملة ، ولكن الرأسماليين أصحاب المشروعات الخصوصية أصروا على أن تبيع الدولة تلك المصانع ؛ فلا هم لاقوا حاجة الجمهور بانفسهم ، ولا هم سمحوا للدولة بأن تفعل ذلك . كذلك أيضاً أصر أصحاب المشروعات الخاصة — والعالم فى أفظع المحن والمتاعب بسبب نقص السفن — على اغلاق مصانع السفن التى أنشأتها الدولة حديثا . وتزعزع النقد فى كل مكان ، ولكن أصحاب المسعى الخاص كانوا فى شغل بشراء وبيع الفرنكات أو الماركات وزيادة الحال حرجاً .

تلك حقائق لا بد لمؤرخ الإنسانية أن يلحظها بأقل قدر مستطاع من التعليق . فإن صاحب المسعى الخاص فى أوربا ١٩١٩ و١٩٢٠ لم يظهر رغبة ولا كفاية لمقابلة حاجات ذلك الزمان الماسة . ولم يكادوا يشعرون بانطلاق أيديهم من قبضة الرقابة حتى انسابوا انسياباً طبيعياً إلى المضاربة والاحتكار وإنتاج الترف . وساروا فى طريقهم طريق الحصول على أقصى ما يستطيعون من الأرباح . ولم يظهروا أى إدراك لما يتكنفهم من أخطار ؛ كما كانوا يقاومون كل محاولة للحد من أرباحهم أو جعلها معتدلة ، أو للتحول إلى طريق الخدمة والإفادة ولو كان ذلك فى مصلحتهم .

واستمر هذا فى وجه أبلغ مظاهر التكره المفرط من جانب جمهرة السكان الأوربيين ، تلقاء ما يقاسونه من الحرمان والمتاعب المطوّلة الأمد . وكانت هذه الجماهير تعيش فى ١٩١٣ كما عاشت منذ مولدها ؛ وكانوا يألفون نوع الحياة التى يعيشون . فأما جماهير ١٩١٩ فهم من الناحية الأخرى ، قوم انتزعوا من ديارهم فى كل مكان لكى ينخرطوا فى الجيوش ولكى يذهبوا إلى مصانع المهمات ؛ وهكذا فقدوا عادات الرضا والتسليم بالواقع ، وغدوا أشد جرأة وأقدر فى التصرف تصرف اليائسين . وقد مرت جماهير عظيمة من الرجال فى أدوار تدريب بثت فيهم الوحشية الصارخة ، كالتدريب على السونكى مثلا ؛ فتعلموا الفظاعة والشراسة ، وقلّت مبالاتهم بارتكاب القتل والتعرض له على السواء . ومن ثم أصبح القلق الاجتماعى أشد خطراً بكثير .

ولم يكن الأمر أن الجماهير كان لها أو خالت أن لها خطة نظام جديد اجتماعى وسياسى واقتصادى . إذ الواقع أنه لم يكن لهم خطة ولم يكونوا يعتقدون بأن لهم خطة . ولم تكن النقائص التى أومأنا إليها فى خطة الاشتراكيين خافية عليهم . بل كان الأمر يتعلق بشيء أشد خطرا من ذلك بكثير . ذلك أنهم بلغ من سخطهم على النظام الحاضر وما فيه من ترف وسرف وتعاسة عامة ، أن أصبحوا لا يأبهون بما يحدث من بعده ماداموا يستطيعون تدميره . كان هذا عودة إلى حال عقلية تقارن بتلك التى مهدت السبيل لتفكك الإمبراطورية الرومانية .

أخذت قوى الثورة تتحرك فى كل مكان فى أوربا ولاسيما فى إيطاليا وألمانيا . وابدت الشيوعية فى إيطاليا روحا عدوانية غير عادية . فظهر عُمَد[1] شيوعيون فى نواح مختلفة من إيطاليا ، وجرت فى بولونيا محاولة مشفوعة بالقوة لتنفيذ مبادئ الشيوعية عمليا . وفى يوليو ١٩٢٠ تولى جيوليتى وهو من دعاة الحياد الذين عارضوا الحرب ، رئاسة الحكومة مكان السنيور نيتى . فقام بتجارب متنوعة فى « التشارك » بين عمال الصناعات وأصحابها . وفى سبتمبر استولى العمال على كثير من مصانع الصلب وغيرها من المصانع وأخذوا يديرونها على أسس اشتراكية . ولقيت هذه التصرفات تعضيدا ومصادقة من الحكومة .

واستمر الانزلاق نحو الشيوعية طوال ١٩٢١ فى وجه مقاومة متجمعة ، وشبت الفتن والأعمال العنيفة فى فلورنسا وتريستا وپوجليا وپيزا وأماكن أخرى كثيرة ؛ ذلك أن تدابير جوليتى الرامية إلى صبغ البلاد بالاشتراكية (: تشريكها) أفضت إلى رد فعل عنيف بين الطبقات التى تهمها الملكية الخاصة ، ونشأت منظمة للشباب هى جماعة الفاشست الذين جعلوا سمتهم المميزة الشعر الكثيث والقمصان السود والقومية المفرطة الشدة ومناهضة الاشتراكية (Antisocia ism) . كانوا يقابلون العنف بالعنف ، ويبلغون به درجات من التطرف لا عهد للناس بها ، فأقاموا عهد إرهاب مضاد للإشتراكية . ووجدوا لهم زعيما ذا همة عالية

---

(١) عمد جمع عمدة وهو رئيس القرية أو المدينة كما هو معروف . (المترجم)

ورروادع أخلاقية واهنة هو بنيتوموسوليني ، وكان فيما قبل ذلك صحفياً راديكاليا[1] ، وسرعان ما تغلبت الفاشستية تحت إدارته الماهرة على اعتداءات الشيوعيين المتفرقة العاطفية . وكانوا يقطعون الطريق على الزعماء والكتاب المتحررين ثم يضربونهم بالهراوات . وكانت هناك طريقة حبيبة إلى الفاشستيين هي أن يعطوا جرعات كبيرة من زيت الخروع إلى من ينتقدون تصرفاتهم . وأصبح القتل والضرب والتعذيب وإحراق الأملاك الخاصة للمفكرين المتحررين هي وسائل الرقابة الاجتماعية في إيطاليا . فكأن حكم المناسر قد حل محل شبح الشيوعية البعيد .

وبلغ الفاشيون في أكتوبر ١٩٢٢ حداً من القوة أتاح لهم أن أصبحوا في الواقع جيشاً حقيقياً وأن استطاعوا الزحف على روما . وأعلنت الوزارة الأحكام العسكرية واستعدت للقتال ، ولكن الملك أبى التصديق على هذه التدابير ودعا موسوليني لتولى مقاليد الأمور . فلبى الدعوة وأصبح رئيساً للحكومة ، ووافق على حل فرق القمصان السود — وهو وعد لم يبر به أبدا . ووضع الفاشيون موضع الهيمنة على البوليس وعلى قوات البلاد المسلحة ، وقضوا على حرية الصحافة وأصبحت الانتخابات مهزلة من المهازل ، وظل الفاشيون يهاجمون أعداءهم السياسيين ، ويلقون في قلوبهم الرعب ويغتالونهم . بينما أصبح موسوليني بلقب الدوتشي[2] ديكتاتوراً حقيقياً ، على حين أخذت أهمية الملك تقل نسبياً .

ومضى زمان استرجعت فيه إيطاليا ضرباً معيناً من الكفاية الاقتصادية الخشنة التي لقيت استحساناً عظيما في بعض الدوائر الأوربية . ولكن موضع اهتمام العالم بأسره بالموقف في إيطاليا ، كان منحصراً في التجربة التي مرت بها إذ تجلى فيها على أخشن الأشكال وأشدها فجاجة ماهية اليسار المتطرف واليمين المتطرف في الشئون الإنسانية المعاصرة . وفيها ظهرت قلة كفاية الأولين وانعدام السمة العملية لديهم ، كما تجلت السرعة التي ينحدر بها إلى العنف وقطع الطرق أصحاب الملكيات والمشروعات الخاصة ،

---

(١) الراديكالي : حزب متطرف يدعو إلى التغيير التام في السياسة والإصلاح الشامل (المترجم)

(٢) الدوتشي : معناها الزعيم . (المترجم)

عندما يصطرون إلى إلتزام خطة الدفاع . وقد أصبحت إيطاليا كالروسيا سجناً لكل إنسان حر العقل .

وإنك لتجد ذلك المرض المتسلل وأعنى به مخالفة القوانين الذى سبق أن ذكرناه فى نقدنا لرواية ستوكى وشركاه لرديارد كبلنج ، — زاهياً زاهراً فى هذين القطرين . على أن إيطاليا لا تقف بمفردها فى هذا المضمار ؛ وإنما هى أشد الأمثال اكتمال تطور وسط نزعة عمت هذا الزمان كله . فإن الفاشية وجدت فى ألمانيا وفرنسا وبريطانيا العظمى مطاولين ومقلدين ، ولكن نشاطهم فى تلك البلاد وإن أصبح مضايقة أو إزعاجاً إلا أنه لم يصل إلى مرتبة الطغيان والاستبداد شأنه فى إيطاليا .

٢ — الرئيس ولسن فى ڤرساى

أشرنا من قبل إلى تفشى الفوضى الاجتماعية والاقتصادية فى جميع المجتمعات الأوربية إبان السنوات التى أعقبت الحرب ، وذلك قبل أن ندلى إليك بأى بيان عن العمل الذى بذل فى التسوية العالمية التى كان مركزها مؤتمر الصلح فى باريس ، وكان مرد ذلك أن حالة إنشغال البال والقلق التى لحقت كل من يشتغلون بالمشاكل الخاصة من أمثال الدخل والأسعار والعمل وما إليها ، — كافية تماماً لتفسير جو الإنهاك الذى تقدم فيه ذلك المؤتمر نحو الواجب الضخم الملقى عليه . وليس يجوز للإنسان أن يتوقع حياة عامة قوية على حين يشمل الغم والارتباك حياة الأفراد .

وتدور معظم قصة المؤتمر حول مغامرة رجل بعينه ، وهو أحد أولئك الرجال الذين تنتخبهم المصادفة أو الصفة الشخصية وتتخذ منهم طرازاً تقصد به إلى تخفيف العبء عن المؤرخ . ولقد أصبنا فى كتابنا هذا شيئاً كثيراً من الراحة فى تركيز انتباهنا على شخص بعينه إما أن يكون بوذا ، أو الاسكندر الأكبر أو يوان تشوانج أو الإمبراطور فردريك الثانى ، أو شارل الخامس ، أو نابليون الأول مثلا — وأن نتخذ منه نبراساً يعكس النور على الزمان الذى يعيش فيه . وأسهل زاوية ننظر منها خاتمة الحرب العظمى هى زاوية ارتقاء الرئيس الأمريكى ولسن مراقى الأهمية العليا فى سماء آمال العالم وانتباهه ، ثم فشله فى تبرير تلك الرفعة .

وكان الرئيس ولسن (١٨٥٦ — ١٩٢٤) فيما سلف من أيامه عالماً مبرزاً ومدرساً ضليعاً للقانون الدستورى والعلوم السياسية عامة . وقد شغل مناصب جامعية كثيرة ، وتولى رئاسة جامعة برنستن (Princeton) بنيوچرسى . وإن هناك لقائمة طويلة من الكتب تشهد له بالكفاية وتبدى فيه ذهناً متجهاً اتجاهاً كلياً إلى التاريخ الأمريكى والسياسة الأمريكية . تقاعد عن العمل العلمى وانتخب حاكماً لولاية نيوچرسى فى ١٩١٠ . وفى ١٩١٣ رشحه الحزب الديمقراطى لرياسة الجمهورية ، وأصبح رئيساً للولايات المتحدة نتيجة لخلاف عنيف شجر بين الرئيس السابق روزفلت والرئيس تافت ، تصدع بسببه الحزب الجمهورى صاحب السلطان .

وكأنما أخذت أحداث أغسطس ١٩١٤ الرئيس ولسن ومواطنيه على غرة . فإنا نراه يرسل برقية فى ٣ أغسطس يعبر فيها عن استعداد للتوسط . ثم أخذ يراقب النزاع ردحاً من الزمان هو وأمريكا . وقد لاح بادئ الرأى أنه لا الشعب الأمريكى ولا رئيسه كانوا يفهمون فهماً واضحاً ولا فهماً عميقاً تلك الكارثة التى تجمعت قواها فى زمن غير قصير . فقد أقاموا تقاليدهم قرناً من الزمان على عدم الاهتمام بأمور العالم القديم ، ولم يكن تغيير هذا الاتجاه بالأمر الهين . على أن الصلف الإستعمارى الذى أبداه البلاط الألمانى ، وما زعمه بعض الناس من ميل السلطات العسكرية إلى بث الذعر الميلودرامى ، وغزوهم لبلچيكا ، واستعمالهم للغاز السام ، ومضايقتهم العالم بحملة الغواصات ، قد أوجدت فى الولايات المتحدة عداء للألمان لم يبرح يزداد حدة وعمقاً مع تقدم الزمن بالحرب . ولكن ما درجوا عليه من تقاليد عدم التدخل السياسى فى شئون أوربا ، وذلك الاقتناع العميق الأسس القائل بأن لأمريكا من الخلق السياسى ما يسمو على خلافات أوربا كل السمو ، منعت الرئيس عن التدخل الفعلى . فاتخذ نغمة الترفع والتسامى . وصرح بأنه غير مستطيع أن يحكم على أسباب الحرب الكبرى وعدالتها . واتخذ لنفسه موقف مسالمة ودعوة إلى التهدئة يرجع إليه الفضل فى إعادة انتخابه لرياسة الجمهورية .

ولكن حال العالم لا ينصلح بمجرد النظر إلى فعلة السوء نظرة عدم استحسان شاملة لا تكاد تميز بين هذا وذاك . وعند نهاية ١٩١٦ شجع الألمان على الاعتقاد

بأن الولايات المتحدة لن تدخل الحرب بأى حال ، وفى ١٩١٧ ابتدأوا حملة الغواصات التى لا تتقيد بشىء وإغراق السفن الأمريكية بلا إنذار . وجرّت هذه الحماقة الأكيدة الرئيس ولسن والشعب الأمريكى إلى الحرب جراً . كذلك دفعوا كرها إلى محاولة تحديد علاقتهم بسياسة العالم القديم على أسس أخرى غير مجرد التعالى والتباعد . وتغيرت أفكارهم وخلقهم بغاية السرعة . فدخلوا الحرب فى صفوف الحلفاء وإن لم ينضموا معهم فى أى حلف . خاضوا الحرب باسم مدنيتهم العصرية ، لكى يوقعوا النكال بالمعتدين وينتهوا من موقف سياسى وعسكرى لا يطاق .



(شكل ٢١٥) الرئيس ولسن

والأحكام المتريثة المتأنية كثيراً ما تكون خير الأحكام . فإن الرئيس ولسن حاول فى سلسلة من « المذكرات » أطول وأكثر تنوعاً من أن تتحملها المعالجة التفصيلية فى هذا الكتاب ، حاول وهو فى حالة تشبه من يفكر بصوت مرتفع على مسمع من العالم قاطبة ، أن يبين الفروق الجوهرية بين الدولة الأمريكية وبين دول العالم

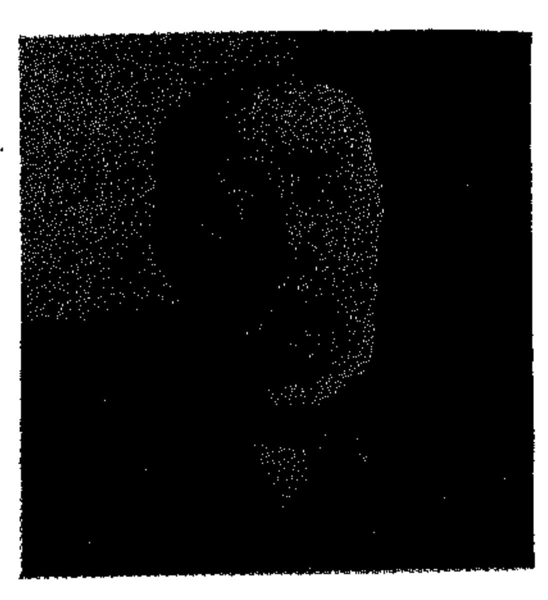
القديمة الكبرى . وبسط للناس فكرة للعلاقات بين الدول هبطت على نصف الكرة الشرقى بأجمعه هبوط التنزيل ، هبوط أمل فى نشوء عالم أفضل .

وكان المأمول بمقتضى هذه الفكرة أن تتوقف الاتفاقيات السرية ، وتقرر « الأمم » مصائرها بأنفسها ، ويكف الناس عن العدوان العسكرى وتصبح طرق البحار حرة مباحة للبشرية كافة . فهذه الأمور العادية المألوفة لدى الفكر الأمريكى ، هذه الرغبات الخفية المستقرة فى نفس كل سليم العقل ، هبطت على ما كان يخيم على أوربا من ظلمة الغضب والنزاع هبوط نور عظيم . وأخيراً شعر الناس أن صفوف الدبلوماسية قد تصدعت ، وأن أقنعة « سياسة » الدول العظمى قد تمزقت إرباً . فهنا عبر الرئيس بغاية الوضوح وبما له من سلطان وما وراءه من قوة شعب قوى جديد عن رغبة الرجل العادى فى العالم بأجمعه

وواضح أن الموقف كان يستلزم وجود هيئة حكومية ذات يد مطلقة لتقيم أركان القانون العالمى وتحافظ على سريان هذه القواعد العامة الإجمالية التحررية على علاقات الناس بعضهم ببعض . وكم من خطة حلق بها خيال الناس للوصول إلى تلك الغاية . وكانت هناك بوجه خاص حركة ترمى إلى إنشاء نوع ما من العصبة العالمية ، هى « عصبة الأمم » . فاستعمل الرئيس الامريكى هذه العبارة وحاول أن يحققها . فإنه صرح بأن الشرط الضرورى للسلام الذى كان ينشد هو إقامة صرح هذه الأداة الاتحادية (الفدرالية) . كان المفروض أن تكون عصبة الأمم هذه محكمة الاستئناف النهائية فى الشئون الدولية . وكانت على أن تصبح الجسم المادى المحقق للسلام . وهنا كذلك أثار الرئيس صدى هائلا .

وأصبح الرئيس ولسن أمد ردح من الزمان الخطيب المتحدث باسم عصر جديد . واستمر محتفظاً بهذه المكانة الرفيعة فى عين العالم القديم طوال الحرب وبعد انتهائها بزمن قصير . فأما فى أمريكا حيث كانوا يعرفونه خيراً منا فكانت حوله غمامة من الشكوك . ونحن إذ نكتب الآن وبين أيدينا عظمة الأحداث التالية ، نستطيع أن نفهم هذه الشكوك . فإن أمريكا طورت طوال قرن ونصف قرن قصتها فى الاعتزال والأمنة مُثلا علياً جديدة ومبادئ فى الفكر السياسى مستحدثة ، دون أن تدرك

إدراكاً بعيداً أن هذه المثل العليا والمبادئ قد تستلزم تعضيداً حاراً صادقاً فى حالات الشدائد والخطر . وكانت هناك أشياء عديدة تعد فى نظر مجتمعها من السخافات بينما هى عند مجتمعات العالم القديم ، الذى كان لا يزال متورطاً فى المعتقدات السياسية



(شكل ٢١٦) كليمنصو

العهيدة ، بمثابة إنجيل يخرج الناس من الظلمات إلى النور . فكان الرئيس ولسن مستجيباً لفكر وأحوال قومه ووطنه هو ، ذلك الفكر المنبعث من تقاليد تحررية وجدت لأول مرة أوفى تعبير لها فى اللغة الإنجليزية . فأما فى رأى أوربا وآسيا فإنه بان كأنما يقول ويفكر لأول مرة فى التاريخ فى أشياء لم تتطور بعد وأسرار خفى وجودها على الناس كل الخفاء . ولعله كان يشرك الناس فى هذا الرأى الخاطئ .

وإنا لنعالج هنا أستاذاً للعلوم السياسية ناجحاً مقتدراً ، لم يدرك تمام الإدراك ما يدين به لمعاصريه ، ولا عرف الجو الأدبى والسياسى الذى ظل يتنفسه طوال حياته ؛ كما أنه سرعان ما انتقل بعد إعادة انتخابه للرياسة من الحالات العقلية لزعيم سياسى إلى وضعة المسيح المخلّص . وما « مذكراته » إلا عمليات ارتياد واستكشاف لعناصر الموقف العالمى . وعندما أبرز آخر الأمر فى خطابه الذى ألقاه فى الكونجرس

فى يناير ١٩١٨ نقاطه الأربع عشرة بوصفها بياناً محدداً لمقاصد أمريكا فى السلم ، كانت بوصفها بياناً أحسن كثيراً فى روحها منها فى ترتيبها ومادتها .

وكانت هذه الوثيقة تطالب بالاتفاقات الصريحة بين الأمم والكف عن السياسة السرية ، وحرية الملاحة فى أعالى البحار وحرية التجارة ونزع السلاح وعدد من التسويات السياسية تقوم على الاستقلال القومى للشعوب . وهى تطالب فى النقطة الرابعة عشرة بإنشاء « جمعية عامة للأمم » بغية ضمان سلام العالم . كان ينشد « السلم بلا نصر » .



(شكل ٢١٧) لويد چورج

وقد استقبلت هذه المواد الأربع عشرة استقبالا رائعا فى كل أرجاء العالم . فهنا لاح أخيراً شبح سلم يتقبله المعقولون من الناس فى كل مكان ، سلم طيب مقبول لدى خيار الألمان والروسيين وأكارمهم ، كما هو طيب مقبول لدى خيار الإنجليز والفرنسيين والبلچيك وأكرميهم . وظل العالم بأكمله بضعة شهور ينيره نور الإيمان بولسن . فلو أمكن جعل هذه المواد أساساً لتسوية عالمية فى ١٩١٩ ، لفتحت منذ ذلك الحين حقبة جديدة للشئون الإنسانية عامرة بالآمال .

ولزام علينا أن نخبرك أن أحدا لم يقم بهذا الأمر . إذ كان يحبط بالرئيس ولسن

سحابة بعينها من الأنانية الضيقة ؛ وكان جيل شعب الولايات المتحدة الذى وافته هذه النهزة العظيمة — وهو جيل ولد فى بحبوبة الأمنة ، وتربى فى ظلال الوفرة ، فهو لذلك جيل بمنآة عن المنازعات المؤلمة التى أحزنت قلب أوربا ؛ — كان ينطوى على قدر بعينه من الطيش والنظرة السطحية للأمور . ولم يكن واقع الأمر أن الشعب الأمريكى كان سطحياً بحكم الطبيعة والضرورة ، بل إن حماستهم لم تحركها بالقدر العميق الكافى فكرة قيام مجتمع عالمى أكبر من مجتمعهم . كأن لديهم فكرة ذهنية ولكنها لم تكن عقيدة روحية . فكنت تجد فى ناحية هذا الشعب الجديد نزيل العالم الجديد بمالهم من فكرات جديدة ، فكرات أسمى وأروع عن السلم والصلاح العالمى ، وتجد فى الناحية الأخرى فى العالم القديم ، شعوباً لدودة العداء متورطة أشد التورط فى نظام الدول الكبرى ؛ وكان الأولون أفجاجا أغمارا يدانون الأطفال فى قلة خبرتهم المروعة ، وكان الآخرون مجربين مريرى المذاق معقدى التكوين .

وقد عالج الروائى الكبير هنرى چيمس منذ سنوات عديدة موضوع الاصطدام بين الشباب الغمر المثالى المنتمى لعصر جديد وبين نضج القديم المحنك فى قصة جد نموذجية تسمى « ديزى ميلر Daisy Miller » . وهى قصة محزنة لفتاة أمريكية صريحة شديدة الثقة فى الناس رفيعة العقل ، ولكنها تكاد تبلغ حد البساطة ، وفيها ميل حقيقى إلى الصلاح ورغبة عظيمة فى « الاستمتاع » ، وكيف أنها وصلت إلى أوربا ووقعت فى الحبائل من فورها وتورطت فى الأخطاء ، ثم دفعت أخيراً إلى الترحيب بالموت بسبب ما فى العالم القديم من التواءات مركبة من قيود جامدة . وإن فى الحياة نفسها لآلافا منوعة من أضراب هذا الموضوع ، وآلافاً من أمثال هذه المآسى التى تنحدر عبر الأطلسى ، وما قصة الرئيس ولسن إلا واحدة من هذه المآسى . ولكن ينبغى للقارئ ألا يتصور ، لما يرى من تغلب الداء القديم على الأداة الجديدة ، أن ذلك هو الحكم النهائى عليها بالقضاء الأخير .

ولعل أحداً من البشر المذنبين بفطرتهم لم يصب وهو يبذل قصارى جهده وسط ظروف جارفة لا يقوى على إحتمالها — بمثل هذا الفحص الدقيق والنقد القاسى الذى تعرض له الرئيس ولسن . وهو يلام لإنه أدار دفة الحرب وما تلاها من مفاوضات

الصلح على أسس حزبية محضة . وهم يتهمونه بأنه ظل الرئيس الممثل للحزب الديموقراطى ، على حين كانت تأتمر به الظروف لتجعل منه ممثلا لمصالح البشرية عامة . ولم يقم بأية محاولة ليضم إلى جانبه بعض الزعماء الأمريكيين الكبار من أمثال الرئيس السابق روزفلت والرئيس السابق تافت ، ومن إليهما . وهو لم يستغل تماماً الموارد المعنوية والفكرية للولايات المتحدة ؛ بل جعل الموضوع كله أمراً شخصياً بحتا ، وأحاط نفسه بمن هم مجرد أنصار شخصيين له . وكان استقرار رأيه على حضور مؤتمر الصلح بنفسه غلطة خطيرة ، ويكاد رأى الناقدين المجربين يجمع على أنه كان يجدر به أن يبقى فى أمريكا ، يمثل دور أمريكا وأن يتكلم بين الفينة والفينة كأنما كان الشعب يتكلم . فإنه استطاع طيلة السنوات الأخيرة من الحرب أن يحصل بهذه الطريقة على مكانة لا ضريب لها فى العالم .

ويقول الدكتور ديلون[1] : « كانت أوربا عندما لمست قدما الرئيس أرض ساحلها أشبه الأشياء بصلصال ينتظر لمسة الخزاف المبتدع . ولم يحدث قط من قبل أن كانت الأمم على مثل هذا الشوق إلى اتباع نبى كموسى يأخذ بيدهم إلى الأرض الطيبة الموعودة حيث تمنع الحروب ويجهل الحصر البحرى . وكانوا يرون فيه ذلك الزعيم العظيم . وكان الناس فى فرنسا ينحنون أمامه محبة ورهبة . وأخبرنى زعماء العمال فى باريس أنهم سكبوا دموع الفرح بين يديه ، وأن إخوانهم كانوا على استعداد أن يخترقوا النار ويخوضوا اللجج لكى يساعدوه على تحقيق خططه النبيلة . وكان اسمه عين الطبقة العاملة فى إيطاليا بوقا سماوياً تتجدد الأرض حين يدوى صوته فيها . وكان الألمان يعدونه ومبادئه الإنسانية بمثابة الأمل الذى إليه يلوذون . وقال الهرموهلون الشجاع غير الهيابة : « لو أن الرئيس ولسن خطب فى الألمان وحكم عليهم حكما قاسيا لقبلوه مذعنين دون أن يتفوهوا بكلمة ولأنشأوا يعملون من فورهم » . وكانت شهرته فى النمسا الألمانية شهرة مخلّص منقذ ، وكان مجرد ذكر اسمه بلسما لآلام المنكوبين وترياقاً لأحزان المحزونين » .

---

(١) Dr. Dillon : "The Peace Conference."

تلك هى الآمال الخارقة التى كانت تعتلج فى صدور النظارة الذين استعد الرئيس ولسن للظهور أمامهم . وصل إلى فرنسا على ظهر الباخرة جورج واشنطن فى ديسمبر ١٩١٨ . وأحضر معه زوجته . ولا شك أن هذا كان يبدو أمراً لا غبار عليه من وجهة النظر الأمريكية . وأحضر عدد جم من ممثلى أمريكا زوجاتهم . ومن سوء الطالع أنه دخلت إلى حظيرة التسوية العالمية بمقدم هؤلاء السيدات سمة اجتماعية لا بل سمة سياحية . فقد كانت وسائل المواصلات ضيقة الحدود فى ذلك الزمان ، على أن معظمهن وصلن إلى أوربا يحيط بهن جوزاه من الامتيازات . وجئن كمن يريد أن يحضر مأدبة ، فكن — كما نوه بعض الناس — يتفرجن على أوربا مستمتعات بظروف شائقة غير عادية . وإنهن ليرغبن فى زيارة آثار تشستر أو قلعة واروبك أو وندسور إذ قد لا تتاح لهن فى المستقبل فرصة أخرى يرين بها هاته المواضع الشهيرة . ثم لقد تقطع بعض المقابلات الهامة لكى تُزار دار ذات أهمية تاريخية .

وربما لاح هذا من الأمور التافهة التى لا يليق أن ندونها فى تاريخ للبشرية . على أن مثل هذه الهنات الإنسانية الهينة هى التى ألقت على مؤتمر الصلح فى ١٩١٩ ظلا من اليأس فى ثمرته . إذ اكتشف الناس بعد برهة وجيزة أن ولسن أمل البشرية ومعقد الرجاء منها قد تلاشى ، ولم يبق منه إلا صور تنشرها صحف الطبقة الراقية لسائح يسير مبتهجاً مع زوجته ، يحيط بهما جو باسم من الرؤوس المتوجة وما إليها من الصخب الذى يُحسد الناس عليه .... ومن أيسر الأمور أن يدعى الإنسان الحكمة بعد وقوع الأحداث وأن يشعر بخطئه بعد حدوثه وأن يعرف أنه كان ينبغى له ألاّ يحضر .

وكان الرجال الذين تحتم عليه أن يتصل بهم اتصالا خاصاً أمثال المسيو كلمنصو (فرنسا) ولويد جورج وبالفور (بريطانيا) ، والبارون سونينو والسنيور أورلندو (إيطاليا) رجالا ينحدرون عن تقاليد تاريخية تخالف تقاليده مخالفة بعيدة . على أنهم كانوا يشابهونه من وجه واحد يروقون فيه لميوله وعواطفه . فإنهم كذلك كانوا سياسيين حزبيين قادوا أممهم فى الحرب . وقد فاتهم مثله أن يفهموا ضرورة أن يناط عمل التسوية العالمية برجال أكفاء أكثر منهم أهلية وتخصصا .

ولم يكونوا ليزيدوا عن مجرد صغار مبتدئين فى الشئون الدولية . وكانت علوم

الجغرافيا والاثنولوجيا (علم السلالات البشرية) وعلم النفس والتاريخ السياسى صناديق مقفلة دونهم . وقديماً قيل إن مدير جامعة لوفان حدّث أوليفرجولد سميث بأنه لما كان قد أصبح رئيساً لتلك المؤسسة دون أن يعرف اليونانية ، فإنه لايدرى لماذا يجب أن تُعلم فيها تلك اللغة ، وعلى نفس الشاكلة فإن رؤساء الدول - وقد حصلوا على أعلى المناصب فى بلادهم دون أن يكون لديهم من العلم بالشئون الدولية ما يزيد على قلامة ظفر - لم يستطيعوا أن يدركوا أهمية التمكن منها ولا استحالة سد هذا النقص فيهم بالدراسة بينما هم ماضون فى طريقهم » .

ولقد كان فى المستطاع تدارك ما كان ينقصهم تداركاً محسوساً بضم مساعدين لهم من الرجال الذين أسعدتهم الحال بمواهب خير من مواهبهم . ولكنهم عمدوا قصداً إلى اختيار رجال متوسطين غير أفذاذ . ومن الدلائل على الأرواح الأصيلة أن تجد المعاونين المخلصين . على أن المندوبين المفوضين فوق العادة فى ذلك المؤتمر لم يختصهم القدر بهذه الخصيصة . ولا تنس عاملا فى المؤخرة بعيداً عن الأنظار ؛ ذلك أنه كان لبعضهم عائلات أو محرضون يتصلون بهم أحيانا وقد اعتادوا أن يصغوا لنصائح هؤلاء وأولئك ، على أن كثيراً من الملحقين والمساعدين الذين سُلطت عليهم الأضواء على المسرح العالمى كانوا أشباحاً لاروح فيها ولاشجاعة » .

« ولما كان رؤساء الحكومات الكبرى يدّعون لأنفسهم ضمنيا أنهم هم المتكلمون المفوضون عن الجنس البشرى ، وأن بين أيديهم سلطات لا حد لها ، فإن من الجدير بالملاحظة أن هذه الدعوة لقيت تحدياً جريئاً من الصحافة المعبرة عن الشعوب . فإن جميع الصحف تقريباً التى تقرؤها جماهير الشعب اعترضت منذ البداية على ديكتاتورية تلك الثلة من رؤساء الوزارات باستثناء الرئيس ولسن » .

ولن يسمح لنا ضيق المقام فى هذه المعالم أن نحدثك ها هنا كيف تقبض مؤتمر الصلح من مجلس عشرة إلى مجلس أربعة هم (ولسن وكلمنصو ولويد چورچ وأورلندو) ، وكيف أخذ يفقد بالتدريج سمته بوصفه مناقشة صريحة علنية لمستقبل البشرية ، وأصبح شيئاً فشيئاً أشبه ما يكون بمؤامرة دبلوماسية

قديمة الطراز . كانت الآمال التى انعقدت على باريس وتجمعت فيها عظيمة عجيبة . ويقول الدكتور ديلون « إن باريس إبان ذلك المؤتمر كفت عن أن تكون عاصمة فرنسا ، إذ أصبحت (مسافرخانة) أو دار ضيافة دولية هائلة تعج بمظاهر غير مألوفة من الحياة والاضطراب ، مليئة بأشكال غريبة من الشعوب والقبائل والألسن جاءوا من القارات الأربع ليرقبوا وينتظروا ما يخبئه لهم الغد الخفى .

« وقد أضيف إلى الصورة لمسة من لمسات ألف ليلة وليلة بظهور زوار عليهم طابع الغرابة وفدوا من بلاد التتار وكردستان وكوريا واذربيجان وأرمينيا وإيران وبلاد الحجاز — ما بين رجال لهم لحى البطارقة وأنوف كالسيف الأحدب ، وآخرين جاءوا من الصحراء والواحة ، ومن سمرقند وبخارى . وما بين عمائم وطرابيش وقبعات مخروطية كأقماع السكر وأغطية رءوس شبيهة بقلانس الأساقفة وبدل عسكرية قديمة فُصلت لجيوش قامت كالجنين فى دول جديدة نشأت ليلة السلام الأبدى ، وبرانس بيضاء شاهقة البياض وجلابيب فضفاضة وثياب رشيقة تشبه التوجا الرومانية ، اجتمع كل أولئك هناك وأسهموا فى إيجاد جو من اللاحقيقة والوهم الحالم فى المدينة التى كان بعض الناس يواجهون فيها ويصطرعون مع أشد الحقائق تجهما » .

« ثم جاء أهل الثراء من الرجال ، وأهل الذكاء وأصحاب المشروعات وحملة بذور التنظيم الأخلاقى الجديد ، وأعضاء لجان اقتصادية فى الولايات المتحدة وبريطانيا وإيطاليا وبولندة والروسيا والهند واليابان وممثلو صناعات النفط ومناجم الفحم البعيدة الشاسعة والحجاج والمجذوبون المتعصبون ، ومهرجون (شرلتانون) من جميع الأجواء ، وقساوسة من جميع الأديان ومبشرون بكل عقيدة ، مختلطين بالأمراء والفيلدمارشالات ورجال السياسة ، والفوضويين ودعاة الإنشاء والهدم . وكان كل يتحرق شوقاً إلى أن يقترب من تلك البوتقة التى ستصهر فيها نظم العالم السياسية والاجتماعية ثم تخلق خلقاً جديداً » .

« وكنت فى كل يوم أثناء مرورى فى الطرقات وفى شقتى وفى المطاعم ألتى مبعوثين عن بلاد وشعوب لم يكد يسمع الناس فى الغرب حتى بمجرد إسمها إلا نادراً . وزارنى وفد من يونان منطقة البونت إيوكسين[1] ، وتحادثوا معى عن مدنهم القديمة طرابيزون وصامسون وطرابلس وكيراصوند ، التى أقمت بها منذ سنوات عدة ، وأخبرونى أنهم هم كذلك يرغبون فى أن يكوّنوا من أنفسهم جميعاً جمهورية إغريقية مستقلة ، وأنهم جاءوا للحصول على طلباتهم . وكان يمثل الألبانيين صديقى القديم طرخان باشا من ناحية وصديقى أسعد باشا من ناحية أخرى — وكان الأول يرغب فى حماية إيطاليا ويطالب الثانى بالاستقلال التام . وكان الصينى واليابانى والكورى والهندوكى والقرغيزى واللسغينى[2] والجركسى والمنجريلى والبورياتى والملايى والزنجى وشبه الزنجى (النجرويدى) من أفريقيا وأمريكا من بين رجال القبائل والألسن التى اجتمعت فى باريس لتلاحظ عن كثب إعادة بناء نظام العالم السياسى وليعرفوا مكانهم فيه » .

وإلى باريس هذه المزدحمة الرائعة التى بلغ بها الانذهال كل مبلغ والفاغرة فاها إرتقابا للعالم الجديد جاء الرئيس ولسن ووجد قواها المتجمعة ، تحت سلطان شخصية أضيق منه أفقا من كل وجه وأصغر حدوداً وأقوى منه منة حتى لامجال للمقايسة بينهما : وأعنى به رئيس الوزارة الفرنسية المسيو كلمنصو . وانتخب المسيو كلمنصو رئيساً للمؤتمر تلبية لرغبة الرئيس ولسن . قال الرئيس ولسن : « كان ذلك اعترافاً خاصاً وتقديراً لما لقيت فرنسا من آلام وبذلت من تضحيات » . ولسوء الحظ أن ذلك القول كان النغمة الأساسية فى المؤتمر ، الذى كان ينبغى ألا يشغل نفسه إلا بمستقبل البشرية .

وكان چورچ بنيامين كلمنصو (١٨٤١ — ١٩٢٩) صحافياً وسياسياً عالى السن ،

---

(١) البونت إيوكسين (Pont Euxine) : منطقة الساحل الجنوبى للبحر الأسود وهى التى كان يطلق عليها قديماً اسم إقليم بنطش . (المترجم)

(٢) اللسغينيون (Lesghiens) : شعب يسكن بلاد القوقاز . البوريات : إحدى الجمهوريات السوفييتية وتقع بسيبريا الشرقية . (المترجم)

وكان من أعظم المولعين بالتشهير بمثالب الناس وأخطائهم ، وممن لهم النصيب الأوفر فى قلب الحكومات ، وكان طبيباً ظل وهو يشغل منصب الاستشارة فى البلدية محتفظاً بعيادة مجانية ، كما كان مبارزاً عنيفاً ذا دربة وتجربة . ولم تنته واحدة من مبارزاته بالموت ولكنه كان يلقاها ثابت الجأش جم الإقدام . وقد انتقل من مهنة الطب إلى الصحافة على المذهب الجمهورى فى أيام الامبراطورية وكان فى تلك الأيام « يساريا » متطرفاً . واشتغل بالتدريس فى أمريكا ردحاً من الزمان ، وتزوج من زوجة أمريكية ثم انفصل عنها . وكان قد بلغ الثلاثين فى عام ١٨٧١ الحافل بالأحداث الجسام . ثم إنه عاد إلى فرنسا بعد معركة سيدان ، وألقى نفسه فى المعمعان العاصف المضطرب لذلك الشعب المقهور مُظهرا حمية عظيمة وقوة بالغة . ومنذ ذلك الحين أضحت فرنسا عالمه الخاص ، فرنسا صاحبة الصحافة القوية والخلافات الشخصية الجريئة الحادة والتحديات والمجابهات والخلافات العنيفة والتأثيرات الدرامية والنكات البارعة التى تكال مهما تكن النتائج . كان ممن صيغ من « مادة حادة ملتهبة » فلقبه الناس « بالنمر » ، ويلوح أنه كان يخالجه بعض الزهو بهذا اللقب . كان وطنياً محترفاً أكثر منه سياسياً مفكراً ؛ ذلكم هو الرجل الذى نهضت به الحرب إلى أعلى عليّين ، وأتاحت له أن يمثل عقلية فرنسا الممتازة وروحها الكريمة أسوأ تمثيل .

وكان لضيق أفقه أثر عميق فى المؤتمر ، الذى زاد فى تلونه باللون الدرامى اللجوء إلى جعل مكان التوقيع هو نفس قاعة المرايا بفرساى التى انتصرت فيها ألمانيا وأعلنت وحدتها فى كبرياء الظافر . هنالك قضى على الألمان أن يوقعوا .

ولم تعد الحرب تبدو فى هذا الجو فى عين المسيو كلمنصو وعين فرنسا حرباً عالمية ؛ بل كانت مجرد فصل ثان للنزاع القديم الذى قام فى « السنة الفظيعة » (كما يسميها الفرنسيون) وكانت السقوط والنكال اللذين حلا بألمانيا الآثمة . قال الرئيس ولسن « كان من الضرورى أن توطأ السبيل لأمن الديمقراطية فى العالم » . وكان هذا من وجهة نظر المسيو كلمنصو التى عبر عنها صراحة « ضربا من الكلام على طريقة يسوع المسيح » يلوح أمراً مضحكاً جداً فى نظر العدد العديد من أولئك الديبلوماسيين والسياسيين الأذكياء — وحاشاى أن أقول المتزنين —

الذين جعلوا سنة ١٩١٩ سنة ممتازة فى تاريخ انعدام الكفاية الإنسانية . (ولعلنا نذكر هنا كذلك ومضة أخرى وهاجة لذكاء « النمر » ونكاته اللاذعة . هو قوله إن الرئيس ولسن ونقاطه الأربعة عشر كان « أسوأ » من الله القادر على كل شيء إذ لم تكن لله الطيب Le bon Dieu إلا عشر وصايا فقط . . .)

قال كاينز (Keynes) ، كان المسيو كلمنصو يجلس هو والسنيور أورلندو فى المقاعد التى تتوسط نصف دائرة تتكون من أربعة أمام الموقدة . كان يرتدى بذلة فراك سوداء وقفازين رماديين من جلد الأروى لم يكن يخلعهما قط أثناء جلسات المؤتمر . وينبغى لنا أن نلحظ أنه كان — بين هؤلاء البناة الأربعة للعالم — الوحيد الذى يستطيع أن يفهم ويتكلم الإنجليزية والفرنسية كلتيهما .

وكانت أهداف المسيو كلمنصو بسيطة كما كانت من بعض أوجهها سهلة المتناول . فإنه كان يطالب بنقض كل ما أبرم فى تسوية ١٨٧١ . وكان يطلب معاقبة ألمانيا كأنما كانت شعباً آثماً إثماً فريداً فى نوعه ، وكأنما كانت فرنسا شهيداً مطهرا . وكان يريد أن يفسد من حال ألمانيا ويبث فيه من الدمار ما يقعدها بعد ذلك عن أن تقف قبالة فرنسا أبدا . وكان يريد أن يؤلم ألمانيا ويحقرها أكثر مما أولمت فرنسا وحقرت فى ١٨٧١ . ولم يكن يعنيه إذا كانت أوربا تنحطم إذا انحطمت ألمانيا . فإن ذهنه لم يتجاوز نهر الراين التجاوز الذى يجعله يدرك هذا المحتمل . ولقد قبل عصبة الأمم التى ارتآها الرئيس ولسن بوصفها مقترحا عظيما إذا كانت تضمن لفرنسا الأمنة مهما فعلت ، على أنه كان يفضل محالفة ترتبط بها الولايات المتحدة وانجلترة وفرنسا للمحافظة على فرنسا وتعضيدها وتمجيدها فى أى ظرف كان . كان يريد فرصاً أوسع وأشمل لاستغلال سوريا وشمال أفريقية وما إليها على يد بعض الجماعات المالية الباريسية .

كان يريد تعويضات يضمد بها جراح فرنسا ، وقروضاً وهبات وجزيات لفرنسا ومجداً وتوقيراً لفرنسا . ذلك أن فرنسا قد قاست ولا بد لفرنسا من أن تنال جزاءها الأوفى . وكانت البلجيك والروسيا وسربيا وبولندة وأرمينيا وبريطانيا وألمانيا والنمسا قد تعذبت كلها . كذلك تعذبت البشرية جمعاء ،

ولكن ماذا يهم ؟ إن ذلك لم يكن شأنا يعنيه . وإنْ هذه إلا كائنات تافهة (أو كالة عدد) فى دراما تلعب فيها فرنسا فى نظره دور النجمة البطلة . . . وبمثل هذه الروح حاول السنيور أورلندو فيما يلوح أن يتقصى صالح إيطاليا .

وأدخل المستر لويد جورج معه إلى « مجلس الأربعة » ، لباقة وتخبث الرجل الويلزى ، وتعقيد الرجل الأوربى ، وضرورة ملحة تقضى عليه بأن يحترم الأنانية القومية التى طبع عليها الأمبرياليون والرأسماليون البريطانيون الذين أعادوه إلى رياسة الوزارة . وإلى خفايا هذا المؤتمر السرى ذهب الرئيس ولسن يحمل بين جنبيه أنبل المقاصد من أجل ما وضعه للعالم من سياسة أمريكية اكتشفها حديثاً ، وأعنى بها نقاطه الأربع عشرة التى يكاد يطبعها طابع التسرع ، ومشروعاً عاماً أكثر منه خطة تفصيلية لإقامة « عصبة للأمم » .

« وقلما وجد رجل دولة من الطراز الأول أكثر عجزاً وقلة كفاية من الرئيس وسط النشاط الجم المتجلى فى قاعة المجلس »[1] . ومن ذلك الهمس فى الظلام ومن المنازعات التى دارت حول الموقدة فى ذلك المجلس ، وبعد غدوات وروحات لامجال لوصفها فى هذا المقام ، خرج الرئيس آخر الأمر ومعه نقاطه الأربعة عشرة ممزقة مشعثة بحال يبعث على الأسى ، وهو يحمل بين يديه طفلا عليلا هو عصبة الأمم ، التى ربما تموت والتى قد تعيش وتنمو — فما يستطيع إنسان أن يتنبأ لها بشىء . ولكنه استطاع على أقل تقدير أن ينقذ هذه . . . ! !

٣ — دستور عصبة الأمم

إن هذه القزمة الإنسانية الشوهاء الموضوعة فى قارورة حاضنة والتى ناط بها الناس الأمل فى أن تصبح آخر الأمر « إنسانا كاملا » يحكم الأرض ، هذه عصبة الأمم كما تجسدت فى ميثاق ٢٨ أبريل ١٩١٩ ، لم تكن البتة عصبة شعوب .

---

(١) نقلا عن كاينز (١٨٨٣ — ١٩٤٦) : وهو اقتصادى إنجليزى . كان ممثل وزارة المالية البريطانية فى مفاوضات الصلح ، واستقال احتجاجاً على الشروط المالية لمعاهدة فرساى . (المترجم)

بل كانت كما تبين العالم « عصبة دول وممتلكات مستقلة ومستعمرات » . وكان مشترطاً فى هذه كلها أن تكون ممن « تحكم نفسها بنفسها تماماً » . ولكن لم يوضع لهذه العبارة أى تعريف مطلقاً . ولم يكن هناك أى قيد يستبعد البلاد ذوات الانتخابات المقيدة ولا أى تدبير من شأنه أن يضمن قيام أى رقابة مباشرة لشعب أى دولة من الدول . وقد شخصت فيها الهند على افتراض أنها دولة « تحكم نفسها بنفسها تماماً » ! ولا ريب أن دولة استبدادية أوتوقراطية ما كانت إلا لتقبل فى عضويتها بوصف كونها ديمقراطية « تستمتع بكامل حكم نفسها بنفسها » ولها انتخابات وحقوق مدنية قاصرة على فرد واحد !! .. وكانت العصبة التى تألفت بمقتضى ميثاق ١٩١٩ فى الواقع عصبة « ممثلين » لوزارات الخارجية ، وهى لم تستطع حتى أن تحل محل السفارات فى عاصمة كل دولة .

ظهرت فيها الإمبراطورية البريطانية مرة بوصفها كلا موحداً ، ثم ظهرت الهند (! !) والدومنيون الأربع (أى الممتلكات المستقلة كندا واستراليا وجنوب أفريقيا ونيوزيلندة) بوصفها دولا منفصلة ذات سيادة . ثم حصلت إرلندة فيما بعد على مكان منفصل . ومن المحقق أن ممثل الهند لم يكن إلا شخصاً يعينه البريطانيون . فأما ممثلو الدومنيون فينبغي أن يكونوا من رجال السياسة فيها . ولكن إذا كانت الإمبراطورية البريطانية تنشرح على هذا النحو ، وجب أن يُتبدل بممثل الإمبراطورية من يمثل بربطانيا العظمى ، وكان لابد من أن تعطى مصر أيضاً حق العضوية . زد على ذلك أن كلا من ولايتى نيويورك وفرجينيا كانت من الناحية التاريخية والقانونية دويلة ذات سيادة مثل نيوزيلندة وكندا سواء بسواء . وترتب على إدخال الهند مطالبات منطقية بدخول أفريقيا الفرنسية وآسيا الفرنسية . بل إن أحد المندوبين الفرنسيين قد اقترح بالفعل منح صوت لإمارة موناكو الصغيرة .

وكان مقرراً أن تلتئم للعصبة جمعية تمثل فيها كل دولة عضو وتكون أصواتها سواسية ، ولكن الإدارة القائمة بالعمل فى العصبة كانت على أن تتحول إلى مجلس يضم مندوبى الولايات المتحدة وبريطانيا وفرنسا وإيطاليا واليابان ومعهم

أربعة أعضاء آخرين تنتخبهم الجمعية . ويجتمع المجلس مرة فى كل عام ؛ وتكون اجتماعات الجمعية على « فترات مسماة » ولكن لم تتم تلك الفترات .

وفيما عدا حالات نوعية خاصة لم تكن قرارات عصبة هذا الميثاق تصدر إلا بإجماع الآراء . فإن ندّ فرد واحد ولم يوافق فى المجلس تعطل أى مقترح — وهو وضع يجرى على نظام النقض المطلق (Liberum veto) البولندى القديم . وهو شرط أنزل أفدح الضرر بكيان العصبة . فإنه جعل الكثيرين من المفكرين يرغبون فى عدم وجود العصبة أكثر مما يرغبون فى عصبة الميثاق هذه . إذ أنه ينطوى على اعتراف تام بما للدول من سيادة لا يمكن التنازل عنها ، كما أنه رفض لفكرة قيام « دولة تحررية مشتركة » (Commonweal) تظلل البشرية جمعاء . والواقع العملى أن هذا الشرط كان يسد الطريق على كل إصلاح لدستور العصبة فى المستقبل إلا باللجوء إلى طريقة مرذولة هى أن ينسحب من العصبة فى وقت واحد غالبية الأعضاء الراغبين فى التغيير ، ليعيدوا تكوين العصبة على أسس جديدة . وقد جعل الميثاق إيجاد مثل هذه التسوية النهائية للعصبة التى أنشأ أمراً لامندوحة منه . ولعل هذا خير ما فيه .

وقد اقتُرح آن تستبعد من العصبة الأصلية الدول الآتية : وهى ألمانيا والنمسا والروسيا وكل ما عسى أن يتبقى من الإمبراطورية العثمانية . على أن فى الإمكان أن تدخل أى واحدة من هذه الدول فيما بعد بموافقة ثلثى أعضاء الجمعية . وكانت العضوية الأصلية فى العصبة كما يحددها مشروع الميثاق مقصورة على : الولايات المتحدة الأمريكية وبلچيكا وبوليفيا والبرازيل والإمبراطورية البريطانية (كندا واستراليا وجنوب أفريقيا ونيوزيلندة والهند) ، والصين وكوبا وإكوادور وفرنسا واليونان وجواتيمالا وهايتى والحجاز وهندوراس وإيطاليا واليابان وليبريا ونيكاراجوا وپنما وپيرو وپولندا والبرتغال ورومانيا ودولة السرب والكروات والسلوڤان وسيام تشيكوسلوڤاكيا وأوروجواى . ويضم إليها بتوجية الدعوة الدول الآتية التى لزمت الحياد أثناء الحرب ، وهى : جمهورية الأرچنتين وشيلى وكولومبيا والدانمارك وهولندة والنرويج وباراجواى وإيران وسلڤادور وأسبانيا والسويد وسويسرا وڤنزويلا .

وما دام ذلك هو دستور العصبة ، فلن يكون هناك مجال للعجب من أن سلطاتها كانت خاصة ومحدودة . وجُعل مقرها مدينة چنيف وجُعلت لها سكرتارية . ولم يكن لها أى قوة حتى فى التفتيش على الاستعدادات الحربية التى ينشئها أعضاؤها المؤسسون ، ولا أن تعطى التعليمات إلى هيئة عسكرية وبحرية لوضع خطة التعاون المسلح اللازم لحفظ السلام فى العالم .

وقد أصر المندوب الفرنسى فى قوميسيون عصبة الأمم وهو المسيو ليون بورچواه فى جلاء وتكرار على الضرورة المنطقية لوجود مثل هذه السلطات والقوى فى يدها . على أنه كان كخطيب مسهباً مفيضاً وينقصه شىء من « حرافة » المسيو كلمنصو وإليك وصفاً محكماً للمنظر الختامى لجلسة ٢٨ أبريل الكاملة التى سبقت تبنى الميثاق كما دبجه المستر ولسن هاريس . كانت قاعة الولائم المزدحمة فى الكاى دورساى[1] بما فيها من صفوف المناضد للمندوبين وما فيها من سكرتارين وموظفين مصطفين بجوار الجدران وكتلة متراصة من الصحفيين فى الطرف الأدنى من القاعة . — « وجلس الأقطاب الثلاثة فى صدر القاعة يُسكّتون أنفسهم على حساب المسيو ليون بورچواه المحترم وقد أخذ — بمساعدة أكداس من المذكرات لا بد أنها كانت تبدو غير ضرورية بتاتاً ، يلقى لخامس مرة خطابه الذى يناصر به تعديلاته الشهيرة » .

ولقد أكثروا من « تسلية أنفسهم بالتهامس » وأعنى بهم هؤلاء الثلاثة الذين كان من سخرية الأقدار أن ألقت بين أيديهم مقاليد أعظم فرصة أتاحها التاريخ . ويعطينا كاينز أمثلة أخرى مما بدر فى هذه الجلسات من صنوف الطيش والطابع السوقى وعدم مراعاة الشعور وقلة الالتفات وانعدام الكفايات .

وعاد هذا الميثاق المسكين الذى وصلوا إليه على هذه الشاكلة إلى أمريكا بصحبة الرئيس ولسن ، وهناك لقى كل معارضة من الحزب الجمهورى المستاء وكل خصومة من الرجال الذين أهمل شأنهم فى الرحلة إلى أوربا . وأبى مجلس الشيوخ أن يصادق على الميثاق ، وعلى ذلك فقد عقد أول اجتماع للعصبة من غير حضور ممثلى أمريكا .

---

(١) الكاى دورساى (Quai d'orsay) : هو مقر وزارة الخارجية الفرنسية . (المترجم)

وشهدت خاتمة ١٩١٩ وبداية ١٩٢٠ تغيراً عجيباً جداً فى الشعور الأمريكى بعد التحمس للانجليز والفرنسيين إبان الحرب . ذلك بأن مفاوضات الصلح ذكرت الأمريكيين بطريقة مضطربة ومثيرة ، بما يفرق بينهم وبين الدول الأوربية من الفوارق العميقة فى وجهة النظر الدولية ، وهى الفوارق التى ساعدت الحرب على نسيانهم إياها ردحاً من الزمان . إذ أحسوا أنهم « دفعوا دفعاً عاجلاً » إلى أمور كثيرة دون ما يكفى من التروى وإعمال الفكر . ومر بهم تحول عنيف نحو سياسة العزلة التى تحطمت فى ١٩١٧ . وشهدت خاتمة ١٩١٩ دوراً ؛ دوراً واضح الدلالة مفهوماً تماماً — من أدوار « التقوقع الأمريكى والتمسك بالعزلة » حاداً قاسياً يكاد يبلغ العنف ، دوراً كانت فيه الاشتراكية الأوربية (والاستعمار) الأوربى بمنزلة سواء من التسخط واللعنة . وربما كان هناك عنصر من الخسة فى ميل أمريكا إلى « قطع » حبال التبعات الأدبية التى أثارتها الولايات المتحدة فى شئون العالم القديم ، وفى الحصول على المزايا الماثلة المالية والسياسية التى خولتها الحرب العالم الجديد . على أنه يلوح أن سليقة الأمريكيين كانت فى مجملها سليمة صحيحة فى عدم ثقتهم بالتسوية المقترحة .

٤ — معاهدات ١٩١٩ — ١٩٢٠

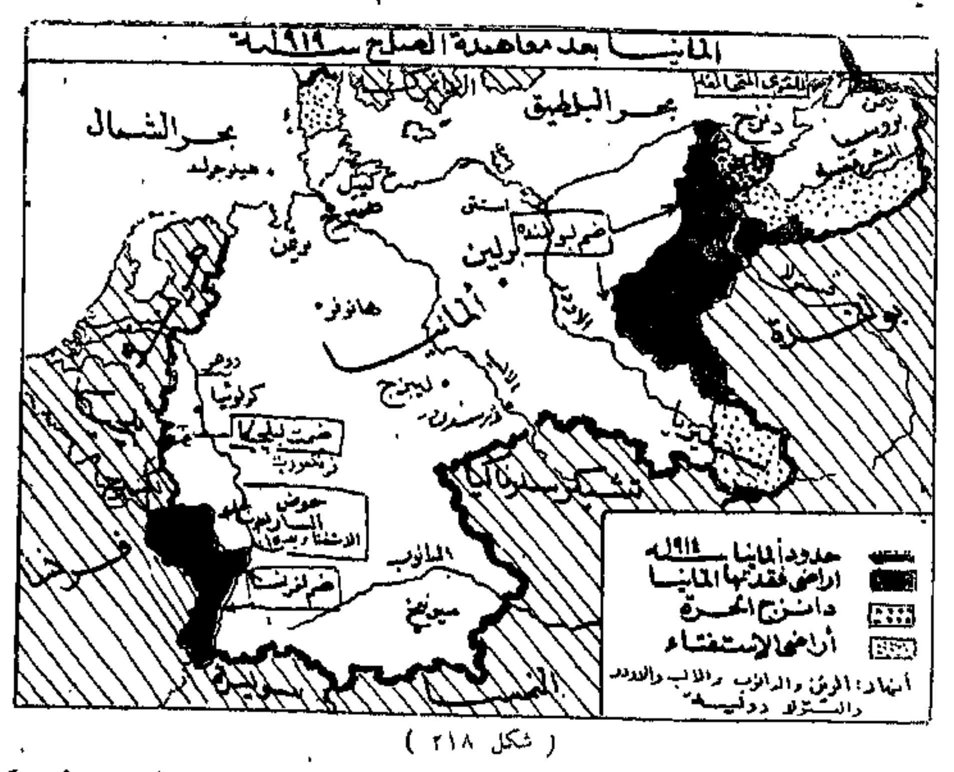
تجسدت قرارات فرساى فى مجموعة من المعاهدات . وإنا لنقدم إليك ها هنا أولا خريطة تمثل التقسيمات الأرضية التى أوجدتها معاهدة الصلح مع ألمانيا . ويعطيك قلم المستر هورابين الناطق الواضح ، الحقائق الضرورية بشكل أوضح مما يستطيع أن يبلغه أى شرح . زد على ذلك أن التسوية اشترطت تجريد ألمانيا من السلاح تجريداً تاماً ، وأنها يجب أن تسلم أسطولها وأن تدفع تعويضات حربية عظيمة ، وأن تدفع مبالغ طائلة لإصلاح ما دمرته الحرب . وانتدبت لجنة متحالفة للاشراف على عملية نزع السلاح . وكان مقرراً أن يسلم الأسطول للبريطانيين فى ٢١ يونية ١٩١٩ ، ولكن الضباط والنوتية لم يطيقوا تلك الفعلة ، وبدلا من أن يسلموه أفلتوا به وأغرقوا سفنهم عند سكاپا فلو[1] (Scapa Flow) على مرأى من البريطانيين.

---

(١) سكاپافلو : متسع مائى يقع جنوب جزر أوركنى باسكتلندة . (المترجم)

ومُزِّقت إمبراطورية النمسا والمجر تمزيقاً تاماً . وبقى من ورائها دويلة صغيرة هى النمسا التى تعهدت بعدم الانضمام إلى ألمانيا . ودويلة أخرى مشذبة مقطعة الأوصال هى المجر ؛ وامتدت رومانيا امتداداً بالغاً وراء تخومها الشرعية حتى سويداء ترنسلفانيا . ومنحت بولندة معظم غاليسيا ، وعادت بوهيميا إلى الظهور بعد إضافة سلوفاكيا ومورافيا فظهرت تحت اسم تشيكوسلوفاكيا . وأصبح الصربيون والكرواتيون وسكان الجبل الأسود (مع معارضة ضعيفة من الأخيرين) دولة يوجوسلافية جديدة ، وابتدأ بينها وبين إيطاليا للفور نزاع عنيف على مرفأ فيومى ، الذى ادعى الإيطاليون ملكيته دون أى وجه حق .

وبقيت بلغاريا على قيد الحياة بعد أن تنازلت لليونان عن الأراضى التى استولت عليها حديثاً فى تراقيا . فأما بلاد اليونان فإنها بالرغم من خيانتها لحملة غاليبولى ، ظلت



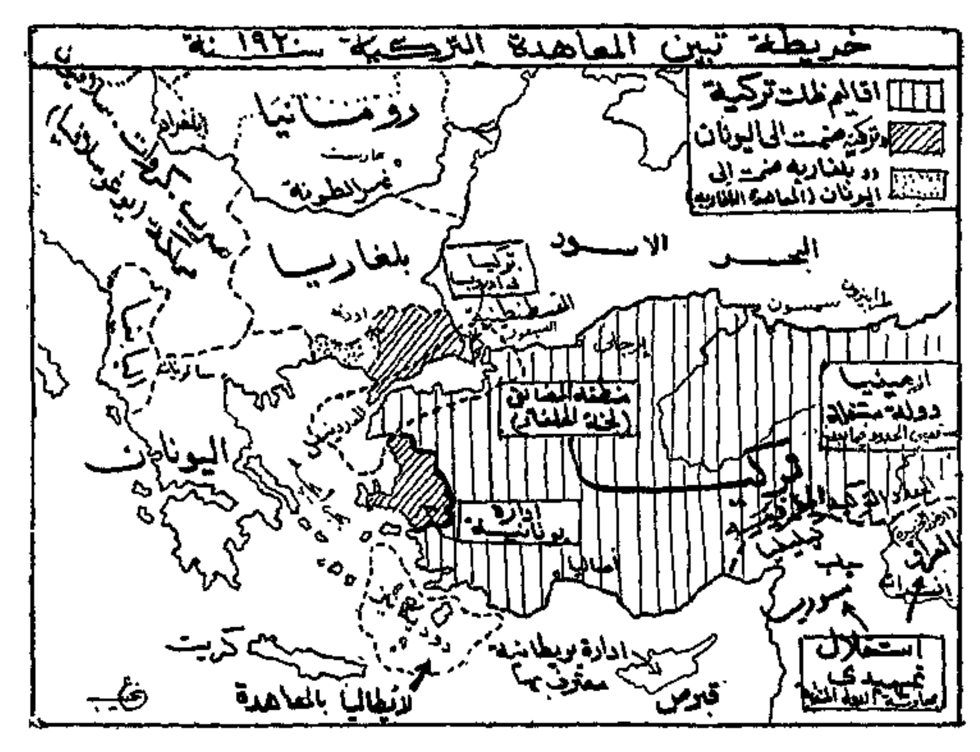
(شكل ٢١٨)

ردحاً من الزمان الطفل الذى يدلله الديبلوماسيون فى ڤرساى . فأعطيت أرضاً مأخوذة من بلغاريا وسمح لها بأن تتقدم حتى تصبح على قيد خطوة من القسطنطينية ،

وكان من نصيبها أيضاً قطعة كبيرة من الأرض حول مدينة أزمير . ومع هذا فإنها لم تسترد رودس وجزر الدوديكانيز ، بالرغم من أنها يونانية صميمة . إذ كانت هذه على أن تكون جزءاً من السلب الإيطالى . وتمسك البريطانيون بقبرص .

وكانت المعاهدة التركية عسيرة الإنشاء مستحيلة التنفيذ . وقعت عليها حكومة تركية اسمية فى القسطنطينية ، ولكن حكومة تركية حقيقية أخرى تكونت فى أنقرة ورفضت التوقيع عليها . وغزا جيش رومى منطقة أزمير ، وحلت معاهدة تركية هى معاهدة سيفر (أغسطس ١٩٢٠) محل المعاهدة الأولى . وجاءت فى أعقاب ذلك تنقلات معقدة فى الهيمنة على الأراضى . وأقيم فى القسطنطينية رقابة مشتركة للحلفاء (يناير ١٩٢١) ، وتبخرت حكومة القسطنطينية التركية ، وأنشأت الحكومة التركية الأساسية فى أنقرة علاقات سياسية مع البلاشفة فى موسكو . وتواصل ازدياد عدوان اليونان ، بما كانوا يتلقونه فى الخفاء من صنوف التشجيع المبهم . وحاول اليونان فى فترة تضخم الأطماع هذه أن يستولوا على القسطنطينية . وشرعوا فى هجوم عظيم على أنقرة يرمون من ورائه إلى القضاء على الأتراك إلى الأبد . وتقدم هجومهم حتى اقترب من أنقرة ثم تزلزل وتداعى . ومنذ أغسطس ١٩٢٢ فما عقبها لم يكن منهم إلا التقهقر والفرار أمام الأترك . وفر مع الجيوش حشود مذعورة من السكان اليونانيين الأسيويين . ولم يبق لليونان شىء فى آسيا . فأخليت أزمير قبل نهاية سبتمبر ، وغادر آسيا ما يقارب المليون عداً من اللاجئين اليونان جنساً ولغة ولم يعودوا إليها بعد ذلك أبدا .

وحيوية الأتراك فى هذا الدور رائعة جديرة بالإعجاب . فإن التركى لم يكن يقوم فحسب بدفع اليونان المعتدين عليه إلى الخلف ، بل كان جرياً على تقاليده التى ورثها أمد العصور يذبح الأرمن ، كما كان يدفع بالفرنسيين خارج قيلقيا . ومن بين الآيات الكثيرة الدالة على اصطباغهم بالروح العصرية أن تخلص الأتراك من السلطان وأنشأوا حكومة جمهورية الطراز . وأظهروا الرغبة فى القتال فى منطقة المضايق واسترجعوا القسطنطينية . وواضح أنه كان من مصادر القوة لهم لا الضعف ، انقطاعهم تمام الانقطاع عن النزاع الطويل الأمد غير المجدى مع العرب . وفصلت سوريا وأرض الجزيرة فصلا تاما عن الحكم التركى . وجعلت فلسطين ولاية منفصلة

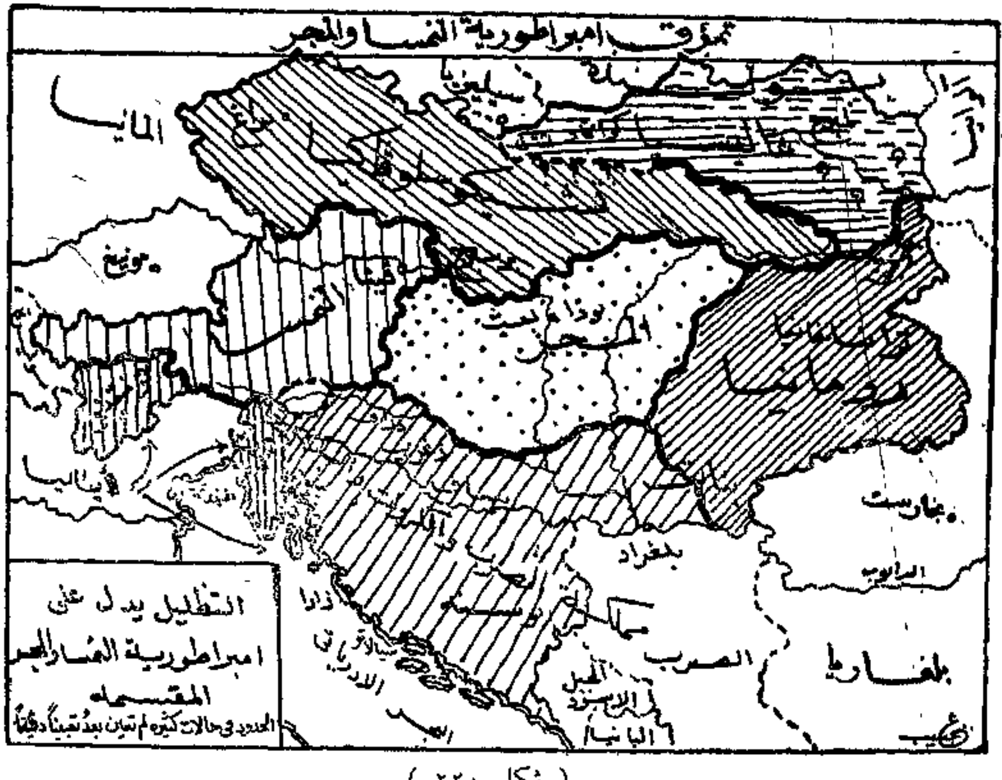


(شكل ٢١٩)

داخل الدائرة البريطانية ، وخصصت وطناً قومياً لليهود ، وانهال إلى داخل الأرض الموعودة فيض من فقراء اليهود ما عتم أن وقع فى كفاح خطير مع السكان العرب . وكان العرب قد تماسكوا ضد الأتراك وألهموا فكرة الوحدة القومية بفضل جهود عالم شاب من أكسفورد هو الكولونيل لورنس . فأما حلمه بقيام مملكة عربية تتخذ دمشق عاصمة لها فقد حطمه للفور تنافس الفرنسيين والإنجليز المسعور على مناطق الانتداب ، وانتهى الأمر بأن تقلصت مملكته العربية إلى مملكة الحجاز الصحراوية الجرداء ، وإلى إماميات وإمارات وسلطنات أخرى متنوعة ضعيفة . فلوحدث يوما ما أنهم توحدوا وأنهم كافحوا حتى بلغوا المدنية فلن يكون ذلك وظل الرعاية الغربية مبسوط عليهم .

وإذا راعينا تلك السمة الوقتية التى تتسم بها التسويات التى أنجزها الدبلوماسيون ، راعنا على الفور وهن ديبلوماسيتهم وأدركنا القوى القاهرة الجبارة التى قضت على

مناوراتهم وترتيباتهم ويروعنا أكثر وأكثر ما باءت به المثل القومية العليا الجديدة التى أدخلها الرئيس ولسن فى العلاقات الأوربية من قلة تأثير تدل على جهل الأوربيين



(شكل ٢٢٠)

المطبق . فإن هذه المعاهدات تركت نقاطه الأربعة عشر كصف من المنازل المخربة المهدمة فى قرية أصيبت بالقنابل . فذهب بعضها ذهاباً لا رجعة له ، وشوه البعض حتى لا يكاد الناس يميزونه . وضاعت أول محاولة لإنتاج قانون عالمى كما تضيع موجة من الضحك الصاخب فى إحدى الحانات .

ومن أهم العقبات الدائمة التى أدت إلى فشل ذلك المشروع العظيم الهادف لوحدة العالم — ذلك المشروع المعبر عن الرغبة العالمية فى إيجاد سلام منظم — ما أظهرته الامبراطورية البريطانية من نفور تام وكراهية مطلقة للخضوع لأى تمزيق لنظامها وأى تكييف له ولا لأية رقابة على تسليحها البحرى والجوى . والامبراطورية البريطانية كما هو معلوم ، عصبة أمم قديمة سبقت الوجود عصبة الميثاق تلك

وتكونت من أمم ودول محكومة ومناطق مستغلة . وثمة سبب يماثل هذا يرجع إليه هذا الفشل هو عدم استعداد الذهن الأمريكى هو أيضاً لقبول أى تدخل فى شأن سيادة الولايات المتحدة على العالم الجديد .

ولعل واحدة من هاتين الدولتين العظيمتين اللتين كانتا بالضرورة الدولتين المتسلطتين الزعيمتين فى باريس ، لم تفكر تفكيراً صحيحاً فيما ينطوى عليه قيام عصبة للأمم بالعلاقة إلى هذه التنظيمات القديمة ، ولذا فإن معظم النظارة الأوربيين كانوا يرون أن تعضيدهما لهذا المشروع يخالطه جو عجيب من النفاق السافر . فكأنما كانتا تريدان الاحتفاظ والتمكين لسيادتهما وأمنهما الخاصة الهائلة مع الحد فى نفس الوقت من تقدم أى دولة أخرى إلى ميدان مثل هاته التوسعات والاستلحاقات والمحالفات تقدماً ربما ترتب عليه قيام استعمار آخر منافس مناهض . وكان امتناعهما عن إقامة مثال من الثقة الدولية قاتلا لكل احتمال فى قيام الثقة الدولية فى الدول الأخرى الممثلة فى باريس . وأنكى من هذا وأتعس ، رفض الأمريكيين الموافقة على طلب اليابان الاعتراف بالتساوى العنصرى بين الأجناس .

زد على ذلك أنه كان يخيم على وزارات الخارجية البريطانية والفرنسية والإيطالية جو خانق من الخطط التقليدية القائمة على عدوان لا يتسق البتة مع الفكرات الجديدة . وكانت وجهة نظر الفرنسيين والإيطاليين متخلفة أشواطاً كثيرة عن وجهة نظر الإنجليز والأمريكيين أنفسهم من حيث حدة الأنانية القومية . وغنى عن البيان أن أية عصبة أمم يراد أن تكون لها أية قيمة للإنسانية لابد لها من أن تقتلع الاستعمار من أساسه وتحل محله ، فهى إما أن تكون دولة شاملة عليا أى إمبراطورية عالمية تحررية مكونة من دول (ولايات) متحدة ، تشترك بعضها مع بعض أو يتولى الوصاية[1] بعضها على البعض وإلا فهى لاشىء . على أنه قل بين الرجال الذين حضروا مؤتمر باريس من كان

---

(١) إن هذا الرأى موضع نقد كثير أثير على المؤلف ، إذ بأى حق وعلى أى أساس وبأية مؤهلات تتولى إحدى الدول الوصاية على أخرى ؟ لكأننا هدمنا الاستعمار غير الشرعى لبرثه بهذا الرأى استعمار شرعى . (المترجم)

له من قوة العقلية ما يهيئ له أن يعبر عن هذه العاقبة الواضحة المنبعثة عن مشروع إنشاء العصبة .

ذلك بأنهم أرادوا أن يكونوا مقيدين وأحراراً فى نفس الوقت ؛ وأن يضمنوا السلام إلى الأبد على أن يحتفظوا بأسلحتهم فى أيديهم . وبناءً على هذا فإن المشروعات القديمة التى كانت تستهدف ضم الأراضى فى أيام الدول العظمى قد سُترت فى عجلة بستار رقيق من الخداع بأن وصفت بأنها من التصرفات التى يقترحها ذلك الطفل العليل المولود فى ٢٨ أبريل . ومن ثم صُورت هذه العصبة الحديثة الميلاد الخامدة الأنفاس صورة من يوزع — بكل ما بيديه بابا مأسور من دلائل السخاء الأهوج — « الانتدابات » (Mandates) على الدول الاستعمارية القديمة ، إلى حد أنها لو كانت تمثلت هيئة هرقل الفتى الجبار الذى كنا نود لو اتخذت صورته حقاً — لمات فى مهاده اختناقاً . وتقرر أن تعطى بريطانيا « انتدابات » عظيمة فى أرض الجزيرة وأفريقيا الشرقية ، وأن تعطى فرنسا مثل ذلك فى سوريا . وأن تعطى إيطاليا كل ما بيدها فى غرب مصر وجنوبها الشرقى بعد أن يضم بعضه إلى بعض ليكون منطقة انتداب .

وواضح أنه لو كان ذلك العليل الضعيف الذى يمرضه سكرتيره فى مهده بجنيف ، آملا أن يدب فيه شىء يشبه دبيب الحياة ، قد قضى نحبه للفور بسبب ضعف الطفولة الذى يصيب كل مؤسسة تولد بلا حماسة ويقضى عليها ، لأصبحت كل هذه الانتدابات أراضى مضمومة لتلك الدول ضما صريحاً . زد على ذلك أن جميع الدول أخذت تتدافع فى المؤتمر بالظفر والناب طلبا لحدود ذات قيمة « استراتيجية » — وهذا لعمرى أقبح مظهر ظهروا به فلماذا تريد دولة من الدول الحصول على حدود استراتيجية ما لم تكن تضمر التفكير فى الحرب ؟ وعلى أساس هذه الحجة أصرت إيطاليا مثلا ، على ضرورة ضم منطقة التيرول الجنوبية وإن وجد بها سكان من الألمان الخاضعين للرعوية الإيطالية وعلى ضم دالماسيا وهى إقليم سكانه من اليوجسلافيين .

والأنكى من هذه التسويات الجغرافية السيئة والأشد خطورة على مر الزمان فرضهم على ألمانيا مبالغ « للتعويضات » تتجاوز كل قدراتها على الدفع ، مخالفين بذلك أسس التفاهم الصريحة التى سلمت بمقتضاها . فاضطرت إلى موقف من العبودية الاقتصادية وأبهظ كاهلها بديون تعويضية هائلة دورية مستحيلة التنفيذ ، ونزع منها السلاح وهو نقص كان يجعلها معرضة فعلياً لأى اعتداء من ناحية دائنيها ولكن لم تستبن تماما الإمكانيات الكاملة لهذه التسوية إلا بعد مرور سنة أو ما يزيد على السنة . ثم عجزت ألمانيا عن الدفع ، وفى يناير ١٩٢٣ تقدم الفرنسيون بجيوشهم إلى وادى الرور ، وظلوا فيه حتى أغسطس ١٩٢٥ ، وهم يستغلون المناجم بقدر ما يستطيعون ، ويديرون السكك الحديدية ، وينكأون[1] قروح الألمان المؤلمة بمئات لامحيص منها من صغار المظالم وأعمال العنف .

ولسنا بداخلين هنا فى أى تفصيل عن عواقب أخرى معينة لما طبعت عليه معاهدة فرساى من العجلة والاطمئنان فى التصرف — وكيف خضع الرئيس ولسن لليابانيين وأقر حلولهم محل الألمان فى كياوتشاو ، وهى من خالص أملاك الصين . وكيف أن مدينة دانزج الألمانية الصميمة تقريباً ، قد ألحقت ببولندة إلحاقاً عملياً إن لم يكن قانونياً . وكيف تنازعت الدول حول إدعاء الاستعماريين الإيطاليين ، ذلك الادعاء الذى قوته هذه التصرفات — فى الاستيلاء على مرفأ فيومى اليوغسلافى وحرمانهم اليوغسلافيين بذلك من ثغر جيد على البحر الادرياتى . واحتل المدينة متطوعة من الإيطاليين بقيادة الشاعر دانو نزيو ، وأقاموا فيها جمهورية من العصاة ، حتى ألحقت بإيطاليا نهائياً فى يناير ١٩٢١ .

كذلك لن نتجاوز حد النظرة السريعة إلى الترتيبات والتبريرات المعقدة التى وضعت وادى السار فى يد الفرنسيين ، وهو أرض ألمانية بحتة — ولا عن الاعتداء الصارخ على حق « تقرير المصير » الذى منع النمسا الألمانية — منعاً فعلياً من الاتحاد مع سائر ألمانيا مع أن اتحادها وإياها أمر طبيعى صائب لاغبار عليه .

---

(١) ورد بمعجم الوسيط ما نصه : « نكأ القرحة نكئاً قشرها قبل أن تبرأ فندِيت » . (المترجم)

٥ – البلشفية فى الروسيا

سبق أن لحظنا ثورتى الروسيا فى ١٩١٧ . وقد آن لنا أن نعالج بإسهاب أو فى ذلك التغير الخارق الذى غير اتجاه الأمور فى الروسيا فى ذلك الزمان . ولم يكن ذلك التغير إلا انهيار المدنية الغربية العصرية فى الروسيا . ولكن ما استولى على مقاليد الشعب الروسى كان أمراً يتجاوز كثيراً حدود تجربة اشتراكية . وكان له مظهر خداع ، يظهره كأنما هو امتحان قاطع ونهائى تبتلى به فكرة الاشتراكية الغربية بلاء عمليا . والواقع أن التجربة أظهرت بالفعل نفس نقائص النظرية الاشتراكية . كذلك أثبتت صحة المبدأ القائل بأن أية ثورة لا تستطيع أن تخلق من العدم شيئاً لم يناقش ولم تدبر خططه ، ولم يفكر الناس فيه مقدماً ولم يفسروه على أوفى وجه قبل شروعهم فيه وإلا لم يزد ما تعمله أية ثورة عن مجرد تحطيم حكومة أو أسرة مالكة أو منظمة من المنظمات – حسبما يكون الحال . فالثورة إن هى إلا عملية طرد واستبعاد للنفايات وليست عملية خلق .

وقد أدلينا إليك ببيان عن نمو الفكرات الاشتراكية فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر ، وأوضحنا الدور الكبير الذى لعتبه فى هذا التطور فكرات « حرب الطبقات » التى ارتآها كارل ماركس . وكانت هذه الفكرات تداهن الكبرياء وتثير الأطماع لدى الأشخاص المتذمرين الأشد همة فى كل مناطق العالم الصناعية . وأصبحت الماركسية فى كل مكان عقيدة العامل الصناعى القلق . ولكن لما لم يكن فى المبدأ الاشتراكى ما يروق الفلاح ، الذى يملك أو يريد أن يملك الأرض التى يزدرع ، ولما كانت المجتمعات الكبيرة فى مدن أوربا الغربية وأمريكا تتكون من الناحية العقلية من أفراد من الطبقة الوسطى أكثر منهم من الطبقة الصناعية ، فإنه سرعان ما أدركت الماركسية أن الثورة الاجتماعية والاقتصادية التى يدبرون لم تكن لتستطيع أن تنتظر الأساليب البرلمانية وأصوات الأغلبيات ، فلا بد لها قبل كل شىء من أن تكون ثمرة عمل أقلية ، أقلية من عمال الصناعة ، الذين يقبضون على زمام السلطة ، ويؤسسون نُظما شيوعية ، وبذا يدربون بقية العالم على سعادة

العصر الذهبي[1] ، التي تعقب ذلك . وهذا الدور من حكم الأقلية المرجو منه أن ينتج العصر الذهبي المنتظر كان يسمى فى مصطلح الماركسيين باسم « دكتاتورية البروليتارية » .

فإن رجالا من المتعصبين كانوا فى كل مكان ، وبنشاط الداعية المتعصب ، يفنون حياتهم وطاقاتهم فى بث تلك الفكرة لا يبتغون على ذلك أجراً . وربما كان هناك فى العشرات الأولى من سنى القرن العشرين ما يقارب المليون عداً من الرجال المقتنعين بأنه إن تم الأمر لهذه « الدكتاتورية البروليتارية » التى يفكرون فيها تفكيراً مبهماً غير واضح ، لأعقب ذلك نظاماً اجتماعياً جديداً أحسن من سابقه يكاد ظهوره يتم تلقائياً بطريقة أوتوماتيكية . وقد سبق أن أظهرنا لك أثناء مناقشتنا للاشتراكية كم كانت هذه الفكرة خيالية خداعه .

ولم يكن لدى الماركسيين أى خطط واضحة مستقرة لا عن طريقة دفع أجر العامل ولا عن المناقشة العلنية ولا عن كيفية الإدارة الاقتصادية — يوم يتم تحطيم « الرأسمالية » . وقد دبر نظام الرأسمالية الفردية من الناحية الأخرى حلولا لكل هذه الأشياء على طريقة كانت ولا شك غير عادلة وتقوم على التجارب الشخصية دون الأسس العلمية ، ولكنها كانت مع هذا طريقة عملية . وذلك على حين لم ينتج الماركسيون أبداً أى بديل لهذه الطريقة ، التى تدار بها تلك المسائل ، ولم يبد عليهم أنهم أدركوا أن الناس بحاجة إلى طريقة جديدة بدل الأولى . والواقع أنهم قالوا للعمال : « سلمونا السلطة ، يتم كل شيء » ، وغلب اليأس على الروسيا فاستسلمت إلى « دكتاتوية البروليتارية » ، بعد أن علها ويبدد مواردها وتخلى عنها الحلفاء الذين خدمتهم بغاية الإخلاص .

وقد تفاوت عدد أعضاء الحزب الشيوعى فى الروسيا ؛ فإنه لم يدع حتى زمن قريب جداً أن له أكثر من ٨٠٠٫٠٠٠ نصير ، بل لقد كانوا فى الزمان

---

(١) العصر الذهبى : يشير المؤلف إلى الألف السنة المذكورة فى بعض أسفار الكتاب المقدس التى يعتقد أصحاب مذهب الألف عام السعيد أن المسيح سوف يحكم الأرض فيها ومعه رسله . (المترجم)

الذى نتكلم الآن عنه يقلون فيما يرجح عن ربع مليون . ولكن هذه الهيئة الصغيرة نسبياً ، استطاعت بما لها من عزم وإصرار وإخلاص ، ولأنه لم يكن هناك شيء غيرها يتصف بالعزم والإخلاص أو يتسم بالقدر الكافى من الاقتدار فى كل تلك البلاد غير المنتظمة ويستطيع أن يقف فى وجهها ، استطاعت أن ترسى أسسها فى بطرسبرج وموسكو ومعظم مدن الروسيا ، وأن تضم إلى صفها نوتية الأسطول (الذين قتلوا معظم ضباطهم واحتلوا قلاع سفاستبول وكرونستاد) ، وأن تصبح الحاكم الفعلى للروسيا .

ونشأ ثمة دور من حكم الإرهاب . إذ يدعى البلاشفة أنه لم تكن لهم مندوحة من أن يحكموا البلاد بادئ بدء بالرعب والإرهاب . إذ كان انحلال النظام الاجتماعى فى البلاد بالغاً منتهاه . فإن الفلاحين قد ثاروا فى مناطق كبيرة ضد أصحاب الأراضى ، وقام بعض الناس بتقسيم المزارع الكبيرة . واطّرد حرق القصور على شاكلة ما حدث فى الثورة الفرنسية الأولى . واقترف الكثير من الفظائع البشعة . واستولى الفلاحون على الأراضى وقسموها بين أنفسهم ، وذلك لجهلهم التام بتعاليم كارل ماركس فى هذا الصدد . وفى نفس الوقت أخذ مئات الألوف من الجنود يضربون فى الأرض عائدين من منطقة الحرب إلى قراهم وأسلحتهم فى أيديهم . وكانت حكومة القيصر قد جندت عددا بلغ الثمانية الملايين — وهو عدد يفوق بكثير عدد من كانت تستطيع أن تسلحه من الرجال أو تستخدمه فى جبهة القتال — وكانت اقتلعتهم من قراهم اقتلاع النبات من جذوره ، وأضحت جماهير عظيمة من هؤلاء المجندين قطاعاً حقيقيين للطرق على حساب المناطق الريفية . وقد غصت موسكو فى أكتوبر ونوفبر من ١٩١٧ بمثل هؤلاء الرجال . فكونوا من أنفسهم عصابات ، وأخذوا يطرقون المنازل ينهبونها ويعتدون على الأعراض فيها فلا يعترض أحد سبيلهم . وتلاشى القانون والنظام وأداة الحكم من الوجود . وكان الرجال المسروقون والمقتولون يرقدون لتّى مهملا فى الشوارع أياماً متتالية .

تلك هى الحال يوم تقلد البلاشفة مقاليد الحكم وهو أمر لا بد لنا من تذكره . ولم يكن هذا الحال ناشئاً عن اغتصابهم للسلطان . ولقد قضوا زماناً يحاولون إعادة النظام . وكان كل من يضبط حاملا سلاحا يقتل رمياً بالرصاص . فقبض على آلاف

وأعدموا ، ومن المشكوك فيه أنه كان فى الإمكان إعادة أى قدر من النظام فى موسكو دون الالتجاء إلى مثل هذا الإجراء . وقد بلغ من تفكك عرى الروسيا القيصرية أنه تقوض صرح النظام العام فى البلاد وأن فقد الناس ما ألفوه فى ظله من عادات . «كانوا مضطرين أن يقتلوا الناس بالرصاص» ، وذلك ما قاله الرئيس مازاريك مرة لكاتب هذا الكتاب ثم أردف ذلك بقوله : «ثم تواصل القتل بقساوة وبغير تعقل» .

وفى ربيع ١٩١٨ كانت قبضة البلاشفة تمكنت من المدن الكبرى ومن السكك الحديدية والسفن فى معظم الروسيا . وتكونت جمعية تأسيسية ولكنها ما لبثت أن حُلت وشتت أعضاؤها فى يناير ، ذلك أن البلاشفة لم يستطيعوا العمل معها . إذ كان فرط التفرق – فيما زعموا – رائدها فى مرامبها ومشوراتها بحيث يعوق كل عمل قوى . وفى مارس أبرموا مع ألمانيا فى برست ليتوفسك صلحاً اتسم بالخضوع والذلة .

وكان على رأس الديكتاتورية البلشفية التى نصبت نفسها لحكم الروسيا آنذاك لينين ، وهو رجل عالى الهمة موفور النشاط متوقد الذكاء قضى معظم حياته منفياً فى لندن وجنيف ، مشتغلا بالنظريات السياسية وبالسياسة الغامضة الخفية للتنظيمات الماركسية الروسية . كان رجلا ثورياً شريفاً من أصحاب المبادئ النظرية البحتة ؛ يعيش عيش البساطة ولا يكلّ مهما عمل ، ولم تكن لديه أى خبرة بالإدارة العملية للشئون . وكان يشترك معه فى العمل تروتسكى وهو شخص مبعد عن نيويورك ، قدر له أن يظهر للفور اقتداراً عسكرياً عملياً جسيما . وكان راديك ولوناخارسكى وزينوڤييف وزورين وكامينييف وكراسين بين الأعضاء المبرزين فى الفئة القليلة التى نصبت نفسها آنذاك لإعادة تنظيم الروسيا وإنهاضها من الكبوة الكارثة التى أوقعتها الحرب فيها حتى وفقوا فى النهاية إلى إعادة وحدتها الاجتماعية .

وفى بادئ الأمر كانت أطماع زعماء البلاشفة تتجاوز الروسيا كثيراً . إذ ليس العمل فى الروسيا وحدها على درجة من الضخامة تستغرق نشاطهم . فأعلنوا الثورة الاجتماعية فى أرجاء العالم قاطبة ، وأهابوا بالعمال فى كل مكان أن يتحدوا ، وأن

يقلبوا نظام الرأسمالية ، وبذلك يجلبون عصر الماركسية الذهبي ، الذى لا شكل منتظماً له ولا خطة مرسومة . وطبيعي أن يقذف بهم هذا الإجراء إلى معمعان الصراع مع كل الحكومات القائمة . فأضاف إلى عبء إقرارهم الشيوعية فى الروسيا عبئاً جديداً هو المحافظة عليها ضد سلسلة من الهجمات المضادة التى تعرضت لها من جراء تشهيرها ذاك بالحكومات الأجنبية .

ولم تمض سنتان أو ثلاثة حتى تجلى فشل الروسيين فيما حاولوا أن يقيموا من شيوعية عامرة مثمرة ، كما تجلى على أيديهم فى تلك السنين عقم المبادىء الماركسية وتجردها من كل خلق وابتكار عقماً تاماً بالغاً . لم يستطيعوا أن ينهضوا الروسيا على قدميها ثانية . ولقد عجزوا تمام العجز عن أن يعيدوا دولاب الصناعة الروسية المحطمة سيرته من الدوران . وكان معظم زعمائهم من الطراز الذى يحسن فقط أن يكتب ويتكلم ، دون أن تكون له أية خبرة فى إدارة الأعمال وتنظيمها .

ولقد حملهم كرههم الأعمى للطبقات الأخرى فى مبتدأ حكمهم أن يقضوا على معظم من كان باقياً فى الروسيا من أفراد طبقة مديرى المصانع والخبراء الفنيين ورؤساء العمال ومن إليهم . ولم يكن لديهم أية معرفة منظمة ، كما دفعهم غرورهم كأصحاب المبادىء الماركسية النظرية البحتة ، إلى احتقار كل معرفة يجهلونها : — عن سيكولوچية العامل فى عمله . بل لم يكن بين أيديهم تلك المعرفة العملية التى تهيأت للرأسمالى القديم الذى يحتقرون . وكل ما كانوا يعرفونه فى ذلك الشأن هو سيكولوچية العامل أثناء الاجتماعات الحافلة . فحاولوا أن يسيروا بالروسيا بطريق الحث والتحضيض ، ولكن لم يستجب لهم لا العامل عندما عاد إلى مصنعه ولا الفلاح يوم رجع إلى محراثه . وأخذ النقل والإنتاج الميكانيكى فى المدن يهبطان باطراد حتى تزعزعت أركانهما وهوى بنيانهما ، وشرع الفلاح ينتج لنفسه ما يكفيه ويخفى ما زاد عن حاجته .

وعندما زار كاتب هذه السطور بطرسبرج فى ١٩٢٠ شهد منظراً مروّعاً من الدمار . كانت تلك هى أول مرة تنهار فيها مدينة عصرية على هذا النحو . فإن شيئاً واحداً لم تمتد إليه يد الإصلاح فى مدى أربع سنوات . وكانت هناك حفر عظيمة فى الشوارع التى سقط سطحها فى المجارى المنهدمة من دونه ، وكانت أعمدة المصابيح

ملقاة حيث سقطت ، ولم تكن فى المدينة دكانة واحدة مفتوحة ؛ وكان معظمها مقفلا بألواح خشبية تظهر نوافذها (فترينانها) المكسورة . وكان المارة فى الطريق على قلتهم يرتدون ثياباً رثة غير متجانسة ، إذ لم تكن هناك فى الروسيا ثياب جديدة ولا أحذية جديدة . وكان كثير من الناس يرتدون لفائف من الليف حول أقدامهم . وكان الناس والمدينة وكل شىء رثا بالياً . بل إن (القوميسيرين)[1] البلاشفة أنفسهم كانوا يسيرون بذقون خشنة إذ لم تكن المواسى تصنع فى البلاد ولا تستورد من الخارج . وكانت نسبة الوفيات هائلة ، وكان عدد سكان هذه المدينة التى جرى عليها القدر المحتوم يتناقص بمئات الآلاف كل عام .

وهناك أسباب كثيرة تدعو إلى الاعتقاد بأنه حتى فى ١٩١٨ ، ١٩١٩ كانت الدكتاتورية البلشفية تدرك أخطاء طرائقها وأن تشرع فى تكييف نفسها طوعاً للعوامل غير المنتظرة فى الموقف الذى وجدت فيه نفسها . أجل إنهم كانوا ضيقى العطن محدودى الأفق مستمسكين بحرفية المبادىء ، على أن الكثيرين منهم كانوا رجالا ذوى خيال فسيح ومرونة ذهنية ، ولا سبيل إلى المشاحة فى أنهم كانوا فى كل ما أتوا من شر ، شرفاء فى مقاصدهم متوفرين بإخلاص على منهجهم . وكان جلياً أنهم يقومون بتجربة ذات قيمة عظيمة للانسانية ، وكان ينبغى أن يتركوا وشأنهم . فلو حدث ذلك لاضطروا أن يصلوا ما بين نظامهم وبين تقاليد النظام النقدى البطيئة التطور ، ولوصلوا إلى التعامل مع الروح الفردية المستعصى علاجها روح الفلاح الزارع . ولكنهم لم يتركوا وأنفسهم . لأنهم أثاروا منذ مبتدأ حياتهم معارضة جنونية من ناحية أوربا الغربية وأمريكا . ولم يبد أحد نحو المغامرين الماركسيين شيئا من ذلك التسمح الذى لقيته حكومة القيصر التى تعادلهم تماما فى عدم الكفاية وجر الكوارث على البلاد . فقاطعتهم الدول مقاطعة شاملة ، وكانت الحكومات الرجعية فى فرنسا وبريطانيا العظمى تمول وتساعد كل مغامر داخل الروسيا وخارجها وتشجعه على مهاجمتهم .

---

(١) القوميسيرين : هم مندوبو الشعب الروسى الذين يتولون الوظائف فى الحكومة السوفيتية . (المترجم)

وشرعت حملة صحفية تبلبل أفكار الجماهير بسلسلة من الترهات الخيالية السخيفة والآراء المرجفة عن البلاشفة . نعم إنهم كانوا رجالا عديمى الكفاية مستمسكين بحرفية المبادئ وناحيتها النظرية البحتة ولهم نظرية اجتماعية واقتصادية ناقصة سيئة ، وهم يخوضون فى الأحوال وسط بلاد متهدمة . وكان بين أتباعهم رجال أدنى إلى الوحشية وسوء السريرة . وإن أية حكومة فى الروسيا ما كانت لتجد فى إدارتها للأعمال الحكومية إلا مادة هزيلة وتحس فى نفسها ضعف يدها عن الهيمنة عليها . ولكن الدعاية المضادة للبلشفية كانت تمثل مغامرى موسكو فى صورة شىء بشع لا ضريب له فى تاريخ العالم ، وتلوّح بأن مجرد إزالة كابوسهم يكفى لإعادة السعادة والرجاء إلى الروسيا . وكان الدعاة يقومون بين الناس ضد البلاشفة بما يشبه الحملة الصليبية ، ولكن تكوّن لمصلحتهم رد فعل مشرق فى أذهان المفكرين المتحررين الذين ربما كانوا لولا هذا الحال يظلون أميل إلى جانب التروى فى الحكم .

ونتيجة لهذه العداوة المنظمة ، اضطر البلاشفة فى الروسيا منذ البداية نفسها إلى التزام وضع دفاعى يحميهم من العدوان الأجنبى . وعادت عليهم العداوة الملحاحة التى كانت تبديها نحوهم الحكومات الغربية بأعظم القوة فى داخل الروسيا . وبالرغم من نظريات الماركسيين الدولية ، فإن الحكومة البلشفية فى موسكو أصبحت حكومة وطنية تدفع عن نفسها عدوان الأجانب ، وتدافع بوجه خاص عن الفلاحين ضد عودة ملاك الأراضى وجباة الديون . كان ذلك موقفاً فيه كثير من التناقض والشذوذ . فقد أنتجت الشيوعية فى الروسيا ملاكاً من الفلاحين . وكان تروتسكى بطبعه رجلا مسالماً ، ولكنه تمرس بفن الحرب حتى أصبح جنرالا عظيما بالرغم منه .

على أن هذه الروح العسكرية وهذه الوطنية التى فرضت هكذا قسراً على حكومة لينين ، وهذا الانتباه الكلى المركز على التخوم ، كان يحول دون إعادة تكوين البوليس والقوى النظامية التأديبية فى الداخل إعادة فعالة ، حتى ولو كان البلاشفة قادرين على مثل هذ الإعادة . والواقع أن الحكومة الجديدة عاودت عمليا استخدام البوليس القيصرى القديم بكل ما فيه من جور وطرائق محاكم التفتيش . وتقلدت هيئة قبيحة

مختلة من البوليس السرى زمام سلطات تنفيذية عرفية ، واتخذت لنفسها تقاليد من سفك الدماء ثم أخذت تكافح الجواسيس الأجانب الواردين من الخارج وتناهض الإغراء والخوف والخيانة فى الداخل ، وتشبع تبعا لذلك تلهفها القبيح إلى إنزال العقوبة بالناس . وفى يوليو ١٩١٨ أعدم القيصر وعائلته بأمر من موظف صغير حين علم بظهور بوادر تدل على أن قوة رجعية من الجنود يحتمل أن تنقذهم . وفى يناير ١٩١٩ أعدمت حكمدارية البوليس أربعة من الغراندوقين هم أعمام القيصر بمدينة بطرسبرج فى تحد صريح لما قرره لينين من إرجاء التنفيذ .

وظل الشعب الروسى زهاء خمس سنوات قضاها فى ظلال هذا الحكم الغريب الذى ليس له من مثيل ، وهو محتفظ بتماسكه مقاوم كل محاولة لتمزيق وحدته وإخضاعه . وفى أغسطس ١٩١٨ نزلت إلى البر فى أركانجل قوات بريطانية وفرنسية ؛ ثم سحبت فى سبتمبر ١٩١٩ . وبذل اليابانيون جهوداً جبارة منذ ١٩١٨ فما تلاها ليقروا أنفسهم فى سيبريا الشرقية . وفى ١٩١٩ لم يكن الروس يحاربون البريطانيون فقط فى أركانجل واليابانيين فى سيبريا ، بل كانت ضدهم أيضاً قوة رجعية فى سيبريا بقيادة الأميرال كولتشاك ، كما كان يهاجمهم كذلك الرومانيون فى الجنوب ومعهم مجندون فرنسيون ويونان ، ويقاتلهم فى بلاد القرم الجنرال دينيكين ومعه جيش من الرجعيين الروس مزود بكميات هائلة من المهمات الحربية والذخائر ما بين بريطانية وفرنسية ويعاونه الأسطول الفرنسى .

وفى يوليه كان كولتشاك ودينيكين قد اتحدا وأصبح فى يديهما جنوب الروسيا الشرقى من أودسا إلى يوفا ، وكذلك أخذ جيش أوستونى بقيادة الجنرال يودنيتش يتقدم نحو بطرسبرج . وكأنما لم تكن خاتمة البلشفيك إلا رهن زمان يعد بالأسابيع أو الأيام . ومع هذا فإنه ما كاد الحول ينتهى حتى كان جيش يودنيتش قد شُتت ونُسى أمره ، وحتى أخذ كولتشاك بكل أسباب التراجع إلى سيبريا وتقهقر دينيكين إلى البحر الأسود . وحملت السفن البريطانية والفرنسية دينيكين والبقية الباقية من جنوده فى مبتكر ١٩٢٠ ، وقبض على كولتشاك وأعدم بالرصاص فى سيبريا .

ولكن أعداء الروسيا لم يكونوا ليعطوها أية مهلة ولاراحة . فإن البولنديين قاموا بتحريض من الفرنسيين بحملة جديدة عليهم فى أبريل ١٩٢٠ ، وواصل مغير رجعى جديد هو الجنرال رانجل أعمال دينيكين فى غزو بلاده وإهلاك الحرث والنسل فيها . ولم يلبث البولنديون بعد أن دفعوا إلى الخلف حتى وارسو أن استطاعوا أن ينتعشوا بمساعدة الفرنسيين وامدادهم وتقدموا ظافرين فى الأراضى الروسية ؛ وعقدت فى ريغا فى أكتوبر ١٩٢٠ معاهدة يغلب فيها صالح بولندة اتسعت بها رقعتها . ولقى رانجل بعد أن دمر الطعام والمحاصيل فوق مساحات شاسعة عظيمة نفس المصير الذى لقيه دينيكين ، ثم تقاعد فى نهاية السنة وأخذ يعيش على حساب مكارم الدول الغربية . وفى مارس ١٩٢١ اضطرت الحكومة البلشفية ــ واستطاعت بالفعل ــ أن تخمد عصيانا قام به البحارة فى كرونستاد ، وهم « حرس البلشفية البرايتوزى »[1] وركنها الذى كانت تعتمد عليه .

وأخذت العداوة للبلاشفة فى أوربا الغربية وأمريكا تُخلى مكانها فى بطء طيلة ١٩٢٠ ، لتفكير فى الموقف يغلب عليه طابع الحكمة والتبصر . وكانت هناك صعوبات كثيرة تعترض سبيل « الاعتراف » بالحكومة البلشفية كاملا تاماً ، وهى صعوبات ترجع فى الكثير من شأنها إلى عدم التعقل الذى كان يسود الجانب البلشفى أيضاً ، ولكن حدث عند نهاية ١٩٢٠ أن نوعا رديئاً من السلم الغليظ غير الأدبى ساد العلاقات بين الروسيا ومعظم بقية العالم ، وأصبح فى إمكان الباحثين الأمريكيين والبريطانيين والفرنسيين أن يدخلوا تلك البلاد ويخرجوا منها . وفى مستهل ١٩٢١ عقدت كل من إنجلترة وإيطاليا اتفاقيات تجارية مع الروسيا . وأعاد مندوبون للروسيا جاءوا فى هيئة « الوفود التجارية » فتح باب التواصل بين ذلك القطر المنبوذ وبين بقية العالم .

ولكن كارثة من أعظم الكوارث وأشدها هولاً كانت تتهيأ آنذاك للانقضاض

---

(١) الحرس البرايتورى (Pretorian) : حرس خاص أنشأه أوغسطوس قيصر لنفسه وتبعه فى الاحتفاظ به أباطرة الرومان . (المترجم)

على هذا الشعب الروسى . فقد حل ببلاده فى ١٩٢١ قحط شديد لم يألف الناس له مثيلا . ولا بد أن القارئ اللبيب لهذا الكتاب قد لاحظ فيما سلف مقدار تقلب المناخ فى المنبسطات الأرضية العظيمة المحيطة ببحر قزوين . فهذه الأراضى إنما هى بطبيعتها أرض قوم رُحّل ، ومن المشكوك فيه أنها ستكون يوماً مستقرا مطمئناً لعدد كبير من السكان الزراعيين . والآن وقد حل القحط والجفاف فإن المحاصيل تلفت تلفاً تاماً فى مساحات هائلة من الجنوب الشرقى للروسيا ، وعقب ذلك ظهور أفظع مجاعة عرفها العالم فى سجل التاريخ المدون بأكمله . فهلك الملايين من الناس . وهناك كانت جماهير غفيرة من الناس وقرى بأكملها ومدن بكليتها تجلس فى بيوتها تنتظر الهلاك ، ثم تهلك فعلا . وطعم الكثيرون الدريس والثرى وأقذاراً ليس إلى وصفها من سبيل . وأخذ الناس ينبشون القبور عن الموتى ويأكلون لحوم البشر . وخلت مناطق عظيمة من سكانها .

ومع هـذا كان هناك قمح فائض يحرق لا فى أمريكا وحدها بل حتى فى أوكرانيا ورومانيا والمجر . ولكن المواصلات فى تلك البلاد كانت متحطمة تحطماً لامطمع فى إصلاحه بسبب حملات كولتشاك ودينيكين ورانجل ، ولم يكن فى يد الحكومة البلشفية من الموارد ولا الكفاية ما تستطيع به أن تواجه هذه الكارثة المهولة .

وتألفت لجنة أمريكية ولجنة أخرى بقيادة الدكتور نانسن المكتشف القطبى العظيم ونظمتا وسائل المعونة بمساعدة الحكومة وموافقتها ، وأدركت الأمريكيين نوبة لا بأس بها من الأريحية فأخذت مؤنهم تصب فى البلاد . ولكن الحكومات الأوربية الكبرى استجابت مستكرهة أو لم تستجب مطلقا لاستغاثات الموقف المتطرفة . فأما الحكومة البريطانية التى انفقت من قبل مئة مليون من الجنيهات فى عمليات عسكرية غير مشروعة ضد حليفتها السابقة ، فإنها لطخت اسم بريطانيا الناصع بالعار برفضها أن تشترك فى أعمال المساعدة . وبذا يكون الدرس — درس التماسك الإنسانى الذى كان يجب أن تلقنه الحرب العظمى للبشرية — درساً بلغ حتى ذلك الحين منتهى الضآلة والصغر .

وعلى حين كانت الجماهير التعسة المنكودة تهلك فى الروسيا ، كان القمح يضيع بددا فى أجرانه على بعد بضعة مئات من الأميال ، وكانت السفن فى أوربا الغربية ملازمة للمرافئ لقلة المواد المشحونة ، وكانت مصانع الصلب حيث كان فى الإمكان صنع القضبان والقاطرات — تقف جامدة لاحراك بها ، وكان الملايين من العمال عاطلين من الأعمال ، لأن أصحاب الأعمال قالوا « إنه ليس لهم شيء يعملونه » . وذلك بينما أصبحت مئات من الأميال المربعة فى الجنوب الشرقى للروسيا صحراء بلقعاً من الحقول المهجورة ومن بلدان الموتى وقراهم .

ومع ذلك فإن الحكومة البلشفية استمرت قائمة وسط هذا الخراب الماحق . وأخذت الضرورة الداعية إلى الاعتراف بهذا النوع الجديد الغريب من الدولة ، والتعامل معه مهما خالفت طبيعتها طبيعتهم — تبدو بوادرها فى الذهن الأوربى . ولما يزل العالم الغربى إلى يومنا هذا يصطرع وتلك الضرورة . ومسالة إيجاد الترابط بين نظام رأسمالى وبين نظام شيوعى يضمهما كوكب واحد أخذت فواصل المسافات الكبيرة تنعدم منه — لاتزال مسألة غير محلولة حتى وقت كتابة هذه السطور .

وأخذت الدعاية البلشفية وقد أدارت وجهها عن الغرب المعادى لها ، تبدى قدراً متزايداً من الرغبة فى إرضاء الجماهير المدقعة فى الهند والصين . وكان للبلاشفة على الدوام ناحيتان ، ناحية المتجهين نحو الغرب وهى تجنح إلى استخدام العلم والماكينات والتنظيم الإنتاجى الكبير ، ويمثلها لينين وتروتسكى ، وناحية « المتجهين صوب الشرق » ولهم ميول عسكرية وبدائية وتصوفية ، وعلى رأس هؤلاء زينوفييف . وكانت سياسة الحكومتين البريطانية والفرنسية تبعث الروسيا على توجيه دفة اتجاهها نحو الشرق على الدوام . ويلوح أن العالم الإسلامى قد أخذ متأثراً بمثال الروسيا يسترد تطوره الذى طال الأمد على اعتقاله . وأخذ موقف الحكم البلشفى حيال مدنيات الأطلسى ، التى سادت العالم نيفاً وقرنين ونصفا من الزمان يشابه بالتدريج موقف الإسلام . فإن كلا منهما اتخذ موقف التشدد الصلب والصمود الحاقد . ذلك بأن الدول الغربية المنقسمة على نفسها بما بينها

من منافسات ومصالح متناحرة ، لقيت كذلك مقاومة مطردة الزيادة لأساليبها واستغلالاتها فى الروسيا وتركيا وأفريقيا الشمالية وآسيا بأجمعها . فهذه المقاومة المجتمعة وهذه الطاقة المتداعية التى اتسمت بها الطعنة المضادة لها من جانب دول أوربا ، تعطيك المقياس الحقيقى لكارثة ١٩١٤ ــ ١٩١٨ . فإن أيام السيطرة الأوربية الغربية على العالم قد أوشكت على الزوال .

وفى ١٩٢٤ توفى لينين . وخلفه ستالين ، وهو رجل من أهل جورجيا قوى الروح طرد وأعدم الكثيرين من زملائه السابقين وبخاصة تروتسكى ذلك المنقذ المقتدر للجمهورية السوفيتية فى أحلك أوقات حاجتها . وتجلى أن ستالين شيوعى متمسك بالشيوعية لا تأخذه فيها هوادة ولا موادعة ، وأنه وطيد العزم على صد المجتمع الروسى عن الانزلاق نحو الرأسمالية أو المسيحية سواء . وقد حدث فى إبان زعامته أن هُدم العدد الكبير من الكنائس وأن قاربت معاملته لليهودية الرسمية والعبادات المسيحية حد الاضطهاد . وكان لينين قد تساهل بعد ما أصاب البلاد ما أصابها من محن ١٩٢٠ ــ ١٩٢١ ، فاتجه إلى التسمح مع الملكية الخصوصية والمساعى الخصوصية وأوجدت « سياسته الاقتصادية الجديدة N. E. P. » حالة للأمور فى الروسيا تكاد تشبه حال الأمور فى الولايات المتحدة الأمريكية قبل ذلك بمئة سنة . وشرع بعض الفلاحين وهم يستمتعون بحرية التجارة الجديدة يزيدون فى الثراء عن جيرانهم ويطلبون المنافع لعائلاتهم . ويسمى هؤلاء الفلاحون الأكثر ثراء باسم كولاك . وظهر التجار وصغار أصحاب المصانع وحالفهم اليسر والربح . وقد وقف ستالين مناهضاً لهذه العودة إلى عدم المساواة بين الناس . وتحاول الحكومة الروسية محاولة خشنة جداً أن تقضى على الكولاك الذين أنتجتهم « سياستها الاقتصادية الجديدة » السابقة . ولقد كان الاتحاد السوفيتى بأكمله يعانى آلام تجربة عظيمة هى أوسع وأعجب تجربة لإعادة إنشاء الحياة الاقتصادية ظهرت فى العالم على مر تاريخه كله . وهى تسمى مشروع الخمس سنوات وقد ابتدأت فى أكتوبر ١٩٢٨ . فإذا نجح المشروع فإن الروسيا تصبح فى مدى خمس سنوات أرض مزارع ضخمة تديرها حكومة الشعب . وبها يصبح الفلاح عاملا أى زارعا أخلى

من ملكيته ، كما ظل شأنه فى إنجلترة مدة قرنين ، ولكنه عامل يعيش فى ظلال حكم شيوعى ولا بد من أن يُجعل بينه وبين العامل فى المدن الصناعية تشابه وتماثل . ولا بد للاتحاد السوفييتى من أن يصبح منظمة منتجة هائلة تدير مزارعها من أجل الفائدة المشتركة .

وهكذا حدث أثناء السنوات السابقة للحرب العالمية الثانية ، أن اجتاحت الروسيا ثلاث ثورات ، وهى تعيش تحت هيمنة مجموعة واحدة من الزعماء ؛ فإنها حاولت على التوالى أن تحقق فكرات المذهب الشيوعى وفكرات الاشتراكية المتحررة وفكرات رأسمالية الدولة المنظمة تنظيماً صارماً .

٦ - دولة إرلندة الحرة

خرجت الإمبراطورية البريطانية من الحرب العظمى مضعضعة منهوكة القوى مادياً ومعنوياً . فإن زهرة الشباب قد فنيت ، أو أضعفتها الجروح وشوهتها المعاناة أثناء العمل العسكرى المذل . وأصيبت روتينات الحكم فيها وعادات الحرية فى أرضها باختلال عظيم نشأ عن تشريع الطوارئ الضرورى أثناء الكفاح ، واختلت صحافتها أسوأ اختلال بسبب توجيهها للدعاية . فإن الأخبار التى تروى عن المسائل الأجنبية قد داخلها فساد ملحوظ . وتعرض الجمهور العام لحملة من سوء الإعلام حول مسئولياته قبل الإمبراطورية ، وفضلا عن ذلك فإن ما ألم بالأعمال من جوائح مزلزلة شغله حتى تعذر عليه أن يقسم للشئون الإمبراطورية نصيباً من عنايته . كان ذلك زمان فرصة سنحت للموظف الأحمق المعتز بذاته ، وكان يستفيد فى كل مكان أعظم الفائدة من نهزاته .

فكانت هناك فى كل مكان ، اللهم إلا فى تلك الأجزاء التى تحكم نفسها من قبل بنفسها - عملية متماثلة تعمل عملها : وأعنى بها تسخطاً يكاد ينتشر بصورة منظمة صادراً عن الشعوب المحكومة لما لقيت من ألوان التضييقات والتنظيمات غير المعقولة والإهانات والاعتقالات التعسفية وما شاكل ذلك من التدخل فى الحركات . ففى كل مكان كانت طبقة العسكريين والموظفين خارجة على كل نظام وسلطان .

وفى كل مكان ظهر عنصر المحافظين (التورى) القديم بمظهر المكب على إحداث إنفجار .

وهذا الحال يصدق على كل من الهند ومصر وإرلندة على السواء . ففى تلك السنوات ، سنوات الإمحال وضعف الرقابة المركزية أثارت سياسة القمع ونكث العهود المقطوعة لأهالى البلاد ، والاصلاحات الوهمية الخداعة التى تهدف إلى تسكين هياج الضمائر القلقة بأرض الوطن (إنجلترة) ، ثائرة الناس جميعاً ، (حتى السكان الهنود المسالمين أنفسهم) إلى درجة استشرفت العصيان . وجاءت فترة من الزمان كان التحذير واللوم يذهبان أدراج الرياح . وكانت الأساليب السمجة التى تستخدمها فى تجنيد الجنود إدارة الحكومة فى البنجاب سبباً فى انقلاب هذا الجزء من الهند من ولاية من أشد الولايات ولاءً إلى حال شديدة من القلق والاضطراب . وحدثت القلاقل ، وهوجم الأوربيون وقامت حالة تشبه حكم إرهاب الموظفين بلغت أوجها فى مذبحة أمريتسار (أبريل ١٩١٩) عندما أطلقت النار على جمهور كبير كان فى معظم أمره غير مسلح فقتل ٣٧٩ شخصاً وجرح عدد يربو على الألف . ولم تبلغ أخبار هذا الاعتداء المنكر إلى ضمائر الجمهور البريطانى فى أرض الوطن حتى صدر تقرير هنتر فى أخريات ١٩١٩ . وعند ذلك أظهرت العناصر الطيبة فى الحياة البريطانية أثرها ردحاً من الزمان . ومع هذا فإن طوراً جديداً من الحكم يرمى إلى الصلح والتراضى برئاسة اللورد ريدنج بوصفه نائب الملك قد أحبطته وادعت فساد آرائه عناصر الرجعية فى الحكومة البريطانية . وفى ١٩٢٢ حكم على المستر غاندى[1] وهو مبشر بالمقاومة السلبية يشبه القديسين ، بالسجن ست سنوات ، وبذا صار أحد الشهداء .

---

(١) المستر غاندى (١٨٦٩ – ١٩٤٨) : ويلقب بالمهاتما أى الحكيم الأعظم . وشهرته أعظم من أن تحتاج إلى بيان ، فهو زعيم الهند الإجتماعى والسياسى . ولد بالهند ودرس القانون بلندن واشتغل بالمحاماة سنة ١٨٨٩ وفى سنة ١٨٩٣ أصبح محامياً بجوهانسبرج . وهناك قاد حملة المقاومة السلبية ضد التفريق فى المعاملة بين الملونين والبيض ، وعاد إلى الهند سنة ١٩١٥ واستعمل طريقته تلك فى الكفاح ضد الحكم البريطانى . وظل يكافح ويقيم العصيان تلو العصيان لا يرتد عنه حتى يراه أخذ ينحول إلى العنف – حتى وفق فى جهاده وظفرت الهند باستقلالها فى ١٩٤٧ . =

وتواصل نزاع مماثل لهذا فى مصر. وكان يعوق النزوع إلى التفاهم ويحبطه . دافع غريب متسلط ينزع الى القمع . ولكن أشد القصص إيلاما وأدعاها إلى الأسى فى كل هذا الثبت المحزن الذى يسجل على البريطانيين العجز وعدم الاقتدار فى زمان سنحت فيه الفرص البديعة ، هى قصة الثغرة المتزايدة المفرقة بين الشعبين الإنجليزى والإرلندى .

فى أيام السياسيين الإرلنديين العظيمين المسامحين وأعنى بهما الأخوين ريدموند ؛ كان ما يزال يبدو أن فى الإمكان أن تعيش كل من الجزيرتين إلى جانب أختها متعاونتين تعاوناً حراً تدفعه الرغبة ، وفى حال من الوحدة الودية القائمة على المساواة على حين تتشاركان مسئولية بريطانيا فى الإمبراطورية وتواجهان العالم معاً . فإن المسافة الدانية بينهما تتطلب مثل هذه الرابطة الوثيقة . فرخاء إرلندة وإنجلترة يشابه رخاء التوأمين السياميين اللذين يرتبط جسماهما برباط العروق والشرايين . ولم يكن ينبغى أن يسمح للأحقاد القديمة والفوارق الدينية أن تكون سبباً لمنع نشوء تعاون صحيح ذكى . ولكن الأمر لم يكن هو الأحقاد القديمة ، بل إن الأحقاد الجديدة هى التى دفعت إرلندة فى طريق الانفصال . وقد أسلفنا عليك كيف أن السير إدوارد كارسون نابغة الشر فى الشعوب البريطانية ، أدخل الأسلحة لأول مرة إلى إرلندة ثم أيقظ وحرك عملية مرعبة من العنف والانتقام فى البلاد ، وكيف خدعت إرلندة فى أول الحرب عن حكمها الذاتى ، وكيف أن الحكومة البريطانية وعلى رأسها المستر آسكويث قد أهانت إرلندة إما عن عماية وغفلة أو عن قصد وتدبير ، بإدخالها هذا الرجل الملطخ اليد بالدماء والتغرير بالأبرياء عضواً فى حكومة الائتلاف . وأخبرناك كذلك كيف قمع العصيان فى دبلن وأنزلت من أجله العقوبات ، وكيف زاد ذلك فى مرارة حفيظة إرلندة . ونتائج كل هذا صريحة واضحة على صفحة التاريخ .

--- وكان يلعب من وراء الستار دوراً فعالا فى المفاوضات التى انتهت بالاستقلال فى ١٩٤٧ . وغاظت جهوده لصالح المسلمين بعض المتطرفة من الهندوك فاغتيل فى نيودلهى ٣٠ يناير ١٩٤٨ .
(المترجم)

فنى ١٩١٤ نزلتْ إرلندة ساحة الحرب العظمى بسماحة وإقدام كانجلترة سواء بسواء . وكانت ما تزال بلداً منظماً ممدناً . وعند نهاية ذلك الكفاح كانت إرلندة قد أصبحت أرض فتنة ثائرة لا تمسك إلا بالقوة القاهرة . فإن الاستعمار المتطرف قد أوتى رد فعله فى صورة الوطنية المتطرفة . وكانت إرلندة قد غدت آنذاك مصرة كل الإصرار على أن تصبح جمهورية منفصلة تماماً عن بريطانيا العظمى .

وأجيز فى البرلمان البريطانى قانون حكم ذاتى جديد فى ١٩٢٠ . وبه تأسس برلمانان منفصلان ، أحدهما فى آلستر والثانى فى الجزء الباقى من إرلندة ، مع وجود ترتيبات ترمى إلى التعاون بينهما وإمكان إدماجهما أحدهما فى الآخر . وكان بالقياس إلى مشروعات قوانين الحكم الذاتى السابقة تدبيراً فيه شىء كثير من السخاء ولكن الإرلنديين رفضوه بحذافيره .

فإن أعضاء حزب السين فين الذين انتخبوا أعضاءً فى برلمان ١٩١٩ لم يقبلوا حتى أن يظهروا فى وستمنستر لمناقشته . وفى الوقت ذاته كانت أساليب العصيان والتسخط من ناحية ، وسياسة القمع من ناحية أخرى تحوّل البلاد إلى مسرح لحرب العصابات ، فكان العصاة يغيرون ويكمنون ويغتالون ثم تراموا فى النهاية إلى أن أصبحوا يقاتلون فى معارك صغيرة حامية الوطيس بفصائل صغيرة من الجنود . فأما الجنود الإنجليزية وكانت حسنة السلوك فى البداية ، فإنها أغريت للفور وشجعت على الدخول فى دور « الانتقام » بالمثل . ونظم بوليس إضافى خاص هو « السود والصفر »[1] ميز نفسه بأساليبه الخشنة الشديدة .

وأخذ شر الاعتداءات يتفاقم تفاقماً مطرداً . فكان مقتل كل فرد فى هذا الجانب أو ذاك يفضى إلى قتل أفراد . فإذا قتل جندى أو فرد من أفراد القوة الإضافية المسماة بالسود والصفر قتل نظيره فرد من الطرف الآخر ، ربما كان أو لم يكن له ضلع فى الجريمة الأولى . وكان كل طرف فى هذا التناحر يجهد أن يبذ أخاه فى القساوة .

---

(١) السود والصفر (Black and Tans) فرقة إضافية من الشرطة أنشئت لقمع ثورة الإرلنديين ، وسميت كذلك بسبب قلانسها وأساورها السوداء وبدلها الكاكى . (المترجم)

حتى تناهى الأمر إلى أن لم يعد أحد يأمن فى منزله ولا فراشه . فإن رجالا من أحد الحزبين أو الآخر ربما جاءوا بليل يطرقون باب أحد الناس بتهمة حقيقية أو خيالية . فكان الرجال يقتلون بالرصاص على أبواب منازلهم ، وسرعان ما تحول هذا إلى إعدام العائلات بأسرها . وفى ديسمبر ١٩٢٠ انفجر العسكريون انتقاماً من وقوع أحد عشر تلميذاً فى المدرسة الحربية فى كمين ، فأقدموا على القتل والسلب حتى لقد دُمرت أملاك يبلغ ثمنها ثلاثة ملايين من الجنيهات . وبديهى أن تتفاقم السرقات ويزدهر قطع الطرق فى مثل هذا الجو .

وأصبح مشروع الحكم الذاتى قانونا سارى الأحكام فى ١٩٢١ ، وتكون بمقتضاه برلمانان إرلنديان ، أحدهما للشمال والثانى للجنوب . وانتخب البرلمان الشمالى فى وقته المعين ، وفتحه الملك فى احتفال فخم فى ٢٢ مايو ١٩٢١ . ورفض أهل الجنوب قبول البرلمان الجنوبى فلم يجتمع أبداً ، واجتمعت فى دبلن هيئة كونت نفسها بنفسها ، هى الديل إيريان (Dail Eireann) ، معلنة أنها برلمان إرلندة المستقلة ، ومنتخبة لكرسى رياستها المستر ديڤاليرا الذى كان مؤسسها الأكبر .

وكان الملك قد ألقى فى خطاب افتتاحه البرلمان الشمالى خطبة ملؤها التسامح والرغبة فى السلام . وانتهز المستر لويد چورچ رئيس الوزارة البريطانية هذه المناسبة فدعا المستر ديڤاليرا والسير چيمس كريج لحضور مؤتمر يعقد فى لندن لبحث الشئون الإرلندية ، ودعى الطرفان إلى إنشاء هدنة عن العنف ، وهى هدنة نفذت على أحسن ما تسمح به حالة البلاد المضطربة ، وفى ١١ أكتوبر ١٩٢١ افتتح فى لندن مؤتمر تباحث فيه المستر ديڤاليرا وزملاؤه المختارون عن (الديل إيريان) وعليهم بوجه خاص سيما رجال قادوا ثورة مسلحة إلى نصر مؤزر ، — مع ممثلى الحكومة البريطانية فى موضوع مستقبل إرلندة .

وكان هذا أمرا يسر كل إنجليزى مفكر سروراً يقارب جذل أى أمريكى فى ١٨٦٣ لدى رؤيته چفرسون دافيز يتفاوض مع أبراهام لنكولن فى واشنطون بشأن مستقبل ولايات القطن . ذلك أن انفصام إرلندة التام عن بريطانيا ليس مجرد أمر ثقيل تأباه الأنفس فحسب ، بل هو أمر خطر جداً ربما كانت فيه الكارثة على كل من

البلادين . ولكن هذا الاعتراف الفعلى بالهزيمة كان برشامة ، سمح الرجل الإنجليزى لأصدقائه المختارين أنصار كارسون بأن يصنعوها له ، وكان عليه أن يزدردها على أحسن ما يستطيع من التجمل والوقار . وكان المشهد فى هوايت هول[1] فى أكتوبر ١٩٢١ أثناء مؤتمر دوننج ستريت مشهداً عجيباً جداً . فقد رفع قدر عظيم من الرايات الإرلندية والشعارات القومية الإرلنـــدية فى حال تحد ظاهر ، ولكن سلوك جمهور لندن لم يكن منطوياً فقط على التسمح بل تبدّى فيه المودة والعطف .

وبعد مهاترات كثيرة وصل الطرفان إلى تسوية أقرّها البرلمان البريطانى كما أقرها (الديل إيريان) ، فى كثير من التمنع والمقاومة . وفيها دانت إرلندة فى النهاية بالولاء للتاج البريطانى ، وتقيدت ببعض القيود البحرية والجوية وأصبحت كلها (فيما عدا آلستر البروتستانتية التابعة لحكم البرلمان الشمالى) ، دولة مستقلة هى دولة إرلندة الحرة . وكان هذا نصراً عظيماً للتعقل والتبصر والرغبة فى السلام . فاستقرت بذلك حرية قائمة وصيغت وحدة شكلية . ولكنها كانت تسوية مهددة من كيلا الطرفين .

واعترض المستر ديڤالبرا على المشروع لأنه يجزئ إرلندة ولا يذل بريطانيا إذلالا كافياً ، وحرض أنصاره على الثورة على الدولة الحرة الجديدة . كذلك بذل السير إدوارد كارسون وهو عند ذاك قاض برتبة اللوردية قصارى جهده — بالرغم مما ألفه القضاء من الوقار ، ليوقظ ويذكى روح العنف وسفك الدماء فى آلستر . وكان من أثر هذا أن دولة إرلندة الحرة كافحت فى سبيل الحياة بصعوبة شديدة وعلى نغمات الطلقات النارية والصرخات المدوية فى بهيم الليل . وكانت البلاد مليئة بالشبان الذين لم يتعلموا أية صناعة إلا حرب العصابات ، وكانت عادات العنف والإخلال بالنظام قد تمكنت من قلوب السكان ، وأعقب ذلك حرباً أهلية بين الجمهوريين وعلى رأسهم ديڤالبرا وبين جيش الدولة الحرة .

---

(١) شارع رئيسى بين ميدان ترافالجار ودارى البرلمان بلندن وتقع به معظم دور الحكومة . (المترجم)

ذلك بيان موجز لقصة انفصال إرلندة عملياً عن إنجلترة . وكان كل ما عقب ذلك من أحداث يعمل على توسيع هوة الخلاف وتعميقها — وقد اغتيل الزعيمان ميشيل كولنز وكيڤن أوهجنز ، وهما السياسيان الإرلنديان اللذان لعلهما كانا يستطيعان رتقها . وتخلى ديڤاليرا عن الحرب الأهلية ووصل إلى مقاليد الحكم بالوسائل البرلمانية وكرس جهوده لزيادة الهوة اتساعا . وصدر دستور جديد أعلن أن آلستر جزء من دولة جديدة أسموها «آيار Eire » ومعناها « التهديد » ؛ ومن حسن الحظ أن التهديد اقتصر فقط على اللفظ لا التنفيذ . ثم انتهز ديڤاليرا فرصة تنازل الملك عن العرش فى ١٩٣٦ والأزمة التى نشأت من جرائه لقطع كل علاقة دستورية له بالكومنولث البريطانى ، فيما عدا مسألة تعيين السفراء والمبعوثين الإبرلنديين باسم الملك . علماً أن هذه الرابطة كانت من الوهن بحيث استطاعت دولة آيار أن تلزم الحياد فى الحرب العالمية الثانية ، واستبقت سفيرها فى برلين ، وأعلنت تعزيتها الرسمية للألمان عند وفاة هتلر . ثم تمكن منافسوا ديڤاليرا من اقصائه عن كراسى الحكم حين أنشأوا ضـــده ائتلافاً ، ولكن ذلك الائتلاف زاد فى بتر العلاقة الواهنة الباقية .

إن هذه سلسلة الأحداث التى ينبغى أن تكون مصدراً لعميق القلق والأسف لدى الشعبين الأمريكى والبريطانى على السواء ، كانت نتيجة قسرية للطرائق التى استخدمتها الطبقة البريطانية الحاكمة إبان فترة ما بين الحربين فى معاملتها للشعوب الخاضعة للامبراطورية . وقد جاء أوانٌ بدت فيه الإمبراطورية البريطانية فى صورة الأم المنشئة لاتحاد كنفدرالى ومثالى مكون من شعوب حرة ، إما تتكلم الإنجليزية أو تتخذ منها لغة دولية عامة (Lingula Franca) ، وتطور تقاليد عظيمة واحدة مدارها الصراحة فى القول والمعاملة الواضحة والعدالة فى كل أرجاء العالم . وقد جاء حين من الدهر بدا للناس أثناءه أن هذه الشبكة الضخمة التى سيقويها التفاهم المشترك الذى يزداد فى كل آن عمقاً والتعاون الذى يزداد على الأيام اتثاقاً مع الولايات المتحدة الأمريكية ، ربما لعبت دوراً قائداً فى ربط أجزاء العالم بعضها ببعض فى وحدة تعظمهما جميعاً . وكم أطافت مثل هذه الأحلام بخيال كاتب هذه السطوز نفسه ، ولكن المؤرخ

ملزم أن يدون ما لديه من حقائق - والحقائق التى نسوقها هنا لا تساير هاتيك الأحلام إلا أسوأ مسايرة .

وقد أظهرت الأيام أن تعليم الطبقات البريطانية الحاكمة لم يبلغ من الاتساع والسلامة القدر الكافى المناسب لما بين أيديهم من نهزات . فإن الرجال الإنجليز الذين بيدهم الأمر لم يبلغوا من بُعد الهمة وقوة الشخصية ولا من الجنتلمانية الحد الكافى الذى يؤهلهم للتبعات التى تصدوا لها وتولّوها . والعالم لا يستطيع أن ينتظر البريطانيين حتى يقودوه . وقد فشلت الشعوب الناطقة بالإنجليزية عن أن تطور المنظمة التعليمية والعظمة الخلقية التى تسوغ ادعاءها زعامة البشرية ، ومن ثم تهزأ النهزات والفرص بهم وتمر سراعاً . فإن الأجناس والشعوب التى كانت فى يوم من الأيام تلميذاً للمدنية الغربية مريداً لها وراغباً فيها اخذت الآن ترسم لنفسها نهجاً جديداً من التجريب وتفكر على أسسها الخاصة بها . ويتسع ميدان التقدم ويأتى يوم يجب أن يقنع فيه أولئك الذين كانوا هم القادة فى زمان ما بأن يسايروا سائر الناس .

٧ - الشرقان الأقصى والأدنى

(١) الصين : أشرنا فيما سلف إلى سقوط أسرة مانشو فى الصين فى ١٩١١ . ويدل هذا على إدراك الذكاء الصينى للطبيعة الرثة التى عليها نظامهم الإمبراطورى العهيد . لذا لم يترددوا فى نبذ الرداء القديم . ولكن أنّى لهم الرداء الجديد الذى أعدوه لترتديه بلادهم . فإن الجمهرة الكبرى من السكان ظلت فى سبيلها الذى ما فتئت تسلكه قرناً بعد قرن ، أمية منتجة النسل فقيرة مسالمة ، محافظة على القديم ؛ ومن فوق هؤلاء كانت الأقلية المتعلمة تكافح محاولة أن تكشف نظماً جديدة ذات كفاية تحلها محل الحكومة العليا التى شاخت ثم تلاشت من الوجود .

وانتشرت فى الجنوب مبادئ جمهورية ترتجى صبغ البلاد بالروح الغربية تحت

زعامة الدكتور صن يات سين[١] . وكانت الحكومة الجديدة التى أقيمت فى بكين جمهورية برلمانية شكلا . لى أن القوة الحقيقية كانت فى يد صاحب التصرف فى قوات البلاد المسلحة ، ولاح فى الأفق ردحاً من الزمان احتمال نشوء أسرة مالكة جديدة يؤسسها موظف عظيم ورجل دولة كبير هو يوان تشيه كاى . والواقع أن الملكية أعيدت بالفعل فى ١٩١٥ ، ولكنها ما لبثت حتى تلاشت ثانية فى السنة التالية . ولعب اليابانيون دوراً ديبلوماسياً فيما لم يكن مناص من حدوثه بين الصينيين من خلافات . فكانوا يناصرون هذا الحزب أولاً ثم ذاك ، تحدوهم سياسة عامة هدفها منع الصينيين من أن يعيدوا بناء دولتهم الناهضة بناءً قوياً متماسكاً .

وانضمت الصين إلى الحلفاء ضد ألمانيا فى ١٩١٧ انضماماً متأخراً غير ذى أثر ، مؤملة أن تظفر من وراء ذلك بمركز دولى تقاوم به ضغط اليابان العدائى عليها . وازداد تاريخ الصين يوما بعد يوم اضطراباً منذ وفاة يوان تشيه كاى . فإن عدداً من القواد العسكريين وثبوا بمناطق فسيحة وأخذوا يتنازعون فيما بينهم على السلطة العليا . وقامت بالصين حكومات متنافسة كانت كلها ترسل السفراء إلى أوربا ، وأخذت الولايات المتحدة واليابان والدول الأوربية الكبرى تدبر المؤامرات المعقدة وتنصر هذا الرجل أو ذاك . وفى نفس الوقت واصلت الحياة العامة مسيرها فى السبل التليدة المكرمة التى كانت على أيام الأجداد ، ولكن ظهرت تطورات جسيمة فى إنتاج المصانع وأعمال البنوك . وأصبح التعليم عصرياً . وأجريت التجارب فى تبسيط الخط والكتابة . وإن هنالك لشيئاً يهز خيال المؤرخ هزاً عميقاً فى شهوده هذا العدد الضخم من الناس وهو يحل الروابط القديمة لكيانه الإدارى ويحاول فى عماية وتحسس لطريقه أن يبحث عن فرجة يصل بها إلى المحتملات الجديدة الكامنة فى التنظيم الاجتماعى والقوة الحشدية .

---

(١) عن هذا الموضوع وعن تاريخ الشرق الأقصى بأكمله وعبث الاستعمار الإجرامى به انظر للمترجم كتاب « آسيا والسيطرة الغربية » للسردار پانيكار – طبع المؤسسة المصرية للتأليف والترجمة والطباعة والنشر . (المترجم)

وقد قضى على الصين بعد فتن البوكسر بأن تدفع تعويضات باهظة للدول المختلفة التى أصيب رعاياها فى هذه الفتن . وقد تجاوز الأمريكان — فى شىء عظيم من الحكمة — عن هذه التعويضات على شريطة أن تخصص للتعليم ، وأرسل عدد ضخم من الطلاب الصينيين إلى الجامعات الأمريكية بوصف كونهم بواكير ثمار هذه الفكرة الكريمة . وكان الفرنسيون أميل إلى إنشاء البنوك ومشروعات السكك الحديدية . ووجه البريطانيون واليابانيون نصيبهما توجيها غير واضح مقسما بين أعمال التعليم والصحة والاسعاف وبعض الأعمال الاقتصادية النافعة .

وقد جاء أوانٌ بات محتملا فيه أن يصبح الأمريكيون آباءً روحيين للصين . بيد أن الجامعيين الشبان الذين كانوا يعودون من الولايات المتحدة وقد امتلأ وطابهم علما غزيراً بالثقافة الغربية ، وبالتقدم الصناعى الغربى ، أصبحوا جميعاً بلا استثناء من أتباع الفيلسوف الصينى صن يات سن ، الذى سبق ذكره . وانقضى ردح من الزمن أصبح فيه الدكتور صن كمعلم وفيلسوف ، على نفس أهمية لينين لدى الروس . وظل الناس ربع قرن يقرؤون « وصيته » فى المجتمعات العامة كأنما هى إحدى الشعائر ، وينحنون أمام صورته ، ويسلمون بأن « مبادئه الثلاث » هى الأساس الذى يقوم عليه كل برنامج سياسى . وهذه المبادئ الثلاث هى : (١) — الوطنية ، ولم يكن يعنى بها الوطنية العادية ، التى أهلكت الحرث والنسل بأوربا وآسيا ، ولكن يقصد بها إحلال الإخلاص للمجتمع محل الإخلاص للعائلة ؛ وقد وجد أن لامندوحة له فى ذلك الزمان وهو ببلاد الصين من أن يدخل فى هذا المبدأ الأول فكرة الحاجة إلى حرمان الأجانب من امتيازاتهم . (٢) — الديمقراطية ، أى حكم الشعب بما فى ذلك النساء اللائى كان يفترض حتى ذلك الحين أنهن جنس أدنى من الرجال ؛ (٣) — العدالة الاجتماعية أو كفالة وسائل العيش للناس جميعاً ، وهى تعبير صينى من العسير ترجمته . وكان ثمانون بالمئة من الشعب الصينى من الفلاحين ، وكانوا جميعاً بلا استثناء تقريباً مدينين للمرابى أو لصاحب الأرض أو لهما كليهما . وربما كانت العبارة مبهمة ؛ ولكن معناها لم يكن ليخفى على أوساط الناس بين الصينيين ولا على الدكتور صن .

ولم تكن مبادئ الدكتور صن بعيدة كثيراً عن مبادئ نيقولاى لينين ، ولا كانت شقة الخلف بعيدة بين حاجات الثوريين الصينيين والروسيين . وما أسهل ما توصل الطرفان إلى إتفاق ، وفى ١٩٢٤ تولى عضو بالحزب الشيوعى الروسى هو ميخائيل بورودين مساعدة الدكتور صن فى تنظيم الكومنتانج ، وهى حزب تأسس على مبادئه الثلاثة . وفتحت للحزب فروع محلية وفرض عليه نظام دقيق والتحق به العمال والفلاحون ونظم منه فصيلة عسكرية بكانتون (وهى المدينة الكبرى الوحيدة التى كانت تحت سلطان الدكتور صن) تحت قيادة ضابط صينى شاب اسمه تشيانج كاى شك . على حين أن بقية الصين كلها كانت تحت سيطرة « أمراء حرب » شأن بريطانيا إبان حكم الممالك السبع[1] : لذا لم يعيروا أى التفات لما كان يجرى فى الجنوب . وانقضت بضع سنوات وأسماء مثل ين و (وو Wu) وفنج ولو تشانج تطرق الأسماع كأنما لها شىء من الأهمية ؛ وقام فى بكين ظل لحكومة مهمتها تغطية عملياتهم الحربية ، ولكن لم تكن لديها السلطة الكافية لإيقاف الحرب بينهم عندما يختارونها لهم سبيلا . وفى ١٩٢٦ أحس الكومنتانج وقد أعيد تنظيمه أن لديه القوة الكافية للتصرف وإياهم . فإن جنده المدربين حديثاً قضوا على جند أمراء الحرب المتذمرين العديمى التدريب والكفاية ، فكان « الماريشالات » يسقطون كأعواد الهشيم . ولم تنقض بضعة شهور حتى أصبح جنوب الصين بأجمعه فى أيديهم . وكان لابد لهم للوصول إلى الشمال ، من الاستيلاء على حوض نهر يانج تسى كيانج ، وهو النهر العظيم الذى كان يعتمد عليه الشطر الأعظم من التجارة الصينية ويحول دون التغلب عليه عقبة كأداء وعدو أشد رهبة من الماريشالات هو الأجانب . وكان البريطانيون أشد هؤلاء الأجانب بأساً وصلفا . وقد نظم الكومنتانج عليهم حملة مشددة لمقاطعة التجارة دامت بضعة أشهر . ومرت لحظة عصيبة حين استولى الكومنتانج على هانكاو ، وهى المدينة المثلثة الهائلة الواقعة

---

(١) الممالك السبع (Heptarchy) : يعتقد بعض الناس أنه مرت على إنجلترة فترة تقسمت فيها إلى سبع ممالك : وسكس ، سسكس ، كنت ، إسيكس ، إيست أنجليا ، مرسيا ، نورثمبريا . وهى التى يرد ذكرها فى أدب شكسبير . (المترجم)

بعيداً فى أعالى اليانجتسى ، وكان بتلك المدينة « منطقة امتياز » بريطانية ، ولكن الكومنتانج أوضح بما ليس وراءه شك بوسائل الاضراب والتهديدات المسلحة أنه لم يعد للرقابة الأجنبية بقاء بالصين . ومن حسن الحظ أن الحكومة الإنجليزية كانت أعقل من « رجالها القدماء بالصين » الذين كانوا يكتبون المقالات بالصحف مطالبين بالحرب : ففتحت باب المفاوضات وسلمت للصين « مناطق الامتياز » بهانكاو وكيوكيانج . لقد هزم الأجنبي وانتهى أمره . وزحفت جيوش الكومنتانج شمالا واستولت على بكين بقيادة تشيانج كاى شك الذى تزوج من شقيقة زوجة الدكتور صن . وعندئذ لم يبق بالصين من أمراء الحرب سوى تشانج الذى كانت فى يده إمارة منشوريا المنعزلة . وكان إلى الجنوب منه بالضبط الجنرال فِنج وهو « قائد مسيحى » كانت له فى يوم ما شهرة واسعة (ويقال إنه عمد جيشه على المسيحية بفتح خرطوم المياه عليه) فأعلن اعتناقه التام لمبادئ الكومنتانج .

ولكن كتب التحطم على الأمل فى وحدة الصين وسلامها ، إذ أن الدكتور صن مات فى ١٩٢٥ . وفى ١٩٢٧ رأى زعماء الشيوعية الدولية أنه قد آن الأوان للقيام بالخطوة التالية (وهى خطوة ضرورية منطقياً من وجهة نظرهم) وأعنى بها خطوة الانتقال بالبلاد من حكم الكومنتانج القائم على السيطرة المبلبلة « للبرجوازية الصغيرة والفلاحين الملاك » إلى الدكتاتوية البروليتارية . ويقال إن بورودين نفسه قد احتج على ذلك هو وأرملة الدكتور صن ؛ ولكن ذلك لم يغن فتيلاً . وبدئ بالمحاولة التى أقاموها على نقابات العمال المشاغبة التى أنشئت حديثاً ؛ وكان جواب الجنرال تشيانج كاى شك ساحقاً قاضيا . وكانت هانكاو عند البداية فى قبضة الثوار ، على حين جعل الجنرال قاعدته فى عاصمته الجديدة نانكين . ولم تنقض بضعة أسابيع إلا وقد صار الشيوعيون أشلاء متناثرة وأصبح تشيانج قابضاً على الجهاز الحكومى الصينى بأكمله . ولكن القبض على الجهاز الحكومى شىء والقبض على الصين ذاتها شىء آخر ، ولو أن تشيانج نفذ « المبادئ الثلاثة » لسارت الأمور على خير ما يرام ، بيد أنه اضطر فى سبيل القضاء على ثوار هانكاو إلى الاعتماد على الطبقات القديمة من

أرباب الأملاك والموظفين وأصحاب الأعمال ، وعندئذ أصبح من المحال عليه أن يدعى أنه يقوم بثورة اجتماعية .

وأنشئت الطرق ومدت أميال عديدة من خطوط السكك الحديدية وبدىء فى إنشاء المصانع وتم قدر عظيم من المشروعات التعليمية وساهمت الدول الأجنبية فى المشروعات واستثمرت رؤوس الأموال الأجنبية . ولكن الفلاحين لم يتخلصوا البتة من ديونهم (فضلا عن الإيجارات) ووجد عمال المدن أن الحكومة تحظر عليهم كل جهد يبذلونه لتحسين أحوالهم عن طريق اتحادات العمال ونقاباتهم . أما المبادئ الثلاثة ، فإن الشعب الصينى حصل من الكومنتانج على شىء قليل من « المبدأ الأول » وهو : (الوطنية) ، أما الأجنبى فأعيد بشدة إلى مكانه الأول ، كما أن عبادة العائلة قد أبطلت بعض الشىء . وبقى النذر اليسير من المبدأ الثانى (: الديمقراطية) ، وذلك لأنه رغم أن الصين صارت جمهورية يعامل فيها النساء معاملة لا بأس بها ويستمسك القوم فيها ببعض الشعارات والسنن الديمقراطية ، فإن الدولة لم تكن فى الواقع إلا دكتاتورية حزبية يرأسها الجنرال تشيانج كاى شك ؛ ولم يبق أى شىء من المبدأ الثالث (: العدالة الاجتماعية) . ووجد الشيوعيون المنهزمون كثيراً من الأعوان والأنصار بالقرى وتهيأ لهم أن ينشئوا بولايتى كيانج سى وهونان المركزيتين وحدات حاكمة تمكنت فى مدى عدة سنوات من تحدى محاولات تشيانج للقضاء عليها ، ويرجع ذلك إلى أن الحزب الشيوعى تعلم أثناء الأزمة المدمرة التى مرت به كيف يصغى لمطالب الفلاحين ولا يأبه كثيراً بنظريات معهد ماركس إنجل بموسكو . وقد حالت هذه الوحدات الحاكمة فضلا عن حرب العصابات التى تكاد تفوقها فى تكدير صفو الحكومة — دون تمكنه من تحويل الصين إلى دولة موحدة . وبقى بعد هذا كله قائدان من أمراء الحرب ؛ أولهما تشانج الذى كان مستقلا استقلالا فعليا بمنشوريا ، وثانيهما الجنرال المسيحى الماكر فنج ، وقد تمكن من جعل جنده فى قبضة يده شمالى بكين . ولم تكن هذه الأمور ذات خطر كبير ما استمتع العالم الخارجى بالسلام .

(ب) انهيار الإسلام : كان نفس ارتشاح الفكرات الغربية وأساليبها وتطبيقاتها ، الذى ترتب عليه تقويض مدنية الصين العتيقة يعمل عمله فى كل أرجاء الشرق الأدنى

بقوة تتزايد كل يوم منذ الحرب العظمى . إذ يلوح أن ذلك السبات الطويل المنطوى على القدرية وعدم التسمح الذى ران على الإسلام قد أخذ يقترب من نهايته . فإن العالم الإسـلامى يستخدم الآن الصحف والتلغراف واللاسلكى والتطبيقات التعليمية العصرية والدعاية العصرية . وقد أسلفنا عليك شيئاً عن نهوض الترکى بعد هزيمته ، وعن وحدة العرب المؤقتة . وإنا لنلحظ فى إيران اشتداداً فى مقاومة الإسلام لاستغلال الغرب المجرد .

وكانت إيران قبل الحرب العالمية الأولى مرتعاً خصباً يجد فيه قنّاصو الدبلوماسية الأوربية كل ما يشتهون من الصيد ، ويجد الرجال والنساء من سكانه أنكد مكان للعيش . وكانت الروسيا تضغط على القطر التعس من الشمال . وتضغط عليه بريطانيا من الخليج الفارسى ، وبذلت كل واحدة منهما كل ما تستطيع لإضاعة الثقة بالأخرى وإيقاع الأذى بها . واكتشفت فى البلاد موارد عظيمة للبترول ومن ثم أخذت الدوائر الأمريكية المهتمة بالزيت ترود طرقاً منحرفة من التحريض والمناصرة . وكانت للبلاد أمسوخة لحكومة برلمانية أوربية برياسة الشاه ، على حين أن القوة الحقيقية كانت تنتقل بين أيدى رؤساء إقطاع يتخاطفونها . فكان أحدهم يغير على الآخر ويقتله . وكان الروسيون قد وضعوا فى البلاد لواء من القوزاق ليكون فى طاعة الحكومة إسمياً وإن رموا منه فى الواقع إلى السيطرة عليها . وأنشأ البريطانيون هيئة مقابلة هى شرطة النظام[1] ضباطها من السويديين ، كان مفهوماً أن لها سمة دولية . وكانت هذه الهيئات المتناحرة تعيث فى البلاد فساداً وتقتل الآمنين باسم النظام الأوربى . ولم يفت الألمان أن يدبروا المؤمرات بواسطة الأتراك بغية القضاء على كل من البريطانيين والفرنسيين .

وكانت حماية خطوط أنابيب الزيت أو تحويلها أو تدميرها هى قطب الرحى فيما يدور حوله الموقف من خطط استراتيجية معقدة . وكانت الحرب العظمى فى إيران

---

(١) فرقة شرطة النظام أو الجندرمة (Gendarmerie) : فرقة من الجنود المسلحين تقوم كبلوكات الخفر والنظام بمصر بضبط الأمن وبعض الأعمال البوليسية . (المترجم)

قصة غارات وزحوف للجنود واستيلاء ومغامرات يقوم بها القوزاق تارة والألمان حيناً والبريطانيون حيناً آخر وقوات القبائل من الأهالى طوراً . وكلما تأرجح النصر بين الألمان وخصومهم كان الإيرانيون الذين لم تكن تعنيهم هذه المنازعات الأوربية فى كثير ولا قليل ، يسترضون البريطانيين أو يهاجمونهم . وأقام البريطانيون دهراً بعد الحرب وهم أصحاب الكلمة الأولى فى فارس ، ولكن مركزهم بدأ فى ١٩٢٠ يهدده تهديداً خطيراً غزو بلشفى أعاد سابق الضغط القديم الذى كان يمارسه النظام القيصرى. ولكن روحا أوفر قومية وأكثر استقلالا عن أوضاع الديبلوماسية أخذ يثبت وجوده على التدريج . وذلك أن الوعى القومى الإيرانى أخذ يترعرع ، وأن هيبة الغرب أخذت تذوى . وظهر رجل قوى هو رضا خان ، وأمسك بزمام الحكومة فى ١٩٢١ ، محتفظاً برياسة الشاه الإسمية . ثم عقد مع روسيا السوفيتية محالفة ركزت البلاد على أسس من استقلال أعظم وأكبر مما كانت فيه أمد سنوات عديدة . وفى ١٩٢٦ تخلص من الشاه وحل فى العرش محله ؛ وهو عمل لم يغير الوضع إلا بالإسم فقط .

ومن فارس شرقاً إلى ساحل مراكش على الأطلسى ، على كامل امتداد خط التماس بين عالم المسيحية القديم وبين العالم المحمدى ، تظهر هذه السنوات التالية للحرب حالة معقدة من المنازعات والشغب بين الإسلام والدول الغربية وتبدى فى الجانب الإسلامى مقداراً أكبر كثيراً من التماسك ووحدة الغرض ، بل لقد أبدى ذلك الجانب فى النهاية وحدة فى العمل أقوى وأبرز مما أبداه الجانب الغربى . فأما الدول الأوربية فقد عميت عن الخطر النامى المحدق بها ، ومن ثم فهى تواصل الكيد إحداها للأخرى على نفس منوالها القديم المتبع فى القرنين السابع عشر والثامن عشر . فقد ازدهر الاتجار فى الأسلحة إما علانية أو خفية وأخذ الاحتفاظ بولاء الجنود البلديين يزداد صعوبة من يوم إلى يوم .

ففى مراكش واصلت أسبانيا حرباً باهظة النفقة لا نهاية لها ضد عصيان محتشد يزود بالسلاح الأوربى والأمريكى . وكم من مرة ألمت بهم الكوارث والتقهقرات والانسحابات ، وارتفع شخص بعينه اسمه عبد الكريم إلى مرتبة الزعامة فى

الريف . وفى نفس الحين كانت فاس بيد الفرنسيين الذين مدوا سلطانهم وثبتوا أملاكهم إلى جنوبى أراضى قبائل الريف ، ممتنعين عن إسداء أى تعاون مع الأسبان حتى انقلب عبد الكريم فى ١٩١٥ يصوب مدافعه وبنادقه عليهم ويشير إلى احتمال بدء حرب طويلة خطيرة .

وسرعان ما بلغ عدد الرجال المشتغلين بتلك الحرب فى الجانب الفرنسى مئة وعشرين ألف رجل ، وأنتج قمع الفرنسيين للثورات فى مراكش صدى فى أراضى الانتداب السورية . فإن الدورز[1] ثاروا على الفرنسيين وأوقعوا بهم خسائر بالغة . وامتنع السكان العرب عن معاونة الفرنسيين وأصبحوا مصدر خطر عليهم . وأصبح الخطر على فاس خطراً على دمشق أيضاً . وإلى الجنوب استطاع العرب الوهابيون أن يرغموا ملك الحجاز الذى يحميه البريطانيون على التنازل عن العرش (١٩٢٣) ، وأن يدفعوه إلى المنفى . فاستولوا على مكة ومدوا سلطانهم فى تؤدة ورسوخ قدم فى الأراضى الحجازية المرموقة . وقامت بمصر اضطرابات لاتنقضى ، فإن المصريين تحت الحكم البريطانى كانوا أشبه شىء بلبن يغلى فى إناء مسبل الغطاء .

وفى كل مكان من العالم الإسلامى راحت إيطاليا وفرنسا وبريطانيا وألمانيا تقضى على الهيبة القديمة للعالم الغربى بما تقوم به أجهزة دعاياتها من نشاط وتستثير فى الإسلام وعيا ذاتيا جديدا . وأخذ الأتراك والعرب والمصريون والهنود المسلمون يتباحثون معاً فى الامبريالية الغربية ، واكتشفوا أن لهم مصلحة مشتركة فى القضاء عليها . وقد خفف للوقت الضغط الذى كان متسلطا على الفرنسيين فى مراكش ، ويرجع ذلك إلى ما رزقه الماريشال ليوتى من عبقرية عسكرية وإدارية ، فأسر عبد الكريم وأرسل إلى المنفى فى ١٩٢٦ . فأما الحكومة البريطانية

---

(١) إن الذى حدث فى الواقع هو أن الجنرال سراى الفرنسى دعا إليه زعماء الدروز ثم اعتقلهم فجأة وغدرا ، وفيهم عبد الغفار باشا الأطرش فثار الجبل كله بقيادة سلطان باشا الأطرش . (المترجم)

فإنها اتبعت عادتها القديمة من الرضوخ غير الكريم والإذعان تحت الضغط للشيء الذى كان ما فطر عليه التحرر الطبيعى لمواطنيها الإنجليز من الميل الى التفاهم وحسن النية مستعدا للسماح به عن طيب خاطر . فقبلت بعد كفاح دام طويلا بينها وبين زغلول باشا والهيئة الوطنية التى تكونت بمصر وسميت باسم الوفد المصرى ، إلغاء الحماية البريطانية على مصر وسمحت بإعلان استقلال مصر فى (١٩٢٨)[1] وجعله حقيقة فعالة . فحلت محل الحماية القديمة معاهدة تحالف هجومية دفاعية وضع مشروعها أولا فى ١٩٣٠ ووقعت فى (١٩٣٦) ، وبها أصبح فى الإمكان دخول مصر عضو بعصبة الأمم بوصفها دولة مستقلة ذات سيادة . وتعقد الموقف على البريطانيين فى شرق البحر الأبيض ، لأن وزارة الخارجية البريطانية أصيبت فيما يتعلق بالمسألة الفلسطينية بداء الشيزوفرانيا (الفصام النفسى) ، فأخذت تعطى الوعود المتناقضة للعرب واليهود الصهيونيين جميعاً . ومما يشهد بتفوق الادعاء التاريخى وتغلبه على الحقيقة الواقعة ، أن يتوج بالنجاح كفاح طويل ومعقد قام به فرع معين من المجتمع اليهودى فى العالم كله ، للعودة إلى بلد انقطعت صلته ولو الاسمية باليهودية منذ أيام الملك ألفريد الكبير (انظر الفصل ١٨ قسم ٢ ، ٣) ، بلد أعظم الاحتمالات أن الغالبية العظمى من أجدادهم لم يعيشوا فيه مطلقاً . ومن عجب أن مسألة قيام دولة إسرائيل الصغيرة الناطقة بالعبرانية أصبحت لدى عدد ضخم من اليهود العصريين الذين جمع التلمود وأسفار العهد القديم شملهم فى مجتمع واحد من العادات والسلوك والمعاونة المتبادلة — أصبحت من الأهمية القصوى بحيث غطت فى عقولهم تماماً على احتمالات أعظم من ذلك كثيراً ، هى احتمالات توحيد العالم التى تواجه البشرية . ومما يزيدنا أسفاً على ذلك الوضع ، ضياع رصيد الطاقة الفكرية الهائل والتعاون العالمى الرحب الذى تحول بهذه المسألة عن سبيل الخدمة العامة للبشرية . فإن الصهيونية جعلت اليهود يقفون بمعزل تام عن واجب بث الطابع العصرى فى المجتمعات السامية والإسلامية الأخرى ، التى ربما كنا نتوقع منهم أن يقوموا فيها بدور يتسم بالوداعة التامة . إنى لأكتب هذه التعقيبات الواضحة هنا وأضعها إلى جوار

(١) الصحيح أن ذلك كان فى ٢٨ فبراير سنة ١٩٢٢ . (المترجم)

انتقادات لى أشد قسوة وتعنيفاً لأفكار البريطانيين وأساليبهم . ويقينى أنه لن يقرأها يهودى واحد من المتمرسين بالصهيونية دون أن يصاب بالحنق الشديد والاستياء المرير والاتهام لى بأنى داعية شرير من دعاة « السياسة البريطانية » .

٨ - الديون والنقود والتثبيت النقدى.

أسلفنا إليك فى بياننا عن الثورة الفرنسية ، بحثاً فى العلاقات الأولية بين الائتمان والنقود وبين الحياة الاجتماعية . ولكن التزعزع الاجتماعى الذى ورثته فرنسا عن الثورة والحروب التى نجمت عنها ، كان تافها بالقياس إلى التخلخل الهائل بعد الحرب العظمى . فالمجتمع فى نهاية القرن الثامن عشر كان من جميع نواحيه مجتمعاً أشد بساطة وأكثر استقلالا من المجتمع الأوربى العصرى المعقد النسيج . وكانت حياته الاقتصادية والاجتماعية محصورة بين دفتى حدوده . ولكن الصعوبة الخاصة فى الموقف العصرى ، هى أنه بينما العلاقات وردود الأفعال الاقتصادية ، قد تسامت من أمد طويل على تخوم الدول القائمة ، بسبب التغير الضخم فى وسائل المواصلات ، وعلى حين أن فى الإمكان اليوم نقل السلع الغذائية الرئيسية والعمال كتلة وجملة من أى جهة فى العالم تقريباً إلى الأخرى — وهو أمر لم يشهد الناس له من قبل مثيلا إلا فى المؤن المرسلة إلى روما الإمبراطورية — كان الرجال لايفتأون يتعلقون بالأقسام السياسية الصغيرة ، والدول المنعزلة ذات السيادة ، المؤسسة فى ظلال الأحوال البائدة .

والحق إن التضليل والأوهام التى تساور الناس حول السيادة القومية وما يلازمها من ألوان التعصب نحو « الله والملك والوطن » وما إليها ، هى أفظع الخرافات الناشطة الأثر فى الناس فى هذا الزمان . ولابد لكل دولة من أن تكون حرة فى تكوين نقودها الخاصة بها ، وتنظيم ائتمانها ، وإعاقة مرور وسائل المواصلات فى أرضها وإقامة حواجز من التعريفة لإيقاف فيض التجارة . ولابد لكل منها أن تستدين ديونها الخاصة وأن تظل على ما هى عليه من الوقوف فى سبيل الغير وإظهار العداوة له والتسلح التام ضد جيرانها المماثلين لها مماثلة جوهرية . ولابد لكل منها من إقامة

نظامها التعليمي الخاص ، ومن تعليم النشء فيها تاريخاً متحزباً كاذباً ، وبث غرور قومي مسمم وعداوة للأجانب سامة في كل جيل جديد .

وكانت العقبي التي عادت على أوربا من تلك اللعنة الموروثة : الدول ذات السيادة ؟ التي لا يربطها فيما بينها اتحاد ، — تفاقم تعقيدها بسبب الموقف الدولي الحرج الذي ظهر عندما تكررت في أوربا على صورة أضخم كثيراً بعد الحرب العظمى ، عملية الارتباك والانهاك الاقتصادي التي أصابت فرنسا بعد الثورة الفرنسية . لقد عض الفقر كل دولة ، ولكن كل دولة كانت قد جمعت حساب الديون التي لها على كل دولة أخرى مقابل المساعدة القومية في الحرب التي كانوا فيها حلفاء ، كذلك فرضوا على المغلوبين فريضة من ديون خيالية مضحكة . ومع أن الولايات المتحدة كانت في المدة الأخيرة من الحرب العظمى خصماً لألمانيا ولقيت من الآلام أقل من أية دولة أوربية لها أصبع في الموضوع ، فإن الذخائر والميرة الأمريكية قدمت لكل حلفائها بثمن باهظ مبالغ فيه ، فكانت أوربا لذلك مدينة عند ذاك لأمريكا ديناً يعقد الألسنة دهشاً .

ولا شك أن الرفض الصريح لمعظم ديون الحرب ومدعيات الحرب هذه كان خير ما يصفي الجو في العالم بأكمله ، ولم يكن شيء ليستطيع أن يتذرع بالقدر اللازم من الجرأة والصراحة إلا حكومة اتحادية قوية في أوربا . ولكن لم تكن لأوربا حكومة اتحادية ، ولا سياسيون عالميون ولا قادة رحيبو الفكر ، بل كان هناك كل ضيِّق الأفق من الملوك ورجال الدولة والسياسيين وزعماء رجال الأعمال الذين يعتمدون على التعريفة الجمركية ، والصحف المحدودة الأفق القاصرة نظرتها على لغتها ومناطق توزيعها ، والمعلمين الذين تعولهم الدولة ، والجامعات القومية وجماعات الماليين « الوطنيي النزعة » ، وكل كان ينخلع فؤاده فرقاً لمجرد التفكير في أي نظام أكبر من نظامهم يمحو المزايا الشخصية العميقة التي ينعمون بها على حساب الدولة الأوربية الحرة (Commonweal) . إنهم ليرفضون أن تكون لهم أوربا مشتركة . وإنهم ليأبون أن يسمعوا في ذلك كلمة واحدة . وإنهم ليفضلون أن تموت أوربا على

أن تزول قومياتها . وكأنى بهم ذباب يقع على كومة من قاذورات ويأبى إلا أن تبقى ليستمتع بها ما ساعفه الاستمتاع .

وهكذا فإن أوربا إلى الغرب من الروسيا دخلت من الناحية السياسية فى د تقمصت فيه شخصية شايلوك[١] ، فإن الخطط المدبرة لتسديد ديون الحرب الخيالية هذه كانت تستنفد الطاقة الذهنية بأكملها للرأى العام ، وفى نفس الوقت اتبعت كل دولة ذات سيادة طرائق خاصة بها فى شئون النقد . وحلت كوارث الفقر ومحنه بكثير من الناس ، وأثرى الكثيرون ثراء فاحشاً خيالياً عن طريق المضاربات ، ولاح للناس أن إنفاق النقود أصوب من جمعها . فلئن توقف إنشاء المنازل للناس العاديين ، فلم يكن هناك ما يحول دون بناء وتحسين فنادق الترف . ولم يحدث قط فى أوربا مثل هذا الاقبال الشديد على الرقص ولم يحدث قط مثل ذلك الاهتمام الكبير بإقتناص اللهو واللذات . وكان وجه أوربا يتوهج بحمرة الحمى المهلكة .

وجاء انهيار النقد فى الروسيا أولا . وهناك شجعته الحكومة الشيوعية ورحبت به . فأخذت المطابع تنتج الروبلات بلا حساب ، وهبط التبادل وارتفعت الأسعار حتى أصبحت البيضة أو التفاحة تباع بعشرة آلاف روبل . ولم يعد للفلاح ما يدعوه إلى اكتناز النقود أو إلى العمل من أجل اكتنازها . وكان فى نية غلاة الشيوعيين إلغاء كل بيع أو شراء حر . وكانوا يرمون إلى جعل النقود بلا قيمة . على أن يقدر عمل المواطن ببطاقات تسلم إليه على فترات دورية ولا يمكن تبادلها بين الأفراد ، ولكنها تحمل كوبونات قابلة للفصل تنتظم الطعام والكتب والسفر وما إليها . ولكن الحكومة البلشفية اقتنعت فى ١٩٢١ بالحاجة إلى استعادة هذه السيولة الاقتصادية التى لايتيحها لنا النقود ، وظهرت عملة روبل جديدة ، كان فيها كل روبل مساوياً لعشرة آلاف من القديمة . واستبدلت بهذه فى ١٩٢٣ عملة الشرفونتز (Chervonetz) وهى روبل ذهبى يعادل فى القيمة الروبل القيصرى قبل الحرب . وذلك هو قاعدة العملة اليوم . وقد أصدر بحكمة وتبصر فاحتفظ بقيمته إلى

---

(١) شايلوك : شخصية مراب يهودى جشع فى رواية تاجر البندقية لشكسبير . (المترجم)

يومنا هذا ، وهو يسجل عجز النظام الاقتصادى البلشفى عن فصل نفسه عن الأساليب والتبادلات والديون المعقدة القائمة إلى الغرب منه . فإن مسالة النقود فى العالم واحدة ولا يمكن أن تحل إلا بوصفها مسألة عالمية .

ولم تجر إلى الغرب من الروسيا أية محاولة للتخلص من استعمال النقود تخلصاً نهائياً ، ولكن كان هناك فى كل دولة تضخم يتفاوت مقداره . وكان ابتلاء ألمانيا بالنقود بالغا أقصاه وهو يبرز لنا العملية العامة فى أكمل صورها . ولجأت الحكومة إلى المطابع لعجزها عن أن تجمع بالضرائب الأموال الكافية لمقابلة التزاماتها الخارجية وحاجاتها الداخلية . وكلما زادت مقدار الماركات المتداولة ، ارتفعت تكاليف الإدارة وارتفع سعر العملة الأجنبية اللازمة لدفع التعويضات وهذا الأمر استلزم من الحكومة اللجوء مرة ثانية إلى المطبعة . وفى يناير ١٩٢٣ بلغت قيمة الدولار ٧٢٦٠ ماركاً . ثم حدث انهيار سريع . فإنه كان يساوى فى فبراير ٢١٢١٠ ماركا ورقياً . وتجاوز فى يوليه حد المليون . وفى نهاية السنة كان قد بلغ أربعة بلايين من الماركات الورقية .

وكانت الآثار الاجتماعية لهذا التغير الخيالى المضحك للنقود الموثوق بها وتحولها إلى ورق لا قيمة له ، آثاراً عميقة حقاً . فإن جميع طبقات الناس الذين يعيشون على استثمارات ذات فوائد ثابتة كأرباب المعاشات والأرامل والأيتام ذوى المرتبات السنوية وغيرهم ، — قد أدقعت ودفعت إلى إتيان أحقر وأذل الوسائل فى سبيل العيش ؛ وتوقفت كل أعمال النشاط العلمية والأدبية والتعليمية المعتمدة على الهبات . ولم يستطع الموظفون ولا المدرسون ولا أرباب الحرف ومن إليهم من أشخاص يعيشون على مرتبات ثابتة أن يزيدوا أبداً فى دخلهم زيادة تتناسب مع ارتفاع الأسعار . وكان ما يحدث إنما هو فى الواقع نوع من الذبح الاقتصادى للمتعلمين الفقراء . واختفت الإيجارات من الوجود ولكن أثمان جميع الضروريات حلقت فى السماء تحليقاً مضحكاً .

وفى نفس الوقت أصبح كل راهن أملاكه وكل شركة أعمال فى مركز يخولهم أن يدفعوا ديونهم ورقاً لا قيمة له ، وتبخر دين الحكومة للداخلى وسُلف البلديات .

فى الداخل وانقضى وقت نشطت فيه عمليات التصدير نشاطاً محموماً . وأصبح من الضرورى فرض حواجز قوية لمنع تصدير كل شىء ثمين فى البلاد . ولكن استيراد الطعام والمواد الخام هبط إلى لا شىء ، وهبط استخدام العمال هبوطاً سريعاً بعد أن ابتدأ بنشاط قوى . وأمسى الطعام نادراً فى المدن لأن الفلاحين ، وقد أدركوا إنعدام قيمة النقود لم يعودوا يقبلون فى التعامل إلا طريقة المقايضة . وكان الجوع والألم والهم نصيب كتلة الطبقات الوسطى والفقراء الطيبين المقتصدين . وارتفعت نسبة الانتحار ارتفاعاً شديداً . وهبطت نسبة المواليد ١٥ فى المئة بالمقارنة إلى السنة السابقة . وبالرغم من هذا فإن نسبة وفيات الأطفال زادت ٢١ فى المئة .

وكانت المتاعب السياسية تضطرم فى كل مكان حركات رجعية وعصيانية . ولعل شعباً واحداً لم يكن ليستطيع تحمل هذه العاصفة إلا الألمان ، ذلك الشعب المتعلم النظامى . وفى نوفمبر أنشأت الحكومة عملة جديدة . فأصدرت ماركاً جديداً هو « الرنتمارك » بضمانة ما فى البلاد من الأرصدة العامة ، وأوقفت طبع الماركات القديمة ؛ وكان المارك الجديد ماركاً مكافئاً لبليون من المارك الورقى . وترتب على تقييد الطبع تقييداً شديداً ، أن ارتفع المارك الجديد بالتدريج حتى بلغ مراقى النجاح ، وبذلك استطاعت ألمانيا أن تعود أيضاً إلى ولائها القديم لمعيار الذهب . وحل الرايخ مارك الذهبى محل الرنتمارك فى ١٩٢٥ ، بقيمة معادلة لقيمته ، ومن ثم أخذت الدولة فى سحب الرنتمارك شيئاً فشيئاً .

وقد حدث فى أقطار عديدة من أمثال النمسا وبولندة أن قصة النقود أوشكت أن تبلغ فيها مبلغها المحزن فى ألمانيا . وظلت كل منهما تترنح حتى عادت إلى عملتها الحالية الجديدة المعدلة . فاستخدم النمسويون عملة جديدة للمحاسبة هى الشلن ؛ وأوجد البولنديون الزلوتى وكلاهما يعتمد على أساس الذهب ، فأما عملات الأقطار الأخرى من أمثال تشيكوسلوفاكيا واليونان وفنلندة ، فإنها وإن تضخمت ، فلقد تضخمت فى حدود الاعتدال واحتفظت بوحدتها النقدية الأصلية فى ضرب من الثبات على صورة تعدل خمس أو سدس قيمتها الذهبية السابقة . وتضخمت عملة إيطاليا وفرنسا والبلجيك فى حدود أضيق من هذا كثيراً . فهبطت الليرة من ٢٥ إلى مئة للجنيه الإسترلينى

قبل زمان موسولينى ، وبعد أن مرت فى دور من أدوار الطمأنينة المشكوك فيها أخذت تواصل الهبوط تدريجياً إلى ١١٠ و١٢٠ و١٣٠ . وعند ذلك وضعت فى حالة من التضييق القاسى « وثبتت » على مستوى جديد يزيد قليلا على ربع قيمتها الأصلية . على أن الفرنك الفرنسى والبلچيكى والبزيتا الأسبانية هبطت بدرجة أبطأ منها نوعاً ما . وتجاوز الفرنك حد المئة للجنيه فى ١٩٢٥ ، ثم أصيب بأزمة ، وحدثت نوبة ذعر مالى عُدّل بعدها إلى خمس قوته الشرائية قبل الحرب الأولى .

وتدهور الجنيه البريطانى عن قيمته الذهبية بعد الحرب العظمى ، ولكنه لم يبلغ قط إلى حد فقدان أكثر من ثلث قيمته ، وفى ١٩٢٤ — ١٩٢٥ ، وبعد مجهودات مضنية وتقييد للائتمان ، وإيقاف للمشروعات والأعمال وأزمة خطيرة فى البطالة ، جُذب من جديد إلى معادلته القديمة للدولار الذهبى . ومرت على الأقطار السكندناوية وعلى هولندة وسويسرا تجارب صغيرة نسبيا فى ارتفاعات العملة وانخفاضاتها .

وما هذا إلا تاريخ العالم نسطره لك على هيئة الحساب والأرقام . ولا بد للقارئ من أن يتخيل بنفسه ضخامة المخاوف وصنوف الحرمان والقلق واليأس القاسى والمحن الفاجعة والأمراض والقنوط والموت التى سببتها هذه الألاعيب البارومترية القلابة فى العملات الأوربية لو أنها ترجمت إلى لغة الشعور الإنسانى .

وعادت بريطانيا بصعوبة إلى معيار الذهب ردحاً من الزمان . ولم تقدم للعالم عملة مثالية ، ولكنها لاحت خير معيار فى مستطاع العالم ، على حين كانت النقود ما تزال تحت هيمنة عدد كبير من الحكومات المستقلة . ونظراً لأنه لم تكن هناك حكومة عالمية عامة ولا حكومة اتحادية تستطيع أن تتصرف فى هذه الشئون ، فقد لاح من الضرورى أن يسلم الناس السيادة الاقتصادية فى الأرض إلى أحد المعادن . وكان المعدن مادة مواتاً ، ولم يكن يستطيع أن يستجيب للزيادة والنقصان فى الثروة الحقيقية ، وكان يجعل كل نشاط إنتاجى جديد يدفع الجزية لأرباح الماضى . ولكنه لم يكن على الأقل يستطيع أن يغش أو يكذب ولم يكن كالبشر فيه شىء من سوء الظن بالغير والتحامل الوطنى على الغير .

ولكن كان فى المستطاع إمساكه واحتباسه . وكان من أثر دفعات الدين الهائلة التى دفعت لأمريكا وفرنسا أن تراكمت كميات عظيمة جداً من الذهب فى هذين القطرين . وهناك اكتنزوه وأصبحت القيمة الفعلية للدولار المسكوك من الذهب أقل من عملة «دولار الذهب» الورقية العادية . وكانت العودة إلى معيار الذهب فى زمان كانت فيه إنتاج السلع يفوق على وجه العموم إطلاق الذهب لتصنع منه النقود — أمراً لصالح الدائنين دون غيرهم . هبطت الأسعار فجنى الدائنون أكثر مما بذروا وتعرقل كل جهد ومسعى اقتصادى .

٩ — الانهيار العظيم فى ١٩٢٩

سار العالم فى طريق الانتعاش حتى شتاء ١٩٢٩ . وكان لا يزال يعانى من آثار الحرب ، وكانت تتنازعه عوامل التبدد والارتباك من أكثر من ناحية ، ولعله كان فى غير وعى منه يرجو ظهور عام ١٨٣٠ — أو١٨٤٨ لكى يصفيا له المسائل وينقيا الجو من حوله . على أن الزمن كان يخبئ له شيئاً مختلفا عن ذلك تماماً ، ولم يكن ذلك ثورة يوجهها رجال — مهما يكن عدم كفايتهم عمليا — فقد كان لهم مثل عليا تلهمهم وأفكار يقدمونها لأتباعهم من الناس ، ولكنه كارثة عامة مجتاحة وقاسية ، لم يفهم العالم مصدرها ، وكانت عواقبها شراً كلها عليه . وقد شددنا من التأكيد فى الأقسام السابقة من هذا الكتاب ، على عيوب عالم ما بعد الحرب وخيبات آماله ، بحيث لم يعد يجب علينا أن نوجه إلا متسعا صغيراً من الكتاب لتبيان السبب الذى من أجله أصبحت سنة ١٩٢٩ لدى ملايين من الناس سنة أخيرة فى السنوات الذهبية التى كانوا يشخصون إليها بأبصارهم .

وأول أسباب ذلك شعورهم بالأمن من الحرب . أجل إن عصبة الأمم كانت حتى آنذاك مجرد عصبة لبعض الأمم فقط ؛ فقد ظلت الولايات المتحدة غائبة عنها غيبة المغضب ، ولم تكن الروسيا ميالة إلى دخولها كما لم يسمح لها أصحاب العصبة بالانضمام إليهم . وعلى الرغم من قص جناحيها على تلك الشاكلة ، فإنها حالت دون اتساع رقعة

حروب صغيرة شبت فى جزر الآلان وسيليزيا ومقدونيا ؛ أجل ربما لم تجمع من القوة ما يمكّنها من إيقاف الدول الكبرى عند حدها ، ولكن دولة واحدة كبرى لم تبد رغبة فى تحديها . مثال ذلك ، أن إيطاليا أعلنت أن « الفاشية ليست سلعة للتصدير للخارج » وغالبا ما أظهرت نحو رأى العصبة من الاحترام أكثر مما كانت تظهره كثير من الدول الأخرى الأكثر ديمقراطية . وثانيا : حدث تقدم عظيم فى المعرفة العلمية والصناعية ؛ وكان مما أدهش الرجل العادى بوجه خاص اتخاذ الطيران وسيلة عادية وبسيطة للسفر وشيوع استخدام اللاسلكى فى التواصل بين أجزاء العالم ، وأخيراً جاءت فترة يسر ورغد للرجل العادى . أجل كانت هناك مستثنيات من هذه القاعدة العامة ، فكان ثم بريطانيون حتى من الماليين الذين تركوا مليون رجل عاطلين بلا عمل يعملونه ،وكان ثمة قطر مثل بلاد الصين ، حيث الفقر داء متوطن . ولكن سكان العالم على الجملة كان لديهم متسع أكبر من الوقت للمتعة والتسلية وقدر أكبر من المواد الغذائية مما كان لديهم من قبل . أجل إن سكان الولايات المتحدة كانوا يبدون فى صورة الثراء الذى يكاد يكون خياليا . وقد انعكست هذه الأحوال الميسّرة السهلة ، حرية سياسية أكبر . حقاً إن شعوب شرق أوربا لم تكف عن اضطهاد أقلياتها ، ولكنها أصبحت أكثر اعتدالا . وعادت لجان العصبة المختصة بالأقليات والانتدابات بالخير العميم ، إذ جعلت الظلم والاضطهاد أصعب منالا وأبغض إلى النفس . أجل إن أمم الشرق الأدنى كالعراق ومصر لم تحصل على حكومات غير فاسدة ولا ديمقراطية حقاً ؛ ولكن الحكومات التى قامت بها لم تكن تقل عن حكومة بريطانيا فى القرن الثامن عشر ، وهو تقدم عظيم فى تلك الظروف . ولقد بلغ الأمر أن كان هناك تقارب بين الإنجليز وبين الوطنيين الهنود . وتغيرت الظروف ، فكف العالم الخارجى عن ملاحقة الروسيا بالإيذاء ؛ ودارت خصومات بين تروتسكى وستالين ، حول إمكان قيام « الاشتراكية فى دولة واحدة بمعزل عن الدول الأخرى » ، فاز فيها الثانى وطرد تروتسكى من البلاد (١٩٢٧) فخرج حاملا معه نظريته فى :

« الثورة المستديمة[1] » . ولم يحزن لذلك من أحد سوى الثورويين المحترفين . ولم يلبث الاتحاد السوفييتى أن تحول فى السنة التالية إلى « مشروع خمس سنوات » بقصد التزود بالصناعة ، وهو أمر بدا فى عين جيرانه على كل حال — ضمانا للمقاصد السلمية . وكان الاعتدال الذى عامل به البلاشفة زعيمهم المخلوع الذى لم يزد خروجه من البلاد على كونه نفيا — كان ذلك لاعتدال إجراء اعتبر نقيضاً للوحشية التى أبدتها الثورة الفرنسية .

ويذكر كل من عاشوا أزمة ١٩٢٩ كيف بدأت فى شارع وول ستريت (Wall Street) فى الرابع والعشرين من أكتوبر . وكانت بوادرها عاصفة هوجاء من بيع الأسهم وانحدار سريع فى الأسعار وهبوط شديد فى الضمانات التى كان عُقلاء المشتغلين بها يعرفون أنها متضخمة السعر . ولكن الذعر شاع منذ تلك اللحظة حتى شمل سطح الأرض بأجمعه شلل صناعى ، والشلل هنا كلمة تناسب المقام ، وذلك لأن الانهيار كان أشبه بمرض ، ولكنه مرض لا سبب له فى الطبيعة . وكان انتشار الجوع والمصانع الصامتة والبضائع الملقاة جانبا والرجال المتعطلون ، — نتائج طبيعية لأعمال البشر . أجل لم تحدث مجاعات ولا فيضانات ولا كوارث قومية ولو أنه حدث ذات يوم فعلا أن الناس صلوا إلى الله طالبين إليه أن ينزل بهم هذه الشدائد جميعاً لتخلصهم مما كانوا فيه من عسرة ؛ ولم تحدث حتى أية حرب ولا أى فساد فى الأرض . ومع ذلك ، فقد حدث فى أغنى بلاد العالم وهى الولايات المتحدة فيما يقول المستر هامبدن جاكسون : « أن ما يدانى العشرين مليونا من الأنفس كانوا يواجهون الموت جوعاً وبرداً فى الشهور الأولى من ١٩٣٣ » . وكانت أحوال الأقطار الأقل ثراء أسوأ نسبياً . ودامت الأزمة إلى ما بعد ١٩٣٣ — بل لقد يمكن القول أنها لم تتوقف حتى جاءت الحرب والاستعدادات للحرب فوضعت حداً لها .

---

[1] (١) يشير الكاتب إلى المبدأين الأساسيين اللذين قامت عليهما ثورة البلاشفة وسياستهم وهما : (ا) الدولية الثالثة أى نشر المبادئ الشيوعية فى العالم و (ب) الثورة وحرب الطبقات .

(المترجم)

وكانت هناك أزمات تجارية دامت ما يقارب القرن . وكان الاقتصاديون يشهدون هذه الأزمات دون تأثر ولا انفعال كأنما هي ظواهر لاسبيل إلى ضبطها والتحكم فيها (وهو شأنها فى الواقع ، ما دامت الملكية الخاصة بمنجاة من كل تحكم أو رقابة) ، وكانوا يلاحظون أن تلك الأزمات تعاود الظهور كل عشر سنوات تقريباً . ولكن أزمة واحدة من تلكم القديمة لم تكن طاحنة كهذه ؛ وذلك أن هذه الأزمة الأخيرة قد زاد من حدتها حماقات معينة ارتكبت . وقد ذكرنا لك آنفا معظم هذه الحماقات ، ولكن ربما كان القارئ فى حاجة إلى تذكيره بها . وكانت أولى الحماقات الفقرات السياسية والاجتماعية التى وردت فى معاهدة ڤرساى ، فقد تحققت فى النهاية تنبؤات كاينز وغيره من الرجال إذ تحطمت وحدات قديمة التكوين مثل الإمبراطورية النمسوية ، وقامت مكانها دويلات صغيرة هزيلة كل تحيط نفسها بسياج من التعريفة الجمركية . وحتى الاصلاحات المرغوبة فى حد ذاتها قد تجلى أنها مصدر خطر ؛ فمثلا كان إحلال الفلاح المالك مكان كبار أصحاب الأملاك شبه الإقطاعيين فى وسط أوربا وشرقها ، سببا فى إحداث هبوط فى الإنتاج الزراعى ، فى بلاد لم تكن بمستطيعة أن تعيش إلا على الزراعة . ومما زاد الطين بلة ، سوء أثر « التعويضات » — فإن الاعتقاد بأن دول الحلفاء تستطيع أن تعيش إلى الأبد على حساب ألمانيا ، أخذ يؤتى نتائجه السيئة التى لامناص منها . وقد قدر أن مشروع داوز كان يعنى أن ألمانيا تستطيع دفع ٨٠ ماركاً فى الثانية الواحدة أى ٢٨٨,٠٠٠ ماركاً فى الساعة لمدة لاحد لها ؛ وجاء التعديل الذى أدخله مشروع يونج محدداً للمدة إلى ٥٩ سنة . . . ولم يكن تحقيق مثل هذه الأحلام الجشعة ممكنا ما لم تكن أمريكا مستعدة لإقراض النقود لألمانيا بلا حساب لتمكينها من الدفع ، فما يكاد ذلك الوضع يتوقف حتى يكون فى توقفه انهيار ألمانيا بل وكل من يعتمدون عليها . والراجح أن شر ما جلب الكوارث على العالم سياسة الولايات المتحدة المالية . فإن الولايات المتحدة حاولت ما وسعها الجهد أن تتوصل بكافة الوسائل عدا الحرب إلى حمل حلفائها على تسديد « ديون الحرب » . وفى الحين نفسه كان

القائمون على الحكم لدى الحلفاء ، وهم قوم يجمعون بين قصر النظر والجشع يحولون دون تسديد الدفعات . وانتهى الأمر بأن صار لابد من دفع جميع المدفوعات المالية ذهباً أو عيناً ، وأخذت مجالس الكونجرس الأمريكية المتعاقبة تزيد فى التعريفات حتى صارت البضائع الأجنبية مبعدة ابعاداً فعلياً . (وقد نفذت آخر تعريفة جمركية معروفة فى عام ١٩٣٠) . وأمكن إلى حين تجنب المشكلة بتكديس قناطير مقنطرة لانفع لها من الذهب سحبت من كل بلاد العالم وأودعت فى فورت نوكس ، وكذلك أمكن تجنبها فترة أطول قليلا بما قدمته الولايات المتحدة من قروض للأقطار المدينة ، ولكن لايغيبن عن البال أن الكارثة لابد وأن تقع بمجرد المطالبة بتلك الديون . وكأنما شاءت الولايات المتحدة التحقق من مكابدة شعوب تلك البلاد العذاب الشديد ألواناً ، فعمد رجال الأعمال فيها إلى طريقة البيع بالتقسيط المسماة (الشراء بالإيجار) ونشروا ذلك بحيث أن عائلة من كل اثنتين أصبحت مدينة بثمن سلعة أو أخرى ، وزادت المقامرة بالأسهم والسندات فى المدن الكبرى زيادة فاحشة حتى لقد اشترك فيها العمال وصغار الموظفين .

وكانت لهذه الكارثة التى أصبحنا نراها اليوم خطاً فاصلا فى التاريخ ، نتائج سياسية مزدوجة . فسقطت الحكومات فى البلاد التى كان فى الإمكان تغيير حكوماتها بمقتضى الدستور . فإن كانت « يسارية » تولت الحكم فيها حكومة « يمينية » والعكس بالعكس — وكان الأمر كله تقريباً يقوم على محض الصدفة . فإن كانت فى دست الحكم ديكتاتوريات ، صارت الحكومات عديمة الرحمة فى الداخل ، وأدركت من حيث علاقتها بالخارج أن فى إمكانها فى خاتمة المطاف أن تتصرف حسبما يمليه عليها أشد نوازع الجشع فيها . ولم يعد لدى الدول المحبة للسلام أية قدرة ولا رغبة فى حماية بدايات المنظمات الدولية ؛ وأصبح فى إمكان الدكتاتوريات مهاجمة جيرانها الأضعف منها (بل لقد هاجمتها فعلا) وبذا بدأت تدب فى الطريق الموصل إلى الحرب العالمية الثانية .

وقد حادت بعض البلاد إلى طريق « اليسار » كما كانوا يقولون . وسارع ألفونسو ملك أسبانيا إلى مغادرة بلاده وتركها للجمهوريين . وكان الرئيس هوفر طالما ادعى

وادعى معه الحزب الجمهورى بالولايات المتحدة أن الفضل يعود إليهم فى رخاء أمريكا ولهذا لا يمكن إلا أن تعود عليهم اللائمة فى حدوث هذه الكارثة ، فطردتهم من الحكم فى ١٩٣٢ جماعة الناخبين التى ظلت تحقد عليهم عدة سنوات أخرى . واضطر ملك سيام إلى التنازل عن سلطاته الاستبدادية فى العام نفسه ، وقبول نوع من الرقابة الشعبية على أعماله . ولكن هذه هى الحالات الوحيدة التى حدثت بمناطق شديدة التباعد فى أرجاء العالم كله ، والتى أحدث فيها الرجال رد فعل على الأزمة بإظهار عزم جديد على التصرف فى أمورهم بأنفسهم ، فأما فيما عدا ذلك من أماكن فقد اقتصر الوضع على التفجع واليأس ، أو الاستسلام لابتعاث الوسائل القديمة من الطغيان أو العنف .



(شكل ٢٢١)

وانتشرت كالبثور فى أرجاء أمريكا الجنوبية موجة جديدة من الدكتاتوريات .

فركز جيتوليو ڤارجاس نفسه فى البرازيل فى أخريات ١٩٢٩ . وفى العام التالى أصبحت بوليڤيا وپيرو والأرجنتين دكتاتوريات هى الأخرى ؛ وتبعتهن شيلى فى ١٩٣١ . وفى ١٩٣٢ تجاهلت بوليفيا وپاراجواى رجاء عصبة الأمم واشتبكتا فى حرب ضروس دامية بسبب غابة تسمى جران تشاكو ؛ وكانت الحرب فرصة انتهزها دعاة الفاشية والنازية لدخول أمريكا الجنوبية وممارسة مهنتهم المختارة . فأما فى الهند ، فانتهت فترة التعاون الوجيزة بين الهنود والبريطانيين بمعاودة حركة « العصيان المدنى » فى ١٩٣٢ ؛ وفى الشرق الأدنى طرد الملك فؤاد ملك مصر برلمانه ، واحتفلت الحكومة العراقية فى ١٩٣٣ بحريتها الجديدة من قبضة البريطانيين بإعمالها الذبح قصداً وبهدوء تام فى الأشوريين لأنهم مسيحيون .

وإذا نظرت إلى أوربا ، وجدت پيلسودسكى يكبل الانتخابات البولندية بالأغلال ليجعل من نفسه دكتاتوراً فى نهاية ١٩٢٩ ؛ وتخلص ملكا يوغوسلافيا ورومانيا الإسكندر وكارول من الرقابة البرلمانية ، وأقيمت دكتاتورية بلغارية عسكرية فى ١٩٣٤ ، كما قامت أخرى يونانية (برئاسة متكساس) فى ١٩٣٥ . وانتقلت أستونيا ولتفيا إلى الحكم الدكتاتورى فى ١٩٣٤ . وأهدى سالازار دكتاتور البرتغال إلى نفسه سلطاناً قانونياً جديداً فى ١٩٣٣ : وقضى دولفوس وهو سياسى كاثوليكى نمسوى على الاشتراكيين النمسويين بالقوة والعنف فى ڤيينا ، وأنشأ دولة فاشية فى فبراير ١٩٣٤ . ولعل أسوأ نتائج الأزمة تأثيراً فى المستقبل ، تسليم مقاليد السلطة للنازيين فى ألمانيا فى ١٩٣٣ ، وسنعاود الحديث فى ذلك فيما بعد ؛ ولكن أشد الحركات إزعاجاً للعالم آنذاك كان غزو اليابان لمنشوريا فى ١٩٣١ . فإن ضباط الجيش طردوا حكومة اليابان السلمية من الحكم ، ثم قتلوا بعد ذلك أهم أعضائها بطريقة منظمة . وصدق حدس الحكومة الجديدة حين زعمت أن دول العصبة لن تتدخل ، فتلمسوا ذريعة تافهة لغزو منشوريا ، وهى ولاية صينية لم يتمكن تشيانج كاى شك من فرض سيطرته عليها ، ومن ثم احتلوها ورفضوا التحرك منها .

والشىء الذى جعل الأزمة تبدو مستعصية على الحل (وإن كانت أسبابها أعمق كثيراً دون ريب) هو مجرى الأحداث ببريطانيا . ذلك بأن لندن لم تبرح مركزاً لعالم

المال . وكانت الحكومة البريطانية حكومة عمال برأسها سياسى مبهم الأقوال اسمه رامساى مكدونالد . ولم تكن تقوم على أغلبية فى البرلمان ، ولو أنها أرادت أن تواجه الأزمة بسياسة اشتراكية ، لما مكنها المجلس من عمل ذلك ، وقصارى القول أنها لم تستطع عمل شيء .

وتوقف استثمار الأموال الأمريكية فى ألمانيا والنمسا فى ١٩٢٩ . ولكن الماليين المقرضين الأمريكيين بدأوا يسحبون قروضهم فى ١٩٣٠ عندما زادت حال وول ستريت سوءاً ويأسا ، وفى مدى أربعة أشهر اضطرب موقف بنك الائتمان (Credit Anstalt) ، وهو البنك الذى كان يمول معظم الصناعات النمسوية وواجه الإفلاس ، واقترح الرئيس هوفر إنشاء موراتوريوم فى دفع التعويضات ، واقترح برونتج مستشار ألمانيا إقامة اتحاد جمركى مع النمسا . ولكن حال دون تنفيذ الاقتراحين سياسى اسمه تارديو كان يرأس حكومة فرنسا وكان يرى أن معاهدة فرساى « شديدة الاعتدال » . واضطرت البنوك البريطانية والألمانية إلى تقديم القروض لإنعاش البنك النمسوى ؛ وبذلك أوقعوا أنفسهم فى المحظور وعرضوا مراكزهم للخطر . وهرع الناس إلى البنوك الألمانية يطلبون ودائعهم . وفى يوليه ١٩٣١ انهار بنك دارمشتادت الشهير . وعندئذ وقع الثقل كله على لندن ، واشتد اندفاع الناس على الذهب بحيث تجلى تماماً فى أغسطس أن بنك إنجلترة لن يستطيع البقاء بغير تلقى مساعدة من الخارج . ولم يكن الذهب موجوداً إلا فى باريس ونيويورك ؛ فأما باريس فتأبى أن تقرض فلساً واحداً ؛ وأما نيويورك فأصرت على تغييرات فى السياسة البريطانية (أهمها تخفيض إعانات العمال العاطلين) وهو أمر لم تقبله الوزارة البريطانية . واتفق مكدونالد رئيس الوزارة مع خصومه المحافظين على طرد حزبه من الحكم وأقام « حكومة قومية » لإنقاذ الجنيه . ولكن أنّى للجنيه أن ينقذ ؟ وفى أواخر سبتمبر أقر البرلمان مشروع قانون بالتخلى عن معيار الذهب . وهبط الجنيه خمس قيمته ، وعندئذ وجدت جميع البلاد التى وثقت بلندن واتخذت منها بنكاً لماليتها وأدارت تجارتها على الجنيه الاسترليني ، — وجدت نفسها مضطرة أن تتخلى عن الاسترلينى الذهب هى أيضاً . لقد تحطمت جميع نظم العالم المالية والتجارية القديمة .

ونجحت الحكومة البريطانية الجديدة فى إلصاق اللائمة كلها عن الأزمة بالحكومة التى سبقتها ؛ ولذا فإن الانتخابات العامة التى أجريت فى ١٩٣١ أسفرت عن حصول الائتلاف القومى على ٥٧٠ مقعداً والعمال ٤٦ مقعداً ومع أن هذا الحجم الجبار الذى أحرزته الأغلبيه انخفض فى ١٩٣٥ ، فإن الانتخابات كانت بادئة عهد حكم دام تسع سنوات مستمرة لإقلية محافظة صغيرة . واحتفظ الجميع باسم « القومية » هذا لأغراض انتخابية ، وكان هناك « الأحرار القوميون » و « العمال القوميون » ؛ ولكن الأغلبية الهائلة كانت من المحافظين . وكانت مقاليد الأمور فى يد دائرة أحاطت أولا بالمستر ستانلى بلدوين ثم بالمستر نيڤيل تشمبرلن ؛ وأبعد ونستون تشرشل وأتباعه عن كل عمل . وكان السياسيون الفرنسيون أقل حظاً . ففى ١٩٣٦ تمكن ائتلاف جمع بين الراديكاليين والأشتراكيين والشيوعيين وتسمى باسم « الجبهة الشعبية » من إخراج العصبة الحاكمة فى البلاد من مناصب الحكم .

وألقيت السياسة الداخلية للولايات المتحدة بكليتها إلى يد رجل أخذ نفسه بمبدأ المحاولة والتجريب . ولم يكن الكونجرس ولا الشعب ميالين إلى معارضة ولا حتى نقد أى علاج للأمور كان يقترحه فرانكلين ديلانو روزفلت . وكان ذلك الرئيس لا يعتنق أية فلسفة منظمة فى الحكم ، ومن ثم كان يتعمد قاصداً تجربة شىء بعد آخر . كان عمله يقوم على فكرة « تصيب أو تخيب » ، وراقت الفكرة لدى مواطنيه كل روق حتى لقد أبوا أن يتخلوا عنه رغم ما لقيه من معارضة عنيفة . فانتخب رئيساً للولايات المتحدة فى ١٩٣٢ ، ثم أعيد انتخابه فى ١٩٣٦ ، ١٩٤٠ ، ١٩٤٤ ؛ ولم ينته حكمه إلا بوفاته (وهو الرئيس الوحيد الذى تتناسب لفظة « حكم » مع رياسته) . وكان أول مشروعاته مشروع قانون الإصلاح الزراعى[١] (AAA) وقد قصد به رفع أسعار منتجات المزارع بتخفيض الإنتاج ؛ ومشروع قانون الإنعاش الصناعى[٢] القومى (NIRA) الذى حاول أن ينعش الصناعة بإقناع أصحاب الأعمال والمصانع بمراعاة « أصول » ترفع الأجور وتخفض ساعات العمل وتحسن أحواله

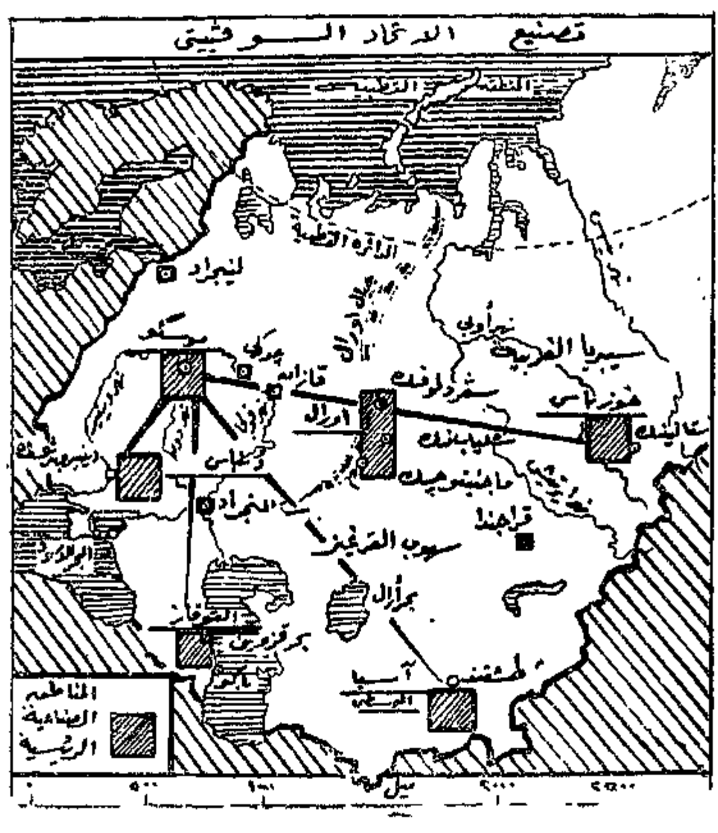
(١) Agricultural Adjustment Act.

(٢) National Industrial Recovery Act.

وتحرم استخدام الأطفال فى الصناعة . وقد تعثّر كل من هذين القانونين بما لقيهما من مصاعب ، وثار غضب الدوائر الإدارية أكثر مما ثار أسفها لأن المحكمة العليا أعلنت أنهما غير دستوريين فى ١٩٣٥ ، ١٩٣٦ . وبدا أن من المحتمل بلوغ الهدف منهما بالقيام بمشروع ضخم ومتواصل من الأشغال العامة ، وهو مشروع بدىء به فعلا فى ١٩٣٣ وتواصل العمل به تحت أسماء مختلفة حتى تبدى شبح الحرب فى الأفق فقضى على الضرورة الداعية إليه . وكان المشروع بعيداً كل البعد عن مشروع إصلاح الطرق الذى كان يستتر وراء اسم كريم هو الأشغال العامة ، فكان يتضمن خططاً لكل فئة من الشعب حتى الممثلين والكتّاب ، ومن بينها خطة لمشروع بعث الخشوع فى أشد النقاد غضباً — ألا وهو مشروع هيئة وادى تنسى ، وقد بدأت تلك الهيئة عملها بمشروع لضبط نهر مدمر ، وأظهرت أنها أعظم وأنجح مثال على التخطيط الإقليمى فى بلد حر . وكان أقل فوائد ذلك المشروع ضبط فيضانات النهر . فإن توفير الكهرباء الرخيصة السعر المنتشرة الاستعمال واعادة زرع الغابات واسترجاع الأرض التى زالت عنها تربتها الزراعية وإدخال صناعات جديدة ، أدخلت تغييراً تاماً على منطقة كانت فى يوم ما بائسة يائسة قد عضها الفقر بقسوة . ولقى مشروع قانون واجنز (١٩٣٥) قدراً أصغر من الاستحسان العام ، وهو مشروع كان يجبر رجال الأعمال والصناعة الأمريكيين — وكانوا حتى ذلك الحين أشد الصناعيين فى العالم استبداداً — كان يجبرهم على الاعتراف باتحادات العمال والتفاوض معها ، فأخذت هذه الإتحادات منذ ذلك الحين تقوم فى السياسة بدور يقوى على توالى الأيام .

ولكن الروسيا التى يقوم اقتصادها على النظام الاشتراكى لم تتلق نفس الصدمة التى لقيتها الدول الأخرى : فلم تظهر فى شوارعها طوابير العاطلين ، ولم تغلق بها مصانع ، على حين كانت المواد الأولية متوفرة . على أن الاتحاد السوفييتى تأثر من نواح أخرى تأثراً لا يقل خطورة عن سائر الدول . وقد أوضح لينين تماماً أن إيقاف الحريات أثناء الثورة شىء موقوت ، وأن سيعقبه وضع يستمتع بقدر من الحرية أكبر من أى شىء يمكن قيامه فى ظل نظام بورجوازى . ولكن بدلا من زيادة الحريات الشخصية ، كان الاتحاد السوفييتى يتحول أكثر فأكثر إلى دولة

بوليسية ؛ فإنه كان يتطور من ديمقراطية يغشاها الاضطراب والدكتاتورية إلى أوليجركية ويبدو كأنما ينحدر إلى طريق الحكم الاستبدادى المطلق . وحدث تقدم مادى عظيم لا يستطيع تجاهله إلا أشد المراقبين تحيزاً . فتم إنجاز مشروع الخمس سنوات فى أربع سنين . وأقيمت محطات عظيمة لتوليد القوى — منها واحدة على نهر الدنيبر ذاعت شهرتها — وحفرت آبار الزيت وأقيمت مصانع الصلب ، وأنشئت مراكز صناعية جديدة تماماً فى كوزنتزك بسيبريا وماجنيتوجورسك بجبال الأورال وفى أماكن أخرى . وقضى على الأمية قضاء جزئياً بهذا البلد ، أشد البلاد اتساعاً وأعظمها تخلفاً ، وكانت ألوان التقدم الحضارى قوية مثيرة فى أصقاع الاتحاد الخارجية البعيدة الأكثر همجية . ولكن امتلاك الفلاح للأرض الذى هو شىء لا تبيحه النظرية الشيوعية قضى عليه بين سنتى ١٩٢٩ ١٩٣ بوسائل وحشية لا ضرورة لها .



(شكل ٢٢٢)

فأطلق اسم « الكولاك Kulak » على كل فلاح غنى ، وأجبروا جميعاً على الاندماج في المزارع الجماعية أو مزارع الدولة . ورُحّل آلاف كثار إلى سيبيريا ؛ وانتشرت المقاومة والتخريب المتعمد ؛ فقد ذكر أنه حدث ذات مرة أن ذبح نصف ما فى الروسيا من الماشية .

وأتبع مشروع الخمس السنوات الأولى ١٩٣٢ بإعلان مشروع آخر ، ركز على الإسكان والمواصلات وإنتاج السلع الاستهلاكية ورفع مستوى معيشة الشعب . وقد تم بنجاح فى كثير من النواحى ، ولكن صحبته تغييرات سياسية أزعجت العالم الخارجى . وتألب كامينيف وزينوڤييف وستالين على تروتسكى وطردوه . ووجد العضوان الأولان من ذلك الثالوث أنهما قد أسلما نفسيهما لقبضة الثالث . فإن ستالين بوصفه سكرتيراً للحزب الشيوعى كان المتحكم الوحيد فى السلطة السياسية ؛ ولم يكن ستالين من الناحية الأخرى ممن تجد الرحمة إلى قلوبهم سبيلا . فإنه أعدم ما يزيد على ١١٠ شخصاً انتقاماً لمقتل صديقه كيروف فى ١٩٣٠ . ونظر زملاؤه فاذا هم مجردون أولا من كل سلطة ، ثم ألفوا أنفسهم يحالون إلى المحاكمة : وفى ١٩٣٦ اتهم أربعة عشر من أشهر « رفاق لينين » بينهم كامينيف وزينوڤييف وأعدموا رميا بالرصاص . وأعقبتهم ثلة أخرى بعد بضعة أشهر . وفى السنة التالية أعدم توخاتشيڤسكى وكثيرون غيره من كبار ضباط الجيش الأحمر : وتعدد فى كل أرجاء البلاد هذا النوع من المحاكمة وأعدم أو سجن آلاف من أشخاص أدنى أهمية ، حتى لم يعد فى البلاد أحد يعارض سياسة ستالين . وحصل المدعى العام المستر ڤشنسكى على أحكام بإعدام ٦,٢٣٨ شخصاً فى المحاكم العلنية . وكان المتهمون دون استثناء واحد منهم فيما نعلم يكتبون اعترافات يعترفون فيها بما اتهموا به بالضبط حتى ولو كانت جريمتهم بعيدة الاحتمال جدا . حتى إذا انتهت « التطهيرات » لم يعد باقيا على قيد الحياة جميع زعماء ثورة ١٩١٧ عدا واحداً . وكان هذا الفرد الواحد فى رفعة متعالية ويحيط به رجال أصغر منه أو رجال من الدرجة الثانية : وكان يلقى آنذاك عبادة يدهش لها كثيراً كل من تذكر التقاليد الديمقراطية للاشتراكية . وقد توفى لينين قبل أن

يجرؤ أحد على إلغاء اسم مدينة وتسميتها باسمه ، ولكن خريطة الروسيا أصبحت آنذاك مملوءة بمدن ستالين وستالينو وستالنسك وستالينجراد وستالينوجورسك وستالين‌اباد وما ماثلها !!....

وكانت للتغييرات السياسية العميقة داخل الروسيا آثارها خارج حدودها . فقد كانت هنالك فى ١٩٢٧ أحزاب شيوعية فى كل دولة برلمانية تقريباً ، وكان لابد للروسيا أن تضمن انصياعها لإرادتها . فأوقفت الاجتماعات السنوية للشيوعية الدولية مدة ست سنوات لبلوغ تلك الغاية . وابتدأ الأمر بطرد جميع أنصار تروتسكى . فإن التخلى عن « الثورة المستديمة » تفضيلا « للاشتراكية فى قطر واحد » ، وأعنى به الروسيا ، أفضى بصورة طبيعية إلى جعل الدفاع عن ذلك القطر الواحد أهم كثيراً من الدوافع والآمال الثورية بموطن كل فرد وبذا أصبحت الأحزاب التى كانت أحزاباً ثورية فردية آلات وأدوات للسياسة الروسية الخارجية . وتوالى فى كل سنة بعد سنة طرد كل زعيم أوتابع لايرضخ لهذا التغيير . وكانت « خطة الأحزاب » فى البداية توجيه أشنع الحملات على الاشتراكيين والأحرار فى الدول الديمقراطية ونعتهم بأنهم « فاشيون قوميون » أو حتى اتهامهم بأنهم يتعاونون مع النازى عليهم كما حدث فى أحد اضرابات الترام ببرلين . وقد اتضحت العواقب الوخيمة لهذه السياسة على الروسيا بعد ١٩٣٣ بقليل ؛ ولم تلبث أن قلبت رأساً على عقب فى ١٩٣٥ بعد عقد « حلف ستالين لافال » . وأضيف إلى هذا الحلف ، وهو تحالف عقيم بين الروسيا وفرنسا موافقة رسمية على إعادة تسليح فرنسا : حين طلب إلى الحزب الشيوعى الفرنسى أن يتخلى بين عشية وضحاها عن سياسته المناهضة للروح العسكرية وللإمبريالية . ولم تلبث تلك السياسة أن حولت إلى تعاون وثيق مع الاشتراكيين والأحرار فيما كان يسمى باسم « الجبهات الشعبية » ضد الفاشية . وحصل الشيوعيون على ألوان عديدة وضخمة من النجاح السياسى بفرنسا بوجه خاص . ولكن المعنى الحقيقى لتلك التغيرات هو أنه أصبحت توجـــد آنذاك بكل دولة برلمانية هيئتان حزبيتان غير نابعتين من الشعب ولا مسئولتين أمام مواطنهما

كما أنهما لا تشكلان سياستهما بحسب ما تعتقدان أن بلدهما في حاجة إليه ، ولكنهما تمثلان دولة أجنبية . وكانت إحدى الفئتين تدافع عن مصالح الاتحاد السوفييتي ؛ وتدافع الأخرى عن تحالف هتلر وموسوليني الذي كان يسمى نفسه آنذاك بالمحور . فأما تمكن الهيئتين من التعاون فشيء كان يراه كل إنسان أمراً مستحيلاً .

١٠ ــ المأساة الأسبانية

في أبريل ١٩٣١ ، انهارت الملكية الأسبانية وتحولت أسبانيا إلى جمهورية . فانسحبت الأسرة المالكة من الميدان بسلام ، ولم يحدث إلا النزر اليسير جداً من الصراع أو العنف .

وقبل ذلك قضت أسبانيا الشطر الأكبر من قرن كامل من الزمن ، تعد العدة لثورة تحررية . ولعلك ترى أننا لم نذكر إلا القليل مما مر بها من تجارب بعد سقوط نابليون . والقصة كلها لا تروى إلا حكاية اضمحلال ومذلة ، أو انتشار الجهالة المطبقة على شعب بأكمله ، أو سوء تعليم أو عدم كفاية بظل الكنيسة الكاثوليكية التابعة لروما . وهي حتى الآن أكمل مثال على انحلال الإمبريالية وانهيارها . وقد سبق أن أشرنا إلى الجنرال بوليفار ، وإلى ضياع المستعمرات الأسبانية الضخمة بأمريكا ، وكيف حدث ذات مرة واحدة فقط أن بريطانيا العظمى والولايات المتحدة وصلتا إلى مرتبة التعاون الذكي بقصد حماية الديمقراطية في العالم الجديد . (ف ٣٦ ق ٦) . فإن كاننج ذلك السياسي البريطاني العظيم نادى بضرورة انشاء جمهوريات العالم الجديد قائلا إن ذلك بقصد : « إصلاح توازن العالم القديم » . ولم تبق لأسبانيا في النهاية سوى كوبا . ويتحدث القسم نفسه (ف ٣٦ ق ٦) عن الثورة المضادة التي ظلت مندلعة في أوربا زهاء أربعين سنة .

وقد كان الكفاح في سبيل الفكر المتحرر والحرية البشرية شاقاً وعراً ككفاح الصاعد جبلا ، ولعله كان أقل استيئاساً في بريطانيا العظمى منه في أي

مكان آخر فى العالم عدا أمريكا . وكانت قبضة الظلم تقوم فى أسبانيا على أسمج صورة وأثقلها وطأة ؛ ولكن تحرير أمريكا الجنوبية حافظ على روح التمرد حية صاخبة . ولا بد أن أسبانيا كانت أشبه الأشياء بجحيم لا يطيقه ذكاء وطنى أثناء تلك الفترة الطويلة من التدلى الأرستقراطى والنىّ . وكانت تتعاور عليها أدوار من العصيان الغاضب الذى لا يستمتع بالقدر الكبير من الذكاء مع فترات من القمع والسرقة . واستمرت البلاد فى جهالة بالغة تدور حول صراعات بين بوربونيين لهم أشكال وسحن مختلفة وبين كارلوسيين[1] وما شاكل ذلك وقواد استبداديين يتخذون مظهر « الرجال الأقوياء » وبين ملك متطفل منتخب وافد من سافوى اسمه أماديو . وظلت كوبا فى حالة عصيان منذ ١٨٦٩ فصاعدا . وكان الأسبان يمنحون الكوبيون فى بعض الحين تساهلات غير مخلصة ، وكان « رجال أقوياء » يخرجون فى أحيان أخرى للقضاء على المتاعب .

وفى ١٨٩٧ أخذت الولايات المتحدة تهتم بالأعمال الوحشية التى يرتكبها أحد دعاة القمع الصارم الجنرال ويلر ، وتعبر عن رأيها فى ذلك بصراحة للحكومة الأسبانية . وسرعان ما اصبح ذلك الجنرال أكثر لينا ومراضاة ، ولكن الذى عجل بالحرب فجأة نسف سفينة حربية للولايات المتحدة هى « المين Maine » بميناء هافانا . وعندئذ طالبت الولايات المتحدة بجلاء الأسبان فوراً عن كوبا وأعلنت أسبانيا الحرب عليها فى (١٨٩٨) . ودمر الأميرال ديوى أسطول أسبانيا الشرقى فى خليج مانيلاّ ، ودمر الأسطول الأسبانى الغربى فى سانتياجودى كوبا ، واستسلمت كوبا للأمريكيين ، وبذلك انتهت الحرب . وعبثاً استنجدت الحكومة الأسبانية بالبابا ، وهى الابنة المخلصة للكنيسة — كما استنجدت بعاهليات رجعية أخرى ترجوهم التدخل ، ولكن صيحتها ذهبت أدراج الرياح ، وتنازلت أسبانيا فى المعاهدة التى أبرمت بعد ذلك عن كوبا وبورتوريكو وجزر الفلبين وجزر

---

(١) الكارلوسيون هم أنصار الدون كارلوس دى بوربون (١٧٨٨ — ١٨٥٥) المطالب هو وأحفاده بعرش أسبانيا من فرع الأسرة المالكة الذى انتهى بالفونسو . (المترجم)

سولو ، أى أنها تنازلت فى الحق عن كل شىء باق لها وراء البحار عدا مراكش . وحدثت ثورات شعبية فى برشلونة وسرقسطة ، وكان الذى أخمدها هو الجنرال ويلر — ولكن حركة النهضة التحررية الأسبانية كانت تزداد فى كل يوم قوة ، وشرع عدد من مفكرى الأسبان وكتابهم يتوفرون على مشكلة أسبانيا الجديدة . وتولى ألفونسو الثالث عشر فى ١٩٠٢ . وتزوج من الأميرة الإنجليزية فكتوريا أوچينى وهى حفيدة الملكة فكتوريا ، وبنت أخت ادوارد السابع ملك بريطانيا ؛ وقد اعتنقت الأميرة المذهب الكاثوليكى لهذا الغرض خاصة ومنحها البابا وسام « الورود الذهبية » دلالة على عطفه الخاص عليها . ومن الطبيعى أن ملكية متفوقة يدعمها عسكريون لابد أن تكون لديها حرب دائرة الرحى فى مكان ما ، وكادت مراكش فى ذلك الحين أن تكون المجال الوحيد المفتوح أمامهم هم وأصحاب الامتيازات والمنح الاستغلالية الذين لابد أنهم كانوا خلطاءهم .

وكانت حرب مراكش تستنفد عدداً ضخماً من الجند الشبان الذين يذهبون إلى مراكش فلا يعودون ، وتستلزم المطالبة بالمزيد من الضرائب المجندين حتى نفد صبر الشعب . وحدثت ثورة فى برشلونة حيث أقدم الناس فى تقدير واضح لمصدر ما هم فيه من بلاء على حرق الكنائس والأديرة . ذلك أنهم كانوا يعلمون علم اليقين أن الأبروشيات لا تدفع ضرائب ، وأن الكنائس رمز للقمع الساحق لكل فكر ، وكان طبيعياً أن تعد رمزاً للانحطاط القومى الذى حل بهم .

وكانت ثورة برشلونة تلقائية سيئة التنظيم ، فقمعت بعد قتال دام ثلاثة أيام . حتى إذا أخمدت الثورة قبضت السلطات على رجل من عظماء التربويين بأسبانيا إسمه « فرر Ferrer » ، كان أسس « مدارس علمانية » بقطلونية ، — وأعدمته فى (١٩٠٩) دون أن يكون له يد فى الثورة . وكان الرجعيون يستطيعون قتال أعدائهم فى أرض الوطن ، ولكن الحال بمراكش كانت مختلفة جداً . وكان رجال قبائل الريف قد أنزلوا هزيمة منكرة بالماريشال مارينا قبل إعدام فرر ببضعة أيام . وظل الشعب الأسبانى ينزف دماءه بمراكش قبل حرب ١٩١٤ — ١٩١٨ وبعدها ، حتى حلت

بهم هزيمة قاضية فى ١٩٢١ على يد الأمير عبد الكريم الخطابى[1] . فإن جيشاً عدته تسعة عشر ألفاً لقى الهزيمة والذبح ؛ ولم ينج منه سوى تسعة آلاف فروا إلى المنطقة الفرنسية .

ولعلنا بهذا قد وفينا تلك الحركة الجمهورية وأسباب تقويتها حقها من الحديث ، وأوضحنا لماذا حصلت على أغلبية كبيرة فى مجلس الكورتيز الذى عاد إلى الانعقاد بعد أن ظل لا يدعى للاجتماع مدة ثمانية أعوام ، وكيف أن الملك ألفونسو شعر بدنو الثورة ، وكيف أنه لدن سماعه أصواتاً فى الشوارع حزم أمتعته وفر تاركاً أميرته البريطانية لتتبعه بعد بضعة أيام دون أن يمسها أحد بسوء هى وأسرتها ووردتها الذهبية (١٩٣١) . وجاء بعده حكم جمهورى برياسة الرئيس زاموراً ومعه آزانا رئيساً للوزراء . فوجدا نفسيهما تلقاء عبء ضخم من الإصلاح الاجتماعى .

لقد استنزفت الكنيسة وعلية القوم دماء البلاد حتى خارت قواها ، وصارت متأخرة عن الزمان بمئتى عام . وكانت بحاجة إلى آلاف من المدارس الأولية ، واستلزم الحال إعادة بناء صرح التربية إعادة تامة ، وكان لا بد من توزيع المزارع الضخمة المهملة التى تملكها الكنيسة والسراة على الفلاحين ، وكان لا بد من إنقاذ الصناعة من براثن الاحتكاريين من أصحاب المنح والامتيازات . وكان ذلك وحده عملية جبارة هائلة . ولكن الحكومة الجديدة اضطرت أيضاً أن تتفاهم مع قطالونية ومع الانفصاليين من الباسك . ومع نفاد الصبر الساذج الفجيج الذى أبداه الأميون الجهلة الذين كانت هذه الحكومة تحررهم وأبدى زاموراً شيئاً من الميل الرجعى ، وأحدث الملكيون بعض الفورات التى أثارت عليهم خصومة اليمينين واليساريين على السواء . وكان آزانا يعبر عن الرأى التحررى اليسارى ثم اعتقل فى ١٩٣٤ . ثم انتخب فى ١٩٣٦ رئيساً بدل زاموراً . ولكن الاندفاعة نحو اليسار أصبحت آنذاك

---

(١) الأمير عبد الكريم الخطابى (١٨٨١ - فبراير ١٩٦٣) قائد الريف العربى . أنزل بالأسبان تلك الهزيمة الماحقة فى ١٩٢١ . ولكن جيشاً فرنسياً ضخماً بقيادة بيتان أرغمه على التسليم فى ١٩٢٦ . ونفى إلى جزيرة ريونيون بالمحيط الهندى . وسمح له فى ١٩٤٧ . بالعودة إلى فرنسا ، ولكنه لجأ إلى مصر فى طريق عودته حيث ظل بها إلى أن مات بطلا من أبطال العروبة . (المترجم)

أشد عنفاً . وأصبح من المحال إبعاد جماهير المدن عن الأديرة والكنائس . وكانت كراهية الفلاحين لقسوس الأبروشيات من الشدة بحيث أصبحت مقلقة . فإزاء هذه الحالة أصبحت الحكومة الجديدة عاجزة تماماً عن خلق العهد السعيد المرتقب . فاتهمت ببطء الحركة وقصّر مدى التقدم عما ينبغى أن يكون عليه الحال . واضطرت أن تواجة إضرابات لا تمت إلى التعقل بأدنى سبب وتجابه اتحادات نقابية فوضوية ، اعتنقت ضرباً من التأثر بمذهب روسو يخالطه التذاذ بالوسائل العنيفة . (ويجد القارىء عن ذلك بياناً ممتعاً كتبه رامون سندر فى كتابه (« سبعة أيام أحد حمراء Seven Red Sundays » ، وهو كتاب له قدره الجوهرى) . ومع ذلك استمرت هذه الحكومة فى كراسيها بشجاعة وصلابة ، فلولا أن قوى الرجعية المتجمعة هاجمتها فلعلها كانت ترفع أسبانيا حتى تقف صفاً وفى تعاون فعال مع ديمقراطيات الأطلنطى .

وقد حاول مغامر عسكرى اسمه فرانكو (١٩٣١) أن يعلن تصريحاً جمهورياً يقوم فى ظل الملكية . ثم عفت الحكومة عنه ووكلت إليه إمرة أحد الجيوش بمراكش ، وهناك أيضاً وجد فرصته حيث كان أى رجل نزيه فى مكانه يجد فرصة للخدمة وأداء الواجب . فأعلن الثورة على الحكومة المكافحة للأهوال بمدريد (١٩٣٦) . وغزا أسبانيا بجيش من المغاربة ، مدعياً أنه سيرد النظام إلى نصابه ويعيد المسيحية . وحقوق الامتلاك وأى شىء أحس أنه قد يروق قوى الرجعية فى البلاد . وأيدته حكومتا الأقليات المطلقة (Totalitarian) بألمانيا وإيطاليا ، التى رأت فى أسبانيا احتمالات القيام بحركات خارجية فى الكفاح المقبل بينها وبين دول الأطلنطى شبه المتحررة . ثم تلقى كذلك بركات الفاتيكان ، كما حصل أيضاً على عطف فعال من العناصر الرجعية فى الحكومات البريطانية والفرنسية ، وهى حقيقة لا سبيل إلى إنكارها رغم إصرار تلك الحكومات الصفيق على نكرانها فى البرلمان . وقد بذلوا قصاراهم منذ البداية لتعويق وصول المساعدات والذخائر للحكومة الأسبانية الشرعية ، واعترف كل جنتلمانية أوربا بأن فرانكو إنما هو « جنتلمان مسيحى » . فاندفع قُدماً نحو مدريد ، ولكن جند الحكومة صدوه وأوقفوه مكانه ، وأصبحت أسبانيا عند ذاك مسرح مظاهرات لمجموعات القوى الثلاث التى كانت تشغل البشرية آنذاك .

وسنتناول تلك القوى بترتيبها التاريخى ، فقد كانت هناك أولا المجموعة المعقدة الكبرى من التقاليد والمصالح والكرامات والامتيازات التى ترجع إلى الأيام السابقة للإصلاح الدينى البروتستنتى وإعلان الاستقلال الأمريكى والثورة الفرنسية . وقد نستطيع أن نسمى هذه القوة بكل ما يندرج تحتها من قسوسة وملكية عاهلية وقوات مسلحة وغنى وفقر باسم النظام القديم . وقد أخبرناك فى كتابنا هذا كيف أن روح الحرية فى الإنسان كافحت للتخلص من كابوس الماضى وكيف حدث المرة تلو المرة أن قوى الرجعية قد تسللت عائدة فى خفية وإصرار إلى مواطن تحكماتها السابقة . والأمر التالى فى الترتيب فى استعراضنا هذا هو العنصر الثانى : الروح العسكرية ، فإن الفاتح المغامر جندى العصابات الذى كان أول ما فعله كجندى من المرتزقة أو مترحل من الخارج أو وطنى صخاب من الداخل ، أن نظم قوة محاربة لا سبيل إلى مقاومتها موقتاً ثم وضع يده على زمام النظام الاجتماعى . وهو لا يجتلب معه أية فكرات بناءة ؛ ولا يصر إلا على شىء واحد هو المذلة الخاضعة والطاعة الطيعة ، ولا بد للنظام القديم من أن يبعث حياً عن طريقه إن عاجلا وإن آجلا فذلك هو إيقاع التاريخ .وهو غير صالح إلا وهو مرتد ثوبه العسكرى ، ولا بد له من شراء رضا الحياة بثمن . ولابد أن يقوم على خدمته القسيس وأرباب المنح والامتيازات ؛ وغالباً ما تكون المرأة الأرستقراطية مستعدة تماماً لتليين أخلاقه . والكنيسة الكاثوليكية مستعدة كشأنها دوماً أن تعطى ما لقيصر لقيصر . وبذا يستطيع النظام القديم بثمن بخس هو تجرع الشىء القليل من المذلة الفردية أن يوفق بين نفسه وبين المعتدين الجدد ، وبذا يتجنب لمدة جيل آخر عملية مخوفة من إعادة بناء العالم وتحرير الرجل العادى .

والمجموعة الثالثة من القوى المؤثرة فى الشئون البشرية أقوى من الإثنتين الأخريين أو تكاد . وقد تتبعنا تطورها فى هذا الكتاب : المعالم ، منذ فجر نشوء الفكرة فى بلاد يونان وفلسطين والهند والصين وأماكن أخرى : بأن **فى الإمكان أن تكون هناك حياة أفضل للبشر** . والواقع أن هذه الفكرة مرتبطة بالتوسعة المادية المطردة التقدمية للمجتمع البشرى ، — هى الفكرة الجوهرية التى يدور حولها هذا الكتاب بأكمله . ولم يكن ذلك جزءاً من خطة المعالم الأولى ، ولكن هكذا خرج الكتاب

على أن الرجاء فى « قيام اخوة أكبر وأعظم » لم يتجل حتى اليوم إلا بصورة محلية ومتقطعة وغير متماسكة . فالآن وعلى هذا المسرح الأسبانى المثير ، تقاربت هذه الدوافع المتناثرة وغير المنتظمة ، الداعية إلى قيام حياة للرجال أفضل ، حيث اجتمعت لتحقق على الفور روحهم المشتركة وحاجتهم الحزنة إلى سُنة مشتركة تجتمع حولها رغباتهم . وانثال المتطوعون لمعاونة اليساريين الأسبان من كل حدب وصوب فى العالم ، وهناك وجدوا أنفسهم مشتركين متماثلين روحاً ومختلفين منهاجا اختلافاً لا مطمع فيه لبارقة رجاء . وإنهم ليأبون أن يتماسكوا جميعاً حتى وهم غرض لهجوم عاصف متواصل . فكانوا يقتتلون فيما بينهم خلف الجبهة . حتى إذا بذلوا فى القتال أشد الجهود بطولية ، أسهموا فى النهاية فى هزيمة مشتركة .

وهكذا نميز الأقسام الرئيسية الثلاث فى الكفاح البشرى الدائر اليوم ، كما تجلت فى أسبانيا . ولم يبد واحد من هذه الأقسام أى اجماع على الهدف قوى حقاً . فهى لاتزال أقساماً تقوم على الغريزة والتعصب ، لا على الإرادة المفكرة . ففى كل مكان ، توجد احتمالات لقيام تبادلات ضخمة فى القوى . وفى كل مكان تظل عواقب الأمور معماة ونتائجها غير حاسمة .

ومع ذلك فإن الطعنة البشرية المتجهة نحو ذلك النظام الأفضل القائم على الحرية والأخوة تعاود الظهور بعناد لا تفتر له فترة . وهى عمياء تتخبط فى مسيرها ، ولكن قد يجئ عليها وقت يصير لها فيه بصيص من بصر ، ووقت تصبح فيه بصيرة تستمتع بالرؤية الكاملة والفهم الصحيح مدركة الغرض المشترك من اندفاعتها . هذا وإن ترسمنا لتاريخ الإنسانية إبان السنوات العشرة الآلاف الأخيرة ، فعلتنا فى هذه « المعالم » ، يجعلنا ندرك أننا نسير بحركة قسرية كحركة الأجرام السماوية المضبوطة ، نحو توحيد عالمى شامل مؤسس على ثورة اجتماعية جوهرية . ومع ذلك فأغلب الظن أن تلك الثورة ستكلف نوعنا البشرى مزيداً هائلا لا يمكن حصره من الخسار والدمار والعناء بسبب اتساع الفكر البشرى اتساعاً شاملا لا حد له . وقد يكون للحيوية البشرية حد تقف عنده . ومن المعقول جدا أنه ربما لم تتم هذه الثورة مطلقا ، وأن نوعنا البشرى ربما ترنح

فى منتصف طريقه إلى هدفه وكبا ثم أخفق دون الوصول إليه . فليس ثم سبب نجده فى التاريخ داعيا للزعم بأن الإنسان مستثنى من القاعدة العامة القائلة بأن الفشل فى التكيف معناه الإبادة . فهل نحن نتكيف ؟ هل نحن نتكيف بسرعة كافية تلقاء فوضانا الحاضرة ؟

لقد خصصت هذا البراح الكبير وخضت هذا البحث العام فى العوامل الأولية فى موقفنا الراهن بعد أن كشفها الصراع الأسبانى للعيان . على أن التاريخ التفصيلى للصراع الذى دار فى تلكم السنوات الثلاث ملحمة للبطولة المرتبكة المشوشة تخرج بنا عن مجال هذه « المعالم » . وقد شق فرانكو طريقه قتالا حتى بلغ أرباض مدريد وحصل على موطئ قدم فى حى الجامعة الجديد قبل نهاية ١٩٣٦ ، ولكنه صد هناك حتى نهاية الصراع فى ١٩٣٩ . وفى أثناء تلك المدة ظلت وزارتا الخارجية البريطانية والفرنسية الرجعيتان تحافظان على ظاهر من التمسك بالقانون وعدم التدخل ، كان عونا عظيما لفرانكو . وظلت ألمانيا وإيطاليا على معاونتهما العلنية له ، كما واصلت الروسيا معاونة الحكومة الشرعية بنفس العلنية تقريبا . ومن ثم أصبحت أسبانيا المعترك والمجتلد الذى تجرب فيه تلك الدول العظمى بأقصى درجات القساوة والعنف تكتيكاتها الجديدة وآلاتها الجديدة . وكانت الجيوش الألمانية والإيطالية تحارب جنباً إلى جنب مع مغاربة سلطان مراكش باسم « القومية » الأسبانية ! ! . فمحت قاذفات القنابل الألمانية من الوجود مدينة جورنيكا الباسكية المقدسة بكل من فيها من السكان فى ١٩٣٧ ، وبذلك تسلفت مذبحة روتردام العظمى فى ١٩٤٠ . وتقدم شعب الباسك وهو شعب كاثوليكى مخلص إلى الفاتيكان باستغاثة يائسة محزنة لم تجده نفعا . وظلت الحكومة الجمهورية تكافح حتى ابريل ١٩٣٩ وعندئذ دخل فرانكو مدريد منتصرا .

١١ — قيام النازية

هناك كتاب ألفه هانز فالادا وجعل عنوانه : « وماذا بعدُ أيها الفتى الصغير؟ » وهو أحد تلك الكتب التى يبز فيها القصصيُ المؤرخَ فى عرضه لحو تحدث فيه وبسببه

الأحداث ؛ وهو كتاب يمثل الحالة العقلية لشاب ألمانى فى السنوات التى أعقبت الحرب . إن « فتاه الصغير » ذاك شاب عاطل ذليل مهان ومدفوع قسرا إلى التمرد . وهو يقع فى الحب ، وتصير أبوته شيئاً مخجلا ومستقبل كل طفل يلده هو الوقوع بين براثن نقص التغذية والاستعباد . وليس أمامه مخرج يخرجه من حاله اليائسة إذ ليس ثم وراء البحار عالم يستطيع رجل أن يبدأ فيه حياته من جديد . فما السبب فى كل هذا البلاء ؟ ليس هناك من أحد يحدثه عن حماقة ١٩١٤ الصلفة المتكبرة وكل ما يقرأ ويسمع مشبع بالإشارة إلى أن (عقوبة) فرساى كانت شديدة الإجحاف . وأنه لن يكون إنساناً من البشر إن هو لم يتقبل الفكرة القائلة بأن الجيوش الألمانية لم تهزم فى ١٩١٨ ، (وهو أمر حدث بكل تحقيق) ؛ بل كانوا ضحية الخيانة والغدر . خانتهم الدعاية البريطانية الخبيثة وأضاعتهم من الداخل الخيانة . وإذن فإن كل هذا الفقر الذى يرزح تحته إنما يرجع إلى الحصار البحرى الجائر الذى ضرب على بلده وإلى ما حملت من عبء التعويضات الفادح وإلى دسائس الدوائر المالية العالمية سيما اليهودية وإلى جشع اليهود . وإنه ليجد أن معظم أصحاب الأعمال الذين يذهب إليهم يائساً يكونون من اليهود — أو يلوح أنهم من اليهود . وأن اليهود يختفون إبان أيام الفقر ويزدهرون أيام الرغد . وربما يكون بعضهم ازدهر ازدهاراً شديد اللمعان قليلا أثناء السنوات التى أعقبت الحرب . وإن « الفتى الصغير » الذى كان طفلا غريراً فى ١٩١٨ والذى لم تسمع أذناه إلا حديث الانتصارات المجيدة حتى حلت ببلاده كارثة الانهيار وما أعقبه من جوع وفاقة ، لينظر شزراً إلى المطاعم ويرمق ببصره واجهات الدكاكين . فهل يتحول إلى البلشفية ؟ ولكن أينسى أن الديمقراطيين الاشتراكيين ومعهم الشيوعيون كانوا مشتركين فى المؤامرة التى أسقطت جبهة الوطن ؟ إن حزب الديمقراطيين الاشتراكى يقدم للفرنسيين والبريطانيين كل أنواع التنازلات ، ولكنه لا يحصل مقابل ذلك على شىء — لو يحصل على شىء يخرجنى مما أنا فيه . تلك هى الحالة العقلية لجيل كامل جديد من الألمان ، وللملايين من الشبان الذين ضاقت عليهم الأرض وأذلتهم الأيام . وأخذت تلك الحال تجمّع القوى المتفجرة المدمرة فى أيام الانهيار المالى التى عجلت بانصباب كل شباب البرجوازية

بأجمعه فى طبقة المحنة المفسدة . وقد كان الشكل الخاص الذى تشكل فيه الانفجار ثمرة لصدفة فردية بحتة . واتخذ شكل حرب ضروس كانت أشد الحروب التى منيت بها الإنسانية وأجلبها للكوارث عليها .

وكانت الجمرة المتقدة التى أشعلت هذا المخزن البشرى المكدس بما لا يطيق من أحمال ، رجلا اسمه أدولف هتلر ، وهو مخلوق مطبوع على الهيجان وكثرة الهزر فيه عرق لا شك فيه يمت إلى الجنون بسبب كبير . وقد زعم بعضهم أن اسمه الأصلى شكلجروبر (Schücklgruber) على أن هذا يعد ضربا من التشهير به . وكان أبوه رجلا يسمى ألويس شكلجروبر ، وهو ابن غير شرعى لامرأة تسمى شكلجروبر ، ولكن ألويس تربى فى بيت رجل شُهر عنه أنه أبوه وهو هتلر ، وهو عامل طحان ، وما لبث ألويس أن اتخذ اسم ذلك الرجل لقباً له فاصبح يدعى شكلجروبر هتلر . ثم أسقط من اسمــه لفظ شكلجروبر بسبب بعض دواعى العنجهية والترفع فيما يحتمل . وكان ألويس على شىء من الهمة والطموح ؛ وكانت له زوجات ثلاث وأحاطت به الظلال حول أطفال شرعيين له وأطفال غير شرعيين ، ولكنه كافح حتى بلغ مرتبة كريمة وأصبح يلقب بالهر الموظف الكبير هتلر[1] فى خدمة الجمارك . وكان يظهر إصراراً صارماً على التلقب بلقب السيد الرئيس (الهر أوبر) . ثم مات فجأة وابنه لم يبرح تلميذاً بالمدارس ، وترك أرملته فى بؤس مدقع .

وقد كشف النقاب عن هذه الحقائق وعن تفصيلات حياة هتلر الأولى ، بكل عناية وأمانة رجل اسمه الدكتور رودلف أولدن فى كتابه : « هتلر الجندى » . وإن معظم ما جاء فى كتابه «كفاحى Mein Kampf » أو سرد على مسامع من حظوا بلقائه من بيانات عن تربيته ومطامحه وأعماله العسكرية العظيمة وما إليها ، لهو محض اختلاق أو تسويهات جريئة للحقائق . وقد أخفق هتلر فى دراسته بالمدارس تمام الإخفاق ، ولم يستطع أن يحصل على المؤهل اللازم لدخول مدرسة الفنون التابعة لأكاديمية فيينا . وحدث فى عقله شىء غامض لا نعرفه عندما شارف المراهقة وتطور فيه ضرب

---

(١) Herr Oberofficial Hitler,

مشهور من الجنون يتمثل فيه هو وأشياء أخرى في صورة بغض فاحش لكل غريب ذكر . وهو داء يوجد بالمنطقة الجنوبية من الولايات المتحدة ويتخذ بوجه خاص إزاء الزنوج وكثيراً ما يؤدى إلى إعمال القتل فيهم على يد الأفراد أو الأحزاب التى تنزل بهم قصاصها بيدها دون انتظار الحكومة ؛ وتركز الداء في حالة هتلر على اليهود . ولا شك أن انحصاراً نفساً[1] من هذا النوع يجرد المرء من إنسانيته ويضيق الخناق على ألوان نشاطه ويحددها ويصبح مصدرا للطاقة السقيمة الوبيلة . وقد طرد من الجيش قبل ١٩١٤ ، ولكنه تطوع قبل نشوب الحرب وأصبح يشتغل مراسلة . غير أنه لم يرتق قط فوق مرتبة أومباشى . وحصل على وسام الصليب الحديدى من الطبقة الأولى ، ولكن أحاديثه عن طريقة حصوله عليه تختلف اختلافاً بعيدا . على أن ملف خدمته في الجيش النظامى (Reichswehr) والحرب قد أتلف .

وظل هذا المخلوق غير المستقر يعيش في دنياه حالماً متحدثا إلى نفسه أثناء السنوات القاتمة السابقة للحرب ؛ ويبدو أنه لم يكتسب عيشه قط من صنعة ولا حرفة ، وأنه انحدر حتى لبس الأطمار البالية وسكن البيوت الرثة ، وطرد من الخدمة بالجيش النمسوى بسبب عدم لياقته ، ولكنه عاد فتطوع في ١٩١٤ ؛ واشتهر بين رفاقه في جبهة القتال بأنه ثرثار هاذر ، وحدث بعد ذلك في ميونخ أن فيضانه الدافق المتزايد من الكلمات كان واضحاً لكل من تحدث إليهم . وكانت باڤاريا بعد ١٩١٨ مباشرة في حالة اضطراب شديد . فقامت بها جمهوريتان سوفييتيتان ، ثم رجعية عسكرية . ونظمت هيئة أركان حرب الجيش الباڤارى ندوات المناقشة السياسية لتربية وعى الشعب وتحذيره من الشيوعية ونزعات التهدئة والسلام . وتحركت عواطف هتلر في أحد هذه الاجتماعات الذى عقد ببعض ثكنات الجيش ، فألقى ضد اليهود خطاباً مقذعاً

---

[1] الانحصار النفسى (Obsession) حالة مرضية مظهرها فكرة مساورة ملحة أو مغبة ، تكون مصطبغة عادة بصباغ قوى من الانفعال ، وتنطوى كثيراً على دافع يعدو إلى الإقدام على بعض الأعمال . (المترجم)

ملتهباً عنيفاً كان له وقع عظيم فى أنفس سامعيه . وكانت عاقبة ذلك أن عين « ضابط تعليم » . ومنذ تلك اللحظة لم يعد مجرد خطيب سليط غير مسئول .

واضطلع هتلر بأعباء منصبه الجديد بحماسة . فكان يغشى ثكنات ميونخ ومقاهيها بفصاحته السيالة . وأنشأ على التعاقب حزب العمال الألمانى ، ثم حزب العمال الألمانى القومى الاشتراكى ، الذى تحول إلى الحزب القومى الاشتراكى . وكان ذلك الحزب يقدم للناس توليفة مخلطة تجمع بين الاشتراكية والوطنية ومهاجمة اليهود والنشاط الإرهابى والوعود الضخمة ؛ وهى الشيء الذى كان « الرجل الصغير » يحس أنه بحاجة إليه .

لقد نقفت بيضة الجيش عن فرخ أكبر مما كان يقصده . وفى ١٩٢٣ أخذ الحزب القومى الاشتراكى ينمو بنسب هائلة كما كون هتلر تحالفاً مع الجنرال لودندورف ، الذى كان يثير عند الناس دائماً فكرة خوض حرب انتقامية ، فحدث عصيان (Putsch) كان محاولة طائشة للاستيلاء على السلطة فى ميونخ والزحف على برلين . ولكن الحركة فشلت فشلا غير كريم ، فاستولى الحزب القومى الاشتراكى على دار البلدية ، ثم تنازعوا أمرهم بينهم وزحفوا على مركز قيادة الجيش . وهناك أطلق عليهم البوليس النار . وانبطح هتلر على الأرض فأصيبت ذراعه برضوض ثم أطلق ساقيه للريح . وجرح جورنج نجيه وشريكه وفر هارباً هو الآخر . وذلك على حين أن الشجاعة وغرور الكبرياء دعت لودندورف الشيخ الشهم أن يسير ثابت الخطى بين طلقات الرماة المهرة حتى أخذ أسيرا بين الإكبار والإعجاب .

ولم يكن كل ما حصل ليزيد عن قصة تافهة ربما كان هتلر يمر بعدها من التاريخ لولا وجود تلك الجمهرة من الشباب المتجمعة فى الخلفية . وهم لم يكونوا فقط فى الخلفية . إذ انهم جاءوا إلى المحكمة ليصيحوا فى صالحه ، وكانوا يصيحون آنذاك ويزحفون فى كل أرجاء ألمانيا ، ودخل هتلر سجن لاندسبرج على الليخ لمدة ستة أشهر ، كتب فيها كتابه « كفاحى ـ Mein Kampf » ، وهو إنتاج أمى أشبه بإنتاج تلامذة المدارس ، كتاب رخيص تافه كمجاجة من جعة أزيلت من فوق منضدة بإحدى

المقاهي ، ولكن ذلك الكتاب بُجل وقُدس وجعلت مطالعته إجبارية فى كل أرجاء العالم الألمانى .

وتقع فترة عهد شترزيمان فى التاريخ الألمانى بين محبس هتلر فى ١٩٢٤ إلى تجدد نشاطه فى ١٩٢٩ . وقد بدأ جوستاف شترزيمان سيرته وطنياً متحمساً ؛ وقد وجه بواكير نشاطه لأول عهده بالحياة العامة بإثارة المشاعر للمطالبة بإنشاء الأسطول الألمانى ليكون تهديداً فعالا لبريطانيا ، إن هى تدخلت فى الحرب ضد الروسيا وفرنسا وذلك أثناء فترة وضع الخطط لها قبل ١٩١٤ . وواصل شترزيمان القيام بجهوده الوطنية الحامية طوال الحرب ، وظل مثابرا على ذلك حتى بدأ يدرك فرص الموقف الألمانى وأخطاره الحقيقية بعد ١٩١٨ . ثم عاد فاتخذ خطة التسامح والمساهلة وكان ذلك بفضل الجهود الدبلوماسية الكبيرة الاقتدار التى بذلها اللورد د . أبرنون السفير البريطانى . فوجه جهوده لتخفيف دفعات الديون المفروضة على بلاده تخفيفاً مطرداً ، ونصّب نفسه لتحرير الأراضى الألمانية من الاحتلال الأجنبى . وأخذت الخبرة توسع آفاق عقله ، حتى أمسى صديقاً حميا للمسيوبريان ، كما أصبح فيما يبدو مدافعاً أصيلا يدعو معه إلى الاتحاد الفدرائى الأوربى . وأصبح من المقرر بالقطع أن الأراضى الألمانية ستتحرر من آخر جندى أجنبى فى ١٩٣١ . ولكنه لم يعش ليشهد ذلك اليوم ؛ إذ توفى فى ١٩٢٩ . ولذا لم يحس تقريباً ببدايات العاصفة الاقتصادية العالمية التى كانت تتجمع من حوله . كما لم يدرك الشر المستطير الكامن وراء تلك العصابات المكونة من أولئك الشبان القلقين الذين كانت نفوسهم تغلى تمرداً فى كل مدينة من مدن البلاد . إذ أن عقله كان ينصب بكليته على أفكار الدبلوماسية القديمة .

وقد أسلفنا إليك الحديث فى القسمين السابقين من هذا الفصل عن الانهيار النقدى الذى حدث بعد الحرب والذى بلغ ذروته فى ١٩٢٣ ، وكيف جاء أوان حاول فيه الناس عمل تأهيل مزعزع للمناهج النقدية ، وكيف حدث أخيرا فى ١٩٣٠ — ١٩٣١ أن خرّ النظام بأجمعه منهاراً ، كارثة مالية عمت أرجاء العالم قاطبة . وهنا وافت هتلر فرصته الثانية . وكانت أدواته القريبة المباشرة حركات الشباب

المتوعة التى ازدهرت بألمانيا بقدر ما ازدهرت حركة الكشافة الموازية لها بالإمبراطورية البريطانية ، ولكن مع اختلافات ضخمة فى الروح والهدف . ولكى يستطيع تنظيم قوة منظمة موحدة الزى من أدواته تلك التى ذكرنا وأعنى بها شباب ألمانيا ، كان لابد له من العون المالى ، وقد حصل على ذلك المال اللازم من الماليين القائمين على الصناعات الثقيلة ، التى كان ازدهارها يستلزم العودة إلى التسلح ، والتى كانت من ثم عدوة لدودا لسياسة السلام التى ينتهجها شترزيمان . فقدم نفسه إلى أولئك الأقطاب فى صورة معاون كفء لهم فى القضاء على الاضرابات ووسيط نافع لهم فى تحويل قلق الجماهير عن وجهة الثورة الاجتماعية وتوجيهها إلى حملة صليبية تدعو إلى الوحدة الألمانية . فاستطاع الحصول على تأييد هوجنبرج مدير مصانع شركة كروب العظيمة ومنشىء الحزب « القومى الاشتراكى الألمانى » وزعيمه . وكان هوجنبرج اشترى شبكة ضخمة من الصحف ودور السينما وما إليها ؛ وكان رجلا قصيراً أشيب متغطرساً ميالا إلى التحكم ، وقد زعم أنه بذلك قد اشترى هتلر . ولكنه أخطأ فى هذا الزعم . وكذلك ظن روهم (Röhm) أنه قد استمال هتلر كى يملكه هو وفرقة الصاعقة S.A ناصية الجيش الذى أخذ ينتعش ويتسع .

وبذلك أصبحت بين يدى هتلر وخلطائه الأقربين ومن ورائهم رجال الصناعة أعظم الموارد الممكنة للقيام بحملة شديدة لاسترجاع الروح العدوانية إلى ألمانيا ، فاندفعوا يقومون بالمهمة بأقصى همة ونشاط . ونظمت فى البلاد كلها روح العنف على اليهود وعلى المفكرين وعلى الشيوعيين . وهدد الأخيرون بالإبادة التامة . وكان عملهم هذا محاكاة دقيقة لحملة الوحشية والارهاب التى نهضت بها الفاشية وتسلمت مقاليد القوة بإيطاليا ، ولكن حملة هتلر كانت نظامية أكثر وكانت أوسع مدى وأشد وحشية . وفى ١٩٣٠ كان للحزب القومى الاشتراكى اثنا عشر عضوا فى الريخستاج ، بعد أن كانوا فى ١٩٢٤ أربعة عشر . ثم ظهر الحزب فى ذلك المجلس بعد انتخابات سبتمبر ١٩٣٠ وقد أصبح ممثلوه مئة وسبعة ، يمثلون ستة ملايين ونصف المليون من الناخبين . وهكذا ارتقى هتلر إلى الثلاثة عشر مليونا الذين أعطوه

أصواتهم فى انتخابات الرياسة فى ١٩٣٢ مقابل التسعة عشر مليوناً التى حصل عليها المارشال الشيخ هندنبرج .

والغدوات السياسية والروحات التى أعقبت ذلك أعقد من أن يتسع لتفاصيلها هذا المقام . وفى يناير من ١٩٣٣ تراجع المارشال هندنبرج – وقد تجاوز آنذاك الخامسة والثمانين وأصابه انحلال الشيخوخة المفرط – عن تصريحاته التى طالما كرر فيها قوله : « انى أقسم بشرفى كقائد بروسى أنى لن أفعل تلك الفعلة » – وفعل الفعلة وعين هتلر مستشاراً إمبراطورياً للدولة . والراجح أن الرجل العجوز نسى تصريحاته !! . . . .

على أن هتلر كان حتى ذلك الحين لا يزال واقعاً فى قبضة الجيش ورجال الصناعة ، وبعيداً بعداً شديداً عن مرتبة الدكتاتورية الحقة . وقررت مجموعة أخصائه القيام بانقلاب . فأشعلوا النار فى الريخستاج (٢٧ فبراير) وأعلنوا أن ذلك جزء من مؤامرة شيوعية شملت الشعب كله وقاموا بحملة ضارية من العنف على الشيوعيين واليهود . وألغيت نقابات العمال وبنوك العمال . واضطر واحد وثمانون نائبا شيوعياً فى الريخستاج الجديد إلى الاختفاء أو الفرار إلى الخارج أو وضعوا فى السجون . وبإلغائهم من ذلك المجلس أصبحت لهتلر الأغلبية الفعالة فيه .



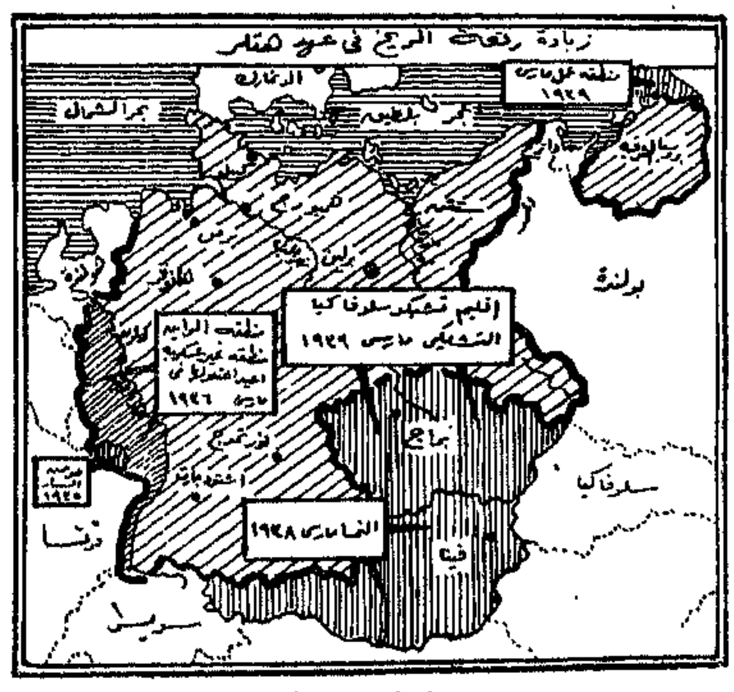
(شكل ٢٢٣)
(صورة هتلر)

ونجمت عن ذلك حادثة طريفة . فإن الجهاز الارهابى التابع للحزب الديمقراطى الاشتراكى كان فرقة الصاعقة S.A ، وهى جند الصاعقة غير القانونيين الذين نظمهم (روهم) أيام نزع السلاح من ألمانيا . والآن وقد أخذت البلاد تتسلح بجرأة تحديا للالتزامات التى نصت عليها المعاهدة ، فإن فرقة الصاعقة S.A أصبحت من وجهة نظر الجيش النظامى (The Reichswehr) طغمة مشاغبة ولا ضرورة لها . وقرر هتلر

التضحية بها . ومن ثم فإن روهم وجريجورشتراسر وعدداً من الرجال الذين كانوا أشد أخصائه قربا منه وولاء له فى أيامه الأولى ؛ والجنرال فون شليخر وزوجته وعدداً غفيراً من زعماء فرقة الصاعقة S A أغتيلوا فى « حمام الدم » الذى حدث فى ٣٠ يونية (١٩٣٤) . ومن بعدها لم يعد هتلر زعيما للشعب الألمانى بقدر ما هو الإله الشاخص أمام أبصاره . ومنذ ذلك الحين أخذت ألمانيا تنحدر بقيادة ذلك المخلوق المخبول الثرثار نحو طريق الحرب رويداً رويداً .

١٢ ـ العالم ينحدر نحو الحرب

دبر هتلر خطة الحرب فانزلق إليها العالم دون أن يبذل أى جهد لتجنبها . كانت المحاولات الجادة الوحيدة هى التى بذلها الاتحاد السوفييتى ، الذى اعتبر نفسه موضع التهديد المباشر من النازيين . وقد انضم الاتحاد السوفييتى إلى عصبة الأمم فى ١٩٣٤ ، فقلب بذلك سياسة لينين رأساً على عقب ، وقرر فى السنتين التاليتين كما أشرنا آنفاً أن يحمل الأحزاب الشيوعية بكل أرجاء العالم على تبنى سياسة « الجبهة



(شكل ٢٢٤)

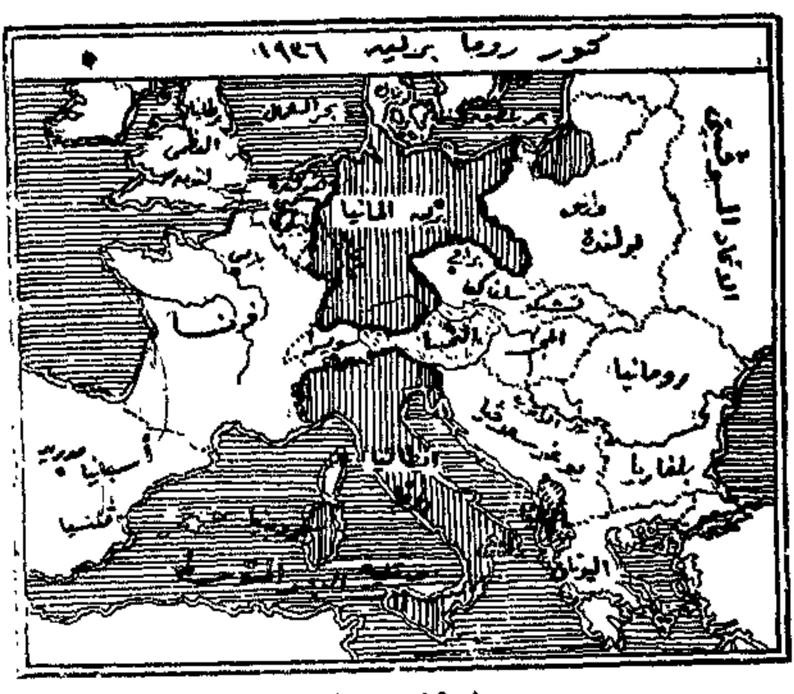
المتحدة » التي تهدف إلى تقوية الحركات المضادة للفاشية بالأقطار الأخرى . وبينما كانت الكارثة تقترب اقترح ليتفنوف أكثر من مرة القيام بمقاومة مجتمعة لتقدم المحور ، وهو أمر ظلت الحكومات البريطانية والأمريكية والفرنسية تتجنبه على الدوام .

وكان هناك سببان أورثا بقية العالم ما كان فيه من قصور ذاتي . فأما فى الولايات المتحدة فالسبب هو إطلاق العنان لأماني لا يمكن أن تتحقق . وقد وجهت الولايات المتحدة أثقل ضربة للسلام العالمي حيث انسحبت من العصبة منذ ابتدائها ، ومنذ تلك اللحظة أصبح من العقائد القومية تقريباً أن تتجنب أمريكا التورط فى الحرب القادمة بطريقة بسيطة هي الامتناع عن أخذ أى دور فى الشئون الأجنبية . وكان الرئيس روزفلت هو السياسى الأمريكي الوحيد الواسع النفوذ الذى رأى فى نمو النازية خطرا قد يهدد الولايات المتحدة ، ولكن تصريحاته فى هذا الأمر (كخطابه فى « الحجر الصحى » مثلا) لم تكن بالكثيرة ولا القوية ؛ وتلقاها الناس فى أمريكا بغاية الفتور . وحدث فى عهد متأخر هو يوليو ١٩٣٩ ، أنه اقترح تعديل قانون الحياد ، فأبى مجلس الشيوخ قبول ذلك . ومع ذلك فإن حكومتى بريطانيا وفرنسا لم يكن فى مستطاعهما أن تدعيا لنفسيهما أن قيام النازية لا يعنيهما فى شيء . ومع ذلك فإنهما كانتا تعمدان إبان عدد من السنوات إلى القيام بأعمال من شأنها أن تبنى قوة الدولة التى ستدمرهما . ولابد أن الأسباب التى دعتهما إلى ذلك كانت تقوم على الحدس والتخمين . ولا يكفى أن يقال إنهما انتهجتا ذلك النهج لأنهما دولتان عجوزتان وغنيتان داخل الخوف قلبيهما . ولججت فى بريطانيا بوجه خاص فى الإصرار على اتباع تلك السياسة (بعد تقاعد مكدونالد وبلدوين) مجموعة رباعية من الرجال هم : نيفل تشمبرلن ولورد هاليفاكس والسير چون سيمون السير صمويل هور ، وهم رجال مكتهلون حقاً ، ولكنهم أقوياء وعنداء وأمناء بشكل فادح كارث . ويبدو أن ما كان يحرك هؤلاء الرجال إنما هو فكرة خاطئة تماماً عما كانوا يواجهونه ، نشأت لديهم عن ضرب مقلوب من الفهم تبادر إلى أذهانهم حول حرب الطبقات . فإنهم رأوا أن النازيين والفاشيين كانوا متى انتصروا يقضون تماماً على تنظيمات الشيوعيين

قبل كل شيء ثم على جميع اتحادات العمال والأحزاب الاشتراكية ؛ وأنهم كانوا يخمدون كل « مخالفة للنظام » وأنواعاً مختلفة من النزعات العصرية غير الصحية في الفنون والأخلاق ؛ وأنهم كانوا يدربون الشباب تدريباً معجباً على التمارين العسكرية العنيفة ؛ وأن مواردهم المالية تعود إلى المساعدات التي يمنحها لهم رجال الأعمال الناشطون . ويبدو أن المحافظين بكل من بريطانيا وفرنسا كانوا يشعرون إزاء هذه المسائل بروح العطف والزمالة للنازيين والفاشيين وإن أحزنتهم فجاجاتهم ووحشياتهم (وإن كانوا على يقين تام بأن تلك الأعمال الفجة والوحشية كانت مبالغا فيها كثيراً) . ثم إنهم افترضوا وجود مشاركة وجدانية مماثلة لهذه عند الجانب الآخر . وكانوا على يقين من أن الاتحاد السوفييتي والاتحاد السوفييتي وحده هو عدو المحور اللدود ، وأنهم هم الذين يستطيعون وحدهم وبغاية السهولة الوصول إلى تسوية شبيهة بالعمليات التجارية مع هتلر وزملائه . وموجز القول أنهم لم يكونوا يعرفون شيئاً عن طبيعة روح (عصابات المجرمين) ، ولم يكن لديهم أدنى فكرة أنه وقع عليهم الاختيار ليكونوا أول الضحايا وأسمنها .

ولسنا نجد نظرية أخرى لتفسير التساهل الذى كانوا يرقبون به بل الذى يساعدون به سلسلة الأحداث التي جردتهم أولا من كل حلفائهم المحتملين ثم أفضت بهم إلى حرب جائحة مزلزلة . وتعاقب الأحداث يبدو الآن وعلى بعد هذه المسافة الفاصلة الطويلة ، أوضح كثيراً من أن يفوت فهمه أحداً عدا الخادعين لأنفسهم . وفي أول الأمر كانت الحرب تنظم على حدة في الشرق والغرب ، ولم تنسق سياستا ألمانيا واليابان من حيث المبدأ إلا في نوفمبر ١٩٣٦ ، ولم يبدأ التعاون الكامل بينهما إلا في أخريات ١٩٣٧ . فإن اليابان لما رأت أن غزوها منشوريا لم يترتب عليه إلا بعض الاحتجاجات الشفوية ، غادرت العصبة في ١٩٣٣ ، وغزت الصين نفسها ، حيث احتلت ولاية چهول الشمالية تلقاء مقاومة تافهة جداً . وكان السبب في ذلك أن تشيانج كاى شك كان لا يزال شديد الانشغال بإخضاع الشيوعيين ؛ وكان أحرز عليهم من النصر العظيم ما جعلهم يفرون في ١٩٣٤ من معاقلهم الحصينة في وسط الصين ، وبعد قيامه بزحف شديد مدهش قطع به بضعة آلاف من الأميال عاد إلى

الظهور فى ولاية كان سو الغربية ، حيث كان الاتصال بالأعداء أصعب . على أن سياسة الروسيا الجديدة كانت وصلت عند ذاك إلى الصين ، وتجلت نتائجها فى حادثة تسترعى الاهتمام بطريقتها « الصينية » . إذ أن ابن أمير الحرب الذى طرده اليابانيون من منشوريا اختطف القائد تشيانج كاى شك فى ١٩٣٦ ، ثم حمله معه إلى مركز القيادة العليا للجنرال ماوتسى تونج قائد جيش الشيوعيين . وبدلا من إعدامه تفاهم معه ماوتسى تونج وزملاؤه حول الخطر اليابانى الداهم ، وأحضرت زوجة تشيانج كاى شك لتشترك فى المباحثات . وبعد قضاء بضعة أيام فى التباحث والتأمل أعلن الطرفان أنهما قد حصلا على الاستنارة اللازمة وتعاهدا على الاتحاد لمقاومة الغزو .



(شكل ٢٢٥)

وجاء ذلك فى أنسب أوقاته ، إذ أن اليابانيين بدأوا فى السنة التالية غزواً كاملا للصين ، واستولوا على بيكين وضربوا بقنابلهم المدن الصينية وأحرقوها . ووجد الصينيون أنهم غير ند لأعدائهم فاضطروا إلى التراجع ، ولم تحل ١٩٣٨ إلا وكانت هانكاو ونانكين وشنغهاى وكانتون جميعاً فى قبضة يد اليابانيين. ولكن التحالف الجديد ثبت

على الخطوب (وإن كان كل من الطرفين فى ريب من أمر الآخر) ؛ وانسحب تشيانج كاى شك إلى تشنج كنج فى أقصى داخلية البلاد ووجد اليابانيون أنهم لايملكون إلا السكك الحديدية والطرق المائية والمدن الكبيرة . وكان كل ما يحيط بهم عدواً لهم مليئاً بعصابات كانت حرباً عليهم . فكأن ماكانوا يحسبونه أرضاً متينة ومنطلقاً ينطلقون منه لزحوف وتقدمات أخرى قد ظهر أنه أرض سبخة ، وإذن فإن « حادثة الصين » (كما يسميها اليابانيون) لم تكن لليابان مصدر قوة بل مصيدة وقعوا فى حبائلها . وعلى ذلك تكون قطعة من خطة الحرب قد ذهبت فى الاتجاه الخاطئ .

ولكن لم تحدث مثل هذه الأخطاء فى الغرب . فإن عام ١٩٣٣ الذى استولى فيه هتلر على السلطة شهد انحلال المؤتمر الأخير لنزع السلاح وانهيار مؤتمر عالمى لتثبيت التبادلات التجارية (نتيجة لأعمال الأمريكيين)، واستقالة ألمانيا من عصبة الأمم . فكأنما أمسك أحدهم بقلم ورسم به خطاً أسفل إحدى صفحات التاريخ . ثم أعلن هتلر بعد ذلك فى ١٩٣٥ أن معاهدة فرساى لم تعد موجودة ، وأعاد التجنيد وأرجع التسلح العلنى فى تحد ظاهر منه لها . واحتجت الحكومة البريطانية ، ثم عمدت على الفور تقريباً إلى توقيع اتفاق يحدد بمقتضاه حجم الأسطول الألمانى الجديد . وصدرت الحركة التاليةمن موسولينى . ففى أكتوبر من تلك السنة غزت جيوشه أرض عضو آخر فى العصبة ، هو الحبشة . وكانت أسباب الاعتداء التى زعمها الإيطاليون مبرراً لذلك منازعات طفيفةعلى الحدود، ولكن السبب الحقيقى لذلك الاعتداء لم يكن إلا أن الأحباش هزموا عند عدوة جيشاً إيطالياً حاول غزو بلادهم فى ١٨٩٦ . و هدم العالم لهذا الخرق المباشر للسلام وأثار عصبة الأمم إلى اتخاذ إجراءات حاسمة . واتفقت اثنتان وأربعون دولة على اتهام إيطاليا بالعدوان وإنزال « العقوبات » بها بزعامة بريطانيا وفرنسا شكلا وفرضاً . وألقى السير صمويل هور وزير الخارجية



(شكل ٢٢٦)
صورة بنيتو موسولينى

فى ١١ سبتمبر خطاباً ذاع صيته آنذاك تعهد فيه بوقوف بريطانيا بجانب ميثاق العصبة روحاً وحرفاً ، ولكنه اتفق فى الحقيقة مع پيير لاڤال رئيس وزراء فرنسا على أن لا يفعلا أى شىء فى هذا السبيل . ومن ثم لم تطبق « العقوبات » على المواد التى تحتاج إليها الجيوش الإيطالية (الزيت والصلب والفحم) وسمح بمرور الغاز السام ضمن حمولة السفن التى عبرت قناة السويس . ولم يحل مايو ١٩٣٦ حتى كان الإيطاليون يحتلون أديس أبابا ، وبذلك دمرت عصبة الأمم بوصفها قوة واقية . وفى نفس ذلك الوقت كان هتلر أرسل جيوشه إلى أرض الراين ، التى كانت المعاهدة تحرم دخولهم إليها . وكذلك أيضاً بدأ فى ١٩٣٦ عصيان فرانكو فى أسبانيا الذى كانت تؤازره إيطاليا وألمانيا ، وقد أسلفنا إليك تاريخه من قبل .

وفى مارس ١٩٣٨ احتلت جيوش النازى دولة النمسا وسجنت شوشنج الدكتاتور الكاثوليكى الذى خلف دولفوس ، وبدأت حركة المذابح والسجن التى ينزلونها عادة باليهود وأعداء الفاشية .

وفى سبتمبر ١٩٣٨ أعلن هتلر أن « الظلم » الواقع على الألمان فى تشيكوسلوفاكيا أصبح لا يطاق ، وبدا شبح الحرب دانيا ، وكانت فرنسا (وإن لم تكن بريطانيا) مرتبطة بتشيكوسلوفاكيا بمعاهدات . وطار تشمبرلن إلى ميونخ ، وعُقد مؤتمر رباعى مكون من بريطانيا وفرنسا وألمانيا وإيطاليا أجبر تشيكوسلوفاكيا على التنازل عن مناطق التخوم بها لألمانيا ففقدت معها قدرتها على الدفاع عن نفسها . وعندما عاد تشمبرلن من ميونخ أعلن قائلا : « أعتقد أن هذا فيه السلام لزماننا » . (وينبغى أن نذكر أن هتلر كان يتبع كل اعتداء من هذه الاعتداءات ببيان يؤكد فيه مقاصده السلمية وعدم رغبته فى المطالبة بأية مطالب أخرى . وكان الروس فى نفس الحين يقدمون عادة وفى كل مرة مقترحات بضرورة التشاور لإيقاف التقدم النازى كانت تقابل دوماً بالإغفال التام) .

وفى مارس ١٩٣٩ احتل النازيون بقية تشيكوسلوفاكيا ومدوا فيها أركان نظامهم المعتاد . واقتطع هتلر أيضاً مدينة ممل من دولة لتوانيا الصغيرة.

وفى أبريل ١٩٣٩ غزت إيطاليا ألبانيا وفتحتها . وألغى هتلر حلف عدم الاعتداء الذى كان مبرماً بينه وبين بولندة .

وفى ذلك الحين كان الناس جميعاً حتى حكومة تشمبرلن قد أدركوا ما كان مقبلا عليهم بخطوات عظيمة . لقد ذهبت معاهدة فرساى إلى غير رجعة ، ودمرت عصبة الأمم ، ولم يعد ثم باقيا سوى حليف واحد ذى أيد : هو الروسيا . وأخيرا أرسلت إلى موسكو بعثة للتفاوض فى عقد معاهدة ، ولكن بعد فوات الأوان . فإن الروسيا كانت أخذت تغير سياستها تغييرا رمز إليه خلع ليتفينوف البلشفيكى القديم وإحلال مولوتوف الواقعى محله .

وتوقفت خطط الألمان الحربية لخوفهم من أن يضطروا إلى القتال فى جبهتين كما يعرف ذلك حتى الهواة فى علم استراتيجية الحروب . وكانت هذه النقطة هى مصدر القلق التقليدى لدى جنرالات الألمان . ولم تكن ألمانيا بموقعها المعروف إلا كبندقة بين ذراعى كسارة البندق ، — والجيوش الروسية من شرقها والفرنسية من غربها والأساطيل البريطانية تسود البحار . ولم يكن هتلر ليستطيع البدء ببرنامج « واحدة بعد واحدة » الذى اختطه لنفسه ، ما بقى هذا التهديد قائماً . فإن زال أمكن البدء فى الحرب . ومن ثم فتح باب المفاوضات لإزالته من الوجود . وبعماية تفسيرها أصعب علينا من تفسير عماية تشمبرلن نفسه ، يبدو أن ستالين ومولوتوف زعما أن بعثى الحلفاء والألمان إلى موسكو ليستا سوى خاطبين متنافسين يخطبان ود الروس ، ويبدو أنهم كانوا يرون الخير فى إيثار النازيين على الحلفاء . وفى ٢٣ أغسطس ١٩٣٩ وقع الحلف النازى السوفييتى . وكانت النتيجة المباشرة لذلك أن الجيوش الألمانية اجتاحت بولندة فى أول سبتمبر وبدأت الحرب العالمية الثانية .

الفصل الأربعون

الحرب العالمية الثانية

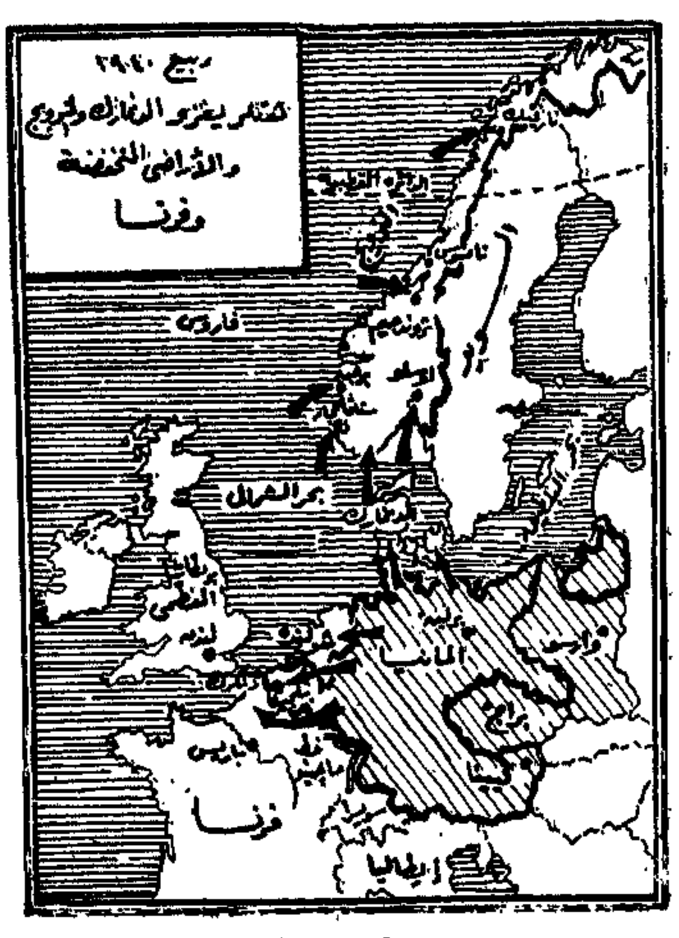
١ – مجرى الحرب .   ٢ – مستقبل البشرية .

---

١ – مجرى الحرب

لم تكن فى العالم حكومة لديها أية فكرة عما كان سيحدث فى سبتمبر ١٩٣٩ خلا الحكومة الألمانية وحدها . أما هزيمة بولندة فكانت شيئاً توقعه كثير من الناس ؛ ولكن أحداً لم يكن يتوقع أن يقضى عليها فى مدى ثلاثة أسابيع . وفى البداية كما كان يحدث غالباً كان عنصر المباغتة فى جانب النازيين ، وذلك لأن الجيش البولندى لم يكن حتى قد استكمل تعبئته تماماً . ولكن تلت الهزائم الأولى كوارث أخطر وأعظم ؛ فبز الألمان البولنديين فى الدبابات والمدافع والطائرات بصورة ينقطع معها كل رجاء . ولكن البولنديين كانوا إذا وجدوا بين أيديهم ملجأ يتحصنون فيه مثل وارسو أو شبه جزيرة هيلا المجاورة لدانزج ، فإنهم كانوا يقاتلون قتال المستيئس ؛ ولكن المذابح حلت بجيوشهم الرئيسية . وكان هنالك حتى ١٧ سبتمبر بعض أمل لعله كان وهماً باطلا فى أن يستطيعوا أن يقيموا خط دفاع على امتداد نهرى السان بج والناريف ؛ ولكن منفعة المحالفة النازية السوفييتية تجلت فى ذلك اليوم . فغزا الروس بولندة من الشرق وبذلك انتهت الحرب فعلا . فالتقى الحليفان عند بيالى ستوك وأبرما فى ٢٩ سبتمبر التقسيم الرابع لبولندة ، وسلم آخر جندى بولندى فى أول أكتوبر بشبه جزيرة هيلا . وظهرت للمحالفة آثار أخرى فى الأسابيع الأربعة التالية عندما أجبرت جمهوريات البلطيق : استونيا ولاتفيا ولتوانيا على عقد معاهدات تخول للروس إقامة قواعد عسكرية على أراضيها ، وجامل الألمان الروس بسحب جميع الألمان من تلك المناطق .

ولم يصنع الحلفاء الغربيون أى شيء تقريباً أثناء هذه الأزمة . نعم قام الجنرال جاملان القائد الفرنسى العام بخروج خائف مباغت من خط ماچينو ، ولكنه ما لبث أن عاد بمجرد أن التقى بخط سيجفريد . وبلغ من جمودهم عن الحركة أن امتلأ هتلر بالرجاء فعرض عليهم الصلح على أساس قبول الحلفاء لفتح بولندة . ولكن العرض رفض ؛ أما عن أية أنواع أخرى من التحديات القوية المحسوسة الأثر ، فإن الشعوب المتحالفة اضطرت أن تقنع بأحداث تافهة مثل تضييق الخناق على البارجة الألمانية المغيرة جراف اشبى على يد ثلاث سفن بريطانية صغيرة فى ديسمبر وتنظيم حصار بحرى على ألمانيا . والحق إن حكامهم كانوا ضئيلى الحظ جدا من



(شكل ٢٢٧)

المعرفة بقوة خصمهم بحيث زاغت عيونهم إلى مكان آخر ، وحطت على جزء من العالم ضلت فيه خطة السوفييت السبيل . فقد قدمت إلى فنلندة مطالب تماثل تلك التي قدمت لدويلات البلطيق ، ولكن فنلندة كانت دولة ديمقراطية وطيدة الأركان لا دكتاتورية خائرة القوى ، ولذا رفضت المطالب بأدب . وفي اليوم الأخير من نوفمبر ، وفي تحد سافر للمعاهدت ولميثاق عصبة الأمم . غزا الروس تلك الجمهورية الصغيرة وضربت بالقنابل عاصمتها هلسنكي . وكانت كفة ميزان القدر عجيبة مضحكة — والنسبة بين الدولتين في عدد السكان ٥٠ أو ٦٠ : ١ ، — ونفس النسبة تقريباً في الأسلحة والعتاد — وكانت النتيجة لدهشة العالم كله أن هجمات الروس الثقيلة ردت على أعقابها . ووقف الفنلنديون وحدهم لا يتلقون آية مساعدة فعالة اللهم إلا بعض العون الخفي من السويد وتمكنوا من صد المغيرين مدة ثلاثة أشهر ؛ وبلغ من شدة الغضب من الغزو السوفييتي أن أعد البريطانيون والفرنسيون حملة لمعاونتهم — ولم يحل دون التورط في حرب ثانية سوى أن سدت الطريق عليها النرويج والسويد .

وفي ١٢ مارس ١٩٤٠ انتهت الحرب الفنلندية بفوز الروسيين الذي لم يكن منه بد ؛ وعاد الحلفاء إلى سابق جمودهم الذي يسجله في ٥ إبريل صدور بيان من المستر تشمبرلن ملؤه الاستسلام يقول فيه : « إن هتلر قد فاته الأمنيبوس . » وبعد أربعة أيام من ذلك الإعلان استولى الألمان على الدانمرك كلها وعلى الشطر الأكبر من النرويج — فأما الأولى من هاتين الدولتين المسالمتين فلم تبد أية مقاومة وأما الثانية فقد أظهرت مقاومة غير منظمة لم يصادفها النجح . ولم يستطع تشمبرلن أن يصدق أذنيه ، فإنه عندما أبلغ أن الألمان استولوا على نارفيك في أقصى الشمال ، قرر أمام مجلس العموم أن ذلك لا يمكن أن يكون صحيحا ، وأن المكان لابد أن يكون « لارفيك » في أقصى الجنوب . وسارع البريطانيون بإنزال جندهم في نامسوس وأندالسنيس لمساعدة النرويجيين المكافحين ولكنه جيش حُرم الوقاية الجوية الكافية والدبابات والمدافع الكبيرة والخطة بالمقارنة إلى الألمان ؛ فكأن الإنجليز هم والفرنسيون الذين لحقوا بهم لم يكونوا يزيدون في القوة كثيراً عن البولنديين . ولم تبد الكفاية في شيء من

أعمالهم إلا فى العمليات البحرية التى اتخذت فى نارفك ، وهى عمليات لم تستطع على كل حال أن تنقذ الحملة . وتم فتح النرويج عند نهاية الشهر .

وعندئذ ضاق صدر مجلس العموم البريطانى (وإن كان رد الفعل الفرنسى أضعف من هذا) . ودارت مناقشة نارية متفجرة ، قال فيها أحد أتباع تشمبرلن يخاطبه : « أستحلفك بالله أن تذهب » ، واقتنع تشمبرلن بعد أخذ الرأى على وزارته بالمجلس بأقلية ٢٠٠ إلى ٢٨١ صوتاً أنه لا بد له أن يستقيل . وحل محله فى الوزارة ائتلاف برئاسة ونستون تشرشل ساهم فيه حزب العمال . وجاء التغيير فى أنسب الأوقات بالضبط . وفى نفس ذلك اليوم (١٠ مايو) خرق الألمان مجموعة أخرى من المعاهدات بغزوهم هولندة وبلچيكا . وعندئذ شهد العالم الغربى « العزم الألمانى » بكامل عمله وقوته . فإن « فرق البانزر » وهى مزيج من الدبابات والمشاة كانت تشق طريقها عنوة من خلال الخطوط العادية — فكانت الدبابات تهدم الأجزاء الضعيفة ، على حين تقضى جند المشاة الزاحفة وراءها على كل مقاومة . واستخدمت قاذفات القنابل ومعها شىء جديد اسمه قاذفات القنابل المنقضة كأسلحة لتمزيق شمل تشكيلات العدو — وكانت تتلقى الأوامر باللاسلكى هى والدبابات على السواء . ولم تعد خطوط التليفون السهلة القطع المستخدمة فى ١٩١٩ إلا ذكرى من ذكريات الماضى . وكانت خطة الهجمات توضع حتى أدق تفاصيلها . ولم تستطع حصون إبن إيمائيل (Eben Emael) القلعة العظيمة والركن المركزى الذى يعتمد عليه الدفاع البلچيكى أن تصمد إلا يوماً واحداً . ولكن الهجمات لم يقتصر توجيهها على الجنود فقط ، إذ أن هذه إنما كانت : « الحرب الشاملة » . وكانت الدبابات وقاذفات القنابل المنقضة بأصواتها الصارخة الرهيبة تدفع أمامها حشوداً هائلة من المدنيين المذعورين ؛ وكانت قوات الحلفاء التى هبت لمحاولة إنقاذ البلچيكيين تجد نفسها مختلطة بكتل غفيرة من اللاجئين المذعورين الذين يفرون نحو الغرب فى هلع . وكان « المظليون » يهبطون وراء الخطوط ويستولون على الكبارى . وفى هولندة كان جواسيس الألمان الذين كثيراً ما كانوا من قدماء النازلين بأرضها — يقيمون مواقع للمدافع الرشاشة . ورغبة فى زيادة أثر الإرهاب ، هاجم « اللوفت

ڤاف Luftwaffe » أى سلاح الطيران مدينة روتردام العزلاء وقتل ثلاثين ألفاً من سكانها ، وكانت الجريمة متعمدة إذ رأى الألمان أنه يجب على العالم أن يتعلم درساً .

وتم فتح هولندة فى أيام خمسة ؛ وبينما كانت الجيوش المتحالفة التى غيرت اتجاهها فسارت شمالا لإنقاذ بلچيكا تتقهقر ببطء نحو الساحل اخترق الألمـــان قطاعاً ضعيف الدفاع فى الأردن قرب مدينة سيدان المشئومة . وما وافى ١٥ مايو حتى كان الجيش الفرنسى التاسع قد تمزق بدداً وكان الپانزر ينثالون من خلل فجوة ذرعها خمسون ميلا شمال خطما چينو العديم الفائدة . ولم تنقض أربعة أيام أخرى حتى بلغوا البحر ؛ وأحيط بالجيوش البلچيكية والبريطانية وبعض الفرنسية فى فلاندر . واستسلم ملك البلچيك ؛ وقد استطاع الجيش البريطانى ومن معه من الفرنسيين الخروج من دنكرك بين ٢٨ مايو ، ٢ يونيه على يد أسطول تجمع على الفجاءة وكان مكونا من أكثر من ٦٠٠ من الزوارق الخاصة ، ٢٠٠ سفينة بحرية من سفن الأسطول . على أن الجيوش كانت أخذت فى ذلك الحين فى التصدع والانهيار ؛ فإن الپانزر كانوا يخترقون البلاد بسرعة شديدة جداً حتى أن دباباتهم كانت تسبق المشاة المتابعين لهم بخمسين ميلا فى بعض الأحيان . وهناك على الطرق البيضاء الممتدة بين « الليالق والورود » فى شمس الصيف المصحية كانت تنثال جماهير غفيرة مذعورة منها المدنيون ومنها العسكريون بزيهم الرسمى ، وهم يفرون لا يدرون إلى أين ويجرون وراءهم قطعاً غير منتظمة الشكل من متاع بيوتهم تلاحقهم قاذفات القنابل المنقضة بقنابلها ورشاشاتها كلما توقفوا عن الهرولة إلى الأمام . لقد بدت فى الأفق بوادر انتهاء إحدى الحضارات : ولم تشهد الدنيا مناظر كهذه منذ أن دمر البرابرة الإمبراطورية الرومانية . وفى ١٧ يونيه تألفت حكومة فرنسية جديدة برئاسة الماريشال پيتان العتيق وأعلنت أنها ستكف عن القتال ، متجاهلة بذلك عرضا بريطانيا بإنشاء اتحاد انجليزى فرنسى تام .

لقد أدرك النازيون النصر بفضل ما كان لهم من أسلحة أفضل وقيادة أكفأ وعدم رغبة الطبقة العليا الفرنسية فى المقاومة وانتشار الدعاية الشيوعية بين صفوف العمال . وعندئذ امتدت أيدى حلفاء النازية تنتقى وتلتقط . وبكل شجاعة أعلن موسولينى الحرب على حلفائه المنهزمين ، واقتطع الاتحاد السوفييتى ولاية بسّاربيا من

رومانيا (وهى دولة يحميها من قبل ضمان انجلو فرنسى) كما ضمت إليها استونيا ولاتفيا ولتوانيا . ثم حدثت وقفة وحزة .

والمعركة التى جاءت فى أعقاب ذلك ترتفع إلى مرتبة ماراتون وسلاميس بين المعارك التى غيرت وجه التاريخ وأنقذت إحدى الحضارات . فلو لم تقاوم بريطانيا أو لو أنها هزمت فى ذلك الكفاح ، فليس من العسير تقدير ماكان سيحدث . فإن خطة النازية صارت الآن واضحة وضوحاً لا بأس به ، وواضح أيضاً كم أشرفت على النجاح . وكانت هزيمة بريطانيا سيعقبها غزو الروسيا . والحق أن القوات السوفييتية أصبحت هى الأخرى على نفس شفير الكارثة فى ١٩٤١ ، ١٩٤٢ ، ومن بعيد الاحتمالات أنهم كانوا يستطيعون الصمود أمام ألمانيا بعد أن تهزم بريطانيا ولا تعود بها حاجة للدفاع عن مؤخرتها ، وتجد كل البحار مفتوحة لتزويد جيوشها بما تحتاج إليه . وكانت الخطة تقضى بأنه متى تمت هزيمة الروسيا أن تهاجم الولايات المتحدة تلك الدولة الساذجة نصف المسلحة — فيهاجمها اليابانيون من الغرب وتهاجمها أوربا النازية على بكرة أبيها من الشرق كما يهاجمها من الجنوب حلفاء ألمانيا بأمريكا اللاتينية — وهم فعلا فى حالة استعداد . وقد أحبطت مقاومة بريطانيا تنفيذ هذا البرنامج الضخم وغير بعيد التنفيذ .

وكانت هناك من قبل أمم مكسورة كثيرة تحتمى وراء الدرع البريطانى . وقد ظلت هيئة الإذاعة البريطانية شهوراً كثيرة تذيع بعد إذاعة النشيد البريطانى الأناشيد الوطنية لجميع الدول الأخرى التى لحكومتها أشباح فى لندن قبل قراءة نشرة أخبار المساء . كان موكباً طويلا غلب عليه الأسى قدر ما تجلت فيه الشهامة ، تمر فيه هولندة وبلچيكا والنرويج والدانمرك ولوكسمبرج والحبشة وبولندة وتشيكوسلوفاكيا وفرنسا — ولم يلبث الموكب حتى انضمت إليه يوغوسلافيا واليونان . وقل منهم من كان يدرك كم كان ذلك الدرع رقيقاً . يقول چون بروفى : « لم يكن لدى بريطانيا بعد دنكرك سوى ما يقارب فيلق ونصف من فيالق المشاة وبضعة فرق من مدفعية الميدان وستين دبابة فقط » . أجل إنه كان لديها أيضاً الحرس الوطنى ، وهى قوة من المتطوعين أصبحت فى مدى بضعة أسابيع مكونة من أكثر من مليون

من الرجال مستعدة لمجابهة المظليين الذين حطموا المقاومة الهولندية والدانمركية ؛ ولكن كل ما كان لديهم من سلاح – إن كان معهم سلاح – هو البنادق العادية ، حتى وافى الخريف ووصلت إلى البلاد ٨٠٠,٠٠٠ بندقية من أمريكا . أجل إن الأسطول كان قوياً جباراً لم يتغير من وضعه شيء ، ولكن سلاح الجو الألماني كان يفوق فى العدد سلاح الجو الملكى بدرجة هائلة .

وحدد هتلر تاريخ غزو بريطانيا – وهو الحادى والعشرون من سبتمبر ١٩٤٠ – وبدأت الحركة الأولى فى هذا السبيل ، وهى تدمير الأسطول الجوى البريطانى فى ٨ أغسطس ١٩٤٠ . وأخذت قاذفات القنابل من طراز هاينكل ودورنير وقاذفات يونكرز المنقضة ومقاتلات مسرشمت تجتاح جنوب شرق انجلترة . وكانت تعترضها أعداد صغيرة من طائرات سبيتفاير وهاريكان تساعدها بعض الطائرات القديمة من طراز ديفايانت (Defiant) . وكانت طائرات الدفاع من القلة بحيث لم يعد فى الإمكان مواصلة مسير الدوريات باستمرار . فلا بد لملاحى الجو من الانتظار حتى يصل الأعداء المهاجمون ، ولا كان فى الامكان عندما تكتشف طائراتهم أن تصعد لهم القوة بأكملها ؛ فلابد من الاحتفاظ ببعض الأسراب لملاقاة الموجة الرابعة والخامسة التى كان الفاتح المسرف فى قواته يستطيع إرسالها . وكانت خطة سلاح الجو الألمانى ذات خمس شعب : تدمير القوافل الساحلية التى تمون بريطانيا بالطعام وإغراق الأسطول أو تعجيزه عن الحركة وطرد سلاح الجو الملكى R.A.F من السماء ، وشل الحركة فى الموانى وتحطيم جميع المطارات التى قد تقوم منها الطائرات لقذف أساطيل الغزاة بقنابلها . مثال ذلك أنه حدث يوم ١٢ أغسطس أن ٢٠٠ طائرة هاجمت دوفر على موجات وهاجمت ١٥٠ طائرة ميناء بورتسموث وجزيرة ويت . واستمر القتال طوال أغسطس وسبتمبر إلى أكتوبر . وكان كل ما يستطيع رؤيته من على الأرض من الناس خطوطاً من الدخان الأبيض تمر عبر سماوات كنت الزرقاء الصافية وقرقرة المدافع الرشاشة السريعة والانفجارات المفاجئة المكتومة ومظلات بيضاء متطوحة يتعلق بها بعض الرجال وطائرات متقدة تسقط على التلال . ولكن النتيجة ظهرت وفصل فى الأمر فى سبتمبر : فإن سلاح

الطيران الملكى قد طرد سلاح الجو الألمانى من السماوات نهاراً . وقال المستر ونستون تشرشل الذى كانت خطبه جزءاً من خطة الدفاع البريطانى متحدثاً عن الطيارين : « لم يحدث قط فى تاريخ الصراع البشرى أن كان عدد ضخم كهذا مديناً لمثل هذه القلة الضئيلة بمثل هذا الفضل العظيم . »

وفى أكتوبر بدأ سلاح الجو الألمانى طريقة جديدة . (وذلك لأن الغزو تأجل ، وتشرقت الصنادل المسطحة القاع التى أعدها هتلر كما أعدها نابليون من قبله) ولكن بريطانيا تكهنت من قبل بالخطة ؛ وبدلا من محاولة تدمير المطارات والقضاء على سلاح الطيران الملكى ، أخذ الألمان منذ ٧ سبتمبر يهاجمون أرصفة ميناء لندن ، وكانت ألسنة اللهب والانفجار تشاهد على بعد ٢٠ ميلا . وواصل الطيارون الألمان غاراتهم الليلية طوال الشتاء حين لم يكن فى مستطاع سلاح الطيران الملكى اكتشافهم . ودمر الجزء المركزى من كوفنترى فى ١٥ نوفمبر (واخترع الألمان فى لغتهم بابتهاج فعل « أكفنتر to caventrate » للدلالة على التدمير المطلق الشامل) . وأغاروا على لندن ستا وتسعين غارة منفصلة ؛ أحرقت أحداها فى ٢٩ ديسمبر كل المنطقة المركزية من المدينة . ووقعت على المدينة خمسون ألفاً من القنابل الشديدة الانفجار وما لاحصر له من القنابل الحارقة . ولاح فى البداية أن الهجمات كانت توجهها خطة استراتيجية مرسومة ؛ فكانت تجعل أهدافها السكك الحديدية والمحطات ومصانع الغاز ومستودعات المياه ومحطات المجارى والموانى ومحطات توليد القوى ؛ ثم بدأ بعد ذلك أن الدافع كان الغضب العشوائى . واستخدمت الألغام الممغنطة التى كانت تعلو عن قاع البحر لتغرق السفن الحديدية التى تمر فوقها ، فأصبحت الموانى معطلة ، حتى وجد لغم سليما نهاية نوفمبر ففكت أجزاؤه وفحص ، وكانت نتيجة ذلك أن استنبطت طريقة تحييد المجال المغنطيسى للأرض (Degaussing) ، فأبطلت مفعول تلك الألغام .



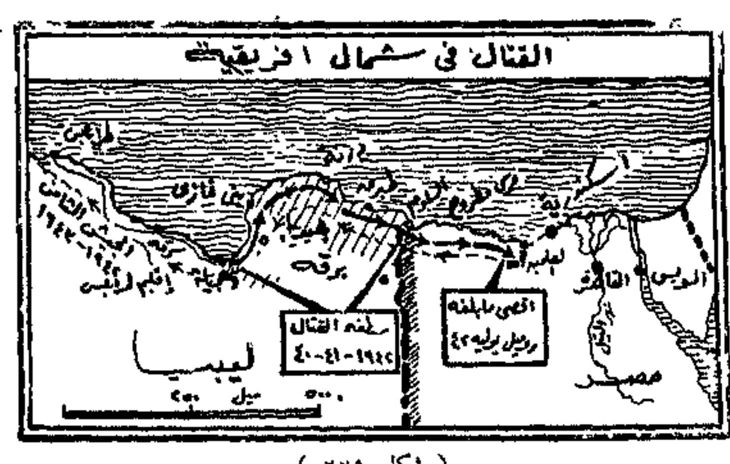
(شكل ٢٢٨)
صورة ونستون تشرشل

والمصائب تجمع قلوب المحزونين . وقد توقع الألمان أن تحدث غاراتهم نفس الآثار التى أحدثتها فى المواطن الأخرى – بل الواقع أن إذاعتهم أخذت تذيع مفترضة أن تلك الآثار نفسها قد وقعت ، وأن سيولا عديدة من اللاجئين المذعورين كانت تكظ الطرق المؤدية من لندن شمالا ؛ وتكرم اللورد هوهو (وليم جويس) بنصحهم بأن شمال ويلز هو الجهة الآمنة الوحيدة أمامهم . ولكن الواقع أن الأطفال أبعدوا عن المدينة بطريقة منظمة وأنزلوا عند أصحاب المنازل بالريف ، فى وجه شيء من التذمر ، ولكن مع الكفاية ؛ ولم يتبعهم أى جماهير من اللاجئين . وكانت جميع الطبقات تحتمى من الغارات فى لندن ومدن الأقاليم فى نفس النوع من المخابئ ؛ وفوق هذا صدرت قوانين حتمت المساواة ، لو أنها ظهرت قبل ذلك بسنتين لا تهمت بالاتسام باشتراكية لا يمكن العفو عنها . ووضعت جميع الممتلكات ، بما فى ذلك الأرض ، تحت هيمنة الحكومة ، بمقتضى قوانين صدرت بمجرد تقلد حكومة تشرشل مهام الحكم . ووضعت البنوك تحت الرقابة الحكومية ؛ وتولت الحكومة الاشراف على الاستثمارات الأجنبية ؛ وفتحت دفاتر حسابات أصحاب المصانع والشركات للتفتيش ؛ وكان فى الامكان إصدار الأوامر بالزام الأفراد بالقوة بإنتاج أى شيء يحتاج إليه . وفرضت الضرائب على أرباح الحرب ؛ وتقرر أن تكون خسائر الحرب قسمة مشتركة بين الجميع . وقبل العمال أن يعملوا تحت التوجيه ، لم يلبث هذا التجنيد أن بسط على النساء أيضاً . ولم يحدث قط منذ أيام اسبرطة أى قبل ذلك بألفين وخمسمئة عام أن يسجل الناس أسماءهم بمثل هذه الدرجة الكاملة الشاملة .

على أن الحظ كان رغم كل هذه الجهود يعابث البريطانيين . فإن عدد البريطانيين ، أربعة وأربعون مليوناً من الأنفس مقابل ثمانية وثمانين مليوناً لدى الألمان ؛ فلو أضيف إلى الملايين الأربعة والأربعين من سكان الجزر البريطانية سكان الممتلكات المستقلة المؤيدون لهم ، فقد كان فى إمكان هتلر أن يضم إلى من تحت سطرته من ألمان أغلبية سكان أوربا . أجل إن الأسطول لم يكن يبزه فى العالم شيء ؛ ولكن تجلت واحدة من أشد تحديدات القوة البحرية خطورة عندما أذيعت

الأخبار بأن ٥٠٠ ألف طن من السفن كانت تغرقها الغواصات النازية كل شهر فى مستهل ١٩٤١ . غير أن الأسطول ظل مع ذلك يعمل بنشاط . فنى الثالث من إبريل ١٩٤٠ أغرق أو استولى فى وهران على الأسطول الفرنسى الذى يظهران بيتان كان يهم بتسليمه للألمان . وفى ١٣ نوفمبر هاجم طيران الأسطوال بميناء تارنتو ثلاث بوارج وأربع مدمرات وسفن إضافية من الأسطول الإيطالى الذى كان يتوقع منه أن يكون هو المهيمن على البحر المتوسط . وفى الشهر التالى بدأت القوات البريطانية والمتحالفة بمصر بقيادة الجنرال ويفل هجوماً على القوات الإيطالية بليبيا انتهى باحتلال برقة (Cyrenaica) احتلالاً تاماً وأسر عدد من الأسرى يفوق بكثير عدد الجيش المهاجم .

ولكن كل هذه الأعمال الضخمة لم تكن بالحاسمة . وتمكن البريطانيون من استرداد بلاد الحبشة وإعادة الأمبراطور إلى عرشه ؛ كما تمكنوا من إغراق نصف الأسطول الإيطالى فى معركة رأس ماتابان مارس ١٩٤١ ؛ ولكن كفة الميزان كانت لا تزال شائلة لغير صالحهم . وبينما كان سيل الغارات الجوية ينهمر على الجزيرة



(شكل ٢٢٩)

البريطانية بلا انقطاع ، حلت بالانجليز هزائم برية أخرى فى الشرق الأوسط وحاول موسولينى الحصول على نصر رخيص آخر ، فغزا بلاد اليونان فى نهاية أكتوبر ١٩٤٠ من مستعمرته البلقانية ألبانيا . وقد صعق الرجل لأن قواته الضخمة هزمتها قوات

اليونان الصغيرة وأرجعتها القهقهرى وأخذت تغزو ألبانيا نفسها . وبعد قليل تقدم هتلر على مهل (كما بدا للناس عندئذ) لمساعدة حليفه ، ولتمهيد السبيل لذلك أمرت المجر ورومانيا وبلغاريا بالانضمام إلى المحور . وأقر الأمير پول الوصى على عرش يوغوسلافيا تحالفاً عقد مع الألمان فى ٢٥ مارس . ولكن اليوغوسلاف أبوا قبول ذلك الحلف ، فطرد الأمير بعد يومين وأجلس ابن أخيه الغلام على العرش باسم بطرس الثانى . وفى السادس من أبريل هاجمت الجيوش الألمانية يوغوسلافيا بسرعة مرعبة . ولم يكن الجيش اليوغوسلافى مستعدا للقتال فشتتوا شمله ، ودمرت بلجراد تدميراً جزئياً فى غارة من غارات الارهاب المألوفة ؛ وما وافى ١٧ من الشهر حتى أخمدت كل مقاومة إلا ما كان يصدر من بعض عصابات فى سربيا بقيادة الكولونيل ميخائيلوفتش .

وعند ذلك دخل الألمان بلاد اليونان . إذ كانت فرق الپانزر تشكل تشكيلا يختلف اختلافاً بليغاً عن الجيوش الإيطالية ، وعندئذ طلبت اليونان المساعدة من بريطانيا على الفور . وأرسل إليها كل الفائض الذى يمكن الاستغناء عنه من قوات ويقل — فى أعداد ربما تجاوزت حد الحكمة — ولكن عاد التفوق الألمانى الجوى فأحرز نصره . وربما كان فى الامكان التمسك بمضيق ثرموپيلاى ، ولكن كتلة الجيش اليونانى التى قطع عليها السبيل فى إپيروس استسلمت واستلزم الأمر إخلاء بلاد اليونان من الجيوش . وحاول اليونانيون التمسك بجزيرة كريت ؛ ولكن ما لبث الألمان أن انتزعوها منهم بقوة السلاح الجوى . وفضلا عن ذلك نقل الألمان تعزيزات كبيرة إلى ليبيا ، بينما الأسطول البريطانى ينقذ القوات البريطانية من اليونان ، وهناك فى ليبيا تمكنت الجيوش الألمانية والإيطالية بقيادة الجنرال روميل من طرد البريطانيين من كل ما كان ويقل فتحه تقريباً .

وانقضت لحظات بدت فيها الكوارث موشكة على الانتشار . واستولى رشيد عالى الكيلانى أحد أنصار النازى على السلطة من نائب الملك فى العراق ، وأمد بالطائرات الألمانية عن طريق سوريا التابعة لحكومة ڤيشى الفرنسية (برئاسة پيتان ولاڤال) . ولكن لأول مرة كان الرد سريعاً ، فإن رشيد عالى قام بأول هجماته فى اليوم

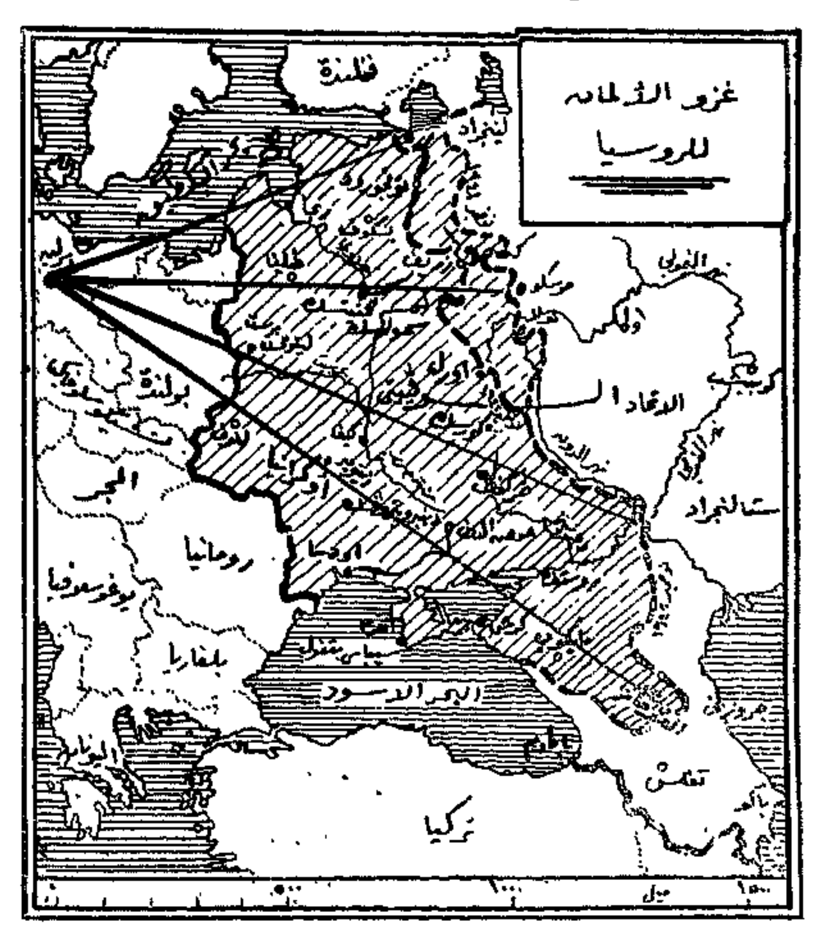
الثانى من مايو ، ولكن لم يلبث البريطانيون أن استولوا على بغداد فى أول يونية . وتمكنوا فى الأسابيع الخمسة التالية من استرداد العراق بأجمعه كما احتلوا سوريا .

وأزيل عن بريطانيا قلق كبير له جديته . وبريطانيا كما هو معلوم جزيرة مكتظة بأكثر مما تطيق من السكان لا تستطيع العيش إلا بما تستورد من لوازم ومواد تدفع بعض أثمانها مما تغله عليها استثماراتها وراء البحار . وسرعان ما بيعت هذه الاستثمارات لشراء الميرة والذخيرة ، وكان بيعها بالولايات المتحدة بوجه خاص ، وبذا أصبح الخراب وشيكاً جداً . وكان الرئيس روزفلت أقنع الكونجرس فى ١٩٣٩ بتعديل قوانين الحياد المتعلقة بالحظر البحرى للأسلحة والسماح بنظام « الدفع نقداً وحمل البضاعة Cash & Carry » (وهو أمر لم يكن معناه إلا البيع لبريطانيا وفرنسا دون غيرهما بسبب تفوق الأولى البحرى) ، ولكن حتى هذا الوضع لقى معارضة عنيفة جداً . وصرح السناتور بوراه أن معنى ذلك هو حمل السلاح ، وصرح ناى أنه لن يكون هناك شىء « أمام أمريكا إلا الجحيم الموقد » ، كما صرح كلارك بأن بريطانيا وفرنسا هما المعتديتان وقال لندين (Lundeen) : يجب انتهاز هذه الفرصة لدفع ديون الحرب العالمية الأولى أو الاستيلاء على جزر الهند الغربية . وفى سبتمبر ١٩٤٠ بيعت لبريطانيا خمسون مدمرة تجاوزت العمر القانونى المحدد لها مقابل بعض القواعد البحرية . وفى الحين نفسه تكونت بشيكاغو لجنة سميت : « لجنة رعاية المصالح الأمريكية أولا » ، وكانت هيئة أكثرت من الصخب وبدت فى ثوب من قوة النفوذ والتأثير . ومع ذلك فقد قدم إلى الكونجرس فى نهاية ١٩٤٠ مشروع قانون « الإعارة والتأجير Lease-Lend » ومر القانون فى المجلس فى ١١ مارس ١٩٤١ . وكان معناه الحق أن الفيض الضخم من الأسلحة الواردة إلى بريطانيا أصبح يقدم إليها منذ تلك اللحظة بغير مقابل .

ولكن الحروب لا يمكن كسبها بالمال ، وربما كان من حسن حظ العالم أن بدأ صبر هتلر ينفد . وكان منذ حين يفكر فى الشطر الثانى من خطته الحربية العظيمة مع ترك الشطر الأول ناقصاً . وفى مايو قام هيس الرجل نصف المجنون التالى له فى القيادة والرئاسة برحلة طيران سرية ليرى هل تقبل بريطانيا أن تتعاون أم

ترفض . وقد اتضح ما كان يدور بعقله على حين بغتة فى الساعة الرابعة من صبيحة ٢٢ يونية عندما هجمت القوات الألمانية على طول الحدود المترامية — على أراضى الاتحاد السوفييتى .

وبدا الروس كمن أُخذ على غرة . إذ لم يكد يمضى أسبوع على إعلان أصدرته وكالة تاس الرسمية للأنباء تصرح فيه أنه : « لا يمكن أن يكون هناك أى سوء تفاهم بين الدولتين » . وبديهى أن قواتهم على الحدود دفعت جميعاً إلى الخلف ، ولم ينقض أحد عشر يوماً حتى كان الألمان يحتلون منطقة أعظم من فرنسا مساحة . ولكنهم دخلوا عندئذ منطقة عميقة من التحصينات تسمى على سبيل التسهيل باسم « خط ستالين » وتمتد بالتقريب على خط حدود الروسيا فى ١٩٣٨ . وهنا بات القتال أشد



(شكل ٢٣٠)

عناداً ؛ إذ لم يكن للثورة المحتدمة فى أنفس الطرفين من نظير وكان عنادهما أكثر تعادلا . ولكن النتيجة كانت واحدة ؛ فاخترق الألمان الخط عند مواطن ثلاثة — أولها فى الشمال بالاستيلاء على پسكوف على الطريق إلى لننجراد ، وثانيها فى الوسط بالاستيلاء على ڤيتيبسلك على الطريق إلى سمولنسك ؛ وثالثها بالاستيلاء على زهيتومير (Zhitomir) على الطريق إلى كييف . وتواصلت قصة الهزائم والتراجعات الروسية متكررة طوال الصيف . وحوصرت لننجراد ، وانتقم الفنلندبون لأنفسهم بالزحف نحوها من الشمال . ثم سقطت سمولنسك فى قبضة الألمان الذين شقوا طريقهم فى الجنوب ودلفوا إلى أوكرانيا (وهى المستودع الصناعى والزراعى العظيم لدى الروسيا) ، واحتلوا كل شىء تقريبا يقع غربى نهر الدنيبر .

وعندئذ قدمت بريطانيا للروسيا كل ما تستطيع من مساعدة بعد أن عقدت مع الروسيا معاهدة تحالف . وحذت الولايات المتحدة حذوها ، ولكن كل ما قدمتاه كان ضئيلا جداً . وكانت الدولتان الناطقتان بالإنجليزية حاولتا توضيح أغراض الحرب : فعند بداية السنة كان الرئيس روزفلت تحدث إلى الكونجرس عن « الحريات الأربع » — وهى : حرية الكلام والعبادة والتحرر من الحاجة ومن الخوف . وفى أغسطس التقى برئيس الوزراء تشرشل على صفحة البحر حيث أعدا ووقعا « ميثاق الأطلنطى » لتنفيذ هذه الحريات — وهى على الجملة أقل وضوحاً من نقاط ولسون الأربعة عشرة ولكنها تحتوى على نفس النوايا . وصدق ستالين على الميثاق مضيفاً إليه التالى : « إن هدفنا هو مساعدة الأمم التى تكافح ضد هتلر ثم تركهم وشأنهم ينظمون أحوالهم بملء حريتهم وبالطريقة التى يرضونها — وينبغى أن لا يتدخل أحد أى تدخل فى الشئون الداخلية للشعوب الأخرى » .

ولكن الكلمات لا تزيد على الأموال قدرة على اكتساب الحروب . وحاول الجيش الألمانى مواصلة الزحف . فسقطت كييف وتبعتها خاركوف واحتلت أوكرانيا بأجمعها وكان الروس يحرقون أو ينسفون كل شىء قبل مغادرة كل مكان لكى لا يتركوا للفاتح شيئاً . وكانت الوحشية الضارية سمه التقدم الألمانى ، وقد كان جندهم يحسنون فى أوربا الغربية السلوك إلى حد ما (حسب مقتضى المعايير الخفيضة

المقبولة الآن) ، ولكن لم يكن ثمة داع يدعوهم فى الروسيا لكبح أنفسهم . وأبعد القائدان العامان الروسيان ڤوروشيلوف وبوديني عن القيادة ، ولكن خليفتيهما فى الإمرة لم يكونا أسعد حظاً ؛ واحتل حوض نهر الدون ، واجتيحت بلاد القرم ، وصار الألمان على ما يقرب من عشرين ميلا من موسكو ؛ ونقلت مكاتب الحكومة والبعثات الأجنبية إلى كويبشيف على بعد ٥٠٠ ميل .

وللمرة الثانية لم يستطع المحور أن ينتظر ؛ إذ لا بد له من التقاط الثمرة قبل نضجها . ففى التاسع من أكتوبر أعلن الألمان بصفة رسمية كان إيمانهم بصحتها واضحا أن الجيوش السوفييتية فى حالة تحلل . والظاهر أن تلك الفكرة أخذت تتضح لدى آخرين غيرهم ، وأنه قد حان الوقت الذى ينبغى أن يبدأ فيه الدور الثالث من فتوح المحور ، إذ هاجمت اليابان الأسطول الأمريكى فى الپاسيفيكى الراسى عنـد پيرل هاربر فى اليوم السابع من ديسمبر ١٩٤١ ، فأغرقوا بعض بوارجه الثمانية وأعجزوا بعضها الآخر عن العمل ، كما أغرقوا أو أعجزوا ثلاثة من طراداته السبعة ، فضلا عن ثلاث مدمرات . وبذا أصبحت أمريكا فى حالة حرب مع المحور .

وكان حظ الحلفاء فى أوهد حضيضه أثناء الشهور التى عقبت ذلك . واجتمعت القوات البحرية الباقية بالمحيط الهادى تحت إمرة أمير بحر هولاندى فى أسطول أغرق عن آخره قرب جاوة ؛ وسارعت بارجتان بريطانيتان عظيمتان نحو الشرق هما : البرنس أوف ولز والريپلس لإنفاذ الموقف ، فأغرقتا بالقرب من الملايو لعدم وجود الدفاع الجوى الكافى . وفتحت بلاد الفلبين . واجتيحت الملايو ، وسقطت قلعة سنغافورة العظيمة فى ١٥ فبراير ١٩٤٢ . وبدلا من أن يمد أهالى جنوب شرق آسيا يد العون للحلفاء ، أظهروا نحوهم فتوراً وعدم اهتمام . فإن سنوات الاستغلال المديدة التى مرت بهم أنتجت ثمارها المتوقعة ، فإن لم يتعاونوا فعلا مع اليابانيين ، كانوا يحولون (كما فعلوا فى پينانج) دون القيام بأية جهود « لإحراق الأرض » كما كان الروس يفعلون . وجاء بصيص الأمل الوحيد من ليبيا ، حيث هاجم البريطانيون رومل ودفعوه إلى العجيلة نقطة الدوران إلى إقليم طرابلس . ولكنه

لم يزد عن بصيص ؛ وفى يناير قام رومل بهجوم مضاد واسترد كل شيء حتى درنة .

وكان بصيص أقوى قليلا من ذلك يجيء من الروسيا وإن ظهر فيما بعد أنه لم يكن إلا سراباً . ومن العجيب أن الألمان لم يتزودوا بما يلزم لقتال الشتاء ، كما أن مبادرة الروس بنقل المصانع إلى ما وراء جبال الأورال عوضت خسارتهم لأوكرانيا إلى حدما . وردهم فى الجنوب الجنرال تيموشنكو على أعقابهم حتى بلغ خاركوف ، وبذلك أبعد الخطر عن موسكو وخفف الضغط عن لننجراد إلى حد ما . على أن تلك الأخبار غطى عليها بدرجة ما فقدان الحلفاء قطراً بأكمله : هو بورما التى طرد منها البريطانيون طرداً عاجلا وسقطت رانجون فى ٧ مارس . وفى يونية قام

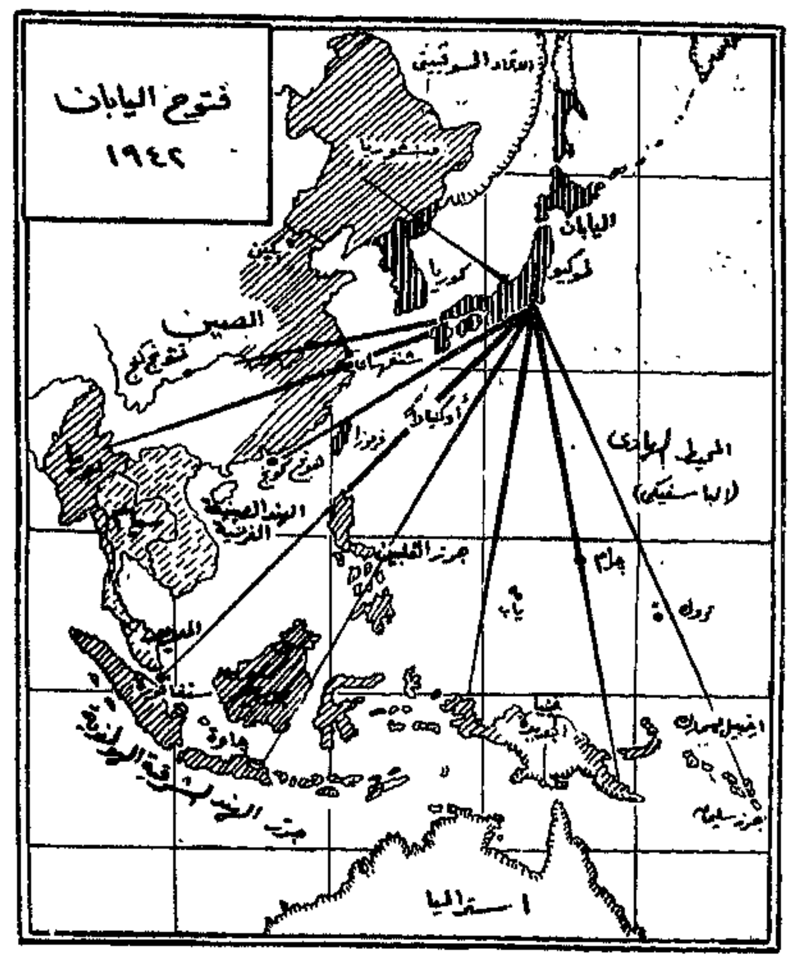


(شكل ٢٣١)
فرانكلين روزفلت

الألمان بهجوم آخر فى ليبيا ، وذلك بعد أن نيطت آمال كبار على الجيش الثامن بعد تعزيزه وتقويته بالدبابات الأمريكية الجديدة ، على أنه دفع إلى العلمين ، ووعد رومل « بمواصلة الزحف وراء البريطانيين المندحرين إلى وادى النيل . » وفى الشهر التالى أخذ اليابانيون يتجمعون فى جزيرة غينيا الجديدة فى طريقهم إلى أستراليا ، وحطم الألمان مقاومة الروس فى الجنوب . وسقطت سفاستبول كما سقطت روستوف ، وتقدمت جيوش النازى إلى الأمام نحو جروزنى وستالينجراد ، وهو أمر يهدد فى حالة الأولى بإيقاف مدد الزيت ، وقطع خط إمدادات الفولجا فى حالة الثانية .

وحاول البريطانيون استثارة الشعب الهندى لمعاونتهم . ففى مارس أرسل السير ستافورد كريبس ليعرض على المؤتمر الهندى مبدأ منح الهند وضع المملكة المستقلة (الدومنيون) بعد الحرب ، مع منحهم حق الانفصال ، وتخويل الهنود

دستورهم بأنفسهم ؛ فضلا عن إنشاء مجلس تنفيذى يستمتع مباشرة بسلطات وزارة بريطانية ، وأما سلطات نائب الملك فقد احتفظ بها كما يحتفظ بسلطات الملك .



(شكل ٢٣٢)

ولكن المستر غاندى استهزأ بذلك العرض قائلا إنه . « شيك فات أوانه مسحوب على بنك يعلم الناس جميعاً أنه ينهار . » وقرر حزب المؤتمر فى يولية القيام « بنضال شعبي متكتل » ضد البريطانيين ؛ كما قرر أن لا توجه على اليابانيين سوى مقاومة « قوة الروح »

وكأنما شاء الألمان أن يسجلوا تحققهم التام من النصر ، فأنزلوا مقابل مقتل هيدريخ حاكم تشيكوسلوفاكيا عقوبة الإعدام على ثلاثمئة إنسان ومحوا من الوجود

قرية ليديس . ولكن هذا النزوع إلى القتل كان فى الحقيقة من علائم الضعف ، فمنذ أعلن « الكولونيل بريطن » فى يولية ١٩٤١ فى الإذاعة البريطانية تعبئة « جيش النصر V.army » ، ما برحت المقاومة تشتد وتقوى على الألمان . وكان لا بد من إذكاء تلك الحركة فى أخريات الصيف بإعلان أنباء تنظيم موارد الحلفاء تنظيما جعل الميرة والذخيرة والعتاد الحربى تنصب إلى بريطانيا والروسيا انصباباً . وهاجمت قوات الولايات المتحدة اليابانيين فى جوادا الكانال بالمحيط الباسيفيكى فى أغسطس ؛ كان قتالا بطيئاً ودموياً ، ولكنه كان على كل حال هجوماً على المحور ؛ وفى غانا الجديدة طرد اليابانيون إلى البحر . ومع أن الألمان بلغوا القوقاز ورفعوا الصليب المعقوف على جبل إلبروز (Elbruz) أعلى قمة فى أوربا ، فإنهم وجدوا الاستيلاء على ستالينجراد أمراً عسيراً ، ذلك أن دفاع الروس كان هناك عنيداً بصورة غير منتظرة .

ثم بدا فى نوفمبر ١٩٤٢ كأنما حدث صدع مفاجىء . ففى الساعة السادسة والنصف من صبيحة ٢٣ أكتوبر ، هاجم الجيش الثامن بقيادة الجنرال مونتجومرى جيش رومل فى ليبيا بعد استعدادات طويلة ضخمة ، فمحيت قوات المحور الجوية من السماوات ، وفاز مونتجومرى بنصر عظيم فى معركة العلمين فى اليوم الأول من نوفمبر ، ولأول مرة شهد العالم جيشاً نازيا يجرى متفرقاً شذر مذر ولا يقف لحظة فى مدى مئات من الأميال . وبدأت الجيوش الألمانية هجومها المضاد فى جنوب الروسيا ، ولم تسقط ستالينجراد بأيدى الألمان وأحاط الروس بالقوة الألمانية المهاجمة لها ، وكان أن رأى العالم فى يناير جيشانازيا يسير إلى الأسر تحت بنادق الروس .

وبعد هجوم مونتجومرى بأسبوع ، نزلت الجيوش الأمريكية والبريطانية على غير انتظار إلى الدار البيضاء والجزائر ووهران ، وأنشئت جبهة جديدة بعد مقاومة فاترة أبدتها جند بيتان . وكانت الصعوبات التى تواجه الحلفاء عند البداية سياسيه فى معظم أمرها . فقبل القائد الأمريكى العام الجنرال إيزنهاور حاكماً من أتباع بيتان فى البداية هو الأميرال دارلان ، حتى إذا اغتيل ، تعين فى مكانه قائد أنظف

سمعة هو الجنرال چيروه (Giraud) ؛ وقد كان تعيين الجنرل چيروه موضع الاستياء من ديجول ، وهو قائد ظل منذ يوليه ١٩٤٠ ينظم مقاومة الفرنسيين من لندن . وقد اعترف الجميع بسلطة ديجول فى الوقت المناسب ، ولكن الأثر السيء الذى تركته تلك المسألة كان له أثر ملحوظ على السياسة الفرنسية منذ ذلك التاريخ . وفى الحين نفسه تهيأ للألمان بقيادة فون أرنم الوقت الكافى لتنظيم صفوفهم فى تونس ؛ ولكن لم يحدث إلا فى ٧ مايو ١٩٤٣ أن قواته وقوات روملى ، وقد دفعا جميعاً إلى ما يشبه الحظيرة ، — اضطرا إلى التسليم وسيق جيش ألمانى عظيم آخر أسيراً إلى معسكرات الاعتقال . وفى ذلك الحين أيضاً لم تعد الجزر البريطانية ضحية لقذف القنابل الثقيل ؛ ودار الزمن دورته فصار سلاح الجوى الملكى ليلا والسلاح الجوى الأمريكى نهاراً يدقان ويحطمان المدن الألمانية والأوربية والأهداف العسكرية ، محدثين تدميراً ضخما لعله قد ساعد على تقصير أمد الحرب (ونقول لعله لإن تلك مسألة فيها جدل) .

بيد أن إغراق الغواصات والسفن ظل شديداً بدرجة مزعجة ، ومع أن الجيوش الروسية قد أصبحت فى ذلك الحين كاملة العتاد والعدة ، إلا أن انتصار الروس فى ستالينجراد لم يعقبه أى انهيار آخر للألمان . وظل القتال فى الصيف سجالا — يتقدم فيه الروس حينا ويدفعون إلى الخلف آخر ، ويفعل الألمان مثل ذلك ؛ حتى إذا حل أغسطس كانت للروس ميزة واضحة على الألمان خاصة فى الجنوب . وفى الحين نفسه وثب الحلفاء الغربيون من إفريقية وفتحوا صقلية فى يوليو ، ودخلوا أوربا عن طريق « كعب الحذاء » الإيطالى ؛ وكان موسولينى أول من سقط من عمد المحور حيث طرد من الحكم فى ٢٥ يولية . وعندئذ قبل روزفلت وتشرشل وقد اجتمعا فى كويبك عرضاً إيطالياً بتحول إيطاليا إلى جانب الحلفاء (بعد أن أعلنا من قبل أنهما لن يقبلا إلا التسليم دون قيد ولا شرط فى الدار البيضاء فى يناير من تلك السنة) ؛ ولكن الظاهر أن المسائل كانت فسدت . وكان رد الفعل الألمانى أسرع من ذلك . فإن القوات البريطانية التى حاولت الاستيلاء على الجزر اليونانية التى تخلى عنها الإيطاليون عادت فهزمت مرة ثانية على يد القوات الجوية الألمانية ، ولم يكتسب

الحلفاء إلا النذر اليسير من الأرض حتى بإيطاليا نفسها ، ونزل الأمريكيون أعلى الساحل الإيطالى عند سالرنو فتعرضوا إلى حين لخطر محدق عظيم ، وبلغ الأمر بالألمان أن أنقذوا موسوليني من آسريه وأنشأوا « جمهورية فاشية » فى الشمال .

وإذن فقد جاء الوقت الذى وجب فيه إيقاف الخلافات بين الحلفاء . وكان الروس حلوا بصورة إسمية الشيوعية الدولية فى مايو ، ولكنهم فى الشهر السابق نظروا إلى المستقبل البعيد فقطعوا علاقاتهم بالحكومة البولندية المقيمة بالمنفى فى لندن . وكانت علاقة المقاومة الشيوعية سيئة بالآخرين فى كثير من أجزاء أوربا . أجل إنهم كانوا يحملون السلاح فى يوغوسلافيا ويقاتلون ، فكان الشيوعى الناشط تيتو يقاتل ميخائيلوفتش الملكى الخامل . وبعد التشاور مع تشيانج كاى شك فى القاهرة ، التقى روزفلت وتشرشل مع ستالين فى طهران عاصمة إيران فى نهاية نوفمبر ، وعقدوا أول مؤتمرات ثلاثة لا يزال العالم يجهل إلى حد جزئى قراراتهم فيها . وكأنى بالأحداث التالية أخذت تظهر أنهم قرروا هناك إقامة منظمة « للأمم المتحدة » بعد انتهاء الحرب وأن من بين الترتيبات الحربية إعلان الروس الحرب على اليابان ، ومنح الروس الحق فى تحرير أوربا الشرقية حتى مدينة پراج مع دخول المدينة ضمن ذلك التحرير . ووضعت ترتيبات تنسيق المقاومة بما فى ذلك التخلى عن ميخائيلوفتش



(شكل ٢٢٣)
ستالين

وكانت دورة الأيام وانتقالها من ١٩٤٣ إلى ١٩٤٤ مؤذنة بتحول الحظوظ فى الحرب . فقام الروس بهجوم على طول خط القتال كله ولم يستطع الألمان فى هذه المرة استرداد ما كسبه الروس منهم — فاسترد الروسيون زهيتومير (چيتومير) كما استردوا پسكوف وخُلِّصت لنينجراد واستردت نيكوبول وأوديسا . وعادت القوات السوڤييتية إلى حدود ١٩٣٨ وسرعان ما تخطتها . واخترق « خط

كاسينو فى إيطاليا ، وبعد قتال محطم للأعصاب دار عدة أيام حول رأس على الساحل عند أنزيو ، دخلت الجيوش الأمريكية مدينة روما فى ٤ يونية . فأما فى الشرق الاقصى ، فإن تفوق اليابان البحرى قضت عليه فى مارس ١٩٤٣ البحرية الأمريكية فى معركة بحر بسمارك . فإن طريقة ماك آرثر نيمتز البطيئة الفعالة وهى « الوثب على الجزر » التى أصبحت عندئذ ممكنة ظهرت آنذاك جزيرة غينيا الجديدة وجزائر سليمان وأفضت إلى مهاجمة جزيرة طروك (Truk) المحصنة المنيعة . ودخلت الجيوش البريطانية والصينية بورما وأخيراً شرعت فى دفع اليابانيين إلى الخلف .

ولكن غطى على كل ذلك حدث فى صباح ٦ يونية ، حدث سيظل موضع البحث فى كُتب التاريخ العسكرى . فإن الجيوش الغربية نزلت فرنسا .

كانت حملة مجهزة منذ مدة طويلة ، وكثيراً ما أرجئت (كما تمت يوماً محاولة زائفة لها) ، ثم حدثت الحملة الهائلة فى فترة سكون قصيرة فى أثناء جو فظيع وفى حدثان أسوأ عاصفة فى يونية شهدها بحر المانش منذ عشرين سنة . وعلى الرغم من الأسلحة الهائلة التى جمعت ، كان إنزال الحملة محفوفاً بأشد المخاطر . ويعدها القائد العام الجنرال أيزنهاور واحدة من أخطر اللحظات الثلاث الحرجة الحاسمة فى حملته . فقد أعلن الألمان أن لا سبيل إلى اختراق جدارهم الغربى ، ولما شن الكنديون عليه هجومهم الجسور الباسل عند دييب (Dieppe) فى ١٩٤٢ ، كانت العاقبة وبيلة مدمرة — وكانت تحت إمرة إيزنهاور ٣٧ فرقة ، ولكن خصمه فون رونشتد كان بيده ستون فرقة . واستخدم الحلفاء ١٧١ سرباً من أسراب الطائرات حطموا بها المطارات والسكك الحديدية والكبارى ما هو من الكثرة بحيث عجز فون رونشتد عن تجميع قواته عند ما تحقق من الموضع الذى تكال فيه الضربة الكبرى الرئيسية . ذلك أن الحلفاء انصرفوا عن منطقتى الكوتنتان وممر كاليه اللذين كان ينتظر أن يوجهوا هجومهم إليها ونزلوا على سواحل نورماندى المفتوحة ، منزلين المظليين أمامهم وجالبين معهم ميناءين صناعيين تسميان باسم ثمرة « التوت Mulbery » . وأنزل الجند فى مواضع ثلاثة واجتمعوا سريعاً فى موضع واحد ، وكان البريطانيون يكوّنون الطرف الشرقى والأمريكيون الغربى . وللمرة الثانية تقرر أن تكون بداية العمل الميدان الجديد على يد رومل ومنتجومرى ، فركز رومل كل مصفحاته وخيرة مشاته

فى الشرق حول مدينة كاين (Caen) لإنقاذ باريس وحوض السين وحماية المواقع التى كان الألمان يضربون منها عندئذ بريطانيا بطائرات تسير بغير طيارين (وهى المسماة («V.1s») وكانت تلك الطائرات تنسف المبانى التى تصطك بها – ثم جاءت فى إثرها طائرات أسرع من الصوت تسمى («V 2s») وكانت تنقض على على أهدافها من طباق الجو العليا . وهنا كان التقدم دموياً وبطيئاً ، ولكن جيوش



(شكل ٢٣٤)

الولايات المتحدة دأبت على شق طريقها نحو الغرب بثبات ، حتى قطعوا خط شبه جزيرة الكوتنتان ثم استولوا على شربورج ، وبذلك أصبح فى قبضتهم فى النهاية ميناء طبيعى كبير . وما حلت نهاية يولية حتى أصبحوا وقد شقوا طريقهم عنوة حول ركن شبه الجزيرة إلى بريتانى بالاستيلاء على أفارانش ، فانحين السبيل أمام جيش

الجنرال باتون ليزحف بجيشه فى صورة مروحة فى مسيره الشهير عبر شمال فرنسا . ووثبت « جيوش الداخل » الفرنسية إلى أسلحتها لاستقباله ، وأخذ الحكم الألمانى يتصدع . وسقطت دينان فى ٢ أغسطس ورين فى ٤ أغسطس وماين فى ٦ وليمان فى ٩ ونانت وأنجرس فى ١٠ ، على حين سارع الألمان إلى الفرار إلى الموانى المحصنة : برست وسانت نازير وسانت مالو ولوريينت .

ولكن خيل للألمان أن هذا التقدم الرائع يعطيهم فرصة ، فلو أمكن استرداد أفارانش ، إذن لقطع السبيل على باتون وشلت حركته . ومن ثم وجهوا إليها هجوماً قوياً من فرق البانزر فى ٧ أغسطس . ولكن الهجوم صد فى يوم ١٢ وواصل القواد الألمان هجومهم طويلا . وكان التقدم السريع الذى أحرزه باتون حول مراكزهم إلى خط امتداد طويل محصور فى منطقة فاليز ، التى سميت باسم رهيب ولكنه صحيح هو « أرض القتل » . ولم تبق من جيش البانزر الخامس والسابع إلا بقايا ضئيلة فرت على أعقابها إلى نهر السين الذى لا يقوم عليه هناك جسر ولا معبر ؛ حتى إذا حل يوم ٢٢ كان معظم الجيوش الألمانية بين ميت وأسير .

وفى الحين نفسه اكتسحت حركة باتون مدن : شارتر ودروه ومانت على السين وأورليان وفونتينبلو وترويس ، وكلها سقطت فى مدى أسبوعين ؛ وأنزلت دفعة أخرى من الجند فى الجنوب بين مارسيليا وطولون قامت بتعقب الألمـــان على امتداد حوض الرون . ولكن فرنسا خلصت نفسها إلى حد كبير حيث قدر إيزنهاور مقدار قوات المقاومة « بخمسين فرقة » . وولى الألمان الأدبار مهطعين ، إذ اضطروا إلى ذلك لأن القطر المحيط بهم بأكمله تحول إلى منطقة عدوّة مسلحة . وخلّصت باريس نفسها بعصيان نظمته الشرطة فى التاسع من أغسطس ، قبل وصول الحلفاء يوم ٢٥

وعندئذ جاء دور البريطانيين والكنديين ؛ فإنهم قاموا باكتساحات شمالية جارفة أسكتت — الواحد تلو الآخر من الأحادير العظيمة التى كانت تنطلق منها إلى بريطانيا طائرات «V.1» التى ليس لها قائد ، ثم انصبوا عبر شمال فرنسا وبلچيكا . وفى ٣٠ أغسطس أصبح البريطانيون فى بوڤيه وإذا هم فى أميان فى اليوم التالى — ثم إذا هم يوماً فى

إثر يوم يستولون على آراس وتورنيه وبروكسل وأنتويرپ (أنڤرس) ولوڤان . واستولى الكنديون والبريطانيون فى أول سبتمبر على دييب وروان ؛ وفى الأيام الأربعة التالية اكتنفوا الهاڤر وبولونيا وكاليه ؛ وفى السادس منه أخذوا أوستند . ولكن بدا عند ذلك أن الاندفاعة العظيمة انتهت . وتقدمت جنود الولايات المتحدة إلى لكسمبرج ، وتقدم الفرنسيون إلى الرين من خلل الڤوج ، ولكن محاولة البريطانيين مواصلة الغزو حتى هولندة كبدتهم خسارة ثلاثة أرباع قوة من جنود المظلات قرب أرنم . . وكانت أول مدينة ألمانية سقطت هى آخن ، وهى فى الطرف الأقصى للتخوم الألمانية ، وقد أخذت فى ٢١ أكتوبر ، ولكن الأمطار نزلت بشدة فى نوفمبر وبدا كأن جيوش الحفاء قد استنفدت قوة الدافع .

وكانت الأنباء الواردة من أوربا الشرقية طيبة أيضا ، ولكن كانت تشوبها بعض الظلال . فقد أصيب الجيش الألمانى بضربة ثقيلة عندما استردت منه مدينة منسك ، وأعقبتها ڤلنا ، وفى أغسطس عبرت الجيوش الروسية الحدود البروسية الشرقية قرب مريمپول ؛ وثارت قوات المقاومة الپولندية فى وارسو لاستقبالهم . ولكن فات الروسيين أن يتقدموا لمعاونتهم ؛ ولم يلبث مقاتلة وارسو حتى أبيدوا عن آخرهم بعد أن كافحوا مدة ثلاثة أشهر كفاح المستيئس . ونقل مركز الثقل فى الهجوم السوڤييتى نحو الجنوب . واعتقل ميتشيل ملك رومانيا « الفوهرر Führer » المحلى ببلاده وانضم إلى أعداء الألمان ؛ وسلمت بلغاريا ؛ وحرر المساريشال تيتو وطنه يوغوسلاڤيا . ودخلت الجيوش الحمراء بلاد المجر . (وحرر البريطانيون بلاد اليونان .) .

وفى الشرق الأقصى تمزق شمل الأسطول اليابانى فى معركة الفلبين ، ونزلت الجيوش الأمريكية بإحدى الجزر (لايتى) ؛ وكانت الجيوش البريطانية تدفع باليابانيين إلى الخلف فى بورما ، ولكن ذهابهم كان عسيراً جداً .

وفى شتاء ١٩٤٤ قام الپانزر بآخر هجوم لهم فى التاريخ . فقد هاجمت الأمريكيين فى منطقة الأردن التقليدية فى يوم ١٢ ديسمبر ١٤ فرقة من المشاة ، ١٠ فرق من الپانزر وقوة مجددة من سلاح الطيران الألمانى . فكسروا صفوف الأمريكيين فى

جبهة عرضها ٤٥ ميلا ؛ وفرقوا بين ميمنة الجنرال برادلى وميسرته ، وقطعوا الطريق على الفرقة ١٠١ من الجنود الأمريكيين راكبة الطائرات فى باستونيه على طريق سيدان ؛ وتقدم الألمان ٦٠ ميلا حتى أوشكوا أن يبلغوا نهر الموز ولكنهم ما لبثوا أن أوقفوا عن الزحف ثم دفعوا إلى الخلف . وبعد أكثر من شهر بقليل عادوا إلى حيث كانوا من قبل ، ولم يبق لديهم دبابات ولا طائرات ولا زيت مما كانوا يحتاجون إليه أشد الحاجة .

ومنذ ذلك الحين أصبح انهيار الألمان سريعاً عاجلا . وفى يناير ١٩٤٥ كان الروس اجتاحوا پولندة بأكملها ولتوانيا معها ، ودخلوا سيليزيا ولم يلبثوا حتى أصبحوا على ما لايزيد عن ٣٠ ميلا من برلين . وفى الغرب صمم الألمان على القتال غربى نهر الراين — وهى الكارثة الحاسمة الثالثة فيما يرى إيزنهاور (وكانت الثانية هى فاليز) ؛ فإنهم لم يلبثوا فى الأسبوع الأول من مارس أن سحقوا مرة ثانية ولم يبق لهم من حدود سوى نهر الراين نفسه . وفى فبراير عقد فى يالتا مؤتمر ثان للأقطاب حضره روزفلت وتشرشل وستالين فنسق الخطط للهجوم النهائى وللتسوية السياسية لأوربا والشرق الأقصى — وقد نجح المؤتمر فى الحالة الأولى . والواقع أن المقاومة العسكرية الألمانية كانت ترجع آنئذ إلى إرادة رجل واحد هو أدولف هتلر . وقد فشلت محاولة لا غتياله فى ٢٠ يولية ١٩٤٤ ، وان النازيين ليواصلون المقاومة ما أقام هو على إلقاء خطبه . ولكن أنى له أن يغير مجرى التاريخ ؟ فنى مارس أصبحت الجيوش الغربية تقف على شاطئ الراين ، وحوصر حوض الرور ولم يلبث حتى سقط بمن فيه من مدافعين . ودخل الروس ڤيينا فى ١٣ من أبريل ، ولم ينقض زمن طويل على ذلك حتى طوقوا برلين وبها الفوهرر نفسه ، وتقدم پاتون نحو تشيكوسلوڤاكيا ،وتوقف خارج براج ، وبلغ البريطانيون نهر الإلب . وفى ٢٥ إبريل وعلى نفس ذلك النهر التقت الفرقة ٥٨ الروسية بالفرقة ٦٩ الأمريكية ، وأصبح الريخ مقسوماً إلى قسمين .

وكان المتوقع أن ينسحب هتلر بطريق الجو إلى « طابية » فى جبال الألب بموقع يمكنه أن يقف فيه وقفة أخيرة ، ولكنه لم يفعل ذلك . ذلك أنه ازداد جنونا فى

أيامه الأخيرة وأخذ يغذى خياله حتى النهاية بأوهام وخيالات عن جيوش ألمانية ستتقدم لانقاذه ، فصمم على أن يختم حياته ختاماً ميلودراميا أعنف وأقسى ؛ فبينما كان الروس يشقون طريقهم نحو مكان مخبأه من الغارات فى برلين ، أقدم على الانتحار فى اليوم الأخير من إبريل ومعه إيفابراون . ثم أحرقت جثتاهما بعد ذلك بأمره . وقبل ذلك بيومين اغتال رجال الأحزاب الإيطاليون موسولينى وخليلته وعلقوهما من قدميهما فى الشارع .

وقضى ذلك الخبر على كل مقاومة . وفى اليوم الثانى من مايو سلمت برلين ؛ وكذلك فعلت جميع الجيوش الألمانية بإيطاليا ؛ وبعد يومين نحت نفس ذلك النحو الجيوش الألمانية فى هولندة وشمال غربى ألمانيا والدانيمركة . وفى اليوم السابع وقع الجنرال يودل (Jodl) رئيس هيئة أركان الحرب على صك استسلام تام . ولم يبق من شىء يعمل بعد ذلك بألمانيا سوى تنسيق أعمال الفاتحين . وبينما الحلفاء يجتاحون أرض الريخ ويشهدون بلسن وداخاو وأوشفتز وغيرها من معسكرات الاعتقال ، أدركوا (الحلفاء) أن الروايات التى كانت تروى عن جرائم الألمان ووحشيتهم كانت – على عكس روايات الحرب العالمية الأولى – أقل كثيراً من الحقيقة . لذا لم يظهروا أى ميل إلى الرحمة ، ولما اجتمعوا فى بوتسدام فى ١٧ يولية اتفقوا على تنظيمات اقتصادية وسياسية لألمانيا كانت فيما بعد موضع النقد لأنها تجعل من المحال بعد ذلك أن يصبح ذلك القطر إلا حى فقراء معدمين يتلقى معونة اجتماعية ؛ وفوق هذا ، فإن الفرنسيين الذين احتلوا جزءا من ألمانيا رفضوا التعاون فى تنفيذ تلك الخطط . وكان المؤتمر يضم وجوها غريبة . وكان أحد بناة النصر قد مات عشية وصول الحلفاء إلى نهر الإلب ، وجلس فى مقعد روزفلت رئيس قلق اسمه ترومان . ولم يكن تشرشل جالساً فى بهرة ذلك المؤتمر لأنه اختفى حيث ربط مصيره بمصير المحافظين ، إذ أجريت بالبلاد انتخابات عامة أحلت كلمنت . أتللى زعيم حزب العمال محله فى رياسة الوزارة . وبقى ستالين وحده صامداً لم يُعزل ، صامتاً لايعرف ما يجول بخاطره . ولكن لم يظهر حتى آنذاك خلاف خطير . أجل إن الروس كانوا يبدون شيئاً من الممالأة والإيثار للأحزاب الشيوعية بالبلاد التى احتلوها – (وهو

أمر منطقى ومتوقع) ، ولكنهم لم يلغوا الأحزاب الأخرى . وفوق هذا ، اتخذت خطوة عظيمة فى سبيل الوحدة وافقت عليها الشعوب طرا ، وهى توقيع خمسين دولة ميثاق الأمن العالمى بمدينة سان فرانسسكو فى ٢٠ يونية . ولتهدئة روع كل من السوڤييت ومجلس الشيوخ الأمريكى أُدخل فى المنظمة الجديدة حق الڤيتو للدول العظمى .

ولكن لئن لم يكن هناك قتال ينبغى القيام به بألمانيا ، إلا أن الحرب لم تنته مع ذلك . ذلك أن الدراما التى مثلت فى أوربا قد أبعدت عن المسرح مشاهد النضال فى الشرق الأقصى ، إذ بلغت المرارة بنفس القوات المحاربة فى بورما أن أسمت نفسها : « الجيش المنسى » . وكانت الجيوش البريطانية والهندية فتحت من جديد الطريق البرى إلى الصين فى يناير ؛ وتيسر لها فى مارس فتح ماندلاى وانتقل الجنود البورمانيون غير النظاميين بقيادة أنج سان من جانب اليابانيين إلى صفوف الحلفاء ؛ وفى ٥ مايو فتحت رانجون وحررت بورما . وفى المحيط الباسيفيكى وجدت جيوش الولايات المتحدة البرية والبحرية أن القضاء على الأسطول اليابانى لم يؤثر بأى حال فى القتال المرير الذى كانت الجيوش البرية اليابانية تدافع به عن الجزر الحيوية الأهمية فى الباسيفيكى . ولم يتم تحرير الفلبين إلا فى ٥ يولية . فإن الذادة عن إيووچيما ظلوا يحاربون من ١٩ فبراير إلى ١٥ مارس ، وظل المدافعون عن أوكيناوا ، وهى جزيرة قريبة من اليابان قرباً خطراً يقاتلون باستهانة تكاد تصل إلى الجنون من أول إبريل وصمدوا فى موقفهم قرابة الثلاثة أشهر . ذلك أنه يظهر أن اليابان كان متبقياً لديها فائض ضخم من الطاقة وأن إعلان الروسيا الحرب عليها كان موضع الترحاب لديها .

ولكن الواقع أن اليابان كانت منهكة أكثر كثيراً مما بدا عليها ظاهرياً ، ولم تلبث حين وجه إليها أشد أنواع « الأسلحة الحديثة المروعة أن استسلمت استسلاماً مباغتاً . وكان العالم أينشتين وغيره من العلماء حذر الحلفاء منذ البدايات الباكرة للحرب مما يحاول النازيون فعله ، فأخذ الحلفاء يحاولون « تفتيت الذرة » لكى يطلقوا عقال أقصى ما فى هذا العالم من طاقة . وأخذ العلماء الأمريكيون والكنديون والبريطانيون يعملون فى تلك المسألة ، وفى اليوم السادس عشر من يوليو فجرت

بنجاح أول « قنبلة ذرية » بصحراء ولاية نيومكسيكو . والواقع أن استخدام هذه الآلة الجهنمية كان يتوقف على الرئيس الأمريكي الجديد . وفى النهاية استقر رأيه إلى أنه ربما كان فى الإمكان استحياء مئتى ألف نفس أمريكية كما قال الرئيس ذلك فيما بعد لو استخدمت تلك القنبلة ، بل ربما كان فى استخدامها الابقاء على عدد آخر أكبر من أبناء الأمم الأخرى . وفى ٦ أغسطس سقطت على ميناء هيروشيما اليابانية قنبلة ذرية بعد إنذار شكلى عاجل . ويمكن القول بصفة إجمالية أن تلك القنبلة دمرت المدينة بأكملها وقضت على كل كائن حى بها . وبعد ذلك بثلاثة أيام أُسقطت على نجازكى قنبلة مماثلة فأحدثت نفس النتيجة . (وقد أعلن الروس فى المدة بين القنبلتين الحرب على اليابان ودخلوا منشوريا ، وكأنى بتلك الفعلة أصبحت آنذاك مسألة صغيرة الأهمية .) وفى ١٤ أغسطس سلم الإمبراطور اليابانى دون قيد ولا شرط ، وفى اليوم التالى أعلن المستر ترومان والمستر أتللى أن يوم النصر على اليابان «V.J Day» يوم انتهاء الحرب العالمية الثانية ، يمكن الآن الاحتفال به رسمياً .

٢ – مستقبل البشرية

مهما يكن مصير البشرية ، فليس ثم مجال للشك فى أن الوصول إلى توحيد البشرية كلها فى اتحاد فدرالى ، فضلا عن قيام قدر كاف من العدالة الاجتماعية ، إبتغاء تأمين الصحة والتعليم وضمان قدر لابأس به من تكافؤ الفرص لمعظم الأطفال المولودين فى هذا العالم ، سيؤدى إلى إطلاق الطاقة البشرية وزيادتها بصورة تفتح دوراً جديداً فى التاريخ البشرى . وعندئذ لابد أن يتوقف ذلك الخسار الهائل ، الذى يعود إلى ما يدور بين الدول الكبرى من إضرار متبادل ، فضلا عن الخسار الأضخم كثيراً ، الراجع إلى قلة إنتاج جماهير غفيرة من الناس ، الذين يقصرون عن الغاية إما لشدة ثرائهم حتى ليعوزهم الدافع المثير وإما لشدة إدقاعهم حتى لتعوزهم الكفاية . وعندئذ لابد أن تحدث زيادة ضخمة جداً فى إنتاج حاجيات البشرية الضروية وارتفاع فى مستوى المعيشة وفى أفكار الناس حول ما يعتبر ضرورياً من الضروريات وتطور فى النقل وكل نوع من أنواع اليسر والجمام ؛ وعندئذ لابد أن

ينتقل جمهور غفير من الناس من مرتبة الانتاج الخفيض الدرجة إلى صنف أعلى من العمل مثل الفنون على اختلاف أنواعها والتعليم والبحث العلمى وما ماثلها . ولابد أن يعم العالم عندئذ فكاك لعقال الطاقة البشرية ، على صورة لم تحدث إلى اليوم إلا فى مواطن صغيرة فقط وعن طريق أدوار صغيرة وثمينة من الأمنة والرغد . فما لم نفترض أنه قد حدثت فى الماضى انبجاسات تلقائية أنتجت مجموعة من الإنسان السوبرمان ، فإن من المعقول أن نستنتج أن أثينة بركليس وفلورنسة آل مديتشى وانجلترة إليزابث وأعمال أسوكا العظيمة وعهدى تانج ومنج فى الفنون ، إن هى إلا عينات لما يمكن أن ينتجه على الدوام وبصورة مجتمعة مكدسة عالم ترفرف على ربوعه كلها الطمأنينة المستمرة . ولا شك أن التاريخ يبرر هذا الشىء الذى نتوقعه ، وذلك دون اللجوء إلى افتراض حدوث أى تغيير فى الصفات البشرية ، اللهم إلا مجرد إفلاته من النظام الحاضر القائم على الخسار المتجاوز كل حد .

وقد شهدنا بأنفسنا كيف أنه حدث منذ ساعة تحرير الفكر البشرى فى القرنين الخامس عشر والسادس عشر ، أن عدداً قليلا نسبياً من رجال أذكياء طُلَعَةٍ ظهروا بخاصة فى أوربا الغربية ، قد أنتجوا رؤى عن العالم وقدرا من العلوم تحدث الآن انقلاباً ثورياً فى الحياة من ناحيتها المادية . وقد كان هؤلاء الرجال يعملون فى معظم الحالات تلقاء تثبيط ضخم للهمم وإقتار فى المال ومساعدة أو مساندة ضئيلة من سائر البشرية . ومن المحال على المرء أن يعتقد أن هؤلاء الرجال هم أقصى ما أمكن جيلهم انتاجه من محصول . فإن انجلترة وحدها لا بد أنها أنتجت فى القرون الثلاثة الأخيرة عشرات من النوابغ مثل نيوتن لم يتعلموا القراءة قط ومئات من أضراب دالتون وداروِن وباكون وهاكسلى — ماتوا جميعاً أقزاماً فى بيئات الفقر والجهل العفنة ، أو لم يحصلوا قط على فرصة لإظهار مواهبهم .

ولابد أن العالم كله كان مشحوناً بآلاف من أشخاص كان يمكن أن يكونوا باحثين من الطراز الأول أو فنانين ممتازين أو مفكرين ذوى عقول خلاقة لم يتح لهم قط بصيص من الإلهام ولا فلذة من فرصة مقابل كل فرد واحد من أولئك الذين تركوا أثرهم فى العالم عميقاً محفورا . وكم مات فى الحروب القريبة من ألوف من

العظماء « قوة » غادروا هذا العالم يسرا لم يتم له ازدهار . ولكن العالم لو أتيح له بارقة سلام دولى وطيد الأركان وبادرة عدالة اجتماعية ، لابد أن يتصيد الكفايات بشبكة دقيقة من التعليم العام الانتشار ، وربما جاز له أن يتوقع الحصول على محصول يفوق كل مقارنة بأى محصول آخر من الرجال الأكفاء اللامعين الذين شهدهم العالم فى أى حقبة من تاريخه .

ولعمرى إن اعتبارات مماثلة لهذه هى التى تبرر تركيز الجهود فى المستقبل القريب على إنشاء دولة عالمية جديدة قوامها أكبر من أنقاض ارتباكاتنا الحاضرة . والحرب شىء فظيع ، يزداد على تقدم الزمان فظاعة ورهبة ، بحيث أنه مالم يجد الناس لهم منها مهرباً ، فلابد أن يقضى على الجماعة البشرية ؛ ذلك أن ما تتمخض عنه من الظلم الاجتماعى ومشاهد الكائنات البشرية المصابة والمشوهة يعذب النفس ويثير لواعجها ، ولكن أقوى بواعث العمل السياسى والاجتماعى البناء عند ذوى الأرواح الحائلة لا يكمن فى مجرد الأمل فى تجنب الشرور قدر ما يكمن فى نشوء الفرصة اللازمة للقيام بالمغامرات العظيمة التى يتيحها لجنسنا البشرى القضاء على تلك الشرور . ونحن نبغى إلغاء كثير من ألوان التزيد فى الملكية الخاصة مثلما قد نرغب فى إلغاء حارس أبله يمنعنا من الدخول إلى مرسم يمكن الداخل إليه القيام بأشياء ممتازة .

ومن الناس من قد يتصوورون أن قيام نظام عالمى وقانون وعدالة شاملين لابد أن ينهيا المغامرة البشرية . والواقع أنه أمر لا يزيد عن أن يبدأ تلك المغامرة . ولكن بدلا من مغامرة الماضى ، تلك القصة « الرومانسية » لعالم السينما توغراف القائمة على التكرار الدائم للتفاعلات المبتذلة للجنس (Sex) والعراك وتصيد الذهب ، ستكون المغامرة ارتيادا لا نهاية له على حافة الخبرة . فكأن هناك رجلا ظل حتى حين قريب يعيش فى أحد الأحياء الفقيرة ، يتنقل بين ما تحفل به من ألوان الشجار والانتقام والغرور والمعرة والدنس والرغبات الحارة والشهيات الحادة . ولم يكد حتى اليوم يتذوق للهواء النقى الحلو طعماً ، ولا عرف للحريات الضخمة فى الحياة ، التى وسع العلم آفاقها له .

ومن أجمل التأملات التى قد يرتأيها الفرد منا تصوره صورة ما للحياة الأرحب أفقا التى تفتح وحدة العالم رتاجها على مصراعيه . ولا بد أن الحياة ستمضى عندئذ مدفوعة بدافع أقوى ، وستتنفس أنفاساً أعمق وأقوى ، وذلك لأنها عند ذاك تكون قضت على مئات من صنوف العدوى التى تصيب العقل والجسم والتى تلسعه اليوم بلسعات المرض والعجز والفاقة . وقد سبق أن شددنا التأكيد على أن الكدح قد أزيل من الحياة الإنسانية بدرجة كبيرة بسبب إيجاد نوع آخر من الرقيق : هو الآلات . وسيرفع هذا عن كاهل أطفالنا ومعه عوامل أخرى منها اختفاء الحرب وتوطئة أكناف ما لا حصر له من القيود والمنازعات بفضل الترتيبات الاجتماعية والاقتصادية الأكثر عدلا ، — عبء العمل المتعب والعمل الروتينى ، وذلك العبء الذى بذله الإنسان وما زال يبذله منذ ظهور فجر الحضارات الأولى كى يحصل على الأمن البشرى . وليس معنى ذلك أنهم سيتوقفون عن العمل ، بل أنهم سيتوقفون عن القيام بالأعمال المضنية التى يعملونها بدافع الضغط ، وسيعملون بملء حرياتهم واضعين الخطط وصانعين ما يشاءون وخالقين ما يستطيعون خلقه ، كل حسبما تهيىء له قدراته وغرائزه . ولن يعودوا يقاتلون الطبيعة على طريقة أصحاب الفأس والمحراث الأغبياء فى قديم الزمان ، وإنما هم مقاتلوها التماسا لفتح عظيم يفتحونه . وكل ما فى الأمر أن انعدام الروح فيما يحيق بنا من اكتئاب فى عصرنا الراهن يعمى بصائرنا عن الإشارات الواضحة التى تشير بها إلينا عقولنا ، وهى التى ترسم لنا أنه لن تنقضى بضعة أجيال حتى تصبح كل مدينة ريفية صغيرة أثينا جديدة ، وحتى يصبح كل كائن بشرى رقيقاً فى تربيته ، صحيحاً فى جسمه وعقله ، وحتى تصير كتلة الأرض كلها منجماً للإنسان ومصدر إنتاج وثروة وأقصى مناطقها بعداً مستزادا له وملعباً .

وقد جهدنا فى هذه « المعالم » أن نبين للقارئ نظامين عظيمين للتطور يتفاعلان أحدهما مع الآخر فى قصة الجماعة البشرية . فقد شهدنا الثقافة المتأخرة للعصر الحجرى الحديث تتمخض فى المناطق الرسوبية الدفيئة من العالم عن الحضارات الأولية العظيمة ، وهى نظم كانت تربة خصيبة لنمو الإخضاع والطاعة وتكاثرات ضخمة

لأناس مجدين أذلاء . وأوضحنا العلاقة الضرورية بين هذه الحضارات القديمة وبين المعابد الباكرة وبين الآلهة الملوك والملوك الآلهة . وترسمنا فى الوقت نفسه خطى التطور ابتداء من مستوى بسيط للعصر الحجرى الحديث الذى عاشت فيه الشعوب المتجولة ، التى أصبحت الشعوب المترحلة ، ترسمناها فى تلكم الجماعات الضخمة : الشعوب الآرية النوردية والشعوب الهونية المغولية فى الشمال الغربى والشمال الشرقى كما شهدنا الساميين سكان الصحارى العربية . وقد تحدث تاريخنا عن غمر هذه الشعوب الأشد مراساً والأجرأ قلباً والمتحررة روحاً ساكنة السهوب والصحارى ، غمراً متكرراً ومنعشاً للحضارات السمراء أصلا . وأوضحنا كيف أن هذه الانسيابات المتكررة على الدوام لهؤلاء المترحلين غيرت على الدوام كلا من روح الحضارات البدائية القديمة ودمها ؛ وكيف أن أقاليم العالم فى هذه الأيام ومانسميه الآن باسم الديمقراطية ، وما نشهده من شدة جرأة البحث العلمى الحديث والقلق العام المنتشر فى الدنيا ، ترجع كلها إلى « صبغ » الحضارة بهذا الصباغ الترحلى . واليوم تدمرت قوة التقاليد . أجل إن قوام حالتنا الراهنة لا يزال هو الحضارة ، ولكن روحها هى روح العالم المترحل . هى روح السهول العظيمة والبحار العليا .

ونتيجة لهذا كله يصبح من العسير علينا أن نقاوم الاقتناع بأنه ما يكاد قانون واحد يسرى فى الأرض وتكف حدة التوترات على الحدود عن إقلاق بالنا ، حتى تحدث أثرها فينا تلك الحاجة الماسة فى طبيعتنا التى تحركنا فى الربيع والخريف أن ننهض للسفر والرحلة . وسيكون منا السميع المطيع لما ركب فى دمائنا من دعوة مراعى الصيف ومراعى الشتاء ، ودعوة الجبال والصحراء والبحر . ومنا أيضاً من قد يكون من سلالة أخرى وتجيئه دعوة الغابة ، ومنا من يميل إلى الصيد صيفاً ويعود إلى الحقول تلبية لدعوة المحصول والحراث . ولكن ليس معنى ذلك أن الناس سيصبحون عندئذ مشردين بغير مأوى منساقين دوما بدافع النقلة والتحرك . إذ أن حياة الترحل السوية ليست حياة قوم عديمى المأوى ، وإنما هى حياة قوم يتنقلون بين مأوى مختلفة . فإن شعب القلموق يعيش فى هذه الأيام كطه الخطاف [illegible] كل عام ألف ميل من مأوى لهم إلى آخر . وفى اعتقادنا [illegible]

التالى الجميلة المريحة ستمر عليها مواسم تعج فيها بالحياة ومواسم تغط أثناءها فى النوم . وستمر بالحياة آناء مد وآناء جزر يمتلىء فيها كل إقليم أو يُصفر على حال موسمية بقدر ما يزداد الاهتمام بذلك الإقليم أو يفتر .

ولكن يكون فى هذا العالم الأحسن نظاماً إلا القليل من الكدح العسيف . إذ أن العسيف الكادح للناس جميعاً سيكون قوى الطبيعة ملجّمة فى الماكينات . فأما ماكان من صنوف الكدح لا مندوحة منه ، فسيتم فى صورة خدمة وأداء واجب لمدة بضعة سنوات أو أشهر تقتطب من حياة كل فرد ؛ وإذن فلن يستنفد ولا يحقر حياة أى فرد بأكملها . ولن يقتصر الأمر على الكادحين العسفاء فقط ، بل إن أنواعاً عديدة أخرى من الناس وطرائق أخرى كثيرة للعيش تبدو اليوم ضخمة ضخامة غير عادية فى الخطة الاجتماعية الجارية ستضوى أهميتها بحكم الضرورة أو تزول من الوجود زوالا تاماً ؛ مثال ذلك أن المقاتلين المحترفين سيكونون قلة أو ينعدمون تماماً وسيزول من الوجود موظفو الجمارك ؛ ولا بد أن يتهيأ للعدد الضخم الذى سيصير إليه المعلمون إلغاء شطر ضخم من قوات الشرطة وشطر آخر ضخم من موظفى السجون ، وستصبح دور المجانين نادرة أو منعدمة تماماً ؛ وسيعم العالم كله نظام صحى شامل يقلل من عدد المستشفيات والممرضات والمشرفين على غرف المرضى وما إلى ذلك ؛ وستعم الدنيا أجمع عدالة اجتماعية وينقرض منها كل عالة تعيش عائمة على بحر المجتمع كالغشاشين والمحتالين والمقامرين والمحتكرين والمتطفلين والمضاربين بصفة عامة . ولكن عالم الأيام المقبلة لن تنقضى فيه المغامرة ولا الرومانس ، كما أنه سيحدث مثلا أن مصايد الأسماك فى البحار وتلك الثورات التى تحدثها البحار بلا نهاية ستدعو طرزها الخاصة القوية من الرجال ؛ كما أن أطباق الهواء العليا ستجأر مطالبة بالرجولة التى تجرؤ على اختراقها ، فضلا عن زئير الأماكن الخفية العميقة الخطرة للطبيعة بالدعوة والطلب .

وسيلتفت الناس ثانية لعالم الحيوان باهتمام مجدد . فإن أيامنا هذه المضطربة تجرى فيها مذابح غبية لا سبيل إلى ضبطها تنزل أضرارها بأنواع الحيوان — وترى بعض الدوائر أنها شىء أكثر فجيعة من التعاسات الانسانية نفسها ، فقد حدث إبان القرن

التاسع عشر أن العشرات من أنواع الحيوان أبيدت عن آخرها مع أن بعضها أنواع شائقة جداً ؛ بيد أن من أول ثمرات الدولة العالمية الفعالة قيام حماية أفضل لكل ما يسمى الآن بالضوارى . ومن أعجب الأمور فى تاريخ البشرية أن نشهد ذلك القدر الضئيل الذى تم منذ عصر البرونز فى سبيل استئناس الحياة الحيوانية المحيطة بنا واستخدامها ومصادقتها وتقديرها . ولكن ذلك القتل البحت الغبى الذى يسمونه اليوم باسم الرياضة لابد أن يحل محله فى مجتمع عالم أحسن تعلما تعديل للغرائز البدائية التى تعبر عن نفسها بهذه الطريقة يحولها إلى اهتمام لا بموت الوحوش بل بحياتها ، ويؤدى إلى قيام محاولات جديدة قد تكون أيضاً عجيبة جداً وجميلة جداً لمصادقة هذه المخلوقات الدنيا البائسة القريبة النسب منا والتى لم نعد نخشاها عدوا ، ولا نكرهها منافساً ولا نحتاج إليها عبداً رقيقاً .

. وليس معنى وجود الدولة العالمية والعدالة العامة الشاملة حبس جنسنا البشرى فى إطار نظامى من النظم الجرداء . إذ أن الجبال والبحر ستظل كائنة ، وستظل هناك أدغال وغابات عظيمة تلقى العناية حقا وتقدر أعظم التقدير وتوضع موضع الرعاية والحماية ؛ وستظل السهول العظيمة مبسوطة أمامنا وتخفق فيها الأرياح العاتية . ولكن الرجال سيكفون عن البغض إلى هذا الحد الشديد ، وعن الخوف بهذه الشدة ، وعن الغش والخديعة بمثل هذه الدرجة المستيئسة التى نشهد ؛ وسيحافظون على عقولهم وأجسامهم أنظف وأطهر .

هذا وإن ضم شتات البشرية فى مجتمع واحد لا ينطوى ضمنا على خلق مجتمع واحد متجانس ، بل الأمر على العكس من ذلك أو يكاد ، إذ سيقوم الوضع على استخدام الصفات المميزة الخاصة استخداماً كافياً يكون موضع الترحاب من الجميع فى جو من الفهم . والأخلاق السيئة المنتشرة بين الناس كافة تقريباً فى هذا العصر الذى نعيش فيه هى التى تجعل الشعب لايطيق أخاه من الشعوب . والمجتمع الذى لعلنا نسير صوبه سيكون أشد اختلاطاً ، وأكثر تنوعاً وأكثر امتاعاً وتشويقا من أى مجتمع يوجد الآن ـ وليس معنى ذلك بالضرورة أنه سيكون أكثر تهجينا . ذلك أن

المجتمعات المصوغة على غرار واحد كصناديق بيادق[1] اللعب ، إنما هى شىء يمت إلى الماضى لا إلى المستقبل .

بيد أن من أعسر الأمور وأشدها استحالة على الكاتب ، أن يتصور قيام وضع يعيش فيه قوم أحسن تعليما وأسعد ظروفاً وأكثر حرية وأصح بدنا منه هو نفسه . ومعارفنا فى هذه الأيام من السعة بحيث نعلم يقيناً أن هنالك متسعاً لا نهاية له لادخال التحسين فى كل ناحية تهم البشر . وكل ما يحتاج إليه الأمر إنما هو الجهد الحشدى المشترك والتسامح المتبادل . ولا شك أن ما نرزح تحته من فقر وقيود وأمراض معدية وعسر هضم وما ينشب بيننا من شجار وسوء تفاهم ، إنما هى أشياء يمكن التحكم فيها وإزالة دواعيها بتجميع الجهود البشرية . ولكن معرفتنا بمعنى الحياة وإحساسها لو انعدمت هذه الأشياء تكون ضئيلة جداً لا تزيد عن معرفة مخلوق فقير قذر يعامل معاملة السوء وتتمرد نفسه بالشراسة ، مخلوق ولد وترعرع بين ظهرانى وسط قاس قذر فى شارع خلفى من شوارع أوربا ، — أقول لا تزيد معارفنا عن معرفة ذلك المخلوق بمعنى الاستحمام يومياً وارتداء الثياب الجميلة وارتقاء الجبال التماسا للمسرة والانطلاق إلى أطباق الجو طيرانا وعدم الالتقاء بأى إنسان إلا المهذبين الراقين من الناس والقيام بالابحاث العلميه العميقة أو إنتاج كل ما يسر ويبهج من الأشياء . ولكن اليوم الذى قد تكون فيه هذه الطيبات جميعاً فى متناول الناس كافة قد يكون أقرب كثيراً مما نظن . وكل مرء منا يعتقد فى ذلك يقرب يوم ذلك الزمان الحسن ؛ وكل قلب يفشل دون تلك الغاية يباعد بيننا وبينه .

ولا يستطيع إنسان أن يتنبأ بالمفاجآت ولا خيبات الرجاء التى يدخرها لنا المستقبل . وقبل أن يبدأ هذا الفصل الخاص بالدولة العالمية بداية جميلة فى تاريخ العالم ، فربما احتاج الأمر أن تكتب فصول أخرى لا نتوقعها الآن ، فصول لا تقل فى طولها وامتلائها بالصراع عما أدلينا به إليك عن نمو الدول العظمى ومنافساتها وعن ثورة حكومات القلة الشبيهة بالعصابات . وربما حدثت كفاحات اقتصادية

---

(١) البيدق هو الجندى المصنوع دمية كما فى الشطرنج . [المترجم]

فاجعة ، وملابطات شرسة بين جنس وجنس وبين طبقة وطبقة . وربما حدث أن يعاود أصحاب « المشروعات والمساعي الخاصة » رفضهم تعلم درس بذل الخدمات دون قيام ثورة كارثة أخرى . تلك أمور لا ندرى عنها شيئا ولا نستطيع أن ندلى فيها برأى . وغنى عن البيان أن هذه جميعاً إن هى إلا نوازل لا ضرورة لها ، ولكن ربما كانت نوازل فظيعة وليس منها محيص . والتاريخ البشرى يتحول أكثر فأكثر إلى سباق بين التعليم والكارثة . وفى الماضى كانت الكارثة هى الفائزة على جهد المسيحية لتوحيد العالم ؛ وكانت هى الفائزة على أثر الانقلاب الميكانيكى النازع إلى الوحدة العالمية . ولسنا نستطيع حتى الآن أن نجزم كم من الانتصارات قدر للكارثة أن تحرزه ، وكم من المحصولات الضخمة من حصائد النفوس لا يزال ينتظر الحاصد القاسى . وربما نشأت زيوف وأكاذيب أخرى لم نحلم بها حتى اليوم ، فتمسك بالناس وتزج بهم إلى حين فى ربقة أحد الأنظمة قبل أن تنهار تلك الترهات بين ظهرانى التعاسات والمذابح التى تنزل بالأجيال .

على أنه لابد للعالم من أن يتقدم ولسوف يتقدم على شاكلة ما سواء فى تعثر أو فى سهولة ويسر . وقد سبق لنا أن اقتبسنا فى هذه « المعالم » فيما أدلينا به إليك عن إنسان العصر الحجرى القديم ، وصفاً نقلناه عن المستر ورتنجتون سميث لأعلى درجة وصلت إليها الحياة البشرية فى العالم قبل يومنا هذا بما يقارب الخمسين ألف سنة . لقد كانت حياة أدنى إلى حياة البهائم لا جرم . ورسمنا أيضاً اجتماع الناس لتقديم القربان البشرى قبل يومنا هذا بخمسة عشر ألف سنة . وغنى عن بيان أن ذلك المشهد قاس قسوة لا يكاد يصدقها عقل عند أبناء عصرنا هذا .

ولم ينقض بعد أكثر من خمسمئة سنة على إمبراطورية الأزتيك التى كانت تعتقد أنها لا تعيش مالم تسفك الدماء . وكانت مئات من الضحايا البشرية تموت كل عام بهذه الطريقة فى بلاد المكسيك ، وكان الجسم يقوس كالقوس فوق حجر التضحية الأفقى ، وكان الصدر يطعن بسكين من الزجاج البركانى ، ثم يعمد الكاهن إلى القلب النابض فينزعه من جسم الضحية وهى لا تزال حية . وربما كان قريباً ذلك اليوم الذى لا نعود فيه نأكل قلوب الرجال ، ولو كان ذلك من أجل آلهتنا القومية ؛

وما على القارئ إلا أن يرجع إلى الخرائط الزمنية الباكرة التى قدمناها إليه فى هذا الكتاب ، ليرى المقياس الحق والسمة العارضة لكل الصراعات والجرمانات والتعاسات التى شهدتها الانسانية فى هذه الفترة فترة التغيرات الجرداء المؤلمة والحافلة بالرجاء جملتها فى الحين نفسه .

والتاريخ إنما هو — ولا بد له على الدوام كذلك — من أن لا يزيد على بيان يسجل البدايات . وفى إمكاننا أن نجرؤ على التكهن بأن الفصول التالية التى ستكتب ، ستتحدث وإن تخللتها فواصل طويله فى النكسات والكوارث ، عن إحراز الناس فى النهاية للوحدة السياسية والاقتصادية التى تشمل العالم أجمع . حتى إذا بلغت تلك الغاية ، فلن يكون معناها مرحلة راحة ، ولاحتى مرحلة لالتقاط الأنفاس ، قبل نشوء كفاح جديد وجهود جديدة أعظم كثيراً . فالناس لن يتحدوا إلا لتشديد بحثهم وراء المعرفة والقوة والعيش كشأنهم دائماً فى انتظار المناسبات الجديدة . وعندئذ ستخضع حياة الحيوان والنبات ، والطرائق الغامضة فى علم النفس ، والتركيب الخفى للمادة والأعماق الباطنية لكرتنا الأرضية ، وتسلم أسرارها وتهب عطاياها لفاتحها . والحياة شىء يبدأ باستمرار لايتوقف . « والحياة » عندما تتجمع فى النهاية بزعامة الإنسان ، المعلم الدارس للكون ، وقد تَوحَّد وتنظم وتسلَّح بقوى الذرة الخفية ، وبالمعرفة التى لا تزال اليوم وراء الأحلام ، تلك « الحياة » التى تفتأ تموت أبداً لتولد من جديد أبداً ، والتى تفتأ دائماً أبداً صغيرة ومتشوقة ، — ستنهض عند ذاك على قدميها فوق ظهر هذا الكوكب ، وقفتها فوق كرسى ممهد وتمد سلطانها بين الأنجم الزُّهر .

جـــدول تاريخى

نختم الآن هذه المعالم بتقديم قائمة بالأحداث العظمى من ٨٠٠ ق . م إلى ١٩٦٥م ، ويحسن بالقارئ أن يستحضر أمام ذاكرته فكرة واضحة من التناسب الحقيقى بين الزمن التاريخى والزمن الجيولوجى . ولنقتبس لك الآن فقرة عن كتاب أصدره حديثاً المستر ج . ه . روبنسون : « لكى يتسنى لنا أن نفهم الضوء الذى يعكسه عمر البشرية الضخم على مركزنا الحالى ، وعلاقتنا بالماضى ، وأملنا فى المستقبل ، سنقتبس فى شىء من التعديل (من هنريخ شميت ، أحد تلاميذ هيجل) وسيلة ذكية ماهرة لتمثيل الصورة التاريخية العصرية المرئية . فعلينا أن نتصور أن تاريخ البشرية بأكمله مقسم إلى اثنى عشرة ساعة ، وأننا نعيش فى ظهيرة اليوم الإنسانى الطويل . وعلينا لكى نسلك سبيل القصد والتقدير المريح ، أن نفترض أن الإنسان كان مستقيم العود ومنشغلا بطلب المستحدثات لمدة مئتين وأربعين ألف سنة لاغير . وستمثل كل ساعة من يومنا هذا عشرين ألف سنة ، وتمثل كل دقيقة ثلاثمئة وثلاثين سنة وثلثاً . لقد انقضى ما يربو على إحدى عشرة ساعة ونصفاً لم يسجل فيها شىء . فنحن لا نعرف فيها شخصاً ولا حدثاً ؛ بل الحق أننا لا نتجاوز حالة الاستنتاج ، إذ نقول إن الانسان كان يعيش على الأرض ، ذلك أننا نجد آلاته الحجرية وأجزاء من فخاره ، وبعض صوره التى تمثل الماموث والجاموس البرى (البيزون) . وليس هناك حتى الدقيقة العشرين قبل الساعة الثانية عشرة أى شىء ، ثم تبدأ أوائل آثار المدنيتين المصرية والبابلية . وليس عمر الأدب والفلسفة والعلم الإغريقى التى جرت عادتنا أن نسميها بالقديمة إلا سبع دقائق فقط . وفى الساعة الثانية عشرة إلا دقيقة كتب اللورد باكون كتابه الموسوم « تقدم العلوم » ، ولم تكد تنقضى نصف دقيقة منذ أن بدأ الإنسان لأول مرة يجعل الآلة البخارية تقوم له بعمله » .

والحق أن ذلك مثال فائق لتمثيل زمنى للتاريخ صغير المعيار .

ولا يبدأ التاريخ أن يتسم بدرجة كافية من الدقة لتحديد سنة أية حادثة بالضبط إلا بعد استقرار فترات الأولمبياد الأول وبعد بناء روما .

وحوالى عام ألف ق . م . كانت الشعوب الآرية تستقر فى أشباه جزائر أسبانيا وإيطاليا والبلقان ، وكذلك استقروا فى شمالى الهند ، وكانت كنوسوس قد دمرت من قبل ذلك ، وكانت عصور التوسع المصرية أيام تحتمس الثالث وأمينحوتب (أمينوفيس) الثالث ورمسيس الثانى قد ولت منذ ثلاثة أو أربعة قرون . وكان يحكم فى وادى النيل ملوك ضعفاء .

وكان سرجون الأول (٢٧٥٠ ق . م) صاحب الإمبراطورية الأكادية السومرية ، ذكرى بعيدة فى التاريخ البابلى ، كان أبعد فى التاريخ البابلى من بعد قسطنطين الأكبر عن عالمنا اليوم . وانقضى على موت حامورابى ألف سنة . وكان الآشوريون يحكمون من قبل البابليين الأقل منهم مراسا حربياً . إذ أن تجلاث بلسر الأول استولى على بابل منذ ١١٠٠ ق . م . ولكن لم يقم ثمة فتح دائم ، فكانت آشوريا وبابلونيا لا تزالان إمبراطوريتين منفصلتين . وكانت أسرة تشاو الجديدة تزدهر فى الصين . وكان عمر « ستون هنج » فى انجلترة ألف سنة فى ذلك العصر .

وشهد القرنان التاليان نهضة فى مصر تحت الأسرة الثانية والعشرين ، وانقسام مملكة سليمان العبرانية الصغيرة القصيرة الأجل ، وانتشار الإغريق فى البلقان وجنوبى إيطاليا وآسيا الصغرى وأيام سيادة الإترسك فى وسط إيطاليا . وقد نستطيع أن نبدأ قائمة التواريخ الممكنة التحقيق بالآتى :

ق م

٨٠٠ بناء قرطاجنة

٧٩٠ غزو الإثيوبيين لمصر (تأسيسهم الأسرة الخامسة والعشرين) .

٧٧٦ الأولمبياد الأول

٧٥٣ بناء روما

ق . م

٧٤٥ تجلاث بلسر الثالث يفتح بابلونيا ويؤسس الإمبراطورية الآشورية الجديدة
٧٣٨ مناحم ملك اسرائيل يشترى رحيل تجلاث بلسر الثالث عن بلاده .
٧٣٥ الإغريق يسكنون صقلية
٧٢٢ سرجون الثانى يسلح الآشوريين بأسلحة من الحديد
٧٢١ نقل الإسرائيليين إلى الأسر
٧٠٤ سناحريب
٧٠١ الوباء يدمر جيشه وهو فى طريقه إلى مصر
٦٨٠ إيسارهادون يستولى فى مصر على طيبة من يد الأسرة الخامسة والعشرين الأثيوبية
٦٦٧ ساردانا بالوس
٦٦٤ أبسماتيك الأول يسترد حرية مصر ويؤسس الأسرة السادسة والعشرين (فى ٦١٠) . وقد ساعدته ضد مملكة آشور جنود ليدية أرسلها الملك جيجيس
٦٠٨ نخاو ملك مصر يهزم يوشع ملك يهوذا فى معركة مجدو
٦٠٦ الكلدان والميديون يستولون على نينوى . تأسيس الإمبراطورية الكلدانية
٦٠٤ نخاو يتقدم إلى الفرات وهناك يغلبه نبوخذنصر الثانى
٥٨٦ نبوخذنصر الثانى يحمل اليهود إلى بابل . ويفر منهم كثيرون إلى مصر ويقيمون بها
٥٥٠ قورش الفارسى يخلف سياكسارس
قورش يهزم كرويسوس
بوذا كان يعيش قرابة ذلك الزمان . وكذلك كونفوشيوس ولاهوتسى
٥٣٩ قورش يستولى على بابل ويؤسس الإمبراطورية الفارسية
٥٢٧ مات بيزستراتوس
٥٢٥ غزا قمبيز مصر . مولد إيسكيلوس

ق . م

٥٢١ دارا الأول ابن هيستاسبس يحكم من الدردنيل إلى السند
حملته على بلاد الإسكيذيين
٤٩٥ مولد سوفوكليس
٤٩٠ معركة ماراتون
٤٨٤ مولد هيرودوت . فاز إيسكيلون بأول جائزة له على التراجيديا
٤٨٠ معركتا ترموبيلاى وسلاميس . مولد يوريبيدس
٤٧٩ معركتا بلاتيا ومنكالى تتمان طرد وهزيمة فارس
٤٧٤ الإغريق الصقليون يدمرون الأسطول الإترسكى
٤٧٠ رحلة هانو
٤٦٦ بركليس
٤٦٥ مقتل إجزرسيس .
٤٣٨ هيرودوت يلقى تاريخه فى آثينا
٤٣١ ابتداء حرب البيلوبونيز (حتى ٤٠٤)
٤٢٩ وفاة بركليز . وفاة هيرودوت
٤٢٧ بدأ أرستوفانيس حياته العملية . مولد أفلاطون . وعاش حتى ٣٤٧
٤٠١ تراجع عشرة الآلاف (مع زينوفون) .
٣٩٠ نهب برينوس روما
٣٦٦ بنى كاملّوس معبد الكونكورد
٣٥٩ أصبح فيليب ملكا على مقدونيا
٣٣٨ معركة خايرونيا
٣٣٦ عبرت جيوش مقدونيا إلى آسيا . مقتل فيليب
٣٣٤ معركة جرانيكوس
٣٣٣ معركة إسّوس
٣٣٢ الإسكند بمصر

٣٣١ معركة أربيلا

٣٣٠ مقتل دارا الثالث

٣٢٣ موت الإسكندر الأكبر

٣٢١ قيام شندارچوبتا فى البنچاب . السمنيون يهزمون الرومان هزيمة تامة فى معركة كودين فوركس

٣٠٣ شندراچوبتا يطرد سيلوقوس

٢٨٥ وفاة بطليموس سوتير (المخلص)

٢٨١ غزا بيروس إيطاليا

٢٨٠ معركة هرقلية

٢٧٩ معركة أوسكولوم

٢٧٨ غارة الغالة على آسيا الصغرى ومقامهم بغلاطيا

٢٧٥ بيروس يغادر إيطاليا

٢٦٤ الحرب البونية الأولى . (بدأ أسوكا حكمه فى بهار — حتى ٢٢٧) أول ألعاب للمجالدين بروما

٢٦٠ معركة ميلاى

٢٥٦ معركة إكنوموس

٢٤٦ أصبح شى هوانج تى ملكا على تس ئن

٢٤١ معركة الجزائر الإيجاتية . نهاية الحرب البونية الأولى

٢٢٥ معركة تيلامون . الجيوش الرومانية فى إلليريا

٢٢٠ أصبح شى هوانج تى إمبراطوراً للصين

٢١٩ الحرب البونية الثانية

٢١٦ معركة كاناى

٢١٤ بدأت الحرب الصينية العظمى

٢١٠ وفاة شى هوانج تى

ق م

٢٠٢ معركة زاما

٢٠١ نهاية الحرب البونية الثانية

٢٠٠ — ١٩٧ امتداد الحرب بين روما ومقدونيا

١٩٢ الحرب مع السلوقيين

١٩٠ معركة ماغنيسيا

١٤٩ الحرب البونية الثالثة . (وصول يويه تشى إلى التركستان الغربية)

١٤٦ تدمير قرطاجنة . وتدمير كورنثة

١٣٣ أتالوس يهب برجامة لروما . مقتل تيبريوس جراكوس

١٢١ كايوس جراكوس يُقتل

١١٨ الحرب مع يوجورثا

١٠٦ نهاية الحرب مع يوجورثا

١٠٢ صد ماريوس الألمان

١٠٠ نصر ماريوس . (فوتى يغزو وادى التاريم)

٩١ الحرب الاجتماعية

٨٩ أصبح جميع الإيطاليين مادنين رومانيين

٨٦ وفاة ماريوس

٧٨ وفاة سولا

٧٣ ثورة الأرقاء بقياة سبارتاكوس

٧١ هزيمة سبارتاكوس ونهايته

٦٦ قاد بومبى الجيوش الرومانية إلى بحر قزوين ونهر الفرات . والتقى بالآلانيين

٦٤ مات ميثريداتس البونطشى

٥٣ مقتل كراسوس فى كرهاى . عناصر مغولية مع البارثيين

٤٨ هزم يوليوس قيصر بومبى عند فارسالوس

٤٤ اغتيال يوليوس قيصر

ق . م

٣١ معركة أكتيوم

٢٧ أوغسطوس قيصر زعيما (حتى ١٤ م)

٤ التاريخ الحقيقى لمولد يسوع الناصرى

الحقبة المسيحية

٦ تأسست مقاطعة مويسيا

٩ تأسيس مقاطعة پانونيا . مد الحدود الإمبراطورية إلى الدانوب

١٤ وفاة أوغسطوس ، تيبريوس يصبح إمبراطورا

٣٠ صلب يسوع الناصرى

٣٧ كاليجولا يخلف تيبريوس

٤١ كلوديوس (أول أباطرة الكتائب) ينصبه الحرس البريتورى (الإمبراطورى) على العرش بعد مقتل كاليجولا

٥٤ نيرون يخلف كلوديوس

٦١ بواديكيا تذبح الحامية الرومانية ببريطانيا

٦٨ انتحار نيرون . (جالبا وأوتو وڤيتيلوس أباطره على التعاقب)

٦٩ ڤسباسيان يبدأ الأسرة الموسومة بالفلاڤية

٧٩ تيتوس يخلف ڤسباسيان

٨١ دوميتيان

٨٤ استلحاق شمال بريطانيا

٩٦ نرڤا يبدأ أسرة الأنطو

٩٨ خلف تراچان نرڤا

١٠٢ پان تشاو على بحر قزوين . (الهندوإسكيذيون يغزون شمال الهند)

١١٧ هادريان يخلف تراجان . الإمبراطورية الرومانية فى أعظم مداها .

١٣٧ أنطونيوس بيوس يعقب هادريان

(كان الهندوإسكيذيون فى ذلك الأوان يدمرون آخر آثار الحكم الهلينى فى الهند) .

١٥٠ (فى حوالى ذلك الوقت كان كانيشكا يحكم الهند وقشغر ويرقند وختوتان)

١٦١ ماركوس أوريليوس خلف أنطونيوس بيوس .

١٦٤ بدأ الطاعون العظيم واستمر حتى وفاة ماركوس أوريليوس ١٨٠ ، وعاث فساداً أيضا فى آسيا بأجمعها .

١٨٠ وفاة ماركوس أوريليوس .

(ابتدأ فى الإمبراطورية الرومانية ما يقارب القرن من الحرب والفوضى)

٣٢٠ نهاية أسرة هان . بداية ٤٠٠ سنة من الانقسام فى الصين .

٢٢٦ أردشير الأول (أول شاه ساسانى) يقضى على الأسرة الأرشكية بفارس.

٢٤٢ بدأ مانى تعليمه الناس .

٢٤٧ القوط يعبرون الدانوب فى غارة عظيمة .

٢٥١ نصر عظيم للقوط ، مقتل الإمبراطور ديكيوس .

٢٦٠ استولى سابور الأول ثانى شاه ساسانى على أنطاكية ، وأسر الإمبراطور ڤالبريان ، وقطع عليه أودينائيوس ملك تدمر خط عودته إلى فارس .

٢٦٩ هزم الإمبراطور كلوديوس القوط عند نيش .

٢٧٠ أورليان يصبح إمبراطوراً .

٢٧٢ حملت زنوبيا أسيرة إلى روما . نهاية أمجاد تدمر الوجيزة .

٢٧٥ بروبوس يخلف أورليان .

٢٧٦ القوط فى إقليم بونطش . الإمبراطور پروبوس يضطر الفرنجة والألمانى إلى التراجع .

٢٧٧ مانى يصلب فى فارس .

٢٨٤ دقلديانوس أصبح إمبراطوراً .

٣٠٣ دقلديانوس يضطهد المسيحيين

٣٠٦ قسطنطين الأكبر أصبح إمبراطوراً

٣١١ تخلى جاليريوس عن اضطهاد المسيحيين

٣١٤ قسطنطين يرأس مجلسا مسيحياً فى آرلس

٣٢١ الغارات القوطية الجديدة تصد

٣٢٣ قسطنطين يرأس مجمع نيقيا

٣٣٧ الوندال يحصلون وقد دفعهم القوط ، على الأذن بالمقام فى بانونيا

قسطنطين يعمد وهو على فراش الموت

٣٥٤ مولد القديس أوغسطين

٣٦١ – ٣٦٣ جوليان المرتد يحاول أن يدخل الميثرائية بدل المسيحية

٣٧٩ ثيودوسيوس الأكبر (وهو أسبانى) يصبح إمبراطوراً

٣٩٠ تحطيم تمثال سيرابيس بالإسكندرية

٣٩٢ ثيودوسيوس الأكبر إمبراطورا للشرق والغرب

٣٩٥ وفاة ثيودوسيوس الأكبر .

٤١٠ استولى القوط الغربيون بقيادة آلاريك على روما

٤٢٥ الوندال يستقرون فى جنوب أسبانيا . ويستقر الهون فى بانونيا والقوط فى دالماسيا . القوط الغربيون والسويفى فى البرتغال وشمالى أسبانيا . الإنجليز يغزون بريطانيا

٤٢٩ الوندال بقيادة جنسريك يغزون إفريقية .

٤٣٩ أخذ الوندال قرطاجنة

٤٤٨ بريسكوس يزور آتيلا

٤٥١ آتيلا يغزو بلاد الغاله ويهزمه الفرنجة والألمانى والرومان فى ترويس

٤٥٣ وفاة آتيلا

٤٥٥ الوندال ينهبون روما

١٦١٤م

٤٧٠ إغارة الإفثاليين على الهند

٤٧٦ أودواكر ملك خليط من القبائل التيوتونية ، أبلغ القسطنطينية أنه ليس هناك إمبراطور فى الغرب . نهاية الإمبراطورية الغربية

٤٨٠ مولد القديس بندكت

٤٨١ كلوفيس فى فرنسا . الميروفنجيون

٤٨٣ الكنيسة النسطورية تنفصل عن الكنيسة الأرثوذكسية المسيحية

٤٩٣ ثيودوريك القوطى الشرقى يغزو إيطاليا ويصبح ملك إيطاليا ، ولكنه كان خاضعاً اسماً للقسطنطينية

(ملوك القوط فى إيطاليا . القوط يقيمون فى أراضى خاصة مصادرة بوصفهم حامية)

٥٢٧ چستنيان إمبراطوراً

٥٢٨ طرد ميهراجولا (آتيلا الهندى الافثالى)

٥٢٩ أغلق چستنيان مدارس آثينا ، بعد أن ازدهرت ألف سنة تقريباً .

بلسانيوس (قائد چستنيان) استولى على نابلى

٥٣١ كسرى الأول (أنو شروان) بدأ حكمه

٥٤٣ الطاعون العظيم بالقسطنطينية

٥٤٤ وفاة القديس بندكت

٥٥٣ جستنيان يطرد القوط من إيطاليا . كاسيوهوراس يؤسس ديره

٥٦٥ وفاة چستنيان . فتح اللومبارد معظم إيطاليا الشمالية (تاركين رافنا وروما لبيزنطه) . شتت الأتراك الإفثاليين بالتركستان الغربية .

٥٧٠ مولد محمد عليه الصلاة والسلام

٥٧٩ وفاة كسرى الأول (أنو شروان)

(اللومبارد يسودون إيطاليا)

٥٩٠ الطاعون يحصد الناس فى روما . (جريجورى الأعظم وهو جريجورى الأول — ورؤيا القديس أنجيلو) . بدأ كسرى الثانى (أردشير) حكمه
٦١٠ بدأ هرقل حكمه
٦١٨ بداية أسرة تانج بالصين
٦١٩ كسرى الثانى (أردشير) وبيده مصر وبيت المقدس ودمشق وجيوشه على الدردنيل
٦٢٢ الهجرة النبوية
٦٢٣ معركة بدر
٦٢٧ هرقل يهزم الفرس هزيمة كبرى عند نينوى . مكة وأحزابها تحاصر المدينة تاى تسونج يصبح إمبراطوراً للصين .
٦٢٨ قتل قباذ الثانى أباه كسرى الثانى وخلفه على العرش
٧٢٩ بدأ يوان شوانج رحلته إلى الهند . فتح مكة . (غزوة الفتح) — كتب محمد (ص) إلى جميع حكام الأرض .
٦٣٢ وفاة محمد وخلافة أبى بكر
٦٣٤ خلافة عمر
٦٣٥ تاى تسونج يستقبل المبعوثين النسطوريين
٦٣٦ معركة اليرموك . العرب يستولون على سوريا
٦٣٧ معركة القادسية
٦٣٨ تسليم بيت المقدس لعمر
٦٤٢ وفاة هرقل
٦٤٤ خلافة عثمان
٦٤٥ يوان شونج يعود إلى سنجان
٦٥٥ المسلمون يهزمون الأسطول البزنطى
٦٥٦ مقتل عثمان بالمدينة
٦٦١ مقتل على . خلافة معاوية . (أول خلفاء بنى أمية)

٦٦٨ هاجم الخليفة معاوية القسطنطينية بحراً — أصبح ثيودور الطرسوسى رئيساً لأساقفة كانتربرى

٦٧٥ آخر هجوم بحرى لمعاوية على القسطنطينية

٦٨٧ ناظر القصر پپين الهرستالى يوحد أوستراسيا ونوستريا

٧١١ غزا جيش المسلمين أسبانيا من إفريقية

٧١٦ — ٧١٧ سليمان أخو الوليد وخليفته يفشل فى فتح القسطنطينية . الأسرة الأموية تنحدر عن أوج مجدها

٧٢١ شارل مارتل ناظراً للقصر . ممتلكات الخليفة الوليد الأول تمتد من جبال البرانس إلى الصين .

٧٣٢ هزم شارل مارتل المسلمين عند بواتييه

٧٣٥ وفاة بيده (Bede) الوقور

٧٤٣ الوليد الثانى خليفة — وهو الخليفة الكافر

٧٤٩ خلع بنى أمية . أبو العباس أول خلفاء الدولة العباسية . ظلت آسبانيا أموية ابتداء تمزق الإمبراطورية العربية

٧٥١ پپين يتوج ملكا للفرنسيين

٧٥٥ استشهاد القديس بونيفاس

٧٧١ شارلمان ملكا بمفرده

٧٧٤ شارلمان يفتح لومباردى

٧٧٦ شارلمان فى دالماسيا

٧٨٦ هرون الرشيد خليفة العباسيين ببغداد (إلى ٨٠٩)

٧٩٥ أصبح ليو الثالث بابا (إلى ٨١٦)

٨٠٠ ليو توج شارلمان إمبراطوراً على الغرب

٨٠٢ إجبرت وهو لاجئ إنجليزى ببلاط شارلمان ، يقيم نفسه ملكا على وسكس

٨١١ كروم البلغارى يهزم الإمبراطور نقفور ويقتله

٨١٤ مات شارلمان ، وخلفه لويس التقى .

٨٢٨ أصبح إجبرت أول ملك لانجلترة

٨٤٣ مات لويس التقى وتمزقت الإمبراطورية الكارلوفنجية . لم يكن هناك حتى ٩٦٢ أى تعاقب منتظم لأباطرة الدولة الرومانية المقدسة ، وإن ظهر اللقب على فترات

٨٥٠ فى قرابة ذلك الوقت أصبح روريك وهو شمالى (نورثمان) حاكما لنوفجورود وكييف

٨٥٢ بوريس أول ملك مسيحى للبلغاريا (إلى ٨٨٤)

٨٦٥ أسطول الروس وهم الشماليون (Northmen) يهدد القسطنطينية

٨٨٦ المعاهدة بين ألفرد الإنجليزى وجوثروم الدانمركى توطد قدم الدانمركيين بانجلترة

٩٠٤ أسطول الروسيين (النورثيين) خارج القسطنطينية

٩١١ رولف العداء يوطد نفسه فى نورماندى

٩١٩ هنرى الصياد ينتخب ملكا لألمانيا

٩٢٨ ماروزيا تحبس البابا يوحنا العاشر

٩٣١ يوحنا الحادى عشر بابا (إلى ٩٣٦)

٩٣٦ أوتو الأول أصبح ملكا لألمانيا خلفاً لأبيه هنرى الصياد

٩٤١ الأسطول الروسى يعود إلى تهديد القسطنطينية

٩٥٥ يوحنا الثانى عشر هو البابا

٩٦٠ أسرة صنج الشمالية تبدأ ببلاد الصين

٩٦٢ أوتو الأول ملك ألمانيا يتوج إمبراطوراً (أول الأباطرة السكسون) بيد يوحنا الثانى عشر

٩٦٣ أوتو عزل يوحنا الثانى عشر

٩٦٩ الخلافة الفاطمية المنفصلة تقام بمصر

٩٧٣ أوتو الثانى

٩٨٣ أوتو الثالث

٩٨٧ أصبح هيوكابت ملكا لفرنسا . نهاية الأسرة الكارلوفنجية من الملوك الفرنسيين
١٠١٦ أصبح كانيوت ملكا على انجلترة والدانمركة والنرويج
١٠٣٧ مات ابن سينا البخارى أمير الأطباء
١٠٤٣ الأسطول الروسى يهدد القسطنطينية
١٠٦٦ وليم دوق نورماندى يفتح انجلترة
١٠٧١ انتعاش الإسلام تحت الأتراك السلجوقيين . معركة ملازجرد
١٠٧٣ أصبح هلدبراند بابا (جريجورى السابع) إلى ١٠٨٥
١٠٧٧ هنرى الرابع يقدم التوبة فى كانوسا .
١٠٧٩ مولد بطرس أبيلارد
١٠٨٢ روبرت جويسكارد يفتح دورازو
١٠٨٤ روبرت جويسكارد ينهب روما
١٠٨٧ ـ ١٠٩٩ إربان الثانى بابا
١٠٩٤ وباء
١٠٩٥ إربان الثانى يدعو فى كلبرمونت إلى الحرب الصليبية الأولى
١٠٩٦ مذبحة الحملة الصليبيه الشعبية
١٠٩٩ جودفرى البويونى استولى على بيت المقدس . بسكال الثانى بابا (إلى ١١١٨)
١١٣٨ ازدهار إمبراطورية كن . نقل عاصمة أسرة صنج من نانكين إلى هان تشاو
١١٤٢ وفاة بطرس أبيلارد
١١٤٧ الحرب الصليبية الثانية . تأسيس المملكة المسيحية البرتغالية
١١٦٩ صلاح الدين سلطاناً على مصر
١١٧٧ فردريك باربروسا يعترف بسيادة البابا (إسكندر الثالث) بالبندقية
١١٨٧ استولى صلاح الدين على بيت المقدس
١١٨٩ الحرب الصليبية الثالثة
١١٩٣ مولد ألبرتوس ما جنوس

١١٩٨ وفاة ابن رشد القرطبي الفيلسوف العربي . إنوسنت الثالث بابا (إلى ١٢١٦) ؛ أصبح فردريك الثانى (وعمره أربع سنوات) ملك صقلية تحت وصايته

١٢٠٢ الحملة الصليبية الرابعة تهاجم الإمبراطورية الشرقية

١٢٠٤ اللاتين يستولون على القسطنطينية

١٢٠٦ أسس قطب الدولة الإسلامية بدلهى

١٢١٢ حملة الأطفال الصليبية

١٢١٤ چنكيزخان استولى على بكين

١٢١٥ التوقيع على الماجنا كارتا

١٢١٦ هونوريوس الثالث بابا

١٢١٨ چنكيزخان يغزو خوارزم

١٢٢١ فشل الحملة الصليبية الخامسة وعودتها . وفاة القديس دومينيك (جمعية الدومينيكيين)

١٢٢٥ ميلاد توماس الأكوينى

١٢٢٦ وفاة القديس فرنسيس الأسيسى (جمعية الفرنسيسكانيين)

١٢٢٧ مات چنكيزخان ، وهو يحكم من بحر قزوين إلى المحيط الهادى ، وخلفه إقطاى خان . جريجورى التاسع بابا

١٢٢٨ شرع فردريك الثانى فى الحملة الصليبية السادسة ، واحتاز بيت المقدس

١٢٣٤ أتم المغول فتح إمبراطورية كن بمساعدة إمبراطورية صنح

١٢٣٩ فردريك الثانى يصدر ضده الحرْم للمرة الثانية

١٢٤٠ المغول دمروا كييف . الروسيا تصبح تابعة للمغول

١٢٤١ المغول ينتصرون عند ليجنتز فى سيليزيا

١٢٤٤ سلطان مصر يسترد بيت المقدس . فأدى ذلك إلى الحملة الصليبية السابعة .

١٢٤٥ فردريك الثانى يحرم مرة ثانية . رجال شويز يحرقون قلعة نيوها بسبرج

١٢٥٠ القديس لويس الفرنسي يدفع الفدية . وفاة فردريك الثانى آخر أباطرة أسرة هوهنشتاوفن . فترة خلو العرش الألمانى حتى ١٢٧٣

١٢٥١ أصبح ما نجو خان هو الخان الأعظم . قوبلاى خان حاكما على الصين

١٢٥٨ هولاكو خان يستولى على بغداد ويدمرها

١٢٦٠ أصبح قوبلاى خان خانا أعظم . هزيمة قطبغا بفلسطين

١٢٦١ عاد الروم فاستردوا القسطنطينية من اللاتين .

١٢٦٥ مولد دانتى الليجيرى

١٢٦٦ مولد جيوتو

١٢٦٩ أرسل قوبلاى خان رسالة استعلام إلى البابا على يد الأخوين الكبيرين بولو

١٧٧١ ماركو بولو يبدأ رحلاته

١٢٧٣ رودلف الهابسبرجى ينتخب إمبراطوراً . أسس السويسريون حلفهم الدائم

١٢٧٤ وفاة توماس الأكوينى

١٢٨٠ أسس قوبلاى خان أسرة يوان بالصين . مات ألبرتوس ما جنوس

١٢٠٢ وفاة قوبلاى خان

١٢٩٣ وفاة روجر باكون نبى العلوم التجريبية

١٢٩٤ بونيفاس الثامن يصبح بابا (حتى ١٣٠٣)

١٢٩٥ ماركو بولو يعود إلى البندقية

١٣٠٣ وفاة بونيفاس الثامن بعد اعتداء غليوم دى نوجاريت عليه فى أناجنى

١٣٠٤ ميلاد بترارك

١٣٠٥ كلمنت الخامس بابا

١٣٠٨ وفاة دنس الاسكتلندى (سكوتاس)

١٣٠٩ إقامة البلاط البابوى فى آفينيون

١٣١٨ أربعة من الفرنسسكيين يحرقون بمرسيليا بتهمة الهرطقة

١٣٣٧ وفاة جيوتو

١٣٤٧ وفاة أكام

١٣٤٨ الطاعون العظيم ــ الموت الأسود

١٣٥٨ حروب الفلاحين (الجاكرى) بفرنسا

١٣٦٨ فى الصين سمطت أسرة يوان المغولية وخلفتها أسرة منج (إلى ١٦٤٤)

١٣٦٩ تيمورلنك يتخذ لقب الخان الأعظم

١٣٧٤ مات بترارك

١٣٧٧ عاد البابا جريجورى الحادى عشر إلى روما

١٣٧٨ الصدع الأعظم . إربان السادس فى روما ــ كلمنت السابع فى آفينيون

١٣٨١ فتنة الفلاحين بانجلترة . وات تايلور يقتل بحضرة الملك ريتشارد الثانى

١٣٨٤ وفاة ويكليف

١٣٨٧ مولد فرا أنجليكودى فيزولى

١٣٩٨ بشرهس بتعاليم ويكليف فى براغ

١٤٠٠ مات شوسر

١٤٠٥ وفاة تيمورلنك

١٤١٤ ــ ١٤١٨ مجمع كونستانس . إحراق هس (١٤١٥)

١٤١٧ نهاية الصدع الأعظم . مارتن الخامس بابا

١٤٢٠ ثار الهسّيون . دعا مارتن الخامس إلى حملة صليبية ضدهم

١٤٣١ تبددت حملة الكاثوليك الصليبية أمام الهسين عند دومازليس

اجتمع مجلس بال . مولد ڤيون . مولد مانتنيا

١٤٣٦ اصطلح الهسيون مع الكنيسة

١٤٣٩ أوجد مجمع بال صدعاً جديداً فى الكنيسة

١٤٤٥ اسكشاف البرتغاليين لرأس ڤردى

١٤٤٦ أول الكتب المطبوعة (كوستر فى هارلم)

١٤٤٩ نهاية مجلس بال

١٤٥٢ مولد ليوناردو دافنشى

١٤٥٣ استولى الأتراك العثمانيون بقيادة محمد الثانى على القسطنطينية

١٤٧١ مولد ديورر

١٤٧٣ مولد كوبرنيق

١٤٨٠ خلع إيڤان الثالث غراندوق موسكو طاعته للمغول

١٤٨١ وفاة السلطان محمد الثانى وهو يستعد لغزو إيطاليا . بايزيد الثانى سلطان الأتراك (حتى ١٥١٢)

١٤٨٦ دار دياز حول رأس الرجاء الصالح

١٤٩٢ عبر كولمبس الأطلسى إلى أمريكا . رودريجو بورچيا ، الإسكندر السابع بابا (إلى ١٥٠٣)

١٤٩٣ أصبح ماكسيمليان الأول إمبراطوراً

١٤٩٨ دار ڤاسكودا جاما حول الرأس إلى الهند

١٤٩٩ أصبحت سويسرا جمهورية مستقلة

١٥٠٠ ولد شارل الخامس

١٥٠٩ هنرى الثامن ملكا على انجلترة

١٥١٢ سليم الأول سلطان حتى (١٥٢٠) . اشترى لقب الخلافة . سقوط سودرينى ومكياڤللى بفلورنسا

١٥١٣ ليو العاشر بابا

١٥١٥ فرنسيس الأول ملكا لفرنسا

١٥١٧ ضم سليم مصر إلى أملاكه . لوثر يبسط نظريته فى وتنبرج

١٥١٩ مات ليوناردو دافنشى . الشروع فى رحلة ماجلان حول العالم . كورتيز يدخل مدينة المكسيك

١٥٢٠ سليمان القانونى سلطانا إلى ١٥٦٦ ، وكان يحكم من بغداد إلى بلاد المجر . شارل الخامس إمبراطوراً

١٥٢١ لوثر بمجلس الدايت فى ورمس . جرح ليولا فى بامبلونا

١٥٢٥ بابر فاز بمعركة بانيبات وفتح دلهى ، وأسس الإمبراطورية المغولية

١٥٢٧ الجنود الألمانية بإيطاليا بقيادة كونستابل بوربون ، تستولى على روما وتنهبها

١٥٢٨ مولد بول الڤيرونى

١٥٢٩ سليمان يحاصر ڤيينا

١٥٣٠ غزا بيزارو بيرو . توج البابا شارل الخامس . بدأ هنرى الثامن خلافه مع البابوية

١٥٣٢ استولى التعميديون على مونستر

١٥٣٥ سقوط حكم التعميديين فى مونستر

١٥٣٩ تأسست جمعية يسوع (اليسوعيين)

١٥٤٥ اجتمع مجلس ترنت (إلى ١٥٦٣) لينظم الكنيسة

١٥٤٦ وفاة مارتن لوثر

١٥٤٧ إيڤان الرابع (الرهيب) اتخذ لقب قيصر الروسيا . توفى فرنسيس الأول

١٥٤٩ وصلت أول البعثات اليسوعية إلى أمريكا الجنوبية

١٥٥٢ معاهدة باساو . تهدئة مؤقتة لألمانيا

١٥٥٦ تنازل شارل الخامس عن العرش . أكبر يصبح المغولى الأعظم (إلى ١٦٠٥) . مات إغناطيوس ليولا

١٥٥٨ وفاة شارل الخامس

١٥٦١ مولد فرنسيس باكون (لورد ڤريولام)

١٥٦٣ نهاية مجلس ترنت وإصلاح الكنيسة الكاثوليكية

١٥٦٤ مولد شكسبير

١٥٦٦ مات سليمان القانونى

١٥٦٧ ثورة الأراضى المنخفضة

١٥٦٨ إعدام الكونتين إجمونت وهورن
١٥٧٣ حصار ألكمار
١٥٨٣ حملة السير والتر رالى على ڤرچينيا
١٦٠٣ چيمس الأول ملكا لانجلترة واسكتلندة
١٦٠٥ المغولى الأعظم چهان جير
١٦٠٦ تأسيس شركة ڤرچينيا
١٦٠٩ استقلال هولندة
١٦١٨ ابتداء حرب الثلاثين سنة
١٦٢٠ حملة الماى فلاور تؤسس نيوبليموث . أول أرقاء زنوج ينزلون چيمس تون (ڤرچينيا)
١٦٢٥ شارل الأول ملك انجلترة
١٦٢٦ توفى السير فرنسيس باكون (لورد ڤريولام)
١٦٢٨ شاه چهان يصبح المغولى الأعظم . « التماس الحقوق » الانجليزى
١٦٢٩ شارل الأول ملك انجلترة يبدأ حكمه أحد عشر عاما بلا برلمان
١٦٣٢ لى يوئن هوئك يولد . مصرع جوستاف أدولف فى معركة لوتزن
١٦٣٤ مقتل والنشتين
١٦٣٨ إقفال اليابان فى وجه الأوربيين (حتى ١٨٦٥)
١٦٤٠ عقد شارل الأول ملك انجلترة البرلمان الطويل
١٦٤١ مذبحة الإنجليز بإرلندة
١٦٤٣ بدأ لويس الرابع عشر حكما دام اثنتين وسبعين سنة
١٦٤٤ أنهى المانشو أسرة منج
١٦٤٥ هدم حظائر الخنازير بالمدينة الداخلية من ليبزج
١٦٤٨ معاهدة وستفاليا . وبها اعترف بهولندة وسويسرة جمهوريتين حرتين وأصبحت بروسيا دولة هامة . ولم تتح المعاهدة نصراً نهائيا للتاج الإمبراطورى ولا للأمراء

حروب الفروند ، وانتهت بنصر التاج الفرنسى نصراً كاملا

١٦٤٩ إعدام شارل الأول ملك انجلترة

١٦٥٨ أورانغزيب المغولى الأعظم . مات كروم ويل

١٦٦٠ شارل الثانى ملك انجلترة

١٦٧٤ أصبحت نيو أمستردام بريطانية نهائياً بمعاهدة ، وسميت نيويورك

١٦٨٣ آخر هجوم تركى على ڤيينا يهزمه حنا الثالث ملك بولندة

١٦٨٨ الثورة البريطانية . فرار چيمس الثانى . بدأ وليم ومازى حكمهما

١٦٨٩ بطرس الأكبر قيصر الروسيا (حتى ١٧٢٥)

١٦٩٠ معركة بوين (Boyne) بارلندة

١٧٠١ فردريك الأول أول ملك لبروسيا

١٧٠٧ وفاة أورانغزيب . إمبراطورية المغولى الأعظم تتفتت

١٧١٣ مولد فردريك الأكبر ملك بروسيا

١٧٣٣ أسس أوجلى ثورب ولاية چورچيا

١٧٣٦ أغار نادر شاه على الهند . (بداية عشرين عاماً من الفوضى والغارات بالهند)

١٧٤٠ ارتقاء فردريك الأعظم عرش بروسيا

١٧٤٠ بدأت ماريا تريزا حكمها . (ولأنها امرأة لم تصبح إمبراطورة . وأصبح زوجها فرانسوا الأول إمبراطوراً بعد ١٧٤٥ حتى وفاته فى ١٧٦٥ عندما خلفه ابنها چوزيف الثانى)

١٧٤١ بدأت قيصرة الرسيا إلزابيث حكمها

١٧٥٥ — ١٧٦٣ بريطانيا وفرنسا تتقاتلان على أمريكا والهند . وفرنسا تتحالف مع النمسا والروسيا ضد بروسيا وبريطانيا (١٧٥٦ — ١٧٦٣) ، حرب السبع سنوات .

١٧٥٧ معركة بلاسى

١٧٥٩ استولى الجنرال ولف البريطانى على كويبك

١٧٦٠ چورچ الثالث ملك بريطانيا

١٧٦٢ وفاة الإمبراطورة إليزابيث الروسية . مقتل القيصر بول ، وتولى كاترين العظمى عرش الروسيا (إلى ١٧٩٦)

١٧٦٣ صلح باريس ، والتنازل عن كندا لبريطانيا . بريطانيا تسود الهند

١٧٦٤ معركة بوكسار

١٧٦٦ مولد مالثوس

١٧٦٩ مولد نابليون بونابرت

١٧٧٤ بدأ لويس الرابع عشر حكمه . انتحار كليف . بدء الحركة الثورية الأمريكية

١٧٧٥ معركة لكسنجتون . مولد ترنر

١٧٧٦ إعلان الاستقلال بالولايات المتحدة الأمريكية

١٧٨٠ نهاية حكم ماريا تريزا . خلفها الإمبراطور چوزيف (١٧٦٥ إلى ١٧٩٠) فى ممتلكات آل هابسبرج الموروثة

١٧٨٣ معاهدة الصلح بين بريطانيا وبين الولايات المتحدة الأمريكية الجديدة . إطلاق سراح كواكو بماساشوستس

١٧٨٧ مؤتمر فيلادلفيا الدستورى يقيم حكومة الولايات المتحدة الاتحادية . تبين أن فرنسا مفلسة . جمعية الأعيان

١٧٨٨ الكونجرس الاتحادى الأول للولايات المتحدة بنيويورك

١٧٨٩ مجلس الطبقات العام الفرنسى يجتمع . هدم الباستيل

١٧٩١ ثورة اليعاقبة . الفرار إلى ڤارن

١٧٩٢ أعلنت فرنسا الحرب على النمسا ، أعلنت بروسيا الحرب على فرنسا . أصبحت فرنسا جمهورية

١٧٩٣ إعدام لويس السادس عشر

١٧٩٤ إعدام روبسبير ونهاية جمهورية اليعاقبة . حكم المؤتمر

١٧٩٥ حكومة الإدارة . أخمد بونابرت ثورة وذهب إلى إيطاليا قائداً عاما

١٧٩٧ دمر بونابرت جمهورية البندقية بمعاهدة كامبوفورميو

١٧٩٨ ذهب بونابرت إلى مصر . معركة النيل

١٧٩٩ عودة بونابرت . أصبح القنصل الأول مع سلطات هائلة

١٨٠٠ الاتحاد التشريعي بين انجلترة وإرلندة ينفذ فى أول يناير ١٨٠١
حملة نابليون على النمسا . معارك مارنجو (فى إيطاليا) وهو هنلندن (وهى انتصار مورو)

١٨٠١ مسودات الصلح بين فرنسا وانجلترة والنمسا توقع

١٨٠٣ بونابرت يحتل سويسرا ، وبذا يعجل بالحرب

١٨٠٤ أصبح بونابرت إمبراطوراً . اتخذ فرانسوا الثانى لقب إمبراطور النمسا فى ١٨٠٥ وفى ١٨٠٦ أسقط لقب إمبراطور الدولة الرومانية المقدسة وبذلك انتهت الدولة الرومانية المقدسة

١٨٠٥ معركة الطرف الأغر . معركتا أولم وأوسترليتز

١٨٠٦ هزيمة بروسيا فى يينا

١٨٠٧ معركتا إيلاو ، وفريدلند ، ومعاهدة تلست

١٨٠٨ جعل نابليون أخاه جوزيف ملكا على أسبانيا

١٨١٠ أصبحت أمريكا الأسبانية جمهورية

١٨١١ انسحب الإسكندر من « النظام القارى »

١٨١٢ تقهقر نابليون من موسكو

١٨١٤ تنازل نابليون عن العرش . لويس الثامن عشر

١٨١٥ حملة واترلو : معاهدة ڤيينا

١٨١٩ أول قانون للمصانع يقره البرلمان بناء على جهود روبرت أوين

١٨٢١ ثورة اليونان

١٨٢٤ شارل العاشر ملك فرنسا

١٨٢٥ نيقولا الأول قيصر الروسيا . أول سكة حديد من ستوكتون إلى دار لنجتون

١٨٢٧ معركة نوارين

١٨٢٩ استقلال اليونان

١٨٣٠ سنة من الفوضى والفتن . عرد لويس فيليب شارل العاشر
انفصلت بلچيكا عن هولندة . أصبح ليوبولد أمير ساكس كوبرج جوثا ملكا
على تلك الدولة الجديدة ، وهى بلچيكا . ثارت بولندة الروسية بغير جدوى

١٨٣٢ قانون الإصلاح الأول ببريطانيا يرجع إلى البرلمان البريطانى السمة الديموقراطية

١٨٣٥ استعمال كلمة « الإشتراكية » لأول مرة

١٨٣٧ الملكة ڤيكتوريا

١٨٤٠ تزوجت الملكة ڤيكتوريا الأمير ساكس كوبرج جوثا

١٨٤٨ سنة أخرى من الفتن . جمهوريات بفرنسا وروما . مؤتمر الجامعة الصقلبية يعقد
فى براغ . ألمانيا كلها تتحد فى برلمان بفرانكفورت . ملك بروسيا يدمر
وحدة ألمانيا

١٨٥١ معرض لندن العظيم

١٨٥٢ نابليون الثالث إمبراطوراً للفرنسيين

١٨٥٤ حملة پرى (Perry) (الثانية) تنزل باليابان . احتل نيقولا الأول ولايات
الدانوب التركية

١٨٥٤ ـ ١٨٥٦ حرب القرم

١٨٥٦ إسكندر الثانى قيصر الروسيا

١٨٥٧ العصيان الهندى

١٨٥٩ الحرب الفرنسية النمسوية . معركتا ماچنتا وسولفرينو

١٨٦١ ڤيكتور عمانويل أول ملك لإيطاليا . أصبح أبراهام لينكولن رئيساً للولايات
المتحدة . ابتدأت الحرب الأهلية الأمريكية

١٨٦٣ أطلق البريطانيون قنابلهم على مدينة يابانية

١٨٦٤ أصبح ماكسمليان إمبراطوراً للمكسيك

١٨٦٥ التسليم فى أوبوماتوكس كورت هوس . فتح أبواب اليابان للعالم الخارجى

١٨٦٦ بروسيا وإيطاليا تهاجمان النمسا (والولايات الألمانية الجنوبية المتحالفة معها)
معركة سادوا

١٨٦٧ مقتل الإمبراطور مكسمليان بالرصاص

١٨٧٠ نابليون الثالث يعلن الحرب على بروسيا

١٨٧١ سلمت باريس (يناير) . أصبح ملك بروسيا هو غليوم الأول إمبراطور
ألمانيا ، صلح فرانكفورت

١٨٧٥ الفظائع فى بلغاريا

١٨٧٧ الحرب التركية الروسية . معاهدة سان استفانو . أصبحت الملكة فكتوريا
إمبراطورة على الهند

١٨٧٨ معاهدة برلين . سلام مسلح بأوربا دام ٣٦ سنة

١٨٨١ معركة تل ماجوبا . تحرير الترنسفال

١٨٨٢ وفاة شارلز داروين

١٨٨٣ احتلت بريطانيا مصر . (وصحة التاريخ ١٨٨٢) . مات كارل ماركس

١٨٨٦ أول قانون للحكم الذاتى الإرلندى يصدره جلادستون

١٨٨٨ الإمبراطور فردريك الثالث (مارس) ثم غليوم الثانى (يونيه) يتوليا
الحكم بألمانيا

١٨٩٠ عزل بسمارك . اللورد سالسبورى يتزل لألمانيا عن جزيرة هليجولند

١٨٩٤ ـ ١٨٩٥ حرب اليابان مع الصين

١٨٩٥ الحكومة الاتحادية (الاستعمارية) ببريطانيا

١٨٩٦ معركة عدوه

١٨٩٨ الخلاف بين فرنسا وبريطانيا على فاشوده . ألمانيا تستولى على كياوتشاو

١٨٩٩ ابتدأت الحرب بجنوب إفريقية (حرب البوير)

١٩٠٠ فتن البوكسر بالصين . محاصرة السفارات فى بيكين

١٩٠٤ غزا البريطانيون التبت

١٩٠٤ ــ ١٩٠٥ الحرب الروسية اليابانية

١٩٠٦ الأحرار يغلبون حزب الاتحاديين (الاستعماريين) فى مسألة التعريفة الجمركية .

١٩٠٧ تأسيس اتحاد جنوب إفريقية

١٩٠٨ ضمت النمسا البوسنه والهرسك

١٩٠٩ طار المسيو بليريو بطيارة من فرنسا إلى انجلترة

١٩١١ أعلنت إيطاليا الحرب على تركيا واستولت على طرابلس

١٩١٢ أصبحت الصين جمهورية . أعلن حلف البلقان الحرب على تركيا

١٩١٣ تهريب الاتحاديين السلاح يترتب عليه سفك الدماء بلندندرى فى إرلندة

١٩١٤ ابتدأت الحرب العظمى الأوربية

١٩١٧ الثورتان الروسيتان . تأسيس النظام البلشفى بالروسيا

١٩١٨ الهدنة (نوفبر)

١٩١٩ ــ ١٩٢٠ معاهدة فرساى

١٩١٩ انسحب البريطانيون من أركانجل . هزيمة دنيكين . أوشك يودينيتش أن يستولى على بطرسبرج ثم انهار . الأسطول الألمانى يخرج ليسلم للبريطانى ولكن يغرقه قواده وضباطه عند سكابافلو

١٩٢٠ أول اجتماع لعصبة الأمم ، التى حظرت على ألمانيا والنمسا والروسيا وتركيا ، والتى لم تمثل فيها الولايات المتحدة . قتل كولتشاك رمياً بالرصاص . بولندة تهاجم الروسيا ، ويغزوها رانجل من الجنوب فيدفع إلى الوراء . رضا باشا يقبض على السلطة فى فارس

١٩٢١ الحلفاء يسيطرون على القسطنطينية . مؤتمر لبحث نزع السلاح البحرى يعقد بواشنطون برئاسة الرئيس هاردنج

١٩٢٢ مجاعة عظيمة بالروسيا . مؤتمر جنوا الذى حضره الألمان والروس . ازدياد الخلل فى المالية الألمانية وعدم مقدرتها على دفع عقوبات الحرب الباهظة .

الانهيار اليونانى العسكرى بآسيا الصغرى . انفصال إرلندة الجنوبية عن بريطانيا العظمى

١٩٢٣ احتلال الفرنسيين لحوض الروهر والانهيار النقدى بألمانيا . إنشاء الرنت مارك

١٩٢٣ بريطانيا العظمى تسترد لعملتها معيار ما قبل الحرب

١٩٢٤ أول حكومة للعمال ببريطانيا . وخلفتها حكومة محافظة فى نوفمبر بعد انتخابات عامة ، توفى لينين . مقتل ماتيوث ، (وهو كاتب إيطالى حر) بيد الفاشست . مشروع داوز لتخفيض ديون الحرب الألمانية

١٩٢٥ الفرنسيون يهاجمهم عبد الكريم بمراكش والدروز فى سوريا . إنشاء الريخ مارك بألمانيا . معاهدة لوكارنو . خلع شاه إيران على يد على رضا خان . رضا خان يصبح شاها

١٩٢٦ الإضراب العام ينجم فى انجلترة عن إغلاق أصحاب العمل مناجم الفحم . الفرنك الفرنسى ينزل دون البنس الانجليزى ولكن هبوطه يوقف ، وتعاد قيمته إلى بنسين بحكومة ائتلافيه ، ألفت لمواجهة الأزمة . هزيمة عبد الكريم

١٩٢٧ هاجمت الحكومة البريطانية إدارة الأعمال التابعة للحكومة الروسية بلندن وقطعت علاقاتها الديبلوماسية مع الروسيا . فشل مؤتمر لنزع السلاح بجنيف

١٩٢٨ المستر كيلوج وزير خارجية الرئيس كوليدج يبتكر مجموعة من المعاهدات بها تتخلى جميع الدول العظمى فى العالم عن الحرب . نشاط لايفتر فى صناعة الأسلحة . إتمام تحويل الجيوش إلى وحدات ميكانيكية والاستفاضة فى دراسة حرب الغازات والبكتريا . بدأ مشروع الخمس سنوات فى الروسيا

١٩٢٩ وزارة العمال الثانية بانجلترة بعد انتخابات عامة . إعادة العلاقات بين انجلترة والروسيا . وفاة شترزمان . أصبح هوفر رئيساً للولايات المتحدة . كانت ظاهرة هبوط الأسعار وتواصل عطالة العمال زادت زيادة واضحة فى كل مكان . مشروع يونغ لتخفيض ديون ا.

١٩٣٠ عقد بلندن مؤتمر لنزع السلاح البحرى وكانت نتائجه تافهة . ظهر فى الريخستاغ الألمانى حزب فاشى جديد قوى بزعامة نمسوى اسمه هتلر . إنشاء بنك التسويات الدولى

١٩٣١ أصبحت أسبانيا جمهورية (أبريل) . اشتدت حدة محنة ألمانيا الاقتصادية ، واقترح الرئيس هوفر أن يعطل دفع ديون الحرب سنة . جاءت الأزمة المالية فى أعقاب ذلك إلى بريطانيا . وحلت محل حكومة العمال ، حكومة طوارىء قومية ، تعهدت بدعم معيار الذهب . ثم تخلت عن تلك الفكرة بعد ثلاثة وعشرين يوماً قضتها فى أوضاع اقتصادية هستيرية . واحتفظ المستر رامساى ماكدونلد رئيس حزب العمال السابق بمنصب رئاسة الوزارة بمهارة تامة طيلة تلك التقلبات السياسية

١٩٣١ رفضت عصبة الأمم أن تأذن بقيام اتحاد جمركى بين ألمانيا والنمسا

١٩٣٢ أنشأت اليابان دولة منشوكو

١٩٣٢ تنظيم الهيئة المالية للتعمير بالولايات المتحدة لاقراض النقود للبنوك وشركات السكك الحديدية والتأمين . إنتخب فرنكلين د . روزفلت (المولود ١٨٨٢) رئيساً للولايات المتحدة عن الديموقراطيين . إعادة انتخاب هندنبرج رئيساً لدولة ألمانيا (١٩ مليون صوت) ؛ هتلر ١٨ مليون ؛ تايلمان (شيوعى) ٣¾ مليون صوت . الزيادة المستمرة بحزب النازى فى ألمانيا . مؤتمر نزع السلاح بجنيف . ألمانيا تترك المؤتمر

١٩٣٣ افتتاح مشروع الصفقة الجديدة . الرئيس روزفلت يقوم باصلاحات اجتماعية واقتصادية بعيدة الأثر . أصبح هتلر مستشاراً للرايخ وصارت ألمانيا دولة نازية . المؤتمر الاقتصادى العالمى بلندن فشل . بدء مشروع الخمس سنوات الثانى بالروسيا . عصبة الأمم تستنكر غزو اليابان جيهول وإنشاء دولة منشوكو الألعوبة . حريق الريخستاغ ببرلين والانقلاب النازى

١٩٣٤ ثبتت قيمة الدولار على ٥٩ ، ٦٠ فى المئة من قيمته عام ١٩٠٠ . إعلان هتلر وموسولينى استقلال النمسا عند تقابلهما بالبندقية . هتلر يطهر بلاده من خصومه السياسيين . النازيون يقتلون دولفوس . وفاة الرئيس فون هندنبرج . أدولف هتلر الزعيم والمستشار . الاتفاق الودى البلقانى ، عقده بين تركيا واليونان وبلغاريا ويوجوسلافيا للاحتفاظ بالحالة الواقعة بالبلقان . دخلت الروسيا عصبة الأمم .

١٩٣٥ المحكمة العليا بالولايات المتحدة تقرر عدم دستورية مشروع التعمير الجديد N.R.A . إنشاء لجنة التنظيم الصناعى (C.I.O) . حصول ألمانيا على منطقة السار باستفتاء . إيطاليا تهاجم الحبشة وتفتحها .

١٩٣٦ إعادة انتخاب الرئيس روزفلت . الجبهة الشعبية تنتخب فى فرنسا ؛ ليون بلوم رئيسا للوزارة . هتلر يعيد تسليح منطقة الراين . الحرب الأهلية فى أسبانيا ، نشوء التمرد بقيادة الجنرال فرانكو بمساعدة ألمانيا ؛ وإيطاليا وحزب المحافظين البريطانى بدرجة من العلانية أقل .

١٩٣٧ فشل الرئيس روزفلت فى محاولته إعادة تنظيم المحكمة العليا . حرب بلا إعلان بين اليابان والصين. تحالف ألمانيا وإيطاليا واليابان على الشيوعية ، الحلف المضاد للكومنترن . جيش الجنرال فرانكو ونجاحه فى شمال أسبانيا . الجيوش الإيطالية تهزم هزيمة فادحة فى جواد الاچارا على يد الجند الموالين . تتويج الملك جورج السادس ملك انجلترة .

١٩٣٨ ألمانيا تضم النمسا . مؤتمر ميونخ (تشمبرلن – دالديبه – هتلر – موسولينى) يعطى ألمانيا جزءاً من أراضى تشيكوسلوڤاكيا ويدمر تحصيناتها .

١٩٣٩ ضمت ألمانيا تشيكوسلوڤاكيا . ضمت إيطاليا ألبانيا . فرانكو يدخل مدريد وبرشلونة – السوڤييت يوقعون حلفا مع النازيين . غزت ألمانيا بولندة . بريطانيا وفرنسا تعلنان الحرب . إنهيار بولندة . ألمانيا والروسيا تقتسمان

أراضيها . الروسيا تمد سلطانها على أستونيا ولاتفيا ولترانيا وتغزو فنلندة نهاية الحرب الفنلندية . ألمانيا تستولى على الدانمركة والنرويج . طرد تشمبرلن ونستون تشرشل يرأس الحكومة القومية الجديدة . الألمان يجتاحون بچليكا وهولندة . دنكرك . سقوط فرنسا ، إيطاليا تعلن الحرب ، حكومة بيتان . معركة بريطانيا . قذف لندن بالقنابل . تشتيت شمل الإيطاليين فى برقة إيطاليا تهاجم اليونان – وتنهزم

١٩٤١ حرب بريطانيا الجوية . البريطانيون يفتحون الحبشة . ألمانيا تفتح يوجوسلافيا واليونان : وترد البريطانيين فى برقة . البريطانيون يهزمون قوات المحور فى العراق وسوريا . هتلر يغزو الروسيا . خسائر الروسيا الفادحة . اليابان تغرق أسطول الولايات المتحدة بالباسيفيكى وتزج بأمريكا فى الحرب . تقهقر الألمان فى برقة .

١٩٤٢ اليابان تفتح الفليبين والملايو وسنغافورة والهند الشرقية الهولاندية والبريطانية . الحرب الجوية على ألمانيا ؛ حرب الغواصات فى الأطلنطى . اليابان تغزو بورما . الوطنيون الهنود يرفضون عرض ستافورد كريبس . طرد البريطانيين من برقة . الألمان ينفذون إلى القوقاز ، ولكنهم يفشلون فى الاستيلاء على موسكو أو ستالينجراد . فشل اليابان فى فتح جزيرة نيوجنى . معركة العلمين : بدء تحطيم الألمان فى ليبيا . الحلفاء ينزلون بشمال إفريقية .

١٩٤٣ صد الألمان وتراجعهم فى الروسيا . الحلفاء يفتحون شمال إفريقية ؛ ويغزون صقلية ويدخلون إيطاليا . سقوط موسولينى . حرب جوية حامية على أوربا . مؤتمر الدار البيضاء .

١٩٤٤ الحلفاء يستولون على روما . غزو نورماندى . طرد الألمان من الروسيا . تحرير فرنسا وبلچيكا . الروس يدخلون رومانيا والمجر .

١٩٤٥ الأمريكيون يفتحون الفلبين : البريطانيون يستردون بورما . وفاة هتلر ؛ تسليم ألمانيا . قنبلتان ذريتان تسقطان على اليابان . تسليم اليابان .

١٩٤٥ إنشاء الأمم المتحدة . إنشاء جامعة الدول العربية .
ميثاق حقوق الإنسان

١٩٤٨ اليهود يحتلون فلسطين وينشئون إسرائيل

١٩٥٢ حريق القاهرة

١٩٥٢ ثورة ٢٣ يوليو المصرية

١٩٥٤ سقوط الملكية وإعلان الجمهورية
بروز الرئيس جمال عبد الناصر على مسرح السياسة العالمية

١٩٥٥ مؤتمر باندونج (١٨ إبريل)

١٩٥٦ إستقلال مصر والجلاء .
سحب تمويل السد العالى وتأميم قناة السويس
الثورة الجزائرية
انسحاب المرشدين الأجانب من العمل بقناة السويس
مؤتمر بريونى الأول
جماعات المنتفعين .
العدوان الثلاثى وحرب السويس .
خروج المعتدين من بور سعيد(٢٣ ديسمبر)
مؤتمر بريونى الثانى .

١٩٥٧ المؤتمر الأسيوى الإفريقى بالقاهرة
حلف الأطلنطى

١٩٥٨ إنشاء الجمهورية العربية المتحدة (وحدة مصر وسوريا)

١٩٥٩ انحراف ثورة العراق عن ركب العروبة

١٩٥٩ ثورة كوبا على يد فيديل كاسترو (يناير)

١٩٥٩ تجارب الأقمار الصناعية الروسية . انتخاب الر
البدء فى إنشاء السد العالى

مشروع السنوات الخمس الأولى فى ج . ع . م
السوق الأوروبية المشتركة
مؤتمر الأقطاب
الحرب الأهلية فى لبنان ونزول القوات الأمريكية

١٩٦١ القرارات الاشتراكية
انفصال سوريا
مؤتمر الدار البيضاء للملوك ورؤساء العرب
مؤتمر بلجراد
مؤتمر القمة الإفريقى بأديس بابا
إنشاء سور برلين
إطلاق سفينة فضاء تحمل رجلاً

١٩٦٢ الخلاف العقائدى بين الصين وروسيا
مؤتمر الدول الإفريقية
استقلال الجزائر

١٩٦٣ استقلال قبرص
مقتل كندى

١٩٦٤ زحف الزنوج على نيويورك
عزل خروشوف
سقوط حزب المحافظين ببريطانيا

١٩٦٤ مؤتمر القمة الأفريقى بالقاهرة
اجتماع الملوك والرؤساء العرب الأول
اجتماع الملوك والرؤساء الثانى
مؤتمر الدول غير المنحازة
انتهاء المرحلة الأولى فى بناء السد العالى

١٩٤٥ – ١٩٦٤ استقلال دول إفريقيا وآسيا :
إندونيسيا – أوغندا – باكستان – بوروندى – تونس – تنجانيقا – زنزبار (تنزانيـا) – جامبيا – الجزائر – جابون – داهومى – السودان – سيراليون – سرازيل – سيلان – ساحل العاج – الصومال – غانا – غينيا – كينيا – ليبيا – نيجيريا – الهند الصينية – ملاوى – المغرب – مالى – ماليزيا – الهند – زامبيا – توجو – موريتانيا .

١٩٦٥ إنسحاب أندونيسيا من هيئة الأمم المتحدة
مؤتمر رؤساء حكومات الدول العربية
مجلس الأمة يرشح الرئيس جمال عبد الناصر لرياسة الجمهورية

كشاف أبجدى للكتاب

(ا)

(ش)

(ص)

(ض)

(ط)

(ع)

(غ)

(ف)

(ل)

(م)

اقـرأ فى هـذه السـلسلة

احلام الاعلام وقصص اخرى	برتراند رسل
الالكترونيات والحياة الحديثة	ى • رادونسكايا
نقطة مقـابل نقطة	الدس هكسلى
الجغرافيا فى مائة عام	ت • و • فريمان
الثقافة والمجتمع	رايموالد وليامز
تاريخ العلم والتكنولوجيا (٢ ج)	ر • ج • فوربس
الأرض الغـامضة	ليستردبل راى
الرواية الانجليزية	والتر ألن
المرشد الى فن المسرح	لويس فارجاس
آلهة مصر	فرانسوا دوماس
الانسان المصرى على الشاشة	د• قدرى حفنى وآخرون
القاهرة مدينة الف ليلة وليلة	اولج فولكف
الهوية القومية فى السينما العربية	هاشم النحاس
مجموعات النقـود	ديفيد وليام ماكدوال
الموسيقى ــ تعبير نغمى ــ ومنطق	عزيز الشوان
عصر الرواية ــ مقال فى النوع الأدبى	د• محسن جاسم الموسوى
ديلان توماس	اشراف س• بى• كوكس
الانسان ذلك الانسان الفريد	جون لويس
الرواية الحديثة	بول ويست
المسرح المصرى المعاصر	د• عبد المعطى شعراوى
على محمود طـه	أنـور المعـداوى
القوة النفسية للأهرام	بيل شول أدنبيت
فن الترجمة	د• صفاء خلوصى
تولســـتوى	رالف ئى ماتلو
ســـتندال	فيكتور برومبير

رسائل واحاديث من المنفى	فيكتور هوجو
الجزء والكل (محـــاورات فى مضـــمار فيرنر هيزنبرج الفيزياء الذرية)	
التراث الغامض ماركس والماركسيون	سدني هوك
فن الأدب الروائى عند تولستوى	ف . ع . أدنيكوف
ادب الأطفال	هادى نعمان الهيتى
احمد حسن الزيات	د. نعمة رحيم العزاوى
اعلام العرب فى الكيمياء	د. فاضل أحمد الطائى
فكرة المسرح	فرنسيس فرجون
الجحيـــم	هنرى باربوس
صنع القـــرار السياسى	السيد عليوة
التطور الحضـــارى للانســـان	جاكوب برونوفسكى
هل نستطيع تعليم الأخلاق للأطفال ؟	د. روجر ستروجان
تربية الدواجن	كاتى ثير
الموتى وعالمهم فى مصر القديمة	ا . سبنسر
النحل والطب	د. ناعوم بيتروفيتش
سبع معارك فاصلة فى العصور الوسطى	جوزيف داهموس
سياســـة الولايات المتحدة الأمريكية ازاء مصر ١٨٣٠ ـ ١٩١٤	د. لينوار تشامبرز رايت
كيف تعيش ٣٦٥ يوما فى السنة	د. جون شندلر
الصـــحافة	بيير البير
اثر الكوميـــديا الالهيـــة لدانتى فى الفــن التشكيلى	الدكتور غبريال وهبه
الأدب الروسى قبـــل الثـــورة البلشـــفية وبعدها	د. رمسيس عوض
حركة عدم الانحياز فى عالم متغير	د. محمد نعمان جلال
الفكر الأوروبى الحديث (٤ ج)	فرانكلين ل . باومر
الفن التشكيلى المعـــاصر فى الوطن العربى ١٨٨٥ ـ ١٩٨٥	شوكت الربيعى

التحليل والتوزيع الأوركسترالى	اعداد محمد كمال اسماعيل
الشاهنامة (٢ جـ)	الفردوس الطوسى
الحياة الكريمة (٢ جـ)	بيرتون بورتر
كتابة التاريخ فى مصر ق ١٩٠	جاك كرابس جونيور
قيام الدولة العثمانية	محمد فؤاد ، كوبريلى
العثمانيون فى أوربا	بول كولز
مختارات من الآداب الآسيوية	اختيار واعداد صبرى الفضل
التمثيل للسينما والتليفزيون	تونى بار
سقوط المطر	نادين جورديمر وآخرون
صناع الخلود	موريس بيربراير
دليل تنظيم المتاحف	آدامز فيليب
كتب غيرت الفكر الانسانى (٣ جـ)	أحمد الشنوانى
الحملة الصليبية الأولى	جوناثان ريلى سميث
رواد الفلسفة الحديثة	ريتشارد شاخت
جماليات فن الاخراج	ريجمونت هيتر
الكنائس القبطية (٢ جـ)	الفريد ٠ ج ٠ بتلر
ترانيم زرادشت	اعداد ٠ د٠ فيليب عطية
النقد السينمائى الأمريكى	ادوارد مرى
الاتصال والهيمنة الثقافية	هربرت شيلر
رحلات فارتيما	الحاج يونس المصرى
التاريخ من شتى جوانبه ٣ جـ	ستيفن أورزمنت
مصر الرومانية	نفتالى لويس
السينما الخيالية	بيتر نيكوللز
السينما العربية من الخليج الى المحيط	اعداد : مونى براح وآخرون

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب

رقم الايداع بدار الكتب ١٩٩٤/٧٥٨٢

I.S.B.N 977-01-4050-3

هذا الكتاب - كما يدل عليه اسمه - موسوعة تاريخية شاملة موجزة للحضارة الإنسانية عبر عصورها ويروي قصتها الأديب الانجليزي الشهير ج.هـ. ويلز. والطبعة العربية من هذا الكتاب سوف تصدر في أربعة أجزاء يتناول الجزء الأول منها نشأة الكون والنظريات العلمية المختلفة التي تفسر تطوره ثم ظهور الإنسان والأجناس القديمة المندثرة، ويعرض لفكر الإنسان البدائي ومعتقداته الدينية ونشأة اللغة وتقسيماتها ثم لأقدم الحضارات في مصر والعراق والهند. أما الجزء الثاني فيعرض للحضارة الإغريقية والهلينستية والرومانية، ولمحة عن تاريخ العبرانيين. أما الجزء الثالث فيعنى بحضارات العصر الوسيط والجزء الرابع يتناول التاريخ الحديث.

٩٢٥ قرشا

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب